

كتاب

في
تاريخ مصر القديم والحديث

لـ

ميخائيل شارويم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بتجارة المالبه الجليله حالا

عنى عنه

الجزء الثانى

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

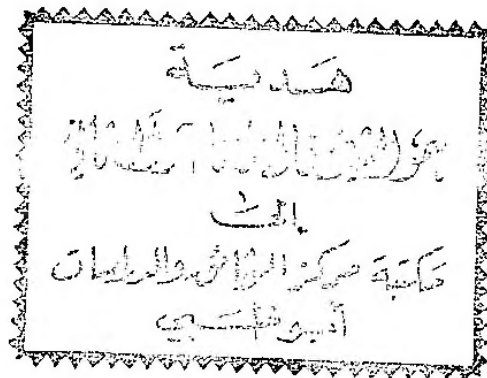
(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاى مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ - سنة ١٣١٥

ميلاديه هجرية

(بالقسم الادبى)



(فهرس الج — زء الثانى من تاريخ الكافى)

صحيفة	صحيفة
٦١ الفصل الثالث - فى خلافة عثمان ابن عفان	٢ « المقالة الاولى » - فى أخبار العرب فى الجاهلية وفيها فصول
٦٨ » الرابع - فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب	٢ الفصل الاول - فى نسب العرب وطوائفهم
٨٥ » الخامس - فى خلافة أمير المؤمنين حسن بن على	١٦ » الثانى - فى أديان العرب فى الجاهلية
٨٧ « المقالة الرابعة » - فى الخلفاء الامويين وفيها فصول	١٩ » الثالث فى علوم العرب وآدابهم
٨٧ الفصل الاول - فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان	٢٣ » الرابع فيما كانت عليه قریش قبل الاسلام
٩٣ » الثانى - فى خلافة يزيد بن معاوية	٢٦ « المقالة الثانية » - فيما كان بظهور الاسلام وفيه فصول
١٠٠ » الثالث - فى خلافة معاوية ابن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان	٢٦ الفصل الاول - فى ظهور صاحب الشريعة الاسلامية
١٠١ » الرابع - فى خلافة مروان ابن الحكم المعروف بالطريد	٣١ » الثانى - فى هجرة صاحب الشريعة وفى غزواته وما وقع له بعد ذلك
١٠٣ » الخامس - فى خلافة عبد الملك ابن مروان	٣٦ » الثالث - فى فتح مكة
١٠٨ » السادس - فى خلافة الوليد بن عبد الملك	٣٨ » الرابع فى ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته
١١٠ » السابع - فى خلافة سليمان بن عبد الملك	٤٤ « المقالة الثالثة » - فى الخلفاء الراشدين وفيها فصول
١١٢ » الثامن - فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز	٤٤ الفصل الاول - فى خلافة أبى بكر الصديق
١١٧ » التاسع - فى خلافة يزيد بن عبد الملك	٤٦ » الثانى - فى خلافة عمر بن الخطاب
	٥٣ مطلب فى الخلاف بين العلماء فى مصر هل فحمت صلحا أو عنوة

صيفة

١٢١ الفصل العاشر - في خلافة هشام

ابن عبد الملك

» ١٢٥ الحادى عشر - في خلافة الوليد

ابن يزيد بن عبد الملك

» ١٢٨ الثانى عشر - في خلافة يزيد بن

الوليد بن عبد الملك بن مروان

» ١٢٩ الثالث عشر - في خلافة ابراهيم

ابن الوليد

» ١٣٠ الرابع عشر - في خلافة مروان

ابن محمد

١٣٣ فصل في كيفية الدعوة لبني العباس

وفي ظهور دولتهم

» ١٤٠ المقالة الخامسة - في الخلفاء

العباسيين وفيها فصول

» ١٤٠ الفصل الاول - في خلافة أبى

العباس السفاح

» ١٤٥ الثانى - في خلافة أبى

جعفر المنصور

» ١٥٨ الثالث - في خلافة محمد

المهدى

» ١٦٣ الرابع - في خلافة موسى

الهادى

» ١٦٧ الخامس - في خلافة هرون

الرشيد

» ١٧٥ السادس - في خلافة محمد

الامين بن هرون الرشيد

» ١٨٠ السابع - في خلافة عبد الله

المأمون بن هرون الرشيد

» ١٨٧ الثامن - في خلافة أبى اسحق

ابراهيم المعتصم بن هرون الرشيد

صيفة

١٩١ الفصل التاسع - في خلافة هرون

الواثق بالله

» ١٩٤ العاشر - في خلافة جعفر

المتوكل على الله

» ٢٠٢ الحادى عشر - في خلافة

محمد المنتصر بالله

» ٢٠٧ الثانى عشر - في خلافة

أحمد المستعين بالله

» ٢١١ الثالث عشر - في خلافة

المعتز بالله بن جعفر المتوكل

» ٢١٣ فصل في ترجمة أحمد بن طولون

وظهور دولته بديار مصر

» ٢١٧ الفصل الرابع عشر - في خلافة

جعفر المهتدى بالله بن هرون

» ٢٢١ الخامس عشر - في خلافة

أبى القاسم أحمد المعتمد على

الله بن المتوكل

» ٢٣٣ السادس عشر - في خلافة

أبى العباس أحمد المعتضد بالله

ابن الموفق

» ٢٤١ السابع عشر - في خلافة

أبى محمد على المكتفى بالله بن

المعتضد

» ٢٤٧ الثامن عشر - في خلافة أبى

الفضل جعفر المقتدر بالله

» ٢٥٤ التاسع عشر في خلافة القاهرة

بالله محمد بن أحمد المعتضد

» ٢٦٠ العشرون - في خلافة أبى

العباس أحمد الراضى بالله بن

المقتدر

صحيحة

٢٦٥ ﴿وصل﴾ في مبدأ الدولة الاخشيدييه
وفي كيفية ظهورها

٢٦٦ الفصل الحادى والعشرون - فى
خلافة أبى اسحاق ابراهيم

المتقى لله بن المقتدر
٢٧٠ » الثانى والعشرون فى خلافة

المستكنى بالله بن المكتفى
٢٧٣ » الثالث والعشرون فى خلافة

أبى الفضل المطيع لله بن
المقتدر

٢٧٨ ﴿وصل﴾ فيما قاله أصحاب التاريخ
فى أصل الفاطميين وفى ظهور دولتهم

بديار مصر وفى اعتبارنا لهم ملوكا
عليها لا خلفاء كما يدعون

٢٨٨ الفصل الرابع والعشرون - فى
خلافة أبى بكر بن عبد الكريم

الطائع لله
٢٩٦ » الخامس والعشرون فى خلافة

أبى العباس أحمد القادر بالله
ابن اسحاق

٣٢٠ » السادس والعشرون فى خلافة
أبى جعفر عبد الله القائم بأمر

الله بن القادر بالله
٣٢٣ » السابع والعشرون - فى

خلافة أبى القاسم المقتدى
بأمر الله بن محمد بن القائم

بأمر الله
٣٣١ » الثامن والعشرون - فى

خلافة المستظهر بالله أبى
العباس أحمد

صحيحة

٣٤٢ الفصل التاسع والعشرون - فى
خلافة أبى منصور الفضل

المسترشد بالله بن المستظهر
بالله

٣٤٩ » الثلاثون - فى خلافة أبى
منصور جعفر الراشد بالله

٣٥٠ » الحادى والثلاثون - فى
خلافة أبى عبد الله محمد المفتقى

لامر الله
٣٥٥ » الثانى والثلاثون - فى خلافة

أبى المظفر يوسف المستجد بالله
ابن المفتقى لامر الله

٣٦٧ » الثالث والثلاثون فى خلافة
المستضى بنور الله بن المستجد

٣٨٥ » الرابع والثلاثون - فى خلافة
أبى العباس أحمد الناصر لدين

الله
٤١٧ » الخامس والثلاثون - فى

خلافة الظاهر بأمر الله بن
الناصر لدين الله

٤١٨ » السادس والثلاثون - فى
خلافة المستنصر بالله أبى

جعفر المنصور بن الظاهر
بأمر الله

٤٢٢ » السابع والثلاثون - فى
خلافة المعتصم بالله بن

المستنصر بالله
٤٣٢ ﴿المقالة السادسة﴾ فى كيفية ظهور

الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت
الخليفة المستعصم بالله وفيها فصول

٤٣٤ الفصل الاول - في خلافة

المستنصر بالله أحمد بن الخليفة

الظاهر بالله

٤٣٥ » الثاني - في خلافة الحاكم

بأمر الله بن المستظهر بالله

العباسي

٤٥٠ » الثالث - في خلافة المستنكر

بأمر أبو الربيع سليمان بن

الحاكم بأمر الله

٤٦٣ » الرابع - في خلافة ابراهيم

الواثق بالله ابن ولي العهد

المستمسك بالله

٤٦٦ » الخامس - في خلافة الحاكم

بأمر الله أحمد بن المستنكر

بالله

٤٧٢ » السادس - في خلافة

المعتضد أبي الفتح بن أبي بكر

المستنكر بالله

٤٧٧ » السابع - في خلافة المتوكل

على الله أبي عبد الله محمد

٤٨١ » وصل في أصل الجراكسة وفي

طبائعهم وأديانهم وفي منشأ دولتهم

الثانية بديار مصر

٤٨٤ » لاحقة في أخلاق الجراكسة

وعاداتهم

٤٨٨ » فصل في الكلام على ما وقع في

أيام هذه الدولة أعني دولة الجراكسة

الثانية الى انقراضها وزوال ملكها

٤٩٦ الفصل الثامن - في خلافة أبي

الفضل المستعين بالله بن

المتوكل

٤٩٨ » التاسع - في خلافة أبي

الفتح داود المعتضد

٥٠٢ » العاشر - في خلافة أبي

الربيع سليمان

٥٠٣ » الحادي عشر - في خلافة

أبي البقاء حمزة القائم بأمر الله

٥٠٤ » الثاني عشر - في خلافة أبي

الحسان يوسف المستنجد بالله

٥٠٨ » الثالث عشر - في خلافة

عبد العزيز يعقوب بن المتوكل

٥١٠ » الرابع عشر - في خلافة أبي

صابر يعقوب المستمسك بالله

٥١٣ » الخامس عشر - في خلافة

محمد المتوكل على الله بن

المستمسك



لما كان من الواجب معرفة بعض شئ من أخبار العرب في الجاهلية وطبائعهم وعوائدهم ونسبهم وسكناتهم وغير ذلك مما يتعلق بتاريخ أيامهم قبل الإسلام تيممنا للفائدة المقصودة من التاريخ ولكي لا يكون اثباتنا على تاريخ دولهم بعد الإسلام قليل الفائدة فسنذكر هنا فذلكمة من تاريخهم القديم نقلاً عما جاءت به كبار أصحاب التاريخ من الشرقيين والغربيين لتكون مقدمة يتوصل بها القارئ إلى معرفة حوادث أيامهم في مصر بعد الفتح وقد قسمنا هذا الجزء إلى ست مقالات وفي كل منها عدة فصول وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير

(المقالة الاولى)

(في أخبار العرب في الجاهلية)

وفيها فصول

(الفصل الاول)

(في نسب العرب وطوائفهم)

قال المقرئ اختلف الكتاب في نسب العرب وأصل تسميتهم فقال جماعة إن اسمهم اشتق من الأعراب بمعنى الأبنية لقولهم أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه والاصح

أنهم نسبوا الى عربية وهي من تهامة ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كان عليه العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر اه وقد قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة أقسام عربية ومتعربة ومستعربة * أما العاربة فهم العرب الاول الذين ذهبوا عنا تفاصيل أخبارهم لتقدم عهدهم وفي رواية أنهم قوم أتوا في غابر الأزمان من الحبشة وعبروا الى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذي فيه الآن عدن فاستوطنوا تلك الناحية ثم صار لهم بها مملكة ولم تزل دارملكهم الى أن خربت بسيل العرم * وأما العرب المتعربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان * وأما العرب المستعربة فهم ولد اسمعيل وفي رواية أنهم من إفريقية أيضا ولكنهم عبروا الى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا في البلاد حتى تأخروا العراق من جهة الشام من أخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود ولذا كانت لغتهم الى السريانية أقرب واختلط بها شيء من ألفاظ الفرس والعبريين أيضا * وكان العرب العاربة شعوبا كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاول وقد سمي أصحاب التاريخ هذا الجيل أيضا بالعرب البائدة يعني الهالكة لانه لم يبق على وجه الارض أحد من نسلهم قالوا وربما سموا بالعرب العاربة اما بمعنى الراسخة في العروبة كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبة والمبتدعة لها بما كانت في أول أجيالها وقد استدلل بعض المحققين على أصلهم الحبشي بشكل جاجهم وما في لغتهم من ألفاظ الحبشة كسبع من أسماء ملوكهم ومعناه القوى وجبر ومعناه الآخر

وأما بنو عاد فقد كانت مواطنهم الاولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب وذكر المسعودي أن الذي ملك منهم بعد عاد شداد وهو الذي سار في المهالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعنتهم واتصلوا بعبادة الاصنام والاولئان أبادهم الله وهلكوا عن آخرهم

وأما ثمود فكانت ديارهم بالجعر ووادى القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينتحون بيوتهم في الجبال فكانوا أهل كفر وبغى فأنذرهم بعض الانبياء فلم يصيخوا الى دعائه فهلكوا جميعا حيث كانوا من الارض ودرجوا في الغارين

وأما جدس وطسم فكانت ديارهم اليمامة وهي اذ ذاك من أخصب البلاد وأعرها وأكثرها ثمارا وحدائق وقصورا وكان ملك طسم غشوما مصابرا لجديس مستذلا لهم حتى قام الاسود وقتله غيلة

وأما جرهم الاول فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعربية فكانوا على عهد عاد ولتقدم انقراضهم ذهب حقائق أخبارهم وانقطعت أسباب العلم بأخبارهم قال بعض المحققين وأما جرهم الثانية فليسوا من البائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصل اسمعيل ابن ابراهيم

وانما سمي بنو قحطان الذين هم القسم الثاني بالمتعربة لتزولهم بالبادية مع العرب
العاربة وتخليقهم بأخلاقهم وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارغشذ بن سام قال بعض
أهل التاريخ وقحطان هذا معرب يقطان وهو أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج قبل
الميلاد المسيحي بألفين وثلاثين سنة وكان بنو قحطان معاصرين لآخوانهم من العرب العاربة
ومظاهرين لهم على أمورهم ولم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك
وترفهم الذي كان لاوئك فأصبحوا بنجاة من الهرم الذي يلزمه الترف والنضارة فقتشعبت في
أرض الفضاء فصائلهم ونعددت في جوف القفر أنفادهم وعشائرهم ونفي عددهم وكثر
آخوانهم من العمالة في آخر جيلهم وزاحوهم بمناكبهم واستحدثوا خلق الدولة بما استأنفوه
من عزهم وكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم قالوا وكان يعرب بن قحطان من أعظم ملوك
العرب ويسمى أيضا عينا وبه سميت اليمن وهو أول من حياه ولده بقولهم: (أيت اللعن)
و (أنعم صباحا) وقيل انه أول من نطق بالعربية وملك بعد يعرب ابنه يشجب وكان
واهي العزيمة فاستبقت أعمامه بما في أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس وأكثر
الغزو في أقطار البلاد فسمى سبأ لكثرة ما سبى وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه
مأرب على ثلاث مراحل منها

وعظم أمر سبأ المذكور وعلت كلمته فبنى في مأرب سدا ما بين جبلي بالصخر والقار
حقن به ماء العيون والأمطار وساق اليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر ما يحتاجون
اليه في سقيهم وهو الذي يسمى العرم ومات قبل أن يتمه فأتمه ملوك حير من بعده وأقاموا في
جنتاه عن اليمن وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبدخ وأعلى يدا وأظهر
فلما طغوا وأعرضوا أبجفهم السيل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا
أحاديث وكان هؤلاء التابعين ملوكا عدة في عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم
الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن الى ما بعد عنهم من العراق
والهند والمغرب فاختلفت لذلك أحوالهم ووقع اللبس في نقل أخبار أيامهم ومع ذلك
فسنأق بإيراد ما صح منها على قدر الاستطاعة لعدم الوقوف على أخبارهم مدونة في
مؤلف واحد

وكان لسبأ المذكور كثير من الاولاد وأشهرهم حير وعمرو وكهلان فكانت التابعة تعزى
الى حير والمناذرة الى عمرو وتنتهى الغسانية الى كهلان * قال المسعودي قيل لملوك اليمن تبابعة
لانه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر ولم يسموا الملك منهم يتبع حتى يملك
اليمن والشحر وحضرموت ومن لم يكن له شئ من هذا يسمى ملكا ولا يقال له تبع اه
قلت وهذا خلاف ما يقوله غيره في معنى تبع التي هي من الكلمات الحبشية وأما حير فقد
يعرف أيضا بالعرنجج وكان ظهوره قبل الميلاد المسيحي بألف وأربعمائة وثلاثين سنة وقيل
هو أول من تتوج بالذهب وأخرج عمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل

ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وآل الامر الى شدداد فغزا البلاد الى أن بلغ أقصى
المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حير وصار ملكهم
في طوائف الى أن استقر في الحارث وهو نبيع الأول ثم في بقية التباينة وقد قلب الحارث بالرأس
لأنه راس الناس بالعطاء مما كان أصابه في غزواته من السلب والغنائم
ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم افريقش وذلك قبل الميلاد بألف وثمان وتسعين سنة وذهب
بقبائل العرب الى افريقية وبه سميت وساق البرابرة اليها ولما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما
أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ثم ملك بعد افريقش أخوه عمرو ذو الازعار ولم يحسن السيرة في
الرعية ولم يعبا بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته

يا عمرو انك ما جهلت وصيتي * اياك فاحفظها فانك ترشد
يا عمرو لا والله ما ساد الوري * فيما مضى الا المعين المرفد
يا عمرو من يشري العلا بنواله * كرما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه * والزرع شئ لا محالة يحصد

ولما ذعرت حير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل بن شرحبيل وذى
الازعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك حتى مات ثم ملك بعده ابنه
الهدهاد وذلك سنة خمس وستين وألف قبل الميلاد المسيحي ثم ملكت بلقيس ابنة الهدهاد
وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بلقيس الهدايا وبقيت في ملك اليمن
عشرين سنة وماتت ثم قام بعدها بالملك مالك ناشر النعم لأنه قلد أعناق رعيته أطواق النعم
والمن وسار غازيا الى المغرب فبلغ وادى الرمل فلم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض
أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادي وكتب في صدره بالخط المسند
هذا الصنم لناشر النعم الحيري ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب * قلت ومن
رام معرفة ما هو الوادي المذكور فليراجع ما قاله ابن خلدون في مبدأ مقدمة تاريخه * ثم ملك
بعد ناشر هذا ابنه أبوكرب شمر مرعش سمي بذلك لارتعاش كان به وهذا هو تبع الآخر
وهو المشهور من ملوك التباينة ذوى المغازي والآثار البعيدة وكان من أشد ملوك العرب
نكابة بالاعداء وأبعدهم مغارا وقد حكم قبل الميلاد بمائتين وخمسين سنة قال بعض
أصحاب التاريخ ووطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنهم وخرّب مدينة
الصغد وراء جيكون فقالت العجم شمر كند (أى شمر خرب) يعنى خرب البلاد وبنى مدينة
هناك فسميت باسمه هذا وعزّيته العرب فصار شمر قند وشخص من اليمن غازيا ومر بالحيرة
فتخبر عسكره ثم رجع الى اليمن وهابه المسالك وهادفوه وأخذ يدين اليهودية بأغراء بعض
أخبار اليهود من بني قريظة ثم عاد الى غزو بلاد فارس فوطأ المسالك وذللها وعمد الى الصين
قال النويزي وكان لملك الصين في ذلك الزمان وزير شديد البأس ساعى الهمة فلما بلغه مسير
ملك اليمن جدد أنفه ولحق بأبي كرب وسعى اليه بأمره وشكى من ملك الصين وتظاهر أنه

يدل أبا كرب على خلل يمكنه من الفرصة في اللقاء بلادهم بالقياد وفتحها فسر به تبع وبالغ في
اكرامه وأصاخ لقوله فنهض الوزير بجيشه وهو يقدمهم حتى انتهى بهم الى أرض مسجحة
فتوغلوا في فلولات سحيقة لأماء فيها فاجهدهم العطش فسالوا اه * ثم قام بعده ابنه أبو مالك
وهلك في بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرًا طويلاً حتى ملك عمرو بن عامر الازدي
وقيل له من يقبل لانه كان يلبس كل يوم حلة فاذا أراد الدخول الى مجلسه رعى بها فزقت لثلا
يجد أحد فيها ما يلبسه وقيل انه على عهده كان سيل العرم أي بعد الميلاد بثلاثمائة سنة وستين
اثنتين فانفجرت مياه سد مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرّب ديارهم فمفرقت القبائل
المجاورة أيدي سباً

ولم تزل تتوالى الملوك على حير حتى آل الملك في سنة ثمانين وأربعمائة ميلادية الى ذي
نواس وانفق أهل الاخبار كلهم على أن ذا نواس هو ابن تيان أسعد واسمه زرعة وأنه لما تغلب
على ملك آبائه التبابعة سمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وجل عليه قبائل ليم فاستجمعت
معه حير على ذلك وأراد أن يكون أهل نجران عليها أيضاً وكافوا من بين العرب يدينون
بالنصرانية ولهم فضل في الدين واستقامة ولهم رأس يقال له عبد الله بن تامر وكان هذا
الدين وقع اليهم قديماً من بقية أصحاب الحوارين من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال
له (فيمون) وكان رجلاً صالحاً ورعاً مجتهداً في العبادة محجّاب الدعوة وظهرت على يديه
الكرامات في شفاء المرضى وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده وكان لا يأكل الا من كسب
يده ويعظم يوم الاحد فلا يعمل فيه شيئاً ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلزمه
وخرجا فارين بأنفسهما حتى وصلا بلاد العرب فاخططتهما سيارة فباعوهما بنجران وأهل
نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلة ويلقون عليها في الاعياد من حلهم
وملابسهم ويعكفون عليها أياماً وكان قد ابتاع (فيمون) رجل من أشرافهم وابتاع صالحاً
آخر فكان فيمون اذا قام في الليل في بيت له أسكنه اياه سيده استسرح له البيت فوراً وهو في
غير مصباح حتى يصبح الصباح فأعجب سيده ما رأى منه فسأله عن دينه فأخبره به وقال له
انما أنتم على باطل وهذه الشجرة لا تضروا ولا تنفع ولودعوت عليها الهى الذى أعبدته لأهلكها
وهو وحده لاندله فقال له سيده افعل فانك اذا فعلت هذا دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه
قال الراوى فدعا فيمون فأرسل الله ريحاً فقلعت النخلة من أصلها وأطبق أهل نجران على
اتباع دين المسيح فانتشرت من ذلك العهد النصرانية بنجران وأما عبد الله بن تامر فكان
يجلس الى فيمون كل يوم ويسمع منه شيئاً عن المسيح حتى فقسه وظهرت على يده الخوارق
والمعجزات ودان الكل بدينه فسار اليهم ذو نواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله بن تامر
وقال له أفسدت على أهل بلدى وخالفت دينى ودين آبائى ثم أمر به فقتل وعرض على أهل
نجران القتل فلم يزداهم الاثباتا في النصرانية فخذلهم الاخايد وأوقد لهم ناراً ثم امتحنهم فجعل
يقول للرجل والمرأة إما أن تترك دينك وإما أن نقتذك في النار فيقول ما أنا تارك دينى لشيئ

فيمقدف فيها فيحرق فبقيت امرأة ومعها صبي رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهيمت فقال لها الغلام يا أماء لا تنافقي فانك على الحق ولم يشككم من ذي قبل فاحترقت قالوا وقتل وأحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن اسحق عشرين ألفا أويذون وأفلت منهم رجل اسمه درس وكان من سبا ويقال له أيضا درس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه فأعجزهم فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذي نواس * فلما علم القيصر حقيقة الخبر أخذ من ساعته في التأهب لقتال ذي نواس وبعث إلى ملك الحبشة بأمره بنصره بخاتنه السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم اسمه ارباط وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحة اليمن فلقبهم ذو نواس فيمن معه فانهزم فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجهه بفرسه إلى البحر وخاض فخصاه ثم أفضى به إلى غمرة فأغرقه فيها فكان آخر العهد به وانقرض بموته أمر التبابعة وذلك سنة تسع وعشرين وخسمائة للميلاد * ووطئ من ثم ارباط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حير وهدم حصون الملك ثم انتقض على ارباط أبرهة أحد رؤساء جيشه وجذب معه رعاا الحبشة وغطاريقهم فاقتتلوا فحمل ارباط على أبرهة وعلا وجهه بالحربة فشرم أنفه وبذلك لقب بالاشرم وحل أبرهة على ارباط بالسيف وعلا به رأسه فأسرع السيف في دماغه وسقط عن جواده فمالوا حينئذ جميعا وصاروا مع أبرهة وأقاموه ملكا * قال أهل التاريخ وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحما ومداحا ذا دين في النصرانية فبنى بضعاء إلى جانب غمندان كنيسة محكمة العمل وسماها القليس * قال ابن اسحق وكان القليس مربعة مستوية التربع وجعل طوله في السماء ستين ذراعا وجعل بين ذلك كله حجارة تسميها أهل اليمن الجردب منقوشة مطبقة لا يدخل بين أطباقها الابرة وكان له باب من نحاس يفضى إلى بيت في جوفه طوله ثمانون ذراعا في أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقوده مضمروية بالفسيفساء (شجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة) ثم يدخل من البيت إلى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها جلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق مربعة تعشى عين من نظر إليها من بطن القبة تؤدي ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الابنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهباً وفضة اه

وانتشر خبر بناء هذا البيت في العرب فلما كانت سنة ثمان وسبعين وخسمائة للميلاد مات أبرهة فلما بعده ابنه يكسوم وبه كان يكفى واستفحل ملكه وعلت كلمته وأذل حير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم * ثم مات يكسوم فلما مكانه أخوه مسروق وكان طاغية جبارا ساءت سيرته وكثر عسفه * قال ابن خلدون ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذي بزن الحيرى من الأذواء بقيمة ذلك السلف وعقب أولئك الملوك وذبال الدولة المنفوض بالجرود وقدم على قيصر يوستينس يستجده على الحبشة فأبى وقال الحبشة على دين

النضارى فرجع الى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة ومايلها
من أرض العرب فشكا اليه واستمهله الضمان الى حين وقادته على كسرى ووفد معه وسأله
النصر على الحبشة وشاور أهل دولته فقالوا في سجونك رجال حبستهم للقتل ابعتهم معهم فان
هلكوا كان الذى أردت بهم وان ملكوا كان ملكا ازددته على ملكك فاحصوا بمائة وثمانمائة وقدم
عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسبا واسمه وهزر الديلى فتوافقوا للحرب وأمر وهزر
ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك فقال أرونى ملكهم فأروه اياه على فيل عليه
تاجه وبين عينيه ياقوتة جراء فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل في دماغه وتسكس
عن دابته وداروا به فحمل القوم عليهم وانهمزمت الحبشة في كل وجه وفنى ملكهم في اليمن بعد
أن توارثه أربعة في ثنتين وسبعين سنة وانصرف وهزر الى كسرى بعد أن خلف سبأ على
اليمن في جماعة من الفرس ضمهم اليه على فريضة يؤديها كل عام وجعله لنظر ابن ذى يزن
وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذى يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان يقال ان الضحاك
بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانياتها
(وقد خرب في خلافة عثمان) ولما استوثق لذى يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم
حتى اذا لم يبق الا القليل جعلهم خولا واتخذ منهم طواير يسعون بين يديه بالحرب فخرج
يومواهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحرب فقتلوه فأرسل كسرى عاملا
على اليمن واستمرت عماله الى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للاسلام بعد ذلك
قال الاصفهاني أما أخبار العرب بالعراق في الجيل الاول فلم فصل الينا تفاصيلها وشرح
حالتها الا أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام
فكانت تنوخ وقضاة وهما حيان من أحياء الازد من بني كهلان من تمزق الى العراق
فقال مالك بن فهم الازدى لمالك بن القضاى نقيم بالبحرين ونتحالف على من ناوانا فقتلوا
فسموا تنوخ وذلك في أيام ملوك الطوائف فنظروا الى العراق وعليها طائفة من ملوكها
وهي شاعرة فخرجوا من البحرين وسارت الازد الى العراق مع مالك بن فهم الازدى وسارت
قضاة الى الشام مع مالك القضاى

وأول من ملك على تنوخ في العراق مالك بن فهم وذلك سنة خمس وتسعين ومائة
للميلاد وكان منزله بالانبار فبقى بها الى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لا يعرفه فلما
علم أن سليمة راميه قال

جزانى لاجزاء الله خيرا * سليمة انه شرا جزانى
أعلمه الرماية ككل يوم * فلما اشتد ساعده رماني

فلما قال هذين البيتين فاط (أى مات) وهرب سليمة ثم ملك من بعد مالك جذيمة الابرش
سنة احدى وخسين ومائتين للميلاد وكان ثاقب الرأى بعيد المغار شديد النكاية ظاهر الحزم
وهو أول من غزا بالجيوش وشن الغارات على قبائل العرب وكان به برص فأكبرته العرب

على أن تنعته به اعظاما له فسمته جذية البرش وجذية الوضاح واستولى على السواد ما بين الحيرة والانباء ومائر القرى المجاورة لبادية العرب وكان يجبي أموالها وغزا طسما وجديسا في منازلهما من اليمامة وفيه قال الشاعر

أضحي جذية في أشراف منزله * قد حاز ما جمعت في عصرها عاد

وطال ملكه الى أن أدرك ملك سابور بن أشك وكان جذية قد ملك معدا وبعض اليمن وغزا في آخر عمره الشام وقتل عمر بن حسان بن أذينة والد الزباء ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على طلب الثار حتى قتلته وكان ملك جذية نحو ستين سنة بالتقريب اهـ

ولما مات جذية المذكور ورث الملك بعده ابن اخته عمرو بن عدى وذلك سنة ثمان وستين ومائتين لليلاد وأمه رقاش وهو الذي اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب وأول ملك بعده الخير بن في كتبهم من ملوك العرب العراق وملوك العراق ينتسبون اليه فلما استقرت به السلطنة هم بطلب الثار من الزباء بخاله جذية فلما أحست الزباء بنيتها تحصنت في معقل فصارت أمتع من عقاب فعمد عمرو الى قصير وزيره فجذع أنفه بمواطاة منه على ذلك وألحقه بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بداخلية الزباء في أمر خاله جذية وقال لها وما رأيت بعد ما فعل بي أنكي له من أن أكون معك فأكرمته وقربته فلما تحقق منها الوثوق به غزاها وأسلم حصنها الى عمرو فلاحها بالسيف وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعا فبقى عمرو ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدا بأمره يغزو المغازي ويفوز بالغنائم وتجي اليه الاموال وتقد عليه الوفود ولا يدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم أزدشير بن بابك في أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له بها مناويا حتى جعلهم على ما أراد مما يوافقهم ومما لا يوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاة الذين كانوا أقبلوا على مالك في أيام ملكه فلحقوا بالشأم وانضموا الى من هناك من قضاة فكان اذا أحدث ناس من العرب أحداثا في قومهم أضافت معيشتهم يخرجون الى ريف العراق وينزلون الحيرة * قال أهل التاريخ فكان ذلك على أكثرهم هجعة وصار أهل الحيرة ثلاثة أثلاث الثلث الاول تنوخ وهم من كان يسكن المطال وبموت الشعر والوبر في غربي الفرات ما بين الحيرة الى الانبار فافوقها والثلث الثاني العباد وهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتدوا بها والثلث الثالث الانخلاف * وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو ابن عدى باتخاذها اياها منزلا وعظم شأنها الى أن وضع في الكوفة ونزلها عرب الاسلام

ولما مات عمرو ملك بعده امرؤ القيس البدء وهو الاول في كلامهم وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس ثم ولى مكانه ابنه عمرو سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة لليلاد ثم أعقبه أوس بن قلام العمليقي خمس سنين ثم ثار به محجب أحد بني فزان فقتله سنة ثمان وستين وثلاثمائة وولى مكانه مدة ثم ولى من بعده امرؤ القيس الثاني سنة ثمان وستين وثلاثمائة لليلاد ويعرف امرؤ القيس هذا بالمنذر والمحرق لانه أول من عاقب بالنار وهو الذي ذكره

الاسود بن يعفر في قوله * ماذا أوئل بعد آل محرق * ثم ملك بعده ابنه النعمان الاعور
 السائح صاحب الخورنق والسدير وكان النعمان هذا في أيام يزيد جرد فدفع اليه ابنه بهرام
 ليربيه وأمر ببناء الخورنق مسكنا لابنه فأسكنه اياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاءه بمن يلقنه
 اللال من العلوم والآداب والفروسية حتى نبغ وفاز بما رضىه وكان النعمان من أشد ملوك
 العرب نكابة في الاعداء وأبعدهم مغارا قد أتى الشام مرارا كثيرة وأكثر المصائب في أهلها
 وسبي وغنم وكان ملك فارس ينفذ معه كتيبتين من المقاتلين الشهباء وأهل الفرس ودوس
 وأهلها تنوخ فكان يغزوهما من لا يدين له من العرب وكان صارما حازما ضابطا للملكة قد
 اجتمع له من الاموال والخيول والرفيق مالم يملكه أحد من ملوك الحيرة والحيرة يومئذ ساحل
 الفرات * ولما أتى على النعمان ثلاثون سنة تنصر على يد بعض وزرائه ثم زهد وترك الملك
 ولبس المسوح وخرج على وجهه فلم يوقف له على أثر * حكى عن سبب زهده أنه لما بنى
 الخورنق والسدير أشرف عليهما يوما فأعجبته مأوى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال
 الوجوه عليه فقال لأصحابه هل أوتى أحد مثل ما أوتيت أنا فقال له حكيم من حكام أصحابه
 أهذا الذى أوتيت شئ لم يزل ولا يزول أو شئ كان لمن قبلك وزال عنه وصار اليك قال بل
 شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الى وسيزول عني فقال الحكيم فسررت بشئ تذهب عنك
 لذته وتبقى تبعته قال فأين المهرب قال اما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس أمساحا وتلحق
 بجبل تعبد ربك فيه وتفتر من الناس حتى يأتبك أهلك قال فاذا فعلت ذلك فعلى قال
 حياة لانعوت وشباب لايهرم وصحة لاتسقم وملك جديد لا يبلى قال فأى خير فيما يقضى والله
 لا أطلب عيشا لا يزول أبدا فانتزع من ملكه ولبس الامساح وساح في الارض وتبعه الحكيم
 وصارا يسبحان الله تعالى حتى ماتا وفيه يقول عدى بن زيد

ونفكر رب الخورنق اذا أشرف يوما والهدى تفكير
 سره ما له وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
 فارعوى قلبه وقال فما غبطة حى الى الممات يصير
 ثم بعد الفلاح والمال والنعمة وارثهم هناك القبور
 ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

ولما تزهد النعمان تولى الامر بعده ابنه المنذر الاول سنة عشرين وأربعمائة للميلاد
 وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام لنشئه بين العرب وخلوه
 من آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهاز المنذر بهرام المذكور وقام يطلب له ملكه
 وحاصر تحت الملك فأذعن له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم
 واجتمع أمره ورجع المنذر الى بلاده واشتغل باللهو الى أن مات سنة اثنتين وستين وأربعمائة
 ميلادية * فقام بالامر بعده النعمان الثانى وكان وزيره عدى بن زيد النصراني وكان عدى
 المذكور ورعا فتزهد ولبس المسوح سنة تسع وستين وأربعمائة للميلاد ويروى عن سبب

ترهده أنه خرج متصيذا ومعه عدى بن زيد وزيره المذكور فمرا بشجرة فقال عدى أيها الملك أئدرى ماتقول هذه الشجرة قال لا قال أنها تقول

من رأنا فليحدث نفسه * أنه موف على قسرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها * ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال
والاباريق عليها فـدم * وجياد الخيل تجري بالجلال
عمرو الدهر بعيش حسن * ثم أفنى دهرهم غير عمال
عصف الدهر بهم فانقرضوا * ولذلك الدهر حال بعد حال

ثم جاوزا الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى أئدرى ماتقول هذه المقبرة قال لا قال فاقول

أيها الركب المنجونا * على الارض المجنونا
كما أنتم كذا كنا * كما نحن تكوفونا

فقال النعمان قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت أنك إنما أردت عظمي فجزاك الله عني خيرا فما السبيل الذي تدرك به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتنصر وتعبد الله تعالى وحده قال وفي هذا النجاة قال نعم قال فترك عبادة الاوثان وتنصر حينئذ وأخذ في العبادة والاجتهاد ثم ترهد كما تقدم فلك مكانه أخوه الاسود وهو الذي انتصر على عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم ثم مات سنة احدى وتسعين وأربعمائة * فلك بعده أخوه المنذر الثاني سبع سنين ثم ابن أخيه في سنة ثمان وتسعين وهو النعمان الثالث ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة الزميلي سنة ثلاث وخسمائة قال أهل التاريخ وزميل بطن من نهم ثم ملك امرؤ القيس الثالث سنة ست وخسمائة وامرؤ القيس هذا هو الذي غزا بكرا يوم دارة في دارها فكانت بكر قبله تقيم أود ملوك الحيرة وتعصدهم وهو أيضا باني الغرب والضبر وفيهما يقول جبير بن بلوغ

ليت شعري متى تحب بنا لنا * فة نحمو الغرب والضبر

ولما مات امرؤ القيس الثالث قام بعده المنذر الثالث ابنه وهو ذوالقرنين لضعفرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء قال الجنابي وكان هذا لقباً لأبي عامر الأزدي لأنه كان يقيم ماله مقام القطر أي عطاء وجوداً فغلب على بنيته لأنهم خلف منه وذكر أن مرة بن كنفوم قتله لخسين سنة من ملكه وذلك سنة اثنتين وستين وخسمائة ثم ملك من بعده الحارث بن عمرو الكندي الملقب بآكل المرار وكان شديد السلطان غزا تيميا في دارها فقتل مائة من بني دارم يوم دارة الثاني بأخيه أسعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سنة أي الى سنة ثمان وسبعين وخسمائة لليلاد ثم ولي شقيقه قابوس أربع سنين في زمن أفوشروان وكان فيه لين وكان ضعيفا مهينا قتله ابن يشكر وسلبه سنة ثنتين وثمانين ثم ملك المنذر الرابع أخوه ثلاث

سنتين ثم النعمان الرابع أبو قابوس سنة ثنتين وثمانين وهو صاحب النباغة الذي يني
الغريين وتنصر أي اعتنق الديانة النصرانية
وكان المندرين ماء السماء الملقب بأبي قابوس هذا قد فاداه رجلان من بني أسد أحدهما
خالد بن المضلل والآخرون عمرو بن مسعود فأغضباه في بعض المنطق فأمر بأن يحفر لكل واحد
حفرة بظهر الحيرة ثم يجعل في تابوتين ويدفنا في الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى إذا أصبح سأل
عنهما فأخبروه بهلاكهما فندم على ذلك ونغم جدا وفي عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل
المذكورين يقول شاعر بني أسد

يا قسرين بيوت آل محرق * جادت عليك رواعد وبروق
أما البكاء فقل عنك كثيره * ولئن بكيت فالبكاء خليق

وركب المندرج حتى نظر إلى قبرهما فأمر ببناء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين
في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخريوم يؤس فأول من يطلع
عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أي سودا وأول من يطلع عليه يوم يؤسه يعطيه
رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغري بدمه الغريين فلبث على هذا الحال برهة من
دهره حتى مر به رجل من طيئ يقال له حنظلة بن أبي عفران كان أدى النعمان في خبائه
يوم خرج إلى الصيد وانفرد عن أصحابه بسبب المطر فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له
شاة فأطعمه من لحمها وسقاه لبنا فلما نظر إليه النعمان وافدا إليه ساءه ذلك جدا وقال له
يا حنظلة هلا أتيت في غير هذا اليوم فقال أبيت اللعن لم يكن لي علم بما أنت فيه فقال له
أبشر بقتلك فقال له والله لقد أتيتك زائرا ولاهلي من خيرك مأثرا فلا تكن ميرتهم قتلى
فقال لا بد من ذلك فاسأل حاجة أفضها لك فقال تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي وأحكم
من أمرهم ما أريد ثم أصبح اليك فأنفذني حكيمك فقال ومن يتكفل بك حتى تعود فنظر في
وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فأنشد

يا شريك يا ابن عمرو * يا أخا من لا أخاه
يا أخا شيبان فك الشيوم رهنا قد أناله
يا أخا كل مصاب * وحيا من لاهيا له
ان شيبان قبيل * أكرم الله رجاله
وأبولك الخبير عمرو * وشراحيل الجماله
رفيالك اليوم في المجد * وفي حسن المقاله

فوثب شريك وقال أبيت اللعن يدي بيده ودمي بدمه وأمر للطائي بنحو مائة ناقة وقد
جعل الأجل عاما كاملا من ذلك اليوم إلى مثله من القابل فلما حال الحول وقد بقي من الأجل
يوم واحد قال النعمان لشريك ما أراك إلا هالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك
فان يك صدر هذا اليوم ولي * فان غدا لناظره قريب

فذهب قوله مثلاً ولما أصبح النعمان وقف بين قبري نديسه وأمر بقتل شريك فقال له وزراؤه ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه فتركه النعمان وكان يشتهي أن يقتله لينجو الطائي فلما أذنت الشمس بالمغرب قام شريك مجرداً في أزار على النطع والسياف بجانبه وكان النعمان قد أمر بقتله فلم يشعر الا وراكب قد ظهر فاذا هو حنظلة الطائي تكفن وتحنط وجاء بنادبته فلما رآه النعمان قال ما الذي جاء بك وقد أفلت من القتل قال الوفاء قال وما دعاك الى الوفاء قال ان لي ديناً يمنعني من الغدر قال وما دينك قال النصرانية قال فاعرضها علي فعرضها عليه فتنصر النعمان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائي وقال ما أدري أيكما أكرم وأوفي أهذا الذي نجا من السيف فعاد اليه أم هذا الذي ضمنه وأنا لا أكون الأم الثلاثة قال الميداني وتنصر مع النعمان أهل الحيرة أبجعون * وبني النعمان في حاضرة ملكة الكنائس العظيمة ثم قتله كسرى بن هرمز سنة أربع وستمائة للميلاد وانقطع الملك عن نهم ولم يلبث أن ظهر الاسلام بعد زمان وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان المناذرة آل نصر في آخر أمرهم عمالاً لا كاسرة على عرب العراق وأصلهم من اليمن من الازد بنى كهلان قال أهل التاريخ لان الازد لما أحست بأرب انتقاض العرم ونحشيت السيل تفرقت فقسام قوم فنزلوا على ماء يقال لغسان فصيره شربهم فسموا غسان ثم أنزلهم ثعلبة بن عمرو الغساني ببادية الشام والمولود بها من قبل القياصرة وكانوا يدينون بالنصرانية فلما نزلت غسان بأرض الشام كان لها قوم من سليم فضربوا على الغساسنة الاتاوة وكان الذي يلي جبايتها رجلاً منهم اسمه سبيط فسار لجبايتها فاستبطؤه فقصده ثعلب كبيرهم وقال له لتجعلن لي الاتاوة أولاً خذن أهلك وكان ثعلب حليماً فقال هل لك فيمن يربح عليك بالاتاوة قال نعم قال عليك بأخي جذع بن عمرو وكان جذع فاتكاً فأتاه سبيط وخطبه بما خاطب به ثعلبة فخرج عليه ومعه سيف مذهب وقال فيه عوض من حقتك الى أن أجع لك الاتاوة قال نعم قال فخذ فتناول سبيط جفن السيف واسنل جذع نصله وضربه به فقتل خذ من جذع ما أعطاك فذهبت مثلاً فوقعت الحرب بين سليم وغسان فأخرجت غسان سايحاً من الشام وصاروا ملوكاً واستقر ملك الغساسنة أربع مائة سنة ونيقاً وكان أول ملوكهم جفنة بن عمرو المسد كور وآخرهم جبلة بن الأيهم وهو الذي بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسمّاها باسمه وكان قد أسلم في زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار الى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفراً من أصحابه فلما قرب من المدينة قلداً عناق خيله بقلائد الفضة والذهب ووضع تاجاً على رأسه فلما بلغ عمر بن الخطاب قدومه تلقاه بموكب عظيم ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت اذ وطئ رجل من بني فزارة طرف ازاره فالتفت عنه الازار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزاري لطمه شتم بها أنفه فتمعلق به الرجل وانطلق الى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا اليه حاله فقال عمر لجبلة أنت في خيرة اما أن يلطمك هذا الرجل كما لطمته أو تفتدي اللطمة منه بالمال فقال جبلة

لعمرو أفلا يفضل عندكم ملك على سوقة قال كلا بل كلاهما في الحق سيان فغضب جبلة من ذلك وصبر الى الليل فاجتمع بغلمائه وخرج بهم حتى لحق بالشام وارتد الى دينه ثم سار من هنالك الى قيصر وأقام عنده فتشعبت أولاده في تلك البلاد وتسموا بالارنؤد * قلت وقد عدت أهل النقد ما وقع من عمر في هذه الحادثة من الاسباب التي ترتب عليها شيء في الاسلام ومن ملوك العرب ملوك بني كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر وهم من بني زيد بن كهلان قال أصحاب التاريخ كانت كندة قبل أن يملك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوى منهم الضعيف حتى ملك حجر وكان تبع حين أقبل سائرا الى العراق استعمله عليهم فستد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين أرضهم وبقي وحده في مملكته مطاعا لحسن سيرته الى سنة ثلاث وخمسة لليلاد ثم ملك بعده ابنه المقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم استخلفه الحارث وهذا عظم أمره وكبر شأنه حتى طرده أنفوسروان وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من بني حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وكان منهم ابنان من ولد الحارث وفي ذلك يقول امرؤ القيس

بنو أسد قتلوا ربه * ألا كل شيء سواه جلل

ثم استجد امرؤ القيس ببكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه وهرب بنو أسد منهم فتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جوع امرؤ القيس خوفا من المنذر وخاف امرؤ القيس من المنذر وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عاديا اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام امرؤ القيس عند السموأل ما شاء الله ثم سار امرؤ القيس الى قيصر ملك الروم مستنجدا به وأودع دروعه عند السموأل بن عاديا المذكور ومر على حجة وشيرز وقال في مسيره قصيدته المشهورة

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه * والحق أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا أو غوث فتعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر عند جبل يقال له عسيب ولما علم بعونه هنالك قال

أجارتنا ان الخطوب تنوب * واني مقيم ما أقام عسيب

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني الى السموأل وطالبه بدروع امرؤ القيس وماله عنده وكانت تلك الدروع مائة وكان الحارث قد أسرا بن السموأل فلما امتنع السموأل عن تسليم ذلك الى الحارث قال الحارث اما أن تسلم الدروع واما قتلت ابنك فقال السموأل است أخفر ذمتي فافعل ما شئت فذبح ابنه والسموأل ينظر اليه وانصرف الملك على بأس فضرب العرب به المثل في الوفاء

أما العرب المستعربة الذين هم القسم الثالث وهم بنو عدنان بن اسمعيل فكانوا قد نزلوا بالبحار وتولوا سدة الكعبة وكانت الحجاز والكنان ديار المارقة وكان لهم ملك هنالك

وكانت جرهم من تلك الطبقة وكانت ديارهم اليمن مع اخوانهم من حضرموت وأصاب اليمن قحط ففروا نحو تهامة بطلبون الماء والمرعى قال أصحاب التاريخ وعسثروا في طريقهم باسمعيل مع أمه هاجر فاحتلوا أسفل مكة واقتتلوا مع العالقة فأبادوهم ونشأ اسمعيل بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوج منهم قلت وهذا القول غير معول عليه عند جماعة من التأخرين ووقى لمائة وثلاثين سنة من عمره ولم يزل أمر جرهم يعظم بمكة ويستفحل حتى ولوا البيت الحرام وكانوا ولاته وحجابه وولاة الاحكام بمكة ولما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أموراً عظيماً واستخفوا بجرمة البيت العتيق فأبادهم الله قالوا لانه لما خرب سد مأرب سار عمرو بن عامر وقومه من بلد الى بلد لا يبطون بلدا الا غلبوا عليها فلما قاربوا مكة أبت جرهم أن تفسح لهم واستكبروا في أنفسهم وقالوا ما نحب أن ننزلوا فتضيفوا علينا مراتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتهم فلا حاجة لنا بجواركم فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهمز جرهم فلم يفلت منهم الا الشريد فيهدر دمه وذلك سنة سبع ومائتين لليلاد * ثم تفرقت قبائل اليمن وانخزعت خزاعة بمكة فلولوا أمر مكة وحجابه الكعبة وسألهم بنو اسمعيل السكني معهم فأذنوا لهم وأقاموا عليهم لحيا وهو ربيعة بن حارثة ملكا وكان فيهم شريفا سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله وذهب اسمه في العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعاً * قال أصحاب التاريخ وكان أول من أطمع الحاج بمكة سنائف الابل ولحانها على الثريد وكسا في تلك السنة جميع حاج العرب كل واحد بثلاثة أثواب من برود اليمن وهو الذي بجر البصرة ووصل الوصلة وحجى الحامى وسبب السائبة ونصب الاصنام حول الكعبة فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالازلام وهو أول من غير الخنيفية دين ابراهيم

وأقامت خزاعة ثلثمائة سنة في سدة البيت حتى قام قصي القرشي من بني اسمعيل وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة وكانت ولاية الكعبة لابي غبشان الخزاعي فباعها من قصي بنزق خرف قيل فيه أسخر من صفقة أبي غبشان ثم دعا قصي اليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتناجزوا وكثر القتل ثم صالحوه على أن يحكوه الكعبة وكان ذلك سنة سبع وخسمائة لليلاد فصار لقصي لواء الحرب وحجابه البيت وتمنت قريش برأيه وصرفوا مشورتهم اليه في قليل الامور وكثيرها واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة فكانت مجتمع الملا من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم ثم تصدى لاطعام الحاج وفرض على قريش خراجا يؤدونه وما زال على هذا الحال حتى مات وقام بالامر بعده بنوه بالقيادة في كل موسم حتى جاء الاسلام

وكان في الجاهلية من كبارهم وأشرفهم بيوت معلومة يشار اليها ويقال ان أكبرهم وأشرفهم عبد مناف من ولد قصي بن كلاب القرشي وبنوه عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ثم كانوا كذلك في الاسلام وكان عبد مناف يدعى عندهم أيضا القمر والسيد والفهد واسمه المغيرة واخوته عبد الدار وعبد العزى وكان اسمه أولا عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأحيل

الى عبد مناف ومن أشرفهم أيضا عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة الحارثي رهط من بني الحارث بن زياد وأهل بيته بنو قنات وأولاده أخوال بني العباس قالوا وهم من أشرف العالم وأكابر الدنيا وبه يضرب المثل للرجل العظيم فيقال أشرف من ابن عبد المدان قال لقيط بن زرارة

شربت الخمر حتى خلت أنى * أبو قابوس أو عبد المدان
أسير في بني عبس بن زيد * رنخ البال منطلق اللسان

وكان العرب يعدون البيوتات المشهورة المكعبة المعروفة بالشرف من القبائل بعد بيت هاشم الذي تقدم ذكره في قريش ثلاثة بيوت وقيل سبعة أولها بيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عدى الدارين وبيت تميم وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله ابن همام وبيت شيبان وبيت بني الديان من بني الحارث بن كعب بيت اليمن وأما كندة فلا يعدون من أهل البيوتات وإنما كانوا ملوكا كما تقدم أما علوشان القرشيين فقد كان مرتباً على أن خزنة الكعبة كانت بيدهم فأثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فأصبح لهم بذلك ضرب من السودد وعلو الكلمة على باقي القبائل وزادهم مكانة أن سوق عكاظ كانت تقام ببلدكم مكة وكانت العرب تأتيها من كل صوب وحدهم للتجارة فقط بل للمفاخرة وإثارة الحرب وإبرام الصلح وفعل ما يشجر بينها كما سيذكر ذلك مفصلاً في محله

(الفصل الثاني)

(في أديان العرب في الجاهلية)

كانت العرب في أول أمرها على غير دين مقرر حتى قدم عمرو بن لحي بصنم يقال له هبل فعكفوا على عبادته وبالعوا في ذلك وكان من أعظم أصنام قريش عندها فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده وكان هبل هذا من خرز العقيق على صورة إنسان وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب وكانت له خزنة للقربان وسبعة قدام يضربون بها إذا مستهم الحاجة ويقولون إنا اختلافنا فهب السراحا * ان لم نقله فمر القسدا

وزعم قوم أن هبل هذا إنما هو صورة إبراهيم الخليل التي كسرها صاحب الشريعة الإسلامية عند ما دخل الكعبة مع ما كسره من بقية الأصنام قالوا وكان حولها عدد كثير من صور الملائكة والأنبياء وفيهم اسمعيل نفسه وفي يده الأزام
ولما دخل صاحب الشريعة الإسلامية الكعبة يوم فتح مكة كان بها ثلثمائة وستون

صنما قالوا فجعل بطوف على راحلته ويطعمها ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجمعت ثم
أحرقت بالنار وكان بالكعبة على عينها حجر أسود وما زال هذا الحجر معظما في الجاهلية
والاسلام يتبرك به الناس ويقبلونه اجلالا * وقد كانت الكعبة قبل ظهور صاحب الشريعة
الاسلامية بقرون بيت عبادة للعرب يعظمونه غاية التعظيم ويحجونه وفيه مصاف أصنامهم
فلما ظهر الاسلام زاد هذا البيت تعظيما واعتقد جمهور المسلمين أنه قديم العهد جدا ويقال
انه لما أهبط آدم من الجنة دعا ربه أن يأذن له في بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته
كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور الذي يقال له الضراح أيضا وهو مطاف الملائكة
فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور وضعه في مكة تحت البيت المعمور
حذوا القذة بالقذة والنعل بالنعل كالجاء في الاصطخري وأمر آدم أن يطوف به ويتوجه اليه
فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم ثم انطمس في الطوفان
كما هو مذكور في كتاب الملل والنحل فأمر الله تعالى ابراهيم واسماعيل فجدا بناءه في موضعه
وعلى رسمه ثم ما زال يشعث فيرم الى أن جددت فريش بناءه على الاسس القديمة بعد ميلاد
صاحب الشريعة بيضع سنين * وكان قد نصب بأسفل مكة صنم يعرف بالخلصة فكافوا
يلبسونه القلائد ويعتدون له الشعير والحنطة ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون
عليه بيض النعام وكانت لهم أصنام أخر نصبوها على السيارات من الكواكب وهي
المشتري قيل ان أصل اسمه ذوشرأ أي ساطع النور والزهرة وزحل والمريخ وغيرها من
النواب

ومن معبوداتهم أيضا مناة واللات والعزى وكانت مناة على ساحل البحر مما يلي قديد
وكانت صخرة تراق عليها دماء الذبائح ويلتمسون منها المطر في الجذب وكانت اللات أيضا صنما
للسنن اذ مر عليها الحاج لوثها بالسويق وقبل أصلها من (لاه) أي علا وعظم ومنه
اسم الجلالة * وكان الذي اختص من العرب بعبادة اللات ثقيف وكان بيت عبادتها في
تخلة فوجه صاحب الشريعة في السنة التاسعة من هجرته المغيرة وأبا سفيان الى نخلة
فكسروا الصنم فخرن المفقون أهل الطائف لاسيما نساؤهم أشد الحزن عليه وسألوا
صاحب الشريعة عند عقد الصلح أن يدع لهم اللات ولا يهدمها الى ثلاث سنين فأبى عليهم
ذلك ففزلوا الى شهر فلم يجيبهم * ويقال ان تاء اللات ليست أصلية بل هي هاء تأنيث وانما
كره البديل فيها لثلاث تشبه اسم الله تعالى كما ذكر ابن درستويه * وأما مناة فكانت تعبد بها هذيل
وخزاعة ومنزلهم ابين مكة والمدينة وقبل عبادتها الاوس والخزرج وثقيف قاله الشهرستاني وأبو
الفداء وغيرهما * وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد في السنة الثامنة من الهجرة
وهي سنة شو ثم على أصنام العرب ويقال ان اسم مناة مشتق من أمي أي أراق لكثرة
ما كان يراق عندها من دماء الاضاحي ومن هذا الاصل اشتق أيضا اسم وادي منى على
مقربة من مكة حيث ينحر الحاج هديهم في يومنا هذا * وأما العزى فكانت شجرة تعظمها

قريش وبنو كنانة ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوما * قال الكلبي
وكان في كل واحدة من اللات والعزى شيطان يتكلم ويتراى للسدنة وهم الحجة وذلك
من صنيع ابليس وكبدته وكان بنو حنيفة في الجاهلية قد اتخذوا إلهها عبدوه دهرًا طويلا
ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقيل في ذلك

أكلت حنيفة ربها * زمن التقم والجاعة

لم يحذروا من ربهم * سوء العقوبة والنباعه

ومن أديانهم المجوسية والصابئية وقد نصب الصابئية بحسب تلك الآراء أصنام الذهب
للشمس وأصنام الفضة للقمر ونسبوا المعادن والاقاليم للكواكب وزعموا أن قوى الكواكب
تفيض على تلك الاصنام فتتكلم وتفهم وتوحى للناس ونعلم الناس منافعهم وكذلك قالوا في
الاشجار التي هي من قسمة تلك الكواكب اذا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست
له وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة فتوحى للناس وتكلمهم في
النوم * ومن مزاعمهم في هذا المذهب أى الصابئية أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور
ثم تصير الى رحمة الاله الاعلى وقد فرض عليهم في اعتقادهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع
الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك بحيث ينقضى مع الطلوع ثمان ركعات في كل ركعة
ثلاث سجادات والثانية صلاة الظهر وهي خمس مثل تلك الركعات وسجاداتها وتنقضى مع
الزوال والثالثة كاثانية وتنقضى مع الغروب وكان لهم أيضا ثلاث صيامات في السنة أولها
ثلاثون يوما والثاني تسعة أيام والثالث سبعة وكانوا يكثرون من تقديم القرابين لآلهتهم
ولكنهم لا يأكلون منها شيئا بل كانوا يحرقونها وكذلك كانوا لا يأكلون الباقلاء والثوم وبعض
البقول والقطاني قاله أبو الفرج الملقب المعروف بابن العربي وجاء أيضا في كتاب الملل والنحل
للسهرستاني * وعند اختلف أهل التاريخ في تعيين قبلتهم التي كانوا يؤمنونها يومئذ فقال
ابن العربي انها القطب الشمالى وقال غيره انها القطب الجنوبي وقال آخر بل هي مكة وقال
رابع بل كانوا يستقبلون النجم الذى اليه يصلون * قلت ولعل الصحيح في ذلك أنهم لم يكونوا في
أمر القبلة على سنن واحد * وكانوا يحجون على مقربة من حوران بالجزيرة وهي ما بين
النهرين ويعظمون الكعبة وأهرام منف زاعمين أن الاهرام مقابر شيت وابنييه ادريس
وصابئ يزعمون أن هؤلاء وضعوا دين الصابئية فكانوا يتقربون عند تلك الاهرام بمجل أسود
وديك ويحرقون شيئا من الخور وكانوا يقولون أنهم انما سمو بالصابئة نسبة الى صابئ ولد
شيت المذكور والمرجح عند بعض أهل التاريخ أنهم سمو بهذا الاسم من لفظ صبات
أوصباءوت يعنى الجنود السماوية لعبادتهم اياها ويسمى أيضا أهل السياحة بنصارى مارى
يوحنا المجدان وهم يدعون ذلك أيضا ولهم ضرب من المعمودية تشبهه معمودية النصارى
ولذلك كان العرب الآخرون يسمونها المغتسلة ويقال ان هذا الدين هو أحد الأديان التي
تغاضى عنها صاحب الشريعة الاسلامية بشرط أداء الجزية * ومن أديانهم اليهودية أيضا

في جبر وكنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة وأما النصرانية فكانت قد انتشرت فيهم وتمكنت
تمكنا قال الفيروزآبادي واجتمعت على النصرانية قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة وهم
العباد وتنصر كثير من ملوك اليمن والحيرة وكذا كان ملوك غسان كلهم نصارى وكانت
النصرانية في ربيعة وقضاة وهر وتثوخ وتغلب وبعض طي وكانت قريش نصبت في جملة
أصنامها في الكعبة تمثل مريم العذراء أم عيسى المسيح مزوقا وابنها عيسى في حجرها قاعدا
وذلك في العمود الذي يلي باب الكعبة ولم تطمس صورتها لما دخل صاحب الشريعة الكعبة
بل بقيتا إلى عهد ابن الزبير فاحترقتا في الحريق ذكره النويري والازرقى * ومن أصنامهم
أيضا إساف في صورة رجل ونائلة في صورة امرأة جيء بهما من الشام ووضع أحدهما في
الصفاء والاخر في المروة وزعم العرب أنهما جرهميان وان إسافا هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل
ففجرا في الكعبة فسخنهما الله تعالى ججرين ذكره ابن الجنابي

(الفصل الثالث)

(في علوم العرب وآدابهم)

وكان العرب يفاخرون بعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب وكانوا
موصوفين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان وكانت لهم
مع ذلك معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وأمطارها على حسب
ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لاعلى
طريق تعلم الحقائق وأما علم الفلسفة فلم يتبحرهم الله سبحانه شيئا منه ولاهيا طباعهم للعناية
به وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها
والشاهد على حكامها به يأخذون واليه يصيرون وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد أو شاعر ينبغ
فيهم - أوفرستنج * قال الصفدي بل ما كان للعرب ما نفتخر به الا السيف والضيف
والبلاغة * وكانوا كل حول يتقاطرون الى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون
ويتعاطون ولقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عدت الى سبع قصائد من
الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة فقبل لها مذهبات ويقال لها أيضا
معلقات لانها علقت في أستار الكعبة * وكان أسلوبهم في الخطابة مخالفا لخطباء الروم
واليونان والفرس فكانت فقراتهم مثل الجواهر المنثورة لا ارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت
أكثر ماثرة مستعيا بتبريزهم على غيرهم في هذا الأسلوب فكانوا يزعمون أنه ليس في
الامم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب ويتلوهم الفرس

وكانت عكاظ التي يتفانون باشعارهم في سوقها قرية بصعراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة وكان لها سوق أسبوعية يوم الاحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذي القعدة ويستمر موسمها عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أي يتفانون ويتناشدون قالوا وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون في هذه الاسواق ويتحانون وكانت فرسانهم اذا كانت سوق عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا أن يتقنعوا حتى لا يعرفوا وان كانت هذه السوق يؤذن فيها بالتعامل والاخذ والعطاء الا أنه كان الغرض الاهم منها اجتماع خول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لابتداء نشأج أفكارهم وازهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ في ذلك مثل سوق ذي المجاز خلف عرفات ولهم أسواق أخر غير هذه ولكنها كانت غاية في المهابة والاحترام يزورهم فيها الشعراء من كل صوب وحذب فيقوم الشاعر منهم ويبرز في الميدان وأرباب المجلس ثابتون في أماكنهم فينشد الاشعار من قريضة وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها فيحفظونها عن ظهر قلب

وكان أول ما يبرز الشاعر يظهر بظهور الشجاعة والحماس ويتمشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والاعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره ثم يصعد الى مرتفع فينشد بصوت جهوري قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهياها لينشدها في الجمع ولكن كان الغالب على خول شعرائهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقدر غيرهم على الاتيان به ومنهم من كان بخلاف ذلك كما روى عن زهير بن أبي سلمى أنه كان يتظم القصيدة في أربعة أشهر ويهذبها بنفسه في أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه في أربعة أشهر ثالثة فلا يشهرها حتى يأتي عليها حول كامل ولذلك كانت تسمى قصائده بالحوليات ومع هذا فقد قيل انه كان أشعر الجميع * وكان اذا فرغ الشاعر من الانشاد أمعن الحاضرون النظر في شعره فاما أن يستحسنوه واما أن يعيبوه

وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ثم يعود الى انعام انشاده بهمة ونشاط ويجلي عن بنات أفكاره فرائد فيكتب في ذلك المحفل ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة الى هذا الحين وقد مضى عليها أجيال طويلة وكان يجتمع بسوق عكاظ أيضا سادات العرب وملوكهم ورؤساء قبائلهم وعرفاؤهم وكان لمدح الشعراء وقدحهم تأثير في النفوس يترتب عليه كثير من الامور الخطيرة كالخفض والرفع والاعزاز والاذلال وغير ذلك * قيل ان الاعشى كان يأتي عكاظ في كل سنة فمر على بني كلاب وكان المخلوق الكلابي فقيرا خامل الذكرو له بنات لم يخطبن أحد من الأزواج رغبة عن أبيهن لفقره فقالت له امرأته ما يمنعك يا ابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به واكرامه فما رأيت أحدا آواه اليه وجذبه الاوأ كسبه خيرا فقال ويحك

ما عندي الاناقتى فقالت الله يخلقها عليك فنلقاه قبل أن يسبق اليه أحد من الناس وكان
الاعشى بصيرا وله ابن يقوده فأخذ المخلق بخطام ناقة الاعشى فقال الاعشى من هذا الذى
غلبنا على خطامنا فقيل المخلق فقال شريف كريم ثم سلمه ابنه اليه فأنزله ونحرله المخلق ناقتة
وأحاطت به بناته يخدمونه فقال ماهذه الجوارى حولى قال بنات أخيك وهن ثمان نصيبن
قليل فقال الاعشى هل لك حاجة قال المخلق تشيد بذكرى فلعلى أشهر فتخطب بناتى فنهض
الاعشى من عنده ولم يقل فيه شيئا فلما وافى سوق عكاظ اذ هو بمكان قد اجتمع الناس عليه
فأنشد قصيدته القافية التى منها

أمرى لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار باليفاع محترق

تشب لمقرورين يصطليمانها * وبات على النار الندى والمخلق

فاشتهرت هذه الابيات فى العرب وما أدت على المخلق سنة حتى زوج البنات وكانت
تضرب للنابغة الذبياني قبة حرام من آدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأول
من أنشده الاعشى ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة التقدم على جميع شعراء عصره وهو من
فحول الطبقة الاولى المقدمين على سائر الشعراء قال ربى بن خراش قال لنا عمر رضى الله عنه
يامعشر غطفان من الذى يقول

أنتك عاريا خلقتا ثيابى * على خوف تظن بى الظنوننا

قلنا النابغة قال ذلك أشعر شعرائكم وقال عمر بن المنتشر المرادى وفدنا على عبد الملك
ابن مروان فدخلنا عليه فقام رجل فاعتذر اليه من أمر وحلف عليه فقال له عبد الملك أما
كنت حريا أن تفعل ولا تعتذر ثم أقبل على أهل الشام فقال أبكم يروى من اعتذار النابغة
الى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسك ربيبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل على فقال أترويه قلت نعم فأنشدته القصيدة كلها فقال
هذا أشعر العرب وكان الشاعر الحميد يحسب نفرا لقبيلته وكانت القبيلة اذانبغ فيها شاعر
صنعت الاطعمة وأتت القبائل فهنأها بذلك واجتمعت النساء يضربن بالزاهر كما يصنعن
فى الاعراس وتبأشر الرجال والولدان لانه يكون حاية لاعراضهم وذودا عن أحسابهم ومخليدا
لما ترهم وصيانة لنسائهم وإشادة بذكرهم ذكره ابن رشيقي فى العمد * وكان العرب اذا أتوا
الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل دخولهم فى السوق ومن لم يضع
سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكانت هذه السوق أيضا مجمع مكارم الاخلاق كما كانت
مجمع الفصاحة والفروسية فقد حكى أن عامر بن الطفيل العامرى النجدى أحد أشهر
الشعراء كان ينادى مناديه فى هذه السوق هل من راحل فتحمله أو جائع فطعمه أو خائف
فتموته ومن شعره

فانى وان كنت ابن فارس عامر * وسيدها المشهور فى كل موكب

فما سودتني عامر عن ورائة * أبي الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحى جاعها وأتقى * أذاها وأرحى من رماها بمنكب

وكانت أيضا هذه السوق في أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب فقد كان بعض ملوكهم يأخذ مالهم من الاتاوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم مثل جذية العبيس فإنه كان يأخذ الاتاوة من هوازن في هذه السوق فإذا تأخروا هتدهم بالحرب وكانت العرب تقيم بهذه السوق شهر شوال جميعه أو عشرين يوما منه ثم تنقل من تلك السوق بعد انقضاءها الى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوما من ذي القعدة ثم تنقل منها الى سوق ذي المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج * وكانت هذه السوق أيضا من مسببات القتال بين العرب كما وقع ذلك في الفجار الاول والفجار الثاني روى أن سبب الفجار الاول أن بدر بن معشر الغفاري كان له مجلس يجلس فيه في سوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتتلوا وسبب الفجار الثاني أن امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف عن وجهها فأبت فجلس خلفها وهي لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس وقيل لها قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فتأروا بالسلاح ونادى الشاب يا بني كنانة فتأروا كذلك فقامت الحرب بين الفريقين على سافها ثم جاز ثالث ثم رابع قيل ان صاحب الشريعة الاسلامية شهد هذا الفجار وهو في الرابعة عشرة من عمره وقد خرج مع عمومه ورمى فيه بالنبل رواه ابن سعد

وأما الكتابة فقد حكوا أن ثلاثة نفر من طيء وكانوا على دين المسيح وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فمظمه قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر انسانا وقللة القراطيس عندهم عمدوا الى كتف الحيوان فكتبوا عليها وكان الناس فرقتين أهل كابة وأميون والأئى من لا يعرف الكتابة فكان اليهود والمسيحيون بالمدينة والاميون وهم الوثنيون بمكة

وأما الطب عندهم فقد كانت معارفهم فيه قليلة جدا وكانت تغلب عليهم التجربة والاستقراء أو التقليد أحيانا وكان المشهور من أطبائهم رجل يقال له لقمان بن عاد يزعمون أن أباه عاد بن بلعين بن عاد بن عوص بن اران بن سام بن نوح وان لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وذلك عرسبعة أنسر ثم آخر من تيم الرباب اسمه ابن حريم ويضربون به المثل بالحذافة في الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك أطب من ابن حريم وهو أطب العرب عندهم ويفضونه على الحرث قال أوس بن حجر

فهل لكم فيها الى فاني * بصير بما أعيا النطاسي حريما

أما الحرث المذكور فهو الحرث بن كلة من بني ثقيف من أهل الطائف رحل الى أرض

فارس وأخذ الطب عن أهله بجند يسابور وغيرها في الجاهلية وطبيب في أهل فارس وحصل مالا ثم تآقت نفسه إلى الرجوع إلى بلده فرجع وقيل أنه مات سنة ثلاث عشرة للهجرة وقيل سنة عشرين مسموما * ومن أطباءهم أيضا ابن أبي رومية التميمي وكان معاصرا للحرث المذكور ونصر بن الحرث بن علقمة بن كادة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي كان من الجاهلية أخذ أسيرا يوم بدر فقتل وهؤلاء كانوا أشهر أطباء العرب في الجاهلية وقد بقي من كلامهم في الطب ما قاله لقمان بن عاد المتقدم كل داء حسم بالكي ولذلك قالوا في أمثالهم * آخر الطب الكي * وما قاله الحرث بن كندة أيضا من سره البقاء ولا بقاء فليبكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء قال بعضهم يريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دين ومن أنواع معالجتهم أيضا معالجة الاحول بادامة النظر إلى حجر الرجي في حال دورانها يزعمون أن العين تستقيم به ويعالجون الخدر وهو التشنج الذي يعتري الاعضاء فلا تطيق الحركة بأن يدعو صاحبه أحب الناس إليه قال بعضهم وعليه قول بعضهم يخاطب محبوبته

رأى الله يا سلمى حياتي * وفي يوم الحساب كما أراك

إلى كم تمجدين فتى معنى * اذا خدرت له رجل دعاك

فلما جاء الاسلام اتسع نطاق الطب وعلت منزلته وتعلمه الكثير من العرب عن علماء النصرانية واليهودية والفارسية ونبغوا فيه وتفشى بينهم وأما السيف والفروسية فقد كانوا غاية في التمرن عليهما والندب اليهما وذلك لكثرة ما كان يشجر بينهم وكانوا يقولون ان الله ميزهم بأربعة أبدلهم العمام من التيجان والخيام من الدور والحدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع ولم يكن لهم في الجاهلية لعلم العروض قانون يضبط قواعده ويقرر أحواله وانما هم ذلك بعد ظهور صاحب الشريعة الاسلامية يضع سنين أي حينما ظهر الخليل بن أجد الفراهيدي في خلافة الرشيد العباسي ودون أصول العروض * روى الصفدي أن عروضا بصريدعي أبا جعفر جلس يوما عند مقياس النيل في سنة لم يرتفع الماء فيها كعادته وكان لذلك يخشى القحط فيها فأخذ ذلك العروضي يقطع بيت شعر على تفاعله فربه رجل لم يفهم قصده من هذا التقطيع فظن أنه يتلو سحرا على الماء حتى لا يرتفع فنذفه في النيل فغرق

(الفصل الرابع)

(فيما كانت عليه قریش قبل الاسلام)

اجتمعت كلمة جماعة من أصحاب الناريخ على أن قریشا في الجاهلية اختصوا بكثير من

المزايا منها أن اللسان العربي العذب الفصيح الذي نطقت به فحول الخطباء والشعراء هو لسان قريش ومنها أنهم كانوا سكان بيت الله الحرام ولذلك كانوا دائماً آمينين في امتبارهم وتنقلاتهم في رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فإذا عرض لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد وكان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الأربعة الأخوة ولا يتعرض لهم أحد وكان كل أخ منهم قد أخذ حبلاً من ملائكة ناحية سفره أماناً له كالأجزة وكانت قبائل قريش قبل ظهور قصي بن كلاب متفرقة في البوادي فجمعها وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل هذا التجميع النضر بن كنانة فلما جمعهم وأسكنهم في البيت سمو قريشا من التقريش وهو التجميع * وقال بعضهم انما سميت قريش قريشا لدابة في البحر هي أعظم دواب البحر خطراً لا تظفر بشيء من دواب البحر الا أكلته فسميت قريش قريشا لأنها أعظم العرب فعلاً وأعزهم جانباً

قال بعض أصحاب التاريخ وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصي لتكون مجلس القوم نهاراً يجلسون فيها للمشاورة في الأمور المهمة فلم يكن لهم أمر مهم الا اجتمعوا فيها وقصى هو الذي بنى المسجد الحرام بأشراف المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسمى مشعراً وأمروا بالوقوف عنده وتم لقريش في ذلك العهد أن صارت لهم الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة * قالوا فالحجابة هي سدانة البيت الحرام أى تولية مفتاح بيت الله * والسقاية سقى الحاج كلهم الماء العذب وكان نادراً بمكة يجلب إليها من الخارج لسقاية الحاج بل ويتبذل لهم التمر والزبيب للشراب أيضاً * وأما الرفادة فهي اطعام الطعام لسائر الحاج فكانت تمتد لهم الاسمطة في أيام الحج * وأما الندوة فهي المشورة فكان يجتمع فيها من قريش وغيرهم من العرب من أهل الرئاسة من بلغ في العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح لقريش الا فيها * وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاثلون عندها * والقيادة إمارة الجيش ورئاسة الحرب * قيل كانت هذه المناصب كلها لقريش وانتهت إلى عشرة أبطن منها وبقيت لهم في الاسلام أيضاً والعشرة الأبطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجح وسهم قالوا فكان من بني هاشم العباسيون وعبد المطلب يسقى الحج وبقى له ذلك في الاسلام ومن بني أمية أبوسفیان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت اذا حفظت عند رجل أخرجها اذا حيت الحرب فان اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقتلوه * ومن بني نوفل الحرث ابن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترقد به منقطع الحاج * ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة له اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً في بني عبد الدار * ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت اليه المشورة وذلك أن

رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخبروا وكانوا له أعوانا واستشهد يزيد المذكور وهو مع صاحب الشريعة بالطائف * وكان من بني نيم أبوبكر الصديق وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغرم وكان اذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا جمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه * ومن بني مخزوم خالد بن الوليد وكانت له القبة والاعنة فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش وأما الاعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب * ومن بني عدى عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وذلك أنهم كانوا اذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيرا وان نافرهم في المفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به * ومن بني جح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار والازلام فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه * ومن بني سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المنجزة التي سموها لاصنامهم قالوا فهذه الوظائف كلها كانت في قريش على النحو المذكور

وكان لبني هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم يكونوا يرضوا في الجاهلية أن يملك عليهم ملك فاذا حدثت لهم حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيرا كان أو كبيرا وأمر وبالنفر للحرب * وكان للعرب جميعا في الجاهلية كثير من العوائد والاوباد وكانوا ينزلونها منزلة عظيمة ويتنافسون في تعظيمها ففها البعيرة والسائبة والوصيلة والحام والجر والميسر والانصاب والازلام وواد البنات والرفادة في الحج (أما البعيرة) فهي ناقة كانت اذا انتجت خمسة أبطن وكان الاخير ذكرا يبحروا أذننها أي شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمتنع من ماء ولا مري (وأما السائبة) فهي أن الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا يبيح بينهما عقد ولا ميراث (وأما الوصيلة) فتكون في الغنم فاذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وان ولدت ذكرا جعلوه لاصنامهم فان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم (وأما الحام) فهو الذكر من الابل كان اذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا حتى ظهره فلا يحمى عليه ولا يمنع من ماء ولا مري (وأما النجر) فهو ما خامر العقل ومنه سميت النجر خرا وكان باعة النجر في الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم بها ويسمونها الغاية وكان العرب يفتخرون بشربها وبالمقاهرة أيضا لانها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تنافسهم في شرب النجر درجة يستدل عليها بما فعله أبو غبشان من بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر كما تقدم بيان ذلك في محله وما زالت هذه العوائد مرعية بينهم مألوفة في مذهبهم حتى ظهر صاحب الشريعة الاسلامية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي وكان من أمر تحريرها والنهي عنها مالا موضع لذكره هنا الآن

(المقالة الثانية)
(فيما كان بطهون الاسلام وفيه فصول)

(الفصل الاول)
(في طهون صاحب الشريعة الاسلامية)

قال أهل التاريخ وابن اسحق عن قيس مخزومة وقفات بن أثيم وابن عباس ان صاحب الشريعة الاسلامية ولد عام الفيل وقال ابن الكلبي ولد عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم لاربعة وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وأربعين من سلطانه وأرسله الله لمضى اثنتين وعشرين من ملك كسرى ابرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنوشروان وهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك ابرويز * وقال ابن اسحق ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الاول وكان مولده بالدار التي تعرف بدار ابن يوسف قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبها عقيل بن أبي طالب فلم تزل في يده حتى توفي فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج فبنى داره التي يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجه الخيزران فجعلته مسجدا يصلي فيه * وقيل ولد لعشر خلون منه وقيل لثلاثين خلوتا منه * وأول من أرضع صاحب الشريعة ثوية مولاة أبي لهب بلبن ابن له يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي فكانت ثوية تأتي صاحب الشريعة بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكرمها خديجة فأرسلت الى أبي لهب أن يبيعها اياها لتعتقها فأبى فلما هاجر صاحب الشريعة الى المدينة أعتقها أبولهب قال ثم أرضعت صاحب الشريعة بعد ثوية المذكورة حليلة بنت أبي ذؤيب واسمه عبدالله بن الحرث بن شحنة من بني سعد بن بكر بن هوازن واسم زوجها الحرث بن عبد العزى واسم اخوته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة عبدالله وأنيسة وخدامة وهي الشيماء عرفت بذلك وكانت الشيماء تحضنه مع أمه حليلة وورثته حليلة الى أمه وجده عبد المطلب وعمره خمس سنين في قول اه قال ابن اسحق هلك عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به * وقال ابن هشام توفي عبد الله أبو رسول الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوما * وقال الواقدي ثبت عندنا أن عبد الله بن عبد

المطلب أقبل من الشام في غير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفي ودفن في دار النابتة الصغرى * وقال ابن اسحق وتوفيت آمنة وله صلى الله عليه وسلم ست سنين بالابواء بين مكة والمدينة كانت قدمت به المدينة على أخواله من بني النجار تزورهم فماتت وهي راجعة * وقيل ان عبد المطلب زار أخواله من بني النجار وجل معه آمنة وصاحب الشريعة فلما رجع توفيت بمكة ودفنت في شعب أبي ذر قيل والاول أصح * ولما سارت قريش الى أحد يعني الى حرب أحد وقالو بهم تلتب غيظا من صاحب الشريعة وهم في أشد ما يكون من النكابة به هموا باستخراج آمنة من قبرها يعني بنبشها فقال بعضهم ان النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائككم فكفوا بهذا القول وقال ابن اسحق وتوفي عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنين وقيل ابن عشرين اه ولما مات عبد المطلب صار صاحب الشريعة في حجر عمه أبي طالب بوصية من عبد المطلب اليه بذلك لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه وأما نسبه وأخبار آبائه وأجداده فهو محمد بن عبد الله ويكنى عبد الله أبو قثم وقيل محمد وقيل أحمد بن عبد المطلب وكان عبد الله أصغر ولد أبيه فكان عبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزيبر وعبد الكعبة وعاتكة وأمية وبرة ولد عبد المطلب أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة وكان عبد المطلب نذرحسين لقي من قريش العنت في حفر زمزم أنه إن ولده عشرة نفر وبلغوا معه حتى يمنعوه ليعنن أحدهم عند الكعبة لله تعالى فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا كيف نصنع قال يأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بالقداح فدخلوا على هبل في جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم وهو على بئر يجمع فيه ما يهلى الى الكعبة وكان عند هبل سبعة قداح في كل قدح كتاب فقدح فيه العقل اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به فان خرج نعم عملوا به وقدح فيه لا فاذا أرادوا أمرا ضربوا به فاذا خرج لا لم يفعلوا ذلك الامر وقدح فيه منكم وقدح ملصق وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحينما خرج عملوا به * وكانوا اذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو يشكحوا جارية أو يدفنوا جثة أو يشكحوا في نسب أخذ منهم ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذي يضربها ثم فربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم قالوا يا الهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح اضرب فيضرب فان خرج عليه منكم كان وسيطا وان خرج عليه من غيركم كان حليفا وان خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لان نسب له ولا حلف وان خرج عليه شئ سوى هذا مما يعملون به فان خرج نعم عملوا به وان خرج لا أخرجه عامهم ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون في أمورهم الى ذلك مما خرجت به القداح وقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بئر هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره

الذي نذرو كان عبد الله أصغر بن أبيه وأحبهم إليه فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام
عبد المطلب يدعوا لله تعالى ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح على عبد الله فأخذ عبد
المطلب بيده ثم أقبل إلى اساف ونائلة وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما فقامت
قريش من أنديةها فقالوا ما تريد قال أذبجه فقالت قريش وبنوه والله لا تذبحه أبدا حتى
تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه فقال له المغيرة بن عبد الله
ابن عمرو بن مخزوم والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان قداؤه بأموالنا فديناه وقالت له قريش
وبنوه لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بالبحر فسلها فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بمالك
وله فيه فرج قبلته فانطلقوا إليها وهي بخير فقص عليها عبد المطلب خبره فقالت ارجعوا
اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءني المنبر فكم
الدية فيكم قالوا عشر من الابل وكانت كذلك قالت ارجعوا إلى بلادكم وقرّبوا عشرا من
الابل واضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا عشرا حتى يرضى ربكم
وان خرجت على الابل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى أتوا مكة فلما
اجتمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعوا لله ثم قرّبوا عبد الله وعشرا من الابل فخرجت القداح على
عبد الله حتى بلغت الابل مائة ثم ضربوا فخرجت القداح على الابل فخرجت ثم تركت لا يصد
عنها انسان ولا سبع

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بأمنة ابنة وهب أم صاحب الشريعة فإنه لما
فرغ عبد المطلب من الابل انصرف بابنه عبد الله وهو أخذ بيده وخرج به حتى أتى وهب
ابن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بني زهرة فزوجه ابنته أمنة بنت وهب وهي ليرة بنت
عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي وبرة لام حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي
وأم حبيب ليرة بنت عوف بن عبيد بن عريج بن عدي بن كعب فدخل عبد الله عليها حين
أملكها مكانها فحملت بمحمد صاحب الشريعة الإسلامية * وقال الزهري أرسل عبد المطلب
ابنه عبد الله إلى المدينة يمتارلهم غرامات بالمدينة وقيل بل كان بالشام فأقبل في غير قريش
فقتل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها ودفن في دار النابغة الجعدي وله خمس وعشرون سنة
وقيل ثمان وعشرون سنة وتوفي قبل أن يولد له محمد صلى الله عليه وسلم وهو محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر
ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان
اه وكانت وفاة عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين أعني بعد حرب الفيل بثمان سنين
وأوصى أبا طالب بمحمد فكان أبو طالب هو الذي قام بأمره بعد جده ثم إن أبا طالب خرج
إلى الشام فلما أراد السير لزمه صاحب الشريعة فرقه وأخذ معه وله يومئذ تسع سنين
ثم عادا معا إلى مكة فلما بلغ الخامسة والعشرين تزوج خديجة بنت خويلد وهي يومئذ ابنة
أربعين سنة وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا فولدت له أولاده كلهم إلا

ابراهيم وهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى وعبد الله والطاهر والطيب فلما بلغ الاربعين من عمره دعا الناس الى الاسلام وأخذ يذرهم بعذاب الله وينهاهم عما هم فيه من عبادة الاوثان * قال ابن اسحق وكان يذكر ذلك سرا الى من يطمئن اليه من أهله فكان أول من آمن به وصدقته من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد وزوجته اه فتبعه نفر وكانوا اذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا فينبأ سعد بن أبي وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعد بن زيد يصلون في شعب اذ اطلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والخنس بن شريق وغيرهما فسيبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه قيل فكان أول دم أريق في الاسلام

وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم لما أنزل الله على رسوله وأنذر عشيرتك الاقربين اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعا فجلس في بيته كلريض فأتته عماته يعدنه فقال ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الاقربين فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير محبيك فدعاهم صلى الله عليه وسلم فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا فبادره أبو لهب وقال هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصبابة يعنى الخروج عن عبادة الاصنام * واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وان أحق من أخذك ففسك بنو أبيك وان أقت على ما أنت عليه فهو أسير عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتذهبهم العرب فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم في ذلك المجلس اه

ولبت يدعو الناس سرا ثلاث سنين ثم ظهر ونادى قومه بالاسلام قيل فلم يتبعوه منه ولم يردوا عليه الا بعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه وحذب عليه عه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى صاحب الشريعة على ما هو عليه فلما رأت قريش أنه لا يعتبهم من شيء يكرهونه وان أبا طالب قد قام دونه ولم يسلمه لهم مشى رجال من أشrafهم الى أبي طالب عتية وشيبة ابنا ربيعة وأبوسفيان صخر بن حرب وأبو الجحدي بن هشام والاسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبية ومنبه ابنا الحجاج أو من مشى منهم فقالوا يا أبا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أعلامنا وضلل آباءنا فاما أن تكفه عنا واما أن نخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولا جميلا وردهم ردا رفيقا فانصرفوا عنه ومضى محمد لما هو عليه ثم سرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثر قريش من ذكر محمد وما يأتيه في كل يوم وقد تأمروا فيه ومشوا الى أبي طالب مرة أخرى وطلبوا أن يخلي لهم عنه والا قاتلوا حتى يهلك أحسد الفريقين فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له فبعث الى صاحب الشريعة فاعلمه ما قالت قريش وقال له أبقى على نفسك وعلى ولا تحملي من

الامر مالا أطيق ثم ان قريشا اشتدت على من في القبائل من الصحابة الذين أسلموا فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم الى منع محمد فأجابوا الى ذلك واجتمعوا اليه الا ما كان من أبي لهب عم صاحب الشريعة واشتد القوم على من أسلم فجعلوا يحسبونهم ويضربونهم ويعذبونهم بالجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم واشتد أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب على صاحب الشريعة شدة بالغة وكذلك اشتد على المسلمين وكان عظيم التكذيب لصاحب الشريعة دائم الاذى فكان يطرح العذرة والتن على باب محمد وكان جاره فكان محمد يقول أي جوار هذا يا بني عبد المطلب

ولما رأى صاحب الشريعة ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من الشدة وانه لا قبل له بمنع خصومه وقد كثروا جمع اليه المسلمين وقال لهم لو خرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا نفرجوا جميعا مهاجرين فكانت أول هجرة في الاسلام نفرج عثمان وزوجته رقية ابنة صاحب الشريعة معه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامراته معه سبعة بنت سهيل والزبير بن العوام وغيرهم ثمانية عشر رجلا وقيل أحد عشر رجلا وأربع نسوة قيل وكان سيرهم في رجب سنة خمس من نبوة صاحب الشريعة قالوا وهي السنة الثانية من اظهار الدعوة فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس المذكورة ولكن لم يدخل أحد منهم الى مكة الا بجوار أو مستخفيا فدخل عثمان في جوار أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمن بذلك ودخل أبو حذيفة بن عتبة في جوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة وأقام المسلمون بعد ذلك بمكة يؤذون فلما اشتد بهم الحال رجعوا مهاجرين الى الحبشة ثانية نفرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون الى الحبشة فأكمل بها تمام اثنين وعشرين رجلا وصاحب الشريعة مقيم بمكة على ما هو عليه من دعوة الناس الى الاسلام ولم يقو الاسلام قليلا الا بدخول حجرة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه وقد اختلف الرواة في سبب اسلامهما ولا سيما عمر فقال بعضهم قال عمر لما أسلمت أتيت باب أبي جهل بن هشام فضربت عليه بابي نفرج الى وقال مرحبا يا بني أخي ما جاء بك قلت جئت لأخبرك أني قد أسلمت وأمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقت بما جاء به قال فضرب الباب في وجهي وقال فبكك الله وقبح ما جئت به ولما رأت قريش الاسلام يفسدو ويؤذي ائمترو في أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يتعاقدوا معهم شيئا فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا لذلك الامر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبني المطلب الى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب الى قريش فلقى هنذا بنت عتبة فقال كيف رأيت نصري اللات والعزى قالت لقد أحسنت فأقاموا على

ذلك سنتين وقيل ثلاثا حتى جهد المسلمون فكان لا يصل الى أحد منهم شيء الاسرا وكانوا نازلين بالشعب مع صاحب الشريعة ثم قام بعد ذلك نفر من قريش في نقض الصحيفة وشقوها فخرج المسلمون من الشعب وبعد خروجهم بقليل مات أبو طالب فعظمت مصيبتة على صاحب الشريعة واشتدت قريش بعد موته على صاحب الشريعة شدة بالغة ونالت منه حتى كان ينثر بعضهم التراب على رأسه وبعضهم كان يطرح عليه رجم الشاة وهو يصلي وغير ذلك من الايذاء فلما اشتد عليه الأمر خرج ومعه زيد بن حارثة الى ثقيف يلتمس منهم النصر فلما انتهى اليهم عمد الى ثلاثة نفر منهم هم يومئذ سادة ثقيف وهم عبد اليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عبد قعاهم الى الاسلام وكلهم في نصرته والقيام معه على من خالفه فلم ينصروه وقد سخروا به وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا عليه وأجلوه الى حائط (١) لعنة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه ثم رجع السفهاء عنه وعاد هو الى مكة بفعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب فلم يقم منهم أحد لنصرته

(الفصل الثاني)

(في هجرة صاحب الشريعة وفي غزواته وما وقع له بعد ذلك)

واشتد القوم بمكة على صاحب الشريعة وكان معه علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وخافت قريش خروجه من مكة وما يكون من وراء ذلك فاجتمعوا في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب وتشاوروا فيها فتمقررت القاعدة بينهم على قتله وقد علم صاحب الشريعة بذلك فخرج من مكة ولم يشعربه أحد وخرج معه أبو بكر من خوخة في بيت أبي بكر ثم عمدا الى غار بنور فدخلا وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا فكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما في الغار ثلاثا وجعلت قريش مائة ناقة لمن يردعه عليهما فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتابهما دليلهما وهو وثني اسمه عبد الله بن أرقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق يبيعيريهما فركبا وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة لخدمتهما في الطريق وساروا قاصدين المدينة فنزلوا بها وكان علي قد تخاف عنهم بمكة ليؤدي الودائع لاربابها فلما أداها وافاهم الى المدينة بعد ثلاث ولحق بهم من أسلم فلما كان بعد سبعة أشهر عقد صاحب الشريعة لعمه حمزة لواء أبيض في ثلاثين رجلا من المهاجرين ليتعرضوا لعير قريش فلقى أبا جهل في ثلاثة رجل فجز بينهم مجدي ابن عمرو الجهني وكان يحمل اللواء أبو مرثد وهو أول لواء عقده ثم عاد فعقد لواء لعبيدة بن الحرث بن المطلب وكان أبيض يحمله مسطح بن أثانة فالتقى هو والمشركون فكان بينهم

(١) الحائط هو البستان

الرحى دون المسابقة فخرج من الفريقين ثم عقد لواء ثالثا لسعد بن أبي وقاص وسيّره
الى الابواء وكان يحمل اللواء المقداد بن الاسود وكان مسيره في ذى القعدة وجميع من معه
من المهاجرين فلم يلق حربا (جعل الواقدي هذه السرايا جميعها في السنة الاولى من الهجرة)
وجعلها ابن اسحق في السنة الثانية فقالا على رأس اثني عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى
الله عليه وسلم المدينة خرج غازيا واستخلف على المدينة سعد بن عباد فبلغ ودان يريد قريشا
وبنى ضمرة من كنانة وهى غزاة الابواء بينهما ستة أميال فوادعهم فيها بنو ضمرة ورئيسهم
مخشي بن عمرو ثم رجع الى المدينة ولم يلق حربا اه وذكرا بن اسحق بعد هذه الغزوة غزوة
عبدة بن الحرث ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب وابتقى في هذه بالمدينة مسجدا ودارا لسكنائه في
قطعة أرض كانت قبل ذلك مريدا وقيل مقبرة وكانت في ملك يثمين يقال لهما سهل وسهيل
ابنا عمرو فاشتراها صلى الله عليه وسلم منهما ثم ان المدينة كانت تسمى يثرب قبل استيطان
صاحب الشريعة بها ثم سميت بالمدينة بعد استيطانها

وخرج صاحب الشريعة بعد ذلك يريد غزاة بواط في مائتين من أصحابه في شهر ربيع
الآخر يعنى سنة اثنتين يريد قريشا حتى بلغ بواط من ناحية رضوى وكان في عير قريش أمية
ابن خلف الجهمي في مائة ومعهم ألفان وخسمائة بعير فرجع ولم يزل منهم وكان حامل اللواء
في هذه الغزوة سعد بن أبي وقاص وقد كان استخلف على المدينة قبل خروجه منها سعد بن
معاذ ثم غزا غزوة العشيرة من ينبع في جادى الاولى يريد قريشا حين ساروا الى الشام فلما
وصل العشيرة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ورجع ثم غزا غزوة أخرى ليست من
الاهمية بشئ * وزوج على بن أبي طالب فاطمة في صفر من السنة الثانية * وفي هذه السنة
في شهر رمضان منها في سابع عشره وقيل تاسع عشره كانت غزوة بدر الكبرى وسيبها قتل
عمرو بن الحضرمي واقبال أبى سفيان بن حرب في عير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال
كثيرة ومعها ثلاثون رجلا أو أربعون وقيل قريب من سبعين رجلا من قريش منهم مخزومة
ابن نوفل الزهري وعمرو بن العاص فمات فيها كثير من قريش وانهمزمت قريش شر هزيمة
ولما كان لهذه الغزوة ذكر مشهور في التاريخ رأيت أن أخلص خبرها هنا * خرج
أبوسفيان متاجرا الى الشام في ألف من عير قريش فسمع به صاحب الشريعة ومن معه
من الانصار والمهاجرين ومن لادبهم من العرب فهموا بالخروج اليه فتحرّز وتأهب للقتال
فلم ينالوا منه فانتظروا الى أن عاد قافلا يريد مكة فمكثوا له فأعلم بذلك قريشا واستنفرهم الى
أموالهم فأسرعوا اليه بجيولهم ورجلهم وكانوا في نحو مائة فارس وثمانمائة راجل وكان
صاحب الشريعة في ثلثمائة وثلاثة عشر راجلا سبعة وسبعون من المهاجرين والباقيون من
الانصار فلما بلغ صاحب الشريعة وادى بدر جاء الخبر أن العير مقبلة من جهة قريشا
مقبلة من جهة أخرى فشاور أصحابه في أى الطائفتين يتعدى لها أولا فأجمع رأيهم على ترك
العير ومقابلة قريش أولا فتنزلوا على أدنى ماء من القوم وصف رجاله وشدد عزائمهم ووعدهم

بالنصران صدقوا في القتال ثم بنى له عريش فصار عليه مع أبي بكر وجعل ينادي ربه في النصر فقال اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبدوا واشتد المشركون على أصحاب صاحب الشريعة حتى كادوا ينالون منهم قيل فنزل صاحب الشريعة عن العريش وأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم رماهم بها وقال شأهت الوجوه قيل فسمعوا صوته فانخلعت قلوبهم وخيل لهم أن الملائكة تقاتلهم فانهمزموا وقتل من صناديدهم سبعون فاهينت جثثهم وأسر سبعون فاقتدوا أنفسهم بأربعة آلاف درهم الأبا معيط والنضرب الحارث وكانا شديدي الاذى لصاحب الشريعة فأمر بهما فقطلا صبرا ثم أدرك أصحابه غير قريش فأنتهبوها وكان خمس صاحب الشريعة منها عشرين ألف درهم فقفل الى المدينة غانما

ثم كانت بعد ذلك غزوة قينقاع ثم غزوة الكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة أحد وكانت من أشد الغزوات مات فيها من الفريقين خلق كثير وكانت نساء قريش يحترضن الرجال على اصطلاء نار الوغى ويضربن خلفهم بالدفوف وينهين امرأه تقول هذه الابیات

نحس بنات طارق * نغشى على النمارق
مشى القطا البوارق * والمسك في المفارق
والدرف في المخانق * ان تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق * أو تدبروا نفارق
* فراق غير وامق *

وكانت تقول أيضا

ويها بنى عبد الدار * ويها حمة الديار * ضربا بكل بشار

فكانت تندفع أبطال قريش في ميدان القتال اندفاع الاسود الضواري غير هيايين ولا حاسيين للوت حسابا * ثم كانت غزوة الرجيع وقد قتل فيها كثير من المسلمين وبينهم خبيب أخذ أسيرا فبقى أياما ثم قتله صبرا ثم كانت غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لجبل كانت الواقعة فيه ثم غزوة بدر الثانية وتعرف أيضا بغزوة السويق ثم غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب كانت في شوال وكانت من الغزوات الكبيرة وذلك أن يهود بنى قريظة كان بينهم وبين صاحب الشريعة عهد أن لا يعينوا عليه أحدا ولا يمشروا عليه حربا ويتركهم وشأنهم يخالفوا ونقضوا وحزبوا العرب لاستئصال المسلمين فاجتمع منهم خلق كثير جدا وساروا الى المدينة فحشد المسلمون حولهم وتربسوا بالمدينة وقتلوا فيمنعهم كذلك اذ قامت ريح عاصفة فاقتلعت خيام الاعداء فانخذلوا ثم اختلفوا وتفرقوا وساروا عن المدينة وتركوا متاعهم وكان من وراء ذلك غزوة يهود بنى قريظة وموت الكثير منهم ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة قال بعض أهل التاريخ كانت هذه الغزوة بعد غزوة ذي قرد وكانت في شعبان من سنة ست فلما كانت سنة سبع وقد تقوت عزيمه صاحب الشريعة وعلمت كلمته بعث رسلا من عنده

إلى مالوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام فأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر وأرسل
 شجاع بن وهب الأسدي إلى الحرث بن أبي شهر الغساني وأرسل دحية إلى قيصر وأرسل
 سليط بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي الحنفي وبعث عبدالله بن حذافة إلى كسرى وأرسل
 عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوا أخي
 عبيد القيس وكان لكل من هؤلاء الملوكة مع الرسل المذكورين شأن لا يحصل له هنا فأما
 المقوقس عظيم القبط بمصر فقبل أنه قبل الكتاب وأهدى إليه مع الرسول أربع جوار منهم
 مارية أم إبراهيم ولد صاحب الشريعة ثم كانت غزوة خيبر سار إليها صاحب الشريعة في ألف
 وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس وكان مسيره إليها في المحرم سنة سبع واستخلف على المدينة
 سباع بن عرفة الغفاري قضى حتى نزل بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وغطفان لأنهم كانوا
 مظاهرين لهم وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبرى وفتحت البلدة في صفر من هذه السنة فلما
 استقر بها أهدت إليه زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعها
 بين يديه فأخذ منها مضغة فبل فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها * قال
 الراوي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة ثم دعا المرأة
 فاعترفت فقال ماجل على ذلك قالت بلغت من قومي مالم يخف عليك فقلت إن كان نبيا
 فسيخبر وإن كان ملكا استرحنا منه قال فتجاوز عنها اه

ومات بشر من تلك الأكلة وكان صاحب الشريعة يقول في مرضه الذي مات به لقد
 وجدت الآن انقطاع أبهرى من أكلة خيبر فكان المسلمون يرون أنه مات شهيدا مع كرامة
 النبوة * ولم يمض على صاحب الشريعة إلا بضعة سنين حتى ظهرت كلمته وعلت شهرته ونال
 الظفر في أكثر مغازيه * ومنها غزوة أحد فلما كانت السنة الثانية من هجرته خرج
 معتمرا إلى مكة في ألف وأربعمائة رجل وكان مسالما لا يريد حربا فلما بلغ الحديبية وهي
 موضع بعضه في الحل وبعضه في الحرم أرسل إليه قريش يعلمونه أنهم لا يأذنون له في دخول
 مكة أو يدخلها عنوة فجمع رجاله وأخذ عليهم بين الطاعة وبإيعوه بيعة الرضوان وعزم على
 مناجزة القوم بمكة فجاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير التقفيين يسأله الصلح * وفي رواية
 أن الذي جاءه في ذلك سهيل بن عمرو وأن عروة انما ذهب إليه أولا يقول أنهم لا يدعونه يدخل
 مكة إلا عنوة أي بعد قتال * فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشرين سنين وكتبوا بذلك
 عهدا وكان مما جاء في العهد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد دخل فيه ومن أحب أن
 يدخل في عقد قريش دخل فيه * ولما عاد عروة بن مسعود إلى قريش قال لهم اني جئت
 كسرى وقيصر في ملكهم فوالله ما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه كان لا يتوضأ الا
 ابستدروا وضوءه ولا يبصق الا ابتدروا بصاقه ولا يسقط من شعره شيء الا أخذوه تبركا *
 ذكره ابن الأثير وأبو الفداء وابن هشام والقاضي عياض

وفي ذي الحجة من السنة أي سنة سبع اعتمر صاحب الشريعة عمرة القضاء وساق معه

سبعين بدنة وخرج معه المسلمون ممن كان معه في عمرته الاولى فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش أنه وأصحابه في عسر وجهد فاصطفوا له عند دار الندوة فلما دخلها اضطجع بردائه فأخرج عضده اليمنى ثم قال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة ثم استلم الركن وخرج بهرول وبهرول أصحابه وكان بين يديه لما دخل مكة عبدالله بن رواحة آخذاً بمخظام ناقته ويقول

خلوا بني الكفار عن سبيله * خلوا فكل الخير في رسوله
يارب اني مؤمن بقبيله * أعرف حق الله في مقوله
فحن قتلناكم على تأويله * كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

ولما كانت سنة ثمان غزا غزوة ذات السلاسل ثم غزوة الخبط وغيرهما ثم غزوة مؤتة وكانت في جمادى الاولى من هذه السنة وهى من الغزوات الكبرى ومؤتة قرية انجاز اليها المسلمون يوم القتال ثم ان بنى بكر بن عبد مناة غدت على خزاعة وهم على ماء لهم باسفل مكة يقال له الوثير وكانت خزاعة في عهد صاحب الشريعة وبكر في عهد قريش في صلح الحديبية وكان سبب ذلك أن رجلا من بني الحضرمي اسمه مالك بن عباد كان حليفا للاسود بن رزن الديلي ثم البكرى في الجاهلية خرج تاجرا فلما كان بأرض خزاعة قتلوه فعدت خزاعة على بنى الاسود بن رزن وهسم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة وكانوا من أشرف بنى بكر فبينما خزاعة وبكر على ذلك انجاء الاسلام واشتغل الناس به فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة في عهد صاحب الشريعة ودخلت بكر في عهد قريش اغتتم بنو بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بنى الاسود فخرج نوفل بن معاوية الديلي بمن تبعه من بكر حتى بيت خزاعة على ماء الوثير وقيل كان سبب ذلك أن رجلا من خزاعة سمع رجلا من بكر ينشد هجاء صاحب له فشجبه فهاج الشريينهم وثارت بكر بخزاعة حتى يتوهم بالوثير وأعانت قريش بنى بكر على خزاعة بشئ من السلاح والدواب وقال معهم جماعة من قريش أيضا محتفين قبل منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة الى الحرم فقال بنو بكر يا نوفل انا قد دخلنا الحرم الهك الهك فقال لاله الله اليوم يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلمرى انكم لتسرفون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه فلما انقضت بكر وقريش العهد الذى بينهم وبين صاحب الشريعة خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثم الكعبي حتى قدم على صاحب الشريعة المدينة فوقف عليه ثم أئسد

يارب اني ناشد محمدا * حلف أينا وأبيه الاتلدا
فوالدا كما وكنت الولدا * ثمت أسلمنا فلم نسنزع يدا
فانصر رسول الله نصرأعتدا * وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا * أبيض مثل المديتنى صعدا

ان سيم خسةا وجهه تربدا * في فبلق كالبحر يجرى مزبدا
 ان قريشا أخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وجه لوالى في كداء رصدا * وزعوا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذل وأقل عـددا * هم يبتونا بالونير هـجـدا
 وقتلونا ركعا وسجدا

فقال صاحب الشريعة لقد نصرت يا عمرو بن سالم

(الفصل الثالث)

(في فتح مكة)

تأهب صاحب الشريعة وأمر الناس بالتأهب لفتح مكة فلما شاع الخبر كتب حاطب
 ابن أبي بلتعة كتابا الى قريش يعلمهم الخبر وسيه مع امرأة من مزينة اسمها كنود وقيس مع
 سارة مولاة لبني المطلب تعلمهم الخبر وسيه معها فعلم صاحب الشريعة بذلك فأرسل عليا
 والزبير فأدركاها وأخذها منها الكتاب وجاء به اليه فأحضر حاطبا وقال ما جئت على هذا فقال
 والله اني مؤمن ما بدلت ولا غيرت ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فصانعتهم
 عليهم فقال عمر دعني أضرب عنقه فإنه قد نافق وجاء الخبر بتأهب صاحب الشريعة لقتالهم
 على مكة فخافوا وخشوا العاقبة وسيروا أبا سفيان الى صاحب الشريعة لتلافي الامر وتجديد
 العهد فلم يأذن له صاحب الشريعة في الدخول عليه فقصده أبا بكر وعليهما فلم يلبيا فرجع الى
 مكة خائبا وتجهز صاحب الشريعة يريد أخذ قريش قبل أن يتأهبوا ونزع لعشر مضي
 من رمضان واستخلف على المدينة أبا رهم كثموم بن حصين النخاري فلم يصل مكة حتى بلغ
 جيشه عشرة آلاف ولما رأى أهل مكة أن لا قبل لهم بمثل هذا الجيش العظيم نزلوا على
 حكم صاحب الشريعة وداؤوا بدينه وأسلم كذلك أبا سفيان وقتل من المشركين ثمانية وعشرون
 رجلا قتلهم خالد وأسلم أهل مكة كافة الا ستة رجال وأربع نسوة كانوا أشد جرما عند
 صاحب الشريعة من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الاسلام ثم قتلوا منهم ثلاثة رجال
 وامرأة واحدة وأسلم الباقيون وفازت واحدة من النسوة بالهرب فلم يوقف لها على أثر الا
 بعد حين فكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان

ولما فتحت مكة بعث صاحب الشريعة الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدى
 قال ساعد حين وجهه * اليوم يوم المحمة * اليوم تسفل فيه الكعبة * قال فسمعها
 رجل من المهاجرين فأعلم صاحب الشريعة فقال لعلي بن أبي طالب أدركه نخذ الراية
 وكن أنت الذي تدخل بها وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من الليط في بعض

الناس وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب فلما وصل صاحب الشريعة الى ذى طوى وقف على راحلته وهو معتبر بشقة برد حبرة أجر ثم تقدم ودخل من أذخر بأعلاها وضربت قبته هناك

ووقف صاحب الشريعة على باب الكعبة وقال يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم فلذلك سمي أهل مكة (الطلاق) وطاف صاحب الشريعة بالكعبة سبعا ودخلها وصلى فيها ثم جلس للبيعة في الصفا وعمر بن الخطاب تحته واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فكانت هذه بيعة الرجال ثم أخذ يبايع النساء فأتاه منهن نساء من قريش منهن أم هانئ بنت أبي طالب وأم حبيبة بنت العاص بن أمية وكانت عند عمرو بن عبد ود العامري وأروى بنت أبي العيص عمة عتاب بنت أسيد وأختها عاتكة بنت أبي العيص وكانت عند المطلب بن أبي وداعة السهمي وأممية بنت عثمان بن أبي العاص أخت عثمان وكانت عند سعد حليف بني مخزوم وهند بنت عتبة وكانت عند أبي سفيان وبسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وأم حكيم بنت الحرث بن هشام وكانت عند عكرمة ابن أبي جهل وفاخنة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف وريطة بنت الحجاج وكانت عند عمرو بن العاص وغيرهن وكانت هند متسكرة لصنيعها بحمزة فهي تخاف أن تؤخذ به وقال لهن تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئا قالت هند انك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذ على الرجال فسنؤتيك قال ولا تسرفن قالت والله ما كنت أصيب من مال أبي سفيان الا الهبة بعد الهبة فقال أبو سفيان وكان حاضرا أما مامضى فأنت منه في حل فقال صاحب الشريعة أهد قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك قال ولا ترين قالت وهل ترني الحرة قال ولا تقتلن أولادكن قالت رييانهن صغارا وقتلنهم يوم بدر كبارا فأنت وهم أعلم فضحك عمر قال ولا تأتين بهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن قالت والله ان اتيان البهتان لقبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق قال ولا تعصينني في معروف قالت ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فقال صاحب الشريعة لعمر بايعهن ففعل * قال أهل التاريخ ولما جاء وقت الظهر أمر صاحب الشريعة بلالا أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال فلما أذن وقال أشهد أن محمدا رسول الله قالت جويرة بنت أبي جهل لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة وقال خالد بن أسعد لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام ليتني مت قبل هذا اليوم وقال جماعة نحو هذا القول تحاملا واستخفافا

(الفصل الرابع)

(في ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته)

ابتدأ المرض بصاحب الشريعة في أواخر صفر في بيت زيتب بنت جحش وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه في بيت ميمونة فجمع نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة وبينما هو في مرضه اذ وصلت الاخبار بظهور الاسود العنسي باليمن ومسيمة باليمامة وطلحة في بني أسد وعسكر بسميراء فتأخر مسير أسامة وكان قد عقد له لواء وأمره بالغزو قبل أن يشغل به مرضه وكذلك تأخر لخبر الاسود العنسي ومسيمة فخرج صاحب الشريعة عاصبا رأسه من الصداع وأمر بإفاد جيش أسامة ولعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وخرج أسامة فضرب بالجرف المعسكر وتمهل الناس وثقل صاحب الشريعة ولم يشغله شدة مرضه عن انفاذ الغزوة فأرسل الى نفر من الانصار في أمر الاسود فأصيب الاسود في حياة صاحب الشريعة قبل وفاته بيوم فأرسل الى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين وقد اشتد به المرض شدة بالغة وازداد ألمه * قال ابن مسعود نعي الينا نبينا وحبينا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة فنظر الينا فشد وددعت عيناه وقال مرحبا بكم حياكم الله رحكم الله أو اكم الله حفظكم الله رفعكم الله وفقكم الله سلمكم الله قبلكم الله أو صيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم وأستخلفه عليكم حذركم الله اني لكم منه نذير وبشير أن لاتعلوا على الله في عباده وبلاده فانه قول لي ولكم تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين * قلنا فتى أجلك قال دنا الفراق والمنقلب الى الله وسدرة المنتهى والرفيق الاعلى وجنة المأوى فقلنا من يغسلك قال أهلى قلنا فيم نكفئك قال في ثيابي أو في بياض قلنا فن صلى عليك قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا فبكينا وبكى ثم قال دعوني على سريري على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة ليصلي على جبريل واسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا على فوجا فوجا فصلوا على ولا تؤذوني بتزكية ولا رنة أقرؤا أنفسكم مني السلام ومن غاب من أصحابي فأقرؤه مني السلام ومن تابعكم على ديني فأقرؤه مني السلام اه قال ابن عباس يوم الخميس وما يوم الخميس * ثم جرت دموعه على خديه * اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه ووجعه فقال اتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتابا لاتضلون بعدي أبدا فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمجر جمعوا يعيدون عليه فقال دعوني بما أنا فيه خير مما تدعونني اليه فأوصى أن يخرج

المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوعد بنحو ما كان يجيزهم وسكت عن الثالثة عمدا
أو قال نسيها اه

وخرج علي بن أبي طالب من عند صاحب الشريعة في مرضه فقال الناس كيف أصبح
رسول الله فقال أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده العباس فقال أنت بعد ثلاث عبيد العصا
وان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفي في مرضه هذا واني لاعرف الموت في وجوه بني
عبد المطلب فاذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله فيمن يكون هذا الامر فان
كان فينا علمناه وان كان في غيرنا أمره فأوصى بنا فقال علي لئن سألتها رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنعناها فلا يعطيناها الناس أبداً والله لأسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
فما اشتد الضحى حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم * وكان موته يوم الاثنين لليلتين
خلتا من ربيع الاول * ولما توفي كان أبو بكر بمنزله بالسج لانه كان قد تخلف عن الخروج
في جيش أسامة لما تحقق من شدة مرض صاحب الشريعة وقرب وفاته وعمر حاضر فلما
شاع خبر موته كثر توارد العرب من كل صوب وحذب وعلت الضوضاء وارتفعت الجلبة
واشتد الهرج والمرج وظهرت دلائل الردة وقام كل ذى مرض في الصدر وافتنوا أو كادوا
فقام عمر بينهم فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي
وانه والله مامات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله صلى
الله عليه وسلم فيقطع أيدى وأرجل رجال زعموا أنه مات وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس
وهم في ضجة فدخل علي صاحب الشريعة وهو مسجى في ناحية البيت فكشف عن
وجهه ثم قبله وقال بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا أما الموتة التي كتب الله عليك فقد متها
ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكون فأبى وعلا صوته وشد
القول فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله
فان الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية * وما محمد الا رسول قد خات من قبله الرسل أفان
مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله
الشاكين * قال الراوى فوالله لكان الناس ما سمعوها الا منه وقال عمر فوالله ما هو الا اذ
سمعتها فغفرت حتى وقعت على الارض ما تحملى رجلاى وقد علمت أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد مات اه

ولما مات صاحب الشريعة ووصل خبره الى مكة وعامله عليها عتاب بن أسيد بن أبي
العاص بن أمية استخفى عتاب وارنجت مكة وكاد أهلها يرتدون واجتمعوا حول الكعبة وكثر
ضجيجهم فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال يا أهل مكة
لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن الله هذا الامر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقد رأته قائما مقامى هذا وحده وهو يقول قولوا معي لا إله الا الله كلمة تدين لكم بها العرب

وتؤدى لكم الجحيم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وفيصرف في سبيل الله فمن بين مستهزئي
ومصدق فكان ما رأيتم والله ليكونن الباقي فاستمع الناس من الردة وقبل الهرج وتطامن
القلوب واجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عباد فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم
ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال ما هذا فقالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر منا
الامراء ومنكم الوزراء ثم قال أبو بكر قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة
أمين هذه الامة * فقال عمر أيكم بطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبي صلى الله عليه
وسلم فبايعه عمر وبايعه الناس فقالت الانصار لانيبايع الاعلياً وتخلف عليّ وبنو هاشم والزبير
وطلحة عن البيعة وقال الزبير لا أعمد سيفاً حتى يبايع علي فقال عمر خذوا سيفه واضربوا
به الجرح ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع علي ببيعة أبي بكر خرج في قيص ماعليه
ازار ولا رداء عجل حتى بايعه ثم استدعى ازاره ورداه فتجلله * قال بغض أهل التاريخ والصحيح
أن علياً ما بايع الا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان
وهو يقول اني لارى عجاجة لا يطفئها الا دم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم أين
المستضعفان أين الاذلان علي والعباس ما بال هذا الامر في أقل حي من قريش ثم قال لعلي
ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً فأبى علي عليه فتمثل بشعر المناس
ولن يقيم علي خسف يراد به * الا الاذلان غير الحى والود

هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرث له أحد

قيل فزجره علي وقال والله أنك ما أردت بهذا الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام
شراً لا حاجة لنا في نصيحتك * وقال ابن عباس كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف القرآن
فخج عمر وججنا معه فقال لي عبد الرحمن شهدت أمير المؤمنين اليوم عني وقال له رجل
سمعت فلانا يقول لومات عمر لبايعت فلانا فقال عمر اني لقاتم العشي في الناس أحذرهم
هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم قال فقلت يا أمير المؤمنين ان الموسم
يجمع رعاي الناس وغوغاهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لا يعوها
ولا يحفظوها وبطبروا بها ولا يمكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فنقول ما قلت فيعوا مقالتك فقال والله لأقومن بها أول مقام أقومه
بالمدينة قال فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن فلما جلس عمر على
المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال بعد أن ذكر الرجم وما نسخ من القرآن فيه * انه بلغني أن
قائلاً منكم يقول لومات أمير المؤمنين بايعت فلانا فلا يغرن امراً أن يقول ان بيعة أبي
بكر كانت فلتة فقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع اليه الاعناق
مثل أبي بكر وانه كان خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وان علياً والزبير ومن
معهما تخلفوا عناني بيت فاطمة وتخلف عنا الانصار واجتمع المهاجرون الى أبي بكر فقلت له
انطلق بنا الى اخواتنا من الانصار فانطلقنا فمحوهم فلقينا رجلاً من الانصار أحدهما

عويم بن ساعدة والثاني معن بن عدى فقالا لنا ارجعوا اقضوا أمركم بينكم قال فأتينا الانصار وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجع فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه وقال * أما بعد فتكن الانصار وكنية الاسلام وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا وقد دفت البنا دافة من قومكم فاذا هم يريدون أن يغصبونا الامر فلما سكنت وكنت قد زورت في نفسي مقالة أقولها بين يدي أبي بكر فلما أردت أن أنكم قال أبو بكر على رسلك فقام فحمد الله وماترك شيئا كنت زورت في نفسي الاجابة أوبأحسن منه وقال * يامعشر الانصار انكم لاتذكرون فضلا الاوائتم له أهل وان العرب لاتعرف هذا الامر الا لقريش وهم أوسط العرب دارا ونسبا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ يدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح والى والله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها ان كنت أقدم فتضرب عنقي فيما لا يقربني الى اثم أحب الى من أن أوامر على قوم فيهم أبو بكر * فلما قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الاصوات والغلط فلما خفت الاختلاف قلت لابي بكر ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته وبايعه الناس ثم نزونا على سعد بن عبادة فقال قائلهم قتلتم سعدا فقلت قتل الله سعدا وانا والله ما وجدنا أمرا هو أقوى من بيعة أبي بكر خشيت ان فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فأما أن نتابعهم على ما لانرضى واما أن نخالفهم فيكون فسادا اه

وقال أبو عمرة الانصارى لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الانصار في سقيفة بني ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليملوه الامر وكان مريضا فقال بعد أن حمد الله * يامعشر الانصار لكم سابقة وفضيلة ليست لاحد من العرب ان محمدا صلى الله عليه وسلم لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به الا القليل ما كانوا يقدرون على منعه ولا على اعزاز دينه ولا على دفع ضيق حتى اذا أراد الله بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ورزقكم الايعان به وبرسوله والمنع له ولاصحابه والاعزاز له ولدينه والجهاد لاعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمير الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغرا فدانت لرسوله بأسيا فكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدوا بهذا الامر دون الناس فإنه لكم دونهم * فأجابوه بأجمعهم قد وفقنا وأصبحت الرأي ونحن نوليك هذا الامر فانك مقنع ورضاء للمؤمنين ثم انهم ترادوا الكلام وأبى المهاجرون من قريش وقالوا نحن المهاجرون وأصحابه الاولون وعشيرته وأوليؤه فقالت طائفة منهم فانا نقول منا أمير ومنكم أمير وان نرضى بدون هذا أبدا فقال سعد هذا أول الوهن وسمع عمر الخبير فأتى منزل صاحب الشريعة وأبو بكر فيه فأرسل اليه أن اخرج الى فأرسل اليه انى مشغل فقال عمر قد حدث أمر لابد لك من حضوره فخرج اليه فأعلمه الخبر فضا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة قال عمر فأتيناهم وقد كنت زورت كلاما أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكننى أبو بكر وتكلم

بكل ما أردته حمد الله وقال * ان الله قد بعث فينا رسولا شهيدا على أمته ليعبدوه ويوحده
وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم
نخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه
وتكذيبهم اياه وكل الناس لهم مخالف زائر عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس
لهم فهم أول من عبد الله في هذه الارض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق
الناس بهذا الامر من بعده لا ينازعهم الا ظالم * وأنتم يامعشر الانصار من لا ينكر فضلهم في
الدين ولا سابقتهم في الاسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته فليس بعد
المهاجرين الاولين عندنا بمنزلةكم فنحن الامراء وأنتم الوزراء لانفواوتون بمشورة ولا تقضى
دونكم الامور * فقام الحباب بن المنذر بن الجوح فقال * يامعشر الانصار املكوا عليكم
أمركم فان الناس في ظلمكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولا يصدروا الا عن رأيكم أنتم أهل
العز وأولو العدد والمنعة وذوو البأس وانما ينظر الناس ما صنعون ولا تختلفوا فيفسد
عليكم أمركم أبي هؤلاء الامام هم فمنا أمير ومنكم أمير فقال عمر هيأت لايجمع اثنان
والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت
النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الطاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته فقال
الحباب بن المنذر يامعشر الانصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا
بنصيبيكم من هذا الامر فان أبوا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الامر
فأنتم والله أحق بهذا الامر منهم فانه بأسياءكم دان الناس لهذا الدين أنا جذيلها المحكك
وعذيقها المرجب أنا أبو شبل في عريضة الاسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة فقال عمر اذن
ليقتلك الله فقال بل اياك يقتل * فقال أبو عبيدة يامعشر الانصار انكم أول من نصر فلا
تكونوا أول من بدل وغير * فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال * يامعشر الانصار انا
والله وان كان أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين ما أردنا به الارضاء ربنا وطاعة نبينا
والكدح لانفسنا فما ينبغي أن نستطيع على الناس بذلك ولا نتبعي به الدنيا إلا ان محمدا صلى
الله عليه وسلم من قریش وقومه أولى به وإيم الله لا يراني الله أنا نازعهم هذا الامر فانتقوا الله
ولا تخالفوهم * فقال أبو بكر هذا عمر وأبو عبيدة فان شئتم فبايعوا فقالوا والله لا نتولى هذا
الامر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة وهي
أفضل دين المسلمين بسط يدك نبايعك فلما ذهب يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه
الحباب بن المنذر عقت عقتا أنفست على ابن عمك الامارة فقال لا والله ولكني كرهت أن
أنازع القوم حقهم * ولما رأث الاوس ما صنع بشير وما تطلب الخروج من تأمير سعد قال
بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيبا والله لئن وليتها الخزرج مرة لازالت لهم
عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيبا أبدا فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فانكسر
على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحول سعد

ابن عبادة الى داره فبقى أياما وأرسل اليه ليبايع فان الناس قد بايعوا فقال لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي وأخضب سنان رجعي وأضرب بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني ولو اجتمع معكم الجن والانس ما بايعتكم حتى أعرض علي ربي فقال عمر لا تدعه حتى يبايع فقال بشير بن سعد انه قد بلغ وأبي ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولا يضركم تركه وانما هو رجل واحد فتركوه * وجاءت أسلم فبايعت فقوى أبو بكر بهم وبايع الناس بعد * قيل ان عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد متى يبيع أبو بكر قال يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهوا أن يبكوا بعض يوم وليسوا في جماعة * قال الزهري بقي علي وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبابكر حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها فبايعوه فلما كان الغد من بيعة أبي بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس فدللت عليكم وليست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عفى حتى أخذله حقه والقوى ضعيف عندي حتى أخذ منه الحق ان شاء الله تعالى لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الاضربهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله اه

ولما بيع أبو بكر أقبل الناس على جهاز صاحب الشريعة ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الاربعاء وقيل بقي ثلاثة أيام لم يدفن وكانت مدة مرضه أربعة عشر يوما وقيل سبعة أيام بذات الجنب فلما كان اليوم السابع من مرضه مات * قال ضمran مات وتحنه في مرضه شملة حمراء وعليها مات وفيها أدرج بعد موته وورى التراب بغير غسل ولا أكفان * وروى عمران بن حضير الخزاعي أنه غسل وأدرج في ثلاثة أثواب سهولية أي بيض يمانية وان الذي تولى ذلك معه علي بن أبي طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عه واختلفوا أين يدفونه فقال أبو بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قبض نبي الا دفن حيث قبض فرفع فراشه ودفن موضعه حفرة أبو طلحة الانصاري لحدا ودخل الناس يصلون عليه أرسالا الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد ودفن ليلة الاربعاء وقيل ليلة الخميس واختلفوا في عمره يوم مات فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب كان عمره ثلاثا وستين سنة وقال ابن عباس أيضا ودغفل بن حنظلة كان عمره خمسا وستين سنة وقال عروة بن الزبير كان عمره ستين سنة والله أعلم بالحقيقة

(المقالة الثالثة)
(في الخلفاء الراشدين وفيها فصول)

(الفصل الاول)
(في خلافة أبي بكر الصديق)

لما تولى أبو بكر الامر بعد وفاة صاحب الشريعة كان قد استعجل أمر الخلاف بين العرب وظهر النفاق وتأخر سير جيش أسامة بن زيد إلى الشام بأسباب وفاة صاحب الشريعة وظهور الفتنة في العرب وارتداد الخاصة والعامة من كل قبيلة وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد أصحابهم وقتلهم وكثرة عدوهم وكان أبو بكر قد نادى في جيش أسامة بالخروج إلى الشام كما أمر صاحب الشريعة وكرر أبو بكر النداء بالتمجيد فقال الناس لأبي بكر ان هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك فقال أبو بكر والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم فخطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسأخ حول قبائلهم وهم قليل فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفه رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا واطلب اليه أن يولي أمرنا أقدم سنا من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أريد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولم يبق في القرى غيري لانفذته * قال عمر فان الانصار نطلب رجلا أقدم سنا من أسامة * فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحمة عمر وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أعزله * ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامه راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركن أولأتران فقال والله لانزلت ولا أركب وما على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله فلما أراد أن يرجع قال لأسامة ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له ثم وصاهم فقال لهم * لا تخوفوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا فلا ولا شيئا كبيرا ولا امرأة ولا تعبروا نهجا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا

بعيرا وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوههم وما فرغوا أنفسهم له
وسوف تمرون بأقوام قد خفصوا أواسط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم
بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله * وأوصى أسامة أن يفعل ما أمره به صاحب الشريعة
فساروا وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التي ارتدت وغتم وعاد وكانت غيبته أربعين يوما
وقبل سبعين يوما

قال أصحاب التاريخ وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب
قالوا لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه
وقال بعضهم لما مات صاحب الشريعة ارتدت العرب ومنعت الزكاة لجمع أبي بكر الصحابة
وشاورهم في الامر وفي قتال العرب فاختلفوا عليه وقال له عمر كيف تقاتل الناس وقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فمن قالها فقد
عصم مني دمه وماله الا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبو بكر والله لا تقاتلن من فرق
بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لومنعوني عنها فأكفوا يؤدونها رسول الله
لقاتلهم على منعها قال عمر فوالله ما هو الا أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه
الحق * وفي رواية قال عمر فقلت تألف الناس وارتد بهم فقال أجابا في الجاهلية وخواريق
الاسلام يا عمر انه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي ثم خرج لقتالهم

وقال ابن قتيبة ارتدت العرب الا القليل منهم فجاهدهم الصديق حتى استقاموا وفتح
اليمامة وقتل مسيلة الكذاب بها والاسود العنسي الكذاب بصنعاء وبعث الجيوش الى الشام
والعراق * وأخرج ابن عبد الحكم عن علي بن رباح اللخمي قال بعث أبو بكر الصديق رضي
الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا الى المقوقس بمصر فرى على ناحية قرى
الشرقية فعاهدهم وأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلوه وانتقض
ذلك العهد * وقال عبد الملك بن مسلمة وهي أول هدنة كانت بمصر (قلت) ولم أر في قول
أحد من أهل التاريخ شيئا من نحو ذلك البتة * وأقام أبو بكر يدبر الامر وبعث البعث
والسرايا الى الآفاق ويشدد على من ارتد من القبائل ويعمل في رقاب أصحاب الفتنة بالسيف
حتى استقام له الامر وعلت كلمة الاسلام ولاحت طوابعه في سماء السعادة وما زال حتى مرض
ونقل به المرض ومات وله ثلاث وستون سنة قيل ولما مرض ترك التطيب تسليما للامر فعاده
الصحابة وقالوا ألا ندعوك طبيبا ينظر اليك فقال نظر الى فقالوا وما قال لك قال لي اني
فعال لما أريد * وتوفي ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جادى الآخرة سنة
ثلاث عشرة من الهجرة ودفن في حجرة عائشة مع صاحب الشريعة وكانت خلافته سنتين
وثلاثة أشهر وعمانية أيام

(الفصل الثاني)

(في خلافة عمر بن الخطاب)

ثم قام بالامر بعده عمر بن الخطاب بويج له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر بوصية من أبي بكر اليه * فهو عمر الفاروق وهو أول من سمي بأمر المؤمنين وهو أول المهاجرين الاولين قيل صلى الى القبلتين وشهد بدرا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع صاحب الشريعة ولما أسلم تعزبه الاسلام * واختلف الكتاب في اسلام عمر فن قائل أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة ومن قائل بعد أربعين رجلا واحد عشر امرأة ومن قائل بل أسلم بعد خمسة وأربعين رجلا واحد عشر امرأة * وكان رجلا جلدًا منيعا شديد البأس جبارا وكان اسلامه بعد هجرة من هاجر من أصحاب صاحب الشريعة الى الحبشة قيل وكان أصحاب الشريعة لا يقدر أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قائل قريشا حتى صلى صاحب الشريعة عندها وصلى معه أصحابه وكان قد أسلم قبل عمر حزة ابن عبيد المطلب فقوى بهما الاسلام وتحقق المسلمون أنهما سيمعان صاحب الشريعة والمسلمين واختلفوا أيضا في سبب اسلامه بعد الذي كفوا يرويه من شدته وجبروته على المسلمين * قالت أم عبدالله بنت أبي حنمة وكانت زوج عامر بن ربيعة انا لنرحل الى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته اذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف عليّ وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدة فقال أنطلقون يا أم عبدالله قالت قلت نعم والله لنخرجن في أرض الله فقد أذيتونا وقهرتونا حتى يجعل الله لنا فرجا قالت فقال سبحانه الله ورأيت له رقة وحرنا فلما عاد عامر أخبرته وقلت له لو رأيت عمر ورقته وحرته علينا قال أطمعت في اسلامه قلت نعم فقال لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين قالت فهده الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين

وقال جماعة ان سبب اسلامه ان أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن زيد ابن عمرو العدوي وكنا مسلمين يخفيان اسلامهما من عمر وكان نعيم بن عبدالله النخام العدوي قد أسلم أيضا وهو يخفي اسلامه خوفا من قومه وكان خباب بن الارت يخالف الى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوما ومعه سيفه يريد قتل صاحب الشريعة وأصحابه وهم مجتمعون في دار الارقم عند الصفا وعنده من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلا فلقية نعيم بن عبيد الله فقال أين تريد يا عمر فقال أريد محمدا الذي فرق أمر قريش وعاب دينها فأقتله فقال نعيم والله لقد غرتك نفسك أترى بنى عبد مناف تاركيك تشي على الأرض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع الى أهلك فتقيم أمرهم فقال وأي أهلي فقال خنسك وابن عمك سعيد بن زيد وأخنسك فاطمة فقد والله أسلمنا فرجع عمر اليهما وعندهما خباب بن الارت

يقرئهما القرآن فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الضعيفة فآلقها تحت
 فخذهما وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ما هذه الهينة قال ما سمعت شيئا قال انكما
 تابعتما محمدا وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته تكفه فضربها فشجها فلما فعل
 ذلك قالت له أخته قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما شئت فلما رأى عمر ما بأخسه من
 الدم ندم وقال لها أعطيني هذه الضعيفة التي سمعتمكم تقرأون فيها الآن حتى أنظر الى ما جاء
 به محمد فقالت انا فخشاك عليها خلف أنه يعيدها قالت وقد طمعت في اسلامه انك نجس
 على شركان ولا يسها الا المطهرون فقام فاغتسل فأعظمه الضعيفة وقرأها وفيها طه وكان
 كاتبها فلما قرأ بعضها قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع خباب خرج اليه وقال
 يا عمر اني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فاني سمعته أمس وهو يقول اللهم
 أيد الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام فآله الله يا عمر فقال عمر عند ذلك فدلني
 يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم فدلته خباب فأخذ بسيفه وجاء الى صاحب الشريعة
 وأصحابه وضرب عليهم الباب فقام رجل منهم ينظر من الباب فرآه متوثجا بسيفه فأخبر
 صاحب الشريعة فقال حمزة ائذن له فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وان أراد شرا قتلناه
 بسيفه فأذن له فنهض اليه صاحب الشريعة حتى لقيه فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه بجذبة
 شديدة وقال ما جاء بك ما أراك تنتهي حتى ينزل الله عليك قارعة فقال عمر يا رسول الله قد
 جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صاحب الشريعة تكبيرة شديدة * قال عمر ولما أسلمت أتيت
 باب أبي جهل بن هشام فضربت عليه بابي فخرج الى وقال مرحبا بابن أخي ما جاء بك
 قلت جئت لأخبرك أني قد أسلمت وآمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقت ما جاء به قال
 فضرب الباب في وجهي وقال فبكك الله وقبح ما جئت به اه وقيل في اسلامه غير ذلك
 * وكانت العرب لا تحب تولية عمر الخلافة بعد أبي بكر لغلظته وشدة فلما نزل بأبي بكر الموت
 دعا عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرني عن عمر فقال انه أفضل من رأيت الآن فيه غلظة
 فقال أبو بكر ذلك لانه يراني رفيقا ولو أفضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه وقد رمقته
 فكنت اذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه واذا كنت الى رجل أراني الشدة عليه ثم دعا
 عثمان بن عفان وقال له أخبرني عن عمر فقال سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله فقال
 أبو بكر لهما لا تذكرا مما قلت لكما شيئا ولو تركته ما عدت عثمان والخيرة له الآن أن يلي من
 أموركم شيئا ولوددت أني كنت من أموركم خلوا وكنت فيمن مضى من سلفكم * ودخل طلحة
 ابن عبيد الله على أبي بكر فقال استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت
 معه وكيف به اذا خلا بهم وأنت لاق ربك فساألك عن رعيتهك * فقال أبو بكر أجلسوني
 فأجلسوه فقال أبا الله تخوفني اذا لقيت ربي فسألتني قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم
 ان أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خاليا ليكتب عهد عمر فقال له اكتب * بسم الله الرحمن
 الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين أما بعد ثم أنعمي عليه فكتب عثمان

أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ
عليّ فقرأ عليه قال الراوى فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس ان مت في
غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله فلما كتب العهد أمره أن يقرأ على
الناس فجمعهم وأرسل الكتاب مع رسول الله ومعه عمر فكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا
خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يالكم نصحا فسكن الناس فلما قرئ عليهم الكتاب
سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال أترضون بمن استخلفت عليكم فإني
ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإنى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فإني والله
ما ألوت من عهد الراى فقالوا سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر وقال له إني قد استخلفتك
على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بتقوى الله ثم قال له * يا عمر ان الله حقا
بالليل لا يقبله في النهار وحقا في النهار لا يقبله في الليل وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة
ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم
وحق لميزان لا يوضع فيه غدا الا حق أن يكون ثقيلاً * ألم تر يا عمر أنما خفت موازين من خفت
موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لا يوضع فيه الا باطل
أن يكون خفيفاً * ألم تر يا عمر أنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء
ليكون المؤمن راغباً راغباً لا يرغب رغبة يتنى فيها على الله ما ليس له ولا يرغب رغبة يلقى
فيها بيديه * ألم تر يا عمر أن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم فإذا ذكرتهم لم يفت
لأرجو أن لا أكون منهم وأنه أنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان
من سيئ فإذا ذكرتهم قلت أين على من أعمالهم فإن حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب
إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه اه * ووفى أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب
نخطب الناس ثم قال أنما مثل العرب مثل جبل أنف اتبع قائده لينظر قائده حيث يقوده
وأما أنا فو رب الكعبة لاجلنكم على الطريق قال بعض الكتاب وهو أول من عس في
عمله أى كان يمشى ليلاً لحفظ الدين والناس فهابه الناس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس
بالأقنية فلما بلغه هيبة الناس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه فحمد
الله وأثنى عليه ثم قال قد بلغنى أن الناس قد هابوا شدةى وخافوا غلظتى وقالوا قد كان عمر
يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر رضى الله عنه
والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الامور اليه وامرئى ان من قال ذلك فقد صدق كنت
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عز وجل وهو عني
راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمر الناس أبو بكر رضى الله عنه فكنت خادمه
وعونه أخلط شدةى بليته فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعى فما زلت معه كذلك حتى
قبضه الله تعالى وهو عني راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمرهم فاعلموا أن
تلك الشدة قد تضاءعت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين وأما أهل

السلامة والدين والقصد فانا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحدا يظلم أحدا ويتعدى عليه حتى أضع خذه على الارض وأضع قدمي على خذه حتى يذعن للحق ولكم على أيها الناس أن لا أخبأ عنكم شيئا من خراجكم واذا وقع عندي أن لا يخرج الا بحقه ولكم على أن لا ألقىكم في المهالك واذا غبتم في البعوث فانا أبو العيسال حتى ترجعوا أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم اه قال سعيد بن المسيب وفي والله عمر وزاد في الشدة في مواضعها واللين في مواضعه * قيل ولما رجع من الشام الى المدينة انفر دعن الناس ليتعرف أخبار رعيته فترجعوز في خبائها فقصدها فقالت يا هذا ما فعل عمر قال قد أقبل من الشام سالما فقالت لا جزاء الله عنى خيرا قال ولم قالت لانه والله مانالى من عطائه منذ ولى أمر المؤمنين دينار ولا درهم فقال وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع فقالت سبحان الله والله ما ظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها فبكى عمر وقال واعمره كل أحد أنقه منك حتى العجائز يا عمر ثم قال لها يا أمة الله بكم تبيعيني ظلامتك من عمر فالى أرجه من النار فقالت لا تهزأ بنا يرحمك الله فقال لست بهازئ فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا فيبينها هو كذلك اذ أقبل على بن أبي طالب وابن مسعود فقالا السلام عليك يا أمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت واسوأناه شئت أمير المؤمنين في وجهه فقال لها عمر لا بأس عليك رحمك الله ثم طلب رفعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها * بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها مذ ولى الى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين دينارا مما تدعى عند وقوفها في الحشر بين يدي الله تعالى فعمر منه برء وشهد على ذلك على بن أبي طالب وابن مسعود * ثم دفع الكتاب الى ولده وقال اذا أنا مت فاجعله في كفى ألقى به ربي * قال بعض الكتاب وهو أول من أرخ التاريخ وذلك في سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحا وفيها نزل سعد بن أبي وقاص على الكوفة وحصرها وهو أول من دقن الدواوين ومصر الامصار وفتح الفتوحات الكثيرة ففتح دمشق ثم الروم ثم فارس ثم انتهى الفتح الى حص وحلوان والرقه والرها وحران ورأس العين وخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل ويسان واليرموك والاهواز وقيسارية

قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح أنبأنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر وعياش بن عباس العتابي وغيرهما يزيد بعضهم على بعض قالوا ولما كانت سنة ثمان عشرة وفد عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص فخلابه فقال يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسافر الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوّة للمسلمين وعونا لهم وهي أكثر الارض أموالا وأعجزهم على القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عايمه فتحها حتى ركن لذلك عمر فعمد له على أربعة الاف رجل كلهم من عك ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر سر

وأنا متخير الله في مسيرك وسيأتي إليك كتابي مسرعا ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من خوف الليل ولم يشعربه أحد من الناس واستخار عمر الله فكانت تخوف على المسلمين في وجههم ذلك فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرا وهو برفج فتخوف عمرو بن العاص ان هو أخذ الكتاب وفتح أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين فج والعريش فسأل عنها فقبيل انها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو ألسستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى فقال ان أمير المؤمنين عهد اليّ وأمرني ان لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ القوقس قدوم عمرو توجه الى الفسطاط وكان أول موضع قوتل فيه الفرما فقاتله الروم قتالا شديدا نحو شهر حتى فتح الله على يديه وكان بالاسكندرية أسقف للقبط اسمه بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط يعلمهم انه لا يكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي عمرو ومعاونته على الروم فصار القبط الذين في الفرما يومئذ لهم وأعوانا ثم توجه عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه ثم تقدم وهو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بليس فقاتلوه بها نحو من شهر حتى فتحها ثم مضى لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أمدين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمه فأمدته بأربعة آلاف رجل تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصروهم بالقصر الذي يقال له باب ليون حينما قاتلهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمه فأمدته بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل وكتب اليه اني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبيدة بن الصامت ومسلمة بن مخنف واعلم ان معك اثني عشر ألفا ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة * وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سسك الحديد مونة بأبنية الابواب فلما قدم المدد الى عمرو بن العاص أتى الى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعرج واليا عليه وهو مندقور فرمى عمرو بالمنجنيق على الروم وطال القتال بين الفريقين أياما كثيرة والقبط يعاونون العرب على القتال سراكرها في الروم فلما أبطأ لفتح قال الزبير اني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأمرهم ان سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فما شعروا الا الزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجماع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد

اقتحموا جميعا فهزموا فعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن
 فيمنذ سأل المقوقس عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه على أن يفرض للعرب على القبط
 دينارين على كل رجل منهم فأجابهم عمرو الى ذلك قيسل وكان مكثهم على باب القصر حتى
 فتحوه سبعة أشهر وكان قد تنحى المقوقس وجاعة من أكبر القبط وخرجوا من باب القصر
 القبط الى فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وذلك في جري النيل وتختلف الاعرج في الحصن
 ثم ركب هو وأهل القوة والشرف بعد قليل وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ولحقوا بالمقوقس
 في الجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يقول * انكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألحتم في
 قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم
 ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى في أيدينا فأرسلوا لنا
 رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الامر فيما بيننا على ما نحبون ونحب ونقطع
 عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جوع الروم فلا ينفعنكم الكلام ولا نقدر عليه * فرد
 عليهم عمرو مع رساله أن ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام
 فكنتم لنا اخوانا وكان لكم مالنا وان أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان
 جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فرد اليه المقوقس رساله
 وقال ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم وتتداعى نحن وهم على ما عسى أن يكون فيه صالح
 لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وهو أقدم من أدرك
 الاسلام من العرب وطوله عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم فلما ركبوا
 السفن الى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة وتكلم معه وقال انظر الذي تريد فينبهنا فليس
 بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت بذلك
 أمرنى الامير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل اليانا
 فلم يقبل أصحاب المقوقس ذلك وأمروا بقطع الجسر بين القسطنطين والجزيرة فعاد الفريقان
 بعد ذلك للقتال وانفجارت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون قد أحرق بهم الماء من كل
 وجه لا يقدر على أن ينفذوا أو يتقدموا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المدائن والقري
 وراسل عمرو بن العاص المقوقس وبلغ فأجابهم المقوقس وقال نجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي
 ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا لمنا ذلك وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار
 عمرو أصحابه في ذلك وقال قد علمت ما عهد الى أمير المؤمنين في عهده فان أجابوا الى خصلة من
 الخصال الثلاث التي عهد اليها أحببتهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال بيننا وبين ما نريد
 من قتالهم فأذعنوا واجتمعوا على عهد بينهم وتقررت القاعدة على أن يفرضوا على جميع من
 بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضعهم ومن بلغ الحلم
 منهم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى أن المسلمين
 عليهم التزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك

كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها قط ووافق المقوقس على ذلك وقرض عمرو بن العاص على نفسه القيام بكرامة المقوقس وأن لا يشاغبه على ما في يده ولا يسلبه حقه وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم اثني عشر ألف ألف دينار كل سنة وفيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف

وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا فن أحب منهم أن يقيم على هذا الشرط أقام على هذا الأمر الذي هو مفترض عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حوالها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله * قال الراوي فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروه هم عنا ولا أراهم الا فاعلون ذلك فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قدرأيت فمجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتمكم وقوتكم على قدر قلمتم وضعفهم كأكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك * وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا لجماعته واتفق المقوقس وعمرو بن العاص على أن يكون القبط له أعوانا ويقموا له الانزال والضيافة والاسواق والجسور ما بين القسطنطينية إلى الاسكندرية ففعلوا واستعدت الروم وجاءت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم التقوا ببلدة سلطيس فاقتتلوا بها قتالا شديدا ثم انهزموا ثم التقوا بالكربون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو واشتد الروم في قتال المسلمين شدة بالغة وأبلى المسلمون بلاء حسنا وما زال القتال حتى بلغ الروم الاسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة وغير ذلك ورسل ملك الروم نخلف إلى الاسكندرية في المراكب بمائة الروم وتجهز هرقل ملك الروم لقتال المسلمين بمدينة الاسكندرية فأدركته المنية قبل قيامه ومات سنة خمس وأربعين وستمائة للميلاد أي سنة ثلاث وعشرين للهجرة ٦٦٠ وما زالوا على قدم القتال حتى فتحت الاسكندرية وهرب الروم في البر والبحر فخلف عمرو بن العاص بالاسكندرية من أصحابه ومضى بن دعه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر

الى الاسكندرية فقتلوا من كان بها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص
فكر راجعا ففتحتها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا بالاسكندرية عنوة بغير
عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب يقيج رأيه ويأمره أن لا يجاوزها * قال ابن عبد الحكم
وحدثنا عثمان بن صالح عن أبي لهيعة قال بعث عمرو بن العاص معاوية بن حديج وافدا
الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشيرا له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معي كتابا قال له
عمرو وما تصنع بالكتاب ألت رجلا أعربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم
على عمر وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا وقال الحمد لله * قال وحدثنا ابراهيم بن سعد
البلى قال كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أما بعد فاني فتحت مدينة
لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف
يهودى وأربعمئة ملهى للول * وأخرج عن ابراهيم بن سعد البلى المذكور ان سبب فتح
الاسكندرية أن رجلا كان يقال له ابن بسامة كان بؤابا فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على
نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابهم عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل

(مطلب)

(في الخلاف بين العلماء في مصر بل تحت صلحا أو عنوة)

فن قائل انها فتحت صلحا قال ابن عبد الحكم حدثني عثمان بن صالح أخبرنا الليث
قال كان يزيد بن أبي حبيب يقول مصر كلها صلح إلا الاسكندرية فانها فتحت عنوة
وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر بصلح غير الاسكندرية
وثلاث قرى ن ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس ومصيل وبلهيت * وأخرج ابن عبد
الحكم عن يزيد بن أبي حبيب قال كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا العهد فسبوا
منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخليس وقرية يقال لها سلطيس وقرى وقرى
سباياهم بالمدينة وغيرها فردتهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قراهم وصيرهم وجاعة
القبط أهل ذمة * وأخرج يحيى بن أيوب ان أهل سلطيس ومصيل وبلهيت ظاهروا
الروم على المسلمين في جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا في
مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
وكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قرى ذمة للمسلمين ويضربون
عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيها
ولا عبيدا ففعل ذلك

ومن قائل انها فتحت عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة وعثمان بن

صالح قال أخبرنا ابن الهيثم عن ابن هبيرة أن مصر فتحت عنوة وقال أخبرنا عبد الملك بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وقال أنبأنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن داود بن عبد الله الحضرمي أن أبا حيان أيوب بن أبي العالمة حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول لقد فعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبض مصر على عهد ولا عقد الا أهل انطاكليس فان لهم عهدا يوفى لهم به * حدثنا عبد الملك حدثنا ابن الهيثم عن أبي قتيبان به وزاد ان شئت قتلت وان شئت خست وان شئت بعث * وأخرج عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص قال فتحت مصر بغير عهد ولا عقد وان عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شئ نظرا للإسلام وأهله * وأخرج عن زيد بن أسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل ما كان بينه وبين أحد من عاهده فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد * وأخرج عن الصلت بن أبي عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد

ومن قال ان بعضها صلح وبعضها عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا يحيى بن خالد عن راشد بن سعد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب قال كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة وحملهم على ذلك فغضى فيهم ذلك الى اليوم **قلت** وقد أثبت أصحاب التاريخ من غير العرب من المتقدمين والمتأخرين أن مصر فتحت كلها صلحا بانفاق مع المقوقس عظيم القبط يومئذ فخلصا من ربة ظلم الروم وعسفهم وقد نلص الفضاعي في كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصا وجيزا هو أقرب للصواب * قال لما قدم عمرو بن العاص رضى الله عنه من عند عمر رضى الله عنه كان أول موضع قاتل فيه الفرما قتالا شديدا نحو من شهر قال قال أبو عمرو الكندي وكان أول من شد على باب الحصن حتى اقتحمه اسمعق بن ولاة السبائي واتبعته المسلمون فكان الفتح وتقدم عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دين وهي المقس فقاتلوه بها قتالا شديدا وكتب الى عمر يستمد فامده باثني عشر ألف نفر فوصلوا اليه أرسالا يتبع بعضهم بعضا وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبد الله بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم أحاط المسلمون بالحصن وأمير الحصن يومئذ المنصور الذي يقال له الاعرج من قبل المقوقس بن قرقث اليوناني وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو في سلطان هرقل غير أنه كان حاضرا الحصن حين حاصره المسلمون ونصب عمرو فسطاطه في موضع الدار المعروفة بإسرائيل التي على باب زقاق الزهري ويقال في دار أبي الوزام التي في أول زقاق الزهري ملاصقة لدار إسرائيل وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرين للروم سبعة أشهر * ورأى الزبير خلاهما إلى دار أبي صالح الحوراني الملاصقة للحمام ابن نصر السراج عند سوق الحمام فنصب سلما وأسندته الى الحصن وقال انى أهب نفسى لله عز وجل فن شاء أن يتبعنى فليتبعنى فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن فكبر وكبروا ونصب شرحبيل

ابن حسنة المرادي سلماً آخر مما يلي نفاق الزمامرة ويقال ان السلم الذي صعد عليه الزبير كان موجوداً في داره التي بسوق وردان الى أن وقع حريق فاحترق ولما رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن جلس في سفنه هو وأهل الرفعة من القوم وكانت ملصقة بباب الحصن الغربي فلهقوا بالجزيرة وقطعوا الجسر وتحصنوا هناك والنيل حقيقته في مده وتكلموا في أمر الصلح فبعث عمرو بعبادة بن الصامت الى المقوقس فصالحه المقوقس على القبط والروم على أن للروم الخيار في الصلح الى أن يوافي كتاب ملكهم فان رضى تم ذلك وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم وأما القبط فبغير خيار قال وكان الذي انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس في كل سنة من البالغين شريفهم ووضعهم دون الشيوخ والاطفال والنساء على أن للمسلمين عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم وأن لهم أرضهم وبلادهم لا يتعرضون في شيء منها أبداً اهـ قلت ✽

فمن قال ان مصر فتحت صلحاً تعلق بهذا الصلح وقال الامر لم يتم الا بما جرى بين عبادة ابن الصامت وبين المقوقس وعلى ذلك أكثر العلماء من أهل مصر منهم عقبة بن عامر ويزيد بن أبي حبيب والليث بن سعد وغيرهم وذهب الذين قالوا ان مصر فتحت عنوة الى أن الحصن فتح عنوة فكان جميع الارض كذلك وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وذكر يزيد بن أبي حبيب أن عدد الجيش الذي كان مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفاً وخمسمائة وقال عبد الرحمن بن سعد بن مقسدام ان الذين جرت سهامهم في الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفاً وثلاثمائة بعد من أصيب منهم في الحصار من القتل والموت ويقال ان الذين قتلوا في مدة هذا الحصار من المسلمين دفنوا في أصل الحصن ثم سار عمرو الى الاسكندرية في شهر ربيع الاول سنة عشرين وقيل في جمادى الآخرة فأمر بفسطاطه أن ينزع فإذا بجماعة قد باضت في أعلاه فقال قد تحرمت في جوارنا أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقروا الفسطاط في موضعه فلذلك سميت الفسطاط ✽ وقال ابن قتيبة وانما العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط اهـ ونقل عمرو بن العاص الى الاسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها في ذى القعدة سنة عشرين قال الليث أقام عمرو بالاسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها داراً اهـ

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذن في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو بن العاص اني لأحب نزول المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط ✽ ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط

انضمت القبائل بعضها الى بعض وتقاسموا في المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج
التجبي وشريك بن سمى الغيطي بن مراد وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المعافري
فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك في سنة احدى وعشرين * ذكره
الكندي * وقد كان المسلمون حين اختطوا تركوا بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق
دوابهم وتأديبها فلم يزل الامر على ذلك حتى ولي معاوية بن أبي سفيان فأقطع في الفضاء وبنيت به
الدور * وأما الاسكندرية فلم يكن بها تخطيط وانما كانت أحياء من أخذ منزلا نزل فيه هو
وبنوه وبنو بنيه وفي قول ليبيد بن أبي حبيب ان الزبير بن العوام اختط الاسكندرية * وفتح
عمر بن الخطاب في خلافته أيضا عدا ما تقدم ذكره تستر ونهاوند والري وما يليها واصبهان
وبلاد فارس واصطخر وهمذان والنوبة والبرلس والبربر وغدير ذلك قيل وكانت دتره
أهيب من سيف الحجاج ومع ذلك كله بقي على حاله كما كان قبل الولاية في لباسه وزيه وأفعاله
وتواضعه يسير منفردا في حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب لم تغيره الامرة ولم يستطل
على مسلم بلسانه ولا حاي أحدا في الحق

وقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه
واسمه فيروز وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم لانه كان يصنع الارحاء فلقى عمر يوما
فقال يا أمير المؤمنين ان المغيرة قد أثقل علي غلتي فكلمه لي يخفف عني فقال له عمر اتق
الله وأحسن الى مولائك فغضب أبو لؤلؤة وقال يا عجباه قد وسع الناس عدله غيري وأصر على
قتله واصطنع له خنجرًا له رأسان وسمه وتحين به عمر فجاء عمر الى صلاة الغداة * قال عمرو بن
ميمون اني لقائم في الصلاة وما بيني وبين عمر الا ابن عباس رضى الله عنهما فما هو الا أن
كبر فسمعته يقول قتلني الكلب حين طعنه وطار العلي بسكين كانت ذات طرفين لايبر على
أحد عينا وشمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات سبعة وقيل تسعة فلما رأى
ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما علم أنه مأخوذ نحر نفسه فقال عمر قاتله الله لقد
أحمرت به معروفًا ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام وكان أبو لؤلؤة
مجوسيا توفي في ذي الحجة لاربعة عشرة ليلة مضت منه في السنة المذكرة بعد طعنه بيوم
ولاية عن ثلاث وستين سنة ودفن مع صاحبه في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم اه

قال صاحب حياة الحيوان في باب الدال المهملة روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه
خطب الناس يوما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال اني رأيت رؤيا لم أرها الا لخصور أجلي وهي
أن ديكا تقرني ثلاث نقرات * وفي لفظ رأيت كأن ديكا أحمر تقرني نقرة أو نقرتين فخذتها
أسماء بنت عميس فخذتني بأنه يقتلني رجل من الاعاجم وكان هذا القول منه يوم الجمعة
فطعن يوم الاربعاء رضى الله عنه اه قال وروى الحاكم عن سالم بن أبي الجعد عن معدان
ابن أبي طلحة عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال على المنبر رأيت في المنام كأن ديكا
تقرني ثلاث نقرات فقلت أجمي يقتلني واني جعلت أمري لهؤلاء الستة الذين توفي رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهو عثمان وعلي وطهمة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فمن استخلفوه فهو الخليفة * وذكر ابن خلكان وغيره أن عمر لما طعن اختار من الصحابة ستة نفر وهم المتقدم ذكرهم وكان سعد بن أبي وقاص غائبا وجعل عبد الله ابنه مشيرا وليس له من الامر شيء وأقام المسور بن مخرمة وثلاثين نفسا من الانصار وقال ان اتفقوا على واحد الى ثلاثة أيام والافاضلوا رقاب الكل فلا خير للمسلمين فيهم وان افترقوا فرقتين فالفرقة التي فيها عبد الرحمن بن عوف * وأوصى أن يصلى صهييب بالناس ثلاثة أيام فأخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الشورى واختار عثمان فبايعه الناس (قلت) وقد نسب أهل التاريخ هذه الفعلة لعمر من أشنع الفعال وأشدّها ضررا بالاسلام وأهله * ونقل ابن العباس بن عبد المطلب انه قال لعلي يا ابن أخي لا تدخل نفسك في الشورى مع القوم فاني أخاف أن يخرجوك منها فتبقى وصمة فيك فلم يقبل منه * قال ولما طعن عمر سئل ما أحب الاشربة اليك يا أمير المؤمنين قال النبيذ فسقوه نبذا فخرج من جرحه فقال قوم نبئذ وقال قوم دم فسقوه لبنا فخرج من جرحه فقبل له أوص يا أمير المؤمنين فأوصى بالشورى قال ويقال ان عبيد الله بن عمر وثب على الهرمزان فقتله وقتل معه رجلا نصرانيا من أهل نجران كانا قد اتهما باغراء أبي لؤلؤة بعمر رضى الله عنه وقتل بنتا طفلة لابي لؤلؤة ووارهم عثمان رضى الله عنه وخلق عبيد الله بمعاضة في خلافة علي رضى الله عنه * قال وكان في أيام عمر الفتوحات العظام وهو الذي سمي الغزوات الشواقى والصوائف وهو أول من أترخ التاريخ بعام الهجرة وأول من دعى أمير المؤمنين وأول من ختم الكتب وكان في يده خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول من ضرب بالدرة وجلها وأول من قال أطال الله بقاءك قالها لعلي رضى الله عنهما وهو الذي أخرج المقام الى موضعه اليوم وكان ملصقا بالباب وهو أول من جمع الناس على امام واحد في التراويح وحج بالناس عشرين متواليمة آخرها سنة ثلاث وعشرين ومعه نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهواجج ورجع الى المدينة فرأى الرؤيا المتقدمة اه

واستعمل عمر بن الخطاب في خلافته على مصر بعد فتحها في سنة تسع عشرة للهجرة عمرو بن العاص فضرب عمرو على أهلها الجزية كما تقدم بك بيانه وبالغ في ارباب الناس واذلالهم وجمع ما عندهم من الاموال والكنوز واخطط مصر قيسل والاسكندرية والجزيرة وكان الى هذا الحين قد تم له فتح سائر البلاد الا دمياط وكان العامل عليها يومئذ من قبل الروم (الهامولك) أحد أقارب المقوقس فراسله عمرو في الانعان والتسليم فامتنع وقال لاسبيل الى ذلك فطاولة فلم يذعن وأصر على ما هو عليه فأنفذ له عمرو والمفسد بن الاسود في جماعة من المسلمين فلاقاه (الهامولك) في عسكر واقتتل الفريقان قتالا شديدا فكانت بينهم سجالا ومات ابن الهامولك في ساحة القتال فارتد الهامولك الى دمياط وجمع اليه أصحاب الرأي وكلهم في الامر قليل وكان بينهم رجل حكيم مسموع الكلمة فقال أيها الاميرانا لم نسمع عن هؤلاء القوم

منذ جاؤا الى هذه الديار ووطؤا أرضها الا مايدل على تأيدهم ونصرهم وهاهم قد فتحوا البلاد
وقهروا العباد وبسطوا يدهم على تلك الامالك الواسعة فالأى عندي أن تعقد مع القوم صلحا
تتحقن به الدماء وتحفظ الاعراض والاموال وانظر الى ماجرى مع المقوقس وأصحابه فقد صالحوا
القوم وكفاهم الله شرهم قيل فلم يقبل الهاموك كلامه وباتوا ليلتهم تلك وأصبح الهاموك فنادى
في عسكره بالخروج لقتال المسلمين فلم يتكامل خروجهم حتى سمعوا تكبير المسلمين على أسوار
المدينة فسقط الهاموك في يده وتسلم المسلمون المدينة وجاء الخبر الى عمرو بن العاص بالفتح
ففرح فرحا لا يوصف وسار المقداد بن الاسود بمن بقي معه من المسلمين الى فتح تانس
فقاتله أهلها قتالا شديدا وما زال يقاتلها أياما حتى تم له فتحها فلم يبق بعد ذلك شئ بغير فتح
واشد عمرو بن العاص في احصاء أهل البلاد وتقدير الجزية عليهم فكان يحبس منها ما يحتاج
اليه ويبعث الى عمر بن الخطاب بما بقي منها * قال ابن عبد الحكم وكان عمرو بن العاص
لما استوثق له الامر أقر قبضها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية
وكثر أهلها زيد عليهم وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤسائها
فيستأخرون في العمارة والخراب حتى اذا أقرؤا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى
الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم
ترجع كل قرية الى قسمتهم فيجمعونها وخراج كل قرية وما فيها من الارض العمارة فيبدؤن
فيخرجون من الارض فدادين اكنائسهم وحاماتهم ومعدياتهم من جملة الارض ثم يخرج
منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا الى ما في كل قرية من الصنيع
والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقاما
كانت الا للرجل الشاب أو المتزوج ثم نظروا فيما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد
الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم فان عجز أحد منهم وشكى
ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة
أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فان تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على
قراريط الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك وجعل عليهم عمرو بن
العاص لكل فدان نصف اربع قح وويشئين من شعير الا القرظ فلم يكن عليه ضريبة * قال
عبد الملك بن الليث بن سعد كانت وية عمر بن الخطاب في ولاية عمرو بن العاص سنة أمداد
واستقامت الامور لعمر وفعده الى اصلاح ما أفسدته الحروب وعبثت به أيدي الجور
والعسف من العمائر والترع والخجان والجسور فهد الطرق وسهل المسالك وحفر الخجان
لرى الاراضى وأصلح مقياس النيل وأعادته الى ما كان عليه من قبل وأقام العرفاء والمشايخ
للقرى و لبلاد من أبناءها فاستقامت الاحوال واطمأنت قلوب الرعيمة وخلصوا الى السكون
والطاعة ورتب المحاكم للفصل في الخصومات بين أهل البلاد فلم يكن لعمر ولا لغيره من
أصحاب الفتح دخل في ذلك البتة ولا كلمة مقولة وأوسع صدره للعظماء والكبراء من أهل

البلاد فأحبوه ومالوا اليه وأخلصوا له النية فعلت كلمته وعظمت شهرته ودانت له عظام
 الامور وعمرت القرى وازدهت البلاد واتسعت مائة ثروتها وعادت الى رونقها القديم وضافت
 بأهلها أوكدت * حدثنا عثمان بن صالح وعبدالله بن صالح قالوا حدثنا الليث بن سعد قال لما
 ولي ابن رفاعه مصر خرج ليخصى عدة أهلها وينظر في تعديل الخراج عليهم فقام في ذلك ستة
 أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الاعوان والكتاب يكفونه ذلك بجدة وتشهير
 وثلاثة أشهر بأسفل الارض فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص فيها
 في أصغر قرية منها أقل من خمسمائة ججمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية قال وحدثنا
 عبدالله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جبي مصر اثني عشر ألف ألف وجباها المقوقس
 قبله ستة وعشرين ألف ألف فعند ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب * بسم الله الرحمن الرحيم
 من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص * سلام عليك فاني أجد اليك الله الذي لا اله الا هو *
 أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة
 رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في ربوبهم وانها قد عاجلتها الفراعنة وعملوا فيها
 عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فحجبت من ذلك وأعجب مما عجب أنها لا تؤدى نصف
 ما كانت تؤدیه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جذب ولقد أكثر في مكاتبك في
 الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتي على غير تراث ورجوت أن تفيق فترفع
 الى ذلك فإذا أنت تأتني بعاريض تبعاً بها لا توافق الذي في نفسي ولست قابلاً منك دون
 الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرك من كتابي وقبضك
 فلئن كنت مجرباً كافياً صحياً ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعاً نطعاً ان الامر لعل غير
 ما تحدث به نفسك وقد تركت أن أبتي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع الى
 ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوا
 كهفاً وعندي بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أباً عبدالله أن يؤخذ منك
 الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وماعنه تتلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام
 فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن
 العاص سلام عليك فاني أجد اليك الله الذي لا اله الا هو * أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في
 الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلي وأعجابه من خراجها
 على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمري الخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر
 لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منها مذ كان الاسلام وذكرت أن
 النهر يخرج الدر فلبت حلباً قطع درهما وأكثر في كتابك وأنت وعرضت وثربت وعلمت
 أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فئت لعمري بالمقطعات المقذعات ولقد كان لك فيه
 من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق واقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
 ولن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك

فبيها والعمل به شيئا فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر السيم والاجترأ على كل مأثم فأمض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدينية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أنا والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك مني أشد غضبا لنفسى ولها انزاهها واكراما وماعلت من عمل أرى على فيه تعللا ولكنى حفظت مالم تحفظه ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بهامنى ذلولا ولكن الله عظم من حقه لا يجهل والسلام

فكتب اليه عمر بن الخطاب من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني أجد اليك الله الذي لا إله الا هو * أما بعد فاني قد تعجبت من كثرة كني البك في إبطائك بالخراج وكتابك الى بشتيات الطرق وقد علمت أني لست أرضى منك الا بالحق البين ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا اقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا أتاك كتابي هذا فاجل الخراج فانما هو فيء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني أجد اليك الله الذي لا إله الا هو * أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطنى في الخراج ويرغم أني أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق واني والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غني بهم عنه والسلام

فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج كتب اليه أن ابعث الى رجلا من أهل مصر فأرسل اليه رجلا قديما من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الاسلام فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شيء الا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العماره وانما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريد الا لعام واحد فعرف عمر مقالة وقبل من عمرو بن العاص ما كان يعتذره * وقال ابن عبد الحكم حدثنا هشام بن اسحق العامري قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخراجها فسأله عمرو فقال له المقوقس تأتي عمارتها وخراجها من خمسة وجوه أن يخرج الخراج في إبان واحد عند فراغ أهلها من زرعها ويدفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها وتحفر في كل سنة خجلها وتسدد ترعها وجسورها ولا يقبل مطل أهلها يريد البغي فاذا فعل هذا فيها عمرت وان عمل فيها بخلافه خربت * قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال كانت قريضة مصر لحفر خجلها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا معهم الطوريات والمساحي والاداة يعتقدون ذلك لا يدعونه شتاء ولا صيفا اه

وكان في خلال المدة من مجيء هرقل ملك الروم الى مصر واشتداده على المتأصلين من

أهل البلاد كما تقدم الكلام على ذلك في محله الى فتوح مصر على يد عمرو بن العاص قد مات اطناسيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتي عشرة سنة وقد اختلف الكتاب فيما اذا كان هو الذي هاداه اطناسيوس بطرك انطاكية وقدم عليه زائرا أو هو داميانوس خامس ثلاث بطاركة الاسكندرية فلما مات أقاموا بعده اندرونيقون وهو سابع ثلاثهم فلبث ست سنين ومات في ثامن طوبة * وفي أيامه خربت جميع الديارات واشتد الامر على النصارى شدة عظيمة للغاية وأبقى الكثير من الرهبان والراهبات الى بعض الجبال فرارا ثم أقاموا بعده بنيامين وهو ثامن ثلاثهم وكان مناصلا وهو من مربوط وكان ورعا تقيا فمهر في أيامه دير أبوبشاي ودير سيدة أبوبشاي وهما في وادي هيب فلما جاءت الفرس ديار مصر كما تقدم بيان ذلك في محله واشتدوا على النصارى فزهاربا منهم وبقي مختفيا حتى زالت دولة الفرس على يد هرقل وذلك أن هرقل المذكور لما نزل على مصر وحارب الفرس وطردهم من أرضها أقام بطركا من المسكيين بالاسكندرية اسمه نيرش وكان منانبا مع أن هرقل كان مارونيا وطلب بنيامين البطرك المذكور وسعى خلفه لبقائه فلم يتمكن منه فظفر باخيه مينا فقبض عليه وأحرقه بالنار تشفيا وانتقاما وبنيامين هذا هو الذي راسل المقوقس وعظماء القبط في أمر المسلمين ومعاونتهم على قتال الروم وامدادهم بالذخيرة والميرة فلما استتب الامر لعمرو بن العاص أرسل اليه في سنة عشرين هجرية فقدم على عمرو بالفاهرة فأكرمه وأجله وبالغ في تعظيمه لانه كان عون له على الروم فجلس في منصب البطريركية بعد غيابته عنه ثلاث عشرة سنة منها عشر سنين في ملك فارس على مصر وباقيها بعد ذلك وأخذ يتصرف في الأمور فأحسن التدبير وكاد يعيد للقبط ما أزالته عنهم الحروب والخطوب المتراكمة من العز والسود وظل مهيبا معظما موقرا مسموع الكلمة حتى مات كما سيأتي ذكر ذلك في محله وكانت خلافة عمر بن الخطاب عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال وفي رواية وثلاثة عشر يوما فقام بالامر بعد موته عثمان بن عفان

(الفصل الثالث)

(في خلافة عثمان بن عفان)

ثم قام بالامر بعده عثمان بن عفان تشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيام واتفقوا على مبايعته وهو ابن عم صاحب الشريعة الاعلى بوبيع له بالخلافة في أول يوم من سنة أربع وعشرين للهجرة أي سنة أربع وأربعين وستمائة للميلاد * قال أصحاب التاريخ انه لم يزل اسمه في الجاهلية والاسلام عثمان ويكنى بأبي عمرو وأبي عبد الله والاول أشهر وينسب الى أمية بن عبد شمس فيقال الاموي يجتمع مع صاحب الشريعة الاسلامية في

عبد مناف ويدعى بذى النورين قيل لانه تزوج بابنتى صاحب الشريعة رقية وأم كلثوم وهو أول من هاجر الى الحبشة فازا بدينه ومعه زوجته رقية وعدت من البدرين ومن أهل بيعة الرضوان ولم يحضرهما وكان غنيا كثيرا المال وكانت له شفقة ولما تولى زاد تواضعه وشفقته برعيته وكان يطعم الناس طعام الامارة ويا كل الخلل والزيت وجهز جيش العسرة بتسعة وخمسين بعيرا باحلامها وأفتابها وأتم الالف بخمسين فرسا * قال ابن قتيبة وافتتح في أيامه الاسكندرية (قلت لخروجها في خلافته) وسابور وافريقة وقبرص وسواحل الروم واصطخر الاخرى وفارس الاولى وخورستان وفارس الاخرى وطبرستان وكرمان وسجستان والاساورة وافريقة من حصون قبرص وساحل الاردن ومرو ولما عمرت المدينة وصارت وافرة من الانام وكثرت فيها الخيرات والاموال وجى اليها بالخراج من الممالك وبطرت الرعية من كثرة الاموال والخير والنعم وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا جعلوا ينقون على خليفتهم عثمان لانه كان له الاموال العظيمة وكان له ألف مملوك ولانه كان يعطى المال لاقاربه ويوليهم الايالات الجليلة فأحس عثمان بذلك وسير في طلب عماله وكتب الى أهل الامصار انى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم وقد رفع الى أهل المدينة أن أقواما يشتمون ويضربون من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم بأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى أو تصدقوا فان الله يجزى المتصدقين قبل فلما قرئ ذلك بالامصار بكى الناس ودعوا لعثمان وقدم عليه في الموسم بعض عماله وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد معاوية وأدخل معهم أيضا سعيد بن العاص وعمر بن الخطاب ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة انى والله خائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يصعب هذا الابي فقلوا ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن العوام ألم يرجع رسلك ولم يشفاهم أحد بشئ والله ما صدقوا ولا بروا ولم نعلم لهذا الامر أصلا ولا يحل الاخذ بهذه الاشاعة فقال عند ذلك أشيروا على فقال سعيد هذا امر مصنوع يلقي في السر فيحدث به الناس ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين خرج هذا من عندهم * وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم اذا أعطيتمهم الذى لهم فانه خير من أن تدعهم * وقال معاوية قد وليت فوليت قوما فلا يأتىكم عنهم الا الخير والرحلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الادب وقال عمرو أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبك فتشدد في موضع اشد وتلين في موضع اللين * قال عثمان قد سمعت كل ما أشرتم به على ولكل امر باب يؤتى منه ان هذا الامر الذى يخاف منه على هذه الامة كائن وان بابه الذى يغلق عليه ابفتحن فنكفكفه باللين والمواتاة الا فى حدود الله فان فتح فلا يكون لاحد على حجة وقد علم الله أنى لم آل الناس خيرا وان رعى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلا تداهتوا فيها * ثم افترقوا على ذلك واتفق المنحرفون على عثمان على يوم يخرجون فيه بالامصار جميعها اذا سارعنا الامراء وخلت منهم فلم يتألم لهم ذلك وكان بعصر محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة يحرضان على

عثمان فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن مبشر الليثي وسودان بن جران السكوني وفنيرة بن فلان السكوني وتقدمهم جميعا الغافقي بن حرب العكي وخرج أيضا أهل الكوفة وهم في عداد أهل مصر أو ما يقرب منه وخرج أهل البصرة وهم بعداد أهل مصر وأميرهم حرقوص بن زهير السعدي وكان خروجهم جميعا في شوال وأظهروا أنهم انما يريدون الحج فلما كانوا بالمدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وكانوا يميلون الى طلحة وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير ونزلوا الاعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وكانوا يميلون الى علي ونزل جميعهم بنى المروة ومنى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الاصم وقالوا لهم لا تجلوا حتى ندخل المدينة ونرتد لكم فقد بلغنا انهم عسكروا لنا فوالله ان كان هذا حقا واستحلوا قتالنا بعد علم حالنا ان أمرنا لباطل وان كان الذي بلغنا باطلا رجعنا اليكم بالخبر فذهبوا ودخلا المدينة فلقيا أزواج صاحب الشريعة وطلحة والزبير فكلهما أبا ونهاهما فرجعا الى أصحابهما وكتب عثمان الى أهل الامصار يستنجدهم ويأمرهم بالبحث لمنع عنه ويتعرف ما للناس فيه من الهرج والنألب على خلع بيعته واقامة خليفة غيره * قال بعض أهل التاريخ نخرج أهل الامصار على الصعب والذلول وسير كل عامل جماعة من عنده الى المدينة فلما كانت الجمعة التي على اثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال * يا هؤلاء الله الله فوالله ان أهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فاحموا الخطأ بالصواب * فقام عند ذلك محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك فأقعدته حكيم بن جبلة فقام زيد بن ثابت فأقعدته محمد بن أبي كريمة وثار القوم بأجمعهم وقامت الضوضاء واشتد اللجاج فخصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد عنوة وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشيا عليه فأدخل داره * واستقتل جماعة من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبي وقاص والحسين بن علي وزيد بن ثابت وأبو هريرة فأرسل اليهم عثمان في الانصراف فانصرفوا وأقبل علي وطلحة والزبير فذهبوا الى عثمان يعودونه من صرخته ويشكون اليه ما يجدون وكان عند عثمان نفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم فقاموا كلهم في وجه علي وقالوا أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذي تريد لتمررن عليك الدنيا فقام مغضبا وعاد هو ومن كان معه الى منازلهم * قال أهل التاريخ وصلى عثمان بالناس بعد ذلك ثلاثين يوما ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أميرهم الغافقي واشتد بعض الناس لعثمان وكثرت أعداؤه وطلبوه ونزلوا ذا خشب كما تقدم القول يريدون قتله ان لم يقاتع عما يكرهون منه فاشتد قلق عثمان وجاء الى علي بن أبي طالب فدخل عليه بيته فقال له يا ابن عم ان قرابتى قريبة ولى عليك حق عظيم وقد جاء مائرى من هؤلاء القوم وهم مصبحي ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك وأحب أن تركب اليهم فتردهم عنى فان في دخولهم على توهينا لأمرى وحرارة على فقال علي بن أبي طالب أى شئ أردتهم عنك قال

على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيتني فقال عليّ أني قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك
 فخرج فنقول ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد
 فانك أطعتهم وعصيتني قال عثمان فانا أعصيه وأطيعك في أمر الناس قيل فركب عليّ ومعه
 من المهاجرين والانصار ثلاثون رجلا فأولوا المصريين فكلموهم وكان الذي يخاطبهم عليّ ومحمد
 ابن مسلمة فسمعوا مقاتلتهما ورجعوا إلى مصر ورجع عليّ إلى المدينة وأخبر عثمان برجوعهم
 وكله بما في نفسه فلما كان اليوم الثاني دخل مروان على عثمان فقال له تكلم وأعلم
 الناس أن أهل مصر قد رجعوا وانهم تحقّقوا بطلان ما بلغهم عن امامهم (يعني عثمان)
 فأطاعه عثمان في ذلك فلما خطب الناس قال له عمرو بن العاص اتق الله يا عثمان فانك قد
 ركبت أمورا وركبناها معك فتب إلى الله تب فناداه عثمان وانك هنالك يا ابن النابغة قلت والله
 جيتك منذ عزلتك عن العمل فصاح صائح من جهة أخرى تب يا عثمان إلى الله فرفع يديه
 وقال اللهم اني أول تائب فخرج عمرو بن العاص إلى الشام وجعل يحرض الناس على خلع
 بيعة عثمان * قال عمرو والله اني كنت لألقي الراعي فأحرضه على عثمان * ولم يكن بأسرع من
 أن عاد المصريون إلى المدينة فانطلق اليهم محمد بن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فأخرجوا
 صحيفة في أنبوبة رصاص وقالوا وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من ابل الصدقة
 ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن
 الحنق وعروة بن المبيع وجسهم وحلق رؤسهم ولحاهم وصلب بعضهم * وفي رواية أخرى ان
 الذي كان يحمل الصحيفة الاعور السلمي فلما رأوه سأله عن مسيره وهل معه كتاب فقال
 لا تسألوني في أي شيء هو ففتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والمصريون
 فلما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة فدخل عليّ ومحمد بن مسلمة على عثمان وأخبراه
 بما قاله أهل مصر فاقسم بالله ما كتبته ولا علم لي به فقال محمد صدق هذا من عمل مروان
 ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرفوا الشرفهم وتكلموا فذكر ابن عديس
 ما فعل عبد الله بن سعد بالمسلمين في مصر وبأهل البلاد فيها أيضا والاستئثار في الغنائم فاذا
 قيل له في ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين وذكروا شيئا مما وقع بالمدينة أيضا ثم قال له وخرجنا
 من مصر ونحن نريد قتلك فردنا علىّ ومحمد بن مسلمة وضممنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه
 فرجعنا إلى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول
 الحبس فعند ذلك حلف عثمان انه ما كتب ولا أمر ولا علم * قال أصحاب التاريخ فقال عليّ
 ومحمد صدق عثمان فقال المصريون فنكتبه قال لا أدري قالوا فيجترأ عليك ويبيع غلامك
 وجيل من الصدقة (يعني من جمال عثمان المعدة للصدقة) وينقش على خاتمك ويبيع
 إلى عاملك بهذه الامور العظيمة وأنت لا تعلم قال نعم فقال ما أنت الا صادق أو كاذب فان
 كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق وان كنت صادقا فقد
 استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبت بطانتك ولا ينبغي لنا أن

ترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعتك الله فقال
 عثمان لا أنزع فيصا ألبسني الله ولكني أوب وأنزع قالوا لو كان هذا أول ذنب بدت منه قبلنا
 ولكنك رأيناك تتوب ثم تعودولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو نلحق أرواحنا بالله تعالى وان
 منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص اليك فقال أما أن أنبرأ من خلافة الله فالتقت أحب
 الى من ذلك وأما قولكم تقاتلون من منعني فاني لا آمر أحدا بقاتلكم فن قاتلكم فبغير أمرى قاتل
 ولوأردت قتالكم لكنت الى الاجناد فقدموا على أولحقت ببعض أطرافي * وكثرت الاصوات
 واللغط وعلت الضوضاء فقام على نخرج وأخرج المصريين ومضى على الى منزله فحاصر المصريون
 عثمان واشتد الحصار عليه قيل فأرسل الى علي وطلحة والزبير فحضرُوا فآشرف عليهم عثمان
 وقال أيها الناس اجلسوا فجلسوا المحارب والمسلم فقال لهم يا أهل المدينة أستودعكم الله
 وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ثم قال أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتكم الله
 عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون ان الله لم يستجب لكم وهنتم
 عليه وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى والدين لم يتفرق أهله
 يومئذ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة انما كان مكابرة فوكل الله الامة اذ عصته ولم
 يشاوروا في الامامة أم تقولون ان الله لم يعلم عاقبة أمرى * وأنشدكم بالله أتعلمون لي من
 سابقة خسير وقدم خير قدمه الله لي * يحق على كل من جاء بعدى أن يعرفوا لي فضاهي فها
 لا تقتلونني فانه لا يحل الاقتل ثلاثة رجل زني بعد احصائه أو كفر بعد ايمانه أو قتل نفسا بغير
 حق فأنكم اذا قتلتموني وضعت السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا
 فقالوا أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فان كل ما صنع الله خيرة ولكن الله
 جعلك بلية ابني بها عباده وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم فقد كنت كذلك وكنت أهلا للولاية ولكن أحدثت ما علمته ولا تترك اقامة الحق عليك
 مخافة الفتنة عاما قابلا وأما قولك انه لا يحل الاقتل ثلاثة فاننا نجد في كتاب الله قتل غير
 الثلاثة الذين سميت * قتل من سعى في الارض فسادا وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل
 من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه وثد بغيت ومنعت وحلت دونه وكأرت عليه
 ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالامارة علينا فان زعمت أنك لم تكابرنا عليها فان
 الذين قاموا دونك ومنعوك منا انما يقاتلون لتمسكك بالامارة فلو خاعت نفسك لانصرفوا عن
 القتال معك * قيل فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا
 الا الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباهم واجتمع اليه
 ناس كثير فكانت مدة الحصار أربعين يوما وقد اشتدوا في الحصار بعد ثمان عشرة ليلة مضت
 شدة بالغة ومنعوا كل شيء حتى الماء * قيل ان طلحة هو الذي أمر بذلك وثاروا الى باب دار
 عثمان يريدون الدخول عليه وقتله فلم يمنعهم أحد منه والباب مغلق لا يقدر على الدخول
 منه بخاؤا بنار فأحرقوه والسقيفة التي على الباب وثار أهل الدار وعثمان يصلي فلما فرغ

يجلس الى المصحف يقرأ فيه وقرأ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
 فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فقال لمن عنده بالدار ان رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قد عهد الى عهدا فانا صابر عليه ولم يحرقوا الباب الا وهم يطلبون ما هو أعظم
 منه فافتحم الناس الدار من الدور التي حولها ودخلوا من دار عمرو بن حزم الى دار عثمان حتى
 ملؤها ولم يشعر من بالباب وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلا يقتله فانتدب له رجل
 يدخل عليه فدخل عليه البيت فما سمع كلامه حتى عاد مدحورا وولى عن أصحابه ثم
 دخل آخر وآخر وكان آخر من دخل عليه عن ربيع محمد بن أبي بكر فقال له عثمان وبك
 أعلى الله تغضب هل على لك جرم أو حق أخذته منك فأخذ محمد بلحيته أي طيسته عثمان
 وقال قد أنزل الله يا عدو فقال لست بعقل ولكني عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد ما أغنى
 عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان يا ابن أخي فما كان أبوك لي يقبض عليها يعني على لحيتيه
 فقال محمد لوراء أبي تعمل هذه الاعمال أنكرها عليك والذي أريد بك أشد من قبضي عليها
 فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج وقيل بل طعن جبينه بمشقص كان
 في يده فلما خرج محمد وعرفوا انكساره ثار قتيبة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي
 بمحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقر بين يدي عثمان وسالت عليه
 الدماء وجاء سودان ليضربه فأنكبت عليه امرأته واتفقت السيف بيدها فقطع أصابعها فوات
 وضرب عثمان فقتله * وقيل ان الذي قتله كنانة بن بشر التميمي ودخل غلة لعثمان لينصروه
 على القوم فاتفقوا على سودان فضربوا عنقه ووثب قتيبة على الغلام الذي قتل سودان فقتله
 وانتهبوا ما في البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على
 قتيبة فقتله وثار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء وأخذ كل قوم التميمي
 مائة على نائلة فضربه غلام لعثمان فقتله وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس وكثر
 الضجيج والصياح قيل ووثب عمرو بن الحلق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات
 قال فأما ثلاث منها فاني طعنته اياه الله تعالى وأما الستة فلما كان في صدرى عليه * وأرادوا
 قطع رأسه فوقع نائلة زوجته عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه فقال ابن عديس
 اتركوه وأقبل عمير بن ضابئ فوثب عليه فكسر ضاعا من أضلاعه وقال سجنبت أبي حتى مات
 في السجن * أخرج ابن عساكر عن أبي خلدة قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول ان بني
 أمية يزعمون أني قتلت عثمان لا والله الذي لا اله الا هو ما قتلت ولا مالات وقد نهيت فعصوني
 وعن سمرة قال ان الاسلام كان في حصن حصين وانهم ثلوا في الاسلام ثلثة بقتلهم عثمان
 لا تسد الى يوم القيامة وان أهل المدينة كانت تتم الخلافة فيهم فأخرجوها ولم تعد اليهم اه
 وقال المدائني قتل رضى الله تعالى عنه * يعني عثمان * يوم الاربعاء بعد العصر ودفن يوم
 السبت قبل الظهر وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين * وقال
 المهدي قتل في وسط أيام التشريق وأقام ثلاثة أيام لم يدفن ولم يصل عليه رضى الله تعالى

عنه وقيل صلى عليه جبير بن مطعم ودفن ايلا واختلف في مدة الحصار ف قيل أكثر من
عشرين يوما وقيل تسعة وأربعون يوما * وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة الاثني عشر
يوما وقتل وهو ابن ثمانين سنة قاله ابن اسحق * وقال عميرة كانت خلافته احدى عشرة
سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وقتل وعمره ثمان وثمانون سنة * وقيل كانت خلافته
اثنتي عشرة سنة وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن ثلاث وثمانين سنة وقيل تسعين
وقيل غير ذلك

وفي أيامه انتقض عهد الاسكندرية * قال ابن عبد الحكم حدثنا ابن صالح عن الليث بن
سعد قال عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين قدم فيها عليه عمرو وقدمتين استخلف
في احدهما زكرياء بن جهم العبدى على الجند ومجاهد بن جبير مولى بن نوفل على الخراج فسأله
عمر عن استخلف فذكر له مجاهد بن عبيد فقال عمر مولى بنى غزوان قال نعم انه كاتب فقال
عمر ان العلم ليرفع صاحبه واستخلف في القدمة الثانية عبد الله بن عمر قال حدثنا ثوبان بن أبي
رفية عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن أبي رقية قال كان سبب نقض
الاسكندرية العهد أن صاحب اخنا قدم على عمرو بن العاص فقال أخبرنا ما على أحدنا
من الجزية فقال عمرو لو أعطيتني من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزائن لنا ان
كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم فغضب صاحب اخنا فخرج الى الروم
فقدم بهم فهزمهم الله وأسر القبطى فأتى به الى عمرو فقال له الناس اقتله قال لا بل انطلق
فجئنا بجيش آخر اه وقال عبد الله بن صالح كانت الاسكندرية انتقضت وجاءت الروم
وعليهم منوبل الخصى في المراكب حتى أرسى بالاسكندرية فأجابه من بها من الروم ولم يكن
المفوقس تحرك ولا تنكث وكان عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قد عزل عمرو بن
العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم بالاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر
عمر حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في قلب العدو ففعل وكان على
الاسكندرية سورها خلف عمرو بن العاص لئن أطغره الله عليهم لهدم سورها حتى يكون
مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان فخرج عمرو في البر والبحر وضموا الى المفوقس من أطاعه
من القبط فأما الروم فلم يطعه منهم أحد فقال خارجة بن خزاعة لعمر وناهضهم القتال قبل
أن يكثرو عددهم ولا آمن أن تنقض مصر كلها فقال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسبوا
الى فانهم يصيبون من مروا به فيخزي الله بعضهم ببعض فخرجوا من الاسكندرية ومعهم
من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرى فيشربون خورها وبأكلون أطعمتها وينهبون
ما هموا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نيقوس فلاقوهم في البر والبحر فبدأت الروم فرموا
بالنشاب في الماء رميا حتى أصاب النشاب يومئذ فرس عمرو في ابته وهو في البر فعقر فنزل
عنه عمرو ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين في البر فنضحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر
المسلمون عنهم فحملوا على المسلمين حملة شديدة فولى المسلمون منها وانهمز شريك بن سمى في

خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفها خلف صفوف ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم فطردهم المسلمون حتى ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصى وهدم سور الاسكندرية كله * فلما هزمت الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله ابن سعد على الخراج فقال عمرو أنا اذن كما سك البقرة بقرنيها وأخر يحلبها فأبى عمرو * ولما قتل عثمان بن عفان تولى الخلافة بعده علي بن أبي طالب وكان من أمر ولاية مصر ماسيد كر في محله

(الفصل الرابع)

(في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)

ثم قام بالامر بعد قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد اختلف أهل التاريخ في كيفية بيعته فذهب بعضهم الى أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب الشريعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير فأثروا عليا وضربوا عليه الباب ودخلوا وقالوا ان هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من امام ولا نعلم أحدا أحق بها منك قال لا حاجة لي في أمركم فن اخترتم رضيت به فقالوا ما مختار غيرك فردهم عن ذلك فأبوا فقال ان أيتهم الا بيعتي فان بيعتي لا تكون سرا ولا تكون الا في المسجد وكان في بيته وقيل في حائط ابني عمرو بن مبدول

ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس المسجد وجاء علي وعليه ازار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئا على قوس فصعد المنبر وقال * أيها الناس عن ملا واذن ان هذا أمركم ليس لاحد فيه حق الا من أمرتم وقد افترقنا بالامس على أمر وكنت كارها لأمركم فأيتهم الا أن أكون عليكم ألا وانه ليس لي دونكم الا مفاتيح مالكم معي وليس لي أن آخذ درهما دونكم فان شئتم فعدت لكم والا فلا آخذ علي أحد * فقالوا نحن على ما فارقتك عليه بالامس * فقال اللهم اشهد ولما جاؤا بطلحة ليبيع فقال انما أبيع كرها فبايع وكان به شلل فقال رجل يعتاف وقيل حبيب بن ذؤيب لانا لله وانا اليه راجعون أول يد بايعت يد شلاء لا يتم هذا الامر ثم جرى بالزبير فقال مثل ذلك وبايع وفي الزبير اختلاف وقيل ان عليا قال لطلحة والزبير ان أحببتهما أن تبايعاني وان أحببتهما بايعتكما فقالا بل نبايعك * قال بعض أهل التاريخ وقد قال بعد ذلك انما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا وعرفنا أنه لا يبايعنا ثم هربا الى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ولم يبايعه كثير من أهل مكة والمدينة وكان ممن لم يبايعه النعمان بن بشير وكان قد أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت في دفاعها عن عثمان يوم قتله وقيص عثمان الذي قتل فيه وهرب به فلق بعاوية

في الشام فكان من وراء ذلك ما سيذكر في محله * وقيل ان صهيبا وسامة بن سلامة بن
وقش وأسامة بن زيد لم يبايعوا عليا ولم يدعوا له يدا * ثم جرى بعده بقوم كانوا قد تحلفوا
فقالوا نبايع علي إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزير والذليل فبايعهم ثم قام العامة
فبايعوا وصار الامر أمر أهل المدينة وكانهم كما كانوا فيه وتفرقوا الى منازلهم وبويع يوم
الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة والناس يحسبون بيعته من قبل عثمان وأول خطبة
خطبها حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثم قال * ان الله أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير
والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر * الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى يؤدكم الى
الجنة ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدد بالاخلاص
والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق لا يحل دم امرئ
مسلم الا بما يجب * بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان
ما خلفكم الساعة تحذوكم تخففوا الحقوا فانما ينتظر باناس أخرهم * اتقوا الله عباد الله
في بلاده وعباده انكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم * أطيعوا الله فلا تعصوه واذا
رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض
ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية

خذها اليك واحذرن أبا حسن * انا غمر الامر امرار الرسن
صولة أقوام كاشداد السفن * بعشريات كقدران اللبن
ونظعن الملك بلسين كالشطن * حتى يمزون على غير عن

فقال علي

اني عجزت عجرة لا أعتذر * سوف أكبس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجز * وأجمع الامر الشيت المنشر
ان لم يشاغبي الجول المنتصر * ان تتركوني والسلاح يتدر
ثم نزل ورجع الى بيته وجعل يفرق عماله على الامصار فبعث عثمان بن حنيف على
البصرة وعمار بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على
مصر وسهل بن حنيف على الشام فلم يفلحوا وظهر معاوية بن معمر لفساد الامر على
علي وأرسل رجلا من بني عباس يدعي قبيصة الى علي ومعه طومار مختوم عنوانه من
معاوية الى علي وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول
فقدم الرجل الى المدينة في ربيع الاول فدخلها وقد رفع الطومار فتبعه الناس يتظرون
اليه وعلموا أن معاوية معترض * قال ابن عباس أتيت عليا بعد قتل عثمان عند عودي من
مكة فوجدت المغيرة بن شعبه مستخليا به فخرج من عنده فقلت له ما قال لك هذا فقال قال
لي بعد مرته هذه ان لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقيتة الناس وان الرأي اليوم نحز
به مافي غد وان الضياع اليوم يضيع به مافي غد أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على

أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم اعزل من شئت فأبيت عليه ذلك وقلت لأداهن في ديني ولا أعطى الدنية في أمري قال فان كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية فان في معاوية جراءة وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في اثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاء الشام * فقلت لا والله لا أستعمل معاوية يومين ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يود أني مخطئ ثم عاد إليّ الآن فقال اني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفني فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت فمعرلهم وتستعين بمن تشق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان * قال ابن عباس فقلت لعليّ أما المرة الاولى فقد نصحتك وأما المرة الثانية فقد غشيتك قال ولم نصحتي قلت لان معاوية وأصحابه أهل دنيا فتى ثبتم لا يبالون من ولي هذا الامر ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الامر بغير شوري وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرأ عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعليّ أن أقلعه من منزله فقال عليّ والله لأعطيته الاسيف ثم قتل

وما ميتة ان منها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غولها
فقلت يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحرب خدعة فقال بلى فقلت أما والله لئن أطيقتي لأصدرنهم بعد ورد ولا تركنهم يتظرون في دبر الامور ولا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا اثم لك * فقال يا ابن عباس لست من هنالك ولا من هنات معاوية في شيء * قال ابن عباس فقلت له أظعني وألحق بمالك ينبع وأغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجدد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحمانك الناس دم عثمان غدا فأبى عليّ فقال تشير عليّ وأرى فاذا عصيتك فأطعني قال فقلت افعل ان أيسر مالك عندي الطاعة فقال له عليّ تسير الى الشام فقد وليتكمها فقل ابن عباس ما هذا برأى معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله وليت آمن أن يضرب عنقي بعثمان وان أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم عليّ لقرايتي منك وان كل ما حمل عليك حمل عليّ ولكن اكتب الى معاوية فنه وعده فقال لا والله لا كان هذا أبدا * وكان المغيرة يقول نصحتك فلم يقبل فغشسته وخرج فخلق بمكة وجعل عليّ يتجهز لاهل الشام ويكثر من جمع الرجال اذ جاءه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو آخر وانهم على الخلاف فاعلم عليّ الناس ذلك وان عائشة وطلحة والزبير قد هبطوا امارته ودعوا الناس الى الاصلاح * وكان سبب اجتماع طلحة والزبير وعائشة بمكة أن عائشة كانت خرجت اليها وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة فلما كانت بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن أبي سلمى وهو ابن أم كلاب فقالت له عائشة مهيم قال قتل عثمان وبقيوا ثمانية قالت ثم صنعوا ماذا قال اجتمعوا عليّ بيعة عليّ فقالت ليت هذه انطبقت عليّ هذه ان تم الامر لصاحبك ردوني ردوني

فانصرفت الى مكة وهي تقول قتل والله عثمان مظلوما والله لا ظلمين بدمه فقال لها ولم والله ان أول من أمال جرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعلنا فقد كفر قالت انهم استنابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الاخير خير من قولي الاول فقال لها ابن أم كلاب

فنسك البداء ومنسك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام * وقلت لما انه قد كفر
فهينا أطعمناك في قتله * وقائله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا * يزيل الشبا ويقيم الصغر
ويلبس للحسب أثوابها * وما من وفي مثل من قد غدر

فانصرفت الى مكة فقصدت الحجر فسترت فيه فاجتمع الناس حولها فقالت * أيها الناس ان الغوغاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظميا بالامس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنة وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحى سماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لا صبيح من عثمان خير من طباق الارض أمثالهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبنا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه * فقال عبد الله بن عامر الحضرمي وكان عامل عثمان على مكة هاأنا أول طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان الى مكة ورفعوا رؤوسهم وكان أول ماتكم بالحجاز وتبعهم سعيد ابن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية * وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم فأناخ بالابطح وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة واتفقوا على الشخصوس الى البصرة فجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديا ان أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون الى البصرة فمن أراد اعزاز الاسلام وقتال المهلين والطلب بشار عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا في ألف وقيل في تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل فبعثت أم الفضل بنت الحرث أم عبد الله بن عباس رجلا من جهينة يدعى ظفرا فاستأجرته على أن يأتي عليا بالخبر فقدم على علي بكتابه فلما جاءه الخبر سار في تعبته التي تعبها لاهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخفين في تسعمائة وهو يرجو أن يدرك أصحاب عائشة فيجول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم وساروا حتى انتهوا الى الربرة فلما انتهوا اليها أتاهم خبر سبق عائشة ومن معها فأقام بها يا أتمر ما يفعله وأتاه ابنه الحسن في الطريق فقال له لقد أهرتك فعصيتني فقتل

غدا بعصية لانا صر لك فقال له عليّ انك لا تزال تخن خنين الجارية وما الذي أمرتني فعصيتك قال أمرتك يوم أحبط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل وليست بها ثم أمرتك يوم قتل أن لا تنابح حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت عليّ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى بصطلمحوا فان كان الفساد كان عليّ يد غيرك فعصيتني في ذلك كله * فقال أي بني قد بايعوني طائعين غير مكرهين فأنا مقاتل من خالفني بمن أطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فكف عنك يا بني * وأرسل إلى المدينة فأناه ما يريد من دابة وسلاح وأمر أمره وقام في الناس فخطبهم وسار من الريزة وعليّ مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعليّ على ناقة حمراء يقود فرسا كيتا فلما التقى الجمع ان تردت الرسل بينهما وطال الكلام في أمر الصلح ووضع الحرب فأبى قوم عائشة الا القتال وأقبل كعب بن سور فألقى عائشة فقال أدركي فقد أبى القوم الا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت وألبسوا هودجها الادراع فلما برزت من البيوت وهي على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقفت واقتتل الناس قتالا عظيما جدا وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوز به بالرمح والزبير كف عنه ويقول أتقتلني يا أبا اليقظان فيقول لا يا أبا عبد الله * قال أهل التاريخ وإنما كف الزبير عنه لقول صاحب الشريعة تقتل عمارا الفئة الباغية قالوا ولو لذلك لقتله * وبينما عائشة واقفة اذ سمعت ضجة شديدة فقالت ما هذا قالوا ضجة العسكر قالت بخير أو بشر قالوا بشرفا فجاءها الا الهزيمة فغضى الزبير من وجهه الى وادي السباع وأما طلحة فأتاه سهم فأصابه فشق رجله بصفحة الفرس وهو ينادي الىّ الىّ عباد الله الصبر الصبر ثم دخل البيوت ودمه يسيل وهو يقول اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى فلما امتلأ خفه دما وثقل قال لغلامه أردفني وأمسكني وأبلغني مكانا أنزل فيه فدخل البصرة فأنزله في دار خربة فمات فيها وقيل انه اجتاز به رجل من أصحاب عليّ فقال له أنت من أصحاب أمير المؤمنين قال نعم فقال امدد يدك أبايعك له فبايعه تخاف أن يموت وليس في عنقه بيعة ولما قضى دفن في بني سعد وكان الذي رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره وأما الزبير فانه مر بعسكر الاحنف بن قيس فلما رآه الاحنف قال من يأتيني بخبر هذا وأشار اليه فقال رجل اسمه عمرو بن جرموز أنا ثم تبعه فلما لحقه نظرا اليه الزبير قال ما وراك قال انما أريد أن أسألك فقال غلام للزبير كان معه انه معدي قال الزبير ما يهولك من رجل وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز الصلاة فقال الزبير الصلاة ونزل ليصلي فاستدبره ابن جرموز وطعنه فقتله وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلي عن الغلام فدفنه بوادي السباع ورجع الى الناس بالظبر ثم سار الى عليّ ودفع اليه سيف الزبير فنظر اليه وقال طامنا جلي به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقالت عائشة لما انجلت الوقعة وانهمز الناس لكعب بن سور دخل عن الجمل وتقدم

بالمصحف فادعهم اليه وناولته مصحفا فاستقبل القوم فرموه بالسهام فقتلوه ورموا عائشة في هودجها فجعلت تنادى البقية البقية يابني وبعاد صوتها الله الله اذكروا الله والحساب فلم يستمعوا عنها فجعلت تخرض الناس فجعلت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة حتى زحم على وكانت راية على مع ابنه محمد فنحس على قفا ابنه محمد وقال له اجل فتقدم وأخذ على الراية من يده وقال يابني بين يدي واشتدت الحرب وكثر الهول والكرب وتسافطت النبال تباعا وأبى أهل الكوفة الا القتال ولم يربدوا الا عائشة وتزاحف الناس بعضهم على بعض ونظرت عائشة من يسارها فقالت من القوم عن يساري فقال لها صبرة بن شيمان بنوك الازد فصاحت يا آل غسان حافظوا اليوم بجلادكم الذي كنا نسمع به وتعلمت

وجالد من غسان أهل حفاظها * وكعب وأوس جاللت وشبيب فكان الازد يأخذون بعرجل الجمل يشمونهم ويقولون بعرجل أمتنا ربحه ربح المسك وقالت لمن عن يمينها من القوم عن يميني قال بكر بن وائل قالت لكم يقول القائل وجاؤا إلينا في الحديد كأنهم * من الغرة القعساء بكر بن وائل واشتد الفريقان في القتال شدة بالغة فكثرت الجرحى والقتلى في العسكر جميعا فقتل قوم لاتزال الحرب أو يصرع الجمل وكره القوم بعضهم بعضا وأخذ عميرة بن يثرب برأس الجمل فكان لا يتقدم اليه أحد الا قتله حتى قتل هودون زمام الجمل ولم يزل الامر كذلك حتى قتل على خطام الجمل أربعون رجلا * قالت عائشة مازال بجلى معتدلا حتى فقدت أصوات بني ضبة * قيل وأخذ الخطام سبعون رجلا من قريش وكلهم يقتل وأحدق أهل النجيدات والشجاعة بعائشة فكان لا يأخذ الخطام أحد الا قتل وما زال حتى ضاع الخطام ونادى على أعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا فضربه رجل فسقط واجتمع القعقاع وزفر على قطع بطان البعير وجلا الهودج فوضعاء وفر من كان وراءه من الناس وتمت هزيمة أصحاب عائشة فلما انهزموا أمر على مناديا فنادى ألا لا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ثم رسم الى نفر أن يحملوا الهودج من بين القتلى فوضعه ولبس قربه أحد وأتى على عائشة فقال كيف أنت يا أمه قالت بخير قال يغفر الله لك قالت ولك فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر البصرة فأزّلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي ونسل الجرحى من بين القتلى ليلا ودخلوا البصرة فأقام على بظاهر البصرة ثلاثا وأذن للناس في دفن موتاهم قيل وكانت القتلى زهاء عشرة آلاف نصفهم من أصحاب على ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة وقيل ثلاثة عشر ألفا وقيل غير ذلك

ودخل على البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة ثم جهز على عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وبعث معها كل من نجا من خرج معها الا من أحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات وسير

معها أخاها محمد بن أبي بكر وخرجت يوم السبت غرة رجب فشيعةا على أميالا وسرح بنيه معها يوما فكان وجهها الى مكة ووقف على مودعا لها وحضر الناس فودعهم فقالت وهي خارجة يابني لا يعتب بعضنا على بعض انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وبين أحماها وانه على معتبتي لمن الاخيار فقال علي صدقت والله ما كان بيني وبينها الا ذلك وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة

قلت واختلف الكتاب وأهل التاريخ فيما دعا عائشة وعليها الى هذه الحرب المشؤمة وركوب هذا المركب الخشن فمنهم من قال ان الحرب انما كانت منها أخذ بثأر عثمان لانها كان ترمي عليا بقتله أو بالتألب عليه * ومنهم من قال بل لكرهاتها فيه وحقدتها عليه منذ كانت تحت صاحب الشريعة خصوصا ما كان من علي بعد خروجها مع صاحب الشريعة الى غزوة بني المصطلق وتشيده على صاحب الشريعة في طلائفها بعد الذي قاله أهل الافك فيها * ونحري الخبر كما روت عائشة * أن صاحب الشريعة كان اذا أراد السفر أفرع بين نسائه فأبتهن خرج سهمها خرج بهامعه فلما كانت غزوة بني المصطلق أفرع بين نسائه فخرج سهم عائشة فخرجت معه فلما قفل صاحب الشريعة من سفره ذلك وكان قريبا من المدينة بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل بالناس وكانت عائشة قد خرجت لحاجتها وفي عنقها عقد من جرع أطفار انسل من عنقها ولا تدري فلما رجعت التمس العقد فلم تجده فخرجت الى المكان الذي كانت فيه تلمسه فوجدته وجاء القوم الذين يرحلون بعيرها فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه وانطلقوا ورجعت هي الى المعسكر وما فيه داع ولا حبيب فالتفت يجلبجبا واضطجعت وهي تنتظر احدى خلال ثلاث اما هلاكها جوعا وعطشا أو أن يفترسها سبع من سباع البر أو يرجع اليها منشد * وبينما هي على هذا الحال اذ أقبل عليها صفوان بن المعطل السلمي وكان قد عرس وراء العسكر لحاجته فلم يبت مع الناس فوقف عليها وكان يعرفها جيدا قبل أن يضرب الحجاب فقال لها ما خلفك ههنا ثم قرب بعيره وقال اركبي فركبت وأخذ برأس البعير وسارا حتى أتيا الجيش وبينما كان يقودها اذ مر ببعض المنافقين وبينهم عبدالله بن أبي الذي كان يدعوه صاحب الشريعة رأس النفاق فقال من هذه فقيل له عائشة زوج النبي مع صفوان فقال والله ما نبت منه ولا نجا منها وقال امرأة نبيكم بانت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها * وقال هو وغيره ما قالوه افكوا وخاضوا في الحديث * وعلم بالامر صاحب الشريعة فأقلقه فقام في الناس خطبهم ثم قال * أيها الناس ما بال رجال يؤذوني في أهلي ويقولون علي بن غير الحق ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه الا خيرا وما دخل بيتنا من بيوت الا معي اه وكان قد كبر ذلك عند عبدالله بن أبي ابن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قاله مسطح وحنمة بنت جحش وهما من أهل الافك * وذلك أن زينب أختها كانت عند صاحب الشريعة فأشاعت حنة من ذلك كلاما كثيرا * فلما قال صاحب الشريعة تلك المقالة وقع الهرج وعلت الضوضاء بين الناس وتشاوروا حتى كاد يكون بينهم شر فزل صاحب الشريعة ودعا

علي بن أبي طالب وأسماء بن زيد فاستشارهما فأما أسماء فأثني خيرا وأما علي فقال ان النساء لكثير وسل الخادمة تصدقك فدعا صاحب الشريعة بيرة الخادمة يسألها فقام اليها علي فضربها ضربا مبرحا وهو يقول اصدقني رسول الله فقالت والله ما أعلم الا خيرا ثم قالت ما قالت * وهبط جبريل بثمان عشرة آية من سورة النور في براءة عائشة * قال الزنجشري في تفسير هذه الآيات * لو قلبت القرآن كله وفقتت عما أوعده به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما أنزل في إفك عائشة على طرق مختلفة وأساليب مقننة فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الاوثان الا ما هو دونه في الفظاعة اه وأقامت عائشة على بغضها لعلي والنائب عليه في خلافته فكانت لا تنسكف عن التشنيع عليه بالقول انه حذف من القرآن وأسقط وبدل وحرف فمن ذلك آية المتعة قالت انه أسقطها بته وكان يجلد من يقرأها وينهى عنها * وكانت عوناً لمن خرج على علي من الأحزاب حتى مات

وبعث علي قيس بن سعد أميراً على مصر وقيس هذا كان صاحب راية الانصار على عهد صاحب الشريعة وكان من ذوى الرأى والبأس فقال له علي سر الى مصر فقد وليتسكها واخرج الى رحلك واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها وأحسن الى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامّة والخاصة فان الرفق ين * فخرج قيس حتى دخل مصر في سبعة من أصحابه ودخل المسجد وصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب علي فقرأ على أهل مصر بامارة ويأمرهم بما بيعته ومساعدته واعاثة على الحق ثم قام قيس خطيباً فقال الحمد لله الذي جاء بالحق وأما الباطل وكبت الظالمين * أيها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم * فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر واطمأنت القلوب وبعث عليها عماله الا قرية اسمها خربتاً هذه فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان واستكبروه وكتبوا قيساً يدعونه الى الطلب بدم عثمان وطال بينهم وبينه الاخذ والرد ثم تهادنوا وكان قيس ذا تدبير وحيلة فلما فاض الخبر بما وقع بين عائشة وعلي ونهض معاوية بن أبي سفيان الى شق عصا الطاعة كان معاوية يخشى كثيراً من قيس المذكور مخافة أن يقبل علي في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية الى قيس كتاباً يقول فيه سلام عليك * أما بعد فانكم نعمتم على عثمان ضربة بصوت أوشيمة وجل أو تسير آخر واستعمال فتى وقد علمتم أن دمه لا يحل لكم فقد ركبت عظيمًا وجئتم أمرا إذا قتب الى الله بإفيس فانك من المجلبين على عثمان فأما صاحبك فانا استيقنا أنه الذي أغرى الناس وجلهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان استطعت يا قيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعتنا على أمرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت مابقيت ولن أحببت من أهلك سلطان الحجاز مادام لي سلطان

وسلني ما سئلت فاني أعطيتك واكتب اليّ برأيك اه فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يردى له أمرا ولا يتعجل الى حربه * قال أصحاب التاريخ فكتب اليه يقول * أما بعد فقد فهمت ما ذكرته من قتله عثمان فذلك شيء لم أقاربه وذكرته أن صاحبي هو الذي أغرى به حتى قتله وهذا مما لم أطلع عليه وذكرته أن عظم عشيرتي لم تسلم فأول الناس كان فيه قياما عشيرتي وأما ما عرضته من متابعتك فهذا أمر لي فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك وليس يأتيك من قبلي شيء تكرهه حتى ترى وزري ان شاء الله تعالى * قالوا فلما قرأ معاوية كتاب قيس رأى مقاربا مباعدا فكتب اليه * أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدفوا فعدك سلما ولا متباعدا فأعدك حربا وليس مثلي يصانع المخادع ويتخدع للباكيد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام * قالوا فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا نصيد معه المدافعة والمماطلة أنظهره ما في نفسه فكتب اليه * أما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك في واستسقاطك إياي أتسومني الخروج عن طاعة أولى الناس بالامارة وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلا وأقر بهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلا وأبعدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ولدضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس وأما قولك اني مالى عليك مصر خيلا ورجلا فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم اليك انك لن تجد والسلام * فلما رأى معاوية كتابه أيس منه وثقل عليه مكانه فجعل يكيدله واقتعل كتابا عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك وقرأه على أهل الشام وطير خبره الى الاتفاق فبلغ ذلك عليا أبلغه أبيه محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب وأعلمته عيونه بالشام فكبر عليه هذا الأمر جدا وأعظمه فدعا ابنه وعبد الله بن جعفر فأخبرهم بالخبر فقال ابن جعفر بأمر المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يريبك اعزل قيسا عن مصر فقال علي اني والله ما أصدق بهذا عنه فقال عبد الله اعزله بأمر المؤمنين فان كان هذا حقا لا يعتزل لك فبينما هم على هذا الحال اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بأمر المخزبيين الطالبيين بدم عثمان وأنه كف عن مشاغبتهم وقتالهم فقال ابن جعفر ما أخوفني أن يكون ذلك مما لأه منه فره بقتالهم فكتب اليه على يأمره بقتالهم فلما قرأ الكتاب كتب جوابه * أما بعد فقد عجبت لأمرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك مفرغين لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فاطعني بأمر المؤمنين واكفف عنهم فان الرأي تركهم والسلام * قيل فلما قرأ علي الكتاب قال ابن جعفر بأمر المؤمنين ابعت محمد بن أبي بكر على مصر واعزل قيسا فقد بلغني أن قيسا يقول ان سلطانا لا يستقيم الا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء فأطاعه علي وبعث محمد بن أبي بكر لمصر وقيل بعث قبله الاشتر النخعي فمات بالطريق فبعث محمدا فلما قدم علي قيس بعصر قال له قيس ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد بيني وبينه قال لا وهذا السلطان سلطانك فقال لا والله لأقيم ونخرج منها مقبلا الى المدينة وهو غضبان لعزله

بجاءه حسان بن ثابت وكان عثمانيا يشمت به فقال له قتلت عثمان ونزعتك على فبقى عليك
الاثم ولم يحسن لك الشكر فقال له قيس يا أعمى القلب والبصر والله لو ألقى بين رجلي
ورطتك حربا لضربت عنقك اخرج عني ثم خاف من مروان بن الحكم بالمدينة فرحل
عنها

ولما قدم محمد بن أبي بكر مصر قرأ كتاب عليّ على أهل مصر ثم قام فخطب فقال * الحمد
لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيرا مما كان عى عنه
الجاهلون * ألا ان أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد الى ما سمعتم وما توفيقى الا بالله عليه
توكلت واليه أنيب فان يكن ماترون من امارتى وأعمالى طاعة لله فأجدوا الله على ما كان
من ذلك فانه هو الهادى له وان رأيتم عاملا لى عمل بغير الحق فارفعوه الى وعائبوني فيه فاقى
بذلك أسعد وأنتم جديرون * وفقنا الله وإياكم لصالح الاعمال برحمته * ثم نزل ولبث شهرا كاملا
حتى بعث الى اولئك المعتزلين من الطالبيين بدم عثمان وقال لهم اما أن تدخلوا فى طاعتنا واما
أن تخرجوا من بلادنا فأجابوه اننا لانفعل هذه ولا هذه وامتنعوا وأخذوا حذرهم فسير اليهم
الحارث بن جهمان الجعفى فى جمع كبير قاتلهم فقاتلوه وقتلوه فبعث اليهم أيضا ابن مضاءم
الكلبي فقتلوه ووصل الخبر بذلك الى معاوية فكتب اليه بسبه ويقبح فعالة ويتوعده
وكتب عليّ الى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكث طهمة
والزبير وحربه اباهما ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار من طاعته
فاستشار معاوية عمرو بن العاص فى ذلك وكان قد لحق بمعاوية قبل قتل عثمان بقليل كى
لا يقتل عثمان وهو فى المدينة فقال عمرو اجع أهل الشام وقاتله أخذنا بشار عثمان حتى
تظفر ففعل معاوية ذلك وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقيص عثمان
الذى قتل فيه مخضوبا بالدم بأصابع زوجته نائلة لأصبعان منها وشئ من الكف وإصبعان
مقطوعتان من أصولهما ونصف الابهام وضع معاوية التميمى على المنبر وجمع الاجناد اليه
وكلهم فى أمر القتال والخروج على عليّ والزامة بدم عثمان فبكوا جميعا مدة وهو على المنبر
والاصابع معلقة فيه وأقسم رجال من أهل الشام ان لا يمسهم الماء الا للغسل من الجنابة وان
لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه وكان هذا كله بحضور رسول
عليّ فرجع الرسول اليه وأخبره بالخبر وان أهل الشام اجتمعوا على قتاله فكبر الامر على
عليّ ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا وعسكروا بالنخيلة ففرق فيهم الاعطية وجهاز معاوية
وتجهز الناس وحضهم عمرو بن العاص على القتال وقال لمعاوية سرالى عليّ بنفسك ولا تغب
عنه برأيتك ومكيدتك فبالغ معاوية فى التأهب والاستعداد ووقف عمرو وسط القوم وناداهم
انما سار اليكم عليّ فى سرذمة قليلة وقد قتل خليفتمكم فآله الله فى حقكم ان تضعوه وفى
دمكم أن تطلوه * فعقد له معاوية لواء ولواء لابنيه عبد الله ومحمد ولواء لغلामه وردان وجاءهم
الخبر بان عليا عقد لواء لغلामه المدعو قنبر فأنشد عمرو بن العاص فى ذلك

هل يغنين وردان عني قنبرا * أو تغني السكون عني جيرا

إذا الكفاة لبسوا السنورا

وساروا حتى التقوا جميعا وسير عليّ جماعة من بكر قومه الى معاوية ليجتجوا عليه ويدعوه الى الطاعة فدخلوا عليه واكلوه في الامر طويلا فقال ليس بيني وبين عليّ الا السيف فعادوا وأخبروا عليا بما جرى وبناتوا ايلتهم تلك وأصبحوا وقد اصطف الفريقان ودارت الحرب بينهما على السهل الخفيف اذ كرهوا أن يجمعوا أهل العراق بأهل الشام في قتال خوفا من الاستئصال والهلاك فكانوا يخرجونهم جماعات قليلة فاقتتلوا على هذا الحال أيام ذي الحجة كلها من سنة ست وثلاثين وربعا اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين ثم عادوا بعد المحرم في سنة سبع وثلاثين الى القتال فرتب عليّ أصحابه وحضهم على القتال حتى يموتوا أو يكتنهم الله من عدوهم * وضرب معاوية له قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فباعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق ودارت الحرب بين الفريقين فاقتتلا قتالا عنيفا وكان معاوية يعلق قيص عثمان وفيه أصابع نائلة زوجته فاذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظا وحنّة في أمرهم فاذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرّك لها حوارها تحن فيعلق القيص * واشتد أهل الشام في قتالهم لأصحاب عليّ وأجهزوا عليهم وأطبقوا من كل صوب وحذب وما زالوا كلما انهزمت طائفة من أصحاب عليّ وانكشفت عنه سار الى استنهاض الأخرى وكان الاشر أحد بكر أصحاب عليّ ينادي في الناس ويقول انصروا أمير المؤمنين واصدقوا عدوكم اللقاء ان الله مع الصادقين * وكثر القتل في أصحاب عليّ وكذلك في أصحاب معاوية واشتد عليّ بمن معه في القتال فلما رأى عمرو بن العاص ما صاروا اليه قال لمعاوية هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا الا اجماعا ولا يزيدهم الا فرقة قال نعم قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فان أبي بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم وان قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا الى أجل فأجابه معاوية الى ما طلب وأمر فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله فقال لهم عليّ ان معاوية وعمرا ومن معهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد كتبتم أطفالا ثم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم والله ما رفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة * فقالوا له لا يسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله وقال جماعة أجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليه والا دفعناك برمتك الى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان * فقال لهم احفظوا عني اياكم واحفظوا مقاتلتكم لي فان تطيعوني فقاتلوا وان تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم * واختلفوا فيما بينهم حتى كادوا يفتشقون وسب أهل الكوفة الاشر وضربوا وجهه دابته بسياطهم لانه كان يحض عليا على القتال وعدم وضع الحرب ويقول لهم ان رفع المصاحف انما هي حيلة ومشورة من ابن النابغة يعني به عمرو بن العاص * فلما رأى عليّ اشتداد الخلاف وتفريق الكلمة سير الاشعث بن

قيس الى معاوية يسأله عما يريد فقال معاوية انما أريد أن نرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به في كتابه تبعثون رجلا ترضون به ونبعث نحن رجلا نرضى به نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه * فرجع الاشعث الى علي وأخبره بما قاله معاوية وفاض الخبر بذلك بين أصحاب علي فقالوا قد رضينا وقبلنا وقال أهل الشام قد رضينا عمرا وقال أصحاب علي ونحن قد رضينا بأبي موسى الاشعري فأنعهم علي في ذلك فأصروا على تحكيم أبي موسى * وجاء أبو موسى حتى دخل المعسكر وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا * بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تناقضى عليه أمير المؤمنين فقال عمرو هو أميركم وأما أميرنا فلا * فقال الاحنف لأمير المؤمنين فاني أخاف إن محوتها أن لا ترجع اليك أبدا لاتحجها وان قتل الناس بعضهم بعضا قيل فأي ذلك علي مليا من النهار ثم ان الاشعث بن قيس قال امح هذا الاسم فجاء فقال علي الله أكبر سنة بسنة والله اني لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله وقالوا لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجوه فقلت لا أستطيع فقال أرنيه فأرنيته فجاء بيده وقال انك ستدعي الى مثلها فحجيب * فقال عمرو بن العاص سبحان الله أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ووقع بينه وبين أمير المؤمنين على كلام كثير ثم كتب الكتاب * هذا ما تناقضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم اننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته فحي ما أحيا ونبت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى وعبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة اه ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن العسكرين من العهود والمواثيق انهما آمنان على أنفسهما وأهلبيهما والامة لهما أنصار على الذي يتفاضيان عليه واتفقوا على أن يكون الحكم في رمضان أو بعده وشهد بذلك جماعة من أصحاب علي وآخرون من أصحاب معاوية وكتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يوافي علي في موضع الحكيم بدومة الجندل أو بأذرح في شهر رمضان وتفرقت جموع كثيرة من أصحاب علي وسار من بقي معه عن صفين الى الكوفة ونزل بها

ولما جاء وقت اجتماع الحكيم أرسل علي أربعائة رجل عليهم شريح بن هاني الحارثي وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص ان عليا يقول لك ان أفضل الناس عند الله عز وجل من كان العمل بالحق أحب اليه وان نقصه من الباطل وان زاده ويحك لاتكن للخائنين خصيما ولظالمين ظهيرا * وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعائة من أهل الشام حتى يوافقوا جميعا على دومة الجندل بأذرح فلما اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الاشعري قال عمرو لأبي موسى يا أبا موسى ألا تعلم أن عثمان قتل مظلوما قال أشهد قال أأنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه

قال بلي قال فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت فان خفت أن يقول الناس ليست له سابقة وجدته وليّ عثمان المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتبه وقد صحبه وعرض له بسلطان * فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف بولاه أهله ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح اغما هو لأهل الدين والفضل معاني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفا أعطيته على بن أبي طالب * وأما قولك ان معاوية وليّ دم عثمان فوله هذا الامر فلم أكن لأوليّه وأدع المهاجرين الاولين * وأما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كله لما وليته وما كنت لارتشي في حكم الله ولكنك ان شئت أن تحيي اسم عمر بن الخطاب رحمه الله * قال له عمرو وما يمنعك من ابني وأنت تعلم فضله وصلاحه فقال ابنيك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة * فقال عمرو ان هذا الامر لا يصلح الا لرجل بأكل ويطعم وكانت في ابن عمر غفلة فقال له ابن الزبير أنظن فانتبه فقال والله لأأرشو عليها شيئا أبدا وقال يا ابن العاص ان العرب قد أسندت اليك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا ترتدّهم في فتنة فلما اختلفوا فحين يتولاها قال عمرو بن العاص لابي موسى خبرني ما رأيك قال أبو موسى أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الامر شورى فيختار المسلمون لانفسهم من أحبوا فقال عمرو الرأي ما رأيبت فقاما وأقبلا الى الناس وهم مجتمعون وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في الكلام ويقول أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسن مني فقال حينئذ يا أبا موسى اعلم الناس أن رأينا قد اتفق فتسكّم أبو موسى فقال ان رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الامة فقال عمرو صدق وبرّ تقدم يا أبا موسى فقال له ابن عباس وبجك والله اني لاطنه قد خدعك ان كنتم اتفقتم على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فانه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فاذا قت في الناس خالفك * قال بعض الكتاب وكان أبو موسى مغفلا فقال إنا قد اتفقنا والتفت الى الناس وقال * أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصح لامرها ولا ألم لشعنها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا واني قد خلعت عليا ومعاوية ثم تنحى وأقبل عمرو وقال * ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه وليّ ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه * فعند ذلك وقع الهرج بين الناس وعلت الضوضاء وتشاتم أبو موسى وعمرو بن العاص ونسابة وضرب شريح بن هانئ عمرو بن العاص بسوط كان في يده فقام عليه ابن عمرو فضربه كذلك وكثر الصياح من الفريقين وطلب أهل الشام أبا موسى فهرب الى مكة وعاد عمرو بن العاص بأهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس وشريح الى عليّ وأخبره بما كان فاغتم غما شديدا وصار اذا صلى الغداة يفتن فيقول اللهم العن معاوية وعمرأ وأبا الاعور وحبيبا وعبد الرحمن

ابن خالد والضحاك بن قيس والوليد فبلغ ذلك معاوية فكان اذا قنت أيضا سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والاشتر * وتآب أصحاب علي على قتال معاوية وأصحابه وأبوا عليا فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت * وكتب علي إلى أهل النهر * بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى يزيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس * أما بعد فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكيم قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملوا بالسنة ولم ينفذوا القرآن حكما فبرئ الله منهما ورسوله والمؤمنون فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا الينا فانا سائر إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كنا فيه فكتبوا إليه * أما بعد فإني لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والافقد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين * فلما قرأ الجواب أيس منهم وسار بن مال معه حتى نزل على أهل الكوفة واستنصرهم فاجتمع له منهم زهاء ثلاثة آلاف مقاتل وقيل ثلاثة آلاف ومائتين وخرج معه من أهل الكوفة أربعون ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الأبناء ممن أدرك وغاية آلاف من الموالى والعبيد فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفا فسار بهم علي لقتال من خرج عن دعوته من أهل النهر وغيرهم فقاتلهم واستظهر عليهم ثم نادى فبين معه بالخروج لقتال معاوية فراجعته في ذلك الأشعث بن قيس وقال يا أمير المؤمنين لقد نفذت نبأنا وكنت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا فأرجع إلى مصرنا نستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا فإن عدونا أقوى منا فأجابه علي إلى ذلك وما زالوا حتى نزلوا بالخيلة فأمر الناس بأن يلزموا المعسكر ويتأهبوا للزحف على العدو وأن يقولوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فلبثوا على هذا الحال أياما ثم تسالوا من معسكرهم فدخلوا البيوت الانفرا من وجوه الناس وأصبح علي وقد رأى المعسكر خاليا فحزن واشتد به الحزن ودخل الكوفة وقد انكسر عليه رأيه في المسير ولكنه قد كبر عليه الأمر واستعظمه فجعل يستنفرهم ويحثهم على الخروج فلم يطيعوا وبقوا على هذا الحال أياما فجمع رؤساءهم وبنائهم وقام فيهم فقال عباد الله ما بالكم اذا أمرتكم أن تنفروا تنافلتوا إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلقتكم وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لاتعقلون فكأن أبصاركم كره وأنتم لاتبصرون لله أنتم ما أنتم إلا أسد الشمرى في الدعة وثعالب رواقعة حين تدعون إلى البأس أنكم تكادون ولا تكيدون وينقص أطرافكم وأنتم لاتتحاشون ولا تنام أعينكم وأنتم في غفلة ساهون إلى أن قال * فلم يلتفتوا إلى مقاتله وكادوا يخذلونه وبينما كان علي على هذا الحال من الضعف والوهن وتفريق كلمة أصحابه إذ جاءه الخبر بفساد أهل مصر على محمد بن أبي بكر عامله بها وخروج معاوية بن خديج السكوني بها يطالب بدم عثمان واجتماع الكثير إليه فكبر الأمر على علي * قال بعض الكتاب فكتب

الى الاشتر وهو ينصيبين يستدعيه فلما حضر أخبره خبر أهل مصر وقال له ليس لها غيرك
فاخرج اليها فاني قد ولبتك اياها واستعن بالله تخرج الاشتر يتجهز الى مصر وأنت معاوية
عمونه بذلك فعظم عليه الامر وخشى عاقبته لانه علم أن الاشتر ان قدمها كان أشد عليه من
محمد بن أبي بكر فأرسل معاوية الى المقدم على أصحاب الخراج بالقلم يقول ان الاشتر قد ولي
مصر فان كفيتميه لم آخذ منك خراجا مابقيت وبقيت فقام الرجل من ساعته وسار حتى أتى
القلم وأقام به وخرج الاشتر من العراق يريد مصر فلما انتهى القلم استقبله ذلك الرجل
فعرض عليه الضيافة فنزل عنده فأناه بطعام فأكل فأناه بشربة من عسل قد وضع له فيها
سهما فشرب فمات لساعته وجاء الخبر بموته الى معاوية ففرح فرحا لا يوصف وقام في الناس
خطيبا فقال بعد كلام قد كانت لعل عينان فقطعت احدهما بصفين يعني بموت عمار بن
ياسر وقطعت الاخرى اليوم يعني بموت الاشتر وعلم محمد بن أبي بكر بما فعله علي من
ارساله الاشتر مكانه فكبر عليه الامر جدا وأرسل الى علي في ذلك فكتب اليه علي يقول
* أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الاشتر الى عملك واني لم أفعل ذلك الا استبطاء
لك في الجهاد ولا ازديادا مني لك في الجدد ولو نزع ما تحت يدك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤنة
منه وأعجب اليك ولاية * ان الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيبا وعلى عدونا
شديدا وقد استكمل أيامه ولا في حكامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب
اصبر لعدوك وشدد للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله
والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعينك على ما ولاك * فكتب اليه محمد أما
بعد فقد انتهى الى كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أَرْضَى برأى أمير المؤمنين ولا أجهد
على عدوه ولا أراف بوليه مني وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس الا من نصب لنا حربا
وأظهرنا خلافا وأنا متبع أمير المؤمنين وحافظه والسلام وقيل انما تولى الاشتر مصر بعد
قتل محمد بن أبي بكر وقيل غير ذلك * وكان معاوية شديد الخوف من أهل مصر يهابهم
جدا لقربهم منه وشدة همهم على من قام يطالب بدم عثمان ولم يكن يخشى غيرهم لاسيما بعد
اختلاف الناس على علي بالعراق فجعل يدبر الحيلة في ذلك ثم دعا عمرو بن العاص وحبيب بن
مسلمة وبسر بن أرطاة وآخرين وشاورهم في أمر مصر ومن بها من أصحاب علي فأشار
عليه عمرو بن العاص بفتحها والركوب على من بها من الأحزاب حتى يتم النصر فكتب
معاوية الى بعض من خالف عليا بمصر في أمر ذلك فنوه بالنصر واستنهضوه فأمر عمرو بن
العاص ليتجهز اليها وسير معه ستة آلاف رجل فنزلوا على مقربة من أرض مصر فاجتمع اليه
من قام يطالب بدم عثمان فتنقوت بهم عزيمته وكتب الى محمد بن أبي بكر أما بعد ففتح عنى
بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا أحب أن يصيبك مني ظفر ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا
على خلافك وهم مسلمون فاخرج منها اني لك من الناصحين وبعث معه كتابا من معاوية
أيضا فأرسل محمد الكتابين الى علي وأخبره بنزول عمرو بن العاص على حدود مصر وطلب

منه المدد لتشاغل الناس وتفاعدهم فوعده على إرسال نجدة عاجلة وحضه على أن يضم
شيئته اليه

واشتبك القتال بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص ومن بمصر من أصحاب عثمان واشتد
شدة بالغة واجتمع أهل الشام حول محمد وأصحابه وأخذوهم بالرماح والسيوف من كل صوب
وكان كثانة بن بشر على مقدمة أصحاب محمد فلما رأى ذلك كثانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه
فضارب أهل الشام بسيفه حتى قتل وبلغ محمد بن أبي بكر خبر موته فأنزعز وتفرق عنه
أصحابه وأطبق عليه عمرو بن معاوية ففر محمد على وجهه حتى انتهى إلى خربة في الطريق
فأوى إليها وساق عمرو بن العاص بن معاوية يريد الفسطاط وخرج معاوية بن حديج في طلب
محمد بن أبي بكر فدل عليه رجل فأخرجوه من الخربة وقد كاد يهلك عطشا فقال يا ابن حديج
اسقني فقال له لاسقائي الله ان سقيتك قطرة أبدا انكم منعم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك
حتى يسقيك الله من الحميم والغساق فقتله ابن حديج ثم ألقاه في جيفة جمار ثم أحرقه بالنار وجاء
الخبر إلى عليّ بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر فزن كثيرا وحزنت عائشة وجزعت عليه جزعا
شديدا وجعل عمرو يدبر الأمور بمصر وقد أخذ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان وجع إليه كلمة
الاحزاب فقويت بهم شوكتهم واتسعت كلمته وهابه عليّ فاجهم عن تسيير الجند لقتاله بعد أن
نادى فيهم بالرحيل * واختلفت كلمة أصحاب عليّ وتفرقوا عنه أو كادوا ومعاوية يبعث البعوث
إلى الآفاق لتم دعوته وتعلو كلمته فلما دخلت سنة ست وثلاثين للهجرة فرق معاوية جيوشه
في العراق ورسم لهم بقتال كل من لم يذعن لسلطانهم فقاتلوا وقاتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا مالا خيرا
فيه وكذلك فعلوا بأهل البوادي وبلغوا مكة والمدينة وفعلوا بها ما فعلوا وكبر الأمر على عليّ
وكاد يسقط في يده فكانت الأخبار تأتيه في كل يوم بتشاكل الناس عن الخروج لقتال عدوه
فكان يخطب ويحضر ويعذر ويؤنب ويقول يا أيها الناس انصروا من هو على الحق ويحكم
المغرور من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الاخيب إنا لله وإنا إليه راجعون والناس مع
ذلك في تشاغل وسلطانهم في إديار * فلما اشتد الحال وعظم الخلاف بين المتحازين اجتمع
عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصرمي وقيل اسم البرك الحجاج
وعمر بن بكر التميمي السعدي وهم من الخوارج فنذا كروا أمر الناس وعابوا عمل ولايتهم
ثم ذكروا قتلى النهر فترجوا عليهم وقالوا ما نضع بالبقاء بعدهم فلو شربنا أنفسنا وقتلنا أئمة
الضلالة وأرحنا منهم البلاد لكان في ذلك المصلحة فقال ابن ملجم ويحكم أنا أ كفيكم علمنا
وكان ابن ملجم هذا من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله وأنا أ كفيكم معاوية وقال عمرو
ابن بكر وأنا أ كفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه
إليه حتى يقتله أو يموت فأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وقصد
كل منهم الجهة التي يريد فأتى ابن ملجم الكوفة فأتى أصحابه بالكوفة وكتبهم أمره ورأى يوما

أصحابا له من تيم الرباب وكان عليّ قد قتل منهم يوم النهر عدة فتذاكروا قتلى النهر ورأى معهم امرأة من تيم الرباب اسمها قعام وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أخذت قلبه فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشتقي لي فقال وما تريدن قالت ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل عليّ فقال أما قتل عليّ فما أراك ذكرته وأنت تريدني قالت بلى التمس غزته فان أصبته شفيت نفسك ونفسي ونفعلك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها قال والله ما جاءني الاقتل عليّ فلك ما سألت قالت سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك وبعثت الى رجل من قومها اسمه وردان وكلمته فأجابها وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال له هل لك في شرف الدنيا والآخرة قال وماذا قال قتل عليّ قال شبيب ثم كلمك أمك لقد جئت شيئا إذا كيف تقدر عليّ قتله قال أكن له في المسجد فاذا خرج الى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فان نجونا فقد شفينا أنفسنا وان قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها قال ويحك لو كان غير عليّ كان أهون * فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشرة رمضان سنة أربعين استيقظ عليّ سحرا وقال لابنه الحسن رأيت الليلة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ماذا لقيت من أمّتك من الاود والالدد فقال لي ادع الله تعالى عليهم فقلت اللهم أبداني بهم خيرا لي منهم وأبدلهم بي شرا لهم مني ودخل المؤذن فقال الصلاة نخرج عليّ من الباب ينادي أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصاب جبهته ووصل الى دماغه فشد عليه الناس من كل جانب فأمسك وأوثق وأقام عليّ الجمعة والسبت وتوفي ليلة الاحد وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية وصلى عليه الحسن ودفن بدار الامارة بالكوفة ليلا وأخفى قبره لئلا ينشه الخوارج وأما البرك فانه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان معاوية عظيم الاوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك ولد فأمر معاوية باتخاذ المقصورة في الجوامع من ذلك الوقت وأما عمرو بن بكر فانه رصد عمرو بن العاص بمصر فاشكى عمرو بطنه فلم يخرج الى الصلاة فصلى بالناس رجل من بني عامر يقال له خارجة فضربه ابن بكر فقتله واليه أشار ابن عبدون في قصيدته الرائية

فلمتها اذا قدت عمرا بخارجة * فدت عليا بمن شئت من البشر

وقيل ان عليا كان اذا رأى ابن ملجم يتمثل بهذا البيت

أريد حياته ويريد قتلي * عذرك من خليلك من مرادى

وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطعوه اربا بعد موت عليّ قال غير واحد انه لما ضربه ابن ملجم أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفي آخرها * يا بني عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوفا تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بي غير قاتلي اضربوه ضربة بضربة ولا تتلوا به فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اياكم والمثلي * ولما مات عليّ قتل الحسين ولده عبد الرحمن بن ملجم المذكور فقطع يديه ورجليه وكل عينيه بمسمار محي في النار قيل

كل ذلك ولم يتأوه ولم يجزع فلما أرادوا قطع لسانه تأوه وجزع فسئل عن ذلك فقال والله ما تأوه فزعا ولا جزعا من الموت وانما أتأوه لأن عر عليّ ساعة من ساعات الدنيا لأذكر الله تعالى فيها فقطعوا لسانه فأت بعد ذلك * ومات عليّ وعمره سبع وقيل ثمان وخسون وقيل ثلاث وقيل ثمان وستون سنة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوما واحدا وكانت مدة إقامته بالمدينة أربعة أشهر ثم سار إلى العراق وقتل بالكوفة قيل وكان قبل موته قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت فقتل قبل أن يخرج بهم لقتال عدوه * وكان يجتمع على مع صاحب الشريعة في عهد المطلب الجند الأدنى وينسب إلى هاشم فيقال القرشي الهاشمي ولم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام عليا ويكنى أبا الحسن أسلم وهو ابن سبع سنين وقيل ابن تسع وقيل ابن عشر وقيل ابن خمس عشرة وقيل غير ذلك والصحيح الأول وشهد المشاهد كلها الاتبوك فان صاحب الشريعة خلفه في أهله وكان غزير العلم ولما هاجر صاحب الشريعة أقام بعده ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عنه الودائع وكان لعليّ شفقة على رعيته فكان متواضعا ورعا ذاقوة في الدين وكان قوته من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها في القدح ثم يصب عليه ماء فيشربه وقد تفرق عليه الخوارج واعتقد فيه الناس الألوهية قبل ولما بلغ عائشة قتل عليّ قالت

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرعينا بالأياب المسافر

قالت من قتلة فقييل رجل من مراد فقالت

فان يك نائيا فلقد نعاء * نعي ليس في فيه التراب

فقالت زينب بنت أبي سلمة أنقولين هذا لعليّ فقالت انني أنسى فإذا نسيت فذكروني ومات في أيامه بنيامين بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسعا وثلاثين سنة على المشهور وكان فيها من الحوادث والحن ماهر بك ذكره فاقم بعده اغاثو وهو تاسع ثلاثهم وكان في أيامه من الحوادث ما سيذكر بعد * ولما مات أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب خلفه ابنه الحسن

(الفصل الخامس)

(في خلافة أمير المؤمنين حسن بن عليّ)

ثم قام بالامر بعد أمير المؤمنين عليّ الحسن ابنه وكنيته أبو محمد ولقبه الذكي وأمه فاطمة الزهراء بويج له بالخلافة بعد موت أبيه في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة أي سنة إحدى وستين وستمئة ميلادية فكان الناس في ريب من بيعته لأنه كان يقول لهم أشترط عليكم في بيعتي انكم مطيعون تسالمون من سالمات وتحاربون من حاربت فقالوا يا هذا لكم بصاحب

وما يريد هذا الا القتال ثم سار الى المدائن واستقر بها فبينما هو بالمدائن اذ نادى مناد ان قيسا قتل وكان الحسن قد جعله على مقدمة الجيش وهو قيس بن سعد بن عباد بن عتبة بن جراح الحسن لذلك وخرج معه الكثير من الناس وانفصلوا وقد نهبوا متاع الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته فازداد لهم بغضا وكاد يسقط في يده وكان بينهم الجراح الاسدي فهزأ الجراح على الحسن وهو يسير معه ووجاه بالخنجر في عنقه فقال الحسن قتلتم أبي بالامس ووثبتم على اليوم تريدون قتلي زهدا في العادلين ورغبة في القاسطين والله لآتعلن نبأه بعد حين * وسار وهو يريد تسليم الامر الى معاوية بغضا في القوم فخلعهم اياه ثم كتب الى معاوية بتسليم الامر اليه واشترط عليه شروطا فأجابها معاوية الى ما التمس منه وسير له ما اشترط عليه فسلم الامر الى معاوية وباع له الخس بقين من ربيع الاول قال بعض الكتاب لانه رأى المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال ويقال انه أخذ من معاوية ألف ألف درهم وقال قوم انه صالحه بأذرح في جمادى الاولى وأخذ منه مائة ألف دينار ويقال أربع مائة ألف درهم وقيل انه شرط عليه أن يملكه من بيت المال يأخذ منه حاجته وأن يكون ولي العهد من بعده ففرح معاوية بذلك فخلع الحسن نفسه وسلم الامر الى معاوية وصالحه ودخل هو واباه الكوفة فسمى هذا العام عام الجماعة لاجتماع الامة بعد الفرقة على خليفة واحد وقيل انه لما راسل معاوية في تسليم الخلافة اليه خطب الناس حمد الله وأثنى عليه وقال إنما والله ما يثينا عن أهل الشام شك ولا ندم وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم في سيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودينكم أمام دينكم ألا وقد أصبحتم بين فئتين قتل بصفين تبكون له وقتل بالهروان تطلبون بثأره وأما الباقي فخاذل وأما الباقي فتأثر ألا وان معاوية دعانا لامر ليس فيه عز ولا نصفة فان أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عز وجل بظلمة السيوف وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا * فعند ذلك ناداه الناس من كل جانب بالبيعة البقية فأمضى الصلح * قال الليث شهدت خطبة الحسن رضى الله تعالى عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان أكيس الكيس التقى وأحق الحق الفجور وان هذا الامر الذي اختلفت أنا ومعاوية فيه ان كان له فهو أحق به مني وان كان لي فقد تركته له ارادة لاصلاح الامة وحقق الدماء عن سفكها والعدا على النار

قال بعض أصحاب التاريخ لما مرض الحسن رضى الله تعالى عنه كتب مروان بن الحكم الى معاوية بذلك فكتب اليه معاوية أن أقبل المطى الى بخبر الحسن فلما بلغ معاوية موته جمع تكبيره من الخضراء فكبر أهل الشام لذلك التكبير فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية أقر الله عينك ما الذي كبرت لاجله فقال مات الحسن فقالت أعلى موت الحسن بن فاطمة تكبير فقال والله ما كبرت شماتة في موته ولكن استراح قلبي * ودخل عليه ابن عباس

فقال له يا ابن عباس هل تدري ما حدث في أهل بيتك فقال لأدري ما حدث الآن أرى أراك مستبشرا وقد بلغني تكبيرك فقال مات الحسن فقال ابن عباس يرحم الله أبا محمد ثلاثا والله يامعاوية لا تسد حفرة حفرتك ولا يزيد عمره في عمرك ولئن كنا قد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا بامام المتقين وخاتم النبيين فخير الله تلك الصدعة وسكن تلك العبرة وكان الله الخلف علينا من بعده

وكان الحسن قد سمته امرأته جعدة بنت الاشعث فمكث شهرين يرفع من تحته في اليوم كذا وكذا مرة طست من الدم وكان يقول سقيت السم مرارا وما أصابني فيها ما أصابني في هذه المرة وكان قد أوصى ل أخيه الحسين وقال اذا أنا مت فادفني مع جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وجدت الى ذلك سبيلا وان منعوك فادفني في بقيع الغرقد فلما مات لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع جده فخرج مروان بن الحكم في موالي بني أمية وهو يومئذ عامل على المدينة فنع الحسين من ذلك وكانت وفاته في شهر ربيع الاول سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين وصلى عليه سعيد بن العاص ودفن مع أمه فاطمة وقيل دفن بالقيع في قبر بقبعة العباس ودفن في هذا القبر أيضا علي زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الصادق فهم أربعة في قبر واحد * فكانت خلافة الحسن سنة أشهر وخمسة أيام وقيل سنة أشهر الا أياما ومات وعمره سبع وأربعون سنة فتم بموته الامر لمعاوية وانقطع بموته حبل الخلفاء الراشدين وقامت بعدهم الخلافة الاموية فكانت مدة خلافة الراشدين عبارة عن ثلاثين سنة هجرية وبعض أشهر وكان عددهم خمسة خلفاء أولهم أبو بكر وآخرهم الحسن بن علي بن أبي طالب

(المقالة الرابعة)

(في الخلفاء الامويين وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(في خلافة معاوية بن أبي سفيان)

لما خلع الحسن نفسه من الخلافة على الشروط التي تقدم الكلام عليها تم الامر لمعاوية واستقام له الملك وصفت له الخلافة وعلت كلمته وطارت شهرته وكان قد بوبع له بالخلافة يوم التحكيم بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق الى أن صالحه الحسن بن علي فأجمع

الناس على بيعته في جادى الاولى سنة اثنتين وأربعين هجرية أى سنة اثنتين وستين وستمائة ميلادية

وكان مولى معاوية بالخيف من منى أسلم قبل أبيه أبى سفيان وصحب صاحب الشريعة وكتب له وكان في عسكر أخيه يزيد بن أبى سفيان وكان عاملا لعمر بن الخطاب في سنة عشرين هجرية على الشام فلم يزل متوليا عليه عشرين سنة وذلك بقية خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان وفي خلافة على متغلبا عليها الى أن أسلم اليه الحسن الخلافة فاجتمع له الامر وبعث نوابه الى البلاد وذلك في سنة احدى وأربعين للهجرة أى سنة احدى وستين وستمائة للميلاد فسمى هذا العام عام الجماعة قالوا لان الامة اجتمعت فيه بعهد الفرقة على امام واحد قال بعض الكتاب وكانت امرأة استشارت صاحب الشريعة في أن تزوج بمعاوية فقال لها صلوك لامال له ثم بعد هذا القول باحدى عشرة سنة صار نائب دمشق ثم بعد الاربعين صار ملك الدنيا * فلما استقرت به الخلافة وانصرف في الامور خرج عليه فروة بن نوفل الاشجعي الحروري وورد الكوفة وهو أول الخوارج فكتب معاوية الى أهل الكوفة لازمة لكم عندي حتى تكفوني أمره فقاتلوه وقتلوه بشهر زور وقيل ببعض السواد ثم خرج بعده معن الخارجي وهو معن بن عبد الله رجل من محارب فقبض عليه المغيرة وحبسه وبعث الى معاوية يخبره أمره فكتب اليه ان شهد أنى خليفة نخل سبيله فأحضره المغيرة وقال له أتشهد أن معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين فقال أشهد أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فأمر به فقتل ثم خرج أبو هريرة مولى بنى الحرث بن كعب ومعه امرأتان فظام وكيلة فكان أول من خرج معه النساء على الخليفة فعب ذلك عليه بعض قومه فقال قد قاتل النساء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين بالشام قال وسأردهما فردهما فوجه اليه المغيرة رجلا فقاتلوه وقتلوه

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين سار معاوية جنودا ضخما لبلاد الروم للغزو فاقتتلوا قتالا شديدا ثم دخل بسر بن أرطاة أرضهم سنة ثلاث وأربعين قيل وبلغ القسطنطينية ثم دخل عبد الله بن خالد وكان على حص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحرا ثم دخل اليها عبد الرحمن السبيعي سنة ست وأربعين فشتى بها وشتى أبوه على أنطاكية ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بأنطاكية ودخل عبد الله بن قيس في تلك السنة بالصائفة وغزاهم مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز الجبلي بالصائفة وشتى يزيد بن ثمره الرهاوى في بلاد الروم بأهل الشام في البحر وعقبه بن نافع بأهل مصر كذلك * وسير أيضا في سنة ثمان وأربعين للهجرة الى سنة خمسين أى سنة ثمان وستين وستمائة للميلاد جيشا كثيفا الى قسطنطينية مع سفيان بن عوف فأوغلوا في بلاد الروم وألقوا الحصار على المدينة وكان في الجيش يومئذ ابن عباس وعمر بن الزبير وأبو أيوب الانصاري الذي شهد بدرًا وأحدا وحرب صفين فمات أيام الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية

وبعد أن هاجموا المدينة هجمات كثيرة وشدوا عليها من كل جانب هزمهم الروم شر هزيمة وعرقلت النار الاغريقية حركاتهم فكانت تحرق وتبيد وتهلك من فوق ومن تحت الماء وكان معاوية قد أمر ابنه يزيد بالغزو معهم فماتوا واعتل فأمسك عنه أبوه وأصاب الناس في غزوتهم هذه جوع ومرض شديد وفاض الخبر بذلك وتحدث الناس فيه فأنشأ يزيد يقول

ما ان أبالي بما لاقت جوعهم * بالفرقدونة من حبي ومن شوم
إذا اتكأت على الانماط مرتفعاً * بدير مزان عندى أم كلثوم

وأم كلثوم هي امرأة ابنه عبد الله بن عامر فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليحقق بسيفان من أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فصار ومعه جمع كثير أضافهم اليه أبوه ثم رجع يزيد والجيش الى الشام * قال أصحاب التاريخ فكانت هذه أول مرة لقيت فيها عساكر المسلمين صقلاً * وكان معاوية قد عقد لعرو بن العاص النيابة على مصر في مدة اختلافه مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كما تقدم القول وكتب الى مسامة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما كبارا العاملين على أخذ ثار عثمان بن عفان بمصر يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ومن معه من الجند لاخذ مصر فأجابوه بجهاز معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف فصار اليها واجتمعت عليه العثمانية وهم عشرة الاف فكتب عمرو الى محمد بن أبي بكر ما كتب وكان ما كان من أمر قتل محمد بن أبي بكر واحراق جثته مما امر بيانه في محله فلما تم الامر الى عمرو ابن العاص ودانت له الامور كتب الى معاوية يخبره بما كان من الامر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميراً عليها الى أن مات بها ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين على المشهور ودفن بالمقطم من ناحية النجف وكان طريق الناس يومئذ الى الحجاز فأحب أن يدعو له من مربه وهو أول أمير مات بمصر وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبير

ألم تر أن الدهر أخى بربوة * على عمرو السهمى تجي له مصر
فأضحى نبينا بالعراء وضلت * مكايده عنه وأمواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه المال برهة * ولا كبده حتى أتيح له الدهر

ولما مات عمرو بن العاص ولى معاوية على مصر ولده عبد الله بن عمرو المذكور * قال الواقدي فعل له عليها سنتين وقال غيره بل أشهر ثم عزله وولى عقبة بن عامر سنة أربع وأربعين فأقام الى سنة سبع وأربعين فعزله وولى معاوية بن حديج فأقام الى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد وجعت له مصر والغرب وهو أول وال جمع له ذلك * قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن الهيثم عن بعض شيوخ أهل مصر قال أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التي خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد المذكور فأنكر ذلك الجند على مسلمة وقالوا له أتقرر لهم أن يبنوا الكنيسة حتى كاد يقع بينهم وبينه شر فاحتج عليهم يومئذ مسلمة فقال انها ليست في قروانكم وانما هي خارجة في أرضهم فسكتوا عن ذلك

فأقام مسلمة أميرا الى سنة تسع وخسين وكان عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي المشهور بابن أم حكيم وهي أخت معاوية أميرا على الكوفة فأساء السيرة في أهلها فأخرجوه من بين أظهرهم طريدا فرجع الى خاله معاوية فقال لأولينك مصر خيرا منها فولاه مصر فلما سار اليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال ارجع الى خالك فلمعري لاتسير فينا سيرتك في أهل الكوفة فرجع ابن أم حكيم ولحقه معاوية بن حديج واقدا على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم حكيم وهي أم عبد الرحمن الذي طرده من مصر فلما رآه معاوية قال بخ بخ هذا معاوية بن حديج فقالت أم حكيم لا مرحبا تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال معاوية بن حديج على رسلك يا أم حكيم أما والله لقد تزوجت فما أكرمت وولدت فما أنجبت أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في أهل الكوفة فما كان الله ليريد ذلك ولو فعل لضربنا ابنك ضربا بظأطى منه وإن كره هذا الجالس فالتفت اليها معاوية فقال كفى فاستمر مسلمة على إمرة مصر الى أن مات في خلافة يزيد في ذى الحجة سنة اثنتين وستين

ولما كانت سنة ست وخسين بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه وكان الذي أشار على معاوية بذلك المغيرة بن شعبة وذلك لان معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال رأى أن أشخص الى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتي للولاية فسار الى معاوية وقال لأصحابه حين وصل اليه ان لم أكسبكم الآن ولاية وامارة لأفعل ذلك أبدا ومضى حتى دخل على يزيد وقال له انه قد ذهب أعيان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أنسابهم وانما بقي أبناءؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة قال أو ترى ذلك يتم قال نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر المغيرة وقال له ما يقول يزيد فقال يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولاتسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لى به هذا قال أكفيك أهل الكوفة وبكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع الى عمك وتحدثت مع من تشق اليه في ذلك وترى ونرى فودعه ورجع الى أصحابه فقالوا مه قال لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد وقتقت عليهم فتقا لا يرتق أبدا وتمثل

بمثلي شاهدى التجوى وغالى * بى الاعداء والخصم الغضابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يشق اليه ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية أمر يزيد فأجابوا الى بيعته فأوفد منهم عشرة ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزيناوا له بيعة يزيد ودعوه الى عقدها فقال معاوية لاتجملوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم * وجعل معاوية يعطى المقارب ويدارى

المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز في ألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس فلما نظر إليه معاوية قال لامرجهب ولا أهلا بدنة يترقرق دمها والله مهريقه قال مهلا فاني والله لست بأهل لهذه المقالة قال بلى واشرم منها ولقيه ابن الزبير فقال لامرجهب ولا أهلا خب ضب تلعة يخرج رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نحياء عني فضرب وجهه راحلته ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له معاوية لأهلا ولامرجهب شيخ قدخرف وزهب عقله ثم أمر فضرب وجه راحلته ثم فعل بابن عمرو نحو ذلك فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتى دخل المدينة فحضرُوا بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبون فخرجوا إلى مكة فأقاموا بها * وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فدحه وقال من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيهم بوائق تجتث أصولهم وقد أئذرت أن أغث النذر ثم أنشده متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطلق * وقلت يا عمرو أتعنى وانطلق

إنك إن كلفتني مالم أطق * ساء لك ما سرك مني من خلق

دونك ما استسقيته فاحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال لاقتلهم إن لم يبايعوا فشكاهم إليها فوعظته وقالت له بلغني أنك تمهدهم بالقتل فقال يا أم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكني بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أكثرين أن أنقض بيعة قد تمت قالت فارفق بهم فانهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله قال أفعل ومكث بالمدينة ماشاء الله ثم خرج إلى مكة فلقيه الناس قال بعض الكتاب فقال أولئك النفر نتلقاه فلعله قد ندب على ما كان منه فلقوه ببطن مر فكان أول من لقيه الحسين فقال له معاوية مرحبا وأهلا يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين وأمر له بدابة فركب وسأله ثم فعل بالباقيين مثل ذلك وأقبل يسأرونهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا أول داخل وآخر خارج ولا يعصى يوم إلا ولهم صلاة ولا يذكر لهم شياً حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره فقال بعض أولئك النفر لبعض لا تخدعوا فما صنع بكم هذا لحبكم وما صنعه إلا لما يريد فأعدوا له جواباً فانفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير فأحضرهم معاوية وقال قد علمتم سيرتي فيكم وصانتي لأرحامكم وحلي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فسكتوا فقال ألا تجيبون مرتين ثم أقبل على ابن الزبير فقال هات لعمري إنك خطيبهم فقال نعم فخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر قال معاوية ما صنعوا قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارفضي الناس أبا بكر قال ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف قالوا صدقت فاصنع كما صنع أبو

بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع
 عمر جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه * قال معاوية
 هل عندك غير هذا قال لا * ثم التفت الى من لم يتكلموا وقال فأنتم قالوا قولنا قوله قال
 فاني قد أحبيت أن أتقدم اليكم انه قد أعذر من أنذر اني كنت أخطب منكم فيقوم الى
 القائم منكم فيكذبني على رؤس الناس فأجمل ذلك وأصفح واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن
 رد علي أحدكم كلمة في مقامى هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا
 يبقين رجل الاعلى نفسه * ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من
 هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديقي أو تكذيب
 فليضربا بسيفيهما ثم خرجا وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * ان
 هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى الا عن مشورتهم وانهم
 قد رضوا وباعوا ليزيد فباعوا على اسم الله * فباع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء نفر
 ثم ركب راحله وانصرف الى المدينة فباعه أهل المدينة ثم انصرف الى الشام وقد تم له
 ما أراد وقضى الامر ولم يختلف فيه اثنان

وخطب معاوية قبل مرضه فقال اني كزرع مستحصد وقد طالت امرتي عليكم حتى
 ملئتكم وملتموني وتنتيت فراقكم وتنتيت فراقى ولن يأتيكم بعدى الا من أناخير منه كما أن
 من قبلى كان خيرا منى وقد قيل من أحب لقاء الله أحب لقاء الله لقاؤه اللهم اني قد أحبيت
 لقاءك فأجيب لقائى وبارك لى فيه فلم يمض غير قليل حتى ابتدأ به مرضه فلما مرض
 المرض الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال يا بنى اني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك
 الامور وذلت لك الاعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجعت لك ما لم يجمعه أحد فانظر
 أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان
 سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أيسر من أن ينهر عليك مائة
 ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعييتك فان رايك من عدوك شئ فانصر
 بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم
 واني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الامر الأربعة نفر من قريش الحسين بن علي
 وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد
 وقفته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه
 أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رجلا ماسة وحقا
 عظيما وقربة مع محمد صلى الله عليه وسلم وأما ابن أبي بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيا
 صنع مثله ليس له همة الا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة
 الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذلك ابن الزبير فان هو فعلها بك فظفرت به فقطعه
 اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت اه قال ابن الاثير الجزرى * ذكر في هذه الرواية

عبد الرحمن بن أبي بكر وليس ذلك بصحيح فان عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل معاوية
 اه وقال بعض أهل التاريخ ان يزيد كان غائبا في مرض أبيه وموته وان معاوية أحضر
 الضحالك بن قيس ومسلم بن عقبة الموي فأمرهما أن يؤديا عنه هذه الرسالة الى يزيد ابنه *
 قلت وهذا هو المشهور * ولما حضرته الوفاة جمع أهله فقال ألسنم أهلى قالوا بلى فذلك الله
 بنا فقال وعليكم حزنى ولكم كدى وكسبى فقالوا بلى فذلك الله بنا قال فهذه نفسى قد
 خرجت من قدحى فردوها على ان استطعتم فبكوا وقالوا والله مالنا الى هذا سبيل فرفع صوته
 بالبكاء ثم قال من تغزى الدنيا بعدى * قال بعض أهل التاريخ ولما ثقل به الضعف وتحدث
 الناس أنه الموت قال لاهله احشوا عيني انمدا وأسبغوا رأسي دهنا ففعلوا وبرقوا وجهه
 بالدهن ثم مهدوا له مجلسا وأسندوه وأذفوا للناس فدخلوا وسلموا عليه قياما ولم يجلس أحد
 فلما خرجوا عنه قالوا هو أصح الناس فقال معاوية عند خروجهم

وتجلى لى الشامتين أريجهم * انى لريب الدهر لا أتضعع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه

واذا المنية أنشبت أظفارها * ألفت كل تميمه لا تنفع

قيل انه أوصى أن تدق قلامة أظافر صاحب الشريعة وكانت عنده وتجعل في منافذ
 وجهه وان يكفن في ثوب صاحب الشريعة * ومات بدمشق في نصف رجب وقيل في مستهل
 رجب سنة ستين هجرية أى سنة ستين وثمانمائة ميلادية وصلى عليه الضحالك بن قيس لغيبة
 الخليفة يزيد ابنه ببيت المقدس واختلف في عمره فقيل ثمانون وقيل خمس وسبعون سنة
 وقيل خمس وثمانون وقيل ثمان وثمانون وقيل تسعون سنة * وكانت خلافته منذ خلص له
 الامر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام وكان أميرا وخليفة أربعين سنة منها أربع
 سنين في خلافة عمر بن الخطاب وكان مليح الشكل عظيم الهبة وافر الحشمة يلبس الثياب
 الفاخرة والعمدة الكاملة ويركب الخيل المسقومة وكان كثير البذل والعطاء محسنا الى رعيته
 كبير الشأن له في العلم أخبار كثيرة وهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب وأول
 من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة وأول من تنم في مأكله ومشربه وملبسه وكان
 حلما يجتمع مع صاحب الشريعة في عبد مناف بن قصي وينسب الى أمية بن عبد شمس
 فيقال الأموي

(الفصل الثانى)

(فى خلافة يزيد بن معاوية)

ثم قام بالامر بعد معاوية ابنه يزيد بربيع له بالخلافة يوم موت أبيه فى رجب سنة احدى

وستين هجرية أى سنة ثمانين وستمائة ميلادية وقيل سنة ستين هجرية وقد كان بحمص
فقدّم منها وبادر الى قبر أبيه ثم دخل دمشق الى الخضراء وكانت دارا للسلطنة فخطب الناس
بها وبابيعوه بالخلافة وكتب الى الآفاق بذلك فبايعوه ولم يبايعه الحسين بن علي ولا عبد الله
ابن الزبير واختفيا من عادله الوليد بن عقبة بن أبي سفيان وأقاما مصرين على الامتناع وبيان
ذلك * أنه لما امتنع الحسين وابن الزبير من البيعة ليزيد خرج الحسين الى مكة فلقبه
عبد الله بن مطيع فقال له جعلت فداك أين تريد قال أما الآن فمكة وأما بعد فاني أستجير
الله قال خار الله لك وجعلنا فداك فاذا آتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤمة
بها قتل أبوك وخذل أخوك الزم الحرم فانك سيد العرب لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا
ويتداعى اليك الناس من كل جانب ولا تفارق الحرم * فسار الحسين الى مكة ونزل بها
فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه وعبد الله بن الزبير بها لا يريد الا خروج الحسين عنها
لأن أهل الحجاز لا يبايعون الزبير مادام الحسين باقيا بالبلاد * ولما بلغ أهل الكوفة امتناع
الحسين ومن امتنع عن مبايعة يزيد وأنه سار الى مكة ونزل بها اجتمع جماعة من كبارهم
وكتبوا الى الحسين يقولون * بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك فإنا نحمد اليك الله
الذى لا إله سواه * أما بعد فالجد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه
الامة فابتزها أمرها وغصبها دنياها وتأمّر عليها بغير رضا منها ثم قتل خيارها واستبقى
شرارها وانه ليس علينا امام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير
في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد ولو بلغنا اقبالك الينا أخرجنه حتى
نلقه بالشام ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته * وسيروه اليه ثم كتبوا
كتابا آخر وسيروه بعد ليلتين فكتب الناس معه نحو من مائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا اليه
رسولا ثالثا يحثونه على المسير اليهم فتأقت نفس الحسين عند ذلك الى الامارة وسير مسلم بن
عقيل الى الكوفة وأمره بكتمان أمره والالطف فان رأى الناس مجتمعين له عجل اليه بذلك
فسار مسلم حتى أدرك الكوفة وأقبلت الشيعة تختلف اليه فبلغ ذلك النعمان بن بشير وهو
يومئذ أمير الكوفة فخطب في الناس وحذرهم من العاقبة وكتب عبد الله بن مسلم من سعيد
الحضري حليف بنى أمية الى يزيد يعلمه بخبر قدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له
ويقول له ان كان لك في الكوفة حاجة فأبعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك
في عدوك فان النعمان ضعيف أو هو يتضعف فخلع يزيد النعمان وولى عبيد الله بن مرجانة
فسار اليها وتمكن من مسلم بن عقيل فقتله وأعلم يزيد بالخبر فسرّبه جدا وكتب اليه يقول بلغني
أن الحسين قد توجه نحو العراق فضع المراسد والمساخ واجترئ واحبس على التهمة وخذ
على الظنة غير أن لا تقتل الا من قاتلك * ولما أراد الحسين المسير الى الكوفة حسب كتب
أهل العراق أنه الكثير من أشياعه يسألونه العدول عن المسير ويحذرونه العاقبة فلم يقبل
وسار وهو لا يعلم ما جرى بمسلم بن عقيل وبينما هو في طريقه الى الصفاح اذ لقيه الفرزدق

الشاعر فقال له أعطاك الله سؤالك وأملك فيما تحب فقال له الحسين بين لي خبر الناس خلفك فقال الخبير سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء * فقال الحسين صدقت لله الامر يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا في شأن ان نزل القضاء بما نحب فثحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريره

وجعل الحسين يرسل الرسل وهو في الطريق الى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه وبأمرهم بالجد في أمرهم فكان أصحاب يزيد يقبضون عليهم فيقتلونهم وجاء الخبر الى الحسين بمقتل ابن عقيل بالثعلبية فتكدر جدا ووثب بنو عقيل مع الحسين يطلبون بثار عقيل وأناه أيضا خبر مقتل أخيه من الرضاة عبد الله بن بقطر وكان سرحه الى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذه خيل الحصين وأعلم الحسين الناس بخبر قتل أخيه من الرضاة ومسلم بن عقيل وقال قد خذلنا شيعتنا فن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا زمام فنفرقوا بيننا وشمالا حتى بقي في أصحابه الذين جاؤا معه من مكة فلما سار من شراف وانتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له مم كبرت قال رأيت النخل * يريد نخل العلفة وانهم قريبون فيها * فقال رجل من بني أسد ما بهذه الارض نخلة قط فقال الحسين فما هو قال هي هودى الخيل فقال الحسين وأنا أيضا أراه ذلك أما لنا ملجأ نلجأ اليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجهه واحد ثم مال بمن معه الى ذو حشم وهو جبل هناك فلم يكن بأسرع من أن ظهر أصحاب يزيد وهم ألف فارس فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في نحر الظهيرة وكان مقدم قوم يزيد الحربن يزيد النيمي فوقع بينه وبين الحسين كلام مما هم فيه ثم سار الفريقان كل في ناحية حتى أتى الحسين قرية اسمها العقر فنزل بها هو ومن معه وذلك يوم الخميس الثاني من المحرم سنة احدى وستين فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد ابن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف وجاء عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس من قبل يزيد من مرو فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن علي فسار في عشرين رجلا يحملون القرب وثلاثين فارسا فدقوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤا القرب وعادوا ثم بعث الحسين الى عمر بن سعد وعمرو بن قرظة بن كعب الانصاري أن القسنى الليثية بين عسكري وعسكرك فخرج اليه عمرو فاجتمعا وتحدانا طويلا ثم انصرف كل واحد منهما الى عسكره فتحدث الناس في ذلك وقالوا ان الحسين قال لعمر اختاروا مني واحدة من ثلاث اما أن أرجع الى المكان الذي أقبلت منه أو أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فبى فيما بيني وبينه رأيي واما أن تسيروا بي الى أى ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من أهله الى مالهم وعلى ما عليهم فكاتب عمر الى ابن زياد عامل يزيد يعلمه بالخبر ويسأله أن يجاوب الحسين الى خصلة من هذه الثلاث فلما علم ابن زياد ما في كتاب عمر وقد حرضه شمر بن ذى الجوشن

على أن لا يمكن الحسين من شيء مما سأل كتب ابن زياد إلى عمر يقبح فعله ويقول له اني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتنيه ولا لتطاول ولا لتتعد له عندي شافعا انظر فان نزل هو وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعثه إلى سلمة وان أبوا فازحف اليهم واقتلهم ومثل بهم فان قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره فانه عاق شاق قاطع ظلوم أو تعتزل ويكون الامر لذى شمر وسلم الكتاب لشمر المذكور فلما جاء عمر الكتاب ركب والناس معه بعد العصر وساروا إلى الحسين فأرسل لهم الحسين العباس في عشرين فارسا فتقررت القاعدة بينهم على أن يلتقوا في غداة غد فافترقوا على ذلك وياتوا ليلتهم تلك فلما كانت عشية الليلة سمعته أخته زينب وهو في خباء له يقول وعنده حوى مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه

يادهر أف لك من خليل * كم لك بالاشراق والاصميل

من صاحب أو طالب قتيل * والدهر لا يفتح بالبديل

وانما الامر إلى الجليل * وكل حى سالك السيل

فأعادهما مرتين أو ثلاثا فلما سمعته لم تلك نفسها أن وثبت بجر نوبها حتى انتهت إليه وصاحت واثكله لبت الموت أعدمنى الحياة اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى والحسين أخى يا خليفة الماضى ونمال الباقى * فلما سمعها قام إليها وقال يا أخية لا يذهبن حلمك الشيطان فقالت بأبى أنت وأمى استقتلت نفسى لنفسك الفداء فترقرقت عيناه وقال لو ترك القطا لنام فلطمت وجهها وقالت واويلاته أف تغصبك نفسك اغمصاها بذلك أفرح لقلبي وأشد على نفسى ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشية عليها فقام الحسين فصب الماء على وجهها وقال اتق الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الارض يموتون وأهل السماء لا يبقون وان كل شيء هالك الا وجه الله أبى خير منى وأمى خير منى وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ثم قال لها يا أخية انى أقسم عليك لاتشقى على جيبا ولا تخمشى على وجهها ولا تدعى على بالويل والثبور ان أنا هلكت * وأصبح الحسين وقد أمر أصحابه أن يفرجوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الاطناب بعضها فى بعض ويكونوا بين أيدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم وياتوا ليلتهم تلك وفى غداة السبت وقيل الجمعة يوم عاشوراء خرج عرب بن سعد فبين معه من الناس وعبي الحسين أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا فجعل زهير بن القيس فى ميمة أصحابه وحبيب بن مظهر فى ميسرتهم وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت فى ظهورهم ثم ركب دابته ودعا بصحف فوضعه أمامه ونادى الحسين عمر وأصحابه ونهاهم عن قتاله وبالع فى النهى وقال دعونى أنصرف إلى مأمنى من الارض فقال له قيس بن الاشعث أو لا تنزل على حكم ابن عمك يعنى ابن زياد فانك لن ترى الا ما تحب فقال له الحسين أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقال لا والله ولا أعطيهم بيدي عطاء الذليل ولا أقر اقرار العبد ثم التفت إلى القوم وقال

عباد الله اني عدت بربي وربكم أن ترجوني أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ثم أناخ راحته ونزل عنها وخرج زهير بن القين أحد أصحابه على فرس له في السلاح فقال مقالة طويلة ونهى أصحاب يزيد عن القتال وجعل يعرض بذكر ابن زياد ويسبه فغضب القوم ومالوا على زهير بالسب والشتم وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ونبعث به وبأصحابه الى الأمير عبيد الله بن زياد

ورتب عمر أصحابه وأحكم ترتيبهم ثم اشتبك القتال بين الفريقين وحى الوطيس وكثر الرمي بالنبال والحجارة وسالت الدماء وجلت رجال عمر بن سعد على أصحاب الحسين فاعملوا فيهم السيف حتى أقنوههم واشتد العطش بالحسين فدنا من الفرات يشرب فرماه حصين بن غير بسهم فوقع في فيه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به الى السماء وقال اللهم اني أشكو اليك ما يصنع بآب بنت نبيك اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم ان شمر ابن ذى الجوشن أقبل في نفر نحو العشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فخالوا بينه وبين رحله وأحاطوا بالحسين وهو بطاردهم ويدفعهم عنه فنادى شمر في الناس ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقبلوه ثكلتكم أمهاتكم فحملوا عليه من كل جانب وطعنه سنان بن أنس النخعي برمح فوق يخط في دمه ونزل اليه فذبحه وأخذ رأسه فرفعه الى خولي وسلب الحسين ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحمل والابل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومناعه وما على النساء حتى ان كانت المرأة لتززع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ثم انهموا الى علي بن الحسين زين العابدين فأراد شمر قتله فنع عمر بن سعد قتله ومنع الناس من الدخول الى بيوت النساء وانتدب عمر بن سعد المذكور عشرة من أصحابه فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكان عدة من قتل مع الحسين من أصحابه اثنين وسبعين رجلا منهم من أولاد علي أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة ثم ان عبيد الله بن زياد جهز علي بن الحسين ومن كان مع الحسين من النساء الى يزيد بن معاوية وهو يومئذ بدمشق مع شمر بن ذى الجوشن في جماعة من أصحابه فساروا حتى قدموا دمشق ودخلوا على يزيد بن معاوية ومعهم رأس الحسين فرمى به بين يدي يزيد ثم تكلم شمر بن ذى الجوشن فقال يا أمير المؤمنين ورد علينا هذا يعني الحسين في ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا اليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيد الله بن زياد أو القتال فاختراروا القتال فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون كابلوذ الحمام من الصقور فما كان الامقدار جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة ونحدودهم معفرة تسقى عليهم الرياح زوارهم العقبان ووفودهم الرخم

فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل

الحسين لعن الله ابن مرجانة أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه ثم قال يرحم الله أبا عبد الله وتمثل بقول الشاعر

يفلقن هاما من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعق وأظما

ثم أمر بالذرية فادخلوا دار نسائه وكان يزيد اذا حضر غداؤه دعا علي بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ثم وجه الذرية صحبة علي بن الحسين الى المدينة ووجه رجلا في ثلاثين فارسا يسير أمامهم حتى انتهوا الى المدينة * قال أصحاب التاريخ * وكان بين وفاة صاحب الشريعة وبين اليوم الذي قتل فيه الحسين خمسون عاما وقيل ان الحسين لما وصل كربلاء سأل عن اسم المكان فقيل له كربلاء فقال ذات كرب وبلاء لقد مر أبي بهذا المكان عند سيره الى صفين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال ههنا محط رجالهم وههنا مهراق دمائهم فستل عن ذلك فقال نفر من آل محمد ينزلون ههنا ثم أمر بانقاله فخطت في ذلك المكان * وكان قتل الحسين يوم عاشوراء سنة ستين للهجرة وقيل احدى وستين أي نحو سنة ثمانين وستمائة ميلادية ذكره أبو حنيفة في الاخبار الطوال وقتل مع الحسين في هذه الواقعة سبعون رجلا وقتل معه العباس بن علي وأمه أم البنين بنت حزام وقتل جعفر بن علي وأمه أم البنين أيضا وقتل عبد الله بن علي وأمه أم البنين أيضا وقتل عثمان بن علي وأمه أم البنين أيضا وقتل محمد بن علي وأمه أم ولد وقتل أبو بكر بن علي وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقتل علي بن الحسين بن علي وأمه ليلى ابنة أبي حمزة بن عروة الثقفي وقتل عبد الله بن الحسين بن علي وأمه الرباب ابنة امرئ القيس الكلابي وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن وقتل القاسم بن الحسن وقتل عون بن أبي جعفر بن أبي طالب وقتل محمد ابن عبد الله بن جعفر وقتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب وقتل عبد الرحمن بن عقيل وقتل عبد الله بن عقيل وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة كما تقدم القول وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل * وفي هذه السنة أي سنة ستين دعا ابن الزبير الى نفسه بالخلافة بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلجه وتنقصه فبايعه أهل تهامة والجزاز * فلما بلغ يزيد ذلك نذب له الحصين بن غير السكوني وروح بن زنباع الجذامي وضم الى كل واحد جيشا واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المزني وجعله أمير الامراء ولما ودعهم قال يا مسلم لا تردون أهل الشام من شيء يريدونه بعدوهم واجعل الطريق على المدينة فان حاربوك فخار بهم فان ظفرت بهم فأبجها ثلاثا فسلم بن عقبة حتى نزل الحرة فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلمة ثلاثا فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسب جماعة من المهاجرين والانصار ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيام ثم شخص بالجيش الى مكة وكتب الى يزيد بما صنع بالمدينة فلما بلغ مسلم (هرشي) اعتل ومات فتولى امرأ الجيش الحصين بن غير السكوني فسار حتى

وإلى مكة فتحصن منه ابن الزبير في المسجد الحرام بجميع من كان معه فنصب الحصين المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر للحصين بموت يزيد بن معاوية فأرسل إلى ابن الزبير يسأله المودة فأجابه إلى ذلك وفتح الأبواب واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء إذاستقبله ابن الزبير فأخذ الحصين بيده وقال له سرّا هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعوا الناس إلى بيعتك فإن أمرهم قد فرج ولا أدري أحدا أحق بها اليوم منك ولست أعصى هناك فأجذب ابن الزبير يده وقال وهو يجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فقال الحصين لقد كذب الذي يزعم أنك من دهاة العرب أكلت سرا فتكلمني علانية وأدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الحرب ثم انصرف عن معاوية إلى الشام

ومات يزيد بن معاوية في ربيع الأول سنة أربع وستين أي سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ودفن بمقبرة باب الصغير وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل وثمانية أشهر وترك من البنين أحد عشر ذكرا لامهات شتى * وما يحكي عن نجابته وشدة حذقه ما قاله محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبي قال * نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة إلى يزيد وأمه ترجله فلما فرغت منه قبلته فقالت ابنة قرظة لعن الله سواد ساق أمك فقال معاوية أما والله لما تفرجت عنه وركها خير مما تفرجت عنه وركاك وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله وكان أحق فقالت له لا والله ولكنك تؤثر هذا فقال سوف أبين لك ذلك فأمر فدعى له عبد الله فلما حضر قال أي بني أني أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست بسائل شيئا إلا أجبتك إليه فقال حاجتي أن تشتري كلبا فارها وجارا فقال أي بني أنت جبار وأشتري لك جارا قم فخرج * ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لاختيه نخر ساجدا ثم قال حين رفع رأسه الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه في هذا الرأي حاجتي أن تعتقني من النار لأن من ولي أمر الأمة ثلاثة أيام أعتقه الله من النار فتعقد لي العهد بعدك وتوليني العام الصائفة وتأذن لي في الحج إذا رجعت وتوليني الموسم وتزيد لاهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لايتام بنى جريح وبني سهم وبني عدى لانهم حلفائي * فقال معاوية قد فعلت وقبل وجهه ثم نظرا إلى امرأته ابنة قرظة وقال كيف رأيتي فقالت أوصه به يا أمير المؤمنين قيل ففعل * وله لطائف أخرى واستعمل في أيامه على مصر في أواخر سنة اثنتين وستين سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي فبقي إلى خلافة الزبير وعزل

ومات في أيامه أغاثو بطرك الاسكندرية تاسع ثلاثين بعد أن أقام سبع عشرة سنة ولم يحدث في أيامه شيء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الأربعون من بطاركتهم وأصله من مدينة سمخود وفي أيامه صارت الشدة على النصارى وعظم عليهم الخطب واشتد الكرب وكثر البلاء وتبعهم أهل الفساد بالقتل والنهب والسلب فكان حازما وقورا صبوراً لا يتزعزع حسن السياسة كثير التفكير ولما مات يزيد تولى الخلافة بعده ابنه معاوية

(الفصل الثالث)

(في خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان)

ثم قام بالامر بعد يزيد معاوية ابنه ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة أربع وستين هجرية أي نحو ثلاث وثمانين وستمائة ميلادية فأقام فيها أربعين يوما وكان خيرا من أبيه فيه دين وعقل وقيل أقام خمسة أشهر وأياما ثم خلع نفسه عن رضا ورغبة * قال أصحاب التاريخ * ان معاوية بن يزيد هذا لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلا ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء ثم ذكر النبي بأحسن ما يذكر به ثم قال * أيها الناس ما أنا بالراغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم واني لأعلم أنكم تكروهوننا أيضا لانا بلينا بكم وبليتم بنا الا أن جدى معاوية رضى الله عنه قد نازع في هذا الامر من كان أولى به منه ومن غيره لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قدرا وأشجعهم قلبا وأكثرهم علما وأولهم إيمانا وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأخوه زوجه صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وجعله لها بعلا باختيارها لها وجعلها له زوجة باختيارها له أبوسبطيه وسيدى شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأمة تربية الرسول وابنى فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية فركب جدى معه ما تعلمون وركبتم معه ما لا تجهلون حتى انتظمت لجدى الامور فلما جاءه القدر المحتوم واختبرته أيدى المنون بقي مرتبنا بعلمه فريدا في قبره ووجد ما قدمت يداه ورأى ما ارتكبه واعتداه ثم انتقلت الخلافة الى يزيد أبى فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله واسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جرائته على الله وبغية على من استحل حرمته من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت مدته وانقطع أثره وراجع عمله وصار حليف حفرة رهين خطيئته وبقيت أوزاره ومعايبه وحصل على سدم وندم حيث لا ينفعه الندم وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعري ماذا قال وماذا قيل له هل عوقب بأسائه وجوزى بعلمه وذلك ظنى * ثم اختنقته العبرة فبكى طويلا وعلا نحيبه * ثم قال وصرت أنا ثالث القوم والساخط على أكثر من الراضى وما كنت لائمكم ولا يرانى الله جلّت قدرته متقلدا أوزاركم وألقاه ببتعاتكم فشأنكم أمركم نخذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتي من أعناقكم والسلام * فقال له مروان بن الحكم وكان تحت المنبر أسنة عمرية يا أبا بلي * فقال اعزب عني أعن ديني نخذعني فوالله ما ذقت حلوة خلافتكم حتى أتجرع مرارتها ايتنى برجل مثل رجال عمر رضى الله تعالى عنه على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرف بها عن لا يشك في عدالته ظلوما والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد نال أبى منها

مغرما ومائما ولئن كانت سوا فحسبه منا ما أصابه * ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكي فقالت له أمه * لستك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك * فقال وددت والله ذلك * ثم قال وبلى ان لم يرجني الله * ثم ان بنى أمية قالوا لمؤدبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته اياه وصرفته عن الخلافة وزينت له حب علي وأولاده وجملته على ما وسمت به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال بما قال فقال والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب علي فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حيا حتى مات

وتوفي معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه باربعين ليلة وقيل بتسعين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة وقيل احدى وعشرين سنة وقيل ثمان عشرة ولم يعقب واجتمع بنو أمية وانتخبوا مروان بن الحكم ليقوم بالامر بعده وكان ذلك في سنة أربع وستين للهجرة

(الفصل الرابع)

(في خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد)

ثم قام بالامر بعد معاوية مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بويع له بالخلافة بالحاسية سنة أربع وستين للهجرة أى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة للميلاد ثم دخل الشام فاذعن أهلها له بالطاعة وكان يقال له ابن الطريد لان صاحب الشريعة كان قد طرد أباه الى الطائف وردّه عثمان حين ولى وكان مروان قد لحق صاحب الشريعة وهو صبي وولى نيابة المدينة مرات وهو قاتل طلحة أحد العشرة وكان كاتب السر لعثمان وبسببه جرى عليه ما جرى كما تقدم الكلام عنه * ولما بويع لمروان بالشام قام أهل مكة بمبايعة عبد الله بن الزبير وكان مروان وقتئذ بالمدينة فقصده السير الى عبد الله وممانعته ثم سار مع من سار من بنى أمية الى الشام * وبابيع لابن الزبير أهل البصرة واجتمعت له أهل الحجاز واليمن وبعث الى بلاد العراق فبايعه أهلها وبابيع له في الشام سرا الضحاك بن قيس وبمحمدص النعمان بن بشير الانصارى وبقي بن زمر بن الحارث قال بعض أهل التاريخ ولو صانع الزبير بنى أمية قليلا لاستقر له الامر * وكان ابن الزبير شجاعا كثير العبادة هذا ما كان من أمر ابن الزبير * أما ما كان من أمر بنى أمية فانهم لم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم القول بالشام فاجتمع بنو أمية واقترب أهل الشام الى بماتية مع مروان والى قيسية مع الضحاك بن قيس وجزت بينهما أمور يطول شرحها ثم اقتتلوا بمرج راهط قتالا شديدا فانهمز الضحاك وأصحابه شريفة وقتل كثير من فرسان قيس وقتل الضحاك وقتل معه أيضا ثمانون رجلا من أشرف أهل الشام وذلك في المحرم سنة خمس وستين وقيل في أواخر سنة أربع وستين ودخل * مروان دمشق وذهب الى دار الخلافة واجتمع اليه الناس وانحاز له زفر بن الحرث وكان بقتسر بن يبايع لابن الزبير

واستوثق الشام لمروان والجزاز والعراق واليمن لابن الزبير فلما استقر مروان بالشام ودانت له
أمورها سار الى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جندم القرشي يدعو الى ابن الزبير فخرج
الى مروان فبين معه فبعث مروان عمرو بن سعيد من وراء عبد الرحمن حتى دخل مصر
فأمسى عبد الرحمن وكأنه بين منتطح عنزين فلما أحس بذلك رجع خائبا فبايع الناس
مروان ودانت له الامور بمصر أيضا كما دانت له بالشام

وفي هذه الايام هدم ابن الزبير الكعبة وحفر أساسها وأدخل الحجر الاسود فيها وأعاده الى
ما كانت عليه فأمر مروان قومه بان لا يحجوا الى هناك بل الى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب
الشام مع مروان وبني فاطمة فقام مروان ومزق الفاطميين وأبادهم وتفرغ لحرب الشيعة
من الجهم فبمددهم أيضا من سهول عين ومازال حتى استتب له الامر ودانت له المصاعب * فلما
كانت سنة خمس وستين هجرية رسم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز وكان السبب في ذلك
أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير عند ما وجهه أخوه عبد الله الى الشام
لقتال معاوية ومن معه من الاحزاب ورجع عمرو الى دمشق ظافرا غائما باع مروان أن عمرا
يقول ان الامر لي من بعد مروان فأكبر ذلك جدا وأرسل في طلب حسان بن مالك بن بحدل
فلما حضر اليه أخبره بخبر عمرو وما يقوله وقال اني أريد أن أبايع ولدي عبد الملك وعبد العزيز
فقال له حسان أنا أكفيك عمرا فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قال * انه قد بلغنا أن رجلا
يتمنون أمانتي * قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده فقاموا جميعا لساعتهم وبايعوا
عن آخرهم وكان مروان قبلا قد حلف أنه بعهد خالد بن يزيد فعتب عليه خالد فغضب
وسماه ابن زانية وكان مروان متزوجا بام خالد بن يزيد المذكور فقام خالد ودخل على أمه
فأخبرها بما كان من مروان فقالت له لا يعلم ذلك منك الا أنا أنا أكفيك فدخل عليها
مروان فقال لها هل قال لك خالد في شيء فقالت لا انه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك
شيئا فصدفها ولبت أباما * ثم انه نام عندها ليلة فقامت عليه ووضعت على وجهه رداء
مشربا بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها حتى مات فكانت خلافته عشرة أشهر وقيل
تسعة أشهر وعمره ثلاث وستون سنة وقيل احدى وستون سنة * روى الحاكم في كتاب
الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال * كان لا يولد لاحد مولود الا أتى
به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعوه فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال هو الوزغ
ابن الوزغ الملعون بن الملعون اه وكان مروان قصيرا أحر أوفص يكنى أبا الحكم وأبا عبد
الملك قيل وأعتق في يوم واحد مائة رقبة وهو أول من قدم الخطبة في صلاة العيود قبل
الصلاة ولما مات بويع لولده عبد الملك في اليوم الذي مات فيه

(الفصل الخامس)

(في خلافة عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالامر بعبد مروان ابنه عبد الملك ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة ست وستين للهجرة أي سنة خمس وثمانين وستمائة لليلاد وهو أول من سمي بعبد الملك في الاسلام وأول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدنانير قبل ذلك نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية * قبل انهما انتهت الخلافة كان قاعدا والمصحف في حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك * وكان عامله بمصر أخوه عبد العزيز بطاعة عبد الملك ولم يكذب يستتب له الامر بالشام ومصر حتى خرج في سنة ست وستين المختار من العلوية بالكوفة وأراد الاخذ بشار الحسين فبايعه الناس واجتمع اليه خلق كثير واستولى على الكوفة وأراد الاخذ بدم أهل البيت وطلب شهر بن ذى الجوشن فظفر به وقتله وأحاط بدار خولى الاصمعي صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه بالنار ثم قتل عمرو بن سعد بن أبي وقاص صاحب الجيش الذي قتل الحسين وقتل جعفر بن عمرو المذكور وبعث برأسيهما الى محمد بن الحنفية بالجواز واتخذ له كرسيًا وادعى أن فيه من السر ما كان في تابوت عهد بني اسرائيل ومن خبر هذا الكرسي ماهو غريب * قال الطفيل بن جعدة بن هبيرة أضفنا أضاقة شديدة * يعني أنه كان في حاجة للقوت * فخرجت يوما فاذا جاري زيات عنده كرسي ركبته الوسخ فقلت في نفسي لو قلت للمختار في هذا شيئا فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يبض قال الراوى فقلت للمختار اني كنت أكتبك شيئا وقد بدالى أن أذكره لك * ان أبي جعدة كان يجلس على كرسي عندنا ويروي أن فيه أثرا من علي قال سبحان الله أخرته الى هذا الوقت ابعت به فأحضرتة عنده وقد غشى فامر لي باثني عشر ألفا ثم دعا الصلاة جامعة فاجتمع الناس فقال المختار انه لم يكن في الامم الخالية أمر الا وهو كائن في هذه الامة مثله وانه كان في بني اسرائيل التابوت وان هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسي على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك قننة وكبر اعتقادهم في ذلك الكرسي وارتفعوا حتى تعاطوا الكفر قال ابن جعدة فندمت على ما صنعت اه ثم أرسل المختار عسكريا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان وكان عبيد الله واليا على البصرة فولاه يزيد على الكوفة فقدم عليها ليري ما كان الناس عليه وهو الذي قتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب الذي كان الحسين قد أرسله الى الكوفة ليأخذ له البيعة كما تقدم بيان هذا كله في محله وكان المختار قد استولى على الموصل لما أرسل لقتال عبيد الله وفتح على الجيش ابراهيم بن الاشتر فاقتتلوا قتالا شديدا وانهمز أصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له ابراهيم المذكور وأخذ رأسه ثم أحرقوا جثته بالنار ورميت بالتراب

وولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فاستدعى مصعب المهلب بن أبي صفرة من خراسان فأثناه بمال ورجال كثيرة وسار إلى قتال المختار وحصره في قصر الامارة بالكوفة وما زالا يقاتلانه حتى قتل المختار وأصحابه وكانوا سبعة آلاف وكان عبد الملك بن مروان يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلما علم بظفر مصعب وقتله للمختار خشى استفحال أمر مصعب واتساع كلمته فجهز وسار في جيش عظيم إلى العراق فالتقى الجمعان واقتتلا وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك سرا فثخلفوا عن مصعب وقتل مصعب وابنه بدير الجاثليق عند نهر دجيل وله من العمر ست وثلاثون سنة وكان مصعب هذا صديق عبد الملك قبل خلافته فدخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق ملك العراق واستناب عليها أخاه بشر بن مروان وكر راجعا إلى دمشق ثم جهز الحجاج بن يوسف الثقفي في جيش لحرب ابن الزبير وكان السبب في تسمير الحجاج المذكور دون غيره أن الحجاج قال لعبد الملك قد رأيت في المنام أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثني إليه وولني قتاله فبعثه في ثلاثة آلاف من أهل الشام وكتب معه أمانا لابن الزبير ومن معه أن أطاعوا فسار في جمادى الأولى سنة اثنين وسبعين ولم يتعرض للمدينة ونزل الطائف فكان يبعث الخيل إلى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضا فيقتتلون بعرفة فتمهزم خيل ابن الزبير في كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرق أصحابه ويستمده فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره بالحق بالحجاج فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنين وسبعين وأخرج عاصم بن الزبير عنها وجعل عليها رجلا من أهل الشام اسمه ثعلبة فكان ثعلبة يخرج الملح وهو على منبر صاحب الشريعة ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغبط أهل المدينة وكان مع ذلك شديدا على أهل الزبير * وقدم طارق على الحجاج بمكة في سلح ذي الحجة في خمسة آلاف فحاصر الحجاج ومن معه ابن الزبير ونصب المخنيق على أبي قبيس وهو جبل هناك ورمى به الكعبة وج ابن عمر تلك السنة فأرسل إلى الحجاج يقول اتق اللهوا كف هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام وقد منعت الناس عن الطواف فبطل الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا فنادى منادى الحجاج انصرفوا إلى بلادكم فانا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملعون فكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلي فلا ينصرف وكان أهل الشام يقولون عند الرمي بالمخنيق هذه العبارة

* يا ابن الزبير طامسا عصبكا * وطامسا غنيتنا اليكا * لتجزين بالذي أتىكا *

يعنون عصيت وأتيت * وطال القتال بين الفريقين واشتد الشاميون أصحاب الحجاج على ابن الزبير وأصحابه فغلت الاسعار عنده وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها في أصحابه وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمذرة بعشرين درهما وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وعرا * وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه إلا بما يسك الرمي ويقول نفوس أصحابي قوية مالم يفن * فلما كان

قبيل مقتله تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالامان فمكثوا نحو عشرة آلاف فلما تفرق
أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال * قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد
والضيق ففرح أصحاب الحجاج واستبشروا وتقدموا فملؤا ما بين الحجون الى الأبواء فهال ابن
الزبير الامر ودخل على أمه فقال يا أماء قد خذاني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي الا
اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك
فقلت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه
أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس
العبد أنت أهلك نفسك ومن قاتل معك وان قتلت كنت على حق فلما وهن أصحابك
ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن فقال يا أماء
أخاف ان قتاني أهل الشام أن يملؤوا بي ويصلبوني قالت يا بني ان الشاة لا تألم بالسليخ فامض
على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وخرج يقاتل الحجاج وطارقا وأصحابهما فكانت مدة
القتال أربعة أشهر وقيل سبعة وبينما هو يحمل عليهم سقطت عليه شرافة من شراريف
المسجد نقر منها فبادروا اليه واحتزوا رأسه وذلك يوم الثلاثاء من جادى الآخرة من السنة
المذكورة وله ثلاث وسبعون سنة * وسير الحجاج رجلين الى عبد الملك بالخبر فلما شاع الخبر بين
أهل الشام كبروا وفرحوا بقتله وأمر الحجاج بجثته فصلبوها على الثنية اليمنى بالحجون قيل
وكان ابن الزبير قبل موته بقرابة أياما يستعمل الصبر والمسك لثلاثين فلما صلب ظهرت منه
رائحة المسك فقيل ان الحجاج صلب معه كلبا ميتا فغلب على ريح المسك وقيل بل صلب معه
سنورا * قال بعض أصحاب التاريخ ولما قتل عبدالله ركب أخوه عروة ناقة ليس لها مثيل
فسار الى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج بخبر قتل عبدالله فأتى باب عبد الملك
فاستأذن فأذن له فلما دخل سلم عليه بالخلافة فرد عليه عبد الملك السلام ورحب به وعانقه
وأجلسه على السرير فقال عروة

ممت بأرحام اليك قريبة * ولا قرب للارحام مالم تقرب

ثم تحدثنا حتى جرى ذكر عبدالله فقال عروة انه كان فقال عبدالله وما فعل قال قتل
نفر ساجدا فقال عروة ان الحجاج صلبه فهب جثته لأمه فقال نعم وكتب الى الحجاج يعظم
صلب عبدالله وكان الحجاج لما غاب عروة كتب الى عبد الملك يقول له ان عروة كان مع
أخيه فلما قتل عبدالله أخذ مالا من مال الله فهرب فكتب اليه عبد الملك انه لم يهرب
ولكنه أتاني مبايعا وقد أمنته وحلته مما كان وهو قادم عليك فأياك وعروة * وعاد عروة الى
مكة وسلم الى الحجاج كتاب عبدالله فأنزل الحجاج جثة عبدالله ودفعتها الى أمه فغسلته ودفنته
وقيل ألقيت جثته في مقابر اليهود ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك
ابن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الجارة والدم وسار الى المدينة وكان عبد الملك قد
استعمله على مكة والمدينة فكانت خلافة ابن الزبير بالحجاز واليمن تسع سنين لا غير

ودانت لعبد الملك الامور فعملت كلمته وكبرت هيئته وقاتل الخوارج من أصحاب العباسيين
وأقام المستشفيات للرضى والخانات للغرباء بدمشق فامتدّت في عهده وكثرت بعد ذلك في
جميع بلاد المسلمين وقد كانت لا تعرف قبله * ولما كانت سنة اثنتين وثمانين هم عبد الملك
بخلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ومبايعته ابنه الوليد وكان عبد العزيز يومئذ عاملا على
مصر فكلّم قبيصة بن ذؤيب في ذلك وكان قبيصة المسد كور صاحب الخاتم فنهاه قبيصة عن
ذلك وقال لا تفعل فانك تبعث على نفسك صوت عاد ولعل الموت يأتيه فكف عبد الملك عن
أخيه وفي نفسه ما فيها وبينما هو على هذا الحال اذ دخل عليه روح بن زنباع وكان روح هذا
أجل الناس عند عبد الملك فكلّمه عبد الملك في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لو خلعتني ما انتطح
فيه عزّان وأنا أول من يجيبك الى ذلك ففرح عبد الملك وقال نصبح ان شاء الله وبات روح
عند عبد الملك ليأتمه تلك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وقد جاءه الخبر بموت عبد العزيز فلما
دخل سلم عليهما فقال عبد الملك ما وراءك يا قبيصة قال أجرك الله في عبد العزيز أخيك قال هل
توفي قال نعم فاسترجع ثم أقبل على روح وقال كفانا الله ما كنا نريد فقال قبيصة يا أمير المؤمنين
ان الرأي كله في الأناة فقال عبد الملك وربما كان في العجلة خير * وكانت وفاة عبد العزيز في جادى
الاولى في مصر سنة خمس وثمانين فضم عبد الملك عمله الى ابنه عبد الله وولاه مصر وكان حين
ولى على مصر حدثا فكان أهل مصر يسمونه تكيس قاله ابن خلّكان وقيل ان الحجاج كتب الى
عبد الملك يزين له بيعة الوليد وسير اليه في ذلك وفدا فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز
والبيعة للوليد كتب الى عبد العزيز يقول رأيت أن يصير هذا الامر لابن أخيك فأبى فكتب
اليه ليجعل الامر له ويجعله له أيضا من بعده فكتب اليه عبد العزيز انى أرى في ابني أبى
بكر ما ترى في الوليد فكتب اليه عبد الملك ليحمل له خراج مصر فأجاب عبد العزيز * انى واياك
يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا وانا لاندري أينما
يأتي الموت أولا فان رأيت أن لا تفسد على بقية عمرى فافعل فرق له عبد الملك وتركه وكان
عبد الملك قبل الخلافة متعبدا ناسكا عالما تقيا واسع العلم حازما لا يكل أمره الى سواء محبا
للفخر مقداما على سفك الدماء ولذلك كان عماله الحجاج بالعراق ومحمد بن يوسف أخو الحجاج
باليمن ومحمد بن مروان بالجزيرة وكل من هؤلاء ظلم غشوم جبار * قال الليث بن سعد * وعبد الله
ابن عبد الملك أول من نقل في عماله على مصر الدواوين الى العربية وانما كانت بالقبطية (قلت)
وقد قال بعض أصحاب التاريخ انها بقيت بالقبطية والعربية معا زمنا طويلا حتى زالت
القبطية من جميع الدواوين وبقيت العربية فاشية الى يومنا الذى نحن فيه * وهو أول من
نهى الناس عن لباس البرانس وشدد في المنع وأقام الى سنة تسعين هجرية أى سنة عشر
وسبعمائة ميلادية حتى عزله أخوه الوليد

ومن غريب ما سمع فيما حكاه ابن خلّكان أن على بن عبد الله بن عباس ومحمدا ابنه دخلا
على عبد الملك بن مروان وعنده قائف فأجلسهما ثم قال للقائف أتعرف هذا قال لا ولكن

أعرف من أمره أن هذا الذي معه ابنه وأنه يخرج من عقبه فراعنة يملكون الارض لا يناوهم مناو الا قتلاوه فتغير لون عبد الملك ثم قال زعم راهب إيليا وكان قد رآه عندي أنه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكا ووصفهم بصفاتهم * وذكر أبو حنيفة في الاخبار الطوال أن عبد الملك أوصى ابنه الوليد لما ثقل في مرضه فقال يا وليد لألفينك اذا وضعتني في حفرتي فعصر عينيك كالامة الولهاء بل اترز وشمر والبس جلد النمر وادع الناس الى البيعة فن قال برأسه كذا أى لا فقل بالسيف كذا أى اضرب عنقه هـ

وكان عبد الملك طويل العنق رقيق الوجه مشدود الاسنان بالذهب شديد البخل يلقب برشح الحجر لبحله ويلقب أيضا بأبي ذباب لبحره وكان يلقب بحمامة المسجد لقبه به ابن عمر قبل لابن عمر أرايت لوفتاني أصحاب صاحب الشريعة فن نسال بعدهم فقال سلوا هذا الفتي يعني عبد الملك * وج بالناس عبد الملك نخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمد الله والثناء عليه أما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف يعني عثمان ولا بالخليفة المداهن يعني معاوية ولا بالخليفة المأفون يعني يزيد ألا واني لأدأوى هذه الامة الابالسيف حتى تستقيم قناتكم وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل أعمالهم وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه ثم نزل فأكبر الناس أمره * ومات عبد الملك في شوال سنة ست وثمانين وقيل سنة خمس وثمانين هجرية أى سنة أربع وسبع مائة ميلادية وله ثلاث وستون سنة وقيل ستون سنة وخلف سبعة عشر ولدا ولى الخلافة منهم أربعة وكانت خلافته احدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوما منها ثمان سنين مزاجا لابن الزبير ثم انفرد بالملك الى أن مات وكان عاقلا حازما أديبا ليبييا عالما قال عمران بن موسى المؤدب كان يروى أن عبد الملك المذكور لما اشتد مرضه قال ارفعوني على شرف ففعلوا ذلك فتنسم الروح ثم قال يا دنيا ما أطيبك ان طويلك لقصير وان كبيرك لحقير وان كنا منك لفي غرور وتمثل بهذين البيتين

ان تناقش يكن نقاشك يارب عذابا لا طوقى بالعذاب
أو تجاوزت رب صفوح * عن مسي ذنوبه كالتراب

ويروى أن هذه الابيان تمثل بها معاوية

وفي أيامه مات يوحنا بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثمان سنين وفي أيامه صارت الشدة على النصارى وكبر عليهم الامر وعظم الخطب وكانت أيام هذه الشدائد طويلة فأقيم بعده ايساك وهو اسحق وكان متأسلا وهو حادى أربعهم وأصله من اقليم الغربية فأقام سنتين وأحد عشر شهرا وفي رواية سنتين فقط ومات وكان تقيا وهو الذى أعاد الصلح بين ملك الحبشة وملك النوبة وعمل على اعزاز الدين وجمع المتشردين من المسيحيين فأقيم بعده سيمون وهو سمعان وكان متأسلا من اقليم الشرقية ويلقب بالسرياني وهو ثاني أربعهم

فأقام بطركا سبع سنين وقيل سبع سنين وستة أشهر ومات وفي أيامه قدم رسول أهل الهند في طلب أسقف يقيمهم فامتنع من ذلك حتى أذن له الخليفة ففعل وكان ورعا تقيا جادا صالحا متعبدا ذكر أنه دعا الله سبحانه وتضرع اليه فأحيا على يديه قسيسا كان ميتا ونحلا الكرسي بعده ثلاث سنين بغير بطرك ثم قدم المتأصلون بعده الاكسندروس من أهالي نينامواسير وهو ثالث أربعهم وكان راهبا في دير الزجاج مرت به متاعب وشدائد عظيمة للغاية وقد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافا للعهد * قال أصحاب التاريخ واشتد عبدالله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتسدى به قره بن شريك أيضا في ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا لدماء بحورا وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلهما فكانت أيامهما كلها بلايا واحنا ورزايا ومحننا

ولما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلافة بعده ولده الوليد

(الفصل السادس)

(في خلافة الوليد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد عبد الملك ابنه الوليد بعهد منه ببيع له بالخلافة يوم مات والده في شوال سنة ست وثمانين للهجرة أي سنة خمس وسبع مائة للبلاد ولم يدخل دار الخلافة حتى صعد المنبر فقال الحمد لله انا لله وانا اليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمر المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة قوموا فبايعوا فكان أول من عزى نفسه وهناها وقيل أنه لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحله عرشه وهو الموت وقصد صار الى منازل الأبرار ولى هذه الأمة بالذي يحق لله عليه في الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزا ولا مفرطا * أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكنت مات بدائه * ثم نزل وجعل يتصرف في الأمور وفق الفتوحات العظام مثل الهند والاندلس واتسع ملكه في الاندلس وأفريقية اتساعا عظيما بما منح لاهلها من الحرية والمساواة حتى ضعفت النصرانية فيها وانحسرت أوكلات تنحسم منها وانمحت آثارها من أفريقية كلها وصار نصارى اسبانيا يختنون ويمتنعون من شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الاسلامية حتى كان يقال لهم ميزاربي ومعناها * انصاف عرب * وحارب الروم وغزاهم عدة غزوات وامتدحكه في مسافة مائة يوم من المشرق الى المغرب من التتارية الهندية الى الاقيانوس وقد وصلت فتوحات

العرب يومئذ الى العجم والشام واقريقية وسردينيا واسبانيا ونحوها وامتدوا الى نواحي الصين وكان أهل سروقة وفرطبة وغيرهما يتكلمون بالعربية وهي فاشية بينهم ورسم الوليد بالاقلاع عن استعمال اليونانية وأرقامها في الحساب فامتدت لذلك الارقام الهندية التي تلقها العرب عن الهنود وراجت بذلك الامور الحسابية واتسع نطاق الرياضة ونحوها وكان الوليد يركب المركوب الحسن الجيد ويتقى الركوب والسفر في الحرب في أيام معلومة في كل شهر وينهى عن ذلك قال الحافظ ابن عساكر وكان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بنى مساجد بدمشق وأعطى الناس وفرض للجنوديين وقال لا تسألوا الناس وأعطى كل مئة بعد خادما وكل أعى قائدا وكان يرحله الكتاب ويقضى عنهم ديونهم وبنى الجامع الاموي وهدم كنيسة ماري يوحنا وزادها في الجامع المذكور وذلك سنة ست وثمانين في ذي القعدة وذكر أنه كان في الجامع وهو يبنى اثنا عشر ألف مرخم ويوفي الوليد ولم يمه فأتته سليمان أخوه فكان بجلة ما أنفق على بنائه أربعمئة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمئة سلسلة ذهباً للقتاديل وما زالت الى أيام عمر ابن عبد العزيز فجعلها في بيت المال واتخذ عوضها صفرا وحديدا وبنى قبة الصخرة ببيت المقدس وبنى المسجد النبوي ووسعه حتى دخلت حجرة صاحب الشريعة فيه قيل وله آثار حسنة كثيرة جدا * قلت وقوله ان الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر وانما بنى قبة الصخرة عبد الملك ابن مروان في أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفا من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة الى أن قتل ابن الزبير وكان الوليد أراد أن يخاع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان فكتب الى عماله ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس فكتب الوليد الى سليمان يأمره بالقدوم عليه فأبطأ فعزم الوليد على المسير اليه ليخلعه وأخرج خيمه ففاجأته المنية قبل أن يسير اليه وكان موته في خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة أي سنة أربع عشرة وسبعمئة للميلاد عن ست وأربعين سنة وقيل ثمان وأربعين وقيل خمسين سنة وترك أربعة عشر ولدا وحمل على أعناق الرجال ودفن في مقابر باب الصغير وبولي دفنه عمر بن عبد العزيز فكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر وقيل عشر سنين وروى أن عمر بن عبد العزيز قال لما لحقت الوليد ارتكض في أكفانه وغلث يده الى عنقه نسأل الله العافية

واستعمل على مصر في خلافته بعد عزله لآخيه عبد الله كما تقدم قره بن شريك العبسي فقدمها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول فقال في ذلك أحد الشعراء
عجب ما عجبت حين أتانا * أن قد أمرت قره بن شريك
وعزلت الفقى المبارك عنا * ثم ضللت فيه رأى أبيك
وكان قره ظلوما غشوما عسوقا قيل كان يدعو بالجر والملاهي في جامع مصر * أخرج أبو

نعم في الحلية قال قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة بمصر وعثمان ابن حيان بالجواز امتسلت والله الارض جورا وقال ابن عبد الحكم أنبأنا سعد بن عفير ان عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا اليه ان بيوت الاموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب اليهم أن ابنوا المساجد فأول مسجد بنى بفسطاط مصر المسجد الذي في أصل حصن الروم عند باب الريحان قبالة الموضع الذي يعرف بالقالوس يعرف بمسجد العيلة * وأقام قرة واليا بمصر الى أن مات سنة ست وتسعين فولى بعده عبد الملك بن رفاعة القيني فأقام الى سنة تسع وتسعين في خلافة سليمان بن عبد الملك ومات ولما مات الوليد خلفه أخوه سليمان ابن عبد الملك

(الفصل السابع) (في خلافة سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد الوليد أخوه سليمان وذلك لان أباهما عقد لهما جيعا بالامر من بعده فمؤيد له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد في خامس عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين هجرية أى سنة أربع عشرة وسبع مائة ميلادية وكان سليمان بالرملة فلما جاءته الخلافة عزم على الإقامة بها ثم توجه الى دمشق وكل عمارة الجامع الاموى وجهاز أخاه مسلمة بن عبد الملك في سنة سبع وتسعين الى غزو الروم فانهى الى القسطنطينية فنزلها على عهد انسطاسيوس قيصر وكان عدد أصحاب مسلمة مائة وعشرين ألفا من العرب والعجم وحارب في طريقه طيان وعمورية وفرغانة من آسية الصغرى ودخل بوغاز كليولى وتجاوز البحر من المكان المدعو عمر العرب ودخل أوروبا وقطع على سواحل بحر مرمرية الى أن قابل القسطنطينية من الجنوب وأقام مضارب جنوده وأعلن الحرب على الروم وألقى على المدينة الحصار وكان انسطاسيوس قيصر قد علم قيام العرب عليه فاستعد لقتالهم وأمر الروم بالنأهب لخصار ثلاث سنين وأن يترك الذين لاقدرة لهم القسطنطينية وملأ الساحات والاهراء بالذخائر وأصلح الاسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهم والابجار ونحوها ثم لم يلبثوا أن بعثوا يقوم ليحرقوا عمارة العرب ويناوشوا العدو قبل أن يناوشهم هو فلم يفلحوا اذ اقتنوا وقتلوا رئيسهم وتركوا راياتهم في رودس وتفرقوا في تلك الاطراف أشمتا الى أن قام الملك ثودوسيوس ولم يكن أهلا لهذا المنصب اذ كان من آحاد الحراس على بيت المال وكان ساذجا غير مدرب فعفا عن أولئك القوم ولم يؤاخذهم بما فعلوه فلم يستقر به المنصب الا شهرا وخلع وقام بعده ليون اسوريكوس وكان مهيبا مقداما عريضا بالملك فلما قدمت عساكر مسلمة ونظرهم الروم بالقسطنطينية داخلهم الخوف واستولى عليهم الجبن فعرضوا على المسلمين الصلح بأن يؤدوا لهم الجزية في كل سنة عن كل نفس دينار فلم يقبل مسلمة ودخله الطمع وتقوى

حيث قدمت عليه عمارته البحرية من الشام وكانت قد مرت بعمارة المصريين التي كانت يومئذ على نغور بلاد الفرنسيين وأنت بها فكانت جميعها نحو ألف وثمانمائة سفينة أكبرها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم

أما الزوم فانهم لما شاهدوا تلك السفن الكثيرة أمروا فرفعت السلسلة الحامية للينا لكي تدخل السفن المذكورة وتستأن من داخل البوغاز وأمر مسلمة قومه بالتأهب لمصادمة الروم في تلك الليلة برا وبحرا فتقدمت السفن الى جانب السلسلة ووقفت مترددة بين أن تدخل المدينة وبين أن تقضى ليلتها في مكانها خوفا من الحيلة فيبيناهم على هذا الحال اذ اشتعلت النار الاغريقية من كل جانب وتساقطت عليها تساقط المطر فأحرقتها كلها ولم تبق منها واحدة وهلك من فيها من الجند ثم أتى بعبد ذلك النبأ بموت سليمان بن عبد الملك وذلك في سنة تسع عشرة وسبعائة لليلاد أي سنة تسع وتسعين للهجرة فانفشل من بقي منهم وقُتِرَ همهمهم وانجأوا عن موافقتهم وكادوا يترقون أشناتا * وكان سليمان عادلا حكيما طويلا جميلا به عرج مولعا بالنساء شديد الغيرة وفي عهده خصى أبو بكر محمد بن عمرو الانصاري المخنثين بالمدينة قيل وكان العامل على المدينة أبا بكر عمر بن حزم فكانت اليه سليمان يقول أحص من عندك من المخنثين واتفق أن نقطة من السطر الاول وقعت على الحاء فصارت خاء فخصاهم * ومما يحكى من محاسنه أن رجلا دخل عليه فقال يا أمير المؤمنين أنشدك الله والأذان فقال له سليمان أما أنشدك الله فقد عرفناها - فما الأذان قال قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين فقال له سليمان ما ظلامتك فقال ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان قتل سليمان عن سريرته ورفع البساط ووضع خداه على الارض وقال والله لا رفعت خدى من الارض حتى يكتب له بردي ببعته فكانت الكتاب وهو واضح خده وقيل انه أطلق من سجن الحجاج ثلثمائة ألف مابين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج وأعمل فيهم القتل والتشريد واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا ومشيرا وأراد أن يستكتب يزيد بن أبي مسلم وزير الحجاج فقال له عمر بن عبد العزيز سألتك الله يا أمير المؤمنين لاتحى ذكر الحجاج باستكتابك يزيد فقال يا عمر انى لم أجد عنده خيانة في درهم ولا دينار فقال يا أمير المؤمنين ان ابليس أعف منه في الدرهم والدينار وقد أغوى الخلق كلهم جميعا فأضرب سليمان عما عزم عليه وفي كامل المبرد وغيره أن يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميما فبيجا فقال له سليمان فبح الله رجلا أجرك رسنه وأشركك في أمانته فقال يا أمير المؤمنين لاتقل هذا قال ولم قال لانك رأيتنى والامر عنى مدبر ولورأيتنى والامر على مقبل لاستحسنيت ما استقبلت منى ولاستعظمت ما استصغرت منى فقال له سليمان ويحك أو قد استقر الحجاج في قعر جهنم بعد أم لا فقال يا أمير المؤمنين لاتقل ذلك في الحجاج قال ولم قال لان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وأنه يأتى يوم القيامة عن عين أبيك ويسار أخيك خفيشما كانا كان

وكان سليمان فصيحاً بليغاً أديباً محسناً اعلم العربية مترفعاً عن سفك الدماء قال ابن
خلكان في ترجمته انه كان يأكل في كل يوم نحو مائة رطل شأى ولما ولي رد الصلاة الى
مبيقاتها الاول وكان من قبله من خلفاء بني أمية يؤخرونها الى آخر وقتها ولذلك قال محمد بن
سيرين ان سليمان افتتح خلافته بخير افتتاحها بأقامة الصلاة لمبيقاتها واختتمها باستخلافه لعمر
ابن عبد العزيز وذكر المفضل وغيره أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام في يوم الجمعة
فلبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وبسط ماحوله بالخضرة
ثم نظر في المرأة وكان جميلاً فأعجبه بجلاله فشم عن ذراعيه وقال * كان فينا نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم نبيا ورسولا وكان أبوبكر رضى الله تعالى عنه صديقاً وكان عمر رضى الله تعالى
عنه فاروقاً وكان عثمان رضى الله تعالى عنه حبيباً وكان علي رضى الله تعالى عنه شهيداً
وكان معاوية رضى الله تعالى عنه حليماً وكان يزيد صبوراً وكان عبد الملك سائساً وكان
الوليد جباراً وأنا الملك الشاب ثم خرج للصلاة الجمعة فوجد خطبة له في صحن الدار
فانشده هذه الايات

أنت نعم المناع لو كنت تبقي * غير أن لابقاء للانسان

ليس فيما بدلنا منك عيب * عابه الناس غير أنك فاني

فلما فرغ من الصلاة ودخل داره قال لتلك الخطبة ماقلت لي في صحن الدار وأنا
خارج قالت ماقلت لك شيئاً ولا رأيك وأنى لي بالخروج الى صحن الدار فقال إنا لله وإنا
اليه راجعون نعمت الى نفسي فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات وقيل انه صعد المنبر
وخطب وان صوته لسمع في أقصى المسجد فأخذته الحى فزال صوته يخف حتى لم يسمعه
من تحته وقال ابن خلكان انه حم ومات من ليلته وقيل انه مات بذات الجنب وقيل انه
قبل موته أكل زنبيلين من التين والبيض أطفقه بهما بعض المسيحيين فأمر بأن يقشر
البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بجم وسكر فأكل فاحتم
ومرض ومات * مات في عام صفر سنة ثمان وتسعين هجرية وقيل سنة تسع وتسعين
بمرج دابق من أرض قنسرين وله تسع وثلاثون سنة وقيل خمس وأربعون سنة وكانت
خلافته سنتين وثمانية أشهر واستعمل في أيامه على مصر عبد الملك بن رفاعة القيني الى سنة
تسع وتسعين التي مات فيها سليمان

(الفصل الثامن)

(في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز)

ثم قام بالامر بعد سليمان الخليفة الراشد أبو حفص عمر بن عبد العزيز ببيعة له بالخلافة يوم

مات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين هجرية أى سنة سبع عشرة وسبعائة ميلادية وكانت خلافته بعهد من سليمان له وذلك أنه لما كان سليمان بدابق ومرض مرضه الذى مات فيه عهد فى كتاب كتبه لاحد أولاده وهو غلام لم يبلغ أشده فعلم رجاء بن حيوة بالخبر فدخل عليه وقال له ما نضع يا أمير المؤمنين ان مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح فقال سليمان يارجاء انى مستخير الله وسأنتظر ولم أعزم ولبت سليمان يوما أو يومين ثم مرق الكتاب ودعا رجاء فقال له يارجاء ماترى فى ولدى داود فقال رجاء هو غائب عند القسطنطينية ولا ندرى أحن أم لا قال فحن ترى قال رجاء رأيك يا أمير المؤمنين قال فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز قال رجاء فقلت أعلمه والله خيرا فاضلا سليمان فقال سليمان هو على ذلك ولئن وليته ولم أول أحدا سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبدا يلى عليهم الا أن يجعل أحدهم بعده قال وكان عبد الملك قد عهد الى الوليد وسليمان أن يجعل أحدهما يزيد ولى عهد فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر وكان يزيد غائبا فى الموسم قال رجاء فقلت رأيك فكتب سليمان * بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز انى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم * قال وختم الكتاب ثم أرسل الى كعب بن جابر العبسى صاحب شرطته فقال ادع أهل بيتي فجمعهم كعب فلما اجتمعوا قال سليمان لرجاء اذهب اليهم بكتابي وأخبرهم بما فيه ومرهم فليبايعوا من وليت فيه ففعل رجاء فلما علموا ما فى الكتاب قالوا ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ثم دخلوا فقال لهم سليمان فى هذا الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة عهدى فاسمعوا وأطيعوا لمن سميت فيه فبايعوا عمر رجلا رجلا ثم تفرقوا وثقل المرض بسليمان فمات قال رجاء بن حيوة فغضته وسجنته وأغلقت الباب وأجلست على الباب من أثق به ثم خرجت فأرسلت الى كعب بن جابر فجمع أهل بيت سليمان فى مسجد دابق فقامت بايعوا فقالوا قد بايعنا مرة فقلت وأخرى هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا الثانية قال فلما بايعوا بعد موته رأيت أن قد أحكمت الامر فقلت قوموا الى صاحبكم فقد مات

ذكر غير واحد عن محمد المروزى قال أخبرت أن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هتة أو رجة فقال ما هذه فقيل هذه مراكب الخلافة قربت اليك يا أمير المؤمنين لتركبها فقال ما لى ولها فحوها عنى وقربوا الى دابق فقربت اليه فركبها فجاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادة الخلفاء قبله فقال له تنح عنى ما لى ولك انما أنا رجل من المسلمين ثم سار مختلطا بين الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر فاجتمع اليه الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال * أيها الناس انى ابتليت بهذا الأمر بغير رأى منى فيه ولا طلبه ولا مشورة من المسلمين وانى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختراروا لانفسكم غيرى فصاح المسلمون صيحة عظيمة قد

اختزنالك يا أمير المؤمنين ورضيناك أميرنا باليمن والبركة فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال * أوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله تعالى خلف من كل شئ وليس من تقوى الله خلف واعملوا لآخرتكم فان من عمل لآخرته كفاه أمر دنياه وآخرته وأصلحوا سرائركم يصلح الله علائبتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن يسئل بكم فانه هادم اللذات وانى والله لأعطي أحدا باطلا ولا أمنع أحدا حقا * يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعوا ما أطعت الله فان عصيته فلا طاعة لى عليكم * ثم نزل ودخل دار الخلافة فأمر بالسور فهتكت وبالبسط فرفعت وأمر ببيع ذلك وادخال ثمنه فى بيت مال المسلمين ثم ذهب يتبوأ مقيلا فأتاه ابنه عبد الملك فقال ما تريد أن تصنع يا أبت قال يا بنى أقبل قال تقبل ولا ترد المظالم قال أى بنى انى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان فاذا صليت الظهر رددت المظالم فقال يا أمير المؤمنين من أين لك أن تعيش الى الظهر فقال ادن منى يا بنى فدنا منه فقبله بين عينيه وقال الحمد لله الذى أخرج من ظهري من يعيننى على دينى فخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى ألا كل من كانت له ظلامة فليرفعها قبل فتقدم اليه ذمى من أهل حص فقال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال وما ذلك قال ان العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس جالس فقال عمر ما تقول يا عباس فقال ان أمير المؤمنين الوليد أقطعنى اياها وهذا كتابه فقال عمر ما تقول يا ذمى قال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى فقال عمر كتاب الله أخق أن يتبع من كتاب الوليد أردد اليه أرضه يا عباس فردها اليه ثم جعل لا يدع شأ مما كان فى يد أهل بيته من المظالم الارده مظلمة مظلمة فلما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل وبلغ عمر بن الوليد خبر رد الضيعة التى كانت للذى كتب الى عمر بن عبد العزيز * انك قد زريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغيب سيرتهم بغضالهم وشينا لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل اذ عمدت الى أموال قريش ومواريتهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا وان تترك على هذا الحال والسلام * فلما قرأ كتابه كتب اليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من عبد الله عمر بن عبد العزيز الى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * أما بعد فقد بلغنى كتابك أما أول شأنك يا ابن الوليد فأملك بنانة أم السكون كانت تطوف فى سوق حص وتدخل فى حوانيتها ثم الله أعلم بها ثم اشتراها زيان من بيت مال المسلمين فأهداها لابيک فحملت بك فبئس المولود ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا تزعم أنى من الظالمين اذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وان أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صيبا سفيا على جنود المسلمين تحكمم فيهم برأيتك ولم يكن له فى ذلك نية الا حب الوالد لولده فويل لابيک ما أكثر خصماءه يوم القيامة وكيف ينبجأ أبوك من خصمائه وان أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خمس العرب نصيبا فرويدا يا ابن بنانة فلو

التفت حلقتا البطان وردّ النّبي لاهله لتفرّغت لك ولاهل يبتك فوضعهم على المحجة البيضاء
فطالما تركتم الحق وأخذتم في الباطل ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رأيته من بيع
رقيبتك وقسم غنك بين البتاي والمساكين والارامل فان لكل فيك حقاً والسلام على من
اتبع الهدى ولا ينال سلام الله القوم الظالمين

قيل انه وقع في زمانه غلاء عظيم فقدم عليه وفد من العرب فاخترأوا رجلاً منهم لخطابه
فتقدم اليه وقال يا أمير المؤمنين انا وفدنا اليك من ضرورة عظيمة وراحتنا في بيت المال وماله
لا يتخلوا ما أن يكون لله أولعباده أولئك فان كان لله غنى عنه وان كان لعباده فآتهم
اياهم وان كان لك فتصدق به علينا ان الله يجزي المتصدقين * قيل فتفرغت عنا عمر بالدموع
وقال هو كما ذكرت وأمر بحوائجهم فقضيت فهم الاعرابي بالانصراف فقال عمر كما أوصلت
أيها الرجل حوائج عباد الله الى فأوصل حاجتي وفاقني الى الله فقال الاعرابي الهى اصنع
بعمر بن عبد العزيز كصنيعه في عبادك قيل لما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت
السماء مطراً كثيراً بقاء في المطر برودة كبيرة فوقع على جرة فانكسرت فخرج منها كاعد
مكتوب فيه * هذه براءة من الله العزيز الغفار لعمر بن عبد العزيز من النار * قلت ولعل
هذا من مبالغات الكتاب تذكرة وعبرة

ولما استقامت امر الامور ودانت له الخلافة لم يوجه عنايته الى تميم الغزوات التي بدأ
بها سليمان وترك مسلة بمن معه من المسلمين في حصار قسطنطينية طول الشتاء كراهة في مسلة
وكان ذلك الشتاء فارساً جداً شديداً دامت فيه الثلوج مغطية للارض مائة يوم فمات خلق
كثير من المسلمين ولبثوا على هذا الحال يقاسون العناء حتى دخل الربيع وورد على من بقي
منهم الخبر بقدم عمارتين فيهما من الرجال والنساء شيء كثير لتجديتهم احداهما أربع مائة
سفينة مشحونة قحاً من الاسكندرية وثانيتهما ثلثمائة وستون سفينة من افرقية ولكنه
لم يتم فرحهم بمقدم تلك العمارة حتى شاع الخبر ثانية بانه حل بهما ما حل بالعمارة الاولى
فلم يحصلوا منهما الا على ما قل ففشا الجوع والمرض في جنود المسلمين وعادوا بأكلون
ما يجدونه من الميتة وغيرها واستنصر ليون قبصر الروم على من بقي منهم بالبلغاريين واستأجرهم
لذلك فجاء منهم عدد كثير واقتتلوا مع المسلمين قتلاً عنيفاً فقتلوا منهم زهاء عشرين ألفاً
وطيروا الاخبار بجهيز الفرنجة برا وبحرا للنجدة فتشددت بذلك عزائم الروم وخافت العرب
جداً ولبثوا يتوقعون الشر من كل جانب فوردت الى مسلة الاخبار بأن يرجع بمن معه
من المسلمين فقام على الفور وسار بمن بقي معه وهم قليلون فترجمضيق كليبولي من حيث
أتى فلم يعارضه معارض فلما وصل بتينة قام عليه أهلها وقتلوا بمن كان معه خلقاً كثيراً ولم
يصل من جميع تلك العمارة الكبيرة الا خمسة فقط جاءت بالاخبار الى الاسكندرية فكانت
مدة حصار مسلة لقسطنطينية في هذه الغزوة ثلاثة عشر شهراً * قال أهل التاريخ وكان
اخفاق مسلة في غزوته هذه سبباً في منع العرب من تخطي أوروبا من جهة المشرق ولكنهم

لم يلبثوا أن عادوا فشنوا الغارة على بلاد الفرنيس من جهة المغرب بمعاونة عرب الاندلس وجعلوا يتهقدونها في كل آونة ولا ينكفون عن مناوشتها كلما تمكنوا من ذلك * وكان عمر يكره الحرب جدا ولا يهتم بالفتوحات فلم يضم الى دولته في خلافته الاجرجان وطبرستان وكتب في سنة مائة هجرية الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقد كانت سيرته وأجنامه وصلت اليهم فأسلم حيشبة بن زاهر وتسمى بعض ملوكهم من هذا الحين بأسماء العرب وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم فغزا بعض الهند فظفر وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبد الملك فلما كان أيام هشام ارتدوا عن الاسلام وكان سبيه ماسيدكر في محله ان شاء الله

وتحالف بنو أمية لاسباب عدة على بغض عمر بن عبدالعزيز فرشوا عبدا أسود فسقاه السم وروى أنه دعا بخادمه الذي سقاه السم فقال له ويحك ما جئتك على أن سقيتني السم قال ألف دينار أعطيتها قال هاتها فجاء بها فأمر بطرحها في بيت المال وقال لخادمه اخرج بحيث لا يراك أحد ولما ثقل به مرضه قالوا له لوندأويت قال لو كان دوائي في مسح أذني مامسحتها نعم المذهوب اليه ربي * قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه أعوده في مرضه الذي مات فيه فاذا عليه قيص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبد الملك يا فاطمة اغسلي قيص أمير المؤمنين فقالت نفعل ان شاء الله تعالى ثم عدت فاذا القيص على حاله فقلت يا فاطمة ألم أمرك أن تغسلي قيص أمير المؤمنين فان الناس يعودونه فقالت والله ماله قيص غيره قال وكان عمر رضي الله عنه كثيرا يتمثل بهذه الايات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليك نوم والردى لك لازم
يغزل ما يفسني وتفرح بالمني * كما غر باللدات في النوم حالم
وشغلك فيما اليوم تـكـره غبه * كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وكان مرضه بدير سمعان بأرض حمص وكانت شكواه عشرين يوما فلما احتضر قال أجلسوني فأجلسوه فقال * الهى أنا الذي أمرتني فقصرمت ونهيتني فعصيت ولكن لا اله الا الله وتوفي الخميس وقيل لست مضين وقيل لعشرة بقين من رجب الفرد سنة احدى ومائة للهجرة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر وقيل وهو ابن أربعين سنة وقبره بدير سمعان ظاهر يزار فكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وكان يقال له أشج بن أمية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فمهر جده من قبل أمه وهو تابعي روى الحديث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وروى عنه جماعة ومولده بمصر سنة احدى وستين * قال الامام أحمد ليس أحد من التابعين قوله الا عمر بن عبد العزيز اه وكان عمر عفيفا زاهدا ناسكا عابدا مؤمنا تقيا صادقا وهو أول من اتخذ دار الضيافة وأول من فرض لابناء السبيل وأزال ما كانت بنو أمية تذكر به عليا على المنابر من اللعن وجعل مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل

والاحسان وآتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون
فقال فيه كثير عزة لذلك

وليت ولم نسبب عليا ولم تحف * بر يا ولم تقبل مقالة مجرم
وصادقت بالقول الفعال مع الذى * أتيت فأسمى راضيا كل مسلم
فما بين شرق الارض والغرب كلها * مناد ينادى من فصيح وأعجمي
يقول أمير المؤمنين ظلمتني * بأخذك دينارى وأخذك درهمي
فأريح بها من صفقة لمبائع * وأكرم بها من بيعة ثم أكرم
قال ميمون بن مهران قال عمر بن عبد العزيز لما وضعت الوليد في حفرة نظرت فإذا
وجهه قد اسود فأذا مت ودفت فأكشف عن وجهي قال ميمون ففعلت فرأيت أنه أحسن
مما كان أيام تنعمه ورثاه الشعراء فأكثروا في رثائه وبالغوا جدًا
واستعمل على مصر في خلافته أيوب بن شرحبيل الاصبغى فأقام بها عاملا الى سنة
احدى ومائة وعزل في خلافة يزيد بن عبد الملك * وبعد موت عمر بن عبد العزيز خلفه في الملك
يزيد بن عبد الملك بن مروان

(الفصل التاسع)

(في خلافة يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان ببيع له بالخلافة يوم
مات ابن عمه عمر سنة احدى ومائة للهجرة أى سنة تسع عشرة وسبع مائة للميلاد بعهد له من
أخيه سليمان في ذلك فلما ولي قال خذوا بسيرة عمر بن عبد العزيز فصاروا بسيرته أربعين
يوما فدخل عليه أربعون رجلا من مشايخ دمشق وحلقوا له أنه ليس على الخلفاء حساب
ولا عقاب في الآخرة وخدعوه بذلك فأنخدع لهم وكان طائفة من جهال الشاميين يعتقدون
ذلك * قال بعض أهل التاريخ ان يزيد هذا هو المعروف بالفاسق وهو غلط وانما الفاسق ولده
الوليد كما اشتهر اه وقيل انه لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال له اكتب الى يزيد فأوصه
بالامة قال بماذا أوصيه انه من بنى عبد الملك ثم كتب اليه * أما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد
الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة انك تترك ما تترك لمن لا يحمدك ونصير الى
من لا يعذرک والسلام * ولما استقرت بيزيد الخلافة عمد الى كل ما عمده عمر بن عبد العزيز
مما لم يوافق هواه فرده ورد المكوس التي أزالها عمر بن عبد العزيز عن أهل اليمن وغير ذلك
وجهز جيشا عظيما لقتال يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وسيره مع أخيه مسلمة والعباس ابن
أخيه وكان ابن المهلب قد كثرت لمومه واجتمع اليه من أهل الكوفة والبصرة والمغور وغيرها

فالتقى مسلمة بأهل الشام وابن المهلب في لمومه وعسكره الجرار فاقتتلوا قليلا وكان يزيد بن عبد الملك قد أمر بإحراق جسر كان على الفرات ليأخذوا الطريق على ابن المهلب وأصحابه فلما علا دخان الحريق سأل أصحاب ابن المهلب عنه ف قيل لهم حرق الجسر فانهم زمو ف قيل لابن المهلب انهزم الناس فقال لم انهزموا هل كان قتال ينهزم من مثله ف قيل له قالوا أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال فبحم الله بقي دخن عليه فطار ثم خرج ومعه أصحابه وقال اضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بموت أخيه حبيب فاغتم غما شديدا واستنقل وتقاعد عن الحرب فتسأل عنه من يكره القتال وبقي معه جماعة من جنسه فانقض عليه أهل الشام وعلى أصحابه فقتلوه وقتلوا أخاه محمد بن المهلب وآخرين معه واختلفوا فيمن قتله واحتزوا رأس يزيد بن المهلب وأتوا بها الى مسلمة فسيرها الى يزيد ابن عبد الملك وأسر أهل الشام من أصحاب يزيد بن المهلب خلقتا فسيرهم مسلمة الى الكوفة فجاء كتاب يزيد بن عبد الملك الى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضرب رقابهم فأمر صاحب شرطته أن يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين فقام نحو ثلاثين رجلا من تميم فقالوا نحن انهزمنا بالناس فابدؤا بنا قبل الناس فضرب رقابهم ثم جاء محمد بن عمرو كتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة واجتمع أهل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا للركوب في البحر ورجلوا أموالهم وعيالهم حتى وصلوا الى حبال وساروا في البر فسير مسلمة في أثرهم مدرك بن ضب الكلبي فأدركهم في عقبة فعضقوا عليه وقتلوه واشتد قتالهم فقتل أكثر أصحاب ابن المهلب وقتل أولاد المهلب عن آخرهم وحلت رؤسهم والأسرى الى مسلمة بالحيرة فبعثهم الى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد الى العباس بن الوليد وهو على حلب فنصب الرأس وفرح يزيد بقتل آل المهلب فرحا عظيما وقد كان يتمي قتلهم وقطع شأفتهم لعداوة سابقة بينه وبين يزيد بن المهلب قبل تولي يزيد بن عبد الملك الخلافة * قال صاحب الكامل ان ابن المهلب خرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضح بالغالبة فاجتاز يزيد بن عبد الملك وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز فقال يزيد فبح الله الدنيا لو ددت أن مثقال غالية بألف دينار فلا ينالها الا كل شريف فسمع ابن المهلب فقال له بل وددت أن الغالية لو كانت في جبهة الاسد فلا ينالها الا من لي فقال له يزيد بن عبد الملك لئن وليت يوما لاقتلك فقال له ابن المهلب والله لئن وليت هذا الامر وأنا حي لا ضربن وجهك بخمسين ألف سيف فهذا كان سبب البغض بينهما وقيل غير ذلك اه وكان قد جرى الى يزيد ابن عبد الملك بثلاثة عشر رجلا من الأسرى فلما أدخلوهم عليه وعنده كثير عزة أشد

حليم اذا ما نال عاقب هجلا * أشد العقاب أو عفا لم يثر

فعفو أمير المؤمنين وحسبه * فماتاته من صالح لك يكتب

أساؤا فان تصفح فانك قادر * وأفضل حلم حسيبة حلم مغضب

فقال يزيد بن عبد الملك هيهات يا أبا صخر طف بك الرحم لاسبيل الى ذلك ان الله عز وجل

أفاد بنهم بأعمالهم الخبيثة ثم أمرهم فقتلوا وبقي غلام صغير فقال اقتلوني فأنا بصغير فأمر به يزيد فقتل أيضا * وكان أهل المهلب مشهورين بالكرم والجود والفتوة ولهم أخبار طويلة لا يحل لذكرها هنا

وبينما كان مسلمة بن عبد الملك أخو يزيد والعباس بن أخيه يقاتلان آل المهلب اذ دخل على يزيد بن عبد الملك جماعة من المتقربين اليه وقالوا يا أمير المؤمنين ان أهل العراق غدر وارجاف وقد توجهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن من أن يرجف أهل العراق فيقولون مات أمير المؤمنين فيقت ذلك في أعضادنا فلو عهدت الى عبد العزيز بن الوليد لكان رأيا صوابا فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فأخى أخاه يزيد فقال يا أمير المؤمنين أيما أحب إليك أخوك أم ابن أخيك فقال بل أخى فقال فأخوك أحق بالخلافة فقال يزيد اذا لم تكن في ولدى فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك ثم بعده لابنك الوليد وكان الوليد يومئذ ابن احدى عشرة سنة فبايع بولاية العهد لهشام ابن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد وعاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد أشده فكان اذا رآه يقول الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك وظلت ولاية العهد لهشام حتى ولى الخلافة * وفي أيام يزيد بن عبد الملك ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن علي في ربيع الآخر وهو السفاح وقدم على أبيه محمد بن علي أبو محمد الصادق من خراسان وجماعة من أصحابه فأخرج اليهم أبا العباس مقطا بقطا ولفائف وله خمسة عشر يوما وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الامر على يده فقبلوا أطرافه وقال لهم والله ليتمن الله هذا الامر حتى تدركوا ناركم من عدوكم

وخرج في أيام يزيد كثير من طوائف الترك وقاتلوا المسلمين وأجلوا من كان منهم بارمينية والجزيرة والمتولى عليهما يومئذ ابن هبيرة بن هبيرة بن يزيد الجراح لقتالهم وردتهم الى الطاعة فقاتلهم قتالا شديدا وأخس في قتلهم وسبى ذراريهم وقاتل سائر الخوارج حتى أرجعهم الى الطاعة وكان يزيد بالفتح وطلب المدد فوعده ~~و~~مكن المنية عاجلة له وكانت وفاة يزيد بربل من أرض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال الى دمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير نجس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وله أربعون سنة وقيل خمس وثلاثون سنة وكانت خلافته أربع سنين وشهرا وأياما * ذكر الحافظ ابن عساكر أن سبب موت يزيد ابن عبد الملك هذا أنه كان اشترى في أيام أخيه سليمان جارية من عثمان بن سهل بن حنيف بأربعة آلاف دينار وكان اسمها حبابة وأحبها حباشيدا فبلغ أخاه سليمان ذلك فقال هممت أن أجز على يزيد فبلغ ذلك يزيد فباعها خوفا من أخيه سليمان فلما أفضت الخلافة اليه قالت له زوجته يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من الدنيا شئ قال نعم فقالت وما هو قال حبابة فاشترتها له وهو لا يعلم وزينتها وأجلسها من وراء ستارها ثم قالت يا أمير المؤمنين هل

بقى في نفسك من الدنيا شيء قال أو ما أعلمتك أنها حجابة فرفعت الستر وقالت ها أنت وحجابة وتركتها وإياها فخطيت عنده وغلبت على عقله ولم ينتفع به في الخلافة وانه قال يوما ان بعض الناس يقولون انه لن يصفوا لاحد من الملوك يوم كامل من الدهر واني لا كذبهم في ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى بحجابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يذكره فيبينما هو على تلك الحالة في صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره اذ تناولت حجابة حبة رمان وهي تضحك فغصت بها فماتت فاحتل عقل يزيد ونكدر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجدا شديدا وتركها أياما لا يدفننها وهو يقبلها ويستشفها حتى أتت وفات فامر بدفنها ثم نبشها من قبرها وله معها أخبار طوال أضربنا عن إيرادها وغنته يوما

وبين التراقي واللهات حارة * وما طغئت يوما بسوغ فتبردا

فأهوى عند سماعه قولها ليطير فقالت يا أمير المؤمنين ان لنا فيك حاجة فقال والله لأطيرن فقالت على من تخلف الامة والملك قال عليك والله وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك ما أسخفتك

ولما عاد من دفنها سمع جارية له تتمثل بعدها

كفي حزنا بالهائم الصب أن يرى * منازل من بهوى معطلة قفرا

فبكى بكاء مررا واشتد به الحبيب ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوما وكان مرضه بالسل وقال فيها

فان تسلى عنك النفس أودع الهوى * فبالياس تسلى عنك لابل التجلد

وكل خليل زارني فهو قائل * من أجلك هذا هالك اليوم أو غد

قال صاحب الكامل ولم يعلم بموت يزيد أحد حتى ناحت سلامة حظيته * هي حظية أخرى غير حجابة كان يحبها فقالت

لا تلمنا ان خشعنا * أو هم منا بخشوع

قد لعمري بت ليلي * كأني الداء الوجيع

ثم بات الهيم مني * دون من لي بضجيع

للذي حل بنا ابو * م من الامر القطيع

كلما أبصرت ربعا * خالبا فاضت دموعي

قد خلا من سيد كا * ن لنا غير مضيع

ثم نادى وا أمير المؤمنيناه فعملوا بموته قال والشعر لبعض الانصار اه واستأمر يزيد على مصر في خلافته بشر بن صفوان الكلبي فأقام الى سنة ثلاث ومائة ثم خلعه وولى أخاه حفظة فأقام الى سنة خمس ومائة وهي السنة التي مات فيها يزيد بن عبد الملك ثم عزل ولما مات يزيد خلده في الملك هشام بن عبد الملك

(الفصل العاشر)

(في خلافة هشام بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان ببيع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد سنة خمس ومائة هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ميلادية بعهد منه اليه ولما أتمه الخلافة كان بالرصافة فسجد وسجد أصحابه لما بشر بها وسار الى دمشق * قال مصعب الزبيري زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى في منامه أنه بال في المحراب أربع مرات فدرس من يسأل سعيد بن المسيب وكان يعبر الرؤيا فقال يملك من صلبه أربعة فكان آخرهم هشاما اه

فلما كانت السنة الاولى من خلافته سير مسلم بن سعيد لغزو الترك فعبّر النهر وعاث في بلادهم ونحرب وأتلف وأراق الدماء وقفل فتأثره الترك فعبّر النهر ولم ينالوا منه أربا ثم غزا افشين فلم يروا بدا من مصالحته على ستة آلاف رأس وسلموا اليه القلعة ثم غزا غزوة أخرى في سنة ست ومائة فأبطأ عنه الناس وكان ممن أبطأ البختری بن درهم فأرسل مسلم نصر بن سيار الى بلخ وأمره أن يخرج الناس اليه وكان العامل على بلخ يومئذ عمرو بن مسلم فذهب نصر وأحرق باب البختری وزیاد بن طریف الباهلي ومنعهما عمرو من دخول بلخ فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة فانهمز نصر المذکور وأمرهم بأن يلحقوا بمسلم بن سعيد * ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحقه من أصحابه سار الى بخارى فجاء كتاب خالد بن عبد الله القسرى بولايته ويأمره باتعام الغزوة فسار الى فرغانة وبلغه أن خاقان كان قادما عليه بخيله ورجله فارتحل فلحقه خاقان بعد ثلاث مراحل وأحاط بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الرياحي والبراء من قرمان المهلب وغيرهما من الأبطال وسار مسلم بالناس ثمانية أيام والترك مطبقون بهم وكان مسلم قد أحرق ما نقل من أمتعة المساكين ما قيمته ألف ألف وأصبحوا في اليوم التاسع قريب النهر ودونه أهل فرغانة والشاش فأمر مسلم أصحابه أن يختلطوا سيوفهم ويحملوا على الأعداء فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر فعبّر مسلم وأصحابه واتبعهم ابن خاقان فكان حميد بن عبد الله على الساقة من وراء النهر مخنأ بالجراح فبعث الى مسلم بالتربص وعطف على جوع الترك وقائلهم قتالا شديدا وأسرقائدهم وقائد الصغد وبينما هو يدبر أمر أصحابه اذ أصابه سهم فمات ثم أتى مسلم وقومه بخنذة وقد أهلكهم الجوع

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين ومائة ظهر زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يريد منصب الخلافة وأقبل الى الكوفة وليث بها مستخفيا يتنقل في المنازل وأقبلت الشيعة تختلف اليه تبايعه فبايعه أناس من وجوه أهل الكوفة قال أهل التاريخ * وكانت بيعته انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت

أتباعون على ذلك فإذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول * عليك عهد الله وميثاقه
 وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم لتفني بيعتي ولتقاتلن عدوى ولتصحن لي في السر
 والعانية فإذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال * اللهم اشهد * فبايعه خمسة عشر ألفا وقيل
 أربعون ألفا فأمرهم بالاستعداد ولما شاع خبر خروجه أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من
 صاحب الشريعة الإسلامية وحقه فأحسن وبالغ ثم قال له أنشدك الله كم بايعوك قال
 أربعون ألفا قال فكم بايع جسدك قال ثمانون ألفا قال فكم قفل معه قال ثلثمائة قال
 أنشدتك الله أنت خير أم جسدك قال جدي قال فهذا القرن خير أم ذلك القرن قال ذلك
 القرن قال أفنطمع أن يني لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجسدك قال قد بايعوني ووجبت البيعة
 في عني وأعناقهم قال أفنأذن لي أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث فلا
 أملك نفسي فأذن له فخرج إلى اليمامة وأكثر زيد من دعاء الناس إلى بيعته فبايعه ناس كثير
 منها ورسم لأصحابه فيها بالخروج فخرج معه من كان يريد الوفاء له بالبيعة فعلم يوسف بن
 عمر بنخبره وهو على الحيرة يومئذ وبعث في طلبه وكان على الكوفة الحكيم بن الصلت يخاف
 جماعة من خرج مع زيد واجتمع كبارهم وتكلموا مع زيد فيما هو فيه ثم فارقوه ونكثوا
 بيعته وقالوا سبق الإمام * يعنون محمد الباقر * وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه إمامنا اليوم
 بعد أبيه فسماهم زيد بن علي لذلك الرافضة * قال صاحب الكامل * وهم يزعمون أن المغيرة
 سماهم الرافضة اه وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة
 زيد فقال بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا فعادوا وكنتموا ذلك وخرج زيد فيمن بقي معه من
 أهل الكوفة واقتتل مع أصحاب يوسف والريان وأهل الشام فقتل عنه نفر من بقي معه
 فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال لنصر بن خزيمة وقد كان يقاتل مع زيد أنا أخف أن
 يكونوا قد فعلوها حسينية * يعني كما فعلوا بالحسين * فقال نصر بن خزيمة أما والله لا قاتلن
 معك حتى أموت وإن الناس في المسجد فامض بنا نحوهم فصاروا حتى انتهوا إلى باب المسجد
 بعد قتال فدخل أصحابه يدخلون ربابهم من فوق الأبواب ويقولون بأهل المسجد اخرجوا من
 الذل إلى العز اخرجوا إلى الدين والدنيا فانكم لستم في دين ولادنيا فرماهم أهل الشام بمجارة
 من فوق المسجد فانصرفوا ثم عادوا بعد ذلك إلى القتال فاشتد أصحاب يوسف بن عمر على
 أصحاب زيد بن علي واشتد كذلك أصحاب زيد واقتتلوا قتالا عنيفا فقتل نصر بن خزيمة
 ومعاوية بن اسحق الانصاري بين يدي زيد وري زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت
 في دماغه وأحضر أصحابه طبيبا فانتزع النصل فضج زيد ومات لساعته واختلف أصحابه في
 أين يدفونه فقال بعضهم نطرحه في الماء وقال بعضهم بل نحتز رأسه ونلقيه بين القتلى فأنع
 ابنه يحيى وقال والله لا يأكل لحم أبي الكلاب فقال بعضهم ندفننه في الحفرة التي يؤخذ منها
 الطين ونجعل عليه الماء ففعلوا فلما دفنوه أجروا عليه الماء وقيل أنه دفن بنهر يعقوب سكر
 أصحابه الماء ودفنوه ثم أجروا الماء وكان معهم مولى لزيد بن علي من أهل السند قيل أنه

رأهم فلما تفرق الناس وتبع يوسف بن عمر الجرحى دله السندی المذكور على موضع زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها الى الخيرة وأمر فصلبوا جسده بالكناسة ومعه نصر بن خزيمية ومعاوية بن اسحق وزيد بن الهادي وسيروا رأس زيد الى هشام بن عبد الملك فأمر بها فصلبت على باب دمشق ثم أرسلها الى المدينة وبقيت الخنة مصلوبة الى أن مات هشام وولى الوليد فأمر بانزالها واحراقها

وكرت في أيام هشام الخوارج والدعاة وكان لهم مع عماله وقائع مشهورة يطول شرحها وكان هشام حازما عاقلا صاحب سياسة حسنة ورأى ودهاء وحزم وفيه حلم فكان لذلك موقفا وكان يوصف بالجل والحرص ويقال انه جمع من الاموال ما لم يجمعه خليفة قبله * قال عقاب ابن شبة دخلت على هشام وعليه قباء فبك أخضر فوجهني الى خراسان وجعل يوصيني وأنا أنظر الى القباء فقطن فقال مالك فقلت رأيت عليك قبل أن تلي الخلافة قباء مثل هذا فجعلت أتأمل أهو هذا أم غيره فقال هو والله ذلك وأما ماترون من جمعي المال وصونه فهو انكم * قال وكان محسوا عقلا اه وكان حسن الخلق قال مجمع بن يعقوب الانصاري شتم هشام رجلا من الاشراف فوبخه ذلك الرجل وقال أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في أرضه فاستحي منه وقال اقتص مني فقال اذا أنا سفيه مثلك قال فخذ مني عوضا من المال قال ما كنت لأفعل قال فهما لله قال هي لله ثم نكس هشام رأسه واستحي وقال والله لأعود الى مثلها أبدا * ذكر صاحب الكامل أن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام فاخذ هشام وسيره الى خالد القسري وهو يومئذ على العراق وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله فبلغ الخبر هشاما فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله فانخرجه خالد من الحبس في وثاقه فلما صلى العيد يوم الاضحى قال في آخر خطبته انصرفوا وضجوا يقبل الله منكم فاني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل وذبحه اه وكان هشام شديد التمسك بدينه قبل انه تفقد بعض ولده فلم يحضر الجمعة فقال مامنعك من الصلاة قال نفقت دابتي قال أفجرت عن المشي وأمر فنعوه الدابة سنة ومات هشام بالرصافة است خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وكان مرضه الذبحة وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ست وخمسون فكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحد عشر يوما

واستعمل على مصر في خلافته أخاه محمد بن عبد الملك وعزله وولى بعده الحارث بن يوسف ثم ولى حفص بن الوليد فأقام الى آخر سنة ثمان ومائة وولى بعده في سنة تسع ومائة عبد الملك ابن رفاعة ثم صرفه في سنته وولى أخاه الوليد فأقام الى أن توفي سنة تسع عشرة فولى بعده عبد الرحمن بن خالد النهمي فأقام سبعة أشهر وصرف وأعيد خنظلة بن صفوان في سنة عشرين ثم صرفه وأعاد حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم عزل وكان عبد الله بن الحبحاب متولى الخراج بمصر في سنة سبع ومائة للهجرة أي سنة سبع وعشرين وسبعمائة للميلاد فاستد

على القبط في تحصيل الخراج شدة بالغة وزاد قيراطا في كل دينار فاسترجوه فلم يقبل فانتقض عليه عامة الخوف الشرقي من القبط فخار بهم وقتل وسبي ونهب وخرب وأراق الدماء أبحرا وقد كان قبله في سنة أربع ومائة للهجرة اشتد أسامة بن زيد التنوخي متولى الخراج عليهم وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد منقوش عليها اسم الراهب وديره وتاريخه فكان إذا وجد أحدهم بغير وسم قطع يده وشهره وكتب إلى جميع العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كان منه بعد ذلك أن كبس دياراتهم وقبض على كثير من الرهبان بغير وسم فضرب أعناقهم وضرب باقيهم بالسياط حتى ماتوا تحت الضرب ثم أمر فهدموا الكنائس ونهبوا مافيها فكانت شدة عظمة للغاية ووصل الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فكتب هشام إلى مصر بأن يجري النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد فلم يعمل حنظلة بن صفوان بما رسم به هشام بل شدد عليهم في ولايته الثانية وزاد في الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل رجل منهم وسما صورة أسد وتبعهم فن وجد يده بغير وسم قطع يده فازدادت الشدة وعظم أمرها أياما كثيرة وكادت تهب الفتنة وتعم سائر البلاد تخاف العمال وانكفوا وسكنت الأحوال

ومات في خلافة هشام الإسكندروس بطرك الاسكندرية فكانت مدته اربعا وعشرين سنة قاسى فيها من البلايا والحن مامترك بيانه نغلا الكرسي بعده أربع سنين فأقيم بعده قسميا أو هو قزمان وهو رابع أربعينهم وأصله من نبا موسى فأقام سنة ومات ولم يعرف من أخباره شيء فقام بعده تاودورو وهو خامس أربعينهم وكان في دير أبو جونس وفي أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحرة ظاهر مدينة مصر فقام جماعة من المسلمين في سنة سبع عشرة ومائة للهجرة أى نحو سنة سبع وثلاثين وسبعائة لليلاد على الوليد بن رفاعة أمير مصر يومئذ بسببها وشدوا في طلب هدمها وكادت الفتنة تتشر ويعظم ضررها وبقي الحال هكذا أياما كثيرة ثم سكنت * وفي سنة سبع ومائة أى في خلافة هشام بن عبد الملك تمكن ملك الروم يومئذ من إقامة بطرك الملكية بالاسكندرية فضى ومعه هدية سنبة للغاية إلى هشام فكتب له برد كنائس الملكية اليهم فأخذوا يومئذ من المتأصلين كنيسة البشارة وكان الملاكيمون أقاموا سبعة وسبعين سنة بغير بطرك في أرض مصر من عهد عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك فغلب المتأصلون في هذه المدة على كنائس مصر كافة وأقاموا منهم بها أساقفة وبعث اليهم أهل بلاد النوبة في طلب أساقفة فسيروا اليهم جماعة فصارت النوبة من ذلك العهد على مذهب دسقورس وبقيت كذلك إلى أن تفتت فيها الديانة الاسلامية وعت سائر أرجائها فدانت بها إلى هذا الحين * ولما مات هشام بن عبد الملك تولى الخلافة بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق ببيع له بالخلافة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة أى نحو سنة اثنتين وأربعين وسبعائة للميلاد يوم موت عمه هشام بالرصافة وقد كان أبوه حين احتضر عهد بالامر الى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد فلما مات هشام ببيع له وهو اذ ذاك بالبريه فاما من عمه هشام لانه كان بينه وبين عمه منافسة بسبب استخفافه بالدين وشربه الخمر واشتهاره بالفسق فهم هشام بقتله ففر منه وصار لا يقيم بأرض خوفا من هشام فلما كانت الليلة التى قدم عليه البريد فى صيحتها بالخلافة قلق تلك الليلة قلقا شديدا فقال لبعض أصحابه ويحك انه قد أخذنى الليلة قلق فاركب بنا حتى نتنفس فسارا مقدار ميلين وهما يتحدثان فى أمر هشام وما يتعلق به مما كتبه اليه بالتهديد والوعيد ثم نظرا فرأيا من بعد رهجا وصوتا ثم انكشف ذلك عن بريد يطلبونه فقال لصاحبه ويحك ان هذه رسل هشام اللهم اعطنا خيرهم فلما قرب البريد منهما وأثبتوا الوليد معرفة ترجلوا وجاءوا فسلموا عليه بالخلافة فهبت وقال ويحكم أمات هشام قالوا نعم ثم أعطوه الكتب فقرأها وسار من فوره الى دمشق وكتب الى الأكاف بأخذ البيعة فجاءته بيعتهم وكتب اليه مروان بن محمد ببيعته واستأذنه فى القدوم عليه فلما استقرت به الخلافة أجرى على زمنى أهل الشام وعيهم وكساهم وأمر لكل انسان منهم بخادم وأخرج لعمال الناس الطيب والكسوة وزاد فى العطاء وزاد الوفود قال صاحب الكامل ولم يسئل فى شئ الا وقال

ضمنت لكم ان لم يعقنى عائق * بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق بعن زيادة * وأعطية منى عليكم تبرع
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم * به تكتب الكتاب شهرا وتطبع
وقال حلم الوادى المغنى كما مع الوليد وأتاه خبر موت هشام وهى بولاية الخلافة وأتاه
القضيب وانخام ثم قال فأمسكنا ساعة ونظرنا اليه بعين الخلافة فقال غموفى
طاب يومى ولذ شرب السلافه * وأنا نأى نعى من بالرصافه
وأنا السبريد نعى هشاما * وأنا نأى بنخام للخلافه
فأصطحبنا من خمر عانة صرفا * ولهنونا بقينة عرافه
قال وحلف لا يبرح من موضعه حتى يغنى فى هذا الشعر وشرب عليه ففعلنا ذلك ولم
نزل نغنى الى الليل اه وعقد فى هذه السنة يعنى السنة التى تولى الخلافة فيها لولده الحكم

وعثمان البيعة من بعده وجهلها ولي عهده أحدهما بعد الآخر وجعل الحكم مقدما
وكتب بذلك الى الاتفاق وجعل يتنسم خبر أولاد الحسين بعد خروج زيد بن علي وقتله في
خلافة هشام عه * فلما كانت سنة خمس وعشرين جاء الخبر الى الوليد بالقبض على يحيى
ابن زيد بن علي بن الحسين بخراسان وقد كان هرب اليها بعد موت أبيه زيد وسار منها الى
بلخ محتفيا فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود فكتب الوليد يأمره أن يؤمنوه ويخلوا
سبيله وسبيل أصحابه فأطلقوهم فساروا الى نيسابور وبها عمرو بن زرارة وكان مع يحيى
سبعون رجلا فرأى يحيى تجارا وجماعة من أبناء السبيل فسلبهم متاعهم وأخذ هو وأصحابه
دوابهم وطلق بالجوزجان فسار في أثره سالم بن أحوز فلحقه بها فقاتله قتالا شديدا فقتل
أصحاب يحيى عن آخرهم وأصاب يحيى بسهم في جبهته فاحتزوا رأسه وسلبوه قميصه وصلبوا
جثته بالجوزجان * قال صاحب الكامل فلم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراساني
واستولى على خراسان فأنزله وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه في خراسان وأخذ أبو
مسلم ديوان بن أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى فمن كان حيا قتله ومن كان ميتا
خلفه في أهله بسوء وكانت أم يحيى ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية

وكان الوليد يتظاهر بالكفر والزندقة منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف والاهو
قليل الاهتمام بأمر الرعية * قال الحافظ ابن عساكر وغيره انه مكى الوليد في شرب الخمر ولذاته
ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف والاهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكان يضرب
بالعود ويوقع بالطبل ويمشى بالدف وكان قد انتهك محارم الله تعالى حتى قيل له الفاسق وكان
مع ذلك أكمل بنى أمية أدبا وفصاحة وطرفا وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث وكان جوادا
مفضالا ولم يكن في بنى أمية أكثر ادمانا للشرب والسماع ولا أشد مجونا وتهسكا واستخفافا لأمر
الامة من الوليد المذكور * ويقال انه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنون بالصلاة
فخلف أنه لا يصلي بالناس الا هي فلبست ثيابه وتكرت وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى قال
ويقال انه اصطنع بركة من خرف كان اذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى يبين النقص
في أطرافها اه * ولما أكثر مجونه وزاد حبه وولوعه للعاقرة وشرب الخمر واتيان المنكرات
والاستخفاف بأمر الرعية قام عليه أهل دمشق واجتمعوا على خلعه وبابعوا ابن عمه يزيد بن
الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص فخرج عليه يزيد وتغلب على دمشق وكان الوليد يومئذ
بناحية تدمر في الصيد فجهز يزيد عسكرا وسار بهم نحوه فحاربوه الى أن أحاطوا به بحصن البحرة
من أرض تدمر وشدوا في القتال وأخذوا عليه جميع الطرق وتسوروا عليه وذبحوه وأتوا
برأسه على رمح فأمر به يزيد فنصبوه على سور دمشق * وقيل لما حصره أصحاب يزيد هم
أصحابه بالقتال فنهأهم عن ذلك فأفلتوا من حوله فدخل عليه أصحاب يزيد في قصره فقال يوم
كيوم عثمان فليل له ولا سواء فقطع رأسه وطيف به في دمشق ثم نصب على قصره ثم على

أعلى سور دمشق * وكان أكثر الناس بغضا إليه وأكبرهم حقدا عليه أهل اليمن فسعوا
في قتله وأغروا به يزيد حتى ركب عليه وقتله * وقال حنظل بن بيشر في الوليد
وصلت سماء الضرب بالضرب بعدما * زعمت سماء الضرب عنا ستمقطع
فليت هشاما كان حيا يسومنا * وكما كنا نرجى ونطمع
وقال أيضا

يا وليد انلنا تركت الطريقا * واضحا وارتيكبت فجاء عبقا
وتعديت واعتديت وأسرفت * ت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهاتي * ثم هاتي حتى تختر صعيقا
أنت سكران ما تفيق فإثر * تق فنقا وقد فنقت فتوقا

وحكي الماوردي في كتاب أدب الدين والدنيا عن الوليد بن يزيد المذكور أنه تفاعل
يوما في المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فزق المصحف وأنشأ
يقول

أنوعد كل جبار عنيد * فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ماجئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقني الوليد

قال فلم يلبث إلا أياما فليمة حتى قتل شرفقتة وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى
سور بلده اه قتل في جمادى الاولى سنة ست وعشرين ومائة وكانت خلافته سنة واحدة
وقبل سنة وشهرين وبموته اضطربت الامور واختل نظام البلاد واضطربت نار الفتن واستنصر
علي بن أمية أعداؤهم فزال هيبتهم وذبلت شوكتهم فلم تقم لهم قائمة بعده كما سيذكر في محله *
ومع ما اشتهر به الوليد من الزندقة والتظاهر بالمنكرات فقد كان له محاسن أخرى فما نقل عنه
من حسن الكلام ما قاله لما مات مسلمة بن عبد الملك لهشام وهو جالس للعزاء فقد أتاه
الوليد المذكور وهو نشوان يجتر مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال يا أمير المؤمنين ان
عقبى من بقى لحوق من مضى * وقد أفقر بعد مسلمة الصيد لمن رعى * واختل الثغر فهو
وعلى اثر من سلف * يعضى من خلف * فتزودوا فان خير الزاد التقوى اه فأعرض هشام ولم
يحر جوابا فسكت القوم فلم ينطقوا * قيل وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه
عنه وقالوا انه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح * وكان من قتيان بنى أمية ونظر فائهم
وشجعائهم وأجوادهم وأشدائهم وله شعر جيد للغاية لاسيما في النحر والغزل والعتاب وقد أخذ
كثير من الشعراء معانيه في وصف النحر فسرقوها وأدخلوها في أشعارهم وخاصة أبا نواس
فانه أكثرهم أخذها لها * قال المدائني دخل ابن النعمان بن يزيد أخى الوليد على الرشيد فقال له
من أنت فقال من فريش قال من أيها فامسك فقال قل وأنت آمن ولو أنك مروان فقال أنا
ابن النعمان بن يزيد فقال رحم الله عمك الوليد واعن يزيد الناقص فانه قتل خليفة بجعا عليه
ارفع حوائجك فرفعها فقضاهما

وفي أيامه انتقض القبط بصعيد مصر من جور العمال وشقوا عصا الطاعة ف وقعت الحرب بينهم وبين الجند المرابط بمصر واقتتلوا أياما كثيرة فقتل خلق ثم خرج يحنس القبطي وكان من حقول زمانه وبكار القوم وعظماهم في مدينة سمند فحارب العمال وقتلهم قتالا عنيفا ودامت الفتنة أياما كثيرة اشتد فيها المسلمون على النصارى شدة بالغة وطال الاخذ والرد وعمت الصعيدين ثم انجلت بموت يحنس المذكور وخلق معه فكانت فتنة عظيمة للغاية على جميع النصارى وموت الوليد بن يزيد تولى الخلافة بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(الفصل الثاني عشر)

(في خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالامر بعد الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك ببيع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه الوليد سنة ست وعشرين ومائة هجرية أي سنة ثلاث وأربعين وسبعائة ميلادية وهو أول خليفة كانت أمه أمة وكان بنو أمية يتحززون ذلك تعظيما للخلافة ولما سقط اليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة أمه أمة كانوا يتخوفون من ذلك إلى أن ولي الخلافة الوليد بن يزيد فعلموا أن ملكهم قد انتفض * وكان يزيد المذكور يسمى الناقص وانما سمي بذلك لأنه نقص أعطيات الناس وردتهم إلى ما كانوا عليه أيام هشام وقيل لنقصان كان في أصابع رجله وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد * ولما تولى الخلافة خطب الناس فذم الوليد وذكر الخادم وأنه قتله لفعله الخبيث ثم قال * أيها الناس ان لكم علي أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة ولا اكنرى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيته زوجة وولدا ولا أنقل مالا عن بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ولا أجركم في ثغوركم فأفتنكم ولا أغلق بابي دونكم ولا أجعل على أهل جريتكم ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم فان وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة وان لم أف فلكم أن تخلعوني الا أن أتوب وان علمت أحدا ممن يعرف بالصلاحي يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم وأردتم أن تبابعوه فأنا أول من يبابعه أيها الناس لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق اه

وأقام يزيد في الخلافة والامور مضطربة عليه اذ قامت الفتنة على ساقها وهاجت وخرج أهل حص واختلاف أهل فلسطين ووثبوا على عاملهم ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان قد حبسه لوليد بها فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الاموال وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد ويسبهه وخرج أهل اليمامة أيضا على عاملهم يوسف ابن عمر واقتتلوا واشتد الاضطراب وعم الخلل ولم تكن تستقر به الخلافة حتى مرض في سنة ست وعشرين ومائة هجرية فلما علم بجاعة القدرية وهم شيعته بمرضه دخلوا عليه وما زالوا

به حتى رسم بالبيعة لآخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ومات لعشر
بقين من ذى الحجة وقيل في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجرية وهو
ابن أربعين سنة وقيل ست وأربعين وقيل سبع وثلاثين سنة فكانت خلافته ستة أشهر
وليلتين وقيل ستة أشهر واثنى عشر يوما وقيل خمسة أشهر واثنى عشر يوما وكان موته
بدمشق وكان يظهر النفسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع
قال الشافعي ولي يزيد بن الوليد فدعا الناس الى القدر اه وهو أول من خرج بالسلاح يوم
العيد خرج بين صفين يحملون السلاح وكان آخر ماتكم لما احتضر واحسرتاه وأسفاه
ولما مات تولى الخلافة بعده أخوه ابراهيم بن الوليد

(الفصل الثالث عشر) (في خلافة ابراهيم بن الوليد)

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه ابراهيم بعهد من يزيد ببيع له بالخلافة في اليوم الذي مات
فيه أخوه سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبع مائة لليلاد ولم
يثبت له الامر لاضطراب الأمور ووقوع الخلاف فكان جعة يسلم عليه بالخلافة وجعة
بالامارة وجعة لا يسلم عليه لابلخلافة ولا بالامارة وما زالت الامور مضطربة والفتنة تمتد
لهيها من بلد الى آخر الى أن قتله مروان بن محمد وصلبه وكان مروان المذكور واليا على
الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان ولاء عليها الوليد خوفا من خروجه عليه فقد كان
حضر في جيش عظيم لقتال الوليد وردّه عن الملك ولم يبايعه حتى ولاء ما ذكر نخرج في
ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وأهل قنسرين وأهل حص فسير لقتالهم ابراهيم بن الوليد جندا
من دمشق مع سليمان بن هشام فنزل عين الجرف في مائة وعشرين ألفا ونزلها أيضا مروان في
ثمانين ألفا ودعاهم مروان الى الكف عن قتاله واطلاق ابني الوليد الحكم وعثمان من
السجن وضمن لهم أنه لا يطلب أحدا من قتلة الوليد فلم يجيبوه الى شئ من ذلك وجدوا في
قتال بعضهم وكثر القتل بينهم واشتد فأنهزم أصحاب سليمان بن هشام ووضع أهل حص
السلاح فيهم فقتلوا منهم خلفا كثيرا وأتوا مروان من أسرائهم بمنال القتلى فأخذ مروان عليهم
البيعة لولدى الوليد الحكم وعثمان وكلنا معتقلين وهرب سليمان بن هشام مع من بقي
واجتمعوا مع ابراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض ان بقي ولدا الوليد حتى
يخرجهما مروان ويصير الامر اليهما لم يستبغيا أحدا من قتلة أبيهما فأمرهما بقتلهما وأخرج
يوسف بن عمر فضربت عنقه وأرادوا قتل أبي محمد السفيفاني فدخل بيتا من بيوت السجن
وأغلقه فلم يقدرُوا على فتحه فأرادوا احراقه فلم يؤتوا بالنار لاحراقه حتى قيل قد دخلت

خيل مروان المدينة فهربوا واختفى ابراهيم وانتهب مروان مافي بيت المال فكان شياً كثيراً
وكانت خلافة ابراهيم شهرين وعشرة أيام فبايع الناس مروان على ماسيد كرفي محله
واستوثق له الامر قبل ظهور ابراهيم بن الوليد ودخل عليه ونزل له عن الخلافة وذلك سنة
سبع وعشرين ومائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وسبعمائة ميلادية * واستعمل على مصر
في خلافته حسان بن عتاهية الخبيبي ثم عزله وأعاد حفص بن الوليد فبقى الى أن عزل في
سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية

(الفصل الرابع عشر) (في خلافة مروان بن محمد)

لما قتل ابراهيم بن الوليد بويع مروان بن محمد المنبوز بالبحار بالخلافة سنة ست وعشرين
ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية * وتحرير الخبر أنه لما دخل مروان
دمشق وهرب ابراهيم بن الوليد ومن معه كما تقدم القول نار من بدمشق من موالى
الوليد الى دار عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوا الحجاج ونهبوا قبر يزيد بن الوليد
وأخرجوا جثته وصلبوها على باب الجابية وكبرت القسنة وأتى مروان بولدى الوليد الحكم
وعثمان مقتولين وببوسف بن عمر فدفنهم وأخرج محمد السفيناني من محبسه يجر في قيوده
فلما وقف السفيناني بين يديه سلم عليه بالخلافة وقد كان يسلم على مروان الى ذلك اليوم
بالامرة فأسكنه مروان فقال محمد السفيناني انهما جعلها لك بعدهما * قال صاحب الكامل
وأنشده شعرا قاله الحكم

ألا من مبلغ مروان عني * وعمى الغر طال به حيننا
بأنى قد ظلمت وصار قومي * على قتل الوليد مشايعينا
أبذهب كلهم بدمى ومالى * فلا غمأصبث ولا سميننا
ومروان بأرض بنى نزار * كالمث الغاب مفترس عريننا
أنتكث بيعتى من أجل أحمى * فقد بايعت قبل هجيننا
فان أهلاك أناولى عهدى * فروان أمير المؤمنيننا

ثم قال مروان أبسط يدك أبايعك وسمعه جميع من حضر فكان أول من بايع معاوية
ابن يزيد بن حصين بن ثمر وعظماء أهل حص والناس بعدهم فلما استقر له الامر رجع الى
أهله بجوران فتقدم اليه جماعة في طلب الأمان لابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمتهما
فقدما عليه وبايعاه كما تقدم القول * ولم تستقر به الخلافة حتى ظهر الاضطراب وظهر عبد
الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا الناس الى نفسه وتغلب

على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والرى وكثرت لمومه وخرج اليه عبيد أهل الكوفة وانتقض أهل حص فقاتلهم مروان ودخل حص وأعمل في أهلها السيف وهدم من سورها نحو غلوة وخالف أهل الغوطة فحصرها ودمشق ومقدمهم يومئذ يزيد بن خالد فسير اليهم مروان عشرة آلاف من حص فقاتلوهم قتالا شديدا وأخذوا مقدمهم يزيد بن خالد المذكور فاحتزوا رأسه وبعثوا به الى مروان بجمص * واختلف أيضا أهل فلسطين وانتقضوا فسير لهم مروان عسكريا ومقدمهم أبو الورد فقاتلوهم وشد أبو الورد في قتالهم حتى هزمهم وجاء مروان الخبر وهو يومئذ بدير أيوب ففرح بذلك وبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك * قال أصحاب التاريخ فجمع لذلك بني أمية واستقام له الشام ما خلا تدمر فسار اليها وأرسل من يقاتلها فاستأمن من بها بعد القتال وهدم سورها * وأرسل مروان الى الشام بعد ذلك في طلب الجند لقتال الضحالك بالعراق وقد كان خرج عن طاعة مروان وتقدم مروان الى قرقيسيا فبينما هو بها اذ رجع عشرة آلاف عن كان أخذهم من أهل الشام لقتال الضحالك فنزلوا بالرصافة وحببوا الى سليمان بن هشام بن عبد الملك خلع مروان بن محمد ومنوه بالخلافة ان هو فعل ذلك فأجابهم وسار باخوته ومواليه معهم فمسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأنوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان فرجع اليه من قرقيسيا واجتمع الى سليمان بن هشام نحو من سبعين ألفا من أهل الشام وغيرهم وعسكر بقريه خساف من أرض قنسرين فجاء مروان عند وصوله واقتتلوا قتالا شديدا فانهمز سليمان ومن معه واتبعهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم فبلغ قتلى أصحاب سليمان زهاء ثلاثين ألفا وقتل ابراهيم بن سليمان وأكبر ولده ومضى سليمان حتى دخل حص وانضم اليه من بقي من عسكره فتحصن بهاورم ما تخرب من أسوارها فتبعه مروان وقاتله فهزمه فخرج سليمان ومضى الى تدمر فأقام بها ونزل مروان على حص فحاصر أهلها عشرة أشهر قال أصحاب التاريخ ونصب عليهم نيفا وثمانين منجنيقا يرمى بها الليل والنهار فلما تابعت عليهم البلاء طلبوا الامان فأتمتهم

وفي خلال هذه الخطوب والحروب ظهر أبو مسلم الخراساني وهو عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية بخراسان وظهر السفاح بالكوفة فلما استقر للسفاح الامر وظهرت آثار الدعوة لبني العباس على ما سنده في محله ان شاء الله جهز السفاح عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل وجعل كل فريق يرتب عسكره ويبالغ في ترتيبها فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز يا عبد العزيز ان زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كما الذين ندفعها الى المسيح عليه السلام وان قاتلونا فأقبل الزوال فانا لله وانا اليه راجعون * وأرسل مروان الى عبد الله بن علي مقدم عسكر السفاح يسأله المواعدة فقال عبد الله كذب ابن رزيق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل ان شاء الله فقال مروان لاهل الشام

فقالوا لا تبذروهم بالقتال وجعل ينظر الى الشمس فحمل الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ختن مروان بن محمد على ابنته فغضب مروان من ذلك وشتمه وأمر عبد الله الناس بان ينزلوا عن خيلهم فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب ولم يظهروا عزما على القتال فاندفع عليهم أصحاب مروان وقاتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون فنادى عند ذلك عبد الله بن علي يا أهل خراسان يا ثنات ابراهيم يا محمد يا منصور واشتد بينهم القتال وحى الوطيس وضعفت همم أصحاب مروان وتثاقلوا عن القتال فكان مروان ذلك اليوم لا يدبر شياً الا كان فيه انخلل وانفشل عسكره فشلا عظيماً وانهمزوا وانهمز مروان وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ عند عبور ذلك الجسر أكثر من قتل * وكتب عبد الله بن علي الى السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فكان فيه من السلاح والكرار والاموال شياً كثيراً للغاية فلما وصل الكتاب الى السفاح فرح فرحاً لا يوصف وخر ساجداً لله تعالى وأمر لمن شهد الواقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم الى ثمانين * ولما تمت هزيمة مروان تبعه عبد الله الى أن وصل نهر الاردن فلقى جماعة من بني أمية وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً فقتلهم عن آخرهم ثم أمر عبد الله بسحبهم فسحبوا وبسط عليهم بساط وجلس هو وأصحابه فوقهم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحته فقال عبد الله يوم كيوم الحسين ولا سواء ولما رأى مروان اشتداد الفتنة واستفحال الخطب وان الاعداء كادوا يطبقون عليه من كل جانب وكان قد نزل بجوران قام منها قاصداً أباعون عبد الملك بن يزيد الاسدي الذي ولاه السفاح على شهرزور فلافاه جند عبد الله بن علي العباسي فمضى في أشهر أمة بالموصل فرأى الرايات سوداً وهي رايات العباسيين فذهب الى حوران وأقام نيفاً عن عشرين يوماً حتى دنا منه عسكر السفاح فسار الى حصن ثم الى دمشق ثم الى فلسطين وكان السفاح قد كتب الى عمه عبد الله فبعه عبد الله الى دمشق وجهاز السفاح أيضاً عمه صالح بن علي على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نزل دمشق وفتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبد الله سورها فلم يبق فيه حجارة على حجر وهرب مروان الى مصر فبعه صالح بن علي ومروان ينهمز أمامه حتى أدركه أبوعون وجماعة أصحاب صالح بعد حين في كنيسة بأبي صير من صعيد مصر وقد تبددت أصحابه ولم يبق معه الا القليل جداً فقاتلوه ليلاً وكان أصحاب صالح قليلين يخافوا ان هم أصبحوا ورأوا أصحاب مروان قتلهم أهليهم فقتلواهم فقتلوا على القتال ليلاً وكسروا أجفان سيوفهم وجعلوا على أصحاب مروان فانهمزوا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه وصاح صائح صرعى أمير المؤمنين فابتدروه واحتزوا رأسه وبعثوا به الى صالح فلما وصل اليه أمر أن يقص لسانه فقطعوا لسانه وتركوه لحظة لطيفة فأنت هرة فأخذته فقال صالح ماذا ترىنا الايام من العجائب والعبر هذا لسان مروان قد أخذته هرة وذلك في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية وقيل ثلاث وثلاثين ومائة أي نحو سنة خمسين وسبع مائة ميلادية وهو ابن ست وخمسين سنة فكانت خلافته خمس سنين وشهرين وعشرة

وعشرة أيام وهو آخر خلفاء بني أمية فكانوا أربعة عشر خليفة أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان الجعدي المنبوز بالحار وكانت مدة خلافتهم نيفا وثمانين سنة وهي ألف شهر * ورجع صالح الى الشام ومعه رأس مروان وخلف أبا عون بمصر فلما رفع صالح رأس مروان الى السفاح سجد لله شكرا * وذكر أنه بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل عن فرسه لحاجة طبيعية فرجع الفرس الى الوراء فظن عسكره أنه قتل فوقع فيهم الخوف وانفشلوا وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلاً فقيلاً * انتهى ملك بني أمية ببولة * ولما قتل مروان هرب ولده عبيد الله وعبد الله الى أرض الحبشة فقتل عبيد الله قتله الحبشان ونجا عبد الله في عدد من أصحابه وبقي الى خلافة المهدي حتى قبض عليه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين وبعث به الى المهدي * وكان مروان المذكور بطلاً شديداً شجاعاً ذاهبية أبيض ربعة أشمل ضخماً كث اللحية وكان حازماً سياسياً واستعمل على مصر في خلافته الحوثة بن سهيل الباهلي ثم ولي بعده المغيرة بن عبيد الفزاري سنة إحدى وثلاثين ومائة ثم ولي عبد الملك بن مروان مولى نخم سنة ثنتين وثلاثين ومائة فلما قامت الدولة العباسية واستقام الامر للسفاح على ما سيذكر في محله وانهم مروان الحار وهرب الى مصر ولي السفاح نيابة الشام ومصر صالح بن علي بن عبد الله بن عباس فسار صالح بعد قتل مروان الى الشام واستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الاسدي كما تقدم القول

(فصل)

(في كيفية الدعوة لبني العباس وفي ظهور دولتهم)

لما كان ظهور الدولة العباسية من الاهمية التاريخية بمكان لاسيما وفي ذكر حوادث ذلك الظهور وأصل الدعوة لبني العباس وما ترتب عليها تذكرة وعبرة رأيت أن لأبأس بإيراد تفصيلها هنا اظهاراً لأصل الدعوة وكيف كان كتمانها بين الاحزاب أعواماً مع كثرة الدعاة وتختلفهم على الناس * قال أصحاب التاريخ لما كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس نازلاً بأرض الشراء من أعمال البلقاء بالشام خرج أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الى الشام يريد لقاء سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المذكور فأحسن صحبته واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه في لبن فلما أحس أبو هاشم بذلك قصد الحجة وبها محمد بن علي بن عبد الله المذكور فنزل عليه فأخبره بخبره وأعلمه أن أمر الخلافة صائر الى ولد محمد بن علي بن عباس المذكور وعرفه ما يعمل وأوصاه بكتمان الامر

وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم اليه أن أمر الخلافة صائر إلى ولد محمد بن علي وأوصاهم بقصد به بعده * فلما مات أبو هاشم قصدت شيعته محمد بن علي وبايعوه وعادوا فدعوا الناس اليه فأجابوهم وسير محمد بن عبد الله إلى الآفاق جماعة فوجهه ميسرة إلى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار وخال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان وعليها الجراح الحكمي وأمرهم بالدعاء اليه وإلى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علي فدفعوها إلى ميسرة فبعث بها ميسرة إلى محمد بن علي ففرح بها واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيبا وسبعين رجلا آخر فكتب لهم محمد بن علي كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها وذلك سنة مائة للهجرة فعملوا به وجعلوا يدعون الناس فظهر أمرهم بخراسان فجاء رجل إلى سعيد بن خزاعة عامل خراسان فقال له إن ههنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح وأعلمه حالهم فبعث سعيد اليهم فأتى بهم فقال من أنتم قالوا ناس من التجار قال فما هذا الذي يحيى عنكم قالوا لا ندري قال جئتم دعاة قالوا إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فقال من يعرف هؤلاء فجاء ناس من أهل خراسان أكثرهم من أهل ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شيء تذكره نفلي سبيلهم فظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة إلى محمد بن علي وابن خزاعة لاه عنهم

فلما كانت سنة أربع ومائة هجرية ولد (أبو العباس عبد الله) بن محمد بن علي بن محمد بن علي في ربيع الآخر وهو السفاح وجاء إلى أبيه محمد بن علي (أبو محمد الصادق) من خراسان في عدة من أصحابه فأخرج اليهم محمد بن علي ولده أبا العباس المذكور في خرقة وله خمسة عشر يوما وقال لهم هذا صاحبكم الذي يتم الأمر على يده ففرحوا به وقبلوا أطرافه وقال لهم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى تدركوا ناركم من عدوكم * قالوا وكان أول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان في ولاية أسيد بعث به محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس وقال له انزل في اليمن والطف بعصرونها عن رجل بنيسابور يقال له غالب لأنه كان مفرطاً في حب بنى فاطمة ويقال أول من أتى خراسان بكتاب محمد بن علي حرب بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة من أهل بلخ فلما قدم زياد دعا إلى بنى العباس وذكر سيرة بنى أمية وظلمهم وأطعم الناس الطعام فقدم عليه غالب من نيسابور فتنظروا في تفضيل آل علي وآل العباس ثم افترقا وأقام زياد عروشته فكان يتخلف اليه من أهلها جماعة فعلم أسيد بخبره فدعاه وقال ما هذا الذي بلغني عنك قال الباطل إنما قدمت إلى تجارة وقد فرقت مالي على الناس فإذا اجتمع خرجت فقال له أسيد أخرج عن بلادى فانصرف من عنده وعاد إلى ما كان عليه من دعوة الناس فرفعوا أمره إلى أسيد ثانية وخوفوه من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة ولم ينج منهم الا صغيران

وقيل بل أمر بزياد أن يوسط بالسيف أى يقطع نصفين فضر به بالسيف فلم يعمل فيه
فكبر الناس فقال أسيد ما هذا قيل نبا السيف عنه ثم ضرب أخرى قنبا السيف
عنه ثم ضربه الثالثة فقطعه اثنتين وعرض البراءة على أصحابه فمن تبرأ خلى عنه وذلك قبل
الاضحى بأربعة أيام * فقام بالامر بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيرا فنزل على
أبي النجم فكان يأتي اليه كل من تبع مقالة زياد وبقي على هذا الحال سنة أو سنتين *
واشمند ابن أسيد والى خراسان على من بها من الاحزاب فقتل وجلد وحبس منهم خلقا
ووجه بكير بن ماهان في نحو سنة ثمان عشرة ومائة هجرية عمار بن يزيد واليا على شيعة
بنى العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى بخداس ودعا الى محمد بن علي فتسارع اليه الناس
وأطاعوه فلما ظهرت كلمته غير مادعاهم اليه وأظهر دين الخيرية ورخص لبعضهم في نساء
بعض وقال لهم انه لا صوم ولا صلاة ولا حج والقصد اليه وكان يتأول بعض آيات القرآن وكان ممن
اتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم الاعمى وغيرهما فأخبرهم أن محمد بن
علي بن عبدالله بن العباس أمر بذلك فبلغ خبره أسيد بن عبدالله والى خراسان فظفر به
فأغلظ القول لأسيد فقطع لسانه وسمل عينيه ثم صلبه * وكان لما ظهر أمر خداس
المذكور وأطاعه من أطاعه من الاحزاب بخراسان أهمل محمد بن علي بن عبد الله أمرهم
وترك مكاتبهم وحراساتهم فلما قتل خداس وجهوا اليه سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم وماهم
عليه فعنفه محمد في ذلك ثم صرفه الى خراسان ومعه كتاب مختوم فلما فضوه لم يروا فيه الا
بسم الله الرحمن الرحيم فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خداس لأمره ثم وجه اليهم بكير بن
ماهان بعد ذلك وكتب معه اليهم يعلمهم كذب خداس فلم يصدقوه واستخفوا به فعاد بكير الى
محمد فبعث معه بعض مضببة بعضها بمحديد وبعضها بخمسة بكير النقباء والشيعة
ودفع الى كل واحد منهم عصا فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فتباؤا ورجعوا

وما زال السر مكتوما والدعوة الى ولد العباس جارية والنقباء يعملون على جمع القلوب
واستمالة الناس حتى كانت سنة تسع وعشرين ومائة هجرية ظهر أبو مسلم الخراساني فكان
تمام الامر على يديه * قال جماعة الكتاب وأبو مسلم هذا هو ابراهيم بن عثمان بن بشار بن
سدوس بن جودزده من ولد بزرجهر الفارسي ويكنى أبا اسحق ولد باصهان ونشأ بالكوفة
وكان أبوه أوصى الى عيسى بن موسى السراج فحمله الى الكوفة وهو ابن سبع سنين وقال
بعضهم انه من أهل ضياع بنى معقل العجيلة باصهان أو غيرها من الجبل وكان اسمه ابراهيم
ويلقب حيمان وكان مع أبي موسى السراج صاحبه يخز الآعنة ويعمل السروج وله معرفة
بصناعة الأدم والسروج فكان يحملها الى اصبهان والجبيل والجزيرة والموصل ونصيبين وآمد
وغیرها يتجر فيها فاتصل بابراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الامام أحد الأئمة الاثني
عشر من ولد العباس فتخيل فيه النجابة والفتوة وتحقق أن الامر يتم على يديه لبني العباس

فقال له غير اسمك فانه لا يتم لنا الامر الا بتغيير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم وبكفي
أبا مسلم وكان له من العمر يومئذ تسع عشرة سنة ثم زوجه ابراهيم الامام ابنة عمران بن
اسماعيل الطائي المعروف بأبي النجم وهي بخراسان مع أبيها فبنى بها أبو مسلم بخراسان وولدت
له ابنتين فاطمة وأسماء وفاطمة هي التي تذكرها الخرمية في مذهبيهم الذي دعاهم اليه خدش
* قال ابن خلكان ونشأ أبو مسلم عند عيسى بن معقل بن عمير أخى ادريس بن معقل جسد
أبي دلف العجلي برستاق فابق فلما ترعرع اختلف مع ولده الى المكتب فخرج أدبيا ليبدأ بشار
اليه في صغره ثم انه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه ادريس بقايا من الخراج تقاعدا من
أجلها عن حضور مؤدى الخراج باصهبان فأخفى عامل اصهبان خبرهما الى خالد بن عبدالله
القسري والى العرافين فأنفذ خالد من الكوفة من جلهم الى بعد قبضه عليهما فتركهما خالد
في السجن فصادفا فيه عاصم بن يوسف العجلي محبوبا بسبب من أسباب الفساد وقد كان
عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم الى قرية من رستاق فابق لاحتمال غلثها
فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ما كان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده
من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل فأنزله عيسى بداره في بني عجل وكان يختلف الى السجن
ويتعهد عيسى وادريس ابني معقل وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الامام محمد بن
علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مع عدة من الشيعة الخراسانية فدخلوا على
العجليين السجن فصادفوا أبا مسلم عندهم فأعجبهم عقله ومعرفة وكلامه وأدبه ومال
هو اليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة واتفق مع ذلك أن هرب عيسى وادريس من السجن
فعدل أبو مسلم من دور بني عجل الى هؤلاء النقباء ثم خرج معهم الى مكة حرسها الله تعالى
فأورد النقباء على ابراهيم بن محمد الامام وكان قد تولى الامامة بعد وفاة أبيه عشرين ألف دينار
ومائتي ألف درهم وأهدوا اليه أبا مسلم فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه وقال لهم هذا عضلة
من العضل وأقام أبو مسلم عند الامام يخدمه حضرا وسفرا ثم ان النقباء عادوا الى الامام
وسألوه رجلا يقوم بأمر خراسان فقال اني جربت هذا الاصهباني وعرفت ظاهره وباطنه
فوجدته حجر الارض ثم دعا أبا مسلم وقلده الامر وأرسله الى خراسان فكان من أمره ما كان
وكان ابراهيم الامام قد أرسل الى أهل خراسان سليمان بن كثير بن الحراني يدعوهم الى أهل
البيت فلما بعث أبا مسلم أمر من هناك بالسمع والطاعة وأمره أن لا يخالف سليمان بن
كثير فكان أبو مسلم يختلف ما بين ابراهيم وسليمان اه

ويقال ان أبا مسلم المذكور ولد بمدينة جى الاصبهانية وكان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة
لتسع بقين من رمضان سنة تسع وعشرين ومائة والوالى بخراسان يومئذ نصر بن سيار اللثي
من قبل مروان بن محمد المنبوز بالحجاز آخر خلفاء بني أمية فكاتب نصر يومئذ الى مروان
يقول

أرى جسدنا ان يثنى لم يقور يرض * عليه فبادر قبل أن يثنى الجذع

وكان مروان يومئذ مشغولا عن أبي مسلم بغيره من خرج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتاب نصر بن سيار ولم يكن أبو مسلم يومئذ الا في خسين رجلا فكتب نصر ثانية الى مروان يقول

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالزئدين تورى * وان الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري * أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام

فلم يرد عليه الجواب ولما علم مروان بخبر ابراهيم الامام وتخلف الناس اليه وتفرجهم منه سير رجلا للقبض عليه ووصف له صفته وهى صفة أبي العباس لأنه كان يسمع أن في الكتب أن من كانت هذه صفته يفتنهم ويسلمهم ملكهم * قال ابن أشعث قال خالد بن يزيد ابن معاوية لعبد الملك بن مروان أما اذا كان الفتى من سجستان فليس عليك منه بأس انما كنا نقصوف لو كان من خراسان يعنى حيث غلب أبو مسلم * وقال محمد بن علي بن عبدالله لنا ثلاثة أوقات موت الطاغية يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتى افريقية فعند ذلك يدعونا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيلهم ويستخرجون ما كنز الجبارون اه وقال مروان لرسوله ان اسم الذى قبض عليه ابراهيم بن محمد فلما وصل الرسول أخذ أبا العباس بالصفة التى قال له عنها مروان وقد كان ابراهيم محتفيا فظهر وأمن جانب الرسول فقال جماعة لرسول مروان انك انما أمرت بالقبض على ابراهيم وهذا الذى قبضت عليه عبدالله فأخذ الرسول بتولهم وخلي عن أبي العباس وقبض على ابراهيم فانطلق به الى مروان وتحقق ابراهيم أنه مقتول فعنى نفسه الى أهل بيته وأمرهم بالمسير الى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبد الله وبالسمع له والطاعة وأوصى الى أبي العباس وجعله الخليفة بعده فسار أبو العباس بمن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة في صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة * ولما وصل رسول مروان ومعه ابراهيم دخل به على مروان فقال مروان ليست هذه الصفة التى وصفت لك فقال هذا ابراهيم الذى سميت فأمربه مروان فبسوه وأعاد جماعة أخر في طلب أبي العباس

وكان من تمام حظ أبي مسلم وقوع الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان على مرو فسير أبو مسلم النقباء الى طخارستان فما دون بليخ ومرو الروذ والطالقان وخوارزم يدعون الناس الى طاعة بني العباس وقال لهم ان أعجلكم عدوكم دون الوقت بالاذى والمكره فقد حل لكم أن تدفعوا عن أنفسكم وتجتردوا السيوف وتجاهدوا أعداء الله ومن شغله منكم عدوه عن الوقت فلا حرج عليكم أن تطهروا بعد الوقت * وكان قد اشتدت الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان وقامت الحرب بينهما وحى وطيسها فاشتدت

عزيمة أبي مسلم وبث دعائه بين الناس وأظهر أمره بالاحتشاش فأثناء في ليلة واحدة أهل ستين قرية فلما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من السنة أي سنة تسع وعشرين ومائة عقد الاسواء الذي كان الامام بعث به الذي يسمونه الظل على ربح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * وابسوا السواد هو وسليمان ابن كثير واخوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سفينجج وأوقدوا النيران ليلتهم تلك لشيعتهم وكانت علامتهم فتجمع اليه الناس حين أصبحوا معدتين فقال لهم اني مؤول لكم الظل والسحاب * ان السحاب يطبق الارض وان الارض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسي الى آخر الدهر ففرحوا بمقاتله واشتدت عزائمهم وقدم على أبي مسلم الدعاء عن أجاب الدعوة فكان أول من قدم عليه أهل التقادم مع أبي الوضاح في تسعمائة راجل وأربعة فرسان ومن أهل هرمز قره جماعة وقدم مع أبي القاسم محرز بن ابراهيم الجوباني ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارسا ودخلوا جميعا الى معسكر أبي مسلم وهم يصيحون بأصوات التهليل والتكبير وكان أبو مسلم قد عسكر بسفينجج فلما رأى هذه الجوع فرح بها وحسن حصن سفينجج ورمه وسد دروب سفينجج ولبث على هذا الحال الى يوم عيد الفطر فأمر أبو مسلم في ذلك اليوم سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعنة صلاة العيد ونصب له منبرا بالعسكر ورسم له أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة * قال بعض الكتاب وكان بنو أمية يبدؤون بالخطبة قبل الصلاة وبالأذان والاقامة * ورسم له أيضا بست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن وكان بنو أمية يكبرون في الاولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة نهض أبو مسلم والشيعنة الى طعام قد أعد له فأكوا فرحين مسرورين * ولم يعض الا القليل حتى خرج الكرماني ونصر الى القتال في واقعة يقال لها واقعة الخندق فافتتلوا قتالا شديدا فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثنى صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب الى أصحاب الكرماني يذم أصحاب نصر وإلى أصحاب نصر يذم أصحاب الكرماني حتى صار هوى الفريقين معه وأقبل حتى نزل بين خندق الكرماني وخندق نصر فهابه الفريقان وبعث الى الكرماني يقول له اني معك ففرح الكرماني بذلك فانضم أبو مسلم اليه فلما علم نصر بذلك أكره جدا وأرسل الى الكرماني يقول ويحك لا تغتر فوالله اني لخائف عليك وعلى أصحابك منه وطال بين الفريقين الاخذ والرد فمال الكرماني الى مقالة نصر وخرج ليكتب كتاب الصلح بينه وبين نصر فأبصر نصر منه غرة فوجه اليه نحو من ثلاثمائة فارس فالتقوا بها واشتد القتال بينهما فقطعن الكرماني في خاصرته نحر عن دابته فأخذه وقتلوه وأمر نصر فصلبوا جنته وصلبوا معها سمكة فانضم حينئذ على بن الكرماني من كان مع أبيه الى عسكر أبي مسلم وقاتلوا نصرا قتالا شديدا وطالت الحرب بين أبي مسلم ونصر بن سيار فكانت

سجالا والدعوة قائمة والاحزاب تكثر واختلفت كلمة العرب وتفرقوا عن قتال أبي مسلم وأصحابه بعد أن كانوا يدا واحدة عليه ثم دخل أبو مسلم الى مرو والقتال قائم فيها بين علي ابن الكرماني وأصحابه ونصر بن سيار ومضى أبو مسلم الى قصر الامارة وأرسل الى الفريقين أن كفوا ولنصرف كل فريق الى عسكره فلم يروا بدا من الكف عن القتال وصفت مرو لابي مسلم فأمر بأخذ البيعة من الجند وكان الذي يأخذها أبو منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء عالما بمحجج الهاشمية ومعائب الاموية وكان النقباء اثني عشر رجلا عديد حوارى المسح اختارهم محمد بن علي من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله الى خراسان سنة ثلاث ومائة وأربع ومائة * وكانت البيعة أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعناق والمشي الى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يتدثكم به ولا تكلم

ووردت الاخبار الى أبي العباس بما صار اليه أمر أبي مسلم وكان يومئذ بالجمعة فهم بالمسير منها الى الكوفة فأعلم أهل بيته بعزمه فوافقوه وخرجوا معه وكانوا أخوه أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد أبناء ابراهيم الامام وأعمامه داود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس وما زالوا حتى قدموا الكوفة فلقبهم أبو سلمة الخلال أحد مقدمي شيعتهم فأنزلهم دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم وكنم أمرهم عن الناس نحو ما من أربعين ليلة فلم يعلم بهم أحد لامن القواد ولا من الشيعة وكان اذا سئل عن الامام أبي العباس يقول لا تجلوا وكان أبو سلمة يميل الى جعل أمر الخلافة في آل أبي طالب ولكنه كان يرى دون ذلك صعوبات وجعل جماعة من الشيعة يترددون على الامام في مخباء ويأترون بأمره حتى اتفق جماعة من القواد على أن يلقوا الامام ويتفقوا معه على ما فيه المصلحة والتظهور بعد هذا الانكماش فساروا اليه ودخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة وعزوه في أخيه ابراهيم الامام ورجعوا فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول فلبسوا السلاح واضطفوا لخروج أبي العباس وأنوا بالدواب فركب أبو العباس وركب من معه من أهل بيته ودخلوا دار الامارة فلبث بها برهة لطيفة ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم صعد المنبر فقال مقالته التي سيأتي ذكرها في محلها * قيل التقي داود بن علي وابنه موسى بأبي العباس وأهل بيته وهم في طريقهم الى الكوفة فسألهم داود عن خبرهم فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة لينظروا بها وينظروا أمرهم فقال له داود بأبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بني أمية مروان بن محمد بجزان مظل على العراق في أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد بن هبيرة بالعراق في جند العرب فقال يا عبي من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الاعشى

فما مية ان منها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غولها

فالتفت داود الى ابنه موسى وقال صدق والله ابن عمك فارجع بنا معه نعش أعزاء
ونعوت كرماء فرجعوا جميعا فكان عيسى بن موسى يقول اذا ذكر خروجهم من الجهمية
يريدون الكوفة * ان نفرا أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا
لعظمة همتم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم اه وتمت البيعة بعد ذلك لأبي العباس على ما
سيدكر في محله

(المقالة الخامسة)

(في الخلفاء العباسيين وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(في خلافة أبي العباس السفاح)

كان أول خلفاء الدولة العباسية السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن
عبد الله بن عباس الهاشمي بويع له بالخلافة في سنة اثنين وثلاثين ومائة يوم الجمعة ثالث
عشر ربيع الأول أي سنة تسع وأربعين وأربعمائة ميلادية وصعد المنبر حين بويع له
فقام في أعلاه وصعد محمد بن داود بن علي فقام دونه فتكلم أبو العباس فقال الحمد لله الذي
اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيد بنا وجعلنا أهله وكهفه
وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له فألزمنا كلمة النقيض وجعلنا أحق بها وأهلها
وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرباته وأنشأنا من آبائنا وأبائنا من شجرة
واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما غننا وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا ينل
عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل
البيت ويطهركم تطهيرا وقال تعالى قل لأسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى وقال وأنذر
عشيرتك الاقربين وقال وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى
وقال واعلموا انما غنم من شيء فان لله خسه وللرسول ولذي القربى واليتامى فاعلمهم جل
ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من النوى والغنيمة نصيبنا تكملة لنا وفضلا
علينا والله ذو الفضل العظيم * وزعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة
والخلافة منا فشاهت وجوههم ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم وبصرهم
بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأنظر بنا الحق ودحض الباطل وأصلح بنا منهم ما كان
فاسدا ورفع بنا الخسيسة ونعم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل

التعاطف والبر والمواساة في دنياهم واخوانا على سرر متقابلين في آخرتهم فتح الله ذلك منة
وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلما قبضه الله اليه وقام بالامر من بعده أصحابه وأمرهم
شورى بينهم حووا مواريت الامم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا
خاصا منها ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها
وظلموا أهلها بما لا الله لهم حينئذ حتى أسقوه فلما أسقوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا
حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليدن بنا على الذين استضعفوا في الارض
وختم بنا كما افتتح بنا واني لارجو أن لا يأتاكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث
جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت الابالله يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا
أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا
وأنا كم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم عليها وقد زدتمكم في أعطياتكم مائة
درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والتائر المنيج اه وكان موعوكا فاشتد عليه الوعل فجلس على
المنبر وقام معه داود على مراقب المنبر فقال * أيتها الناس الآن أقشعت خنادس الدنيا وانكشف
ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم * أيتها الناس الآن أقشعت خنادس الدنيا وانكشف
غطاؤها وأشرفت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبرغه وأخذ
القوس باربها وعاد السهم الى منزعه ورجع الحق في نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة
والرقة بكم والعطف عليكم * أيتها الناس إنا والله ماخرجنا في طلب هذا الامر لنكثر لجينا
ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبني قصرا وإنما أخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا والغضب
لبني عمننا وما كرهنا من أموركم فلقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشند علينا
سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزالهم لكم واستنثارهم بفيثكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم
لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رجه الله علينا
أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول
الله صلى الله عليه وسلم تبا لبني حرب بن أمية وبني مروان آثروا في مدتهم العاجلة على
الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الآثام وانتهكوا المحارم
وغشوا بالجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد وخرجوا في أعنة المعاصي
وركضوا في ميدان الغي جهلا باستمدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بيانا وهم نائمون
فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعد القوم الظالمين وأدانا الله من مروان وقد غره بالله
الغرور أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطاهم أظن عدو الله أن لن نقدر عليه
فنادى حزبه وجع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر
الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحا ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد
الينا حقنا وارثنا * أيتها الناس ان أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا انما عاد الى المنبر بعد
الصلاة لانه كاره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وانما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعل

فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد بدلكم الله مروان عدو الرجن وخليفة الشيطان المتبع
السفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بآبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين بالشاب
المكتهل المتجمل المقتدى بسلافه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بعالم
الهدى ومناهج التقوى * فعج الناس له بالدعاء ثم قال يا أهل الكوفة إنما والله مازلنا مظلومين
مقهورين على حقنا حتى أتانا الله شيعتنا أهل خراسان فأحيائهم حقنا وأبج بهم نجتنا
وأظهر بهم دوائنا وأراكم الله بهم ما لم تظنوا فظهور فيكم الخليفة من هاشم وبيض
به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم السلطان وأعز الإسلام ومن عليكم بامام
منحه العدالة وأعطاه حسن الأيالة فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تتخذوا عن
أنفسكم فإن الأمر أمركم وإن لكل أهل بيت مصرا وأنكم مصرنا ألا والله ما سعد منبركم
هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير
المؤمنين عبد الله بن محمد * وأشار بيده إلى أبي العباس السفاح * واعلموا أن هذا الأمر
فينا ليس بخارج منا حتى نسله إلى عيسى بن مريم عليه السلام والحمد لله على ما أبلانا وأولانا
ثم نزل أبو العباس ومشى داود بن علي أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر
المنصور ليأخذ البيعة على الناس في المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم
المغرب وجنهم الليل فدخل القصر ولما تمت له البيعة على وجه ما ذكر أنفذه أخاه المنصور
والبا على الجزيرة وأذربيجان وأرمينيا وولى عمه داود المدينة ومكة واليمن واليمامة وولى
ابن أخيه عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمه عبد الله وعلى مصر أبو عون بن يزيد
وعلى خراسان والجبال أبو مسلم وجعل عمه سليمان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان
واستعمل عمه اسمعيل بن علي على الأهواز واشتد في الانتقام من بني أمية وبالغ في تشكيل
من بقي من الذراري ومحا آثارهم وقتل سليمان بن هشام وغيره من كبار القوم الذين كانوا
مع الأمويين باغراء الشريف وكان خصيصا به حيث أشده يوما هذه الأبيات

لا يغرنك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داء دوبا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق وجهها أمويا

وقد كان السفاح أتم سليمان بن هشام المذكور * وتناولت أيدي العباسيين إلى
نبش قبور جميع بني أمية بدمشق وهتكوا حرمة الأموات فلما أتوا إلى قبر هشام وجدوا
جسمه صحيحا فأمر بصلبه ثم حرقه بالنار فخرق وأفلت من الأمويين عبد الرجن بن معاوية
المعروف بالداخل حيث فر هاربا إلى الأندلس فقبضوه وأسس الخلافة الأموية في قرطبة سنة
تسع وثلاثين ومائة هجرية أي نحو سنة ست وخمسين وسبعمائة ميلادية وكان من أمره
وأمر من ملك بعده مالا علاقة لنا به هنا * وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس جماعة
من بني أمية وألقاهم في الطرق فأكلتهم الكلاب وصارت تطوف بمشاش عظامهم في الأزقة
وأخذ بشأرا إبراهيم بن محمد والحسين بن علي بن أبي طالب من قاتليهما بالكيل الوافي

ولما قتل مروان بأبي صير بعصر كما تقدم بقيت نساؤه وذريته بالكينيسة وكان قد وكل بهن خادما وأمره أن يقتلهن جميعا اذ هو قتل فلما قتل مروان كبس أصحاب صالح بن علي بن عبد الله بن العباس على من بالكينيسة وأخذوا نساء مروان وبناته وسيروهن الى صالح بن علي فلما دخلن عليه تقدمت ابنة مروان الكبرى فقالت يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه فحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسعنا من عفوك ماوسعكم من جورنا فقال والله لأستبقى منكم واحدا ألم يقتل أبوك ابن أخي إبراهيم الامام ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في الكوفة ألم يقتل الوليد ابن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل ابن زياد الدعي مسلم بن عقيل ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي وأهل بيته ألم يخرج اليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فأوقفهن موقف السبي ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه فما الذي يحملني على الابقاء عليكن * قالت فليسعنا عفوك فقال أما هذا فنعم وان أحبيت زوجتك ابني الفضل فقالت وأي عز خير من هذا بل تلحقنا بحران فحملهن اليها فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن بالبكاء وأكثرن من العويل * وخاف العمال الذين كانوا على عهد بني أمية فنهضوا من استأمن ونحلي عن العمالة ومنهم من تحصن وقايل مع أهل عمالته كأبي الورد مجزة بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلبي وكان من أصحاب مروان وقواد عسكره فلما شاع خبر خروجه انضم اليه جماعة كثيرة من أهل قنسرين وأهل حصص وتدمر ومعهم أبو محمد ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية فدعوا اليه وقالوا هذا السفيفاني الذي كان يذكر وهم في نحو من أربعين ألفا فعسكروا بمرج الاخرم فسار عبد الله بن علي لقتالهم وكان يقاتل حبيب بن مرة المري بالبثنية وحووران فاقتتلوا قتالا شديدا وثبت أبو الورد وأصحابه وقتل من أصحاب عبد الله خلق كثير فاشتد عبد الله في قتال أبي الورد وثبت حتى انهزم أصحاب أبي الورد وانكشف ولم يبق معه الا خمسمائة من فرسانه فقتلوا جميعهم وهرب أبو محمد ومن معه حتى جاؤا تدمر فأمن عبد الله أهل قنسرين ودخلوا تحت الطاعة وبأيعوه فرحل عنهم الى دمشق وقد خرج أهلها فلما علموا بحضوره اليهم خافوا وعادوا الى الطاعة فأنتمهم ولم يؤاخذهم بما كان منهم * قال أصحاب التاريخ وكان حرب عبد الله وأبي الورد في سلخ ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة

ولما رأى قسطنطين ملك الروم من اختلال الامور وسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين وعدم استقرار أمرهم نشط الى رد ما أخذه المسلمون من أملاك الروم فجهز جيشا على ملطية وكخ فتنازل كخ أولا وقاتلها قتالا عنيفا فهزم منها من المسلمين شر هزيمة وانقلب على ملطية وراسل أهلها في الاستسلام والخروج من البلد الى أي بلد أخرى من بلاد المسلمين فلم يقبلوا فنصب المنجنيقات وعزم على الرمي على البلد فاذعنوا وسلموا البلد على الامان وانتقلوا الى بلاد الاسلام وحملوا ما قدروا على جملة من متاعهم وألقوا ما لم يقدروا على جملة بالآبار

والبحارى وتفرقوا في الجزائر ثم سار ملك الروم الى قاليقلا وحاصرها وفتحها عنوة على يد قائد
جيشه كوشان الارمنى وغنم وسبي منها ثم رحل عنها واسترجع صقلية وعمر فيها الحصون
والمعاقل وعززها بمرابط الحرب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وتغزو ما تصادفه من مراكب
المسلمين التي تحمل التجارة * ومع هذا كله فقد دانت للسفاح الامور وعلت كلمته واستوزر
أبا مسلمة حفصا الخلال وهو أول من لقب بالوزير واستمر اللقب لمن بعده الى زمن صاحب
واستمر الوزراء من بعده على هذا الحال ولما كانت سنة ست وثلاثين ومائة عقد السفاح لآخيه
أبي جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر
ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي وجعل العهد في ثوب وخته بخاتمه وخواتم أهل
بيته ودفعه الى عيسى بن موسى فلم يتم عليه هذا الحول حتى مات بالانبار ثلاث عشرة ليلة
مضت من ذي الحجة وقيل لاثنتي عشرة مضت منه بالجدرى وعمره ثلاث وثلاثون سنة
وقيل ست وثلاثون وقيل ثمان وعشرون فكانت ولايته من وقت قتل مروان الى أن مات
أربع سنين ومن يوم أن بويع بالخلافة الى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر وقيل وتسعة
أشهر وقد كان قبل موته يحول من الحيرة الى الانبار * قال ابن خلكان في ترجمة السفاح ان
السفاح نظريوما في المرأة وكان من أجل الناس وجها فقال اللهم انى لأقول كما قال سليمان
ابن عبد الملك ولكنى أقول اللهم عمرنى طويلا فى طاعتك متمتعا بالعافية قال فما استتم
كلامه حتى سمع غلاما يقول لغلام آخر الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام فتطير من
كلامه وقال حسبي الله ولا حول ولا قوة الا بالله عليه توكلت وبه استعنت فما مضت الايام
المذكورة حتى أخذته حتى فرض ومات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالانبار بالمدينة
التي بناها وسمها الهاشمية وكان أبيض مليحا جميلا حسن الهيئة قال الامام أبو
الفرج بن الجوزى وغيره ان السفاح خطب يوما فسقطت العصا من يده فتطير من ذلك فقام
رجل من أصحابه ومسح العصا وناوله اياها وأنشد
فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قسرت عينا بالاياب المسافر

فسرى عنه وسر بذلك

ومات في أيام السفاح تاودوروس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة
فأقيم بعده ميخائيل وهو سادس أربعينهم وأصله من دير بومقار وفي أيام تاودوروس
المذكور خالفت القبط من مدينة رشيد من جور العمال وتسلطهم فقاتلهم عبد الملك بن
موسى بن نصير عامل مصر يومئذ وقتلوه قتلا عظيما وما زالوا حتى هزمهم وقبض على
ميخائيل البطرك فاعتقله وألزمه بحال كثير فسار بأساقفته في أعمال مصر يسأل أهلها
فوجدتهم في شدة عظيمة وعبودية لانطاق فعاد الى القسطنطينية حيث عبد الملك ودفعه ما حصل
عليه فأفرج عنه ثم لم يلبث أن قبض عليه بعد أيام قلائل وأنزل به بلاء كبيرا وبطش
بالنصارى وأعمل فيهم السيف وأحرقت في هذه الاثناء مصر وجميع غلاتها وأمر كثيرا من

النساء الراهبات ببعض الديارات ونهب ما فيها وخربها تخريباً وراود عبد الملك إحدى النساء الراهبات عن نفسها فأحالت عليه ودفعته عنها بأن رغبته في دهن معها إذا دهن به الإنسان جسده لا يعمل فيه السيف ووثقته بأن مكنته من التجربة في نفسها فتمت حيلتها عليه وأخرجت زيتاً ودهنت به نفسها ثم مدت عنقها فضربها عبد الملك بسيفه أطار رأسها فعلم أنها اختارت الموت على الزنا رجعها الله وما زال البطرك وبكار القبط في الاعتقال مقيدين بالحديد يتجوعون مضض الشدة وألم الضيق حتى أفرج عنهم في خلافة السفاح أي بعد زوال دولة بني أمية وذهاب ملكهم وظهور الدولة العباسية * وقد خلع السفاح أبا عون عبد الملك المذكور وولى بدله صالح بن علي ثم صرفه وأعاد أبا عون المذكور سنة سبع وثلاثين ومائة للهجرة حيث مات السفاح وموت السفاح قام بالامر بعده أخوه أبو جعفر المنصور

(الفصل الثاني)

(في خلافة أبي جعفر المنصور)

ثم قام بالامر بعد السفاح أخوه أبو جعفر المنصور وهو عبد الله بن محمد المنصور بوليح له بالخلافة يوم وفاة أخيه سنة ست وثلاثين ومائة هجرية أي سنة ثلاث وخسين وسبع مائة ميلادية بعهد منه وكان السفاح قد ولاه امرأة الحاج فأتته الخلافة بمنزل صفية فقال صفت لنا إجماع الله * وكتب إلى أبي مسلم الخراساني يستدعيه فأقبل أبو مسلم عليه فأخبره أبو جعفر بخبر موت السفاح ثم بكى وجرع جرعا شديدا فقال له أبو مسلم ولم هذا الجزع وقد أتمك الخلافة قال أتخوف شرعي عبد الله بن علي وشغبه علي فقال لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله فسرى عنه وبايع له أبو مسلم والناس وأقبلوا حتى أتيا الكوفة وطبروا الخبر بذلك إلى الآفاق وأرسلوا في طلب البيعة إلى المنصور فلما جاء الخبر بذلك إلى عبد الله بن علي وكان عبد الله يومئذ بدلولك وهي بأفواه الدروب في عسكر الصائفة أمر مناديه أن ينادي الصلاة جامعة فاجتمعوا عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ثم دعا الناس إلى بيعته وقال لهم اعلموا أنه لما أراد السفاح أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد دعا بني أبيه فأرادهم على المسير إليه فقال من انتدب منكم فسار إليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري وعلي هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت * وشهد له بعض قواده بذلك فبايعوه ثم سار عبد الله حتى نزل حران وقاتل من بها وضيق عليها وكان أبو جعفر المنصور قد عاد من مكة ومعه أبو مسلم الخراساني فسيره لقتال عبد الله فسار أبو مسلم في جنوده فقاتل عبد الله عند نصيبين خمسة أشهر ورجل أهل الشام حلة رجل واحد على عسكر أبي مسلم فأزالوا صفهم وجالوا جولة فانهزم عسكر أبي مسلم فأمر أبو مسلم مناديا فتنادى يا أهل خراسان ارجعوا فإن العاقبة لمن اتقى فتراجع الناس وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال

من كان ينوي أهله فلا رجوع * فتر من الموت وفي الموت وقع
فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جادى الآخرة سنة ست وثلاثين
ومائة التقوا فأقتتلوا فمكربهم أبو مسلم وأمر أحد قواده أن يعي المينة أكثرها إلى الميسرة
ويترك في المينة أشد الجند بأسا فلما رأى ذلك أهل الشام كشفوا ميسرتهم وانضموا إلى
ميسرتهم بازاء ميسرة أبي مسلم فأمر أبو مسلم أهل القلب فحملوا على من بقى في ميسرته على ميسرة
أهل الشام فخطموهم فانهمز أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم فأخذ أصحاب أبو مسلم ما فيه
وأرسل أبو مسلم الخبر بذلك إلى المنصور وهرب عبد الله إلى البصرة ونزل عند أخيه سليمان
ابن علي فأقام زمانا محتفيا وأمن أبو مسلم الناس بعد هزيمة عبد الله وكف عنهم فلما علم المنصور
بما جرى لعبد الله أرسل أبا الخصيب إلى أبي مسلم ليكتب ما أصاب من أموال عبد الله فأراد
أبو مسلم قتله وقال أنا أمين على الدماء خائن في الأموال وشتم المنصور فرجع أبو الخصيب إلى
المنصور فأخبره بما جرى له فخاف المنصور من رجوع أبي مسلم إلى خراسان لئلا يفسد عليه
الامر فكتب إليه يقول اني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان فوجه إلى
مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فاني أحب لقاءك * فلما أتاه الكتاب
غضب وقال يوليئني الشام ومصر وخراسان لي * فكتب الرسول إلى أبي جعفر المنصور بذلك
وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعا على الخلاف وسار يريد خراسان فاتقل المنصور من الانبار
إلى المدائن * قال صاحب الكامل * وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه فكتب إليه أبو
مسلم وهو بالزاب انه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدوا إلا أمكنه الله منه وقد كنا نرى
عن ملوك آل سامان ان أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء فتحن نافرون عن قريب
حريصون على الوفاء لك ما وفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها
السلامة فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الآن تعطى نفسك ارادتها نقضت
ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى * فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم قد فهمت
كبابك وليست صفتك أولئك الوزراء الغشيشة ملوكهم الذين يمتنون اضطراب جبل الدولة
لكثرة جرائعهم فانما راحتهم في انتشار نظام الجاعة فلو سويت نفسك بهم فأنت في طاعتك
ومناصحتك وإطلاعتك بما جلت من أعباء هذا الامر على ما أنت به وليس مع الشريعة
التي أوجبت منك سمعا واطاعة وجل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها
ان أصغيت وأسأل الله أن يحول بين الشيطان وزغاته وبينك فإنه لم يجد بابا يفسد به نيتك
أوكد عنده وأقرب من الباب الذي فتحه عليك

نفرج أبو مسلم مراغما وأخذ طريق حلوان فقال المنصور لعمه عيسى بن علي ومن حضر
من بني هاشم اكتبوا إلى أبي مسلم فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يتم
على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور
وبعث المنصور الكتاب مع أبي حميد الروروذي وقال له كام أبا مسلم بألن ماتكلم به أحدا

منه وأعلمه أني رافعه وصانع به مالم يصنعه به أحد ان هو صلح وراجع مأحب فان أبي أن يرجع فقل له يقول لك أمير المؤمنين است من العباس واني برى من محمد ان مضيت مشاقا ولم تأتني ان وكلت أمرك الى أحد سواي وان لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخصمته ولو اقتحمت النار لاقتحمتهما حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ولا تقولن هذا الكلام حتى تبأس من رجوعه ولا تطمع منه في خير * قال فسار أبو جريد فقدم على أبي مسلم بجوان فدفع اليه الكتاب وقال له الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين مالم يقله وخلاف ما عليه منك خسدا وبغيا يريدون ازالة النعمة وتغييرها فلا تفسد ما كان منك وكله وقال يا أبا مسلم انك لم تزل أمير آل محمد يعرفك بذلك الناس وما ذخر الله لك من الاجر عنده في ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك فلا تحبط أجره ولا يستهوينك الشيطان * فقال له أبو مسلم متى كنت تكلمني بهذا الكلام فقال انك دعوتنا الى هذا الأمر والى طاعة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بنى العباس وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجاءنا الله على طاعتهم وألف ما بين قلوبنا وأعزنا بنصرنا لهم ولم نلق منهم رجلا الا بما قذف الله في قلوبنا حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة أفتر يد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتمكم فاقتلوني فاقبل أبو مسلم على أبي نصر مالك بن الهيثم فقال أما تسمع ما يقول لي هذا ما كان بكلامه بامال قال لا تسمع قوله ولا بهوانك هذا منه لعمري ما هذا كلامه ولما بعد هذا أشد منه فامض لأمرك ولا ترجع فوالله لئن أتيت ليقتلنك ولقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمرك أبدا ثم شاور أبو مسلم غيره من أصحابه فأشاروا عليه بأن لا يذهب الى أبي جعفر المنصور وأن ينزل الري ويقم بها فان استقام له المنصور استقام هو له أيضا وان أبي المنصور كان أبو مسلم في جنده بالري فدعا أبا جريد فقال له ارجع الى صاحبك فليس من رأيي أن آتية وقد عزمتم أن لا أعود اليه أبدا فلما يتس من رجوعه معه قال له ما أمره به أبو جعفر المنصور فوجهم طويلا ثم قال قم وقد أخذته الخوف وأوجس من المنصور الشر * وكان المنصور قد كتب الى أبي داود خليفة أبي مسلم بخراسان يقول له ان لك امره خراسان مادمت على قيد الحياة فكتب أبو داود المذكور الى أبي مسلم يقول ما هذا إنما لم نخرج لمعصية خلفاء الله في أرضه وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلا تخالفن امامك ولا ترجعن الا بأذنه * واتفق وصول كتاب أبي داود ليد أبي مسلم وهو على تلك الحال مع رسول أبي جعفر المنصور فزاده خوفا وهما فأرسل الى أبي جريد فقال له اعلم اني كنت عازما على المسير الى خراسان ولكنني عدلت عن ذلك حتى أوجه أبا اسحق الى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه فان أبا اسحق ممن أثق به فلما تمم بين يدي المنصور أجله وقال له اصرف أبا مسلم عن وجهه ولك مني ولاية خراسان وأجازه فانصرف أبو اسحق وقال لأبي مسلم ما أنكرت قط شيئا وما رأيت بنى هاشم الامعةظمين لحقك يرون لك ما يرون لانفسهم وما زال به حتى حجب اليه الشخصوص الى حيث أمير المؤمنين والاعتذار اليه مما كان

منه فلما قصد المسير قال له نيزك أحسد قواده هل أجمعت على الشخوص الى أمير المؤمنين
قال نعم وتمثل

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك هذا ما اختاره الله تعالى لك واحفظ عني واحدة اذا دخلت عليه فاقتله
وبائع من شئت فان الناس لا يخالفونك * وسار أبو مسلم قاصدا الخليفة في ثلاثة آلاف رجل
واستخلف أبا نصر في عسكره وقال له أقم حتى يأتيك كتابي فان كان مختوما بنصف ختم فأنا
الذي كتبته وان أتاك بخاتم كامل فلم أكتبه فلما علم أبو أيوب وزير المنصور بقدم أبي مسلم
خاف منه ومن أصحابه وخشى انهم يقتلون المنصور ثم يقتلونه هو أيضا فدبر الحيلة على اغتيال أبي
مسلم قبل أن يتمكن من الفتك بالخليفة وبه فدعا سلمة بن سعيد بن جابر وقال له تأني أبا مسلم فلتلقاه
وتسكمه في أن يعطيك كسكر اقطاعا اذا ولاة أمير المؤمنين عند قدومه جميع ما وراء بابه فان أمير
المؤمنين على عزم أن يوليه ذلك ويربح نفسه فقال حتى يأذن لي أمير المؤمنين فأذن له المنصور
وأمره أن يبلغ سلامه وشوقه الى أبي مسلم فسار اليه سلمة ولقبه في الطريق وأخبره الخبر فطابت
نفس أبي مسلم وزال عنه الخوف والغم فلما وصل تلقاه بنوهائشم والناس ثم قدم فدخل على المنصور
فقبل يده وأمره أن ينصرف ويروح نفسه لثلاثة فانصرف فلما كان الغد دعا المنصور عثمان
ابن نهيك وأربعة من الحرس منهم شبيب بن واثق وأبو حنيفة حرب بن قيس قال صاحب
الكامل فرسم لهم بقتل أبي مسلم اذا صفق بيده وتركهم خاف الرواق وأرسل الى أبي مسلم
يستدعيه وكان عنده عيسى بن موسى يتغذى فدخل على المنصور فقال له المنصور أخبرني
عن نصلين أصبتهما مع عبدالله بن علي فقال أبو مسلم هذا أحدهما قال أرنيسه فانضاه وناولوه
إياه فوضعه المنصور تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه وقال له أخبرني عن كتابك الى السفاح تنهاه
عن الموات أردت أن تعلمنا الدين فقال ظننت أن أخذه لا يحل فلما أتاني كتابه علمت انه أهل
بيت معدن العلم قال فأخبرني عن تقدمك اياي بطريق مكة قال كرهت اجتماعنا على الماء
فيضر ذلك بالناس فتقدمت للرفق قال فقولا لمن أشار اليك بالانصراف الى بطريق مكة
حين أتاك موت أبي العباس الى أن تقدم فنرى رأينا ومضيت فلا أنت أقت حتى ألحقك ولا
أنت رجعت الى قال منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس وفلت تقدم الكوفة
وليس عليك من خلاف قال بخارية عبد الله أردت أن تأخذها فقال لا ولكني خفت أن
تضيع خملتها في قبسة ووكلت بها من يحفظها قال فمن أرفقك ونحروك الى خراسان قال
خفت أن يكون قد دخلك مني شيء فقلت اني الى خراسان فاكتب اليك بعذري فأذهب ما في
نفسك قال فالمال الذي جمعته بخراسان قال أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا قال
ألسن الكاتب التي تبدأ بنفسك ونخطب عني آمنة ابنة علي وترزعم أنك ابن سليمان بن عبدالله
ابن عباس لقد ارتقيت لا أم لك مرتقي صعبا ثم قال وما الذي دعاك الى قتل سليمان بن

كثير مع أثره في دعوتنا وهو أحد قتياننا قبل أن يدخلك في هذا الامر قال أراد الخلاف وعصاني فقتلته

فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم لا يقال هذا إلى بعد بلائي وما كان مني فقال له المنصور يا ابن الخبيثة والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت انما علمت في دولتنا وبريختنا فلو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلًا * فعند ذلك أخذ أبو مسلم بيد المنصور وجعل يقبلها ويعركها ويعتذر اليه فقال له المنصور ما رأيت كاليوم والله ما زدني الا غضبا فقال أبو مسلم دع هذا فقد أصبحت ما أخاف الا الله تعالى فغضب المنصور وقال له قتلني الله ان لم أقتلك ثم صفق بأحدى يديه على الاخرى فخرج اليه القوم وخبطوه بسيوفهم والمنصور يصيح اضربوه قطع الله أيديكم * وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك قال لا أبقاني الله أبدا ان أبقيتك وأتى عدو أعدى منك * وكان قتله يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة هجرية أي سنة أربع وخمسين وسبعمائة ميلادية * ولما قتل أبو مسلم أمر المنصور فأدرجوه في بساط فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة فقال له ما تقول في أمر أبي مسلم فقال يا أمير المؤمنين ان كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل فقال المنصور وفقك الله ها هو في البساط فلما نظر اليه قتيلا قال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك فأنشد المنصور

فألفت عصاها واستقر بها النوى * كما قرعنا بالاباب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طرح بين يديه وأنشد

زعمت أن الدين لا ينقضى * فاستوف بالكيل أبا حجر

اشرب بكأس كنت تسقي بها * أمر في الخلق من العلقم

ثم كتب أبو جعفر المنصور بعد قتل أبي مسلم إلى أبي نصر مالك بن الهيثم الذي استخلفه أبو مسلم في عسكره كما تقدم يأمره على لسان أبي مسلم بنقل الاثقال وما خلف عنده وأن يقدم وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم فلما رأى الخاتم تأما علم أن أبا مسلم لم يكتب فقال فعلتوها ثم انحدر إلى همدان يريد خراسان فكتب المنصور لابي نصر عهده على شهر زور وكتب إلى زهير بن التركي وهو على همدان ان مر بك أبو نصر فأحبسه فسبق الكتاب إلى زهير وأبو نصر في همدان فلما وصل أبو نصر قال له زهير قد صنعت لك طعاما فلو أكرمتني بدخول منزلي فأجابه إلى ذلك فقبض عليه زهير وحبسه ثم خلى عنه لما رأى عهد أمير المؤمنين معه * ولما قتل المنصور أبا مسلم خطب الناس فقال * أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ولا تمشوا في ظلمة الباطل بعد سعيكم في ضياء الحق ان أبا مسلم أحسن مبتدئا وأساء معقبا وأخذ من الناس نبا أكثر مما أعطانا ورج قبيح باطنه على حسن ظاهره وعلمنا من خبث سريره وفساد نيته ما لو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا في قتله وعنفنا في امهالنا وما زال ينقض بيعته ويتفرد ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه

فحكينا فيه حكمه لنا في غيره ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه وما أحسن ما قال النابغة
الذبياني للنجمان

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته * كما أطاعك وأدله على الرشيد

ومن عصاك فعاقبه معاقبه * تنهى الظلم ولا تقعد على ضمد

وقد تقدم الكلام على أبي مسلم المذكور بما فيه الكفاية ونقول هنا أيضا أنه كان طاغية
داهية جبارا ذا رأي وعقل وتدبير * قبل أنه خطب يوما فقام إليه رجل فقال ما هذا السواد
الذي أرى عليك فقال على الفور حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه
وسلم دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة يا غلام
اضرب عنقه فضرب عنقه فأطاحها * قتل في أيامه ستمائة ألف نفس صبيا ماعدا من قتل
في الحروب * ولم يمس على قتل أبي مسلم الا القليل حتى خرج رجل اسمه سنباد من خراسان
يريد الاخذ بشأري أبي مسلم فكثرت جوعه وكان عامتهم من أهل الجبال فسار بهم الى نيسابور
فغلب عليها وعلى قومس والري وقتل وسبا وتسمى فيروز اصبهند وأخذ خزائن أبي مسلم من
الري وكان قد تركها بها عند ذهابه الى المنصور فسير اليه المنصور عسكرا كبيرا مع جمهور بن
مرار العجلي فالتقوا بين همدان والري وعزم جمهور على مطاولته لكثرة لمومه فأمر سنباد فحملوا
السبائيا من النساء المسلمات على الجبال فلما رأين عسكر المسلمين صحن وقن في المحامل ونادين
واحمدها ذهب الاسلام وبينما هما على هذا الصباح والعيول والنداء على عسكر المسلمين اذ
ارتفعت ريح ووقعت في أثوابهن فنفرت الابل وعادت على أعقابها الى عسكر سنباد فأنفشلوا
وتفرقوا وكان ذلك سبب الهزيمة وتبع المسلمون الابل ووضعوا السيوف في أصحاب سنباد
فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وسبوا نساءهم وذرائعهم ثم قتل سنباد بين طبرستان
وقومس

ولما كانت سنة أربع وأربعين ومائة ظهر أمر محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن
ابن الحسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة فاهتم المنصور بأمر محمد حيث أعلموه بأن محمدا
كان يزعم أن المنصور عن بايعه بالخلافة يوم تشاور بنو هاشم بمكة فحين يعقدون له الخلافة
حين اضطرب أمر مروان بن محمد بخافه المنصور وخشى عاقبة ظهوره وشدد في طلبه
ووكل أمر البحث عنه لجماعة من رقيق الاعراب فخرجوا في طلبه في ظهر المدينة واستعمل
المنصور كل حيلة ودهاء في طلب ابني عبد الله فأدرك عبد الله فحبسه وضيق عليه ونزل محمد
في بني راسب بالبصرة فعلم المنصور بخبره فسار اليه فرحل محمد عن البصرة قبل وصول
المنصور اليها فرجع المنصور واشتد خوف محمد وإبراهيم ابني عبد الله وضائق الدنيا عليهما
فخرجوا حتى أتيا عدن ثم سارا الى السند ثم الى الكوفة ثم الى المدينة فكان اذا ظهر محمد
بين الناس صاحوا وهللوا وقالوا هاهو المهدي وكان اذا أرسل المنصور في طلبه اختفى فكاتب
للمنصور الى محمد بن خالد بن عبد الله القسري وقد ولاه المدينة أن اكشف المدينة وأعراسها

في طلب محمد فطاف بيوت الناس وكبس على من بها فلم يجد محمدا فخلعه المنصور واستعمل رباح بن عثمان بن حيان المري مكانه وألزمه بالقبض على ابني عبد الله فجذب رباح في طلبهما وشدد فأخبر أن محمدا في شعب من شعاب رضوى جبل جهينة من أعمال ينبع فرسم الى عامله هناك بطلب محمد فلما أحس محمد بذلك هرب على الاقدام وكان معه ولد صغير ولد له وهو في الهرب وجارية له أيضا فسقط ولده المذكور من الجبل عند ما هم بالهرب فتقطع فبكى عليه وأنشد

منخرق السربال يشكو الوجي * مسكنه أطراف مَرَّ وحداد
شرده الخوف فأزرى به * كذلك من يكره حرَّ الجلال
قد كان في الموت له راحة * والموت حتم في رقاب العباد

وما زال رباح يبحث في الطلب وينفق الاموال الطائلة للعيون والارصاد حتى قبض على جميع بني الحسين وقيدهم بالحديد وكان محمد قد بعث بابنه عليا الى مصر يدعو اليه الناس فقبض عليه عامل مصر وشيعه الى المنصور فاعترف له وأخبره باسماء أصحاب أبيه فأمر به فحبسه وبقي محبوسا الى أن مات المنصور * وقتل المنصور أكثر بني الحسن صبيا ولم يظفر بمحمد فلما كانت سنة خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بالمدينة في جمع من أصحابه فكسر أبواب السجن وأخرج من به وقبض على رباح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة المري فحبسهم في دار الامارة ثم خرج الى المسجد فصعد على المنبر فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه * قال صاحب الكامل * ثم قال أما بعد فانه قد كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندا لله في ملكه وتصغيرا للعبادة الحرام وانما أخذ الله فرعون حين قال * أنا ربكم الاعلى * وان أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين والانصار المرأسين اللهم انهم لأحلوا حرامك وحرّموا حلالك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت اللهم فأحبهم عدا وقاتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا * أيها الناس اني والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسى والله ما جئت هذه في الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذ لي فيه البيعة اه

واستولى محمد على المدينة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ومال اليه الناس واستفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمد وقالوا ان في أعناقنا بيعة لابي جعفر المنصور فقال انما بايعتم مكرهين وليس على مكرهين فأسرع الناس الى محمد ثم تفرق بعضهم لما سمعوا عن اسمعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وكان شيخا كبيرا انه يقول ان محمدا مقتول لا محالة قيل فندس له محمد من قتله * فلما ظهرت كلمة محمد بالمدينة أخذ المنصور في التأهب لقتاله وشاور أصحاب الرأي في أمره فحسنوا له التجهيل في الخروج اليه وأخذ فكتب اليه المنصور يقول * بسم الله الرحمن الرحيم * انما جزاء الذين يحاربون الله

ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض الآتين * ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن تؤمنك بجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دماءكم وأموالكم وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الخواص وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من في حبسى من أهل بيتك وأن تؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل في شيء من أمرك ثم لا تتبع أحدا منهم بشيء كان منه أبدا فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه الى من أحببت يأخذ لك مني الامان والعهد والميثاق وما تتوثق به والسلام * فلما وصل الكتاب الى محمد كتب اليه يقول طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليكم من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * الى يحذرون * وأنا أعرض عليك من الامان مثل ما عرضت على فان الحق حقنا وانما ادعيتكم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيقتنا وحظيتم بفضله فان آبانا عليا كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ثم قد علمت انه لم يطلب الامر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آباؤنا لسنننا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس عمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل وإنما بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عروة في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الاسلام دونكم ان الله اختارنا واختار لنا فوالدنا من النبيين محمد أفضلهم ومن السلف أولهم اسلاما على ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى الى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء العالمين وأهل الجنة ومن المولودين في الاسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد حسنا مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل حسن وحسين واني أوسط بني هاشم نسبا وأصرحهم أبا لم نعرف في العجة ولم تنازع في أمهات الاولاد فما زال يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والاسلام حتى يختار لي في الاشرار فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة وأهونهم عذابا في النار ولك الله على ان دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي أن تؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل امر أحدثته الاحدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزم من ذلك وأنا أولى بالامر منك وأوفى بالعهد لانك أعطيتني من الامان والعهد ما أعطيت رجلا قبلي فأى الامانات تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم * قال صاحب الكامل فلب ورد كتابه يعني كتاب محمد على المنصور قال له أبو أيوب اليزيدي دعني أجبه عليه قال لا اذا تقارعتا على الاحساب فدعني وياي ثم كتب اليه المنصور * بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك فإذا جعلت نفسك بقرابة النساء لتضل به الخفأة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والاولياء لان الله جعل العلم أبا بدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رجما وأعظمهن حقا وأولى من يدخل الجنة ولكن اختار الله نخلقه على علمه فيما مضى منهم

واصطفائه لهم وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها فإن الله لم يرزق أحدا من ولدها الاسلام لابنتا ولا ابنا ولو أن رجلا رزق الاسلام بالقربة لرزقه عبد الله ولكن أولاهم بكل خير من الدنيا والآخرة ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ولقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وله عجمية أربعة فأرسل الله عز وجل * وأنذر عشيرتاك الأقربين فأندرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبي وأبي اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولاذمه ولا ميراثا * وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار وليس في الكفر بالله صغير ولا في عذاب الله خفيف ولا بسير وليس في الشر خيار ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار وستره فاعلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون * وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم الا مرة ولا عبد المطلب الا مرة * وزعمت أنك أوسط بني هاشم وأصرحهم أما وأبا وأنه لم يلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد فقد رأيتك نفرت على بني هاشم طرا فانظر ويحك أين أنت من الله غدا فإنك قد تعديت طورك ونفرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولادا وأخا إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم الا بنو أمهات الأولاد ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين وهولام ولد وهو خير من جدك حسن بن حسين وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي وجده أم ولد وهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجده أم ولد وهو خير منك * وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول في كتابه ما كان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكنكم بنو بنته وإنها لقربة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الامامة فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرج فاطمة نهارا ومريضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس الا الشيوخان ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها من المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخاله لا يورثون * وأما ما نفرت به من علي وسابقتة فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان في الستة فتركوه كلهم دفعوا له عنها ولم يروا له حقا فيها * وأما عبد الرحمن فقد قدم عليه عثمان وهو له منهم وقائله طلحة والزبير وأبي سعد بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته فبسل الحكومة ثم حكم حكيم رضى بهما وأعطاها عهد الله وميثاقه فاجتمعا على خلعه ثم كان حسن قباعها من معاوية بمحرق ودرهم وطلق بالجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ورفع الامر الى غير أهله وأخذ مالا من غير ولايته ولا حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم عنه ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ثم خرجتم على بني أمية فقاتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفروكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد

بخراسان وقتلوا رجالكم وأمروا الصبية والنساء وجلاوهم وطاء في المحامل كالسبي المجلوب الى الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنيننا سلفكم وفضلناه فانخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا انما ذكرنا أباك لتقدمة ما له على حزة والعباس وجعفر وليس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلما منهم مجتمعا عليهم بالفضل وإبتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت ينو أمية تلغنه كما تلغى الكفرة في الصلاة المكنوبة فاحتججنا وذكرناهم فضله وصفاته وظلمناهم بما نالوا منه فلقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحاج الاعظم وولاية زمزم فصارت للعباس بين اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فلم نزل نلها في الجاهلية والاسلام ولقد حط أهل المدينة فلم يتوسل عمر الى ربه ولم يتقرب اليه الا بأينا حتى يغيبهم الله فسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسلوا به ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره فكانت وراثته من عمومته ثم طلب هذا الامر غير واحد من بني هاشم فلم ينله الا ولده فالسقاية سقايته وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام في الدنيا والآخرة الا والعباس وارثه ومورثه وأما ما ذكرت من بدر فان الاسلام جاء والعباس يعون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للزومة التي أصابته ولو أن العباس أخرج الى بدر كارها لما طالب وعقيل جوعا ولحسا جفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤنة ثم فدى عقيل يوم بدر فكيف تفخر علينا وقد غلبناكم في الكفر وفديناكم وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الانبياء وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لانفسكم والاسلام عليكم ورحمة الله اه فلم يرد عليه محمد ثم سير أبو جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله المذكور بالمدينة واستخمه في ذلك وشدد عليه فقال عيسى شاور عمومك يا أمير المؤمنين ثم قال فأين قول ابن هرثة

زور امرأ لا يخض القوم سره * ولا ينتجى الدين عما يحاول

إذا ما أتى شيئا مضى كالذي أتى * وإن قال انى فاعل فهو فاعل

فقال المنصور امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيرى وغيرك وما هو الا أن تشخص أنت أو أخص أنا فسار وسير معه الجنود فلما صار عيسى بن موسى على قيد أربعة أميال من المدينة رتب عسكره وأرسل الى محمد بن عبد الله بأمان أبى جعفر المنصور ان هو أطاع وانكف عما هو فيه فأبى محمد الطاعة وبرز عيسى بن موسى بعسكره للقتال وكذلك محمد بن عبد الله فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فتفرق أكثر أصحاب محمد بن عبد الله حتى لم يبق معه الا زهاء ثلثمائة رجل وذهب عيسى بن حضير وهو من أصحاب محمد فأحرق السجل الذي فيه أسماء الذين بايعوا محمدا خوفا من وقوعه في يد عيسى بن موسى اذا هو دخل المدينة بعسكره وجعل محمد يقاتل من بقي معه حتى ضربه أحد أصحاب عيسى بن موسى دون شحمة أذنه

البنى فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول ويحكم ابن نبيكم يجرح مظلوم فطعنه ابن قطيبة في صدره فصرعه ثم نزل ليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى وهو لا يعرف من هو لكثرة الدماء فأرسل عيسى الرأس الى المنصور مع محمد بن أبي الكرام بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فأمر المنصور فطيف برأس محمد في الكوفة وسيره الى الاتفاق وكان قتل محمد المذكور في يوم الاثنين بعد العصر لاربع عشرة خلت من شهر رمضان وكان محمد هذا يلقب بالمهدي وبالفنس الزكية ورثاه هو وأخاه عبيد الله بن مصعب بن ثابت بهذه القصيدة

يا صاحبي دعا الملامة واعلمها * أن لست في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر للنبي فسلما * لا بأس أن تقفا به وتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه * حسبا وطيب سمجة وتكرما
رجل بنى بالعدل جور بلادنا * وعفا عظيمات الأمور وأنما
لم يجتب قصد السبيل ولم يجد * عنه ولم يفتح بفاحشة فدا
لو أعظم الحدثن شيئا قبله * أحدا لكان قصاره أن يسلا
ضخوا بإبراهيم خير ضخمة * فتصرمت أيامه فتصرما
بطلا يخوض بنفسه غمراته * لا طائش عشا ولا مستسلا
حتى مضت فيه السيوف وربما * كانت حتوفهم السيوف وربما
أضحى بنو حسن أبج حريمهم * فينا وأصبح نهمهم متقسما
ونسأؤهم في دورهن نوائح * سجع الحمام اذا الحمام ترغا
يتوصلون بقتله وبرونه * شرفا لهم عند الامام ومغنا
والله لو شهد النبي محمد * صلى الاله على النبي وسلا
اشراع أمته الاسنة لانه * حتى تقطر من طبائهم دما
حقا لا يقن أنهم قد ضيعوا * تلك القرابة واستحلوا المحرما

ولما قتل محمد نصب عيسى بن موسى بعض الأولوية بالمدينة ونادى مناديه من دخل تحت لواء منها فهو آمن ثم أخذ أصحاب محمد فصلهم ما بين ثنية الوداع الى دار عمر بن عبد العزيز صفين وبقوا على هذا الحال ثلاثا فأمر بهم عيسى فألقوهم على مقابر اليهود ثم بعد ذلك في خندق في أصل ذباب وزال عن أبي جعفر المنصور ما كان يلاقيه من خروج محمد ابن عبد الله

وخرجت في خلافة المنصور أيضا الراوندية وهم قوم من خراسان على مذهب أبي مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون أن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك وان ربهم الذي يقيمهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور فلما ظهر وأتوا الى قصر المنصور في سنة احدى وأربعين ومائة للهجرة أي سنة ثمان وخسين وسبع مائة للميلاد قالوا هذا ربنا نفيس المنصور

رؤساءهم وكانوا نحو مائتين فهاجوا وماجوا وأخذوا نعشا وجلوه ومشوا به كأنهم يشيعون جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أكارهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت الابواب ووقع خوف عظيم وخرج المنصور ماشيا واجتمع عليه خلق كثير وكان معن بن زائدة مستخفيا خوفا لانه كان حارب مع ابن هبيرة الشيباني فظهر وحارب الراوندية بين يدي المنصور فعفا عنه وكان ذلك يوم استئصال الراوندية وقطع دابرهم * وكره المنصور بعد واقعة الراوندية الإقامة بالهاشمية فدلوه على أن تكون إقامته على نهر الفرات ليكون متوسطا ما بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وتكون دجلة والفرات خنادق مدينته فوقع اختياره على مكان اسمه بغداد ومعناه بستان دار واستشار المجملين في اختيار وقت البناء فأخبروه فوكل البناء لأربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ووضع بيده أول لبنة وهو يقول باسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * ثم قال ابنوا على بركة الله وأمر بانيان كسرى فنقض ونقل الى المدينة الجديدة ونقضت شرفة من القصر الأبيض فوجد أنه يلزم لنقض ذلك أكثر من كلفة الحديد فعدل عن ذلك فتمت على أحسن مثال وتوارد اليها السكان من العراقيين والشام والجزيرة والحجم والعرب ومصر وغيرها وسُميت دار السلام ثم تحول المنصور عن مدينة أبي هبيرة الى بغداد مدينته الجديدة ونقل أبواب مدينة واسط اليها وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنه محمد المهدي بعد أمور أضر بنا عن إرادتها هنا صفحا

وظهر في أيامه رجل ادعى النبوة اسمه استاذسيس في جهة خراسان فاجتمع اليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان فسار اليه الاجشم عامل مرو رود في عسكر فقاتل الاجشم وأصحابه وتتابع القواد في هجماته حتى هزمهم شرهزيمة فبعث المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة الى المهدي في اثني عشر ألفا فولاه المهدي حربه فزحف عليه في عشرين ألفا وبعد قتال شديد تقوى المسلمون عليه وقتلوا من عسكره نحو سبعين ألفا وأسروا نحو أربعة عشر ألفا وأسرا استاذسيس المذكور وبنوه وتفرق الباقون من قومه قيل ان استاذسيس هذا هو أبو مراجل أم الأمون وابنه غالب خال الأمون وهو الذي قتل الفضل بن سهل * ثم خرج المنصور قاصدا الحج في سنة ثمان وخسين ومائة للهجرة أي سنة أربع وسبعين وسبعمائة لليلاد فخرج ولده المهدي معه ليودعه فقال له * يا بني اني أهجس بالموت ولا أدري اذا كنا نجتمع بعد هذا فاني ولدت في ذي الحجة ووليت في ذي الحجة وأخشى أن أموت في ذي الحجة من هذه السنة واني لذلك عزمتم على الحج والآن أوصيك بخصال وما أظنك تفعل واحدة منها * وكان له سبط قيل ان فيه أوراق عمه وعليه قفل لا يفتحه غيره فقال للمهدي انظر الى هذا السبط فاحتفظ به فان فيه علم آيات ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة

فان أحرزك أمر فانظر في الدفتر الكبير فان أصبت فيه ما تريد والا ففي الثاني حتى بلغ سبعة
 فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فانك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل * وانظر هذه المدينة
 وياك أن تسبذل بها غيرها وقد جمعت لك فيها من الاموال ما ان اكسر عليك الخراج عشر
 سنين كفالك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحفظ بها فانك لا تزال عزيزا
 مادام بيت مالك عامرا وما أظنك تفعل * وأوصيك بأهل خراسان خيرا فانهم هم أنصارك
 وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك ومن لا يخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن
 اليهم وتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم عما كان منهم وتختلف من مات منهم في أهله وولده وما
 أظنك تفعل * وياك أن تبقى مدينة الشرفية فانك لانتم بناءها وأظنك ستفعل * وياك أن
 تستعين برجل من بني سليم وأظنك ستفعل * وياك أن تدخل النساء في أمرك وأظنك
 ستفعل * فانق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل الله لك مخرجا في كربك
 ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحسب * يا بني احفظ محمدا صلى الله عليه وسلم
 في أمته بحفظك الله وبحفظك عليك أمورك * وياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم
 وعار في الدنيا لازم مقيم والزم الحدود فان فيها خلاصك في الآجل وصلاحتك في العاجل
 ولا تعتمد فيها فتبور فان الله تعالى لو علم أن شيئا أصح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في
 كتابه * واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أنه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على
 من سعى في الارض فسادا مع ما ذخره من العذاب العظيم فقال انما جزاء الذين يحاربون الله
 ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا . الآية . فالسلطان جبل الله المتين
 وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه وذبح عنه وأوقع بالمهدين واقع المارقين منه وقابل
 الخارجين عنه بالعقاب ولا تتجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط فان
 ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو وأنجح في الدواء وعف عن القبيح فليس بك اليه حاجة مع
 ما خلفه لك واقتح بصلة الرحم وبر القربة وياك والاثرة والتبديد لاموال الرعية واشحن الثغور
 واضبط الاطراف وأمن السبيل وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم وأعد
 الاموال واحرزها فان النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان وأعد الاكرام والرجال والجند
 ما استطعت وياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع وجد في احكام
 الامور النازلات في أوقاتها أولا فأولا واجتهد وشمر فيها وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون في
 النهار ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وبأشر الامور بنفسك ولا تضجر ولا تنكسل واستعمل
 حسن الظن وأسئ الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالسيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل
 أذنك للناس وانظر في أمر النزاع اليك وكن بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تنم فان
 أبالك لم ينم منذ ولي الخلافة ولا دخل عينه الغمض الاوقله مستيقظ * هذه وصيتي اليك والله
 خليفتي عليك * ثم ودعه وبكى وبكى ولده المهدي * وسار المنصور فاشتدت به علته وأدركته
 منيته ببئر ميمونة محرما بمرضه وهو القيام وذلك في ذي الحجة وهو ابن ثلاث وستين سنة فكانت
 خلافته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وأمه بربرية وكان طويلا

أسمر نحيفا خفيف اللحية رحب الجبهة وكان عينيه لسانان ناطقان صارمان مهيبا ذا جبروت
وسطوة وحزم ورأى وشجاعة وكال عقل ودهاء وعلم وفقه وخبرة بالامور
فيل ولما قرب من مكة في حجه التي مات فيها رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما
أبا جعفر حانت وفاتك وانتقضت * سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من ريب المنية دافع
فلما قرأها تيقن فراغ أجله قيل فمات بعد ثلاثة أيام وقيل غير ذلك والله سبحانه
وتعالى أعلم

ومات في أيامه خائل بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثا وعشرين سنة فأقيم بعده
مينا وهو سابع أربعينهم وفي أيام مينا هذا اشتد الولاة والعمال على القبط وضيقوا عليهم
وساموهم الخسف فخرج منهم جماعة بناحية سخا وأخرجوا العمال وطردها أرباب الجباية
وذلك سنة سبعين وسبع مائة للبلاد أي سنة خمسين ومائة للهجرة فبعث اليهم يزيد بن حاتم
ابن قبيصة أمير مصر إذ ذاك عسكرا عظيما فأناهم القبط ليلا وقتلوا منهم عدة كثيرة وهزموا
بأقيهم شر هزيمة وشر دوهم فاشتد البلاء بأسباب ذلك على النصارى في الاقاليم القبلية والبحرية
وزادوا في التضيق عليهم حتى احتاجوا الى أكل الميتة والجيف وهدمت جميع الكنائس
بمصر فكان منها كنيسة العذراء التي بجوار أبي شنودة بمصر وهدمت أيضا كنائس محارب
قسطنطين فبذل أهل البلاد اسليمان بن علي أمير مصر يومئذ في تركها خمسين ألف دينار
قاي فلما ولي بعده موسى بن عيسى أذن لهم في بناء ما فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد
وعبد الله بن لهيعة فاضى مصر يومئذ واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد وبأن الكنائس
التي بمصر لم تبني الا في الاسلام في زمن الصحابة والتابعين * واستعمل جعفر المنصور في أيامه
على مصر موسى بن كعب التميمي بعد ولاية أبي عون التي كانت الى سنة احدى وأربعين
ومائة فأقام موسى المذكور سبعة أشهر ومات وولي بعده محمد بن الأشعث الخزاعي ثم عزل
سنة اثنتين وأربعين وولي نوفل بن الفرات ثم عزل نوفل وولي بعده حميد بن قطبة الطائي
ثم صرف سنة أربع وأربعين وولي يزيد بن حاتم المهلبى فأقام الى سنة اثنتين وخمسين فعزل
وولي محمد بن سعيد فأقام الى أن استخلف المهدي فعزله في سنة تسع وخمسين ومائة * ولما
مات أبو جعفر المنصور ولي الخلافة بعده محمد المهدي ابنه

(الفصل الثالث)

(في خلافة محمد المهدي)

ثم قام بالامر بعد أبي جعفر المنصور ابنه أبو عبد الله محمد المهدي بالله يوبع له بالخلافة يوم

مات أبوه المنصور بعهد منه وهو يومئذ ببغداد ثم بوبع له البيعة العامة بها لاحدى عشرة
 خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى نحو سنة أربع وسبعين وسبعمائة
 للميلاد * قال صاحب الكامل ذكر على بن محمد النوفلى عن أبيه قال خرجت من البصرة
 حاجا فاجتمعت بالمنصور بذات عرق فكنمت أسلم عليه كلما ركب وقد أشقنى على الموت فلما
 صار ببئر ميمونة نزل به ودخلنا مكة فقضيت عرتى وكنت أختلف الى المنصور فلما كان فى
 الليلة التى مات فيها ولم نعلم صليت الصبح بمكة وركبت أنا ومحمد بن عون بن عبد الله بن
 الحرث وكان من مشايخ بنى هاشم وساداتهم فلما صرنا بالابطح لقينا العباس بن محمد ومحمد
 ابن سليمان فى خيل الى مكة فسلمنا عليهما ومضينا فقلت لمحمد أحسب الرجل قد مات فكان
 كذلك ثم أتينا العسكر فاذا موسى بن المهدي قد صدر عن عمود السرادق والقاسم بن المنصور
 فى ناحية السرادق وسمعنا منهما بكاء وخرج أبو العنبر خدام المنصور مشقق الاقبية وعلى
 رأسه التراب وصاح وا أمير المؤمنين فابقى أحد الاقام ثم تقدموا ليدخلوا عليه فنفعهم الخدم
 وقال ابن عياش المنتوف سبحان الله أما شهدتم موت خليفة قط اجلسوا فجلسوا وقام القاسم
 فشق ثيابه ووضع التراب على رأسه وموسى على حاله ثم خرج الربيع وفى يده قرطاس ففقهه
 فقرأه فاذا فيه * بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف
 من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان دعاه المسلمين ثم بكى وبكى الناس ثم قال قد أمكنكم
 البكاء فانصتوا رحيمكم الله ثم قرأ * أما بعد فانى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام
 الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة أقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدى
 ولا يلبسكم شيئا ولا يذيق بعضكم بأس بعض * ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى واذكارهم
 البيعة له وحثهم على الوفاء بعهد * ثم تناول يد الحسن بن زيد وقال قم فبايع فقام الى
 موسى فبايعه الناس الاول فالاول ثم أدخل بنو هاشم على المنصور وهو فى أصفاه مكشوف
 الرأس فخلعناه حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال قال فكأننى أنظر اليه والريح تحرك شعرة
 صدغيه وذلك أنه كان وفر شعره للحلق وقد فصل خضابه حتى أتينا به حفرة وكان أول
 شئ ارتفع به على بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى من البيعة فقال على بن عيسى
 ابن ماهان والله لتبايعن أو لا ضربن عنقك فبايع ثم وجهه موسى بن المهدي الى المهدي بنحبر
 وفاء المنصور وبالبيعة له مع منارة مولى المنصور وبعث أيضا بالقضيب والبردة وبخاتم الخلافة
 وقدم الخبر مع منارة فى منتصف ذى الحجة فبايعه أهل بغداد * قال بعض أهل التاريخ
 ان الربيع كتم موت المنصور وألبسه ثيابه على أحسن ما كان يابس وأسندته وجعل
 على وجهه كاة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم حاله وأدخل أهله عليه وأدناهم منه ثم قرب
 منه هو (أى الربيع) كأنه يخاطبه ثم رجع اليهم وقال لهم أمير المؤمنين يقول لكم
 جددوا البيعة الى المهدي فبايعوه ثم أخرجهم ولم يلبث أن خرج اليهم باكا مشقق الجيب
 لا طما رأسه وهو يصيح وا أمير المؤمنين فعلوا بأن أمير المؤمنين مات * قالوا فلما بلغ ذلك

المهدى أنكره على الربيع وقال أما منعك جلالة أمير المؤمنين أن تفعل به ما فعلت وضربه *
وقال آخرون لم يصح ضربه * ولما استقر بالمهدى الخلافة تقرب منه جماعة من بني هاشم
وشدوا أزره وكلوه في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادي بن
المهدى ووافقته شيعة المهدى على ذلك أيضا فسر المهدى هذا الأمر وأعجبه جدا وكتب إلى
عيسى بن موسى بالقدوم وهو بقرية الرحبة من أعمال الكوفة فأحس عيسى بالذي يراد
منه فامتنع من القدوم فسير المهدى روح بن حاتم إلى الكوفة وولاه عالتها وأمره أن
يتصرف في عيسى بن موسى ويضربه فلم يجد روح سببا للاضرار به لأنه كان لا يأتي من القرية
إلى الكوفة إلا نادرا وألح المهدى على عيسى أنك إن لم تجيئني إلى أن تخلع نفسك من ولاية
العهد لموسى وهرون استحل دمي بعصيتك ما يستحل من أهل المعاصي وإن أجبتني عوضتك
منها ما هو أجدي عليك وأعجل نفعا * فلم يقدم عليه وخاف انتقامه فوجه إليه المهدى
عمه العباس بن محمد برسالة وكتب يستدعيه فلم يحضر معه فلما عاد العباس وجه إليه المهدى
أبا هريرة محمد بن قزوخ القائد في ألف من أصحاب المهدى المنتسبين له وجعل مع كل واحد
منهم طبلا وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعا عند ما يدخلون القرية التي بها عيسى فوصلوا
إليها محمرا وضربوا طبولهم فخاف عيسى واضطرب اضطرابا شديدا ودخل عليه أبو هريرة
وأمره بالشخص معه فاعتل بالشكوى فلم يقبل منه وأخذ معه وأنزله دار محمد بن سليمان
في عسكر المهدى فأقام أياما يأتي فيها إلى المهدى فلا يكلمه بشيء ولا يرى ما يروعه

واتفق أنه حضر الدار يوما قبل حضور المهدى فجلس في مقصورة للربيع وقد اجتمع
شيعة رؤساء المهدى على خلعه فناروا به وهو في المقصورة فأغلق الباب دونهم فضربوا الباب
بالعمد حتى كسروه وشتوا عيسى أقبح الشتم وجاء المهدى إلى مجلسه فأظهر انكارا لما فعلوه
فلم يرجعوا فبقوا على هذا الحال أياما إلى أن كلفه في ذلك أهل بيته وألح عليه المهدى فأبى
وقال إن عليه أيمانا في أهله وماله فأحضره من القضاة والفقهاء عدة فافتوه بما رأوا فأجاب
إلى خلع نفسه فأعطاه المهدى عشرة آلاف ألف درهم وضياعه بالزب وكسكر فكان خلعه
لنفسه لاربع بقين من المحرم وبابيع للمهدى ولابنه موسى الهادي ثم جلس المهدى من الغد
وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ثم خرج إلى الجامع وعيسى معه وخطب الناس وأعلمهم
بخلع عيسى والبيعة للهادي ودعاهم إلى البيعة فسارع الناس إليها وأشهد على عيسى
بأنخلع * قال صاحب الكامل * فأنشد في ذلك بعض الشعراء

كره الموت أبو موسى وقد * كان في الموت نجاة وكرم

خلع الملك وأضحى ملبسا * ثوب لؤم ماترى منه القدم

ولما دانت للمهدى الأمور وتم له ما أراد من البيعة للهادي تفرغ للغزو والجهاد فأرسل في
سنة تسع وخمسين ومائة عبد الملك بن شهاب المسمعي في جمع كثير من الجنود والمتطوعة إلى
بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند وفتحوا بإيزيد عنوة فلجأ أهلها إلى

البلد فأحرقوه عليهم ثم أصاب المسلمين يومئذ وباء عظيم فرجع من بقي منهم وبرجوعهم عصفت بهم الرياح عند ساحل حوران فكسرت جميع سفنهم ولم ينج إلا النزر اليسير وتجهز أيضا لحرب الروم في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة للبلاد أي سنة ثلاث وستين ومائة للهجرة وجعل عسكره من خراسان ونحوها وقام إلى البندنون وترك ولده موسى ببغداد وأخذ معه هرون الرشيد ثم سمع وهو في طريقه أن بحلب من الزنادقة شيء كثير فعرج إليها وأقام بها أياما فجمع سائر من بها من هذه الطائفة وقتلهم وأحرق كتبهم ثم نهض إلى جحجان وجيش ولده هرون الرشيد للغزو فتغلغل هرون في البلد وفتح وأخضع وظفر وغنم وعاد بالغنائم * وظهر في هذا الحين رجل اسمه يوسف ادعى الولاية واستغوى خلقا كثيرا وظهر أيضا بوشيا وادعى النبوة فبعث إليه المهدي جيشا عظيما وأتى به بعد قتال فصلبه ثم ظهر المقنع الخراساني واسمه عطاء وكان رجلا غريبا قيل أنه خيل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس عن بعد شاسع نحو شهرين فتبعه خلق كثير جدا فأرسل إليه المهدي جيشا وما زال يقاتله والحرب بينهم سجال حتى قتله وقد أشار ابن سينا إلى ما كان يصنع المذكور فقال

اليك فما بدر المقنع طالعا * بأسحر من الحاظ بدرى المعجم

قيل وتعالى المقنع فادعى الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالخلول الإلهي في الأنبياء كلهم إلى أن حل فيه فانسعت كلمته وطارت شهرته وكبرت هيئته وعمر قلعة تسمى بسيام وقيل تنكس بما وراء النهر من رستاق كش ونحصر بها وكان يقول بالتناسخ فاجتمع إليه أصحاب المهدي وحصروه في قلعته وشدوا في الحصار أياما كثيرة فلما يئس من نفسه سقى نساءه سما فتن ثم تناوله لنفسه فمات ودخل العسكر قلعته وقتلوا من بها من أصحابه بحد السيف قال بعض الكتاب وبعد أن تناول السم رمى بنفسه إلى النار خوفا من أن العدو يلتقي جسده وتبعه جنده فصارت القلعة خالية خاوية وكانت فعلته هذه سببا في زيادة افتتان من بقي من شيعته بما وراء النهر حتى قالوا إنه صعد إلى السماء وكان قبل ذلك قد أعلمهم بأن روحه ستحوّل إلى هيك رجل أشمط على برذون أشهب وأنه يعود إليهم ويملكهم سائر المعمور من الأرض فسكانوا ينتظرونه وهم يعرفون إلى ذلك الحين (بالمبيضة) وكان المقنع المذكور في بداية أمره قصارا من أهل كاه من أعمال مرو وكان مشوه الخلق قصيرا أعور اتخذ له رفعا من الذهب فكان لا يسفر عن وجهه أبدا ولذلك سمي بالمقنع

وكان المهدي مولعا باللهو ويأذن بالشرب في حضرته فنهأ عن ذلك وزيره يعقوب ابن داود بن طهمان فألقاه في السجن فقال فيه بشار بن برد

بنى أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم بأقوم فالتسوا * خليفة الله بين النأي والعود

وبقي يعقوب مسجوناً إلى خلافة الرشيد فأخرجه وقد عي فلحق بككة وقتل المهدي

بشارا المذكور لقوله هذين البيتين وهو أول من رتب البريد بين مكة والمدينة واليمن من بغال وابل

ومات المهدي بقرية من قرى ماسبذان وذلك أنه ساق خلف صيد فدخل خربة فدق ظهره باب الخربة من قوة سوق الفرس فتألف لوقته * وقيل بل سمته جاريته حسنة وذلك أنه خرج يريد الهادي بجرجان فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته الى كثرى فأهدتها الى جارية أخرى كان المهدي يحبها وكانت سميت كثرثة منها وهي الاطيب فر المهدي وكان يحب الكثرى فأخذ تلك الكثرثة المسمومة وأكلها فصاح من وقته جوفى جوفى فسمعت حسنة وجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول قصدت أن أنفرد بك فقتلتك ومات من يومه وقيل في موته غير ذلك وهو أنه لما خرج الى ماسبذان كان يريد خلع ابنه موسى الهادي والبيعة للرشييد بولاية العهد وتقدمه على الهادي فبعث اليه وهو بجرجان في أن يخلع نفسه فأبى فبعث اليه في القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع فسار المهدي يريده فلما بلغ ماسبذان أكل طعاما ثم قال اني داخل الى البهو أنام فلا توقظوني حتى أكون أنا الذي أنتبه فدخله فنام ونام أصحابه فاستيقظوا يبكائه فأثوه مسرعين فقال وقف على الباب رجل فقال

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ربه ومنازله

وصار عبيد القوم من بعد بهجة * وملك الى قبر عليه جنادة

فلم يبق الا ذكره وحديثه * تنادى عليه معولات حلائله

فبقى بعد ذلك عشرة أيام ومات * ويحكى أيضا أنه لما هم المهدي بالخروج الى ماسبذان قدم الى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت الى طوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوى وكان رئيس المنجمين تقول أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فحشمتنا سفرا لم يكن في الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك فلما بلغت الرسالة قال للجارية ارجعي اليها وقولي لها ان هذه الاشارة ليست منى وأما دعاؤك على تهجيل الموت فهذا الشئ قد قضى الله به وموتى سريع فلا تتوهمى أنه بدعوتك ولكن أعدى لنفسك ترابا كثيرا فإذا مات أنا فاجعليه على رأسك * قيل فما زالت متوقعة تأويل قوله هذا الى أن مات المهدي بعد عشرين يوما * قال أبو الفرج وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب في التاريخ حسن ونقل كتاب أوميروس الشاعر على فتح مدينة ايلامون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بأبلغ ما يكون من العبارات اه

وكان موت المهدي لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة للهجرة أى نحو سنة خمس وثمانين وسبعمائة للميلاد ولم يوجد له نعش يحمل عليه حمل على باب ودفن تحت شجرة جوز وله اثنتان وأربعون سنة ونصف وقيل ثلاث وأربعون سنة وكانت خلافته عشر سنين وشهرا وكان جوادا ممدوحا محبا للرعية حسن الخلق والخلق يقال ان أباه خلف في الخزائن مائة ألف درهم وستين ألف ألف ففرقها ويقال انه أجاز شاعرا بمائة ألف درهم

واستعمل في أيامه على مصر بعد عزله محمد بن سعيد في سنة تسع وخمسين أبا ضمرة محمد بن سليمان كذا في تاريخ ابن كثير وأما الجزار فقال انه ولي بعد يزيد بن حاتم عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي ثم ولي بعده أخوه فأقام سنة وشهرين ثم ولي بعده موسى ابن علي اللخمي سنة خمس وخمسين فأقام الى سنة احدى وستين ثم ولي عيسى بن اللخمي ثم ولي واضح مولى المنصور سنة اثنتين وستين ثم صرف من عامه وولي منصور بن يزيد الحميري ثم ولي بعده يحيى بن داود أبو صالح الخراساني ثم ولي سالم بن سودة التميمي سنة أربع وستين ثم ولي ابراهيم بن صالح العباسي سنة خمس وستين ثم ولي موسى بن كعب مولى خنم ثم ولي الفضل بن صالح العباسي سنة تسع وستين وهي السنة التي مات فيها المهدي كما تقدم ومات في خلافة المهدي مبنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان سنين فأقاموا بعده يوحنا وهو ثامن أربعمهم وأصله من نبا وأبو صير وكان راهبا بدير أبو مقار * وفي أيامه خرج القبط بناحية بلهيت فبعث اليهم موسى بن علي أمير مصر يومئذ جندا فقاتلهم وطال القتال بينهم أياما ثم سكنت الفتنة وعاد العمال الى مجاملتهم خوف اشتداد الفتنة فعادوا الى ما كانوا عليه من الطاعة والسكون وكان في أيام يوحنا هذا من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع)

(في خلافة موسى الهادي)

ثم قام بالامر بعد محمد المهدي ابنه موسى الهادي بوبيع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة تسع وستين ومائة هجرية أي سنة خمس وثمانين وسبعمائة ميلادية وكان مقبلا بجرجان يحارب أهل طبرستان وكان الرشيد مع المهدي بماسبذان فصار منها الى بغداد بالجند وأرسل أحد القواد الى الهادي بالخطم والقضيب والتعزية والتهنئة * فلما جاء الخبر الى الهادي نادى في عسكره بالرحيل وركب هو على البريد مجتأ فباغ بغداد في عشرين يوما فتلقاه الناس وبابعوه وكتب الى الآفاق بوقاة المهدي والبيعة له واستوزر الربيع وجعل يتصرف في الامور فلم يمض على خلافته حول كامل حتى ظهر الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة * قال صاحب الكامل * وكان سبب ذلك أن الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فلما وليها أخذ أبا الزنفار حسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذلي وعمر بن عبد السلام مولى آل عمر على نبيذ لهم فأمرهم فضربوا جميعا وجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة فجاء الحسين بن علي الى العمري وقال له قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لان أهل العراق لا يرون به بأسا فلم تطوف بهم فأمرهم فردوا وجبهم ثم ان الحسين بن

عليّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلا الحسن بن محمد فأخرجهم العري من الحبس وكان
 قد ضمن بعض آل أبي طالب بعضا وكانوا يعرضون فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين
 فأحضر العري الحسين بن عليّ ويحيى بن عبد الله وسألهم عنه وأغاظ لهما خلف له يحيى
 أنه لا ينام حتى يأتيه به أو يدق عليه باب داره حتى يعلم أنه جاءه به فلما خرجا قال له الحسين
 سبحان الله مادعاه إلى هذا ومن أين تجد حسنا تحلف له بشيء لا تقدر عليه فقال والله
 لا أنت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال له الحسين ان هذا ينقض ما كان بيننا وبين
 أصحابنا من الميعاد وكانوا قد تواعدوا عليّ أن يظهروا عني وبمكة في الموسم فقال يحيى قد كان
 ذلك فأنطلقا وعملا في ذلك من ليلتهم وخرجوا في آخر الليل وجاء يحيى حتى ضرب عليّ العري
 باب داره فلم يجده وجاؤا فاقصموا المسجد وقت الصبح فلما صلى الحسين وقت الصبح أتاه
 الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للترضى من آل محمد وجاء خالد البريدي في مائتين من
 الجند وجاء العري ووزير بن اسحق الأزرق ومحمد بن واقد الشروى ومعهم ناس كثير فدنا
 خالد منهم فقام اليه يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه
 ودار له ادريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه فانهمز أصحابه ودخل العري في المسجدة
 فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر
 ألف دينار وقيل سبعون ألفا وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم فلما كان الغد اجتمع
 عليهم شيعة بني العباس فقاتلوهم وفشت الجراحات في الفريقين واقتتلوا إلى الظهر ثم اختلفوا
 ثم ان مبارك التركي أتى شيعة بني العباس من الغد وكان قد قدم حاجا فقاتل معهم فاقتتلوا أشد
 قتال إلى منتصف النهار ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد وواعد مبارك الناس
 في الرواح إلى القتال فلما غفلوا عنه ركب راحله وانطلق وراح الناس فلم يجده فقاتلوا
 شيئا من قتال إلى المغرب ثم تفرقوا وقيل ان مباركا أرسل إلى الحسين يقول له والله لأن أسقط
 من السماء فخطفني الطير أيسر عليّ من أن تشوكك شوكة أو أقطع من رأسك شعرة ولكن
 لا بد من الاعتذار فيبتني فاني منهزم عنك فوجه إليه الحسن وخرج إليه في نفر فلما دنوا من
 عسكره صاحوا وكبروا فانهمز هو وأصحابه وأقام الحسين وأصحابه أياما يتجهزون فكان مقامهم
 بالمدينة أحد عشر يوما ثم خرجوا لست بقين من ذي القعدة فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد
 فوجدوا فيه العظام التي كانوا يأكلون وآثارهم فدعوا عليهم ولما فارق المدينة قال بأهل
 المدينة لأخلف الله عليكم بخير فقالوا بل أنت لأخلف الله عليك ولاردك علينا وكان
 أصحابه يحدثون في المسجد فغسله أهل المدينة * ولما أتى الحسين مكة أمر فتودى أيعابد
 أتانا فهو حر فاتاه العبيد فأنتهى الخبر إلى الهادي وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل
 بيته منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن عليّ والعباس بن محمد بن عليّ وموسى
 واسماعيل ابنا عيسى بن موسى فكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب
 وكان قد سار جماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق فاجتمعوا بذي طوى وكانوا قد

أحرموا بعرة فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وأحلوا من العمرة وعسكروا بنى طوى وانضم اليهم من حج من شيعتهم ومواليهم وقوادهم ثم انهم اقتتلوا يوم التروية فانهزم أصحاب الحسين وقتل منهم وجرح وانصرف محمد بن سليمان ومن معه الى مكة ولا يعلمون ما حال الحسين فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول البشرى البشرى هذا رأس الحسين فأخرجه ويحييته ضربة طولى وعلى قفاه ضربة أخرى وكانوا قد نادوا الامان بخاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزوف فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأخذته موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس بن محمد فقتلاه فغضب محمد بن سليمان غضبا شديدا وأخذ رؤس القتلى فكانت مائة رأس ونيفا وفيها رأس الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وأخذت أخت الحسين فتركت عند زينب بنت سليمان واختلط المنهزمون بالحاج وأتى الهادي بسنة أسرى فقتل بعضهم واستبقى بعضهم وغضب على موسى بن عيسى في قتل الحسن بن محمد وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات وغضب على مبارك التركي وأخذ ماله وجعله سائس الدواب فبقى كذلك حتى مات الهادي * وأفلت من المنهزمين ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي فأتى مصر وعلى يريدها واضح مولى صالح بن المنصور وكان شيعيا لعلي فحمله على البريد الى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة بمدينة وليملة فاستجاب له من بها من البربر فضرب الهادي عنق واضح وصلبه وقبل ان الرشيد هو الذي قتله وان الرشيد دس الى ادريس الشماخ اليماحي مولى المهدي فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظمه وآثره على نفسه فقال اليه ادريس وأنزله عنده ثم ان ادريس شكوا اليه مرضا في أسنانه فوصف له دواء وجعل فيه سما وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر فأخذه منه وهرب الشماخ ثم استعمل ادريس الدواء فمات منه فولى الرشيد الشماخ بريد مصر * قال أصحاب التاريخ وولد لادريس المذكور ولد جاءت منه الدولة الادريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المرا كشيية عند بناء مرا كش وكان تأسيسها في سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية أى نحو سنة سبعين وألف ميلادية

ولما وضع رأس الحسين بين يدي الهادي قال **كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت** ان أقل ما أبجزىكم أن أحرمكم جوائزكم فلم يعطهم شيأ * وكان الحسين شجاعا كريما قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها في الناس ببغداد والكوفة وخرج من الكوفة لايلاك ما يلبسه الا فروا ليس تحته قميص * ولما فرغ الهادي من قتال الحسين وأصحابه ودانت له الامور جسد في خلع هرون الرشيد والبيعة لابنه جعفر فوافقه على ذلك جماعة من قواده وجعلوا يعيبون الرشيد وينقصونه في مجالسهم وأمر الهادي أن لا يسار بين يدي الرشيد بالحربة فاجتنبه عند ذلك الناس وتركوا السلام عليه وكان الذي يتولى أمور الرشيد بأمر الهادي يحيى بن خالد بن برمك فخوفوا الهادي منه وقالوا ان الذي يفسد عليك أمرك انما هو يحيى لا هرون فبعث اليه الهادي يتهذهه ثم استدعاه ليلة لخاف وأوصى

وتحفظ وتمثل بين يديه فقال له يا يحيى مالى ولك قال ما يكون من العبد الى مولاه الا طاعته فقال لا تدخل بينى وبين أخى وتفسد على فقال من أنا حتى أدخل بينكما انما صيرنى المهدي معه ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانهيت الى أمرك فسكن غضب الهادى وقد كان هرون أذن نخلع نفسه فذعه يحيى فلما أحضره الهادى وكله فى خلع هرون قال له يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بادعت جعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة فقال الهادى صدقت يا يحيى وسكت عنه فلم يرض بذلك القواد والشيعة الذين بايعوه وعادوا فحملوا الهادى على معاودة الرشيد بالخلع فقبض على يحيى بن خالد وجبسه فأرسل اليه يحيى يقول عندى نصيحة فأحضره بين يديه فقال له يا أمير المؤمنين أرايت ان كان الامر لاتباعه ونسأل الله أن يعدمنا قبله * يريد بذلك موت الهادى * أظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الخنث أو يرضون به لصلاتهم ووجههم وغزوهم قال ما أظن ذلك فقال يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسموا اليها كابر أهلك مثل فلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك والله لو أن هذا الامر لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي أن تعقده أنت له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي ولكنى أرى أن تقر الامر على أخيك فإذا بلغ جعفر أنبت بالرشيد نخلع نفسه له وبايعه فقبل قوله وقال له نهيتنى الى أمر لم أتبه له وأطلقه ثم ان القواد عادوا القول فى خلع الرشيد فأرسل الهادى الى الرشيد فى ذلك وشدد وضيق فقال يحيى للرشيد استأذن أمير المؤمنين فى الخروج الى الصيد فإذا خرجت فابعده ودافع الايام ففعل فأذن له فضى الى قصر بنى مقاتل فقام أربعين يوما ثم استدعاه فتعمل فشد فى طلبه فحضر ثم خرج الهادى الى حديقة الموصل فرض بها واشتد مرضه فلما ثقل أجمع جميع القواد الذين كانوا بايعوا جعفرا على قتل يحيى بن خالد ولكنهم عدلوا عن ذلك وخافوا من الهادى ان تراجع اليه بحجته ولم تطل أيام مرض الهادى حتى مات فى ربيع الاول سنة سبعين ومائة هجرية فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وقيل كانت أربعة عشر شهرا وكان عمره ستا وعشرين سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ودفن بعيساباذ الكبرى فى بستانه * قيل ان وفاته كانت من قبل جوار لامه الخيزران كانت أمرتهن بقتله وكان سبب ذلك أنه لما ولي الخلافة جعلت تستبد بالامر حتى مضى أربعة أشهر فتزاحم الناس على بابها وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فكلمته يوما فى حاجة لم يجد الى اجابتها اليها سبيلا فقالت لا بد من اجابتي فقال والله لا قضيتها لك قالت اذن والله لأأسألك حاجة أبدا قال لأبأى والله فغضبت وقامت فقال مكائك والله والا أنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغتني انه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى لأضربن عنقه ولا قبضن ماله ما هذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك أياك وأياك لا تفتحنى بابك لمسلم ولا ذى فأنصرفت وهى لا تعقل من الغيظ فوضعت جواربها عليه لما مرض فقتلته بالغم والجوارس وقيل بل مات بقرحة فى جوفه * وكان طويلا

جسما أبيض مشريا بحمرة وكان بشفته العليا نقص وتقلص وكان أبوه قد وكل به خادما يقول له موسى أطبق فيضم شفته فلقب لذلك موسى أطبق * وكان شديدا جدا على الزنادقة أصحاب ماني فاعمل فيهم القتل والتشريد والصلب بوصية من أبيه المهدي وذلك أنه قال له يوما يابني اذا صار الامر اليك فتجرد لهذه العصابة يعني أصحاب ماني فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للاخرة ثم تخرجها من هذا الى تحريم اللعوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها ثم تخرجها الى عبادة اثنين أحدهما النور والاخر الظلمة ثم تبيع بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق لتنفذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرّد السيف فيها وتقرب باهرها الى الله فاني رأيت جدي العباس رضى الله عنه في المنام قلدي سيفين لقتل أصحاب الاثنين * فلما ولي الهادي أعمال فيهم القتل وأمر أن يهيا له ألف جذع ليرفع عليها كل من يأتون به من أصحاب ماني فمات ولم يدرك منشوده واستعمل على مصر في خلافته علي بن سليمان العباسي في سنة تسع وستين بعد عزله للفضل بن صالح العباسي ثم ولي موسى بن عيسى العباسي فبقي الى أن مات الهادي في سنة سبعين ومائة كما تقدم القول

(الفصل الخامس)

(في خلافة هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد الهادي أخوه هرون الرشيد بن محمد المهدي وكان أبوهما قد أخذ لهما ولاية العهد معا كما مر بوبيع له بالخلافة في الليلة التي مات فيها أخوه في رابع عشر ربيع الاول سنة سبعين ومائة هجرية أي سنة ست وثمانين وسبع مائة ميلادية وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وكان مولده بالري وولد له في تلك الليلة المأمون فكانت ليلة عجيبة لم ير مثلها في بني العباس وذلك لانه مات فيها خليفة وولد خليفة وولي خليفة * قيل لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد الى الرشيد وهو نائم في فراشه فقال له قم يا أمير المؤمنين فقال كم تزعمني اجابا منك بخلافتي فكيف تكون حالتي مع الهادي ان بلغه هذا فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه فلبس ثيابه وخرج فصلى على الهادي بعباسا * ودخل خزينة بن خازم في الليلة التي مات فيها الهادي على جعفر بن الهادي فحمله من فراشه وقال له اتخذهما أولا ضربت عنقك فلم يرتد من الاجابة الى الخلع وركب من الغد خزينة وأظهر جعفر للناس فأشهدهم جعفر بالخلع وأقال الناس من بيعتهم * ولما بوبيع الى هرون بالخلافة قلدي يحيى بن خالد البرمكي وزارته وقال له قد قلدتك أمر الرعيّة فاحكم فيها بما ترى واعزل من رأيت واستعمل من رأيت ودفع اليه خاتمه فقال ابراهيم الموصلي في ذلك

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هرون أشرق نورها
بين أمين الله هرون ذي الذي * فهرون واليهما ويحيى وزيرها

ورسم بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسماها العواصم وعمر مدينة
طرسوس وبذل الجهد في مد نطاق ملكه وتأيد سلطانه وكان سعيد الطالع موفقا في جميع
أعماله وعزل عمر بن عبد العزيز العمري عن المدينة وولى مكانه اسحق بن سليمان بن عبد الله بن
عباس ثم حج الرشيد ودخل مكة محرما وقسم في الحرمين مالا كثيرا * وفي سنة خمس وسبعين ومائة
للهمزة قامت الفتنة بدمشق بين المضربة واليمانية في ولاية عبد الصمد بن علي فجمع الرؤساء
وسعوا في الصلح فتكلموا مع بني القين فأجابوا اليه وكلوا اليمانية فحاولوا وساروا الى بني القين
وقتلوا منهم ستمائة نفر فاستنجد بنو القين قضاة وسلميا فلم ينجدوهم فاستجاشوا قيسا فأجابوهم
وقتلوا من اليمانية نحو ثمانمائة واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاه
ابراهيم بن صالح فأحسن سياستها * وحج في سنة ست وثمانين ومائة ومعه أولاده الثلاثة محمد
الامين وعبد الله المأمون والقاسم وكان قد ولي الامين العهد وأعطاه العراق والشام الى آخر
المغرب وولى المأمون العهد بعده وضم اليه همدان الى آخر المشرق وبايع لابنه القاسم من
بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خالعه واثباته للمأمون وجعله في حجر عبد الملك بن صالح
وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم ومز بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية واحد منه وآخر
من الامين وآخر من المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ثم سار الى مكة
فأعطى مثلها وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابي العهد وأشهد فيهما بالوفاء للامين
والمأمون وعلقهما في الكعبة * فتطير الناس من ذلك وخافوه جدا وأشهد على أن مافي
عسكره من الاموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون وجدد له البيعة عليهم في طبرستان
وأرسل الى بغداد فجدد له العهد على الامين

قال الكسائي دخلت على الرشيد يوما فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال
اقعد فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ولم يبق الا خاصته فقال لي يا علي
ألا تحب أن ترى محمدا وعبد الله قلت ما أشوقني اليهما يا أمير المؤمنين وأسرتني بعناية نعمة
الله على أمير المؤمنين فيهما فأمر باحضارهما فلم ألبث ان أقبلت ككوكبي أفق يزنيهما هذو
ووقار وقد غضا أبصارهما وقاربا خطوهم حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أيهما
بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالدخول منه فسير محمدا عن يمينه وعبد الله عن
يساره ثم أمرني أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت فما سألتما عن شيء الا أحسنا الجواب فيه
والخروج منه فسير بذلك الرشيد حتى تيننته فيه ثم قال لي يا علي كيف ترى مذهبهما
وجوابهما فقلت يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

أرى قرى محمد وفرعى خلافة * يزنيهما عرق كريم ومحمد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكنت في الثرى عروقه وعذبت

مشاركته أبوهما أغر نفاذ الامر واسع العلم عظيم الحلم يحكم بحكمه ويستنصيان بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان في سعاده فامتع الله أمير المؤمنين بهما وأنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب لسانا ولا أحسن ألفاظا ولا أشد اقتدارا على تأدية ما حفظا منهما ودعوت لهما دعاء كثيرا وأمن الرشيد على دعائهما ثم ضمهما اليه وجع يديه عليهما فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا أقبل عليّ فقال كأنك بهما وقد عم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله قد تشئت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تعاديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك سمور النساء * ويتمنى كثير من الاحياء أنهم في عداد الموتى * قالت أياكون ذلك يا أمير المؤمنين لامرؤى في أصل مولدهما أولا ثروقه لامير المؤمنين في مولدهما فقال لا والله الا بأثر واجب حملته العلماء عن الاوصياء عن الانبياء اه ويقال ان العمانى الشاعر قام بحضرة الرشيد فلم يزل يحرضه على محمد ويحرضه على تجديد العهد له فلما فرغ من كلامه قال له أبشر يا عمانى بولاية العهد له فقال اى والله يا أمير المؤمنين سرور العشب بالغيث والمرأة التزور بالولد والمريض المدنف بالبرء لانه نسيج وحده وحامى مجده وشبيه جدّه قال فما تقول في عبد الله قال مرعى ولا كالسعدان فتبسم الرشيد وقال قاتله الله ما أعرفه بمواضع الرعية أما والله انى لأتعرّف في عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي وعز نفس الهادى والله لو شاء الله أن أنسبه الى الرابعة لنسبته اليها * وقال الاصمعيّ بينما أنا سائر الى الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلنى قلنا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى ثم أنشأ يقول

قلد أمور عباد الله ذا ثقة * موحد الرأى لانكس ولا برم

واترك مقالة أقوام ذوى خطل * لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ثم قال لمرؤان الخادم علىّ يحيى فما لبث أن أتاه فقال يا أبا الفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية والاسلام جذع والايان جديد وكلمة العرب مجمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر وكان من خبره ما قد علمت وان أبا بكر صير الامر الى عمر فسلمت الامة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها وقد عنيت بتصحيح هذا العهد ونصيره الى من أرى سيرته وأجد طريقته وأثق بحسن سياسته وأمن ضعفه ووعنه وهو عبد الله وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والاماء في رأيه وعبد الله المرضى الطريقة الاصيل الرأى الموثوق به في الامر العظيم فان ملت الى عبد الله أسخطت بنى هاشم وان أفردت محمدا بالامر لم امن تخليطه على الرعية فأشعر علىّ في هذا الامر برأىك مشورة يعم فضلها ونفعها لانك بحمد الله

مبارك الرأي لطيف النظر * فقال يا أمير المؤمنين ان كل زلة مستقالة وكل رأي يتلافى خلا
هذا العهد فان الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لاتستدرك والنظر فيه مجلس غير هذا فعمل
الرشيد أنه يريد الخلوة فأمرني بالتخفى فتمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما فما زالوا في
مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الامر لعبد الله بعد محمد *
ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعربته
من العدد والقواد وصيرت ذلك الى عبد الله دونه فقال لها وما أنت وتميز الاعمال وأخبار
الرجال اني وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسالم
ومع ذلك فانا نتخوف ابنك على عبد الله ولا نتخوف عبد الله على ابنك ان يوبع * ويحكى
عن سعيد بن عامر البصري قال حججت في هذه السنة يعني سنة ست وثمانين ومائة التي
ج فيها الرشيد وولده وقد كتب الشرطين بينهما وعلقهما في الكعبة وقد استعظم الناس
أمر الشرط والايان في الكعبة فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيرا ويقول

وبيعة قد نكثت أيمانها * وفطنة قد سمرت نيرانها

فقلت له ويحك ما تقول قال أقول ان السيوف ستسل والفتنة ستقع والتنازع في الملك
سيظهر قلت وكيف ترى ذلك قال أما ترى البعير واقفا والرجلان يتنازعا والغربان قد
وقعا على الدم والتطخا به والله لا يكون آخر هذا الامر الا محاربة وشرا * وروى أن الأمين
لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر ابن يحيى وقال له فان
غدرت بأخيك خذ لك الله حتى فعل ذلك ثلاثا كلها يحلف له فامتعضت لذلك أم جعفر
وحقدت على جعفر بن يحيى فكانت ممن حرّض الرشيد على أمره وبعثته على ما نزل به * وقد
كان من أمر الفتنة بينهما ما سيأتى ذكره في محله ان شاء الله تعالى

ولما كانت سنة ست وثمانين ومائة للهجرة أى سنة ست عشرة وثمانمائة لليلاد أوقع
الرشيد بالبرامكة وأبادهم وقد اختلف الكتاب في الاسباب ونبأيت أقوالهم والاكثر انه
لا تيان جعفر عباسه أخت الرشيد فانه كان زوجها من جعفر ليحل له النظر اليها لان الرشيد
لم يكن يصبر على أخته ولا غنى له عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منه وجاءت بغلام وقيل
انها ولدت توأمين وقيل لان الرشيد كان حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن عند يحيى فأسراه
وقيل قتل البرامكة خوفا منهم على ملكه لانهم كانوا عظموا واشتهروا بالجود والكرم ومال
اليهم الناس وأحبوهم * وعندى أن ذلك أقرب الى الصواب * قال ابن خلدون وانما نكس
البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتيازهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب
اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف
في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم
وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكعبة وقيادة وجباية وسيف وقلم يقال انه كان يدار
الرشيد من ولد يحيى بن خالد خسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحوا

ففيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح بما لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون وليّ
عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغاب على أمره وكان يدعو يا أبتى توجه
الایشار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرف نحوهم الوجوه
وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى النجوم هدايا الملوك
وتخف الامراء وتسربت الى خزائهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في
رجال الشيعة وعظماء القراية العطاء وطوقوهم المنز وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم
وفكرو العاني ومدحوا بما لم يدح به خليفةهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلوات واستولوا على
القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحفدوا الخاصة
وأعصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوئير من
الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو خطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم
تعطفهم لما وقع في نفوسهم من الحسد عواطف الرحمة ولاردعتهم أوامر القراية وقارن ذلك
عند مخدومهم نواشي الغيرة والاستنكاف من الحجر والنفقة وكانت الحفود التي بعثتها منهم
صغار الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبراء المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله
ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخى محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج
على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزل الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد
بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل
اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخليعة سيميله والاستبداد بحمل عقاله
حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه وسأله الرشيد عنه لما وشى به اليه
ففظن وقال أطلقته فأبى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على
نفسه وقومه حتى ثل عرشه وألقيت عليهم سمائهم وخسفت الارض بهم وبادرهم وذهبت
سلفا ومثالا لآخرين أيامهم الى أن قال * وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد
عنه داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاوره
الاصمعي للرشيد والفضل بن يحيى في سمارهم تفهم أنهم انما قتلهم الغيرة والمنافسة في
الاستبداد من الخليفة فن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للغنمين
من الشعر احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفاظته لهم وهو قوله

ليت هذا أنجزتنا ما تعد * وشفت أنفسنا مما تجدد

واستبدت مرة واحدة * انما العاجز من لا يستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال اي والله اني عاجز حتى بعثوا بامثال هذه كما من غيرته

وسلطوا عليهم بأمر انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال اه

قال صاحب الكامل لما رجع الرشيد من الحج نزل العمر الذي عند الانبار سلخ المحرم وأرسل

مسرورا الخادم ومعه جماعة من الجنود الى جعفر ليلا وعنده ابن بجختي شوع الطبيب وأبو
زكار المغني وهو في الهوى وأبو زكار يغني

فلا تبعد فكل فتى سيبأني * عليه الموت بطرق أويغداي

وكل ذخيرة لا بد يوما * وان كرمت تصير الى نفاد

قال مسرور فقلت له يا أبا الفضل الذي جئت له هو والله ذلك قد طرقتك أحب أمير
المؤمنين فوق علي رجلي يقبلها وقال حتى أدخل فأوصي فقلت أما الدخول فلا سبيل اليه
وأما الوصية فاصنع ما شئت فأوصي بما أراد وأعقب مما ليك وأتتني رسل الرشيد تستعني
فصيت به اليه فأعلمته وهو في فراشه فقال اتتني برأسه فأتيت جعفرا فأخبرته فقال الله
الله والله ما أمرك الا وهو سكران فدافع حتى أصبح أوراجعه في ثانية فعدت لأراجعه
فلما سمع حسي قال ياماص بنظر أمه اتتني برأسه فرجعت اليه فأخبرته فقال أمره فرجعت
فخذني يعود كان في يده وقال نصبت من المهدي ان لم تأتني برأسه لاقتلك قال فخرجت
فقتلته وجلت رأسه اليه * وكان قتل جعفر بالانبار في صفر وبعد قتله أرسل من أحاط بيحيي ولده
وجميع أسبابه وأخذ جميع ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب الى كافة
البلاد بقبض أموالهم وأرسل رأس جعفر وجثته الى بغداد وأمر بوضع الرأس على جسر وجثته
على جسر آخر ولكنه مع ذلك لم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك قالوا لبراءته * وكان عمر جعفر
لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة والبرامكة عائلة من فارس واسعة
السمعة كانت لهم رتبة الامانة والكهانة قبل الاسلام بمائتي سنة وقد قال يحيي بن خالد
عند ما نكب * الدنيا دول والمال عارية ولنا من قبلنا أسوة وفيما لمن بعدنا عبرة *
وشاهد بعد قتله في حضنه رفعة مكنوب فيها * المقرف يذهب والمعرق يتبعه قريبا
وسينتصب الاثنان أمام قاض عدل حيث لا تغني الكتابات والاعذار شيئا * وسار الرشيد الى
الري ثم رجع الى العراق ودخل بغداد وأمر بإحراق جثة جعفر ثم مضى الى الرقة ومات
يحيي بن خالد في هذا الحين في السجن في الرقة وعمره سبعون سنة ومات الفضل بن يحيي
ابن خالد بن برمك مسجوناً في السنة الثانية وعمره خمس وأربعون سنة قيل ولم ير أجل منه
فلم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطبق المقام ببغداد فبأرجح السنة المذكورة الرقة الى
خراسان ثم سار طالبا حرب رافع بن الليث بما وراء النهر لخروجه بسمرقند فلما كان في طوس
جى به بشر بن الليث أسيرا فقال له الرشيد والله لو لم يبق من أجلى الا أن أحرك شفتي بكلمة
أقلت أقتلوه ثم أمر فصابا ففصل أعضائه ومثل به تمثيلا * وكان الرشيد قد غضب على عبد
الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فأمر به فالحقوه في السجن
مكبلا على غير سبب ظاهر فلما كان في بعض الايام استحضره وجعل يعنفه ويوبخه شديدا
قال غوث بن المدرع عن الرياشي قال سمعت الأصمعي يقول كنت عند الرشيد وأتى

بعبد الملك بن صالح يرقل في قيوده فلما نظر اليه قال هيه يا عبد الملك كائني أنظر الى شؤبيها
قد همع وعارضها قد لمع * وكائني بالوليد قد أفلح عن براجم بلامعاصم ورؤس بلا
غلاصم مهلا مهلا بنى هاشم والله والله سهل لبعكم الوعر وصفا لبعكم الكدر وألقت
اليكم الامور أزمتمها نخذوا حذرکم مني قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل * فقال له
عبد الملك أفذا أنكم أو توأما فقال بل توأما قال فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك
وراقبه في رعابك التي استرعاك * قد سهلت والله لك الوعر * وجعت على طاعتك القلوب
في الصدور * وكنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب * يعني لبيدا *

ومقام ضيق فزجته * ببيان ولسان وجهد

لا يقوم الفيل أو فياله * زل عن مثل مقامى أورحل

قال فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له يا عبد الملك
بلغني أنك حقود فقال أصح الله الوزير أن يكن الحقود هو بقاء الخير والشر عندى فانهما
لباقيان في قلبى فالتفت الرشيد الى الاصمعي فقال يا أصمعي حررها فوالله ما احتج أحد
للعقد بمنزل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد الى محبسه ثم التفت الى الاصمعي وقال والله
يا أصمعي لقد نظرت الى موضع السيف من عنقه مرارا ويعنى من ذلك إبقائى على قومي
في مثله اه

وكان هرون الرشيد موفقى الغزوات ميمون الطالع كتب اليه نيقفور ملك الروم الذي
قام بعد خلع ايرميينى الملك كتابا يقول فيه * من نيقفور ملك الروم الى هرون الرشيد ملك
العرب أما بعد فان الملكة التي كانت قبلى قد أقامتك رجا وأقامت نفسها بيديها فحملت
الك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها وما ذاك الا من ضعف النساء وحقهن
فاذا قرأت كتابي فاردد علينا ما سلبته من أموالنا والا فالسيف يقضى فيما بيننا * فلما تقدم
السفراء بالكتاب أخذه الرشيد وقرأه ولما وصل الى قوله فالسيف يقضى فيما بيننا ألقى
السفراء المذكورون ضمة سيوفهم أمامه فنظر اليها الرشيد وهو يتبسم قيل واستل سيفه وضرب
به تلك السيوف الرومية فبراها كما يرى الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الجواب * بسم
الله الرحمن الرحيم * من هرون الرشيد أمير المؤمنين الى نيقفور ملك الروم قد قرأت
كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه * وعندى أن هذا من مبالغة الكتاب لان
الرشيد كان أديبا مهيبا حسن السياسة غير مشاغب ولا متسرع الى فحش القول وهو من
الحلم وسعة الصدر بكان * قالوا ثم ركب الرشيد على نيقفور من يومه حتى نزل هوقلة ففتح
وغنم وخرب وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفا غازيا في أرضهم وفتح شرحبيل
ابن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف ومقلونية
وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذى الكلاع واستعمل الرشيد جعيد بن معيوف على
الاساطيل من سواحل الشام ومصر الى قبرص فهزم وخرب وسبي من أهلها سبعة عشر

ألفا وجاء بهم الى الرافقة فبيعوا بها وبلغ فداء أسقف قبرص يومئذ ألفي دينار * وسار
 الرشيد الى طوانة فقتل بها وحاربها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر
 فسأله نيقفور الصلح على خراج يحمله في كل سنة فصالحه ورجع الى قصره على الفرات ثم لم
 تلبث الروم حتى انتقضوا في الشتاء فركب عليهم ثمانية ولم تمنعه تلوج الجبال وقائلهم قيل
 فقتل منهم أربعين ألفا وجرح نيقفور في ثلاثة محال ثم عصى ثلاثة بجيش عليه وأخضعه *
 وكان الرشيد يركب على مائة وخمسة وثلاثين ألفا من العساكر المرتقة سوى من لا
 ديوان له والمتطوعة الجميع فمرو ثلثمائة ألف وقد تجاوز بجميع هذه الجنود مدن آسية
 الصغرى حتى أنقرة وحاصرها فلة شهرا وخربها وأخذ ما فيها من الخيرات والكنوز وما زال
 يخرب ويسلب ويأسر ويشدد على نيقفور الى أن تصالحا على أن تبقى مدينة هرقله خربة
 أمثولة وذكرنا لظفر الرشيد وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم أولاده
 الثلاثة فكان ذلك

ومات الرشيد في سنة ثلاث وتسعين ومائة اثلاث خلون من جمادى الآخرة في ليلة
 السبت بطوس وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل خمس وأربعين وكان به مرض فاشتدت
 علمته يجر جان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان قد حفر
 قبره في وسط الدار التي كان فيها قيل ولما احتضر خاف وانزعج وغشى عليه ثم أفارق فرأى
 الفضل بن الربيع فقال يا فضل

أحين دنا ما كنت أخشى دنوه * رمتني عيون الناس من كل جانب
 فأصبت مرحوما وكنيت محسدا * فصيرا على مكروه تلك العواقب
 سأبكي على الوصل الذي كان بيننا * وأندب أبام السرور الذواهب

فبكي الفضل عند سماعه هذه الابيات وترك الرشيد اثني عشر ابنا وخمس عشرة بنتا
 وكان جوادا ممدوحا غازيا مجاهدا شجاعا مهيبا مليحا أبيض طويلا عجل الجسم قد وخطه
 الشيب ويقال انه منذ استخاف كان يصلي كل يوم ليلة مائة ركعة ويتصدق من ماله الخصاص
 بألف درهم وكان له معرفة جيدة بالعلوم وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وأشهرها وقيل
 ثلاثا وعشرين فقط وكان مولده بالرى

واسم امر على مصر في خلافته مسلمة بن يحيى الأزدي بعد خلعه موسى بن عيسى
 العباسي في سنة اثنتين وسبعين ثم ولي بعده محمد بن زهير الأزدي سنة ثلاث وسبعين ثم ولي
 داود بن يزيد المهلبى سنة أربع وسبعين ثم أعاد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم عزله
 الرشيد سنة ست وسبعين وولى عليها جعفر بن يحيى البرمكي فاستناب عليها عمر بن مهران
 شيعيا ردى الشكلى أحول وكان سبب ذلك أن الرشيد بلغه أن موسى بن عيسى عزم على
 خلعه فقال والله لأولين عليها أخس الناس فاستدعى عمر بن مهران هذا وولاه عليها نيابة عن
 جعفر فسار عمر اليها على بغل وغلामه أبودرة على بغل آخر فدخلها كذلك فأنتهى الى مجلس

موسى بن عيسى جلس في أخريات الناس حتى انفضوا فأقبل عليه موسى وهو لا يعرف من هو فقال ألك حاجة يا شيخ قال نعم أصلح الله الأمير ثم مال بالكاتب فدفعها إليه فلما قرأها قال أنت عمر بن مهران قال نعم قال لعن الله فرعون حين قال أليس لي ملك مصر ثم سلم إليه العمل وارثك عنها

ثم في سنة سبع وسبعين ومائة عزل الرشيد جعفرًا عن مصر وولى عليها اسحق بن سليمان كذا في تاريخ ابن كثير وغيره وذكروا الأديب أبو الحسن الجزاري أرجوزته في أمراء مصر خلاف ذلك فإنه قال أعيد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم أعيد إبراهيم بن صالح العباسي سنة ست وسبعين ثم ولى عبد الله بن المسيب الضبي ثم ولى اسحق بن سليمان العباسي سنة سبع وسبعين كذا قال اه ثم عزل اسحق سنة ثمان وسبعين وولى هرثة بن أعين فأقام نحو من شهر ثم عزل وولى عبد الملك بن صالح العباسي فأقام إلى سلخ سنة ثمان وسبعين وولى عبد الله بن مهدي العباسي سنة تسع وسبعين ثم أعيد موسى بن عيسى سنة ثمانين ثم أعيد عبيد الله المهدي وصرف في رمضان سنة إحدى وثمانين ثم صرف وولى الليث بن الفضل البيوردي ثم ولى أحمد بن اسمعيل العباسي سنة سبع وثمانين ثم ولى عبيد الله بن محمد العباسي ثم ولى الحسين بن جميل الأزدي سنة تسعين ثم ولى مالك بن دلهم الكلبي سنة اثنتين وتسعين ثم ولى الحسن سنة ثلاث وتسعين وهي السنة التي مات فيها الرشيد ومات في أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثًا وعشرين سنة وكان تقيا محبا للفقراء ولم تصبه شذائد بل كانت أيامه كلها سلاما فأقيم بعده مرقس المعروف بالجديد وهو تاسع أربعين وأصله من مدينة الاسكندرية ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل السادس)

(في خلافة محمد الأمين بن هرون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد هرون الرشيد ابنه محمد الأمين ببيع له بالخلافة يوم توفي أبوه بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية أي سنة ثمان وثمانمائة ميلادية واستناب أخاه على ممالك خراسان وهو إذ ذاك ببغداد فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب وهما لصاحب الشريعة ثم ببيع له بها البيعة التامة في سائر الآفاق وكان الرشيد قد جدد البيعة بطوس بولاية العهد لابنه المأمون بعد الأمين كما تقدم القول وأشهد على نفسه أن جميع مأمعه من مال وسلاح وغير ذلك للمأمون وأوصى أن يكون مأمعه من الجيوش مضموين معه بخراسان فلما مات الرشيد نادى الفضل بن الربيع في عسكر الرشيد بالرحيل إلى بغداد وخالف وصية

الرشيد فعظم ذلك على المأمون وكتب الى الفضل يذكره بالعهد التي أخذها عليه الرشيد
 ويحذره البغي ويسأله الوفاء فلم يلتفت الفضل اليه فكان هذا الامر سبب ابتداء الوحشة
 بين الأمين والمأمون * وكان الأمين عديم السياسة فلم يلبث على كرسي الخلافة طويلا حتى
 أمر بإبطال ذكر اسم المأمون من الخطبة واستبدله باسم ابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان
 يومئذ طفلا فأدى ذلك الى وقوع الوحشة واستعداد الخلاف بينه وبين المأمون وطال الاخذ
 والرد بين الفريقين حينما فكثرت أحزاب المأمون وانضم اليه ناس من كبار الدولة وأمرأه
 الجند بعد أمور قد أضر بنا عن إيرادها هنا وتجهز كل منهما لقتال الآخر فأرسل الأمين على بن
 عيسى بن ماهان بجيش عظيم لقتال المأمون في خراسان وجهاز المأمون كذلك طاهر بن الحسين
 بعسكر قليل وأرسله الى الري فبلغ طاهر بيعة الأمين بن معه من الجند وبايع المأمون
 فقامت الحرب بينه وبين علي بن عيسى وقاتل عليا قتالا شديدا وقتل علي وأخذت رأسه الى
 طاهر وانهمز عسكره فأرسل الأمين عسكرا آخر صحبة أحمد بن مرشد وعبد الله بن حميد بن
 خطبة وكان مع كل واحد عشرون ألفا وساروا الى حلوان لقتال طاهر فلما وصلوا الى خافقين
 وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل في حلوان ولحقه هرثة بجيش آخر من
 عند المأمون وكتب يأمره بالقيام الى الاهواز ولما بلغ المأمون قتل ابن ماهان أمر أن يخطب
 له بامرة المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همدان الى التبت طولا ومن بحر
 فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبه بنى الرياستين يعنى رئاسة الحرب ورئاسة القلم
 * وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج ثم استولى طاهر على الاهواز وواسط والمدائن ونزل
 صرصر في سنة ست وتسعين ومائة أى نحو سنة احدى عشرة وثمانمائة للميلاد وفي التي
 بعدها ألقى هرثة وطاهر الحصار على بغداد وأوقعا فيها النهب والحريق ومنعا الميرة فغلا فيها
 سكر كل شئ ودام الحصار وشدة الحال السنة بطولها وهجم طاهر بعد ذلك على بغداد وبعد
 قتال شديد انجلى عن تمزيق شمل جند الأمين وتفريقهم أيدي سببا وخذلهم للخليفة نادى
 منادى طاهر من لزم بيته فهو آمن وتحصن الأمين في مدينة المنصور وتفرق عنه عامة جنده
 وخصيائه فحاصره طاهر وسد عليه المنافذ ثم طاب الأمين الامان من هرثة وأن يطلع
 اليه فلم يقبل فراجع طاهر في ذلك فأبى فلما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة
 ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد خرج الأمين وعلمه ثياب
 بيض وطيلسان أسود فأرسل اليه هرثة ينعه من ذلك وأن يبقى الى الليلة القنابلة فلم يقبل
 ودعا الأمين بابنيه وضهما اصدده وقبلهما وبكى ثم مضى راكبا الى الشط فوجد حراقة هرثة
 فصعد اليها فاحتضنه هرثة وضمه اليه وقبل يديه ورجليه وقد علم أصحاب طاهر بخبره فشدوا
 على حراقة هرثة حتى أغرقوها فأخرج الملاح هرثة من الماء أما الأمين فانه لما سقط شق
 ثيابه وعدا سابجا الى الجانب الثانى فأمسكوه وأخذوه عريان ووضعوه في بيت حتى جاء الليل
 وأرسل اليه طاهر بعض الانعام فقتلوه وأخذوا رأسه فنصبه طاهر على برج من أبراج بغداد

الى أن أرسلت الى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل له البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة وأقام خطبة المأمون نهار الجمعة واستببت له الخلافة واستوثق له الامر مشرقا ومغربا بعد أمور أضربنا عن ارادها هنا

قال أبو حنيفة في الاخبار الطوال وغيره عن الكسائي انه قال ان الرشيد ولاني تأديب الأمين والمأمون فكنت أشدد عليهما في الادب وأخذهما به أخذا شديدا وخاصة الأمين فأنتنى ذات يوم خالصة جارية زبيدة وقالت يا كسائي ان السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتي اليك أن ترفق بابني محمد فإنه قرّة عيني وثمرة فؤادي واني أرق عليه رقة شديدة فقلت لخالصة ان محمدا منشرح للخلافة بعد أبيه ولا يجوز التقصير في أمره فقالت خالصة ان لركة هذه السيدة سببا أنا أخبرك اياه انها في الليلة التي ولدته فيها رأت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن اليه فاكتفننه عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه فقالت التي بين يديه ملك قليل العمر كثير الكبر ضيق الصدر واهى الامر كبير الوزر شديد الغدر * وقالت التي من ورائه ملك فصاف مبذر متلاف قليل الانصاف كثير الاسراف * وقالت التي عن يمينه ملك عظيم البذل ثقل الحمل كثير الائم قطوع للرحم * وقالت التي عن يساره ملك غدار كثير العثار سريع الدمار * قال ثم بكت خالصة وقالت يا كسائي وهل ينفع الحذر من القدر اه

ولما همّ محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف يمينه فقال اسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث يقول لا يجتمع خلان في أجرة ثم جمع القواد وشاورهم فاتبعوه في مراده الى أن بلغ الى هرثة بن حازم فقال يا أمير المؤمنين لن ينحك من كذبك ولن يغشك من صدقك لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهود فينكثوا عهدك ويغشوك فان الغادر مخذول والنكاث مغلول فأقبل الأمين على علي بن عيسى بن ماهان فقبسم محمد وقال لكن شيخ هذه الدعوة ونائب هذه الدولة لا يخالف إمامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه الى موضع مارفعه اليه فيما مضى فكان علي بن عيسى هذا أول من أجاب الى خلع المأمون فأكبره الأمين وقربه وسيره في جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الري قيل له ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهرا لا يثبت له فقال ما طاهر الاشوكة من أغصان وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما يئسه وبين الأمين الا أن تقع عينه على سواد كم فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش والنعالب لا تقدر على لقاء الأسد فقال له ابنه ابعت طلائع وارقد موضعا لعسكرك فقال ليس طاهر يستعد له بالمكائد والنخبط ان حال طاهر يؤدى الى أمرين اما أن يتحصن بالرى فيثب به أهلها ويكفونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا اذا قربت خيولنا منه فقال له ابنه ان الشرارة ربما صارت ضراما فقال ان

طاهرا ليس قرنا في هذا الموضع وانما يختص الرجال من أقرانها * وسار على بن عيسى وبث
عساكره من الرى وتبين ما عليه طاهر من الجدد وأهبة الحرب وضم الاطراف فعدل الى رستاق من
رستاق الرى متياسرا عن الطريق فنزل وانبطت عساكره وأقبل طاهر في نحو من أربعة
آلاف فارس فأشرف على عساكر على وتبين كثرتها وعدة ما فيها فعلم أن لاطافة له بذلك
الجيش فقال لخواصه ومن معه نجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد في نحو القلب
في سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج اليه من القلب العباس بن
الليث مولى العهد وكان فارسا فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فألقى عليه وكان على علي
برذون فسقط كيت بين أرجل الرجال فمالوا على رأسه وتنازعوا في خاتمه ورأسه فذبحه رجل
يعرف بطاهر بن الرابي وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته وآخر على خاتمه وكان سبب
هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا للعباس بن الليث وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين لجمع
السيف بيديه * وذكر أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قال جئت الى مضرب طاهر وقد
توهم اني قتل في المعركة ومعى رأس على فقلت البشري هذه خصلة من رأس على مع غلامى في
الخلعة فطرحتها قدامه ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب اذا ماتت فأمر به
طاهرا فألقى في بئر وكتب الى ذى الرياستين فنكان في الكتاب * أطال الله بقاءك وكبت أعدائك
كتابي اليك ورأس على بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي والحمد لله رب العالمين * فسر المأمون
بذلك وسلم عليه في ذلك الوقت بالخلافة * وحدث ابراهيم بن المهدي قال بعث الى الأمين
وهو محاصر فصرته اليه فاذا هو جالس في طارمة خشبها من عود وصندل عشرة في عشرة
واذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في الطارمة وهي قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنا بأنواع
الحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من أنواع الابريسم فسلمت فاذا قدامه
قدح بلور محروق فيه شراب ينفذ مقدار خمسة أرطال وبين يدي سليمان قدح مثله فجعلت بازاء
سليمان فأثبت بقدح كالأول والثاني قال فقال الامين انما بعثت اليك لما بلغنى قدوم طاهر
ابن الحسين الى النهروان وما قد صنع في أمرنا من المكروه وقابلنا به من الاساءة فدعوتك
لأفرج بك وبمحدثك فأقبلنا نخدته ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ودعا بجارية من
خواص جواريه تسمى ضعفا قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها غينا
فوضعت العود في حجرها وغنت

كليب لعمرى كان أكثرنا صرا * وأكثرجعنا منك ضرج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها اسكتي قبحك الله ثم عاد الى ما كان عليه من الغم
والاقطاب فأقبلنا عليه نخدته ونؤنسه حتى سلا وضحك ثم أقبل عليها وقال هات ما عندك
فغنت

هم فتألموه كي يكونوا مكانه * كما غدرت يوما بكسرى مراربه

فأسكتها وزأرها وعاد الى الحالة الاولى فسليناه حتى عاد الى الضحك فأقبل عليها الثالثة فقال غنى فغنت

كان لم يكن بين الجحون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة ساحر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والحدود العواثر

وقيل بل انها غنت

أما ورب السكون والحسرك * ان المنايا كثيرة الشرك

فقال لها قومي عنى فعل الله بك وصنع بك فقامت فغثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسره فأهريق الشراب وكانت ليلة قراء ونحن على شاطئ دجلة فى قصره المعروف بالخلد فسمعنا قائلاً يقول قضى الامر الذى فيه تستفتيان * قال ابن المهدي فقت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين

لا تجيب من العجب * قد جاء ما يقضى العجب

قد جاء أمر فادح * فيه لذي عجب عجب

قال فما قنا معه بعدها الى أن قتل

ومات محمد الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة وقيل سبع وعشرين وكان طويلاً أبيض بدبع الحسن وكانت خلافته أربع سنين وثمانية شهور وقيل ثلاثة أعوام وأياماً لانه خلع فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ومن حسب له الى موته بخلافته خمس سنين خلا أشهراً وكان مبذراً للأموال لعباً لا يصلح للخلافة مشغلاً باللهو والقصف والاقبال على الذات فقال فيه بعضهم

إذا غدا ملك باللهو مشغلاً * فاحكم على ملكه بالويل والحرب

أما ترى الشمس فى الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

قال صاحب الكامل وأكثر الشعراء فى مرثى الأمين وهجائه فما قيل فى مرثيه قول

الحسين بن الضحالك وكان من ندمائه وكان لا يصدق بقتله ويطمع فى رجوعه

يا خير أسره وان زعموا * انى عليك لمثبت أسف

الله يعلم أن لى كعبدا * حرى عليك ومقلة تكف

ولئن شجيت لما رزئت به * انى لأضمر فوق ما أصف

هلا بقيت لسد فاقتنا * أبداً وكان لغيرك التلف

فلقد خلفت خلائفا سلفوا * أوليس يعوز بعدك الخلف

لا بأت رهطك بعد هونهم * انى رهطك بعدها شنف

هتكوا لحرمتك التى هتكك * حرم الرسول ودونها السجف

ونبت أقاربك التى خذلت * وجميعها بالذل معترف

تركوا حريم أيهم نفلا * والمحصنات صوارخ هتف

أبدت مخْلِخلها على دهش * أبكارهن ورنت النصف
 سلبت معاجهن واختلست * ذات النقاب وفوزع الشنف
 فكانن من خلال منتهب * در تكشف دونه الصدف
 سلاك تخوف تظمه قدر * فوهي فصرف الدهر مختلف
 هيهات بعدك أن يدوم لنا * عز وأن يبق لنسا شرف
 أفعبد عهد الله تقتله * والقتل بعد أمانة سرف
 فستعرفون غدا بعاقبة * عز الاله فأوردوا وقفوا
 يامن يخون نومه أرقا * هدت الشجون وقلبه لهف
 قد كنت لي أملا غيت به * ففضى وحل محله الأسف
 مريح النظام وعاد منكرنا * عرفا وأنكر بعده العرف
 والشمس منتشرا لفقدك * والندنيا سدى والباب منكشف

وأسرف الحسين بن الضحالك في مراى الأمين وذم المأمون فلهذا حجب المأمون عنه ولم
 يسمع مدحه مدة ثم أحضره وقال له أخبرني هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت
 قال لا قال فما قولك

ومما شجى قلبى وكشف عبرتى * محارم من آل النبي استملت
 الابيات فقال يا أمير المؤمنين لوعة غلبتني وروعة فاجأتني ونعمة سلبتها بعد أن غمرتني
 واحسان شكرته فأنتقني وسيد فقدته فأفلقني فان عاقبت فبحقك وان عفوت فبفضلك
 فدمعت عين المأمون وقال قد عفوت عنك وأمرت بأدراك أرزاقك عليك وعطائك ما فاتك
 منما وجعلت عقوبة ذنبك امتناعي من استخدامك اه

واستعمل الامين على مصر في خلافته حاتم بن هرثة بن أعين ثم صرفه في سنة خمس
 وتسعين ثم ولى المطلب بن عبد الله الخزاعي سنة ثمان وتسعين ثم صرفه وولى العباس بن
 موسى في السنة التي قتل فيها الأمين أى سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة

(الفصل السابع)

(في خلافة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد الأمين أخوه عبد الله المأمون ببيع له بالخلافة البيعة العامة
 صبيحة الليلة التي قتل فيها الأمين بأجاءع من الامة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة
 هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس فانه كان
 هو والامراء قبله وبعده لم يتقيدوا بطاعة العباسيين لبعث الديار واستبدادهم بالامر فيها

فلما استوثق الامر للمأمون تم ما بدأ به أبو جعفر المنصور جده من تعميم المعارف بين الرعية واستجلب ما تصل اليه قدرته من كتب الفلسفة والرياضيات وغيرها واستأجر لترجمتها من اللغات الاجممية مهرة المترجمين ونجباء العلماء ورتب المجالس للنظر في الأديان والفلسفة والنجوم وحث الرعية على ترك ما يرغب فيه الصين والترك ومن نحا نحوهم من التنافس في دقة الصنائع العلمية وغيرها فارتقت العرب في أيامه الى أرقى درجات العلوم والمعارف وفارقتهم أوكدت العوائد البدوية القديمة في عهد قريب جدا لم يكن في حسيان

وظهر في أيامه بالكوفة محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن العلوي المعروف بابن طباطبا ودعا الناس اليه وكان القائم بامرهم أبو السرايا فبايعه أهل الكوفة واستوثقوا له فأرسل اليه المأمون الحسن بن سهل الضبي في عشرة آلاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ولكنه لم يلبث أن مات جفاة وقيل سمه أبو السرايا ليستبد بالامر وأقام غلاما من أولاد علي يقال له ابن زيد صورة والكلمة لأبي السرايا ثم قام ففتح البصرة وواسطا وجرى بينه وبين جند المأمون عدة وقائع انجلى الامر فيها عن فرار أبي السرايا من الكوفة بثمانمائة فارس بعد أن حصره هرثة ودخل هرثة الكوفة ونادى بالامان فسار أبو السرايا الى جلولاء فتفرق عنه أصحابه ونظفروه حاد الكندغوش وقبض عليه وعلى من بقى معه وأتى بهم الى الحسن بن سهل وهو في النهروان فقتله وسير برأسه الى المأمون

وكان المأمون عيّل لآل علي ويحب عليا الرضا بن موسى الكاظم فعهد اليه بالخلافة من بعده وأمر جنده بخلع الاسود ولبس الاخضر وكتب بذلك الى الآفاق فشق الأمر على بني العباس ووقع اختلاف وهاج الناس وهموا في بغداد ببيعة ابراهيم بن المهدي وخلع المأمون لهذا السبب ولتقديمه الحسن بن سهل فبايعوا ابراهيم المذكور في سنة اثنتين ومائتين ولقب بالمبارك وكان القيم على أمور ابراهيم المطلب بن عبد الله بن مالك فاستولى ابراهيم على الكوفة وجع عسكره الى المدائن واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس ابن موسى الهادي وعلى الجانب الشرقي اسحق بن الهادي فسار يومئذ المأمون من مرو الى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عباد وعند وصوله الى برخس وثب أربعة رجال بالفضل بن سهل فقتلوه وعمره يومئذ ستون سنة فغضب المأمون وجعل لمن يقبض عليهم عشرة آلاف دينار فأمسكهم العباس بن الهيثم الدينوري فأمر المأمون بضرب أعناقهم وقام طالبا العراق فبلغ ذلك ابراهيم بن المهدي والمطلب وأصحابه فترك المطلب ابراهيم وتمارض وسار الى بغداد واشتغل سرا بجانب المأمون وخلع ابراهيم فعلم ابراهيم بذلك وكان في المدائن فقصده بغداد وأمر بالمطلب فنهبت دور أهله ولم يظفروا به وعظمت الفتنة وكاد يتسع نطاقها وكان المأمون قد تزوج ابنته من علي الرضا الذي عهد اليه بالخلافة بعده فلم يلبث حتى مات في السنة التالية لزوجاه فدفن عند قبر الرشيد وكتب المأمون الى بغداد يعلم أهلها بموته ويقول لهم ان من نقم علي بسببه قد مات فأرجعوا الى خليفتمكم فرجعوا

وخلعوا ببيعة ابراهيم بن المهدي ودعوا للمؤمن فاختنى ابراهيم وقدم المؤمن الى بغداد وانقطعت بعودته الفتن وكان لابسا الاخضر فدخل عليه الناس وسلموا بالاخضر ثم رجعوا الى اللباس الاسود كما رسم هو

وظهر في أيامه القول بخلق القرآن وقيل ظهر في أيام الرشيد وكان الناس فيه بين أخذ وترك الى زمن المؤمن فحمل الناس على القول بخلق القرآن وكل من لم يقل بخلقه عاقبه أشد عقوبة وكان الامام أحمد امام أهل السنة من الممتنعين عن القول بخلق القرآن فحمل الى المؤمن مقيدا فمات المؤمن قبل وصوله اليه * ودخل المؤمن بلاد الجزيرة والشام وأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحات عظيمة للغاية وبث العيون بعد ذلك في طلب ابراهيم بن المهدي فظفر به لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين في الدرب المعروف بالطويل ببغداد فادخل الى المؤمن وهو في زى امرأة ومعه امرأتان أخذته حارس أسود في الدرب المذكور فلما رآه المؤمن على هذه الحالة قال له هيه يا ابراهيم فقال أمير المؤمنين وليّ الثار يحكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مثله من أسباب الشقاق أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذي عفو كما جعل كل ذي ذنب دوني فان تعاقب فيحفظك وان تعف فيفضلك * قال بل العفو يا ابراهيم فكبر ابراهيم ثم خر ساجدا ثم أمر المؤمن بالاحتفاظ به الى بكرة فلما كان الغد أقعد ابراهيم في دار المؤمن والمقنعة التي تقنع بها في عنقه والملحفة على صدره ليرى الناس الحال التي أخذ عليها ثم حوله الى أحمد بن أبي خالد ثم عفا عنه من بعد أن كان وكل به فقال ابراهيم في ذلك من كلمة له

ان الذي قسم الخلافة حازها * من صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها * وحوى رداؤك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يضيق ببذله * وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عن لم يكن عن مثله * عفو ولم يشفع اليك بشافع

وهي طويلة ومطلعها

ياخير من رفلت يمانية به * بعد النبي لايس أوطامع

فذكر أن المؤمن قال حين أنشده هذه القصيدة * أقول كما قال يوسف لاختوته

لا تثرىب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

واختلف أهل مصر في أيام المؤمن وخرج عن طاعته عبد الله بن السرى واستقل بحكم البلاد فأكبر المؤمن هذا الامر جدا وسير عبد الله بن طاهر الى قتال ابن السرى فقدم ابن طاهر في سنة عشر ومائتين فلما قرب من مصر وصار على مرحلة قدم قائدا من قواده اليها لينظر موضعا يعسكر فيه وكان ابن السرى قد خندق على مصر وبث العيون والارصاد فجاء الخبر بوصول قائد ابن طاهر الى ما قرب منه فخرج اليه في أصحابه فالتقى هو والقائد

واقْتتلوا قتالا شديدا وكان القائد في قلعة فسير يريد الى عبد الله بن طاهر يخبره بما هو عليه فجعل عبدالله الرجال على البغال وجنبوا الخيل وأسرعوا السير فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن السري فلما رأى ابن السري ذلك خاف ولم يقدر على الصبر في القتال فانهمزم وتساقت أكثر أصحابه في الخندق فكان من هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض أكثر من قتله الجند بالسيف ودخل ابن السري مصر وأغلق الباب عليه وعلى أصحابه وحاصره عبد الله فلم يعد ابن السري يخرج اليه واشتد على ابن السري الامر فأرسل الى عبد الله ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار وكان ارسالهم ليلا فردتهم عبدالله وكتب اليه لوقبلت هديتكم نهارا لقبيلتها ليلا بل أنتم بهديتكم تفرحون أرجع اليهم فلتأتينهم بمجنود لا قبيل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون فعند ما وصل الكتاب الى ابن السري خاف كثيرا وطلب الامان

وبعد أن فرغ عبد الله من قتال ابن السري وتم له فتح مصر سار بعسكره الى الاسكندرية لاستخلاصها من أيدي المغلبين عليها فقد كان خرج جمع من الاندلس فتغلبوا عليها واستتبقت قدمهم فيها وأحدثوا بها من الاحداث ما راق لهم فلم يكن لاهل الاسكندرية قبل على ردهم لقيام فتنة ابن السري وغيره من خرج وكان يقدم هؤلاء القوم رجل يدعى أبا حفص وكان داهية حسن السياسة فلما رأى أبو حفص كثرة عسكر عبدالله وأن لا قبل له على قتاله أجاب الى الطاعة وسأله الامان على أن يتحصل بن معسه عن الاسكندرية الى حيث أطراف الروم فأعطاهم الامان على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزيرة افر بطش واستوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا وتناسلوا وجعل عبدالله يدبر الامور ويسوس البلاد حتى استوثقت منه الرعية بالطاعة فولاه المأمون الولاية على مصر والشام والجزيرة وأطلق كلمته فكبرت هيئته وحسده الناس وقال للمأمون بعض اخوته ان عبد الله بن طاهر عيل الى ولد علي بن أبي طالب ويتقن أن تكون الخلافة فيهم وكذا كان أبوه قبله فأنكر المأمون ذلك ولم يصدق فعاوده أخوه المعنصم وبالغ في الامر لكرهته في عبد الله فوضع المأمون رجلا وقال له امش في هيئة القراء والنساء الى مصر فادع جماعة من كبارائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ثم سر الى عبد الله بن طاهر فادعه اليه واذكر له منافقه ورغبه فيه واجتث عن باطنه واتقن بما تسمع ففعل الرجل ذلك فاستجاب له جماعة من الاعيان فقعده بباب عبد الله بن طاهر فلما خرج عبد الله يريد الركوب نهض اليه الرجل وناولوه رقعة فتناولها وسار فلما عاد الى منزله أرسل يطلب الرجل فلما دخل عليه الرجل قال له قد فهمت ما في رقعتك فهات ما عندك فقال ولي أمانك قال نعم فدعاه الى القاسم من ولد علي بن أبي طالب وذكر فضله وزهده وعلمه فقال عبد الله أنصفني يا هذا قال نعم قال هل يجب شكر الله على العباد قال نعم قال فتجيء الى وأنا في هذه الحالة من النعم لي خاتم في المشرق جائز وخاتم في المغرب جائز وفيما بينهما أمرى مطاع ثمما ألثفت عن عيني ولا شمالي وورائي وأماحي الا رأيت نعمة لرجل (يعني المأمون) أنعمها علي ومنسة ختم

بها رقبتي وبدا لأثمة بيضاء ابتدأني بها تفضلا وكرما فهل اذن تدعوني الى أن أكفر بهذه الذمة
وهذا الاحسان وتقول اغدر بن كان أولى بهذا وأحرى واسع في ازالة خيط عنقه وسفك دمه
أترك لو دعوتني الى الجنة عيانا أكان الله يحب مني أن أغدر به وأكفر احسانه وأنكث
بيعته فسكت الرجل فقال له عبد الله ما أخاف عليك الا نفسك فأرحل عن هذا البلد فان
السلطان الاعظم اذا بلغه ذلك كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك فلما أيس منه جاء الى
المأمون فأخبره فاستبشر وقال ذلك غرس يدي والى أدي وقرب سيقى ثم كتم الامر على
عبد الله حتى مات المأمون

ولما كانت سنة اثنتي عشرة ومائتين نادى منادى المأمون برئت الذمة من أحد من
الناس ذكر معاوية بنخير أو قدمه على أحد من أصحاب الرسول وتكلم في أشياء من التلاوة
انها مخلوقة وغير ذلك * قلت * وتنازع الكتاب في السبب الذي من أجله أمر بالنداء
في أمر معاوية فقليل في ذلك أقاويل منها أن بعض سماره حدث بحديث عن مطرف بن
المغيرة بن شعبة الثقفي وقد ذكر هذا الخبر ابن بكار في كتابه في الاخبار المعروفة بالموفقيات
التي وضعها للوفيق وهو ابن الزبير * قال سمعت المسدائي يقول قال مطرف بن المغيرة بن شعبة
وفدت مع أبي المغيرة الى معاوية فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف الى فيذكر معاوية
ويذكر عقله ويحجب مما يرى منه اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيتته مغتما فانتظرت
ساعة وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا فقلت له مالي أراك مغتما منذ الليلة قال يا بني
اني بحثت من عند أخبت الناس قلت له وما ذلك قال قلت له وقد خلوت به انك قد بلغت
منا يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فإني قد كبرت ولو تطرت الى اخوتك
من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه فقال لي هيات هيات
ملك أخوتهم فعدل وفعل ما فعل فوالله ما عنده أن هلك فهلك ذكره الا أن يقول قائل أبو
بكر ثم هلك أخو عدي فاجتهد وشم عشر سنين فوالله ما عنده أن هلك فهلك ذكره الا أن
يقول قائل عمر ثم ملك أخونا عثمان فلك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه فعمل ما عمل وعمل به
فوالله ما عنده أن هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل به وان أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس
مرات (أشهد أن محمدا رسول الله) فأى عمل يبقى مع هذا * لأم لك * والله الا دفنا دفنا
قال وان المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ما وصفنا
وانتشرت الكتب في الآفاق بلغته على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة
فأشير عليه بترك ذلك فتركه

قال صاحب مروج الذهب أخبرنا القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يزيد الدمشقي
بدمشق قال لما توجه المأمون غازيا ونزل البسديون جاءه رسول ملك الروم فقال له ان الملك
يخبرك بين أن يرد عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك الى هذا الموضع وبين أن
يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار وبين أن يعمر لك كل بلد

للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان وترجع عن غزائك فقام المأمون ودخل خيمة
فصلى ركعتين واستخار الله عز وجل وخرج فقال للرسول قل له أما قولك ترد على نفقتي
فاني سمعت الله تعالى يقول في كتابنا حاكيا عن بلقيس * واني مرسل اليهم بهدية فناظرة
بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أعتدوني بحال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم
بهديتكم تفرحون * وأما قولك انك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم فما في يدك
إلا أحد رجلين اما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار الى ما أراد واما رجل
الدنيا فلا فك الله أسره * وأما قولك انك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو أني
قلعت أقصى بحر في بلاد الروم ما اعتصمت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها فقالت واحمداه
واحمداه * عد الى صاحبك فليس بيني وبينه الا السيف يا غلام اضرب الطبل فرحل
فلم ينثن عن غزائه حتى فتح خمسة عشر حصنا وانصرف فنزل على عين البديدون المعروفة
بالقشيرة فاقام هناك حتى ترجع رساله من الحصون فوقف على العين ومنع الماء فأعجبه
ماؤها وبرده وصفائه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب
طوال وأمر به فبسط على العين كالجسر وجعل فوقه كالازج من الخشب وورق الشجر
وجلس تحت الكنيسة التي عقدت له والماء تحته وطرح في الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو في
قرار الماء لصفاء الماء ولم يقدر أحد أن يدخل يده في الماء من شدة برده * فبينما هو كذلك
اذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها سيفا فبادر بعض الفراشين
فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أو الخشب الذي عليه المأمون اضطربت وأفلتت
من يد الفراش فوقعت في الماء كالخجر فنضح من الماء على صدر المأمون ونحوه وترقوته فبلت
نوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب فقال المأمون
تقلى الساعة ثم أخذه رعدة من ساعته فلم يقدر أن يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج
وهو يرتعد كالسعة ويصيح البرد البرد ثم حوّل الى المضرب ودثر وأوقدوا النيران حوله وهو
يصيح البرد البرد ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قلبها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن
تناول شيء منها ولما اشتد به الامر سأل المعتصم بخنيسوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن
المأمون وهو في سكرات الموت وما الذي يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفائه
فتقدم ابن ماسويه وأخذ إحدى يديه وأخذ بخنيسوع يده الأخرى وأخذوا المجسة من كائنا يديه
فوجدوا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان
يظهر من سائر جسده كالزيت أو كالعاب بعض الافاعي فأخبرا المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك
فأنكرا وإنهما لم يجدها في شيء من الكتب وانه دال على انحلال الجسد * ثم أفاق المأمون
من غشيته وفتح عينيه من رقدته فأمر باحضار ناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع
والعين فأخبروا له عدة أسرى وأدلاء وقيل لهم فسروا هذا الاسم (القشيرة) فقيل له تفسيره
مدرجين فلما سمعها اضطرب من هذا القول وتطير منه وقال سلوهم ما اسم الموضع بالعربية

فقالوا الرقة وكان فيما علم من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالركة وكان المأمون كثيرا ما يجيد عن المقام بمدينة الرقة فرارا من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وعده به فيما تقدم من مولده وإن فيه وفاته وقيل إن اسم البديدون تفسيره مذكر جليلك والله أعلم بكيفية ذلك وأحضر المعتصم الأطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه فلما ثقل قال أخرجوني أشرف على عسكري وأنظر إلى رجالى وأتبعين ملكى وذلك فى الليل فأخرج فأشرف على الخيام والجيش وانتشاره وكثرته وما أوقدوا من النيران فقال * يا من لا يزول ملكه أرحم من قد زال ملكه ثم ردة إلى مرقده * وأجلس المعتصم رجلا يلقيه الشهادة لما ثقل مرضه فرفع الرجل صوته ليقولها فقال له ابن ماسويه لا تصح فوالله لا يفرق بين ربه وبين ماني فى هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فججز عن الكلام فرمى بطرفه إلى السماء وقد امتلأت عيناه دموعا فانطلق لسانه وقال يا من لا يموت أرحم من يموت وقضى من ساعته وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين وحمل إلى طرسوس فدفن بها فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وقيل فى سبب علته وموته غير ذلك أيضا * قال ابن خلكان وكان المأمون عظيم العفو جوادا بالمال عارفا بالنجوم والنحو وغيرهما من أنواع العلوم خصوصا علم النجوم وكان يقول لو يعلم الناس ما أجده فى العفو من اللذة لتقربوا إلى الذنوب وقال غيره أنه لم يكن فى بنى العباس أعلم من المأمون وكان يشتغل بعلم النجوم كثيرا وفى ذلك يقول أبو سعد الخزوي

هل رأيت النجوم أغنت عن الماء * مون شيأ وملكة المسانوس

خلفوه بعصرى طرسوس * مثلها خلفوا أباء بطوس

وكان أبيض مليح الوجه مربوعا طويل اللحية دينيا عارفا بالعلم فيه دهاء وسياسة وخبرة

بالامور

واستأمر على مصر فى خلافته المطلب فى سنة تسع وتسعين ومائة ثم ولى السرى بن الحكم سنة مائتين ثم ولى سليمان بن غالب سنة احدى ومائتين ثم أعيد السرى بن الحكم فى السنة فما زال إلى أن مات فى سنة خمس ومائتين فولى بعده أبو نصر محمد بن السرى ثم تغلب عليها عبدالله بن السرى فى سنة ست وأقام مستبدا بحكمها إلى سنة عشرة وقد استفحل أمره وكادت تظهر كلته ويستقل بمملكها فوجه اليه المأمون عبيد الله بن طاهر فى عسكر عظيم فقاتله وطال القتال بينهما واشتد ومازالا حتى استنقذها منه ابن طاهر بعد حروب يطول ذكرها وقد ذكر الوزير أبو القاسم المغربي أن البطيخ العبد لاوى الذى بعصر منسوب إلى عبدالله بن طاهر هذا قال ابن خلكان اما لانه كان يستطيه أولاده أول من زرعه بها * ثم ولى بعده عيسى بن يزيد الجلودى ثم فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ثار رجلان بمصر وهما عبيد السلام وابن حليس فلما طاعة المأمون واستحوذا على الديار المصرية وتبعهما طائفة من القيسية

واليمانية القاطنين بمصر وقطعا الخطبة للمأمون واستبدا بالحكم فشق ذلك على المأمون واستعظمه جدا وولى أخاه أبا اسحق بن الرشيد نيابة مصر مضافة الى الشام فقدمها سنة أربع عشرة ومائتين وقاتل عبد السلام المذكور وابن حليس قتالا عنيفا ومازال حتى فتحها عنوة وقبض على عبد السلام وابن حليس وقتلهما وأقام بمصر ثم ولى عليها عمر بن الوليد التميمي ثم صرف وولى أبو عبيد عيسى بن يزيد الجلودي ثم ولى عبدويه بن جبلة سنة خمس عشرة ومائتين ثم صرف وولى عيسى بن منصور مولى بني نصر وفي أيامه قدم المأمون الى مصر وزار الكثير من مدنها وقراها وبقي عيسى الى سنة ثمان عشرة ومائتين وهي السنة التي مات فيها المأمون كما تقدم

ومات في خلافة المأمون مرقس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة وقيل عشرين سنة وسبعين يوما فأقيم بعده يعقوب وهو خسيهم وأصله من مدينة الاسكندرية وهو راهب من دير أبو مقار وفي أيام مرقس هذا كانت الفتنة بين الاميين وعبد الله المأمون ولدى هرون الرشيد كما تقدم بيانه في محله فانتهبت النصارى يومئذ بالاسكندرية وأحرقت لهم مواضع كثيرة جدا وأحرقت أيضا ديارات وادي هيب ونهبت فلم يبق من رهبانها الا نفر قليل وكانت شدة عظيمة * وفي أيامه مضى بطرك الملكية الى بغداد وعالج بعض خطايا أهل الخليفة وقد كان طبيبا ماهرا عارفا بالطب جيدا حاذقا فيه فلما عوفيت تقدم الى الخليفة في رد كائس الملكية التي كانت القبط تغلبت عليها وأخذتها منهم فكتب الى عامله بمصر بردها فاستردها قهرا وتغلب الملكيون وقهروا المتأصلين وعلت كلمتهم وتولى البطرك المذكور بطركية الملكية أربعين سنة ثم مات واشتد الجور على القبط لذلك وسامهم العمال الخسف وضيق عليهم أصحاب جباية الاموال فلما ضاق بهم الخناق انتقضوا في سنة ست عشرة ومائتين فأوقع بهم الأوفشين وقتلهم قتالا عنيفا حتى نزلوا على حكم عبد الله المأمون ورجعوا الى الطاعة فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبي أكثرهم ومن هذا الحين ذلت القبط في أرضهم وغلبهم المسلمون على عامة القرى وشددوا عليهم وضيقوا وبالغوا في تذليلهم فاتخذوا كتابة الخراج حرفة يستعينون بها على الوقت بعد أن كانوا سادة البلاد وأصحاب حقولها ومزارعها وغياضها وبساتينها وكان لهم بعد ذلك مع المسلمين أخبار كثيرة سبأت ذكرها في محله

(الفصل الثامن)

(في خلافة أبي اسحق ابراهيم المتعصم بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد المأمون أخوه أبو اسحق ابراهيم المتعصم بن هرون الرشيد ببيع له

بالخلافة يوم موت أخيه سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية أي سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ميلادية بعهد منه فلما استوثق له الامر قام ملك الروم المسمى طيموقيل فيصر في جمع عظيم وبلغ زمطة فسبي وقتل وحرق وخرب وسبي من المسلمين والمسلمات خلقا كثيرا حتى بلغ ملطية وغيرها فقام المعتصم لقتاله وكان مغازيا شجاعا ليس في بني العباس أشجع ولا أقوى قلبا منه وقصد عمورية التي كانت أعظم المدن عند الروم فوصلها وحاصرها خمسة وخسين يوما وخرب أسوارها ودخلها عنوة قتل وقيل فيها ثلاثين ألفا وسبي مثلها وفعل أفعالا قد أضربنا عن إيرادها هنا * وكان المعتصم قد وجه عفيف بن عنبسة الى بلاد الروم لقتالها ولكنه لم يطلق يده في النفقات كما أطلق يد الافشين ولم يدحسه على شيء فعلاه البتة وقد استقصر أمره فأحس عفيف بذلك وأكبره جدا فدخل على العباس بن المأمون يوما وجعل يوبخه على فعله من مبايعة المعتصم عند وفاة المأمون ثم أخذ يشجبه على خلع بيعة المعتصم وأرجاع الامر لنفسه فقبل العباس قوله ونافذ نفسه الى الاستبداد بالامر قدس رجلا اسمه الحرث السمرقندي أحد أقارب عبيد الله بن الواح وكان العباس يأنس به ويعيل اليه وكان الحرث أدبيا له عقل ومداواة فجعله العباس رسوله وسفيره الى القواد فجعل يدور في العسكر حتى استمال له جماعة من القواد وبايعوه وجماعة من خواص المعتصم فكان يقول لكل من بايعه اذا أظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذي هو معه ووكل من بايعه من خواص المعتصم بقتل المعتصم وكذلك فعل مع غيرهم من بقية الخواص الذين بايعوه فضمنوا له ذلك فلما كان اليوم الذي دخل فيه المعتصم الدرب بعسكره يريد أنقرة وعمورية أشار عفيف الى العباس أن يثب بالمعتصم في الدرب ويقتله ويرجع الى بغداد فان الناس يفرحون بانصرافهم من الحرب فأبى العباس ذلك وقال لأفسد هذه الغزوة حتى دخلوا بلاد الروم وافتتحوا عمورية فعاد عفيف العباس في الركوب على المعتصم وقتله ودس الى العسكر بأن ينتهبوا الغنائم التي غنموها من عمورية كي لا يبقى مع المعتصم أحد فيتمكن العباس من قتله فلم يظاوعه العباس ولم يأذن أحدا ممن بايعوه بالوثوب وعلم المعتصم بما ينويه العباس وبالحال جميعه وبجميع من بايعه من القواد وغيرهم فاحضر العباس ليلة في مجلس الشراب وجعل يسقيه حتى سكر ثم استخلفه أن لا يكتبه من أمره شيئا فشرح له أمره كله فأمر به فقيده في الحال وسلمه الى الافشين فحبسه وتبع المعتصم أولئك القواد فلما نزل بمنج طلب العباس الطعام فقدم اليه طعاما كثيرا فأكل ومنع الماء وأدريج في مسح فمات من يومه وفعلوا كذلك بعفيف ومن كان معه ثم قدم راجعا الى النغور

وعم المعتصم المدينة التي كان أنشأها الرشيد ولم يستتمها وذلك في سنة عشرين ومائتين وسماعا سمر من رأى فرجها الناس وقالوا سامرا وصارت دارا لملك العباسيين من خلافة المعتصم * والمعتصم هذا أول من استخدم الترك في جنده لشدهم وبأسهم وخبرتهم بالحروب اذ كانت قد قلت حماسة العرب وارتاحوا للعيشة الرافهة حتى انهم لم يجسروا على مقابلة

الروم عند ما قام ملكهم طيموفيل لقتال المعتصم ولم يردّه الا الترك وكان لذلك يحجب الاتراك وشراهم من أيدي مواليم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوما في حوف مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنقذ رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسية فكثرت جيشه وضمهم وكانت الكلمة بين عساكره للترك فتكبروا وجاروا وظلموا وكافوا يؤذون العوام بمدينة بغداد يجبرهم الخيول في الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة أوشخ كبير أوصبي أو ضمير فأغضب ذلك المعتصم وعزم على النقلة منهم والجلاء عن بغداد وأن ينزل في فضاء من الارض فنزل الراذان على أربع فراسخ من بغداد فلم يستطع هواها فلم يزل ينتقل وينتقل المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذوا من دجلة فبنى هناك قصرا وبني الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان الا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين في ذلك معبرا للمعتصم بانتقاله عنهم

أياسا كن القاطول بين الجرامقه * تركت ببغداد الكباش البطارقة

وكان المعتصم داهية كبير السياسة مقداما صعب المراس طلب الامام أحمد قبل غزوته لمورية وكان الامام في سجن المأمون وامتنعه بخلق القرآن بناء على وصية أخيه المأمون وعقد له مجلسا للناظرة وفيه عبد الرحمن بن اسحق والقاضي أحمد بن أبي دواد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم في جدال الى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب بالسياط قبل ولم يزل عن الصراط الى أن أنعمى عليه ونخسه بحجف بالسيف ورمى عليه بارية وديس عليه ثم حل وصار الى منزله وكانت مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتي ويحدث الى أن مات المعتصم وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من القول بخلق القرآن وقال للامام أحمد لا تجتمع إليك أحدا ولا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الامام أحمد محتفيا لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرفع المحنة وأمر باحضار الامام أحمد وكرامه واعزازه وأطلق له مالا كثيرا قيل فلم يقبله وفترقه وأجرى المتوكل على أهل الامام وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم قيل فلم يرض الامام بذلك * وذكر العراقي في مجمع الاخبار وغيره ان الامام أحمد فوטר في الايام الثلاثة وان المعتصم كان يخاطبه ويقول له ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وإني لاشفق عليك مثل شفقتي على اخي هرون يعني الواثق فأجبتني فوالله لئن أجبتني لأطلقن غلك يدي ولأطأن عنتك ولأركبن اليك بجندى فيقول يا أمير المؤمنين أعطوني شيا من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا طال به المجلس فخير وقام ورد أحمد في الموضع الذي كان فيه وتتردد اليه رسل المعتصم يقولون يا أحمد أمير المؤمنين يقول لك

ما تقول في القرآن فيرد عليهم كما ردّ أولا فلما كان في اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيات والقاضي أحمد بن دواد فقال المعتصم كلموه وناظروه فلم يزالوا معه في جدال الى أن قالوا يا أمير المؤمنين اقتله ودمسه في أعناقنا فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الامام أحمد فخر مغشيا عليه فتمعرت وجوه قواد خراسان وكان عم أحمد منهم خفاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه فلما أفاق من غشيته رفع رأسه الى عمه وقال باعم لعل هذا الماء الذي رش على وجهي غصب عليه صاحبه فقال المعتصم ويحكم أما ترون ما يتهم به على هذا وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رفعت السوط حتى يقول القرآن مخلوق ثم النفث الى أحمد وقال وأعاد عليه القول فرد أحمد كالاول فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس فعند ذلك قال عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك غير هذا خذوه اخلعوه اسحبوه فأخذ وسحب وخلع ثم قال المعتصم للسياط قال العراقي وشدوا يديه فخلعت ولم يزل أحمد يتوجع منها حتى مات ثم قال المعتصم للجلادين تقدموا وتطروا السياط فقال ائتوا بغيرها ثم قال لاحدهم زمه وأوجع قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ثم قال لآخر أزمه وشد قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ثم قام المعتصم وجاء وهم محسوقون به وقال يا أحمد تقتل نفسك أجبني حتى أطلق عنقك بيدي وجعل بعضهم يقول له يا أحمد امامك على رأسك قائم فأجبه وبغيف ينخسه بالسيف ويقول أريد أن تغلب هؤلاء كلهم وبعضهم يقول يا أمير المؤمنين اجعل دمه في عنقي فارجع المعتصم الى الكرسي ثم قال للجلاذ زمه قطع الله يدك ثم جاء المعتصم اليه ثانيا وقال يا أحمد أجبني فقال كالاول فارجع المعتصم وجلس على الكرسي ثم قال للجلاذ شدة عليه قطع الله يدك * قال أحمد فذهب عقلي فما عقلت الا وأنا في حجرة مطلق عني قال الراوي وكل ذلك وهو صائم لم يفطر رضى الله عنه وضرب ثمانية عشر سوطا * ووجه المعتصم رجلا يتظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر اليه وقال والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت أشدّ ضربا من هذا ثم عالجه وبقي أثر الضرب بينا في ظهره الى أن مات والكلام على المحنة بخلق القرآن كثير جدا أضربنا عن ايراده هنا خوف الاطالة

ومات المعتصم في سنة سبع وعشرين ومائتين على دجلة في قصره المعروف بالخاقاني يوم الخميس لثمان عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول وقيل لساعتين من ليلة الخميس وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل ست وأربعين سنة وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية شهور وثمانية أيام وهو الثامن من خلفاء بني العباس قيل وخلف من الذهب ثمانية آلاف دينار ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم ومن الخيل ثمانية آلاف فرس ومثلها من الجال والبغال ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية وكان يقال له الثماني لاجل ذلك وكان أميا وذلك أنه كان له مملوك صغير يذهب معه الى الكتاب فبات فقال له

الرشيد مات مملوكك يا ابراهيم فقال استراح من الكتاب يا أمير المؤمنين فقال الرشيد أوبلغ منك الكتاب الى هذا الحد اتركوا ولدي لاتعلموه فكان أميا لذلك * قال زنا الزامر أفاق المعتصم في علتيه التي مات فيها فركب في الزلال في دجلة وأنا معه فر باراء منزله فقال يا زنا زامر لي

يا منزلا لم تبل أطلاله * حاشي لأطلاك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكنني * بكيت عيشي فيك اذولى
والعيش أولى ما بكاه الفتى * لابد للمحزون أن يسلى

قال فما زلت أزمزله هذا الصوت وأكرره وقد تناول منديلا بين يديه فما زال يبكي فيه وينتحب حتى رجع الى منزله اه ولما احتضر جعل يقول ذهبت الحيل ليست حيلة حتى أصمت ثم مات ودفن بسامرا

واستعمل المعتصم على مصر في خلافته نصر بن كيدر السعدي سنة تسع عشرة ثم ولي المظفر بن كيدر ثم ولي موسى بن أبي العباس الحنفي ثم ولي مالك بن كيدر سنة أربع وعشرين ومائتين وبقي أميرا عليها في خلافة الواثق بالله الى سنة تسع وعشرين ومائتين كما سيأتي ذكره في محله

ومات في خلافة المعتصم يعقوب بطرك الاسكندرية بعد اقامته بطركا عشر سنين وقيل عشر سنين وثمانية أشهر فأقيم بعده سميان وهو سمعان حادي خسيهم وفي أيام يعقوب البطرك المذكور خفت الشدة وزال البأس عن المسيحيين فعمرت ديارات القبط وعاد رهبانهم الى مواطنهم وعمرت كنيسة بيت المقدس لمن يرد اليها من الحاج من نصارى مصر وقدم على يعقوب المذكور ديوافوسيس بطرك انطاكية زائرا فأكرم وفادته ولبت طويلا ثم عاد الى كرسيه ومات أيضا سمعان البطرك بعد أن أقام سنة وقيل سبعة أشهر وستة عشر يوما وقيل غير ذلك وكان راهبا من رهبان دير أبو مقار فولى كرسي البطريكية بعده سنة وسبعة وعشرين يوما ثم أقيم بعده يوسف وهو يوسف ثاني خسيهم وأصله من رهبان دير أبو مقار أيضا وكان تقدمه في سنة سبع وعشرين ومائتين بدير أبو مقار بوادي هيب وهي السنة التي مات فيها الخليفة المعتصم بن هرون الرشيد كما تقدم

(الفصل التاسع)

(في خلافة هرون الواثق بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتصم ابنه هرون الواثق بالله بويع له بالخلافة بسر من رأى التي

هي مدينة السامرة يوم موت أبيه المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين هجرية * أي سنة
 إحدى وأربعين وثلثمائة ميلادية وتقدمت البيعة إلى بغداد واستقر له الأمر ببغداد وغيرها
 وكان واسع المعروف متعظفا على أهل بيته محبا للرحمة ولكنه سلك مسلك أبيه وعه في القول
 بخلق القرآن على أنه في سنة ثلاثين ومائتين لما كانت الفدية بين المسلمين والروم على نهر
 اللامس على مسيرة يومين من طرسوس بعد ما وقع بين الفريقين من الحروب الهائلة أمر
 الوثائق خاقان خادم الرشيد الذي كان الفداء على يديه يومئذ أن يسأل أسرى المسلمين واحدا
 فواحدا فن قال منهم بخلق القرآن وإن الله سبحانه وتعالى لا يرى في الآخرة بالابصار فودي
 به وأعطى دينارا ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم * فلما كان في يوم عاشوراء أتت
 الروم ومن معهم من الأسرى وكان الأمر بين الفريقين فكان المسلمون يطلقون أسيرا
 والروم أسيرا فيلنقيان وسط الجسر وما زالوا حتى فرغوا قيل وكانت عدة أسارى المسلمين أربعة
 آلاف وأربعمائة وستين والصبيان ثمانمائة ومائة من أهل الذمة فلما فاض الخبر بما فعله الوثائق
 من إكراه الناس على القول بخلق القرآن أكبروا هذا الأمر وأعظموه جدا فخرج على الوثائق
 لذلك أحمد بن نصر أحد الفقهاء وقام معه آخر اسمه هرون السراج وآخر اسمه طالب وغيرهما
 ودعوا الناس إلى أحمد بن نصر فباعه خلق على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفرقوا
 الأموال في الناس دينارا لكل واحد ففشا أمره وعلم فأرسل الوثائق من قبض على أحمد بن
 نصر المذكور وعلى طالب ومن نحا نحوهما وأرسلوا إلى الوثائق في سامرا فيل فجلس لهم
 مجلسا عاما حضر فيه أحمد بن أبي دواد فلم يسأله الوثائق عن خروجه بل سأله عن خلق القرآن
 فقال هو كلام الله ثم سأله عن رؤية الله عز وجل في الآخرة فقال جاءت بها الأخبار الصحيحة
 ونصحتي أن لا يخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل الوثائق العلماء حوله فقالوا
 باستباحة دمه فدعا الوثائق بالصمصامة وهو سيفه المشهور فأتضاه ومشى إليه وضربه على
 جبل عاتقه ثم على رأسه ثم وخزه في بطنه ثم أمر سببا إلى دمشق بأن يحضر رأسه فخرها ونصبه
 ببغداد وصلب شلوه عند بابها فزال الفتنة واختفى أمرها * وكان الوثائق محبا للنظر مكرما
 لأهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للإشراف على علوم الناس وآدابهم من تقدم وتأخر من
 الفلاسفة والمنطبيين فجري بحضرته أنواع من العلوم في الطبيعيات وما بعد ذلك من
 الإلهيات فقال لهم الوثائق قد أحببت أن أعلم كيفية إدراك معرفة الطبيب ومأخذ أصوله
 أذلك من الحس أم من القياس والسنة أم يدرك من جهة العقل أم علم ذلك وطريقه يعلم
 عندكم من جهة السمع كما يذهب إليه جماعة من أهل الشريعة وقد كان ابن بختيشوع
 وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر وقيل إن حنين بن إسحق وسلمويه فيمن حضر في هذا
 المجلس فقال منهم قائل * زعم طوائف من الأطباء وكثير من متقدميهم أن الطريق الذي
 يدرك به الطب هو التجربة فقط وحدوه بأن يتكرر الحس على محسوس واحد في أحوال
 متغيرة فيوجد بالحس في آخر الأحوال كما يوجد في أولها والحافظ لذلك المجرب وزعموا أن

التجربة ترجع الى مباد أربعة هن لها أوائل ومقدمات وبها علت وصحت واليه تنقسم التجربة فصارت بذلك أجزاء لها فزعموا أن قسما من تلك الاقسام طبيعي وهو ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض من العرق والرعاف والاسهال والقيء التي تعقب في المشاهدة منفعة أو ضررا وقسما اراديا وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الانسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضا به علة مشاهدة معقولة بشئ من الاشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه أو يخطر مثل ذلك ببالة في حال فكره فيتردد ويغلب ظنه بعطيه فيجربه بان يفعله كما يرى في منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك فيفعله مرارا فيجده كذلك وقسما هو نقل وهو على ثلاثة أقسام اما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الحجرة الى الورم المعروف بالنملة واما من عضو الى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من السفرجل الى الزعرور في علاج انطلاق البطن وكل ذلك لا يعمل به عندهم الا بالتجربة وذهب طائفة أخرى منهم الى أن الحيلة في تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلل ومولداتها الى الاصول الحاصرة الجامعة لها اذا كان لا غاية لتولدها وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود في الحال والوقت دون الاسباب الفعالة التي عدت ودون الازمان والأوقات والاسباب والعادات ومعرفة طبائع الاعضاء وحدودها الى آخر ما قال مما لا موضع هنا ليراده * قال المسعودي * وللوائق أخبار حسان مما كان في أيامه من الاحداث وما كان يجري من المباحنة في العقلليات والسمعيات في جميع الفروع والاصول مما لا يسع المقام شرحها

واعتل الوائق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبي دواد وكان قاضي الفضاة يومئذ فدعا في خطبته للوائق فقال اللهم اشفه مما ابتليته قيل وكان الوائق مؤثرا لكثرة الجماع فقال لطيبه اصنع لي دواء لذلك فقال الطبيب يا أمير المؤمنين لا تهدم بدتك بهذا الفعل واتق الله في نفسك فقال لابد من ذلك فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات يخل خمر ويتناول منه عند الشراب وزن ثلاثة دراهم ولا يتجاوز هذا القدر فأمر ببيع سبع فذبح وطبخ لجه وصار يتنقل منه على شرايه فلم يكن الا قليل حتى استسقى فأجمع رأى الاطباء على أن لا دواء له سوى أن يبزل بطنه ثم يترك في تنور قد سجر بحطب زيتون حتى يصير جرا ثم يلج فيه ففعل ذلك ومنع من الماء ثلاث ساعات فجعل يستغيث ويطلب الماء فلم يسقوه فصار في جسده نفاطات مثل البطيخ ثم أخرجه فجعل يقول ردوني في التنور والامت فردوه فسكن صياحه ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء فأخرج من التنور وقد اسود جلده ومات بعد ساعة قيل ولما احتضر جعل يقول

الموت فيه جميع الناس تشترك * لاسوقه منهم يبق ولا ملك

ماض أهل قليل في مقابرهم * وليس يغني عن الملائكة ما ملكتوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خده بالارض وجعل يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من

قد زال ملكه * فلما مات غطوه بثوب واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جردمن
البيستان فاستل عينيه وذهب بهما ولم يعلموا به حتى غسلوه وهذا من أغرب ما سمع * قال
صاحب حياة الحيوان * حكى أن ذلك له سبب وهو أن أحمد بن محمد الواثق قال كنت
أمرض الواثق إذ لحقته غشية فلما شككت أنه قد مات فقال بعضنا لبعض تقدموا فلما
جسر أحد منا فتقدمت أنا فلما أردت أن أضع اصمبى على أنفسي فتح عينه فكدت أن
أموت فزعا وتأخرت إلى خلقي فعلق قبيعة السيف بالعتبة وذعرت فاندق السيف فكاد أن
يدخل في لحي فخرجت وطلبت سيفاً غيره ثم رجعت فوقفت عنده فوجدته مات بلا شك
فشددت لحيته وغمضته وأخذ الفراشون تلك الفرش الثينة ليردوها إلى الخزانة وتركوا
وحده في البيت فقال لي أحمد بن أبي دواد القاضي إنا نستغل بعقد البيعة فأحفظه حتى
يدفن فرجعت وجلست عند الباب فسمعت بعد ذلك حركة أرعبتني فدخلت فإذا يجرد قد جاء
فاستل عينيه فأكلهما فقلت لا إله إلا الله هذه العين اتى فتحها من ساعة فعثرت واندق سيفي
هيبة لها ه * ومات الواثق بسر من رأى في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هجرية أى سنة
تسع وستين وثمانمائة لليلاد وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهر وكانت خلافته خمس سنين
وقسعة أشهر وكان أبيض ملجأ يعلوه اصفرار حسن اللحية في عينه نكتة عالما أديبا جيد
الشعر شجاعا مهيبا حازما فيه جبروت كايه

واستعمل على مصر في خلافته عيسى بن منصور حيث أعاده إليها ثانية بعد خلع مالك
ابن كيدر في آخريات سنة تسع وعشرين ومائتين وبقى أميرا عليها إلى خلافة جعفر
المتوكل في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سيأتى ذكره في محله

(الفصل العاشر)

(في خلافة جعفر المتوكل على الله)

ثم قام بالامر بعد الواثق أخوه جعفر المتوكل على الله ببيع له بالخلافة بسر من رأى
التي هي سامرا يوم موت أخيه الواثق بعهد منه في ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين
للهجرة أى سنة ست وأربعين وثمانمائة لليلاد وذلك أنهم كانوا أتوا بمحمد ولد الواثق ليبيعوه
خلافا للعهد فألبسوه قلنسوة سوداء وكان حدثا صغيرا فلما رأوه على هذا الحال عدلوا عن
رأيهم وأحضروا جعفرا أما الواثق بن المعتصم وبايعوه وأخلوا عن ولده محمد المذكور ولقبوا
جعفرا بالمتوكل وكان عمره يوم ببيع ستا وعشرين سنة وأول من سلم عليه بالخلافة أحمد بن
أبي دواد وألبسه الطويلة وعممه وقبل بين عينيه وقال له السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله

وبركاته فلما استقرت به الخلافة رفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنة وأمر بنشر آثار صاحب الشريعة قال ابن خلدون كان في ترجمته انه قال ركبنا الى دار الوائقي في مرضه الذي مات فيه لاعوده فجلس في الدهليز أنتظر الاذن فبينما أنا جالس اذ سمعت النياحة عليه واذا بايداخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتوران في أمري فقال نقتله في التنور وقال ايداخ بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل فبينما هما على ذلك اذ جاء أحمد بن أبي دواد القاضي فدخل وحادثهما كلاما لا أعقله لما دخلني من الخوف وشغل القلب بأعمال الحيلة في الهرب فبينما أنا كذلك واذا بالغلمان يتعادون ويقولون انهم يامولانا فلم أشك أني داخل لأبائع ولده الوائقي ثم ينفذ في ما قدّر فلما دخلت بايعوني فسألت عن الحال فأعلمت أن ابن أبي دواد كان السبب في ذلك ثم ان المتوكل قتل ايداخ بالماء البارد وابن الزيات في التنور وهذا من أغرب الاتفاق وعجيب الظفر ومن العجب أيضا أن محمد بن عبد الملك الزيات هو الذي صنع التنور ليعذب فيه الناس فعذبه الله فيه * انتهى

وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب وذريته فأمر في سنة ست وثلاثين ومائتين بهدم قبر الحسين بن عليّ وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يندرو يسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من اتيانه فنأدى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاثة أيام حبسناه في المطبق نخاف الناس وهربوا وتركوا زيارته وخرب وزرعوا موضعه فلم يبق له أثر وكان للمتوكل نديم اسمه عبادة المخنف فكان اذا حضر عند المتوكل في مجلس شراب يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع ثم يرقص بين يدي المتوكل والمغنون يغنون قد أقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين يريدون بذلك عليّ بن أبي طالب فانه كان كذلك والمتوكل يشرب ويضحك ففعل ذلك يوما والمنتصر حاضر فأومأ الى عبادة يتهده فسكت عبادة خوفا منه فقال المتوكل ما حالك يا عبادة فقام وأخبره فقال المنتصر يا أمير المؤمنين ان الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس انما هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخر فكأن أنت لمحسه اذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه فقال المتوكل للمغنين غنوا جميعا

غار الفتي لابن عمه * رأس الفتي في حرامه

فيل فكان ذلك من الاسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل وقيل ان الذي أغراه على بغض عليّ وأهل بيته انما هم بجااعة من اشتهروا بالتعصب والبغض لعليّ * قال صاحب الكامل منهم عليّ بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة بن لؤي وعمرو بن فرخ الرنجي وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة من موالى بني أمية وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجة وكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الواقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين ولم

يرحوا به حتى ظهر منه ما كان فغطت هذه السيئة جميع حسناته وكان من أحسن الناس سيرة ومنع الناس من القول بخلق القرآن الى غير ذلك من المحاسن اه

وفي خلافة المتوكل جاءت الروم الى دمياط في ثلثمائة مراكب حربية مع ثلاثة من كبار البحر وأرسوا على مقربة من دمياط واتفق قبل وصولهم أن غنيسة بن اسحق الضبي الذي كان يومئذ على معونة مصر لما حضر العيد أرسل في طلب جميع الجند الذين بدمياط الى مصر فساروا منها فجاءها الروم وهي خالية قد دخلوها وأعملوا في أهلها القتل وأحرقوا وسبوا ودمروا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح وكراع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والمسيحيات زهاء ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان غنيسة قد حبس بشر بن الاكشاف بدمياط لامر نفيه عليه فلما أحس بشر بدخول الروم الى البلد كسر قيوده وخرج فقاتلهم وتبعه في ذلك جماعة وسارت الروم الى اشتموم (تنيس) وكان عليه سور وبابان من حديد قد بناه المعتصم في خلافته فنهبوا ما فيه من السلاح والمتاع وأخذوا البايين وأقبلوا راجعين ولم يزل منهم أحدا * وفي خلافته قامت الفتنة بين البجاة أهل التوبة وأهل مصر وقد كان بينهما هـدنة من أيام الفتح وكان في بلاد البجاة معادن الذهب يؤدون منها الخس الى مصر فاستنوعوا أيام المتوكل وقاموا على من كان من أهل مصر بتلك المعادن فقتلوه فكتب صاحب البريد بذلك الى المتوكل فاستشار في غزوهم فقالوا له انهم أهل ابل وشاء وان بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولا يد فيها من الزاد وان فئت الازواد هلك الجند فأمسك عنهم وخاف أهل الصعيد من شرهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القمي على اسوان وقفط والاقصر واسنا وأرمنت وأمره بحرب البجاة وكتب الى غنيسة بن اسحق الضبي عامل مصر يومئذ بتجهيز العساكر معه فسيره في عشرين ألفا من الجند والمتطوعة وجمعت المراكب من القلزم دقيقا وغرا وأدما الى سواحل بلاد البجاة فلما انتهوا الى حصونهم وقلاعهم زحف عليهم ملكهم واسمه على بابا في أضعاف جنده القمي على المهارى وطاول على بابا عسكر القمي كي تفنى أزوادهم فيها يكون بلا حرب ولا قتال فلما جاءت المراكب بالمؤنة وفرق القمي في أصحابه ناجزهم البجاة الحرب وكانت ابلهم نفورة فأمر القمي جنده باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فانهمزموا وألحقن فيهم قتلا حتى استأمنوا على أداء الخراج عما مضى ولما باقى

وكانت أيام المتوكل أحسن الايام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالامن والعدل ولم يكن المتوكل يوصف في عطائه وبذله بالجود ولا بتركه وامساكه بالخل ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلته اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه الا المتوكل فانه السابق الى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء من نوع ما ذكر اتبعه فيها الكثير من خواصه وأكثر رعيته فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتبه وقواده من يوصف بجود أو افضال أو يتعالى عن مجون وطرب وكان الفتح بن خاقان

التركي مولاه أغلب الناس عليه وأقربهم منه وأكثرهم تقدما عنده ولم يكن الفتح المذكور مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجي فضله أو يخاف شره ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية عقد المتوكل البيعة لبنية الثلاثة وهم محمد ولقبه المنتصر بالله وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعتز بالله وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وأقطع كلا منهم اقطاعا محدودا وطير الاخبار بذلك الى الآفاق فزاد الناس في تعظيمهم وصارت المواكب تغدو وتروح على أبوابهم

وخرج الجند في خلافته وكادوا يشقون عصا الطاعة لولا ما استعمله من الدهاء والحيلة قال سعيد بن نكيس كنت واقفا بين يدي المتوكل في مضر به بدمشق اذ سعت الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرى بالنشاب وأقبلت أرى السهام ترتفع في الرواق فقال لي يا أبا سعد ادع لي رجاء الحضارى فدعوته فقال له يارجاء أما ترى ماخرج اليه هؤلاء فما رأى عندك فقال ياأمير المؤمنين قد كنت مشفقا في هذا السفر من مثل هذا فاشرت بما أشرت من تأخيريه فقال المتوكل اليه وقال دع ماضى وقل الآن مما حضر برأيك فقال ياأمير المؤمنين لتوضع الأعطية فقال له فهذا ماأرادوا وفيه مع ماخرجوا اليه مايعلم قال ياأمير المؤمنين مر بهذا فان رأى بعده فأمر عبد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم فلما خرج المال وبدئ بانفاقه دخل رجاء فقال مر الآن ياأمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل الى العراق فانهم لا يأخذون مما أخرج اليهم شيئا ففعل ذلك فترك الناس الاعطية حتى ان المعطى ليعتلى بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه * قال سعيد وقد كان الاثرأ رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق وكان حالها فلم يكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير فدبروا في ابعاده عنه وطرحوا في مضر المتوكل وهو بدمشق الرقاع يقولون فيها ان بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة في ذلك أن يركب في يوم كذا في خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل في قلبه من بغا كل مدخل وشكا الى الفتح ذلك وقال له في أمر بغا والاقدام عليه وشاوره في ذلك فقال ياأمير المؤمنين ان الذى كتب الرقاع قد جعل للامر دلائل في وقت بعينه من ركوب الرجل الاطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه فبعد ذلك يتبين الأمر وأنا أرى أن تمسك فان صح هذا الدليل نظرنا كيف يفعل وان بطل ما كتب به فالجهد لله وأقبلت بعد ذلك الرقاع تطرح في كل وقت على جهة النصيح والصدق فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعا فطرحوها في مضر بغا يقولون فيها ان جماعة من الغلمان والاثرك قد عزموا على الفتك بالخليفة في عسكره ودبروا ذلك واتفقوا عليه وتعاهدوا على أن يأتوه من نواحي كذا ونواحي كذا فأن الله الله الا ما احترست لامير المؤمنين وحرسه في هذه الليلة من هذه المواضع

وحصنتها بنفسك ومن تثق به فانا قد نصحتنا وصدقنا وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد في حراسة الخليفة فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب اليه فيها حقا مع ما كان وقف عليه من الامر قبل ذلك فلما كانت الليلة التي ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم الى المواضع التي ذكرت فأخذها على المتوكل وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق فأقبل بتوقع من يوافيه فيفكك به وسهر ليلته وامتنع عن الأكل والشرب فلم يزل على تلك الحال الى الغداة وبغا يحرسه والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك وقد اتهم بغا واستوحش من فعله فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له يا بغا قد أثبت نفسي مكانك مني ورأيت أن أقتلك هذا الصقع وأقر عليك ما كان لك من رزق وجاه ونزل ومعونة وكل سبب فقال أنا عبدك يا أمير المؤمنين فافعل ما شئت وأمرني بما أحببت خلفه بالشام وانصرف فاحدث المولى عليه ما أحدثوا فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ولم يعرف كل واحد منهما الحيلة في ذلك الى أن تمت الحيلة وذلك انه لما عزم بغا الصغير على قتل المتوكل دعا بباغر التركي وكان قد اصطنعه واتخذوه وملا عينه من الصلات وكان مقداما أهوج فقال له يا باغر أنت تعلم محبتي لك وتقديري اباك وإيماني لك واحساني عليك واني قد صرت عندك في حد من لا يعصى له أمر ولا يخرج عن محبته وأريد أن آمرك بشيء فعرّفي كيف قلبك فيه فقال أنت تعلم كيف أفعل فقل لي كيف شئت حتى أفعله قال ان اخي فارسا قد أفسد على علي وعمل على قتلي وسفك دمي وقد صبح عندي ذلك منه قال فتريد مني ماذا قال أريد أن يدخل علي غدا فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتي في الارض فاذا أنا وضعتها في الارض فاقتله قال نعم ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد في نفسك على قال قد آمنك الله من ذلك فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب فلم يزل يراعي بغا أن يضع قلنسوته فلم يفعل وظن أنه نسي فغمزه بعينه أي افعل قال لا فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بغا اعلم أنني فكرت في أنه حدث وانه ولدي وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة فقال له باغر أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقدّرت عليه فيه صلاحه ثم قال له وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرّفي كيف تريد أن تكون فيه قال له قل ما شئت حتى أفعله قال أخي وصيف قد صبح عندي أنه يدبر علي وعلى رفقاؤى وان مكاننا قد ثقل عليه وانه عول على أن يقتلنا ويقتلنا وينفرد بالامر قال فماذا تريد أن يصنع به قال افعل هذا فانه يصير الى غدا فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذي يكون معي قاعدا عليه فاذا رأيتني نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله قال نعم فلما صار وصيف الى بغا حضر باغر وقام مقام المستعد فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف قال فقال له بغا يا باغر اني فكرت في أنه أخي واني قد عاقدته وحلفت له فلم أستجري أن أفعل ما دبرته ووصله وأعطاه ثم أمسك عنه مدة مديدة ودعاه فقال يا باغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التي قدّمها فكيف قلبك قال فلي على ما تحب فقل ما شئت حتى أفعله فقال هذا المنتصر قد صبح عندي أنه على ايقاع التدبير

على وعلى غيري حتى يقتلنا وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك في ذلك ففكر باغر في ذلك ونكس رأسه وقال هذا لا يجيء منه شيء قال وكيف قال يقتل الابن والأب باق اذن لا يستوي لكم شيء ويقتلكم أبوه كلكم به قال فما ترى عندك قال نبدأ بالأب أولاً فنقتله ثم يكون أمر الصبي أيسر من ذلك فقال له ويحك ويفعل هذا ويتيمأ قال نعم أفعله وأدخل عليه حتى أقتله فجعل يردد عليه فيقول لانفعل غير هذا ثم قال له فادخل أنت في أثرى فان قتله والا فاقتلني وضع سيفك علىّ وقل أراد أن يقتل مولاه فعلم بغا حينئذ أنه قاتله وتوجه له في التدبير في قتل المتوكل وكانت الوحشة قائمة بين المتوكل وابنه المنتصر على ما تقدم بيانه فعمل المنتصر مع بغا على قتل أبيه المتوكل والتخلص منه فبينما المتوكل في قصره يشرب مع ندمائه وقد سكر اذ دخل عليه بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف ولم يبق عنده الا الفتح بن خاقان فاذا الغلمان الذين عندهم المنتصر لقتله قد دخلوا عليه وبأيديهم السيوف فهجموا فقال الفتح بن خاقان وبلدكم أمير المؤمنين ثم رمى بنفسه عليه فقتلوهما معا ثم خرجوا الى المنتصر فسلموا عليه بالخلافة * ذكر عن علي بن يحيى النخعي أنه قال كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتابا من كتب الملاحم فوقفت على موضع فيه ان الخليفة العاشر يقتل في مجلسه فتوقفت من قراءته فقال مالك فقلت خير قال لا بد من أن تقرأه فقرأته وحدث عن ذكر الخلفاء فقال لبت شعري من هذا الشقي المقتول * قال أبو الوارث قاضي نصيبين رأيت في النوم آتيا وهو يقول

يانائم العين في جثمان يقظان * ما بال عينك لا تبكي بهتان

أما رأيت صروف الدهر ما فعلت * بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

فأني البريد بعد أيام بقتلهما * وكان قتل المتوكل في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة وعمره نحو أربعين سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وكان أسمر رقيقا مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهمالك على اللهو والمفاكهة ولكنه أحيا السنة وأمات بدعة القول بخلق القرآن وكان قد عزم على خلع ولده المنتصر من ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه لفرط محبته لاهه وأخذ يؤذيه ويتهدده ان لم يخاع نفسه واتفق مصادره لوصيف وبغا فعلا مع المنتصر على قتله كما تقدم * حدث البخري قال اجتمعنا ذات يوم مع الندماء في مجلس المتوكل فمذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر بلغني يا أمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له مثيل فأمر المتوكل بكتاب الى عامه له بالبصرة يطلبه بشرائه بما يبلغ فنفذت الكتب على البريد وورد جواب عامل البصرة ان السيف اشتراه رجل من أهل اليمن فأمر المتوكل بالبعث الى اليمن يطلب السيف وابتاعه فنفذت الكتب بذلك قال البخري فبينما نحن عند المتوكل اذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه وعرفه أنه ابنيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم فسر بوجوده وحمد الله على ما سهل من أمره واتصاه فاستحسنه وتكلم كل واحد مناهجا يحب وجعله تحت

ثني فراشه فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لي غلاما تثق بشجاعته ونجدته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالسا قال فلم يستم الكلام حتى أقبل باغر التركي فقال الفتح يا أمير المؤمنين هذا باغر التركي قد وصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين فدعا به المتوكل فدفع اليه السيف وأمره بما أراد وقدم أن يزداد في مرتبه وأن يضعف له الرزق قال البحترى فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع اليه الا في الليلة التي ضربه فيها باغربه قال ولقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجبيا وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبير وما كانت تستعمله الملوك من الجبروت فجعلنا نخوض في ذلك وهو يتبرأ منه ثم حوّل وجهه الى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ثم أخذ من ذلك التراب فثره على لحيته ورأسه وقال انما أنا عبد الله وان من صار الى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر قال البحترى فتطيرت له من ذلك وأنكرت ما فعله من نثر التراب على رأسه ولحيته ثم قعد للشراب فلما عل فيه غنى من حضره من المغنين صوتا استحسنه ثم التفت الى الفتح فقال يا فتح ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك ثم أقبل على البكاء قال البحترى فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية فانا في ذلك اذ أقبل خادم من خدم قبيجة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها اليه قبيجة فقال له الرسول يا أمير المؤمنين تقول لك قبيجة اني استعملت هذه الخلعة لأمر المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها قال فاذا فيه دراعة حراء لم أر مثله قط ومطرف خزأجر كأنه دبق من رفته قال فلبس الخلعة والتحف المطرف قال فاني على ذلك اذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التفت عليه المطرف فجذبه جذبة فزقه من طرفه الى طرفه قال فأخذه ولفه ودفعه الى خادم قبيجة الذي جاءه بالخلعة وقال قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفا لي عند وفاتي فقلت في نفسي انا لله وانا اليه راجعون انقضت والله المدة قال وسكر المتوكل سكرًا شديدا وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيم الخدم الذين عند رأسه فبينما نحن كذلك ومضى من الليل ثلاث ساعات اذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الاتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبارق في ضوء تلك الشموع فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الاتراك على السرير فصاح بهم الفتح وبلدكم مولاكم فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والنساء قطايروا على وجوههم فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمنعهم قال البحترى فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الا عين فقده الى خاصرته ثم ثناه على جانبه الايسر ففعل مثل ذلك وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبجعه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من منته وهو صابر لا يتنحي ولا يزول قال البحترى فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل فانا جميعا فلما في البساط الذي قتل فيه وطرحا ناحية فلم يزالا على حالتهما في ليلة واحدة نهارهما حتى استقرت

الخلافة المنتصر فأمر بهما فدفنا جميعا وقيل ان فيجة كفته بذلك الطرف الممزق بعينه اه
وكان أوتامش غلام الوائق مع المنتصر فكان المتوكل يبعثه لذلك وكان بغا الصغير توحيش من
المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الاتراك اليه وأوتامش يساعده على ذلك وكان عبدا لله
ابن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز بن المتوكل وكانا
قد أوغرا قلب المتوكل على ولده المنتصر فكان المتوكل لا يبعد أحدا من الاتراك الا اجتنبه
المنتصر اليه حتى استمال قلوب الاتراك وكثير من الفراغنة والاشروسية الى أن كان من
الامر ما تقدم وقال البصري في غدير المنتصر بأبيه وقتكه به من قصيدة له

أكان ولي العهد أضمر غديره * فن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى * ولا جلت ذاك الدعاء منساره

واستعمل المتوكل على مصر في خلافته هرثة بن النضر الجبلي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين
ثم ولي ابنه حاتم في السنة فأقام شهرا وصرف ثم ولي على بن يحيى سنة أربع وثلاثين
وصرف ثم ولي أخوه اسحق بن يحيى الجبلي سنة خمس وثلاثين ثم ولي عبدا الواحد بن
يحيى مولى خزاعة سنة ست وثلاثين ثم ولي غنبة بن اسحق الضبي سنة ثمان وثلاثين ثم
عزله وولى يزيد بن عبد الله من الموالى سنة اثنتين وأربعين وبقي الى خلافة المعتز بالله فعزله
وولى مكانه من سيأتي ذكرهم في محله ان شاء الله

ومات في خلافة المتوكل يوسف بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة وقيل
سبع عشرة سنة وفي أيام يوسف هذا قدم الى مصر يعقوب مطران الحبشة وقد كانت نفقته
زوجة التجاشي لامر نفقته عليه وأقاموا عوضه أسقفا آخر فبعث التجاشي يطلب من البطرك اعادته
وشدد في ذلك فبعث به اليه وبعث أيضا عدة أساقفة الى افريقية وفي أيامه مات بطرك أنطاكية
الذي كان قدم الى مصر في السنة الخامسة عشرة من بطريكيته وفي أيامه أيضا أوفى سنة
خمس وثلاثين ومائتين أمر المتوكل الخليفة أهل الذمة يعني القبط بلبس الطيالس العسلية
وشد الزناير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين في مؤخر السرج وعمل رقعتين على
لباس الرجال مخالفة للون الثوب قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ولون كل واحدة منهما
غير لون الاخرى ومن خرجت من النساء لبست ازارا عسليا * ولم يقف المتوكل عند هذا الحد
من الشدة والجبروت حتى منعهم أيضا من لبس المناطق وهدم البيع المحدثه ورسم بأخذ
العشر من المنازل وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان
بهم في أعمال السلطان وأن لا يعلم أحد منهم مسلما وكافوا يومئذ هم أصحاب المعارف والعلوم
على اختلافها وأن لا يظهروا في عيد الشعانين صليبا ولا أن يشعلوا في الطريق نارا وأن
تسوى قبور موتاهم بالارض حتى لا يظهر لها رسم وكتب بذلك جميعه الى الآفاق ولما
كانت سنة تسع وثلاثين ومائتين هجرية أمر أيضا بأن يلبس الرجل منهم دراعتين عسليتين
على الدرايع والاقبية وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحير دون الخيل والبراذين

وغير ذلك من صنوف الشدائد والبلايا مما لا يسعنا ايراد هنا * ولما مات يوساب البطرك في خلال هذه المحن والبسدة الغريبة خلا الكرسي بعده ثلاثين يوما ثم أقيم قسيس بدير بوحنس اسمه مجنايل وهو المعروف أيضا بمجنايل ثالث خسيهم وأصله راهب بالدير المذكور وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة محمد المنتصر بالله)

ثم قام بالامر بعد المتوكل ابنه محمد المنتصر بوبيع بالخلافة فى الليلة التى قتل فيها أبوه وبوبيع له من الغد البيعة العامة وذلك فى شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة احدى وستين وثمانائة للميلاد فلم تطل مدته ولم يتمتع بالملك وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى أحدث بناءه المتوكل وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ست وعشرين

ذكر عن أبى عثمان سعيد الصغير أنه قال * لما كانت الليلة التى قتل فيها المتوكل كنانى الدار مع المنتصر فكان كلما خرج الفتح خرج معه وإذا رجع قام لقيامه وإذا ركب أخذ بركبه وسوى عليه ثيابه فى سرجه وكان اتصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيى قد أعد قوما فى طريق المنتصر ليقتلوه عند انصرافه وكان المتوكل قد أسمع وأحفظه ووثب عليه فأنصرف غضبان وأنصرفنا معه الى داره وكان واعد الاتراك على قتل المتوكل اذا ثمل من النبيذ قال فلم ألبث اذ جاءنى رسوله أن احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين الى الأمير ليركب قال فوقع فى نفسى ما كنا سمعنا من اغتيال المنتصر فركبت فى سلاح وعدة وجئت باب المنتصر فاذا هم يوجون وإذا واجن قد جاءه فأخبره أنهم قد فرغوا من المتوكل فركب فلحقته فى بعض الطريق وأنا مرعوب فرأى منى ذلك فقال ليس عليك بأس أمير المؤمنين قد شرب بقدر شربه فخان رحمه الله تعالى فشق علينا ومضينا ومعنا أحمد بن الخصيب وجماعة من القواد حتى دخلنا القصر ووكل بالأبواب فقلت له يا أمير المؤمنين لا ينبغي أن تفارقك مواليك فى هذا الوقت قال أجل وكن أنت خلف ظهري فأحطنا به وبإيعه من حضروكل من جاء يوقف حتى جاء سعيد الكبير فأرسله خلف المؤيد وقال امض أنت الى المعسكر حتى يحضر فأرسلنى فخصيت وأنا آيس من نفسى ومعى غلامان لى فلما صرت الى باب المعسكر لم أجده به أحدا من الحرس والبواين فصرت الى الباب الكبير فدفقته دقا عنيقا فأجبت بعد مدة من أنت فقلت رسول أمير المؤمنين المنتصر فضى الرسول وأبطأ وخفت وضافت على الأرض ثم فتح الباب وخرج يبدون

الخادم وأغلق الباب ثم سألتني عن الخبر فأخبرته أن المتوكل شرب بكأس شربه فمات لساعته وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر وقد أرسلني لأحضر الأمير المعتز ليبايع فدخل ثم خرج فأدخلني على المعتز فقال لي ويلك ما الخبر فأخبرته وعزيتته وقلت تحضر وتكون في أول من يبايع وتأخذ بقلب أخيك فقال حتى نصبح قال فما زلت به أنا وببيدون حتى ركب وسرنا وأنا أحدثه فسألني عن عبيد الله بن يحيى فقلت هو يأخذ البيعة على الناس والفتح قد بايع فأيس وأتينا باب الخير ففتح لنا وصرنا إلى المنتصر فلما رآه قربه وعانقه وعزاه وأخذ البيعة عليه ثم وافي سعيد الكبير بالمؤيد ففعل به مثل ذلك فأصبح الناس وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح ولما أصبح الناس شاع الخبر في الماخورة وهي مدينة المتوكل وفي أهل ساهرا يقتل المتوكل فتوافى الجنود والساكينة بباب العامة والجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعامة وكثر الناس وتسامعوا وركب بعضهم بعضا وتكلموا في أمر البيعة فخرج إليهم عتاب بن عتاب وقيل زرافة فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر فأسمعوه فدخل عليه فأعلمهم فخرج المنتصرون بين يديه جماعة من المغاربة فصاح بهم وقال خذوهم فدفعوهم فتفرقوا وقد مات منهم ستة أنفس

ولما استقام له أمر الخلافة اجتمع أحمد بن الخصيب ووصيف وبغا وهم يومئذ أصحاب الرأي في دولة المنتصر بالله وتآمروا على خلع المعتز والمؤيد ابني المتوكل من ولاية العهد خوفا منهما لأمور كانت بينهم وتعاهدوا على ذلك ووكلا جماعة الاتراك بالعمل فجدوا في ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا لا بد من خلعهما من الخلافة ومبايعه ولدك عبد الوهاب ولم يرأوا به حتى أجابهم وسير إلى المعتز والمؤيد من أحضرهما بعد أربعين يوما من خلافته وجعلوا في دار فأحس المعتز بما وراء ذلك وعلم أنهم إنما أتوا بهما للخلع فحكم أمه المؤيد في ذلك فقال المؤيد لا أظن أن أمير المؤمنين يفعل ذلك فيمنهما على هذا الحال إذ دخل عليهما جماعة من قواد المنتصر يطلبون منهما الخلع فقال المؤيد السمع والطاعة وقال المعتز لا أخلع نفسي أبدا فان أردتم القتل فسلنكم فأعلموا الخليفة بذلك ثم عادوا وهم أشد مما كانوا عليه وقالوا لا بد من الخلع وقبضوا على المعتز بعنف وأدخلوه بيتا وأغلقوا عليه الباب فلما رأى المؤيد ذلك خشي العاقبة وصاح في وجوههم ويلكم يا كلاب تفعلون بمولاكم هذه الفعال خلوا عنه ودعوني وإياه حتى أكله فسكنوا عنه وسألوا المنتصر في ذلك فأذن له فدخل عليه المؤيد وقال يا جاهل كيف تأبى الخلع وأنت تعلم أنهم نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ويحك لا تراجعهم فقال المعتز وكيف أخلع وقد جرى في الآفاق فقال هذا الأمر كان سبب قتل أبيك وهو يقتلك لا محالة فان كان في سابق علم الله أنك تلي الخلافة يوما لتلين فقال أفعل فخرج المؤيد وقال قولوا للأمير المؤمنين انه أجاب إلى الخلع فذهبوا وعادوا معهم كاتب فجلس وقال للمعتز اكتب بخطك خلعك فامتنع فقال المؤيد للكاتب هات قرطاسك أملل على ماشئت فأملى عليه كتابا إلى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر وأنه لا يحل له أن يتقلده وكره أن

يأثم المتوكل بسببه اذ لم يكن موضعا له ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحس الناس
 من بيعته ثم ناول الورقة المعتز وقال له اكتب فأبى فقال اكتب ويلك فكتب وخزج الكاتب
 عنهما فلم يكن بأسرع من أن دعاهما المنتصر فدخل عليه فأجلسهما وقال هذا كتابكما فقللا
 نعم يا أمير المؤمنين فقل لهما وطوائف الترك وقوف بين يديه أتراني خلعتكما طمعا في أن
 أعيش حتى يكبر ولدى وأبابع له والله ما طمعت في ذلك ساعة قط واذا لم يكن لي في ذلك طمع
 فوالله لأن يليها بنو أبي أحب الي من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء الترك وأوما إليهم بين قائم
 وقاعد ألحوا علي في خلعكما وشدوا في ذلك تخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة
 فيأتى عليكما فإتراني صانعا اذن أقتله فوالله ما تقي دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت اجابتهم
 الى ما سألوا أسهل علي وأقرب الى المصلحة فقبلا يده فضمهما الى صدره ثم انهما أشهدا على
 أنفسهما القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس وغيرهم بالخلع وكتب بذلك المنتصر الى
 محمد بن عبد الله بن طاهر والى غيره * حكى عن أبي العباس محمد بن سهل قال كنت أكتب
 لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكزية في خلافة المنتصر فدخلت الى بعض الاروقة
 فاذا هو مفروش ببساط سوسجرد ومسند ومصلى ووسائد بالجرة والزرقعة وحول البساط
 دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن يمين
 المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فاذا هي صورة شيرويه القتاتل
 لابيهِ ابرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بي النظر الى صورة
 عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد
 ابن عبد الملك ملك ستة أشهر فحجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله
 فقلت لأرى أنه يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق
 الى مجلس وصيف وبغا وهما في الدار الثانية فقلت لوصيف أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت
 أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه
 قاتل أبيه ابرويز وعاشا ستة أشهر بعد ما قتلوا فجزع وصيف من ذلك وقال علي بأيوب بن
 سليمان النصراني خازن الفرش فقتل بين يديه فقال له وصيف لم نجد ما يفرش في هذا اليوم
 تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك
 الفرس وغيره وقد كان ناله آثار الدماء قال سألتني أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال ما فعل
 البساط فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمتم أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم
 لاتغسله وتطويه فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة
 فقال ان الامر أشهر من ذلك يريد قتل الاتراك لابيهِ المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال
 وصيف وبغا اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه نخذه وأحرقه بالنار فلما قام أحرق بحضرة وصيف
 وبغا فلما كان بعد أيام قال المنتصر لايوب بن سليمان افرش ذلك البساط فقال وأين ذلك البساط
 فقال وما الذي كان من أمره قال ان وصيفا وبغا أمراني باحرقه فسكت المنتصر ولم يعد في أمره

شيأ الى أن مات * وكان خلع المنتصر لآخويه المعتز وإبراهيم من ولاية العهد بعده في سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية وقد كان المنوكل أخذ لهم العهد في كتب كتبها وشروط اشترطها وأقر لكل واحد منهم جزءاً من الاعمال رسمه له وجعل ولي عهده والتالي للملكة محمدا المنتصر وتالي المنتصر وولي عهده المعتز وتالي المعتز وولي عهده إبراهيم المؤيد وأخذت البيعة على الناس بذلك وفرق فيها أموالاً وعم الناس بالجوائز والصلوات وتكلم في ذلك الخطباء ونطقت به الشعراء وكان من الاعمال المشهورة فلم تلبث أن زالت وانطوى خبرها وخرج في أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيح والموصل أبو المود الشاذي فحكم واشتد أمره فيمن انضاف اليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الأكراد فسرّح اليه المنتصر جيشاً عليهم سما التركي فكانت له مع الشاذي حروب فأسر الشاذي وأتى به المنتصر فجلد عليه بالعفو وأخذ عليه العهد وخلي سبيله * أخبر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال رأى بعض الكتاب في المنام في الليلة التي استخلف في صبيحتها المنتصر كأن قائل يقول

هذا الامام المنتصر * والملك الحادي عشر

وأمره اذا أمر * كالسيف ملاقى بتر

وطرفه اذا تظسر * كالدهر في خير وشر

وأظهر المنتصر الانصاف في الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة الهيبة منها له واستوزر أحمد بن الخصب ثم ندم على ذلك ونفى عبيد الله بن خاقان وذلك أن ابن الخصب ركب ذات يوم فتظلم اليه منتظماً بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها في صدر المنتظم فقتله فتحديث الناس بذلك وقال بها بعض الشعراء يومئذ * حكى عن أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات قال كان أحمد بن الخصب سيء الرأي في والده وكان عاملاً له فجاءني مخبر من خدم الخاصة فقال ان الوزير قد نذب لاعمالكم فلانا وقد أمره في ذلك بكل مكروه وأن يصادره على بجلة من المال غليظة ذكرها فقعدت وعندى بعض أصدقائنا من الكتاب آبادر بالكتاب الى والدي بذلك فاشتغلت عن جليبي الكاتب فاتكأ على الوسادة وغفا فانتبه مرعوباً وقال قد رأيت رؤيا عجيبة رأيت أحمد بن الخصب واقفاً في هذا الموضع وهو يقول يموت الخليفة المنتصر الى ثلاثة أيام * قال قلت له الخليفة في الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار * وقد قدمنا الطعام فاستتمنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال رأيت الوزير يدار الخاصة غير مسفر الوجه واني سألت عن سبب ذلك ف قيل لي ان الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق قد دخل الحمام ونام في الباذنج فضربه الهواء وركبته حتى هائلة فدخل عليه أحمد بن الخصب فقال باسمي أنت متفلسف وحكيم الزمان تنزل من الركوب تعباً فتدخل الحمام ثم تخرج عرقاً قسماً في الباذنج فقال له المنتصر أتخاف أن أموت رأيت في المنام البارحة آتياً أتاني فقال لي تعيش خمسا وعشرين سنة فعلمت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري واني أبقى

في الخلافة هذه المدة قال فسات في اليوم الثالث فنظروا فإذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة * وفي رواية ان المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الاول ومات مع صلاة العصر لخمس ليال خلون من ربيع الآخر وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين وكان أول خليفة من بني العباس أظهر قبره وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرا وقيل أيضا ان الطيفوري الطيب سمه في مشرط حجمه به وقد كان عزم على تفريق جمع الاتراك فأخرج وصيفا في جمع كثير الى غزاة الصائفة بطرسوس وتطربوا الى بغا الصغير وقد أقبل في القصر وحوله جماعة من الاتراك فأقبل على الفضل بن المأمون فقال قتلى الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله فلما نظر الاتراك الى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة وقد شكا ذات يوم حرارة فأراد الحمامة فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم لما كان في الموضع من السم وشرب شربة بعد ذلك خلت قواه * ويقال ان السم كان في مبعض الطيب حين قصده * وذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن أبي جعفر قال رأيت في نوحى المتوكل والفتح بن خاقان وقد أحاطت بهما نار وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما فنع الوصول ثم أقبل المتوكل على فقال يا عبد الملك قل لمحمد بالكاس الذى سقيننا تشرب قال فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محمومًا فواظبت على عيادته فسمعتة في آخر علقته يقول عجلنا فعوجلنا فسات من ذلك المرض وذلك في سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر وأياما وعمره ستا وعشرين سنة وقيل خمسا وعشرين وأمه رومية وكان مربوعا سمينا أعين ألقى الانف مليحا مهيبا كامل العقل يحب الخير سخيا أديبا عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وكثرة الانصاف وحسن المعاشرة بمالم يسبقه خليفة الى مثله قيل ولما احتضر أنشد يقول

وما فرحت نفسى بدنيا أخذتها * ولكن الى الرب الكريم مصيرى

وكان محبا لعلى بن أبى طالب وأولاده فأمر الناس بزيارة قبر على والحسين وأمن العلويين وكانوا في خوف أيام أبيه وأطلق وقوفهم وردلهم كثيرا مما أخذ منهم ومن كلامه والله ما عز ذوبا طل ولو طلع القمر من جبينه ولا ذل ذوحق ولو اتفق العالم عليه ومات في أيامه ميخائيل بطرك المتأصلين بعد أن أقام سنة وقيل سنة وخمسة أشهر ودفن بدير أبو مقار وهو أول بطرك دفن بالدير المذكور نقلا الكرسى بعده أحدا وثمانين يوما ثم أقيم بعده شماس بدير أبو مقار اسمه قسيما وهو قرمان رابع خنسيهم وأصله من مدينة سمود بأقليم الغربية وكان جليل القدر متواضعا ووقع من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الثاني عشر)

(في خلافة أحمد المستعين بالله)

ثم قام بالأمر بعد المنتصر ابن عمه أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم ببيع له بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية أي سنة اثنين وستين وثمانمائة لليلاد وعمره اذ ذلك ثمان وعشرون سنة * قال أصحاب التاريخ * لما مات المنتصر اجتمع غلمانه ومواليه ومماليكه وبينهم بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش وغيرهم من كبار المماليك واتفقوا على أن لا يولوا الخلافة أحدا من أولاد المتوكل خوفا على أنفسهم من أولاد المتوكل وشدد أحمد بن الخصب في ذلك فاستحلفوا قواد الترك والمغاربة والاشروسية على ذلك وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم كي لا يخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم فبايعوه في الليلة المذكورة فلما كان يوم الاثنين سار المستعين الى دار العامة في زى الخلافة وسار ابراهيم بن اسحق بين يديه بالحربة واصطف له بعض الجند صفين وحضر الدار أصحاب المراتب العالية من العباسيين والطلبين وغيرهم فبينما هم على هذا الحال إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق واذا نحو من خمسين فارسا قالوا انهم من أصحاب محمد بن عبد الله ابن طاهر ومعهم جماعة من أخلاط الناس والغوغاء والسوقة وشهروا السلاح وصاحوا النفير يامنصور وشدوا على من كان هناك من الجند واختلط بعضهم ببعض فحمل عليهم الجند فهزموهم حتى أدخلوهم أحد الدروب وتبعوهم فقتل جماعة من الفريقين ثم تفرقوا وقد كانت البيعة تمت للمستعين وانصرف من حضر من جماعة الاتراك والهاشميين وغيرهم فدخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة فانتهبوا ما كان في خزائنها من الاسلحة والسيوف والتروس وغير ذلك فأدركهم بغا في طائفة من الترك فقتل منهم خلقا وأجلاهم عن الخزانة واشتد القتال بين الفريقين ثم تفرقوا وطيروا الخبر بالبيعة الى الاكاف فبايعوا جميعا * ولما قامت الفتنة وخرجت الغوغاء وانتهبوا دار العامة هم الاتراك بقتل المعتز والمؤيد فنعهم أحمد بن الخصب من ذلك وأشار بحبسهما فحبسوا في الجوسق ووكل بهما فلم يتم على ابن الخصب سنة حتى غضب عليه المستعين واستصفي ماله ومال ولده ونفاه الى اقريطش ثم كادت الامور تعطل ونظام الخلافة يختل اذ ظهرت الفتنة ببغداد وسامرا وقامت الغوغاء وانضم اليهم بعض الجنود ففتحوا الجوسق وأخرجوا من بها فبعثوا في طلبهم طائفة من الموالى فوثب العامة بهم فهزموهم فرسم الخليفة بركوب بغا وأوتامش ووصيف وعامة الترك فقتلوا من العامة جماعة وصارت العامة تضرب بالاجار وما زالوا بهم حتى فرقوهم وانقضت الفتنة * واستوزر المستعين بالله أبا موسى أوتامش المذكور فعملت كلمته واتسعت شهرته وأباح له الخليفة

التصرف في بيت المال وأطلق يده فأخذ وادخر والمواالي تنظر الى الاموال تؤخذ وهم في ضيق وشدة فناروا على أوتامش وانضم اليهم جماعة من العامة وزحفوا اليه وهو في الجوسق مع المستعين فأراد الهرب فلم يمكنه فاستجار بالمستعين فلم يجره وأقاموا على ذلك يومين ثم دخلوا الجوسق وأخذوا أوتامش فقتلوه وقتلوا كاتبه ونهبوا داره فأخذوا منه أموالا كثيرة وتحفها وثيابا فاخرة فلما قتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزيد ثم وقعت بين بغا الصغير وأبي صالح المذكور وحشة فهرب أبو صالح الى بغداد واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجاني بعده

وظهر بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن اسماعيل ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار نخشى المستعين أمره وسير اليه من قتله وجل رأسه الى بغداد فأمر بصلبه فضج الناس من ذلك لما كان في نفوسهم من المحبة له لانه استفتح أموره بالكف عن الدماء والتورع عن أخذ شيء من أموال الناس وأظهر العدل والانصاف قيل وكان خروجه لذل نزل به وشدة لحقته ومحنة نالت من المتوكل وطوائف الترك ودخل الناس الى محمد بن طاهر يهنئونه بالفتح وهم مع ذلك في ضجر من مقتل أبي الحسن يحيى ودخل عليهم أبو هاشم الجعفرى وهو داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء ولم يكن يعرف في ذلك الوقت أقعد نسباً في آل أبي طالب وسائر بني هاشم وقرش منه وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم صحيح العقل سليم الخواص منتصب القامة فقال لابن طاهر ايها يا ابن طاهر وخرج من داره وهو يقول يا بني طاهر

فذل الحياة وعز المات * وكل أراه طعاما وبسلا

فان كان لابد من واحد * فسيرى الى الموت سيراجعلا

فلما أحس ابن طاهر بما وراء نصب الرأس من قيام الفتنه وخروج الناس أمر بانزالها قال بعض الكتاب وكان قتل يحيى عند الناس من أكبر الكبائر فجزعت عليه النفوس جزعا كثيرا ورثاه القريب والبعيد وحزن عليه الصغير والكبير * ولما كانت سنة تسع وأربعين ومائتين هجرية عفى المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم على البيعة له ولكن منعه من ذلك صغر سنه فطلب عيسى بن فرخا نشاء وهو وزير المستعين يومئذ من أبي النصر الشاعر أن يقول في ذلك شعرا يشير فيه بالبيعة له فقال في ذلك قصيدة طويلة منها هذه الابيات

بك الله حاط الدين وانتاش أهله * من الموقف الدحض الذى مثله يردى

قول ابنك العباس عهدك انه * له موضع واكتب الى الناس بالعهد

فقد كان يحيى أوفى العلم قبله * صبيا وعيسى كاسم الناس في المهدي

وخرج في سنة خمسين ومائتين بالري محمد بن جعفر بن الحسن ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان وكانت له حروب بالري مع أهل خراسان من المسودة فأسر وجعل إلى نيسابور إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فمات في محبسه قيل حنق أنفه * ثم ظهر بها أيضا أي بالري أحمد بن عيسى بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ودعا إلى الرضا من آل محمد وحارب محمد بن طاهر بالري وقام معه ناس كثير ثم انهزم عن الري وسارعها إلى مدينة السلام فدخلها ولم تسكن الفتنة حتى ظهر أيضا بقزوين الكركي وهو الحسن بن اسمعيل بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو من ولد الأوسط وقيل إن اسم الكركي الحسن بن أحمد بن محمد بن اسمعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فطالب فسير المستعين لقتاله جماعة ومعهم موسى وبغا فرحل الكركي إلى الديلم ثم وقع في قبضة الحسن بن زيد الحنفي فأهلكه وخرج كذلك بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب فسر ح إليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشا من بغداد فأنكشف الحسين واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم عنه وذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين

واشتهت الخليفة المستعين في غضون هذه الحوادث على باغر التركي أحد كبار الأتراك الذين في خدمته لأسباب نفها عليه لاموضع لا يرادها هنا فانتقضت نفس باغر من الخليفة وأصر على قتله وجعل يدبر الحيلة في ذلك وكثف جماعة من الترك الذين كانوا معه في قتل المنوكل على ما في خاطره فوافقه ومنوه فأنكشف إلى المستعين أمرهم وما خفي من سرهم فعاجل باغرا وأركب عليه جماعة من خواصه ومواليه فقبضوا عليه وحبسوه في حمام ثم قتلوه وبلغ الخبر طوائف الترك فوثبوا على اصطبل الخليفة فأنتهبوه وركبوا ما فيه من الخيول وغيرها وحصروا الجوسق وشدوا في الحصار فأنحدر المستعين إلى بغداد في حراقة ومعه بغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل فلما علم الترك بأنحذاره انعطفوا نحو دار دايمل ودور أهله وجيرانه فأنتهبوا ما فيها ومنعوا الناس من الانحذار إلى بغداد وشدوا في المنع فلم يجسر أحد على الانحذار ثم وصل إلى بغداد جميع القواد وبكار الجند وجلة الكتاب والعمال وبني هاشم وغيرهم فأغضب جماعة الترك فعل المستعين فاختاروا منهم وفدا فدخلوا عليه وألقوا أنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقتهم في أعناقهم تذلا وخضوعا وسألوه الصفع عنهم فأغلظ عليهم في القول وقال أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلى في أولادكم فألحقهم بكم وهم نحو من أثنى غلام وفي بناتكم فأمرت بتصويرهن في عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف وغير ذلك كله أحببتكم إليه وأدررت عليكم الأرزاق فعملتم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسي لذتها وشهوتها وأنتم تزدادون شغبا وفسادا فعادوا وتضرعوا وسألوه العفو فقال قد عفوت فأرجعوا إلى سامرا وأنظر أنا في أمري فأنصرفوا آيسين منه وأخبروا من وراءهم بما جرى وزاد بغضهم له وحرصوا بعضهم على خلعه والبيعة للعتز ولد أخيه وكان هو والمؤيد

في حبس الجوسق وعاليهم من يحرسهم كما تقدم فساروا في جمع عظيم وأخرجوا المعتز من الحبس وقد طال شعره وتغيرت أحواله فأخذوا من شعره وأصلحوا حاله وبايعوه بالخلافة فأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة فلم يجدوا من المال ما يكفي فأعطوا شهرين وذلك في يوم الأربعاء لأحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة إحدى وخمسين ومائتين وركب من ذلك اليوم إلى دار العامة فأخذ البيعة على الناس وخلع على أخيه المؤيد وعقد له عقدين أسود وأبيض فكان الأسود لولاية العهد بعده والابيض لولاية الحرمين ونقلدهما وأتت الكتب في سامرا بخلافة المعتز بالله من سائر الامصار وأرخت باسم جعفر بن محمد السكاتب وأحضر أخاه أبا أحمد مع عدة من الموالي لحرب المستعين إلى بغداد فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين وهرب محمد بن الواثق إلى المعتز بالله ولم تزل الحروب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة واشتدت الحرب بينهم فكانت أمور المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة قائمة فلما رأى محمد بن عبد الله بن طاهر ذلك كاتب المعتز وجنح إليه ومال إلى الصلح على خلع المستعين وعلمت العامة ببغداد بما قد عزم عليه محمد بن عبد الله من خلع المستعين فنارت منكرة لذلك متخيزة إلى المستعين ناصرة له فما زال محمد بن عبد الله بالمستعين حتى أظهره على أعلى قصره فخطبته العامة وعليه البردة فأشكر ما بلغهم من خلعه وشكر محمد بن عبد الله بن طاهر ثم التقى محمد بن عبد الله وأبو أحمد الموفق بالشماسية فانفقا على خلع المستعين على أن له الامان ولاهله وولده وما حوت أيديهم من أملاكهم وعلى أنه ينزل مكة هو ومن يشاء من أهله وأن يقيم بواسط العراق إلى وقت مسيره إلى مكة فكتب له المعتز على نفسه شروطا أنه متى نقض شيئا من ذلك فأنه ورسوله منه براء والناس في حل من بيعته وعهودا غير هذه لا يسعها هذا المقام فبذل وقد خذل المعتز بعد ذلك لمخالفتها حين عاج في نقضها فخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس ثلاث خلون من المحرم سنة اثنين وخمسين ومائتين فكان له مذ وافي مدينة السلام إلى أن خلع سنة كاملة وكانت خلافته مذ تقلد الامر على ما بيناه آنفا إلى أن زال عنه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوما فقال بعض الشعراء في خلعه

خلع الخليفة أحمد بن محمد * وسيفقتل التالي له أو يخلع
ويزول ملك بني أبيه ولا ترى * أحدا يملك منهم يتمتع
أيها بني العباس ان سبيلكم * في قتل أعبدكم سبيل مهيع
رفعتم دنياكم فتمزقت * بكم الحياة تمزقا لا يرفع

وقال البحري الشاعر ومحمد بن مروان بن أبي الجنوب وغيرهما في خلعه أبياتا كثيرة كلها حكم أضربنا عن إرادها هنا * وأحضر إلى دار حسن بن وهب ببغداد وجمع بينه وبين أهله وولده ثم أحضر إلى واسط وقد وكل به أحمد بن طولون التركي وذلك قبل ولايته مصر

وعلم عجز محمد بن عبد الله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجار به وخذلانه إياه وميله إلى المعتز * ولما كان من الأمر ما تقدم من خلع المستعين أنصرف أبو أحمد الواثق من بغداد إلى سامرا فخلع عليه المعتز ووجهه ووشحه بوشاحين وخلع على من كان معه من القواد وقدم على المعتز عبيد الله بن عبيد الله بن طاهر أخو محمد بن عبيد الله بالبصرة والقضيب والسيوف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم وكتب محمد بن عبد الله إلى المعتز في شاهك المذكوران من أهلك بآث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجدير أن لا تخفر ذمته * واستتب الأمر إلى المعتز وانطلقت كلمته واتسعت وجعل المعتز يتوقع الغدر بأخيه المستعين والايقاع به * فلما كان في شهر رمضان من السنة أي سنة اثنتين وخسين ومائتين بعث المعتز سعيد بن صالح الحاجب إلى واسط ليغتال المستعين ويوقع به وكان حين خلع من الخلافة سير به إليها مع جملة من أحرابه فسار إليه سعيد ونزل واسطا وما زال يراقب الفرص حتى مال عليه وقتله واحتز رأسه وحمله إلى المعتز وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة وقيل في موته غير ذلك * ووصلت الرأس إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج فقبل له هذا رأس الخلع فقال ضعوها حتى أفرغ من الدست فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه

(الفصل الثالث عشر)

(في خلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المستعين ابن عمه محمد المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه أم ولد يقال لها فبيحة ويكنى أبا عبد الله وله من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة بويج له بالخلافة لما خلع المستعين نفسه وذلك في يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم وقيل لثلاث خلون منه سنة اثنتين وخسين ومائتين هجرية أي سنة ست وستين وثمانمائة ميلادية وبإيعه القواد والموالي والشاكرية وأهل بغداد وخطب له في المسجد الجامع ببغداد في الجانبين وكان على وزارته جعفر بن محمد ثم صرفه واستوزر جماعة فكانت بعد ذلك تخرج الكتب باسم صالح بن وصيف التركي كأنه مرسوم بالوزارة وما زال على هذا الحال يدبر الأمر حينئذ فلما كان بعد ذلك بقليل أنهى إلى المعتز أن أخاه المؤيد يدبر عليه وأنه قد احتال على جماعة من الموالى لينصروه فقبض على المؤيد في الحال وحبس وحبس معه أخاه أبا أحمد وهما لاب وأم وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد فلم يقبل فضرب أربعين عصا إلى أن أجاب وأشهد على نفسه بذلك * ثم انصل بالمعتز أيضا أن جماعة من الترك اجتمع رأيهم على إخراج المؤيد من حبسه والانتصار له فأكبر المعتز هذا الأمر وخشى عاقبته وجعل يدبر على هلاك المؤيد فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخسين ومائتين أخرج المؤيد وأحضر القضاة

والفقهاء فرأوه ولا أثر فيه ثم أمر بعد ذلك فأدرج في لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه وضيق في حبس أبي أحمد فكان بين دخوله ساعرا وما لقي بها من الاكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ثم شخص المعتز الى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوما ورتب اسمعيل بن قبيصة وهو أخو المعتز لابيه وأمه مكان المؤيد في ولاية العهد * واجتمع بعد ذلك بايام سائر قواد الموالي على المعتز فسأله الرضا عن وصيف وبغا وكنا على ما هما عليه من الذل والضيق فأجابهم الى ذلك كارها وكانت هذه حيلة منهم للإيقاع به لما تقوى عليه فلما كان رجب سنة خمس وخمسين ومائتين دخلوا عليه في عدة وافرة بغير استئذان وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على اعمال الحيلة على افنائهم وقتل كبارهم واصطناعه للمغاربة والفراغنة دونهم وقد كانوا أحسوا منه بذلك وطالبوه بالاموال وكان المدبر لهذه الفتنة صالح بن وصيف مع قواد الترك فلج المعتز وأنكر أن يكون قبله شيء من المال وقد كانوا يطلبون خمسين ألف دينار وأرسل المعتز الى أمه أن تعطيه ذلك القدر فأرسلت تقول ما عندي شيء وقد كان عندها من المال والنفائس والجواهر الثينة شيء كثير للغاية * فلما رأى الاتراك أنهم لم يحصل لهم من المعتز ولا من أمه شيء وليس في بيت المال شيء اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراغنة على خلعهم فجلس على بابه جماعة منهم بالسلاح وأرسلوا اليه أن اخرج الينا فامتنع واعتذر بأنه تناول دواء فأمر صالح أن يدخل عليه بعضهم فدخلوا وجرروا برجله الى باب حجرته وضربوه بالدبابيس وحرقوا ثيابه وأوقفوه في الشمس في صحن الدار فكان لشدته حاررتها يرفع رجلا ويضع أخرى وكان بعضهم يلطمه على وجهه ويقول له اخلعها وهو يتقي بيديه ثم أدخلوه الى حجرته وأشهدوا عليه بجماعة بالطلع وبعثوا الى مدينة السلام في طلب محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها فأقن به في يوم وليلة الى ساعرا فتلقيه الاولياء في الطريق ودخل الجوسق فأعلموه بأنهم سيبايعونه في الحال وسأله الموافقة على ذلك فامتنع وقال لا أقبل البيعة حتى أرى المعتز وأسمع كلامه فأقن بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد بن الواثق وثب اليه وعانقه وأجلسه بجانبه على السرير وقال له يا أخي ما هذا الامر فقال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد المهتدي أن يتوسط في أمره ويصلح الحال بينه وبين مقدمي الاتراك فقال المعتز لا حاجة لي فيها ولا يرضوني لها فقال المهتدي فانا في حل من بيعتك قال أنت في حل وسعة فلما جعله في حل من بيعته حوّل وجهه عنه فأقيم من حضرته وردّ الى محبسه فقتل في محبسه بعد أن خلع بسنة أيام تسلمه صالح بن وصيف ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أنزله في سرداب وأطبقه عليه حتى مات ثم أخرجه وأشهد عليه أن لا أثر به وقيل أيضا انه بعد خلعه بخمسة أيام أدخله الحمام ومنعه الماء حتى عاب التلّف ثم أتوه بماء ملح فشربه فسقط ميتا وذلك في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وقيل وثلاثة وعشرين يوما وكان عمره كله أربعا وعشرين سنة

سنة وكان أبيض أسود الشعر كثيفه حسن العينين والوجه أحر الوجنتين حسن الجسم طويلا فصيحاً كبير المعرفة واسع الدراية والخبرة له في الفصاحة وحسن الالقاء كلام كثير يدل على مبلغ علمه ۞ وهو أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سبقه من الخلفاء من بني العباس وكذلك جماعة من بني أمية لا يركبون الا بالحليسة الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس في ذلك وفشت هذه العادة بينهم ثم تغالى فيها الخلفاء والسلاطين من بعده وبالغوا جداً

واستعمل المعتز على مصر في خلافته أحمد بن مزاحم بن خافان سنة ثلاث وخسين ومائتين وهو طاغية جبارا عسوفاً فولى الشرطة أرجوز التركي وكان أرجوز هذا أكبر وبلا منه وأشد عسفا وجورا فأكثر من الارهاب والتشديد على الرعية وبالغ في اىذاء الناس بطرق وأنواع مختلفة ومنع النساء من الدخول الى الحمامات ومن زيارة قبور الاموات والولولة في الجنائزات وضيق على الخنثين والنوائح وجبسهم وأكثر من الاحداثات والبدع الغريبة * فلما كانت سنة أربع وخسين ومائتين منع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع وكان أهل مصر يجهرون بها منذ الاسلام الى ذلك الحين وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف فكان الموكل بذلك رجل من العجم يقوم ويبيد السوط الى مؤخر المسجد وأمر أهل الخلق بالتحول عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي كان المصلون يستندون اليها ومن الحصر التي كانت المجالس بالمساجد ورسم بأن تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح وكان أهل مصر يصلونها سنا الى أن منعهم من ذلك في تلك السنة ومنع من التشويب ورسم بالاذان يوم الجمعة في مؤخر المسجد وأن يغلس بصلاة الصبح * ونادى مناديه أن لا يشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يخلق شعراً أو تصيح امرأة أو يولول فمن فعل شيئاً من ذلك عوقب وعاقب على ذلك وشدد فيه وكبر عسفه وظلمه فضاقت خناق الناس وابتهلوا الى الله تعالى وما زالوا على هذا الحال معه حتى مات مزاحم وتولى بعده الولاية باكيال التركي وقيل باكيال فالتمس باكيال من يستخلفه بمصر لقيامه هو بخدمة ركاب الخليفة * وقد كانت العادة أن من يتولى ولاية مصر أو غيرها من العمال السكينة من الامراء والكبراء فلا يأتيها بل يبقى في خدمة الركاب ويولياها من يشأ من مواليه أو ضائعهم ممن يثق به * فأشهر على باكيال المذكور بأحمد بن طولون فولاه اياها فكان من أمره وسعد أحواله واقبال الدنيا عليه بحذافيرها وظهور دولته ما سيذكر في ترجمته في وصل بعد

(في ترجمة أحمد بن طولون ۞ وفي ظهور دولته بدار مصر)

هو أبو العباس أحمد بن طولون كان أبوه من الأتراك الذين أهداهم نوح ابن أسد الساماني عامل بخارى الى المأمون بن هرون الرشيد في سنة مائتين هجرية ويقال الى الرشيد في سنة

تسعين ومائة وولد ابنه أجد هذا في سنة أربع عشرة وقيل سنة عشرين ومائتين ثم مات طولون في سنة ثلاثين وقيل سنة أربعين ومائتين هجرية * وحكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أباً أجد ولكنه تبناه وأمه جارية تركية يقال لها هانم * وكان الترك قد طلبوا منه أن يقتل الخليفة المستعين لما سيروه معه الى واسط مبعدا فأبى وقال والله لا تجارات على قتل أولاد الخليفة فلما جاء مصر قال لقد وعدنى الترك ان قتلت المستعين أن يولونى واسطاً فخفت الله ولم افعل فعوضنى ولاية مصر والشام وسعة الاحوال * وكان سبب ولايته على مصر وظهور دولته أنه لما تولى الخلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل استعمل على ديار مصر مزاحم بن خاقان أحد مقدمى الترك فى دولة المعتز وكان مزاحم هذا طاغية جباراً قولى الشرطة أرجوز التركى فكان أرجوز أشد وبلا وأكبر عسقا وجورا فأكثر من الارهاب والتهديد وبالغ فى ابداء الناس ومنع النساء من الدخول الى الحمامات وزيارة قبور الاموات وغير ذلك من البدع والاحداث الغريبة كما مر بيان ذلك فى موضعه فلما مات وتولى مكانه الامير باكيال وقيل باكيال واتصل به خبر ما يفعله أرجوز من الجور والعسف التمس من يستخلفه بمصر فاشير عليه بأجد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة وطيب السريرة فولاه مصر وسرحه اليها وكان بها ابن المدبر على الخراج وقد تحكم فى البلد وأحدث الاحداث الغريبة وكان قهرمانا من دهاة الرجال وأبالسة الكتاب فضرب على الناس الضرائب الكثيرة وقرر المغارم الفادحة وابتدع بدعا صارت سنة من بعده مريعة الى يومنا هذا منها أنه أحاط بالنظرون ومنع الناس منه بعد أن كان مباحا * وقرر على السكك الذى ترعاه المشايبة مالا سماه المراعى وقرر على ما يطعمه الله من صيد البحر أيضا مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر من حينئذ الى قسمين خراجى وهلالى فالخراجى ما يؤخذ فى كل سنة من الارض التى تزرع حبوبا ونخيلا وكروما وفاكهة وما شا كل ذلك والهلالى قسمه الى قسمين سماهما المرافق والمعاون وهو ما يؤخذ على الضرائب المحدثه كالمراعى والمصائد ونحوهما فكانت هذه المغارم وقرا ثقيلاً على الناس فكثير بغضهم لابن المدبر وجعلوا يدبرون له المكائد ويتربصون الفرص للبطش به فلما أحس منهم بذلك جعل فى خاصته نخوة من مائة غلام هندى ممتازين وزججهم بالسلاح فكانوا فى خدمته لا يفارقونه فى حله وترحاله * فلما قدم أجد بن طولون الى مصر واستقر به منصب النيابة كف يد ابن المدبر واستولى على البلد وكان باكيال قد استعمل أجد على مصر وحدها دون باقى الاعمال كالاسكندرية ورشيد والصعيد الاعلى فلما قتل باكيال وصارت مصر الى ليارجوج التركى وكان بين ليارجوج وأجد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها وكان المتولى على الاسكندرية يومئذ عيسى بن دينار فأقره ابن طولون على ولايتها ونزلت هى وغيرها من بقية النغور تحت حكم ابن طولون فلما تم له أمر ذلك قدم عليه ابن المدبر فى حاشيته وغلمايه ومعه شقيق الخادم غلام قبجة أم أمير المؤمنين المعتز وهو يومئذ على البريد فنظر ابن طولون واذا بين يديه ابن المدبر مائة غلام لهم خلق

حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق يقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقعرة من الفضة وهم يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس ويركبون بين يديه اذا ركب فبصير له بهم هيبة وجلالة في صدور الناس فداخل ابن طولون شئ من ذلك وكبرت هذه النعمة في عينيه وحسد ابن المدبر عليها * وقدم اليه ابن المدبر الهدايا النفيسة والتعابى الثمينة استجلا بالارضاء فلم يقبلها وردّها على ابن المدبر فنظر ابن المدبر الى شقيق وقال ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لايؤمن على طرف من الاطراف وخافه ابن المدبر وخشى عاقبة التقرب منه وكره المقام معه في مصر ثم اجتمع بشقيق الخادم وتاجيا في أمر ابن طولون وكتبوا الى الخليفة المعز يطلبان خلع ابن طولون عن مصر فلم يكن الايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له * قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنا عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثره الله فرددناها توفيرا عليك ونحب أن تجعل العوض منها للغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم أحوج منك * فقال ابن المدبر لما بلغت الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاموال والاعراض ويستهدى الرجال ويشاور عليهم ثم لم يجد ابن المدبر بدا من أن يبعث بالغلمان ككارها فزالت بعد ذلك هيبة ابن المدبر وكبرت هيبة ابن طولون وخافه الناس وجعل ابن المدبر يدبر الحيلة على خلع ابن طولون ويكتب الخليفة في ذلك وأجد يعلم بالامر ويكنمه عن ابن المدبر حتى انقضت خلافة المعز بالله

وظهرت كلمة ابن طولون واتسعت شهرته فأضيفت اليه نيابة الشام والعواصم والشعور وافريقية فعمد الى الفتح ففتح أنطاكية وعدة مدن أخرى وطالت ولايته فرتب الامور وأحكم السياسة وأمن الطرق ووسع أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة وابتقى بالقاهرة جامعته المشهور والبيمارستان والعين التي أنشأها بالمعافر وقد وقعت عند جميع أهله وجيرانه أحسن موقع لانهم في حاجة زائدة الى الماء * قيل وكان السبب في انشائه اياها أنه ركب يوما فرس سجد الاقدام وحده وتقدم عسكره وقد كدّه العطش وكان في المسجد خياط فقال يا خياط أعندك ماء فقال نعم وأخرج له ركوة صغيرة وقال اشرب ولا تكدّ يعني لا تشرب كثيرا فتبسم أحمد بن طولون وشرب قد فيه حتى شرب أكثرها ثم ناوله اياها وقال يا فتى سقيتنا وقلت لا تكدّ فقال نعم أعزك الله موضعنا هنا منقطع وأنا أخيط بشئ حتى أجمع ثمن راوية فقال له أو الماء عندكم ههنا معوز فقال نعم قال الراوى فضى أحمد بن طولون ولما رجع الى داره قال على بالخياط الذي في مسجد الاقدام فجاء به فلما رآه أحمد قال له سمرع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء وهذه ألف دينار خذها ثم ابشدا بالانفاق وأجرى على الخياط في كل شهر عشرة دنائير وقال له بشرني ساعة يجرى الماء فيها فجاءوا في العمل فلما جرى الماء أتاه مبشرا بخلع عليه وجله واشترى له دارا يسكنها وأجرى عليه الرزق السنوي بكثرة قال بعض أهل التاريخ وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبي خليم المعروفة

بالنعش فقال هذه العين لا تعرف الا بأبي خليد واني أريد أن أستنبط بثرا فعدل عن
العين الى الشرق فاستنبط بثره هذه وبني عليها القناطر وأجرى الماء الى الفسقية التي
بقرب درب سالم وتولى بناء هذه السقاية قبطي من أقباط مصر حسن الهندسة حاذق ماهر
قبل انه دخل على ابن طولون عشية من العشايا فقال له اذا فرغت مما تحتاج اليه فاعلمني
لتركب اليها فتراها فقال يركب الامير اليها في غد فقد فرغت مما تحتاج اليه فاعلمني
فراى موضعها يحتاج الى قصرية جدير وأربع طوبان فبادر الى عمل ذلك وأقبل ابن
طولون يتأمل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها ثم أقبل الى الموضع الذي فيه قصرية
الجير فوقف بالاتفاق عليها فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأجد ولسوء ظنه قدّر أن
ذلك لمكرهه أراه به المهندس فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب وضربه خمسمائة سوط
وأمر به الى المطبق فوضع فيه وانصرف ابن طولون وأقام المهندس بالمطبق الى أن أراد ابن
طولون بناء جامع فقدر له ثلاثمائة عمود فقبل له ما تجدها أو تنفذ الى الكنائس في الارياض
والضباع فتحمل ذلك فأنكره ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر في أمره وبلغ المهندس القبطي
وهو بالمطبق الخبر فكتب الى ابن طولون يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد
الاعمدى القبلة فسر ابن طولون بذلك وأحضر القبطي وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه
وقال له ويحك ماتقول في بناء الجامع فقال أنا أصوره للامير حتى يراه عيانا بلا عمد الا
عمودى القبلة فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصورة له فأعجبته واستحسنه وأطلق
القبطي وخلع عليه وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار وقال له أنفق وما احتجت
اليه بعد ذلك أطلقناه لك فوضع البناء يده في الموضع الذي هو فيه وهو المعروف بجبل يشكر
فكان ينشر من الحجر ويعمل الجير ويبنى الى أن فرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق عليه
القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف
ونقل اليه القراء والفقهاء وصلى فيه وتصدق بصدقات عظيمة وأجاز المهندس بعشرة آلاف
دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات

وذهب ابن طولون في يوم الجمعة الى الجامع فلما رقى الخطيب أبو يعقوب البلخي المنبر
وخطب دعا للخليفة وولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشار أحمد
الى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط فذكر الخطيب مهوه وهو على مرأى المنبر فعاد
وقال بعد الحمدلة والديابجة ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما اللهم
وأصلح الامير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد في الشكر والدعاء له بقدر
الخطبة ثم نزل فنظر أحمد الى نسيم أن اجعلها خمسمائة دينار قال القضاء وذكر أن
السبب في بنائه يعنى في بناء ذلك الجامع أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة
من جنده وسودانه فأمر بإنشاء الجامع المذكور بجبل يشكر بن جديدة من ندم فابتدأ
في بنائه في سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين * وقيل ان

أحمد بن طولون قال اني أريد أن أبني بناء ان احترقت مصر بقي وان غرقت بقي فقبل له
بيني بالجبر والرماد والاجر المشوى بالنار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانها
لاصبر لها على النار فيناه هذا البناء وكان من أمره واعادة ترميمه في أيام دولة خليل بن
فلاون ما كان محالا موضع هنا لذكره

وبعد أن تم بناء السقاية رسم فكانت تفتح طول النهار لمن كشف وجهه للاخذ منها
ولمن كان له غلام أو جارية والليل للفقراء والمساكين واتخذ لها مستغلا فيه فضل وكفاية
لصالحها ثم بلغه أن قوما لا يستحلون شرب ماؤها * قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم الفقيه
كنت ليلة في داري اذ طرفت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لي الامير يدعوك
فركبت مذعورا مرعوبا فعديل بي عن الطريق فقلت أين تذهب بي فقال لي الصحراء
فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم الله الله في فاني شيخ كبير ضعيف مسن فتدري مايراد مني
فارجني فقال احذر أن يكون لك في السقاية قول وسرت معه واذا بالمشاعل في الصحراء
وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشموع فنزلت وسلمت عليه فلم يرد علي
فقلت أيها الامير ان الرسول قد أعيانى وكذنى وقد عطشت فيأذن لي الامير في الشرب
فأراد الغلمان أن يسقوني فقلت أنا آخذ لنفسي فاستقيت وهو راني وشربت وزدت في
الشرب حتى كدت أنشقي ثم قلت أيها الامير سقاك الله من أنهار الجنة فلقد أرويت
وأغثيت ولا أدري ما أصف أطيب الماء في حلاوته وبرده أم صفاءه أم طيب ريح السقاية
قال فنظر الى وقال أريدك لامر وليس هذا وقته فاصرفوه فصرفت فقال لي الخادم أصبت
فقلت أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت وكان مبلغ ما أنفق على هذه العين في بنائها
ومستغلها أربعين ألف دينار ثم كان من أمر ابن طولون ما سيذكر في محله في خلافة المهتدي
ومن جاء بعده من الخلفاء

ومات في خلافة المعتز قسيما بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقيل سبع
سنين وخمسة أشهر فخلا الكرسي بعده أحدا وخمسين يوما وفي أيام هذا البطرك أمر نوفل
قيصر الروم بمحو الصور من الكنائس لأمور فبعث اليه قسيما وناظره حتى أخفمه ورجع
به الى حسن الاعتقاد فرسم باعادة الصور الى ما كانت عليه فلما مات قسيما أقيم بعده
سانوتيو أو هو شموذه خامس خمسين وبلده البتانون وكان راهبا بدير أبي مقار ووقع في
أبامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع عشر)

(في خلافة جعفر المهتدي بالله بن هرون)

ثم قام بالامر بعد المعتز ابن عمه جعفر بن هارون الوائلي بن المعتصم ولقب بالمهتدي

وقيل ان اسمه محمد ويلقب بأبي اسحق بوبع له بالخلافة قبل الظهر من يوم الاربعاء ليلة
 بقيت من رجب الفرد سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ثمان وستين وثمانمائة
 ميلادية وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ويكنى بأبي عبدالله وله يومئذ سبع وثلاثون سنة
 وقيل تسع وثلاثون ولما استقر به المنصب أخرج الملاحى وحرم سماع الغناء والشراب
 وأمر بنى المغنيات وطرد الكلاب والسباع وألزم نفسه الاشراف على الدواوين والجلوس
 للناس وازالة المظالم وتغيير المنكرات وقال انى أستخى من الله أن لا يكون فى بنى العباس
 مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية وكان صالح بن وصيف بعد خلع المعتز وقتله قد خرج
 هاربا فلم يهتد له على محل فلما كان لثلاث بقين من المحرم زعم المهتدى ان امرأة دفعت
 الى سيمى الشراى كبا وقالت ان فيه نصيحة وان منزلها بمكان كذا وطلبت المرأة فلم توجد
 ودعا المهتدى القواد وسليمان بن وهب فأراههم الكتاب فزعم سليمان أنه خط صالح بن
 وصيف فقرأه على القواد فاذا فيه انه مستخف بسامرا وانما استتر طلبا للسلامة وابقاه
 الموالى وطلبا لانقطاع الفتن وذكر ما صار اليه من أموال الكتاب وبذل فيه على قوة نفسه
 فلما فرغوا من قراءته جعل المهتدى يحث الجماعة على الصلح مع ابن وصيف والاتفاق
 والنهي عن التباعد والتباين فاتهمه الاتراك بأنه يعلم بمكان ابن وصيف ويعمل اليه وطال
 بينهم وبينه الاخذ والرد فلما كان الغد اجتمعوا بدار موسى بن بغا وانفقوا على خلع
 المهتدى وكان بينهم الامير با كمال فقال لهم ويحكم انكم قتلتم ابن المتوكل وهو فقى
 حسن الوجه سقى الكف فاضل النفس وتريدون اليوم قتل هذا وهو مسلم تقى يصوم
 ولا يشرب النبيذ من غير ذنب والله لئن قتلتم هذا لالحقن بخراسان لأشيع أمركم هنالك
 فانصل خبر ذلك الى المهتدى ففعل من مجلسه وهو متقلد سيفه وقد لبس ثيابا تظافا
 ونطيب وأمر بادخالهم عليه فدخلوا فقال لهم بلغنى ما أنتم عليه ولست كن تقدمنى
 مثل المستعين والمعتز والله ماخرجت اليكم الا وأنا متحنط وقد أوصيت الى أخى بولدى وهذا
 سيفى والله لا ضربن به ما سقسك قائمه بيدي والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن وليذهبن
 أكثركم كم هذا الخلاق على الخلفاء والاقدام والجراة على الله سواء عليكم من قصد
 الابقاء عليكم ومن كان اذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسرورا بمكروهمكم حتى
 تعلمون أنه وصل الى شئ من دنياكم أما انكم تعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من
 جماعة من أهلى وولدى سواء لكم يقولون انى أعلم بمكان صالح وهل هو الا رجل من
 الموالى فكيف الإقامة معه اذا ساررتكم فيه واذا أبرمت الصلح فيه كان ذلك ما أنفذه
 بجمعكم وان أبيتتم فشانكم واطلبوا صالحا وأما أنا فما أعلم مكانه فعند ذلك علت
 ضوضاء القوم وقالوا له احلف لنا على ذلك فقال أما اليمين فنعم ولكنها تكون بحضرة بنى
 هاشم والقضاة غدا اذا صليت الجمعة فلم يتم شئ من ذلك وقد اشد بغض الترك له وهموا
 بخلعهم فنعهم من ذلك خوف الاضطراب وقلة الاموال فأتاهم مال من فارس عشرة آلاف

ألف درهم وخسمائة ألف درهم وانتشر الخبر بين العلماء أن القوم قد اتفقوا على خلع
 المهتدي والفتك به وانهم قد أرهقوه فجعلوا يكتبون الزقاع ويرمون في الطرق والمساجد
 مكتوبا فيها يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاوي لعمر بن الخطاب
 أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه وتتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه
 فإن الاتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام وصلي الله على سيدنا محمد * واشتد
 الاتراك على المهتدي وبالغوا في اهانتهم حتى يخلع نفسه فلم يفعل وظهر بابك التركي
 ومن معه بشق عصا الطاعة والخروج على الخليفة فأمر الخليفة بقتله فقتل فهاج الترك
 ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة أنصار الخليفة واشتد الحال وطالت أيام القتال فقتل
 من الفريقين أربعة آلاف على رواية بعض أصحاب التاريخ وخرج المهتدي والمصحف
 في عنقه وهو يدعو الناس إلى نصرته على الترك ومعه طوائف المغاربة وبعض العامة فحمل
 عليهم طيغا أنحوا بابك فهزمهم ومضى المهتدي وهو مهزوم والسيوف في يده وقد جرح جرحين
 حتى دخل دار محمد بن يزداذ فجمع الترك وهجموا على الدار وأخذوه أسيرا وجعله أحد بن
 خاقان وجعلوا يصفعونه ويقولون اخلعها وهو لا يفعل فسلم إلى رجل فوطي ماذا كره حتى
 قتله وقيل مات بالخنجر ومنهم من روى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال إلى
 أن مات وقيل قتل خنقا وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات فلما مات داروا
 به بنسوحون ويكفون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبنوه من نسكه
 وقتل له من الولد سبعة عشر ذكرا وست بنات قيل وكان قد ذهب في أمره إلى القصد
 والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعلمهم بیره وكان يقول يا بني هاشم دعوني
 حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز في بني أمية وقلل من اللباس والفرش والمطعم
 والمشرّب وأمر بإخراج آنية الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنائير ودراهم وعمد
 إلى الصور التي كانت في المجالس فحيت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي
 الخلفاء والدبوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة
 بإباحته وكانت الخلفاء قبله تنفق على مواثيها في كل يوم عشرة آلاف درهم فأزال ذلك
 وجعل لمائدته وسائر مؤنته في كل يوم نحو مائة درهم قيل وكان يواصل الليل بالنهار في
 التهجد والعبادة وأنه لما قتل أخرج رجل من الموضع الذي كان يأوي إليه فأصيب له سبط
 مقفل فتوهموا أن فيه مالا أو جوهرا فلما فتح وجدوا فيه جبة صوف وغل وقيل جبة
 شعر فسألوا من كان يخدمه فقال كان إذا جن الليل لبسها وغل نفسه وكان يركع ويسجد
 إلى أن يدركه الصباح رحمه الله

وعرضت على المهتدي يوما دفاتر خزائن الكتب فإذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات
 قالها المعتز بالله وكتبها بخطه

إني عرفت علاج الطب من وجعي * وما عرفت علاج الحب والخدع

جزعت للحب والحبى صبرت لها * انى لا عجب من صبرى ومن جزى
من كان يشغله عن إلفه وجع * فليس يشغلنى عن حبكم وجسى
وما أمسى حبيبي ليتنى أبدا * مع الحبيب وباليث الحبيب مسمى
فقطب وجه المهتدى بالله وقال حدث وسلطان الشباب وكان كثيرا ما ينفذ البيت الاول
من هذا الشعر * وقال عبد الله بن ابراهيم الاسكافى جلس المهتدى للظالم فاستعداه رجل
على ابن له فأمر باحضاره فأحضر وأقامه الى جانب خصمه ليحكم بينهما فقال الرجل للمهتدى
والله يا أمير المؤمنين ما أنت الا كما قيل

حكيمه قاضيا بينكم * أبلى مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة فى حكمه * ولا يبالي بغبن الخاسر

فقال المهتدى أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك وأما أنا فما جلست حتى
قرأت ونضع الموازين القسط ليوم القيامة الآية * قال فما رأيت باكا أكثر من ذلك اليوم
وقال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى كفت عند المهتدى بعض عشايا شهر رمضان
فقت لا تصرف فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صلى المهتدى بنا المغرب وأمر بالطعام
فأحضر وأحضر طبق خلاف عليه رغيقان وفى اثناء ملح وفى آخر زيت وفى آخر خل
فدعانى الى الأكل فأكلت مقتصرًا ظنا منى أنه يحضر طعاما جيدا فلما رأى أكلى كذلك
قال أما كنت صائما فقلت بلى فقال أفلمست نريد الصوم غدا قلت وكيف لا وهو شهر رمضان
فقال كل واستوف عشاءك فليس ههنا غير ما ترى فحجبت من قوله وقت لم يا أمير المؤمنين
قد أسبغ الله علينا النعمة ووسع رزقه فقال ان الامر على ما وصفت والحمد لله ولكنى
فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم
مثله وأخذت نفسى بما رأيت اه ومات ولم يستكمل الأربعين سنة وكان موته فى سنة
ست وخمسين ومائتين هجرية فكانت خلافته أحد عشر شهرا وخمسة عشر ليلة ودفن
بسامرا وقيل كان مولده فى سنة ثمان عشرة ومائتين للهجرة

وفى خلافته كانت الامور قد انتظمت لاحد بن طولون بمصر واتسعت شهرته وبسط
يده على مشرق الارض ومغربها مع ما انضاف الى مصر من الديار الشامية وأنطاكية
والجزيرة فلما كانت أخريات سنة ست وخمسين ومائتين هجرية خرج على ابن طولون ابراهيم
الصوفى عامل اقليم اسنا بالصعيد الاعلى وبالغ فى العصيان وأكثر من الشدة وبسط يده
على سائر بلاد ذلك الصقع وعاث وظلم وقتل من لم يطعه فأنفذ ابن طولون طائفة من
العسكر لقتاله فاجتمع الفريقان واقتتلا فكانت الدائرة على أصحاب ابن طولون فانحدروا
الى اخميم مدحورين فسير اليهم ابن طولون نجدة فقاتلت الصوفى وشدت فى قتاله حتى
ظفرت وفهرت لمومه ومزقت شملهم كل ممزق ففر ابن الصوفى فى نفر من أصحابه وسار
فى عرض البرية طلبا للنجاة واختفى أمره وانقطع ذكره ولم يكذب يخفى خبره ويتناسى

الناس ففتنته حتى خرج أيضا ابن شيخ على أعمال فلسطين والأردن واستبد بها بعد موت أبيه أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني وقد كان أبوه يتقلد جنود تلك الانحاء وطامع ابن شيخ المذكور في الاستقلال بملك الشامات والتغلب عليها وأكثر أصحابه من الأرجاف ووردت الاخبار الى ابن طولون بأنه يريد ديار مصر ليأخذها وقد خرج والامور مضطربة ببغداد والفتنة قائمة بين الأتراك والمغاربة وعامة أهل بغداد فلم يهتم ابن طولون ذلك ولا أحله محلا واتفق أن أرسل ابن المدبر صاحب خراج مصر سبعمائة وخمسين ألف دينار جلا من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في أصحابه فتقوت بها قلوبهم واشتدت عزيمتهم وطمعوا في المحال من التغلب والفوز وتأهبوا للنزول على مصر وأخذها من ابن طولون ثم كان من أمر الفريقين بعد ذلك ما كان مما سيذكر ان شاء الله في خلافة أبي القاسم أحمد المعتمد بن المتوكل حسب ترتيب حوادث كل خلافة وزمن وقوعها

(الفصل الخامس عشر)

(في خلافة أبي القاسم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المهتمدي ابن عمه أحمد المعتمد على الله بن المتوكل على الله بن المعتمد بالله بوييع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهتمدي بسامرا سنة ست وخمسين ومائتين هجرية أي سنة تسع وستين وثمانمائة ميلادية فكان له اسم الخلافة فقط ولأخيه الموفق بن المتوكل تدبير الملك وما زال كذلك الى أن مات الموفق فقام بتدبير الملك بعده ابنه أحمد المعتمد وغلب على عمه المعتمد كما كان أبوه غالبا عليه قيل فكان المعتمد يطلب الشيء الخفي فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم فضاق به الحال واشتد عليه الامر يوما فقال في ذلك متوجعا

أليس من العجائب أن مثلي * يرى ما قلتم تمنعنا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا * وما من ذلك شيء في يديه

وكانت أيام المعتمد كلها حروبا هائلة وكروبا مستمرة وخروج الكثير من الخوارج مثل يعقوب بن الليث الصفار وصاحب الزنج وغيرهما وقد بالغ جماعة الكتاب في عدد من قتل في هذه الحروب والفتن فكانوا بين مكثر ومقلل فأما المكثرون فكان يقول انه أفتى من الناس ما لا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا علام الغيوب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفتى من الناس خمسمائة ألف ألف وكلا الفريقين يقول في ذلك ظنا وحسدا اذ كان شيئا لم يدرك ولم

يضبط وكان ممن تم خروجه في أيامه واستفحل أمره بتاتا ابن شيخ فانه استبد بحكم الشامات وقطع الجمل عن بغداد فسير اليه المعتمد حسينا الخادم فكلمه في ذلك فاعتذر فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد وكان قد بالغ في الامتناع فأجابه الى ذلك بعد أمور وأخذ العهد وأقام الدعوة ولبس السواد الذي هو زي العباسيين نظا منه أن الشام تكون بيده فلم يلبث على ذلك طويلا حتى أنفذ المعتمد أما جور التركي وقلده دمشق وأعمالها فساد اليها في ألف رجل فلما قرب منها أنقض عيسى اليه ولده منصورا في عشرين ألف مقاتل فلما التقوا انهزم عسكر منصور وقتل منصور فوهن عيسى وسار الى أرمينية من طريق الساحل فخلا الحق لأما جور التركي وولى دمشق وجعل يتصرف في الامور على ما يهواه وكان الخليفة المعتمد قد أرسل الى أحمد بن طولون في مناجزة ابن شيخ وقتاله حتى يظفر به وسير الى ابن المدبر أن يطلق النفقة لابن طولون فتجهز ابن طولون وخرج في عسكر عظيم وجنائب ومواهي وطبول وغير ذلك واستخلف على ديار مصر أخاه موسى فينما هو في طريقه اذ جاءه مرسوم الخليفة بالعودة الى مصر وأن أما جور قد ولى قتال ابن شيخ فعاد أحمد بن طولون ودخل القاهرة في شعبان من هذه السنة .

وداخل قلب ابن طولون من حب الاستبداد بملك مصر وشق عصا طاعة العباسيين ما أقلقته وعظمت رغبته في ذلك فجعل يشيد الحصون ويبنى القلاع وينشي المعامل ويكثر من الكراع وآلات القتال وابن المدبر صاحب خراج مصر يحفظ له كل ذلك وكان ابن طولون الى هذا الحين يسكن خارجا عن سور القسطنطين في دار الامارة التي كانت لمن سلف من الامراء وهي في ضاحية العسكر وكانت ضاحية العسكر فيها الاسواق والبنيات العظيمة والطرق الواسعة فلم تكف موالى وغلما وأتباع ابن طولون وضافت بأدواته وآلات حربه فصعد يوما الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين ضاحية العسكر وبين المقطم فضاء لا شيء فيه من البناء الا بعض المدافن لليهود والنصارى فاخترها للبناء قيل ورسم بحرث المدافن ونبشها واختط في موضعها قصرا عظيما وميدانا وتقدم الى أصحابه وغلما وأتباعه أن يخططوا لانفسهم حوله ففعلوا فاتصل بناؤهم الى عمائر القسطنطين فلما رأى ابن طولون كثرة البناء أعجبه وأمر بقطع القطائع وسمى كل قطعة منها باسم من سكنها فكانت لغلما النوبة قطعة مفردة تعرف بهم وغلما الروم قطعة مفردة وللغراشين قطعة وكذلك لغيرهم من بقية الموالى والاتباع * وابتنى كذلك القواد مواضع متفرقة فزادت القطائع ضخامة وتشعبت فيها الطرق والمسالك وبنيت المساجد العظيمة والافران والحمامات والطواحين واختص كل سوق منها باسم مخصوص فكان منها سوق الشوايين وسوق البقالين وصارت من هذا الحين هذه القطائع مدينة عظيمة أهلة للغاية فكانت لغلما ابن طولون تضرب في الميدان بالصوالجة ثم عاد بعد حين فسمى القصر والميدان باسم الميدان وعمل له أبوابا لكل

باب اسم فكان منها باب الميدان ومن هذا الباب كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب الصوالة وباب الخاصة ولم يدخل منه الا خاصة ابن طولون وباب الجبل لأنه مما يلي المقطم وباب الحرم ولا يدخل منه الا النساء والخصيان وباب الدرمون قال بعض الكتاب وهذا كان يجلس عنده حاجب أسود ضخيم الجثة يتقلد بحنايات السود الرجالة فقط ويقال له الدرمون وباب دغاغ وكان يجلس عنده حاجب اسمه دغاغ وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج وباب الصلاة وهو في الطريق الموصل الى الجامع ويسمى أيضا بباب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجص وكانت جميع هذه الابواب تفتح في يوم عيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وما عدا هذه الايام لا تفتح الا في أوقات معلومة على ترتيب مقرر معلوم وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من يدخل ومن يخرج وكان الناس يدخلون من باب الصوالة ويخرجون من باب السباع وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع لدى حركات الغلمان وتأهيمهم وتصرفهم في حوائجهم وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلي ذلك فكان مستترها حسنا للغاية * ولما تم تأهب ابن طولون واستعداد للاستعداد بلك مصر وشاع خبر ذلك خافه أما جور صاحب الشام وخشى عاقبة جواره وقيل بل حسده فكانت تأتي الى أماجور الاخبار تترى بعزم ابن طولون على قتاله وأخذ الشام منه فسير الى الخليفة المعتمد من يخبره بخبر ابن طولون ويحذره من شره ويقول انه اذا ترك وشائه ولم يعاجله الخليفة استفعل أمره واستعصى انحضاعه وتبعه في ذلك غيره من الولاة والعمال فأرسل الخليفة الى ابن طولون يقول تنح عن مصر عاجلا الى سامرا واستخلف عليها من نشاء من أصحابك فهم ابن طولون أن يفعل ذلك وجعل يتأهب للخروج فنهعه من ذلك أحد خواصه وأعلمه بما يطمنه له الخليفة فطمئن ابن طولون للامر وسير الى سامرا أحد الواسطي أحد خواصه وبكار ديوانه ومعه من الهدايا النفيسة والتعالي القيمة لوزير الخليفة ما يجمل عن الوصف وأوصاه بأن يبالغ في استمالة الوزير وفي استرضائه فلما وصل ابن الواسطي الى سامرا تمثل بين يدي الوزير ودفع اليه الهدايا فأعجبته جدا وسر بها سرورا عظيما ومال الى ابن طولون وأحبه وكلم الخليفة في أمره واستماله اليه واسترضاه عنه فمعا الخليفة عماسلف من ابن طولون ورسم بتجديد الولاية له على مصر وأجاز له حل نسائه وأولاده الى مصر وقد كانوا الى ذلك الحين في سامرا وعاد ابن الواسطي ومعه كتب ابن المدبر وشقيق الخادم التي كانوا يبعثان بها الى الوزير بالوشاية في حق ابن طولون فجعل ابن طولون من هذا الحين يدبر على الفتك بهما فلم تكن الا أشهر حتى هلك شقيق الخادم وفرح ابن طولون بموته وجعل بكيد لابن المدبر فأرسل ابن المدبر الى أخيه وهو على خزائن الخلافة يومئذ يعلم بما هو عليه من الشدة والخوف ويسأله أن يوليئه خراج الشام والرحيل عن مصر خوفا من بطش ابن طولون فعلم ابن طولون بذلك وأن ابن المدبر سائر عنه الى الشام تخفف عنه فجعل ابن المدبر يحسن

السيرة معه ويتقرب اليه ويلطفه وزوج ابنته لمارويه بن أحمد ووهب لها جميع ماله في ديار مصر من دور ومزارع واقطاعات ثم جاءه مرسوم الخليفة بعد ذلك بقليل بالجلء عن مصر فرحل عنها الى الشام وتولى أمور خراجها وخلا الجولان طولون فبسط يده على مشرق البلاد ومغربها وأبطل بعض المغارم والمكوس واستشار ابن دسومة عبدالله أمين متولى الخراج يومئذ في ازالة الخراج الهلالي وهو ما كان يؤخذ على المصائد والمراعى ونحوهما مما أحدث ابن المدبر وكانت قيمته يومئذ مائة ألف دينار فقال أيها الامير ان الدنيا والآخرة ضربتان والحازم من لا يخلط بينهما والمفرط من خاوط بينهما فقتلت أعماله ويبطل سعيه وأفعال الامير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطه لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائما طول العمر لما كان شئ عندنا أكثر من التضييق على أنفسنا في العاجل معاداة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات وترك الانسان ما قد أمكنه وصار في يده تضيق وإل الذي جاءه من نفسه يكون سعادة لمن يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجمع للامير أيده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالي فيضبط به الامير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا واحكام أمور الرياسة والسياسة وكل ما عني للامير من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيي والامير أيده الله على ما عساه يراه * وكان ابن دسومة هذا طاغية شيطانا من شياطين جبالة الاموال وكان يكره أن ابن طولون يزيل هذه البدعة فأشغل قلب ابن طولون كلامه وقال سننظر ان شاء الله تعالى ونام ليلته تلك وهو مشغول البال بمقالة ابن دسومة فيل فرأى في منامه رجلا من اخوانه الزهاد في طرسوس يقول ليس فيما أشار به عليك ابن دسومة مصلحة ومن ترك شيئا لله عز وجل عوضه الله خيرا منه فأمض ما كنت عزمت عليه فأصبح وقد طير الخبر الى الاتفاق بازالة ذلك الخراج ففرح الناس ومدحوه

ولما كانت سنة تسع وخسين ومائتين هجرية عاد ابن الصوفي العلوي وظهر بمصر وقد كان ظهر في سنة ست وخسين وهر ب الى الواحات واختفى خبره فسدنا الناس انفسه فتبعه خلق عظيم وسار بهم الى الاشمونين فاهتم ابن طولون بأمره وسير اليه جيشا كبيرا ومقدمه ابن أبي الغيث فوجده قد صعد الى لقاء ابن أبي عبد الرحمن العمري وكان العمري هذا قد ظهر بالنوبة وهو عبد الحيد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان سبب ظهوره بمصر أن البجاة الذين هم أهل النوبة أقبلوا يوم العيد فنهبوا وقتلوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرات فخرج هذا العمري غضبا لله وللمسلمين وكان لهم في طريقهم فلما عادوا يشنون الغارة خرج عليهم وقتل مقدمهم وأثنى فمين كان معه من اللوم ودخل بلادهم فنهبها وأعمل في أهلها السيف ثم تابع عليهم الغارات وسبي وأخش في القتل حتى أدوا له الجزية ولم يكونوا قبل ذلك أدوها لأحد ولا دانوا الى ملك من الملوك فظهرت كلمة العمري واتسعت شهرته فلما لاقاه العلوي اقتتلا قتالا عنيفا فالتجأت الواقعة عن انهزام العلوي فولى منهزما الى أسوان فعاش

فيها وقطع كثيرا من نخلها وعلم بان ابن أبي الغيث قائد عسكر ابن طولون يطلبه أيضا فولى هاربا الى عيذاب وعبر البحر الى مكة وتفرق أصحابه في أرض الله الواسعة فلما وصل مكة بلغ خبره الى واليها فقبض عليه وسجنه ثم سيره الى ابن طولون فأمر به فطيف به في البلد ثم سجنه أبا ما كثيرة ثم أطلقه فرجع الى المدينة فأقام بها الى أن مات * وصعد ابن أبي الغيث بمن معه من العسكر ومن جاء نجدة من ابن طولون لقتال العمري أيضا حيث علم بقتله أصحابه بعد قتاله العلوي فلما التقى الفريقان تقدم العمري وقال لابي الغيث مقدم عسكر ابن طولون ان ابن طولون لا يعرف خبري على حقيقته فاني لم أخرج للفساد ولم يتأذى بي مسلم ولا ذمي وانما خرجت طالبا للجهاد فاكتب الى الامير أحمد وعرفه كيف حالي فان أمرك بالانصراف فانصرف وان أمرك بغير ذلك كنت معذورا فلم يجبه أبو الغيث الى ذلك وقائه وكان العمري من القوة وكثرة اللوم على غير ما كان يظنه أبو الغيث فشده في قتال أبي الغيث حتى هزمه شر هزيمة ورجع من بقي من عسكره الى مصر وأخبروا بحال العمري فقال ابن طولون كنتم أنهيتم حاله الى قائه نصر عليكم ببيغيكم وتركه فلما كان بعد مدة وثب على العمري غلامان من غلمانه فقتلاه وجلا رأسه الى أحمد بن طولون فسألهما عن سبب قتله فقالا أردنا التقرب من الامير أيده الله فأمر بقتلهما فقتلا وأمر برأس العمري فغسل وكفن ودفن * ولم تكذب محمد فتنة ابن الصوفي العلوي والعمري حتى خرج آخر اسمه أبو نوعه ودعا الناس لنفسه فانضم اليه خلق عظيم فسار بهم في عرض البلاد فقتل وسبي وأراق الدماء فسير اليه ابن طولون طائفة من الجنود فقاتلها وظفر بها وكاد يمزقها تمزيقا فأجدها ابن طولون فقهرته وظفرت به وعادت غائمة

ولما كانت سنة احدى وستين ومائتين هجرية عصى أيضا على ابن طولون أهل برقة فأخرجوا أميرهم محمد بن الفرج الفرجاني فسير اليهم ابن طولون جيشا وعليه غلامه لؤلؤ وأمره بالرفق بهم وترك الشدة فان عادوا الى الطاعة فيها ونعمت والا فالسيف حتى يؤدوها صاغرين فسار لؤلؤ حتى نزل على برقة وحاصرها وفعل ما أمره به ابن طولون فطمع أهل برقة في عسكر ابن طولون وخزجوا يوما على بعض العسكر وهم نازلون على باب البلد فأوقعوا بهم وقتلوا منهم فأرسل لؤلؤ الى ابن طولون في أمرهم فرسم له بالجد في قتالهم فنصب عليهم المجانيق وجده في قتالهم فطلبوا الامان فأمنهم ففتحوا له أبواب البلد فدخل وقبض على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط وقطع أيدي بعضهم وأخذ معه جماعة منهم وعاد الى مصر واستعمل على برقة عاملا فلما دخل لؤلؤ القاهرة بعسكره خلع عليه ابن طولون خلعة فيها طوقان من ذهب فوضعها في عنقه وركب في موكب حافل وأمامه الغنائم والأسرى وطاف المدينة فكان يوما مشهودا * واتفق أن مات في هذه السنة أيضا أماجور مقطع دمشق فنقل ابنه مكانه وجاء الخبر بذلك الى ابن طولون فتأقت نفسه الى أخذ الشام وضمها الى ديار مصر فكتب الى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة المعتمد على الله قد أقطعته الشام وسائر

الثغور ويسأله النزول على حكمه فأجابه ابن أماجور بالسمع والطاعة اذ كان يرى أن لا قبل له
 على مخالفته فسار ابن طولون في عسكر عظيم الى الشام واستخلف بمصر ولده العباس فلقبه
 ابن أماجور بالرملة فأقره عليها وسار الى دمشق فملكها وأقر قواد أماجور على أقطاعهم وسار
 الى حصن فملكها وملك كذلك حماة وحلب وكان المتولى على أنطاكية يومئذ سيما الطويل
 فراسله ابن طولون يدعوه الى طاعته ليقره على ولايته فامتنع فعاوده فلم يطعه فسار اليه
 وحاصر أنطاكية وشدت في حصارها وكان سيما المذكور سيئ السيرة مع أهل البلد فكاتبوا
 ابن طولون ودلوه على عورة البلد فنصب عليه المجانيق وقاتله تلك البلد عنوة والحصن الذي
 له فركب سيما وقاتل قتالا شديدا حتى قتل ولم يعلم به أحد فاجتاز بجنته بعض قواده فعرفها
 فحمل رأسه الى ابن طولون فساءه قتله ورحل عن أنطاكية الى طرسوس فدخلها وعزم على
 المقام بها وملازمة الغزاة فلم يتمكن من ذلك لغلاء الاسعار وقلة المأكول بها وقد ضاقت
 البلد عنه وعن عسكره فركب أهلها اليه بالخيم وقالوا له قد ضيقت بلدنا وأغلبيت أسعارنا
 فاما أقت في عدد يسير واما رحلت عنا وأغلظوا له في القول وشغبوا عليه فقال ابن طولون
 لأصحابه لتنهزموا من الطرسوسين وترحلوا عن البلد لينظر للناس وخاصة العدو أن ابن طولون
 على بعد صيته وكثرة عسكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهمز عنهم ليكون أهيب لهم في
 قلب العدو وعاد الى الشام فأناه الخبر أن ولده العباس الذي استخلفه بمصر قد شق عصا الطاعة
 وأخذ الاموال وسار الى برقة مشاققا لايه فلم يمه ذلك ولم يرجعه وقضى أشغاله وحفظ أطراف
 بلاده وترك عسكرا بجزان وكذلك بالبرقة مع غلامه أولو وكانت جزان يومئذ لمجد بن أنامش
 وكان بطلا شجاعا مقداما فأخرجه ابن طولون عنها وهزمه شر هزيمة فأنصل خبر ماجرى له
 بأخيه موسى بن أنامش وكان بطلا كذلك شديد المراس فجمع عسكرا عظيما وسار نحو جزان
 وبها عسكر ابن طولون ومقدمهم أحمد بن جيعويه فلما اتصل به خبر مجيء موسى بن أنامش
 أقلقه ذلك وأزعجه ففطن له رجل من الاعراب يقال له أبو الاغر فقال أيها الامير أراك مفكرا
 منذ أناك خبر ابن أنامش وما هذا محله فانه طيأش قلق ولوشاء الامير أن آتبه به أسيرا ففعلت
 فغاظه قوله وقال قد شئت أن تأتى به أسيرا قال فاضمم الى عشرين رجلا أختارهم قال افعل
 فاختر عشرين رجلا وسار بهم الى عسكر موسى فلما قاربهم كن بعضهم وجعل بينهم وبينه
 علامة اذا سمعوها ظهروا ثم دخل المعسكر في الباقين في زى الاعراب وقارب مضارب موسى
 وقصد خيلا مربوطة فأطلقها هو وأصحابه فيها فتفرقت وصاح هو ومن معه من الاعراب وأصحاب
 موسى غارون وقد تفرق بعضهم في حوائجهم فانزعج العسكر وركبوا وركب موسى فانهمزم
 أبو الاغر من بين يديه فتبعه حتى أخرجه من المعسكر وجازبه السكين فنادى أبو الاغر بالعلامة
 التي بينهم فثاروا من النواحي وعطف أبو الاغر على موسى فأسروه فأخذوه وساروا به الى
 ابن جيعويه فسيره الى ابن طولون فاعتمقه وعاد الى مصر وجعل يدبر الحيلة للتقيض على ولده
 العباس فعلم أنه انما خرج عن الطاعة باغراء جماعة من أصحابه وقد حسنوا له أخذ الاموال

والخروج الى برقة ففعل ذلك ووصل برقة في ربيع الاول من السنة فأرسل اليه أبوه يلاطفه ويستعطفه فلم يرجع وخاف من كان مع العباس من ابن طولون فأشاروا على العباس بقصد افريقية فسار اليها وكاتب وجوه البربر فأثناء بعضهم وامتنع بعضهم وكتب الى ابراهيم ابن الاغلب يقول ان أمير المؤمنين الخليفة المعتمد على الله قد قلدني أمر افريقية وأعمالها وسار حتى أتى حصن لينة ففتح أهله له فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم فحصى أهل الحصن الى الياس بن منصور والنافوسي مقدم الاباضية واستغاثوا به فكبر هذا الأمر عليه وأعظمه جدا وسار في لموم عظيمة لقتال العباس وكان ابراهيم بن الاغلب قد سار الى عامل طرابلس جيشا عظيما ورسم له بقتال العباس أيضا فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا قاتل فيه العباس بيده فلما كان الغد وافاهم الياس بن منصور الاباضي في اثني عشر ألفا من الاباضية فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحاب العباس خلق عظيم وانهمز شر هزيمة وكاد يسقط في يد الياس ونهبوا سواده وجيع ما حمله من مصر فعاد الى برقة وهو في أسوأ حال * وجاء الخبر الى مصر بانهمزاه فاغتم أبوه غما شديدا وسير اليه عسكريا لما علم بسلامته فقاتلوه قتالا صبرا فيه الفريقان فانهمز العباس ومن معه وكثر القتل في أصحابه وأخذ العباس أسيرا وجعل الى أبيه خبسه في حجرة في داره الى أن قدم باقي الأسرى من أصحابه فلما تكاملوا أتى بهم بين يدي ابن طولون وبينهم العباس فأمر ابن طولون ولده العباس أن يقطع أيدي أعيانهم وأرجلهم ففعل ولم يتأخر خوفا من أبيه فلما فرغ من ذلك نظر اليه أبوه نظرة الاسف ووجهه وذمه وقال هكذا يكون الرئيس والمقدم لقد كان الاجدر بك أن تلقى بنفسك بين يدي وتطلب الصبح عنك وعنهم فيكون أعلى لمهلك من القلوب وتكون قد قضيت حقهم فيما أعانوك وفارقوا أوطانهم لاجل أن أمر به فضرب مائة مقرعة ودموعه تجري على خده رقة لولده ثم رده الى الخجرة واعتقله

وأما الخليفة المعتمد على الله فانه بايع بالخلافة لابنه جعفر وسماه المفوض الى الله وكان المعتمد قد أثر الالذة فغلبت عليه وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الامور كلها كما تقدم ثم لم يلبث أن حصر المعتمد وحبيه فكان أول خليفة فهر وجرجر عليه ووكل به فلما اشتد به الحال وزاد به الضيق هرب وسار الى حديثة الموصل فسير أبو أحمد الموفق صاعدا الى سامرا وكتب الى اسحق بن كنداج فرده من الموصل واستفحل أمر الخلاف بين المعتمد وأخيه الموفق فتطرق الخلل الى مقام الخلافة وكادت تزول هيبتها وتنقسم عروتها وتحرك عقيب ذلك أيضا بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وتذهبوا بذهب دعاهم اليه رجل كان قد مرض بقرية من سواد الكوفة فأخذه رجل من أهل القرية اسمه كرمية ومعناه باللغة النبطية أحر العين فلما عوفي من مرضه دعا باسمه ثم اختصر الى أن قالوا فرمط ثم كان من فرمط هذا أنه دعا قوما من السواد والبادية عن لا يدينون بشئ الى دينه فأجابوه اليه * قال بعض الكتاب المعروف من مذهبهم وتعليمهم أنه جاء بكتاب فيه * بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرع بن

عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة انه داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدي وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل * وذكر أن المسيح تصور بحسم انسان وقال له انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيى بن زكريا وانك روح القدس وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها وان الاذان في كل صلاة أن يقول المؤذن الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا اله الا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن فوحا رسول الله أشهد أن إبراهيم رسول الله أشهد أن موسى رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله * كل ذلك مرة وأن القبلة الى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية وهو * الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لاوليائه بأوليائه قل ان الالهة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام وباطنها لاوليائي الذين عترفوا عبادي سبلي اتقوني يا أولى الابواب أنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العلم الحكيم وأنا أبلو عبادي وأمتحن خلقي فمن صبر على بلائي ومحنى واختباري أدخلته في جنتي وأخلدته في نعيمي ومن زال عن أمري وكذب رسلى أخذته مهانا في عذابي وأتممت أجلى وأظهرت أمري على السنة رسلى * أنا الذى لم يعمل على جبار الا وضعته ولا عزيز الا أدلته وبئس الذى أصّر على أمره ودام على جهالة وقال ان نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون * ثم يركع * ومن شرائعه أن يصام يومان في السنة وهما المهرجان والنيروز وحرم النبيذ وحلل الخمر ومنع أكل ذى ناب وذى مخالب وقال لا غسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلاة وغير ذلك من الاحكام والنواهي

وبلغت سيطرة الموفق وتصرفه في أمور الخلافة مبلغا عظيما جدا فعلت شهرته وكبرت هيئته فجعل يدس الدسائس بين عمال ابن طولون في الشامات وغيرها رجاء أن يفسد عليه الامر لما علمه من تقربه الى الخليفة المعتمد وتقرب الخليفة اليه ودس الى لؤلؤ غلام ابن طولون وفي يده يومئذ حص وقرسرين وحلب وديار مصر من الجزيرة نفّرج عن طاعة مولاه وسار الى بالس فنهبا وكاتب الموفق في المسير اليه واشترط شروطا فأجاب الموفق اليها وكان بالرفقة فسار الى الموفق ونزل قرقيسا وبها ابن صفوان العقيلي فخاربه وأخذها منه وسلمها الى أحمد ابن مالك بن طوق وسار الى الموفق فوصل اليه وهو يقاقل الخبيث العلوي وجاء الخبر بذلك الى ابن طولون فأهمه جدا وأكبره للغاية وجعل يدبر على الموفق وكاتب المعتمد سرا في أمر الموفق وما يفعله وكان المعتمد قد خجّر وصغرت نفسه مما يلاقيه من الموفق اذ لم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا في قليل ولا في كثير وكان الحكم كله للموفق والاموال تجبي اليه فكاتب المعتمد الى ابن طولون يعلمه بمقدمه عليه بمصر فأشار عليه ابن طولون بالحقاق به ووعد النصر وسير عسكرا الى الرقة ينتظر وصول المعتمد اليهم فأغتنم المعتمد غياب

الموفق عنه فسار في جمادى الاولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالكحيل يتصيد فلما صار الى
 على اسحق بن كنداجيق وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب ابن كنداجيق بن مع المعتمد
 من القواد فقبض عليهم وهم نيزك وأجد بن خافان وخطارمش فقيدهم وأخذ أموالهم
 ودوابهم وكان قد كتب اليه صاعد بن مخلد وزير الموفق في ذلك فقبض عليهم وجلهم مع
 المعتمد حتى أدخلهم سامرا وعلم الموفق بما جرى فاشتد بغضه لابن طولون ووهب لاسحق بن
 كنداجيق سائر البلاد التي كانت تحت حكم ابن طولون فامتد ملك ابن كنداجيق الى أطراف
 افريقية واتسعت كلمته وعلم ابن طولون بالامر فجعل يكيد للموفق وجع اليه القضاة والعلماء
 بدمشق وكلهم في أمر الخليفة المعتمد وما يقاسيه من الشدائد وكيف يغلب الموفق عليه ويبسط
 يده على جميع الامور فلم يترك له من الخلافة الا الاسم فتقررت القاعدة بينهم على أن يذكر
 الخطيب كل ذلك عند صلاة كل جمعة ويدعو الله الى نصرته وبلغن الموفق فعلم الموفق بالخبر
 فأكبره وأعظمه جدا وتقدم الى الخليفة المعتمد في لعن ابن طولون على المنابر فأجابه الى ذلك
 كارها فصاروا يلعنونه على منابر العراق باللهم العنه لعنا يقل حده ويتعس حده واجعله مثالا
 للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين * واشتد البغض بين الفريقين وجعل كل يتربص الفرص
 للايقاع بصاحبه ثم عادا فتواددا وتحابا وتناسيا ما فات فعادت الامور بين مصر ودار الخلافة
 الى سابق مجراها وفرح الخليفة المعتمد على الله بذلك لميله الى ابن طولون واشاره على الموفق ولم
 يكن ليطمئن قلب ابن طولون بعقد الصلح مع الموفق وزوال الوحشة من بينهما حتى جاءه الخبر
 بخروج بزماز وشقه عصا الطاعة فسار من فوره في عسكر الى طرسوس لقتاله وارجاعه الى
 الطاعة فلما بلغ أدنة كاتبه وراسله يستميله فلم يلتفت بزماز الى ذلك فسار اليه ابن طولون
 ونازله وحصره فخرق بزماز نهر البلد على معسكر ابن طولون فكادوا يهلكون جميعا فرحل
 ابن طولون مغنطا حنقا وكان الزمان شتاء وأرسل الى بزماز يقول اني لم أرحل الا خوفا أن
 تخرق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو وعاد الى أنطاكية ولبث بها أياما وطلب لبنا فأثوته بشيء
 من لبن الجواميس فأكثر منه فأصابته هيضة فأشار عليه طبيبه سعيد بن شيوفيل النصراني
 بالحبة أياما فلم يمتثل فكبرت الهيضة حتى صارت ذربا وكان الطبيب يعالجه وهو بأكل ما يشاء
 سرا فلم ينجع الدواء واشتدت علته واستعصت فكر راجعا الى مصر جلا على أعناق الرجال
 ووصل الى القرماء فأنزلوه في حراقة في النيل فصعدت به الى الفسطاط وقد اشتدت علته
 فجعل يتصدق على الفقراء والمساكين وخرج العلماء والمشايخ وبطرك المناصلين الى المقطم
 يدعون الله ويبتلون اليه في شفاء ابن طولون فلما كان يوم الاحد عاشر ذي القعدة سنة
 سبعين ومائتين هجرية توفي فكانت امارته نحو ست وعشرين سنة وكان حازما عاقلا
 كثير المعروف والصدقة متدينا وعمل كثيرا من أعمال البر ومصلح الخلق وترك من
 الاموال عشرة آلاف ألف دينار ومن العبيد المزججين بالسلاح سبعة آلاف وبغير سلاح أربعة
 وعشرين ألفا وشيئا كثيرا جدا من الخيل والبغال والجمال ودواب الجمل وكان يجلس للنظر

في مظالم الرعية بنفسه ويتصدق في كل شهر بشئ كثير من المال وكان من تولى توزيع صدقاته ابراهيم بن قراطغان فدخل عليه يوما وقال أيد الله الأمير اني أقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فتخرج لي الكف المحضوبة نقشا والمعصم الرائع فيه الحديد والكف فيها الخاتم فقال ابن طولون ويحك كل من مد اليك يده فأعطه فهذه والله هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه في كتابه فقال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فأحذر أن ترد يدك امتدت اليك * ومات عن ثلاثين ولدا ذكرا وثلاث عشرة أنثى وحزن عليه الخليفة المعتمد وبكاه * وكان أحمد قد عهد بالولاية من بعده الى ابنه خiarويه فتولاه في ثاني يوم موت أبيه في ذي القعدة وله من العمر يومئذ عشرون سنة ولقب بأبي الجيش خiarويه وجعل يتصرف في الأمور على أحسن ما يكون من الرفق بالرعية والنظر في الظلمات ونصرة الضعيف على القوى فأجبت الرعية ومالت اليه القلوب فلم يكن ليستقر به منصب الولاية حتى طمع في أملاك مصر اسحق بن كنداجيق صاحب الموصل والجزيرة وكلم ابن الساج صاحب الشام في الخروج معه على خiarويه وأخذ البلاد منه فأجابه ابن الساج الى ذلك وكانا الموفق بالله في ذلك فرسم لهما بقصد البلاد ووعدهما انفاذ الجيوش فجمعوا وقصدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليه وأعانهما نائب خiarويه بدمشق ووعدهما بالانحياز اليهما فرحل من بالشام من نواب خiarويه الى أنطاكية وحلب وحمص وعصى متولى دمشق المذكور واستولى ابن كنداجيق على تلك الانحاء وجاء الخبر الى خiarويه بمصر بما جرى فأكبره جدا ورسم الى من كان بدمشق من العساكر بالزحف على ابن كنداجيق واجلائه عن البلاد فطاولهم ابن كنداجيق حتى يأتيه المدد من العراق فهجم الشتاء على الفريقين وأضر بأصحاب خiarويه ضررا عظيما فتفرقوا في المنازل بشيرز ووصل المدد من العراق الى عسكر ابن كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله فسار بهم ابن كنداجيق مجتدا الى عسكر خiarويه بشيرز فلم يشعروا حتى كبسهم بالمنازل ووضع السيف فيهم فقتل منهم خلقا وفتر من بقي الى دمشق فساق ابن الموفق خلفهم بعسكره فجعلوا عنها الى الرملة فلما كان ابن الموفق بدمشق ودخلها في شعبان سنة احدى وسبعين ومائتين وأقام عسكر خiarويه بالرملة وسيروا الخبر بما جرى الى خiarويه فهاله الأمر وأزعجه وخرج من فوره من مصر في عسكر عظيم للغاية يريد الشام فلم يصل اليها حتى جاء الخبر بوقوع الخلاف بين محمد بن أبي الساج واسحق بن كنداجيق وقد كانا على اتفاق في الخروج عن طاعة خiarويه وكان سبب الاختلاف بينهما أن ابن أبي الساج نافر اسحق في الأعمال وأراد أن يتقدم عليه فلم يرض اسحق بذلك وامتنع عليه فأرسل ابن أبي الساج الى خiarويه في طلب الطاعة والرجوع الى خدمة خiarويه فأجابه خiarويه الى ذلك فخطب له ابن أبي الساج بقنسرين وسيروا له يوداد الى خiarويه رهينة فقال اليه خiarويه وأرسل اليه مالا كثيرا له واقواده وطلبه فحضر اليه بيالس ثم عبر ابن أبي الساج الفرات الى الرقة فلقية ابن كنداجيق واقتتلا قتالا عنيفا فكانت الدائرة على ابن كنداجيق

وعبر خارويه الفرات ونزل الرقة ومضى ابن كنداجيق منهزماً الى قلعة ماردين فحصره ابن أبي الساج فيها ثم سار عنها فخرج ابن كنداجيق من ماردين نحو الموصل فلقبه ابن أبي الساج وكان قد كن له فانهزم وعاد فاراً الى ماردين وقوى ابن أبي الساج وظهر أمره واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخارويه فيها ثم لنفسه بعده وما زال على هذا الحال الى أن كانت سنة خمس وسبعين ومائتين خالف ابن أبي الساج وخرج عن طاعة خارويه واستنبد بالامر وقطع الخطبة لخارويه في أعماله كلها ووردت الاخبار بذلك الى خارويه فسار عن مصر في عسكر عظيم يريد الشام فلاقاه ابن أبي الساج عند ثنية العقاب بقرب دمشق واقتتلا قتالا شديداً فانهزمت ميمنة خارويه وأحاط باقي عسكره بابن أبي الساج ومن معه فضى منهزماً واستنجد معسكره فأخذت دوابه وآلات حربه وجميع ما فيه وكان ابن أبي الساج قد ترك بمحمص شيئاً كثيراً من الأموال والكراع وخارويه يعلم بذلك فسير خارويه الى حصص عسكراً فسبقوا ابن أبي الساج اليها ومنعوه من دخول البلد واستولوا على جميع ماله هناك فضى منهزماً الى حلب ومنها الى الرقة فتبعه خارويه بعسكره ففارق الرقة فعبّر خارويه الفرات في أثر ابن أبي الساج فلم يدركه فسير خلفه اسحق بن كنداجيق في عسكر عظيم وكان قد رضى خارويه عن اسحق المذكور فكان بين اسحق وبين ابن أبي الساج أمور قد أضربنا عن ارادها هنا خوف الاطالة

ولما كانت سنة ثمان وسبعين ومائتين هجرية مات الموفق فقام المعتضد بأمر الناس في التدبير مكان أبيه الناصر وهو الموفق وخلع جعفر المفوض بن المعتمد من ولاية العهد وقيل بل بايعه الناس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض وذلك لسبع ليال بقين من صفر واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه يولاه وجعل يتصرف كما يحب ويختار فأقام اسمعيل بن بلبل في الوزارة بعد شغب كثير كان في مدينة السلام ثم لم يلبث أن قيد اسمعيل بن بلبل ووجه الى العباس بن أبي عبد الله بن سليمان بن وهب وأحضره وخلع عليه ورد إليه أمر كتابته وذلك يوم الثلاثاء الثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم يزل اسمعيل بن بلبل يعذب بأنواع العذاب وجعل في عنقه غلا في رمانة حديد والغل والرمانة مائة وعشرون رطلاً وألبس جبسة صوف قد صيرت في ودك الاكارع وعلق معه رأس كلب ميت فلم يزل على ذلك حتى مات في جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ودفن بغله وقيوده وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التي كانت في خزائنه فضربت وفرقت في الجند

وخرج الخليفة المعتمد على الله يوماً في المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين وجلس للقواد واستدعى القضاة والوجوه وأرباب الدولة فلما تكامل مجلسهم أعلمهم أنه خلع ابنه المفوض الى الله جعفر من ولاية العهد وعهد بها للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق فأكبروا هذا الامر وأعظموه وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العهد وأسقط اسمه من السكة

والطبعة والطرز وغير ذلك فلم ينقض شهر رجب من هذه السنة حتى مرض المعتمد ومات ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت منه وكان سبب موته أنه شرب يوما على الشط ببغداد شرابا كثيرا وتعشى فأكثر أيضا فمات ليلا فأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس فنظروا اليه وجعل الى سامرا فدفن بها وكان عمره خمسين سنة وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ذكره ابن الأثير * وقال المسعودى فى كتابه مروج الذهب * وقد كان المعتمد فعدا للغداء واصطحب يوم الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال ياموشكيره للوكل به ما فعلت الرأس بأرقابها وقد كان قدّم من الليل أن يقدم له رأسا جلين وقد فصل فيهما رقابهما فقدمتا وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ورجل آخر يعرف بخلف المضحك فأول من ضرب يده الى الرأس الملقم فانتزع أذن واحدة منها وأما المضحك فانه يقتلع اللهازم والاعين فأكلوا وأكل المعتمد وأتموا يومهم فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرى فى الليل وأما المضحك فانه مات قبل الصباح وأما المعتمد فانه أصبح ميتا وقد لحق بالقوم ودخل اسمعيل بن حماد القاضى على المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة وكان هو أول من سلم عليه بها وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول هل نرون به من بأس أوزمات فجاء وقتلته مداومته على شرب النبيذ فنظروا اليه فإذا ليس به من أثر فغسل وكفن وجعل فى تابوت أعدله الى سامرا فدفن بها وذكروا أيضا أن سبب موته أنه سقى نوعا من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال السرك والتبت وربما وجد فى سنبل الطيب وهو ألوان ثلاثة

ومات فى خلافة المعتمد سانيوني بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة فأقيم بعده خائيل وهو سادس خسيم واشتد أحمد بن طولون فى أيامه على خائيل المذكور شدة بليغة وأزله بحمل عشرين ألف دينار * وكان سبب ذلك أن أسقفا اسمه سكا كانت بكنيسة الاسكندرية قدزاع عن الأمانة المستقيمة ونظهرت له تعاليم جديدة فاستتابه خائيل البطرك المثار اليه فلم ينب فنهاه فلم ينته فخلعه وأبعده عن الكنيسة فضى الأسقف المذكور الى ابن طولون ووشى فى حق البطرك وبالع فى الواقعة فيه وقال لابن طولون ان لى البطرك من الأموال والتحف والنفائس ما لا يدخل تحت الحصر وكان ابن طولون فى ذلك الحين فى حاجة الى المال للنفقة على العسكر الذاهب الى الشام لرد الخوارج فسير ابن طولون فى الحال فى طلب خائيل البطرك فلما تمثل بين يديه طلب منه عشرين ألف دينار نقرة فاعتذر البطرك وقال من أين يكون لى هذا المال وأنا انما أعيش من صدقات أهل البر وحسنات ذوى البيوتات فشدد ابن طولون فى الطلب وبالع فى التشديد ثم أمر بخائيل البطرك فألقوه فى السجن هو وتلميذه ابن المنذر فضى عليهم ما حول وهما معتقلان وكان لابن طولون ديوان اسمه موسى وله ولدان هما

يوحنا وإبراهيم فتقدما إلى ابن طولون في كفالة البطرك في وفاة المال المطلوب بشرط الافراج عنه ليمكن من جمعه فأجابهما ابن طولون إلى ذلك وأطلق البطرك وتلميذه وضرب للوفاء أجلا فجعل خائيل يبيع جميع متاع الكنائس الموقوفة عليها وباع كذلك أرض الحبش بظاهر القسطنطينية والكنيسة الكائنة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود وهي باقية في تصرفهم إلى هذا اليوم وقرر الديارية على كل واحد من القبط قيراطا في السنة فلم يقم مع هذا كله إلا بنصف المقرر عليه فانكش في كنيسة العذراء بالمعلقة فعاد ابن طولون وقبض عليه وألقاه في السجن فلم يمس على ابن طولون بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى مات وخلفه ابنه خiarويه وكان خiarويه يعلم بأصل الفتنة وأن خائيل البطرك يرى مما اتهم به فأطلق سيده وكف عن مطالبته بشئ بعد الذي أذاه فعاد عمل خiarويه هذا حسنة من حسناته الكثيرة

(الفصل السادس عشر)

(في خلافة أبي العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق)

ثم قام بالامر بعد المعتضد ابن أخيه أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق بالله ببيع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه عمه المعتضد على الله وهو يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة أي نحو سنة اثنين وتسعين وثمانمائة للبلاد فلما أفضت الخلافة إليه واستوثق له الامر سكنت الفتنة وصلحت شؤون البلاد فارتفعت الحروب ورخصت الأسعار وهدأ الهرج وسالمة كل مخالف ودانت له الأمور وانفتح له الشرق والغرب وأدبل إليه أكثر المخالفين له والمنايذين لطاعته وأقر عبيد الله بن سليمان على وزارته وما زال عبيد الله وزيرا حتى مات فاستوزر بعده القاسم ابنه وولى غلامه بدرا الشرطة ومحمد بن الشاه بن مالك الحرس

وفي السنة التي تولى الخلافة فيها المعتضد قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولا من مصر لخiarويه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموال جلية فوصل إلى المعتضد فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ثم سعى في تزويج ابنة خiarويه المسماة قطر النداء من على المكتفي فقال المعتضد انما أراد أن يتشرف بنا وأنا أزيد في تشريفه أنا أتزوجها فتزوجها وتولى ابن الجصاص أمرها وجل جهازها فيقال انه جل معها جواهر لم يجمع مثلها عند خليفة قط فاقتطع ابن الجصاص بعضه وأعلم قطر النداء أن ما أخذ مودع لها عنده إلى وقت حاجتها إليه فماتت والجوهر عنده فكان ذلك سبب غناه واستغلاله قيل وكان ما كان لابن الجصاص من بعد ذلك في أيام المقتدر من المحن والقبض عليه وما أخذ منه من الأموال

بهذا السبب وغيره * وجل المعتضد صداق قطر النداء وهو بمدينة بلد الى أبي الجيوش وكان
الصادق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق وكان
مما خص به أبا الجيوش في نفسه وجباه به بكرة من الجواهر الثمين فيها در وياقوت وأنواع من
الجواهر ووشاح وتاج واكبيل وقيل قلنسوة وكردف وكان وصولهم الى مصر في رجب سنة
ثمانين ومائتين وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن عمل ما وصفنا الى مدينة السلام
في البحر * فلما اطمان قلب أبي الجيوش بخارويه بمصاهرة الخليفة المعتضد عكف على اللهو
والترف فبنى القصور العالية والميادين الفسيحة وأقبل على قصر أبيه فزاد فيه وجعل ميدانه
بستانا وغرس فيه أنواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وأنواع الورد والزعفران والتخيل
والأعنان وكسا أجسام التخييل بالنحاس المذهب وجعل بين النحاس وأجسام التخييل مزاريب
الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه الرياحان على نقوش وأشكال غريبة وكبابان
مكتوبة يتعاهد بها البستانان بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وبني في البستان برجا
من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وسرح فيه من أنواع القمار
والدباسي والزينات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وسرح في البستان من الطير العجيب
مثل الطاوس ودجاج الحبش ونحوها وعمل في داره مجلسا سماه بيت الذهب قد طلى حيطاته
كلها بالذهب المحلول بالازورد على أحسن نقش وجعل في حيطانه صورة بارزة من خشب
مصنوع على صورته وصور خطاياه والمغنيات اللاتي تغنيهن بما عليهن من الحلى والزينة
والثياب بألوانها ولم يعرف ملك قط تقدم بخارويه في عمل مثل هذا البستان * واشتكى يوما
الى طبيبه مما يلاقه من الارق فأشار عليه بالتغيز فأنف من ذلك فأشار بعمل بركة من زئبق
فعملها خمسين ذراعا في خمسين وملاها من الزئبق وجعل في أركان البركة سكا من الفضة
الخالصة وجعل في السكك زنابير من حرير في حلق من الفضة وعمل فراشا من آدم يحشى بالريح
حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدة ويلقى على تلك البركة وتشت زنابير الحرير التي في حلق الفضة
بسكك الفضة وينام على هذا الفراش فلا يزال هذا الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام
عليه * ولم يمض على مصاهرة أبي الجيوش بخارويه بن أحمد بن طولون للمعتضد سوى نحو
عامين حتى ذبح أبو الجيوش في دمشق في ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين وقد كان بني في سفح
الجلل أسفل من دير مروان قصرا وكان يشرب فيه في تلك الليلة وعنده طعج التركي وكان
الذي تولى ذبحه غلاما من خدمه وجل أبو الجيوش في تابوت الى مصر فلما وصلها أخرج من
التابوت وجعل على السرير وذلك على باب مصر وخرج والده الأمير جيوش وسائر الأمراء
والأولياء وتقدم القاضي أبو عبيد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبداني وصلى عليه وذلك
في الليل * حكى أبو بشر الدولابي عن أبي عبد الله التجاري وكان شيخا من أهل العراق
وكان يقرأ في دور آل طولون ومقابرهم أنه بات في تلك الليلة مع من يقرأ عند القبر وقد

فدّم أبو الجبش ليدلى في القبر ونحن نقرأ وجاعة من القراء سبعة سورة الدخان فأحدر من السرير ودلى في القبر وانتهينا من السورة في هذا الوقت الى قوله عز وجل * خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم ذق انك أنت العزيز الكريم * قال فحفظنا أصواتنا وأدعنا حياء ممن حضر اه

وكانت مدة ولاية خارويه اثنتي عشرة سنة وثمانية عشر يوما فقام بالامر بعده ولده جيش تولى الملك ثاني يوم وفاة أبيه فلم تستقم له الامور وشاغب القواد عليه الحداثة سنه واحتقره الجند وكادت تخرج عليه عمال البلاد الشامية وغيرها من بقية العمالات التابعة لمصر وعصاه ابن طغج بن جف والى الشام ولم يبايع له وكان سبب ذلك أنه لما ولى اجتمع اليه الاحداث والسفل فأخلد الى استماع أقوالهم فأفسدوا بينه وبين قواده وأصحابه فجعل يذمهم جهارا ويظهر العزم على استبدالهم ثم قطع أعطية بعضهم وأخذ نعمهم فلما اشتد بهم الحال اتفقوا على قتله وأن يقيموا عمه بدله فبلغه خبر ذلك فلم يقدر على كتمانها وأطلق لسانه فيهم ففارقهم بعضهم وساروا الى بغداد وتقدموا الى الخليفة المعتضد فخلع عليهم وأحسن اليهم وبقي الجند على خلافهم لابن خارويه وأحاطوا بقصره يوما يريدون خلعه وشدوا في الطلب فسألهم كاتبه علي بن أحمد المرذاني أن ينصرفوا يومهم ذلك فأنصرفوا فأرسل ابن خارويه في الحال جاعة فقبضوا على اثنين من عمومته وقتلوهما وأصبح الجند وقد اجتمعوا حول القصر يريدون خلعه فلما تكامل حضورهم رى بالرأسين اليهم فهاجوا وماجوا وهجموا على القصر ودخلوا على ابن خارويه فقتلوه ونهبوا داره وعاثوا في البلد فنهبوا ما قدروا على نهبه ثم أحرقوها فكان المنظر مرعبا والخطب شديد للغاية ثم أتوا بأخيه هرون وولوه الامر فكانت ولاية جيش تسعة أشهر لا غير * وجعل هرون يتصرف في الامور فغلب عليه هواه ولم يرض على ولايته الا القليل حتى افتتن الناس وظهر بغضهم له فاختل نظام الدولة وانعكست الامور على هرون وطمع الولاة والعمال في الاستقلال وبلغ المعتضد خبر هذا كله فتأقت نفسه الى استرداد سائر المدن والبلدان التي كان ابن طولون قد ضمها الى ديار مصر وسار في عسكر عظيم أولا الى أجيذة فأطاعه صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ وعاهده على الوفاء ثم سار عنها الى قنسرين فملكها ووردت الأخبار بذلك الى هرون فبكاد يسقط في يده وسير الى المعتضد يستعطفه ويسترضيه بعد أمور وعهود وجعل يعمل على تسكين القلاقل والفتن جهدا لاستطاعة فلم يتم له كل ما أراد وكان من أمره ما سيذكر في خلافة المكتفي بالله بن المعتضد

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين ومائتين أمر المعتضد بالكتابة الى جميع الأعمال والبلاد كلها بستره افتتاح الخراج في النيروز الفارسي وتأخير جمع الخراج الى الحادي عشر من حزيران وسماه بالنيروز المعتضدي وأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد يومئذ بها قالوا وانما أراد بذلك الترفيه على الناس والرفق بهم وكتب أيضا الى جميع البلدان برد الفاضل من سهام الموارث الى ذوى الارحام وأبطل ديوان الموارث ففرح الناس بذلك

ومدحوه ثم نزل في سنة ثلاث وثمانين ومائتين الى تكريت وسار الحسن بن جلدان في
الاولياء لحرب هرون الشاري فكانت بينهم حروب عظيمة كانت للحسن بن جلدان عليه فأتى
به الى المعتضد أسيرا بغير أمان ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت
له الطرقات وعبي المعتضد جيوشه بباب الشماسية على أحسن ما يكون من التعبية وأكل
هيئة ثم خلع على الحسن بن جلدان خلعا شرفه بها وطوقه بطوق من ذهب وخلع على
جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله وشهرهم في الناس كرامة لما كان من فعلهم وحسن
بلائهم ثم أمر بالشاري فأركب فيلا وعليه دراعة ديباج وعلى رأسه برنس خز طويل
وخلفه أخوه على جل وعليه دراعة ديباج وبرنس خز وسيرهم في أثر الحسن بن جلدان
وأصحابه ثم دخل المعتضد في أثره عليه قباء أسود وقلنسوة محدودة على فرس ضاف وعن
يساره أخوه عبد الله الموفق وخلفه بدر غلامه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب
وزيره وابنه القاسم بن عبد الله فأكثر الناس من الدعاء له وتكاثر الناس في منصرفهم من
الجانب الشرقي الى الجانب الغربي فالتخسف بهم كرسى الجسر الأعلى وسقط على زورق ملأوا
ناسا فغرق في هذا اليوم نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف واستخرج الناس
من دجلة بالكلايب والغواصة وارتفع الضجيج وكثر الصراخ من الجانبين فبينما الناس على
هذا الحال من الصراخ والعيول اذ أخرج بعض الغواصة صبيا عليه حلى فائرة من ذهب
وجوهر فبصر به شيخ من المنظارة طرار فجعل يلطم وجهه حتى دمي أنفه ثم تفرغ على
الشراب وأظهر أنه ابنه وجعل يقول ياسيدي لم تمت اذ أخرجوك صحيفا سويا لم يأكل
السمك ولم تمت حبيبي اذ تكلمت عيني بك مرة قبل الموت وأخذته فمله على حمار ثم مضى به
فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ ما رأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من
التجار حين بلغه الخبر وهو لا يشك الا أن الصبي في أيديهم وليس يهمه ما كان عليه من حل
وثياب وانما أراد أن يكفنه ويصلى عليه ويدفنه فأخبره الناس بالخبر فبقى هو ومن معه من
التجار متعجبين مبهورين وسألوا عنه واستجشوا فإذا لا عين ولا أثر وعرفوا بانوا هذا الجسر
هذا الشيخ المحتال فأبأسوا أبا الغريق منه وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كده
وانه بلغ من حيله وخبئه ودهائه أنه أتى يوما من أول الصباح الى باب بعض العدول البكر
المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة على عاتقه وفاس وزئبيل فقام في ثوب خلق
ولم يتكلم حتى وضع الفاس في الدكاكين التي على باب ذلك العدل فهدمها وجعل يتقي
الآجر ويعزله فسمع ذلك العدل بهدمها ووقع الفأس والهدم فخرج لينظر فإذا الشيخ دائم
بهدم دكاكينه التي على باب داره فقال يا عبيد الله أي شيء تصنع ومن أمرك بهذا فجعل
الشيخ يعمل عمله ولا يلتفت الى العدل ولا يكلمه فاجتمع الجيران وهما في المحاورة فأخذوا بيد
الشيخ فوكزه هذا ودفعه هذا فالتفت اليهم فقال ويلكم أي شيء تريدون مني أما تستعجبون
تعبثون بي وأنا شيخ كبير فقالوا مالنا والعبث بك ويحك من أمرك بهذا قال ويحكم أمرني

صاحب الدار فقالوا هذا صاحب الدار يكلمك قال لا والله ما هذا صاحب الدار فلما سمعوا كلامه وغفلته رجوه وقالوا هذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل من قد حسده على ما أنعم الله تعالى به عليه وهم الذين جلاوا هذا الشيخ على هذا الفعل فلما منعوه من الهدم مضى إلى الجرة التي جاء بها وقد كان وضعها إلى جانب الباب فأدخلك يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها فصرخ وبكى فلم يشك العدل أن محتالا خدعه وأخذ ثيابه فقال وأى شيء ذهب لك قال قبض جديد اشتريته أمس وملحفة لبتى وسراويل فرقوا له جميعا ودعاه العدل فكساه ووهب له دراهم كثيرة ووهب له الجيران دراهم كثيرة وانصرف غائما وهذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ويكنى بأبي البار وله أخبار عظيمة وحيل عجيبه * قال بعض الكتاب وهذا الشيخ هو الذي احتال للتوكل حين بايعه بمختيشوع الطبيب أنه ان سرق من داره شيء يعرفه في ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليه أن يحمل إلى خزانه أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار وان خرجت هذه الليالي ولم يتم عليه ما ذكره الضيعة المعين ذكرها في المبايعه فأتى بهذا الشيخ في عنقوان شسبابه إلى المتوكل فضمن للتوكل أن يأخذ من دار بمختيشوع شيئا لا ينكره وقد كان بمختيشوع حرس داره وحصنها في هذه الليالي فاحتال العقاب المذكور بحيل لطيفة إلى أن سرق بمختيشوع نفسه وجعله في صندوق وأتى به المتوكل في خبر نظريف وأنه رسول اعيسى بن مريم نزل إلى بمختيشوع بشمع أسرجه وتخليط عماله وبخ في طعام اتخذوه وأطعمه الحراس لداره في تلك الليلة إلى آخر القصة مما لا حاجة لإيرادها هنا

وكان المعتضد حازما كيسا كثير الحساب حكى عبد الله بن جدون وكان من ندماء المعتضد وخاصة وعن كان يأنس به في الخلوة انه أمر أن ينقص من مرتب حشمه ومن كان يجرى عليه من الأتراك من كل رغيف أوقية وان يبدأ بأمر خبزه لان للوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك قال ابن جدون فتعجبت من ذلك في أول أمره ثم تبينت القصة فاذا انه يتوفر من ذلك في كل شهر مال عظيم * وتقدم إلى خازنه أن يختار له من الثياب التسترية والديقية أحسنها لتقطيعها لنفسه وكان مع ذلك قليل الرجة كثير الاقدام سفا كاللدماء شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله وكان اذا غضب على القائد النبيل والذي يختصه من غلمانه أمر أن تحفر له حفرة ثم يدلى على رأسه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الاسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى يخرج دوحه من دبره وذكر من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيس ويؤخذ القطن فيحشى في أذنه وخيشومه وفيه وتوضع المناقع في دبره حتى ينتفخ ويعظم جسمه ثم تسد دبره بشئ من القطن ثم يفصد وقد صار كالجلل العظيم من العرقين المعروفين فوق الحاجبين فتخرج النفس من ذلك الموضع وربما كان يوضع الرجل في أعلى السطح مجردا موثقا ويرى بالنشاب حتى يموت واتخذ المظامير وجعل فيها أصناف العذاب وجعل عليها الحرى المتولى لعذاب الناس ولم يكن له رغبة الا في النساء والبناء فانه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ

ومما ذكر من حزمه في الأمور وحيله وصبره أنه أطلق يوماً من بيت المال لبعض الرسوم في
الجند عشر بدر فحملت إلى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم فنقب منزله في تلك الليلة
وأخذت العشر بدر فلما أصبح الصباح نظر إلى النقب ولم ير المال فأمر بإحضار صاحب الحرس
وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلى فلما أتاه قال له إن هذا المال للسلطان والجند ومتى لم
تأت به أو بالذي نقيبته وأخذ المال ألزمتك أمير المؤمنين غرمة بخد في طلبه وطلب اللص الذي
جسر على هذا الفعل فسار إلى مجلسه وأحضر التوابين والشرط * والتوابون هم شيوخ من
أنواع اللصوص الذين كبروا وتابوا فإذا جرت حادثة علموا من فعلها فدلوا عليه وربما قاسموا
اللصوص ما سرقوه * فتقدم إليهم في الطلب وتمدهم وأوعدهم وطالبهم فتفرق القوم
في الدروب والأسواق والغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار فلبسوا أن أحضروا
رجلاً نحيفاً ضعيف الجسم رث الملابس هين الحاملة فقالوا يا سيدي هذا صاحب الفعلة وهو
غريب من غير هذا البلد وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب ولص المال فأقبل عليه
مؤنس العجلى فقال وبيك من كان معك ومن أعانك وأين أصحابك ما أظنك تقدر على عشر بدر
وحدك في ليلة ما كنتم الا عشرة وأقل ذلك خسة فأقر لي بالمال إن كان مجتمعا وعلى أصحابك
إن كان المال قد قسم فما زاده على الانكار شيئاً فأقبل يترفق به ويعده أن ينسبه ويرزقه ويعظم
جائزته ويعده بكل جيل على رده والافراجه ويتوعده بكل مكروه على جوده وانكاره فلما غاظه
ذلك وأنكره ويئس من اقراره أخذ في عقوبته ومساءلته فضربه بالسوط والقلوس والمقارع
والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجله وكعابه وعضله حتى لم يكن للضرب فيه
موضع وبلغ به ذلك إلى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق فلم يقر بشئ فبلغ ذلك الخليفة المعتضد
فأرسل فأحضر صاحب الجيش فقال له ما صنعت في المال فأخبره الخبر فقال له وبيك تأخذ
لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر فتباغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال
فأين حيل الرجال فألقى به وقد جل في جل فوضع بين يديه وقد عقل فسأله فأنكر فقال له
وبيك انهم لم ينفعوك وإن برئت من هذا الضرب لم أدعك تصل إليه فلك الأمان والضمان
على ما تصلح به حالتك ويحمد به أمرك فأبى الا الانكار فقال على بأهل الطب فأحضروا
فقال خذوا هذا الرجل اليكم فعالجوه بأرفق العلاج وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهد
واجتهدوا أن تبرئوه في أسرع وقت فأخذوه اليهم وأخرج مالا مكان المال وأمر بتفريقه على
الجند فيقال انه برئ وصلح في أيام يسيرة ثم واظبوا عليه بالطعام والشراب والوطاء والطبيب
حتى صح وقوى جسمه وظهر لونه ورجعت إليه نفسه ثم ذكر به فأمر بإحضاره فلما حضر
بين يديه سأله عن حاله فدعا وشكر وقال أنا بخير ما أبقي الله أمير المؤمنين ثم سأله عن المال
فعاد إلى الانكار فقال له وبيك لست نخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو وصل إليك
بعضه فان كنت أخذته كله فانك تنفقه في أكل وشرب ولهو ولا أظنك تفنيه قبل موتك
وإن مت فعليك وزره وإن كنت أخذت بعضه سمحنا لك به فأقر على أصحابك فأبى أقبلت إن

لم تقتر ولا ينفعك بقاء المال بعدك ولا يبالي أصحابك بقتلك ومتى أقررت دفعت اليك عشرة آلاف درهم وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ورسمتك من التوابين وأجريت لك في كل شهر عشرة دنائير تكفيك لا كالك وشربك وكسوتك وطيبك وتكون عزيزا وتنجو من القتل وتتخلص من الائم فأبى الا الانكار فاستخلفه بالله وأظهر له مصيفا خلف عليه فقال اني سأظهر على المال فان أظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم أستبقك فأبى الا الانكار فقال له فضع يدك على رأسي واحلف بحياتي فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ماأخذه وانه مظلوم متهمم وان التوابين قد تبرؤا به فقال له المعتضد فان كنت قد كذبت قتلتك وأنا برىء من دمك قال نعم فأمر باحضار ثلاثين أسود بحيث يراهم ويرونه وأمرهم أن يتناوبوا في ملازمته فأنت عليه أيام وهو قاعد لا يتكئ ولا يستلق ولا يضطجع وكلما خفق خفقة وجئ فكه ووقع رأسه حتى اذا ضعف وقارب التلف أمر باحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستخلفه بالله وبغير ذلك من الايمان خلف على ذلك كله وبما لم يستخلفه به أنه ماأخذ المال ولايعرف من أخذه فقال المعتضد لمن حضر قلبي يشهد أنه برىء وأن مايقول حق وأن التوابين قد عرفوا صاحبه وقد آثمنا في هذا الرجل وسأله أن يجعله في حل ففعل ثم أمر باحضار مائدة عليها طعام وأحضر بارد الشراب وأمره بالجلوس والأكل والشرب فأقبل يأكل ويشرب ويحث على الأكل ويلقهم ويعاد الشراب عليه ويكرر حتى لم يبق للاكل والشرب موقع ثم أمر بخور وطيب فبخر وطيب وأتى له بمحشية ريش فوطئ له ومهد فلما استلقى واستراح وغفا أمر بازعاجه وسرعة ابقائه فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفي عينيه الوسن فقال له حدثني كيف صنعت وكيف نقبت ومن أين خرجت والى أين ذهبت بالمال ومن كان معك قال ماكنت الا وحدي وخرجت من النقب الذي دخلت منه وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقش والقصب فوضعت تحتها وغطيته وهو هناك فأمر برده الى فراشه فردوه وأخجعه عليه ثم أمر باحضار المال فأحضر عن آخره وأحضر مؤنس العجلى وأحضر الوزير والجلساء وقد غطى المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بإيقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه الوسن فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول فجحد وأنكر فأمر بكشف البساط وقال له وبلك أليس هذا المال ألسنت فعلت كذا وكذا وأخذ يصف له ما كان حدثه به ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق ثم أمر بمنفاخ فنفخ في دبره وأتى بقطن فحشى في أذنيه وفه ونحشومه وأقبل ينفخ وخلي عن يديه ورجليه من الوثاق وأمسك بالأيدي وقد صار كأعظم ما يكون من الزقاق المنفوخة وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه وعيناه قد امتلأتا وبرزتا فلما كاد أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه في عرقين فوق الحاجبين وهما في الجبين فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير الى أن خد وتلف وكان ذلك أعظم مارؤى في ذلك اليوم من العذاب

ولما كثرت مظالم المعتضد وكثر سفكه للدماء قيل انه ظهر له شخص في صور مختلفة في داره فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان وتارة يظهر شابا حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة وتارة يظهر شيخا أبيض اللحية ببزة التجار وتارة يظهر بيده سيف مسلول وضرب بعض الخدم فقتله فكانت الابواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان في بيت أو صحن أو غيره وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها فأكثر الناس القول في ذلك واستفاض الأمر واشتهر في خواص الناس وعوامهم والقول في ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم فمن قائل ان شيطانا مريدا أصمده له يظهر فيؤذيه ومنهم من يقول ان بعض مؤمنى الجن رأى ما هو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعا وعن المنكر زاجرا ومنهم من رأى أن ذلك من بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة يضعها في فمه فلا يدرك بحاسة البصر وكل ذلك ظن وحسبان فلما اشتد أمر ذلك على المعتضد أحضر المعزمين وقد كبر قلقه واستوحش ومار عليه أمره فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه وضرب وجلس جماعة منهم وعمل أعمالا لا يسعنا ذكرها هنا لشناعتها

ومات المعتضد لاربعة ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين في قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام وقيل ان وفاته كانت بسم دسه اليه اسماعيل بن بلبل قبل قتله اياه فكان يسرى في جسده ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته اياه يتنشف به وقيل غير ذلك مما لم نذكره هنا وقد كان أوصى أن يدفن في دار محمد بن عبد الله ابن طاهر في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرخام فلما اعتراه الغشى ووقع للون شكوا في وفاته فتقدم الطبيب الى بعض أعضائه فجسه فأحس به وهو على ما به من السكران فأنف من ذلك وركله برجله فقلبه أذرا فيقال ان الطبيب مات منها ومات المعتضد من ساعته وسمع ضجة وهو على ما به من الحال ففتح عينه وأشار بيديه كالاستشفهم فقال له مؤنس الخادم ياسيدي الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله فاطلقنا لهم العطاء فقطب وجهه وهمهم في سكرته فكانت أنفاس الجماعة أن تخرج من هيئته وجعل الى دار محمد ابن عبد الله بن طاهر فدفن بها * قال صاحب مروج الذهب وللمعتضد أخبار وسير وحروب وسير في الارض غير ما ذكر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين قيل ولما حضرته الوفاة أنشد

تمتع من الدنيا فانك لا تبقى * وخذ صفوها ما ان صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر انى أمنتته * فلم يبق لي خلا ولم يرع لي حقا
قنلت صناديد الرجال ولم أدع * عدوا ولم أمهل على طغيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع * فشردتهم غربا ومرضتهم شرقا

فلما بلغت النجسم عزا ورفعته * وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقبا
رماني الردى سهما فأخمد جرتي * فيها أنا ذا في حفرتي عاجلا ألقى
ولم يغن عني ما جمعت ولم أجده * لذى الملك والأحياء في حسنها رفقا
فياليت شعري بعد موتي ما ألقى * إلى نسيم الرحمن أم ناره ألقى
وكان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق قد وخطه الشيب وكان شهما شجاعا
مقداما ذا عزم وفيه شج مهيبا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفا منه
وبعد موته تولى الخلافة بعده ولده أبو محمد علي المكتفي بالله

(الفصل السابع عشر)

(في خلافة أبي محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المعتضد ابنه أبو محمد علي المكتفي بالله بن المعتضد بن الموفق بن
المستول بن المعتصم ببيع له بالخلافة يوم مات أبوه وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع
الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين هجرية أي سنة إحدى وتسعين لليلاد وأخذ له البيعة
القاسم بن عبيد الله والمكتفي يومئذ بالرقعة وله من العمر نيف وعشرون سنة فلما وصله
الخبر أخذ البيعة على من عنده من الأجناد ورضع لهم العطاء وسار إلى بغداد ووجه إلى
النواحي من ديار ربيعة ومضر ونواحي العرب من يحفظها وكان وصوله إلى مدينة السلام
يوم الاثنين لسبع ليل بقين من جمادى الأولى سنة تسع وثمانين ومائتين وكان دخوله إليها
في البحر ونزل قصر الحسيني على دجلة وخلع على القاسم بن عبيد الله ولم يخلع على أحد من
القواد وفي اليوم الذي دخل فيه مدينة السلام قتل عمرو بن الليث الصفار قتله صبأ صافي
الخزعي وكان أمر قتله من أغرب الأمور وذلك أنه لما قبض على عمرو المذكور في أيام المعتضد
وأودع في السجن مدة مرض المعتضد فد ذكره المعتضد عند امتناعه من الكلام واحتضاره
فأشار بيديه يريد صافيا الخزعي فلما حضر إليه أمره بقتل عمرو المذكور بالإيماء والاشارة
بان وضع يده على رقبتيه وعلى عينيه يعني بذلك أذيم الأعور فلم يفعل ذلك صافي لعلمه
بقرب وفاة المعتضد وكره قتل عمرو المذكور فلما دخل المكتفي مدينة السلام سأل القاسم بن
عبيد الله الوزير عنه فقال هو حي يرزق فسر بذلك وأراد الإحسان إليه لأنه كان يكثر من
الهدية إليه لما كان بالري فكره الوزير ذلك فبعث إليه من قتله وعلم المقدر بما جرى فأ كبر
الامر وأعظمه جدا وكان دائما يذكر هذه الفعلة للقاسم ولا ينساها * ولم تستقر الخلافة
بالمكتفي حتى أمر به ستم المطامير التي كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس وأطلق من كان

محبوسا فيها وأمر برد المنازل التي كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير الى أهلها وفرق فيهم أموالا فالت فلوب الرعية اليه وكثر الداعي له بهذا السبب وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه فكان بعد ذلك لا يعمل الا بمشورتهم * وجاءته الكتب تترى من أهل مصر والشام يشكون ما يلقون من القرمطي من القتل والسبي والتخريب وقد كان عاث هو وأصحابه في سائر البلاد وأخفش في القتل واراقة الدماء بلا رحمة ولا شفقة وحصر دمشق وضيق عليها فجاءت اليها النجدة من مصر وبغداد وسير المصريون لقتاله بيدرا القائد وغيره من كبار القواد فقاتلوا شيخا مقدما القرامطة وشددوا في قتاله وألحوا فقتل على باب دمشق وأحرق وقتل خلق كثير من القرامطة وتفرق من بقي منهم ثم عادوا فاجتمعوا على الحسين أخى شيخ المسذكور فسمى نفسه أحمد وكنى بأبي العباس ودعا الناس فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم فاشتدت شوكته وجعل يمؤه على الناس وأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية وسار بجيوشه الى دمشق فخافه أهلها وصالحوه على خراج دفعوه اليه وانصرف عنهم ثم سار الى أطراف حصص فأخذها وخطب له على منابرها وتسمى المهدي أمير المؤمنين وأتاه ابن عم له اسمه عيسى المهدي فلقبه المدثر وعهد اليه وزعم انه المدثر المذكور في القرآن ولقب غلاما من أهله المطوق وقلده قتل أسرى المسلمين ثم سار الى حجة ومعزة النعمان وغيرهم فقتل وسبي وأحرق وخرب وقتل النساء والصبيان ثم سار الى بعلبك فقتل عامة أهلها فلم يبق منهم الا اليسير ثم سار الى السليمة فغنه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم لاما ففتحوا له بابها فبدأ يقتل من فيها من الهاشميين وكانوا جماعة ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف وسار فيما حولها من القرى يسبي ويقتل فضج الناس وعجوا الى الله تعالى وخاف الخليفة المكتفي شر العاقبة فجهر في رمضان من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين جندا عظيما وخرج بهم من بغداد في الشهر بعينه وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الاعر في عشرة آلاف رجل فقتل قريبا من حلب فكبسهم القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الاعر فدخل حلب في ألف رجل فسبقه القرمطي الى باب حلب فقاتله أبو الاعر بمن بقي معه وأهل البلد فرجع عنهم وما استهل شوال حتى وصل بدر مولى ابن طولون في عسكره وانتفض على القرمطي وفاته قتالا شديدا فانهمز القرمطي وقتل من أصحابه خلق كثير ومضى من سلم منهم نحو البادية فوجه الخليفة المكتفي في أثرهم الحسين بن جندان وجماعة من القواد فلم يدركهم وما زال الحال هكذا الى مستهل سنة سبع وتسعين ثم شدد المكتفي في قتال القرمطي وولى محمد بن سليمان الكاتب أمر حربه ورسم له بمناهضة القرمطي فسار اليه محمد في عسكر الخليفة فلاقاه على مقربة من حجة فسير اليهم القرمطي جماعة من أصحابه وبقي هو في جماعة ومعه أمواله وسواد عسكره فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فانهمزت القرامطة وقتل منهم مقتلة عظيمة وتغزق من بقي وفر الى البوادي فتبعهم أصحاب الخليفة فلما رأى القرمطي ما حل بأصحابه

ركب هو وابن عمه المسمى بالمدثر والمطوق صاحبه وغلّام له روى وسار يريد الكوفة عرضا في البرية فلما وصل الى الدالية من أعمال الفرات نفد ما كان معهم من الزاد والعلف فوجه بعض أصحابه الى الدالية المعروفة بابن طوق ليشتري لهم ما يحتاجون اليه فلما صار في سوق البلد أنكروا حاله فسألوه عن أمره فكتمه فرفعه الى متولى تلك الناحية فسأله عن خبره فأعلمه أن القرمطي صاحب الشامة خلف راية هناك مع ثلاثة نفر فسير اليهم الوالي من قبض عليهم ثم وجههم الى المكتنى بالرقعة ورجعت الجيوش بعد أن قتلوا وأسروا وفي يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم أدخل صاحب الشامة الرقة على جل ظاهر للناس وبين يديه المدثر والمطوق ثم سار من هناك مع الخليفة المكتنى الى بغداد فأدخل اليها على فيل وأصحابه على الجمل فأودعهم السجن حتى قدم محمد بن سليمان الكاتب في عسكره ومعه جماعة من أعيان القرامطة ورؤسهم فأمر الخليفة بقطع أيديهم وأرجلهم وقطع أعناقهم وضرب صاحب الشامة ألقي سوط وقطعت يداه وكوى فغشى عليه وأخذوا حطباً ووضعوا فيه نارا ووضعوه على خواصره فجعل يفتح عينه ويغضها فلما خافوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك كثيرا وفرحوا بموته فرحا عظيما

وكان هرون بن خمارويه لما عاهد الخليفة المعتضد وعاهده على الولاء والطاعة أيام خلافته خوفا من زحفه على أملاك مصر ونزعها منه جعل يراقب الفرص ليتخلص من ربة تلك العقود فلما ظهر القرمطي صاحب الشامة وكان من أمر خروج الخليفة المكتنى ومعه محمد بن سليمان الكاتب في مقدمة عسكره وظهر أمر ابن الكاتب واتسعت كلمته بعد ظفهره بالقرمطي عمده هرون بن خمارويه الى استئالة ابن الكاتب سرا وأوعز الى بدر الجمالي غلام أحد بن طولون وفائق أحد أصحابه وهما بدمشق أن يكتبوا ابن الكاتب في ذلك ويدعوانه الى قصد البلاد بالعساكر فكتبوا اليه ووعداه بالمساعدة على أخذها فكتم ابن الكاتب أمر ذلك ولما عاد الى بغداد أنهاه الى الخليفة المكتنى فكاد الخليفة بتميز غيظا وأمر ابن الكاتب بالعود وسير معه الجنود والاموال ووجه دميانة غلام بazar أيضا وأمره بركوب البحر الى مصر ودخول النيل وقطع الوارد عنها فساد دميانة ووصل اليها وشدد في حصار المدينة وضيق على أهلها وزحف اليهم محمد بن سليمان في عسكره في البر حتى صار على مقربة من مصر وكاتب من بها من القواد فكان أول من طلب الامان بدر الجمالي وهو مقدمهم فانحلت عقدتهم وانفشلوا جميعا وتنازع المستأمنة من القواد فلما رأى ذلك هرون بن خمارويه خرج فيمن معه لقتال محمد بن سليمان فكانت بينهم وقائع كثيرة واتفق في هذه الاثناء أن وقع بين عسكر هرون خلاف وعظم شر هذا الخلاف فاقتتلوا فخرج هرون يسكنهم فرماه بعض المغاربة بجزراق فقتله فلما قتل استقدموا عمه شيان وولوه مكان هرون فبذل المال للجند فأطاعوه واجتمعوا عند كلمته وحاربوا معه فأتتهم كتب بدر الجمالي يدعوهم الى الامان فأجابوه الى ذلك ووصل الخبر الى محمد بن سليمان بما جرى فصار الى

مصر فأرسل اليه شيبان يطلب الامان فأجابته نخرج اليه ليلا ولم يعلم به أحد من الجند فلما أصبحوا لم يجدوه في داره فقبيل ان محمد بن سليمان الكاتب قبض عليه وقتله وقيل بل هرب في أرض الله واسعة الفضاء ودخل ابن الكاتب مصر واستولى على دور آل طولون وأموالهم وقبض عليهم جميعا وهم بضعة عشر رجلا فقيدهم وسجنهم واستقصى أموالهم وكتب بالفتح الى الخليفة المتوكل فأمره بأشخاص آل طولون وأسبابهم وجميع متاعهم من مصر والشام الى بغداد وأن لا يترك منهم أحدا ففعل وقد عاث أصحابه وأفسدوا وأحرقوا وقتلوا من السودان سكان قطائع ابن طولون خلقا عظيما للغاية وولى معونة مصر عيسى النوشري فبادت من ذلك اليوم دولة بني طولون وخلت منهم الديار وعفت الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم التكنيل والذل فرثاهم الشعراء وبكاهم الناس كثيرا فممن رثاهم من الشعراء المعاصرين أحمد بن اسحق الجفر واسماعيل بن أبي هاشم ومحمد بن طسويه وسعيد القاص وأحمد بن محمد الحبشي وأحمد بن يعقوب فمما قاله القاص من قصيدة طويلة هذه الابيات

جرى دمعه ما بين سحر الى نحر * ولم يجرحني أسننه يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضحي على جمر
تتابع أحداث يضيعن صبره * وغدر من الايام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الانوف وجدها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وقعد بن طولون في كل موطن * أمر على الاسلام فقدا من القطر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا * جمل الحيا لا يبيت على وتر
كأن لبالي الدهر كانت لحسنها * واشراقها في عصره ليلة القدر

الى أن قال

ترى أثرا لم يبق من يستطيعه * من الناس في بدو البلاد ولا حضر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته * كما قام ليث الغاب في الاسل السمر
أنته المنيا وهو في أمن داره * فأصبح مسلوبا من النهى والامر

الى أن قال

فن يبك شيا ضاع من بعد أهله * لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بن طولون اذ بان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصر

ثم ظهر بعد ذلك بقليل رجل يعرف بالخلنجي وهو من قواد آل طولون وكان تخلف عن محمد بن سليمان فاستمال جماعة من المصريين وقاموا معه وخالفوا على السلطان وكثر جمعه وعلت كلمته وعجز النوشري عن رده فسار النوشري الى الاسكندرية ودخل الخلنجي مصر وجعل ينصرف في الامور فكتب النوشري الى الخليفة المكتفي بالخبر وطلب منه النجدة فسير اليه الجنود مع قاتك الستركى مولى المعتضد وبدر الجمحي فساروا في شوال ووصلوا الى فواحي مصر وتقدم أحمد بن كيغلف في جماعة من القواد فلقبهم الخلنجي بالقرب

من العريش في جيش عظيم فاقتتلوا فانصر عليهم الخلفي وهزمهم شرهزيمة فطلبوا من الخليفة بعض القواد فسير اليهم جماعة منهم واتصلت الاخبار بقوة الخلفي فبرز المكتفي الى باب الشماسية ببغداد ليسير الى مصر واهتم لذلك جدا ونادى بالتأهب للسير فيينما هو على هذا الحال اذ جاء كتاب من فانك في شعبان يذكر أنه هو والقواد جدوا في قتال الخلفي فكانت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق كثير وان آخر حرب كانت بينهم قتل فيها معظم أصحاب ابراهيم الخلفي وانهزم الباقون وظفروا بهم وغنموا عسكرهم وهرب الخلفي فدخل فسطاط مصر فاستتر بها عند رجل من أهل البلد فدخلوا المدينة فدلوا عليه فأخذه ومن استتر عنده وألقوه في الحبس فكتب المكتفي الى فانك في حل الخلفي ومن معه الى بغداد وعاد المكتفي فدخل بغداد وأمر برد خزائنه وآلات حربه وكانت قد سارت فبلغت تكريت فوجه فانك بالخلفي الى بغداد فدخلها هو ومن معه في شهر رمضان من السنة فأمر المكتفي بحبسهم ورجع النوشري الى مصر فأقام واليا عليها خمس سنين وشهرين وخمسة عشر يوما ومات سنة سبع وتسعين ومائتين أي في خلافة المقتدر بالله كما سيأتي بيانه في محله

ولما كانت سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية مرض المكتفي بالله وثقل به مرضه الى شهر ذي القعدة فتوفي في ثالث عشره وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وقيل اثنتان وثلاثون سنة فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وكانربعة جيلا يفوق البشارة حسن الشعر وكنيته أبو محمد ودفن بدار محمد بن طاهر وكان يحب علي بن أبي طالب ويميل الى ذريته * يحكى أن يحيى بن علي الشاعر أشده بالرقعة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد علي فقطع المكتفي عليه انشاده وقال يا يحيى كأنهم ليسوا بخ عم مأحب أن يخاطب أهلنا بشيء من ذلك وان كانوا خلفاء ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها * قال بعض أصحاب التاريخ ولكنه لم يمض على خلافته قليل حتى تبدلت طباعه وتغيرت أحواله وركب متن هواه فسلك مسالك أبيه ومالت نفسه الى الإيذاء والعبث بحقوق الرعية وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بازاء قطربل فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت في تلك النواحي بغير عمن من ملاكها فكثرت الداعي عليه فلم يستتم ذلك البناء حتى توفي وكان هذا الفعل مشا كلا لفعل أبيه المعتضد في بناء المظامير وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه وكانت وفاة القاسم المذكور عشية الاربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين ومائتين وله نيف وثلاثون سنة قيل وكان ممن قتله القاسم بن عبيد الله المذكور عبد الواحد بن الخليفة الموفق وكان معتقلا عند مؤنس فبعث اليه حتى أخذ برأسه في أيام المكتفي وقد كان المعتضد يعزه ويميل اليه ميلا شديدا اذ لم يكن لعبد الواحد المذكور همة في خلافة ولا طموح الى رئاسة بل كانت همته في اللعب مع الاحداث وقد كان المكتفي أخبر عنه انه أرسل عدة من غلمانه

الخاصة فوكل به من راعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابي حيث يقول

نلوم على ترك الغناء بأهله * طوى الدهر عنهم من طريف وتالد
 رأت حولها النسوان يمشين حلقة * مقامدة أجيادها بالقـلـلـا تـد
 يسرك أنى نلت مانال جعفر * من الملك أو مانال يحيى بن خالد
 وإن أمير المؤمنين أغصنى * مغصهما بالمرهفات البوارد
 ذرينى تجئنى مبيتى مطمئنة * ولم أتجشم هول تلك الموارد
 فإن نفيسات الأمور مشوبة * بمستودعات فى بطون الاسود
 وإن الذى يسمو الى درك العلا * ملقى بأسباب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب ياسيدي أين أنت مما تمهل به تريد

ابن المذهب

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجِد * حياة لنفسى مثل أن أتقدما
فقال له عبد الله مه لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قاتل هذا البيت
وأصاب أبو فرعون التميمي حيث يقول قال النديم حيث يقول ماذا قال قال
وما بى شئ فى الوعى غير أنتى * أخاف على فخارى أن تحطما
فلو كنت مستاعا من السوق مثلها * لدى الروح ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفى ضحك وقال قد قلت للقاسم ليس عبيد الواحد ممن
تسمو همته الى الخلافة هذا قول من ايسر له همة غير فرجه وجوفه وأمره يعانقه وكلاب
بهارش بها وبكاش يناطح بها وديوك يقاثل بها أطلقوا لعي كذا وكذا فلم يزل القاسم
المذكور بعبد الواحد حتى قتله كما تقدم وقد كان المكتفى لما أن مات القاسم وتبين قتله
لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره وضربه بالسوط وحرقه بالنار وقيل غير ذلك

ومات في أيامه أيضا خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته نحو خمس وعشرين سنة
ووقع فيها من الحوادث والمحن شيء كثير جدا أضربنا عن إيراد هنا خلا الكرسى بعده أربع
عشرة سنة الى سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة خمس وسبعين وتسعمائة
ميلادية اشتد فيها الخطب على المناصلين وعظمت نكباتهم ثم قدموا غريبال كما سيأتى بيان
ذلك في خلافة المتقى بالله ابراهيم بن المقدر بن المعتضد واحتوت في خلال هذه الفترة أيضا
كنيسة القيامة الكبرى بالاسكندرية في يوم الاثنين لسادس شوال سنة ثلاثمائة أى نحو سنة
أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهى التى كانت هيكل زحل قبل المسيحية وكانت من بناء
قلوطره ملكة مصر وهى معظمة عند المسيحيين فلم يبق منها حجر على حجر

(الفصل الثامن عشر)

(في خلافة أبي الفضل جعفر المقتدر بالله)

ثم قام بالامر بعد المكتفي بالله أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد ببيع له بالخلافة في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية أي نحو سنة سبع وتسعمائة ميلادية وكان له يوم بوبع ثلاث عشرة سنة * قال أصحاب التاريخ وكان السبب في ولاية أبي الفضل جعفر المقتدر المذكور أنه لما ثقل المرض بالمكتفي فكر العباس ابن الحسن وزير المكتفي بومئذ فحين يصلح للخلافة بعد المكتفي وكان الذين يتولون الدواوين أربعة هم أبو عبد الله بن محمد وداود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبدان وأبو الحسن علي ابن محمد بن الفرات فكان إذا ركب العباس بن الحسن الوزير المذكور سار في ركابه أحد الأربعة ليوصله إلى دار الخلافة فسأل الوزير يوما ابن الجراح فحين يصلح للخلافة بعد المكتفي فقال عبد الله بن المعتز وأخذ يصفه بالعقل وأصالة الرأي مع الوقار والحشمة ثم استشار أبا الحسن بن الفرات في ذلك أيضا فلم يبد رأيا فألح عليه فقال فليتنق الله الوزير ولا يولى الخلافة إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصب بخيلا يضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا يشمره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين لا يخاف العقوبة والآثم ولا يرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضبعة هذا وفرس هذا ومن قد لقي الناس واقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فحين تشير قال أصلي الموجودين جعفر بن المعتضد قال ويحك هو صبي قال ابن الفرات ولكنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا ثم استشار الوزير أيضا ابن عيسى فحين يولى الخلافة فلم يذكر له أحدا فأعجب الوزير رأى ابن الفرات ومال إلى تولية أبي الفضل جعفر فلما مات المكتفي بايعوا أبا الفضل ولقبوه المقتدر بالله واستقرت به الخلافة فاستصغره الوزير وجعل يتصرف هو في الأمور ثم عزم على خلعه وتقليد الخلافة لابن عبد الله محمد بن المعتمد وكان حسن السيرة جميل الوجه والعمل فراسله في ذلك وبقي الأمر مستورا ليقمك الوزير من التغلب على غلمان المعتضد انهم يجتمع المقتدر * واتفق أن وقعت منازعة بين أبي عبد الله المذكور وبين ابن عمرويه صاحب الشرطة بسبب ضيعة مشتركة بينهما فأغلظ له ابن عمرويه فغضب ابن المعتمد غضبا شديدا وأغشى عليه وأفلج في المجلس فحمل إلى بيته في محفة فمات في اليوم الثاني فأراد الوزير البيعة لابن الحسين بن المتوكل فمات أيضا بعد خمسة أيام وأبي الله إلا أن يتم الأمر للمقتدر فلما كانت سنة ست وتسعين ومائتين استمال الوزير العباس بن

الحسن الى رأيه جميع القواد والقضاة والكتاب فتعاهدوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز وأرسلوا الى ابن المعتز في ذلك فأجابهم على أن لا يحصل حرب ولا سفك دم فوافقوه على ذلك وجعلوا يتأهبون وعاد المقتدر فتودد الى العباس الوزير ورأى العباس أمره صالحا مع المقتدر فاجم عن خلعه وتزلف اليه فلما آنس منه ذلك جماعة القواد قاموا عليه وقتلوه وقتلوا معه فائسكا المعتضدى وأصبحوا وقد خلعوا المقتدر وبايعوا ابن المعتز وساروا الى المقتدر ليقتلوه فلم يتمكنوا من ذلك فاحضروا ابن المعتز ولقبوه المرتضى بالله وأجلسوه على كرسى الخلافة فاستوزر محمد بن داود بن الجراح وقلد على بن عيسى الدواوين فكتب الكتاب الى الاقاق من أمير المؤمنين المرتضى بالله أبي العباس عبد الله بن المعتز بالله * وسير الى المقتدر من يلزمه بالانتقال الى دار ابن طاهر التي كان مقما فيها لينتقل هو الى دار الخلافة فطلب الامهال الى الليل وعاد الحسين بن حمدان يطلب المقتدر ليقتله وأحاط بدار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجال من وراء الستور عامة النهار فأنصرف عنهم ولما دخل الليل أخذ ماله وعياله وأنصرف عن بغداد الى الموصل ولم يبق مع المقتدر من القواد أحد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الحال وحاشية دار الخلافة وقد صمموا على قتل ابن المعتز قبل قتلهم فجهزهم المقتدر بالأسلحة والدروع وركبوا في السمريات وأصعدوا في الماء يريدون مقر ابن المعتز فلما رأهم من عند ابن المعتز على هذا الحال هالهم أمرهم وكثرتهم وخافوا وهربوا على وجوههم قبل أن يصلوا اليهم وعلم ابن المعتز بذلك فركب ومعه وزيره محمد بن دواد وهربا وغلام له يتادى بين يديه يامعشر العامة ادعوا لخليفةكم السني البريهاري * قال بعض الكتاب وانما نسب هذه النسبة لان الحسين بن القاسم بن عبيد الله البريهاري كان مقدم الحنابلة والسنة من العامة ولهم فيه اعتقاد عظيم فأراد استمالتهم بهذا القول * وسار ابن المعتز ومن معه نحو الصحراء وكان يظن أن الجنود الذين بايعوه يقومون لتصرته ويقبضونه حيث سار فلم يلحقه منهم أحد فلما خذل ابن المعتز نزل عن دابته ومعه غلام وانحدر الى دار أبي عبد الله الجصاص مستجيها به واختفى محمد بن داود في داره واختفى كل من بايع ابن المعتز فبرز ابن عمرويه وجع أصحابه ونادى بشعار المقتدر تدليسا فقام عليه العامة وقتلوه وسبوه فاختفى وتفرق أصحابه

وتنقوت عزيمة المقتدر بعد ذلك فقلد الشرطة مؤنسا الخازن فخرج مؤنس بالعسكر وقبض على وصيف بن صوارثكين وغيره من أصحاب الفتنه وقتل القاضي المثنى أحمد بن يعقوب وأرسل المقتدر الى ابن الفرات وكان محتفيا وقلده الوزارة وخلع عليه وفتشوا على المعتز فدلهم غلام لابن الجصاص أنه عند مولاه ومعه جماعة فكبست دار ابن الجصاص وأخذ ابن المعتز منها وجلس الى الليل وعصرت خصيتاه حتى مات ولف في زلي وسلم لاهله ونهبت أموال ابن الجصاص وقتل محمد بن دواد وزير ابن المعتز ونفى على بن عيسى الى واسط وسيرت العساكر من بغداد في طلب الحسين بن حمدان فلم يظفروا به فعادوا فكتب الوزير

الى أبي الهيثم أخى الحسين بن جردان وهو الأمير على الموصل يومئذ يأمره بطلب الحسين والاتبان به الى بغداد فصار خلفه وتبعه الى حيث سار فكانت بينهما وقائع وأمور بطول شرحها ثم تقدم أبو الهيثم الى الوزير في طلب العفو عن الحسين بن جردان فأجابه الوزير الى ذلك وعفا المقتدر عنه وعن آخرين ودخل الحسين بغداد وقام بها الى أن ولي قم فصار اليها

وجعل ابن الفرات الوزير يتصرف في الأمور فبسط العدل والاحسان وأخرج الارزاق والاموال للعباسيين والطالبيين وفرق الاموال في القواد وأرضاهم وصرف عنهم ما يكرهون فمالوا اليه وأجبهوه * وما حكي عن مكارم أخلاق ابن الفرات المذكور أنه كان بينه وبين سليمان بن الحسن بن مخلد مودة وصحبة قديمة فلما دانت للخليفة المقتدر الأمور بعد قتل ابن المعتز واستوزر ابن الفرات عثر ابن الفرات على كتب البيعة لابن المعتز فتأملها فإذا هي بخط سليمان لقراءة كانت بينه وبين ابن الجراح فلم يظهر عليها المقتدر وكتب أمرها عنه وأحسن الى سليمان وقلده المناصب العالية فلما تمكن وظهرت كلمته سعى بابن الفرات الى المقتدر وكتب بخطه مطالعة تتضمن ذكر أملاك الوزير وضياعه ومستغلانه وما يتعلق بأسبابه وأخذ الرقعة ليوصلها الى الخليفة المقتدر فلم يتهيأ له ذلك وجاء دار الوزير والرقعة معه فسقطت من يده فظفر بها بعض الكتاب فأعطاها للوزير فلما قرأها تعجب جدا وقبض على سليمان وجعله في زورق وأحدره الى واسط ووكّل به هناك وصادره في جميع أمواله ثم أراد العفو عنه فكتب اليه * نظرت أعزك الله في حقك عليّ وجرمك اليّ فرأيت الحق موفى على الجرم وتذكرت من سالف خدمتك ما عطفني عليك وثناني اليك وأعادتني لك الى أفضل ما عهدت وأجل ما ألفت * ثم أطلق له عشرة آلاف درهم وعفا عنه وأكرمه واستعمله ولم تطل وزارة ابن الفرات هذا حتى وثى به الوشاة عند الخليفة المقتدر فقبض عليه واستصفي أمواله وهتك حرمة واعتقله ووكّل به ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به ووقعت الفتنة ببغداد لقبضه ولقي الناس شدة عظيمة ثلاثة أيام ثم سكنوا وكانت مدة وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما وتولى الوزارة بعده أبو علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فرتب أصحاب الدواوين وتولى الأمور وجعل يتصرف فيها ولكنه لم يفلح لانه كان ضجورا ضيق الصدر مهملا لقراءة كتب العمال وجباية الاموال وكان يظهر التواضع ويتقرب من العامة والخاصة وكان اذا رأى جماعة من العامة أو غيرهم يصلون بجماعة نزل عن دابته وصلى معهم واذا سأله أحد حاجة دق صدره وقال نعم وكرامة فسماء الناس دق صدره ونصر في اطلاق الاموال للجند والقواد فتفرقوا عنه وانحط قدر الوزارة واستصغرها الناس وكان أولاده كثير و التحكم عليه فكانوا يأخذون الرشوى ويسألونه قضاء حاجات الراشدين لهم فقال فيه بعض الشعراء

وزير قد تكامل في الرقاعه * بولي ثم يعزل بعد ساعه
اذا أهل الرشا اجتمعوا لديه * نغير القوم أو فرهم بضاعه
وايس يسلم في هذا بحال * لان الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الامر به حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الاموال ويفسدون الاحوال فانحلت
عقده الوزارة وضعف أمرها ونجحت الممالك وطمع العمال في الأطراف فلما زاد الحال
أحضر الخليفة الوزير ابن الفرات من محبسه فجعله عنده في بعض الحجر مكرما فكان يعرض
عليه مطالعات العمال وغير ذلك من الاعمال وأحسن اليه ثم عزل الخاقاني وسلم الوزارة لعلي
ابن عيسى والى مكة فأحسن التصرف وأصلح الأمور ورتب الاشغال وأطلق الاموال وعمر
المساجد وفرشها ورتب لها المرتبات وأبطل بعض المكوس والمغام التي أحدثها الخاقاني ثم
خلعه وأعاد ابن الفرات ثم خلعه

ولما كانت سنة ثلاثمائة هجرية جهز المهدي صاحب المغرب عسكريا عظيما من افريقية
وسيرهم مع ولده أبي القاسم الى الديار المصرية يريد غزوها وسلحها عن أملاك الخليفة
المقتدر فساروا الى برقة واستولوا عليها وانحدروا منها الى مصر فملكوا الاسكندرية ومدينة
الفيوم وما بينهما وتصرف أبو القاسم فيما نزل عليه من البلاد وضيق على أهلها وجباها
وزاد في المغارم والمكوس فسبى اليه الخليفة المقتدر بالله مؤنسا الخادم في جيش عظيم فخارهم
وطالت الحرب بينهم وما زالت سجالا حتى أجسلاهم مؤنس عن مصر فعادوا الى المغرب
مهزومين فلم تكن الا سنة سبع وثلاثمائة حتى أعاد المهدي ابنه أبا القاسم الى مصر في جيش
ضخم للغاية فوصل الى الاسكندرية في ربيع الآخر فخرج عامل المقتدر عنها هاربا ودخلها
القاسم وأقام بها المراتبين من أصحابه وانحدر الى مصر فدخل الحيزة وملك الاشمونيه
ومدنا كشيرة من الصعيد الأوسط وكتب الى أهل مكة يدعوهم الى الدخول في طاعته فلم
يقبلوا منه ووردت بذلك الاخبار الى بغداد فسير المقتدر مؤنسا الخادم في جيش لقتال أبي
القاسم ف وقعت بينهما عدة وقائع وقدم من المغرب ثمانون مركبا لنجدة أبي القاسم بن المهدي
فأرست بالاسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتاني وهما من أشجع قواد صاحب
المغرب وأعرفهم بفتون الحرب فغنى الخليفة المقتدر العاقبة وأمر فسيروا الى الاسكندرية
مراكب طرسوس وعدتها خمسة وعشرون مركبا وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو البين
فالتقت بمراكب صاحب المغرب واقتتلوا على رشيد قتالا عنيفا فظفر أصحاب مراكب
المقتدر وأحرقوا كثيرا من مراكب صاحب المغرب وهلك أكثر من فيها من الجند وأسر
منهم خلق وبنهم سليمان الخادم ويعقوب ومات سليمان بالجس بمصر وحمل يعقوب
الى دار السلام ثم هرب منها وعاد الى افريقية وطالت أيام الحرب بين مؤنس الخادم وأبي
القاسم بن المهدي ووقع الوباء في عسكر أبي القاسم فمات منهم كثير فعاد من سلم الى
افريقية وتبعهم عسكر مصر حتى أبعدوهم وسكنت الفتنة واطمأنت القلوب

وكثر عزل الخليفة المقتدر للوزراء و كبار الدولة وقواد الجند فكان يعزل الواحد
 منهم ويولى غيره ثم لا يلبث أن يخلفه ويولى غيره وهكذا حتى ضجر أصحابه وكرهوه
 وقامت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم ونزل صاحب الشرطة وبعض قواده فتأمروا
 على خلع من الخلافة والبيعة لأخيه القاهر بالله محمد بن المعتض فخرج مؤنس في عسكره
 وخرج معه بقية المشاغبيين وأحاطوا بدار الخلافة فنفروا من كان بها مع المقتدر وهرب
 جميع الخدم والاتباع والوزير أبو علي بن مقله ودخل مؤنس الدار وأخرج المقتدر ووالدته
 وخالته وخواصه من الجوارى وأولاده من دار الخلافة وجلاوا إلى دار مؤنس فاعتقلوا بها
 وأحضروا محمد بن المعتض وبايعوه بالخلافة ولقبوه القاهر بالله وأحضروا القاضي أبا عمر
 عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع فأشهد عليه القاضي بالخلع فقام ابن جندان وقال للمقتدر
 يا سيدي يعز علي أن أراك على هذه الحال وقد كنت أخافها عليك وأحذرهما وأنصح لك
 وأحذرك عاقبة تقرب الخدم والنساء منك فتؤثر أقوالهم على قولي وكأني كنت أرى هذا
 وبعد فتمن عبيدك وخدمك ودمعت عيناه وعينا المقتدر بالله وشهد الجماعة على المقتدر
 بالخلع وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضي أبي عمر فكتبه ولم يظهره لأحد وأخرج مؤنس
 الخادم علي بن عيسى من الحبس ورتب أبا علي بن مقله في الوزارة وأضاف إلى نازوك مع
 الشرطة حجة الخليفة وكتب بذلك إلى الاتفاق ونهبت دار الخليفة وأخرجوا من قبر لوالدة
 المقتدر قد بنته لنفسها ستمائة ألف دينار فحملت إلى دار الخلافة وكان خلع المقتدر في
 النصف من المحرم ثم سكنت الحال وبطل التهرب وقد كان عم بغداد كلها وتناولت أبادي
 العامة إلى فعل مالا خيرا فيه * ولما تم لنازوك أمر حجة الخليفة أمر الرجلة المصافية بخلع
 خيامهم من دار الخلافة وأمر أصحابه أن يقيموا بمكانهم فعظم ذلك على المصافية وتقدم نازوك
 إلى خلفاء الحجاب أن لا يـكـنوا أحدا من الدخول إلى دار الخليفة إلا من له مرتبة
 فلما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكر الناس إلى دار الخلافة ليروا موكب الخليفة
 الحديد فامتسأت المراتح والرحبات والطرق وشاطئ دجلة بالناس وكثر الزحام واختلط
 الناس بعضهم ببعض وحضر الرجلة المصافية شاكي السلاح يطالبون بحق البيعة وجوامك
 سنة وكان الحامل لهم على ذلك غيظهم مما فعله بهم نازوك صاحب الشرطة والحجابة من
 خلع خيامهم وإخراجهم من دار الخلافة ثم صاحوا وارتفعت زعقاتهم فسمع بها نازوك
 فخاف أن يقع بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال فتقدم إلى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم
 ولا يقاتلوهم فزاد شغبهم وهجموا يريدون صحن الدار فلم يمنعهم أصحاب نازوك فدخلوا جميعا
 وبأيديهم السلاح ووصلت أصواتهم إلى مجلس القاهر بالله وعنده أبو علي بن مقله الوزير
 ونازوك وأبو الهيثم بن جندان فقال الخليفة لنازوك اخرج إلى أولئك القوم فسكنهم وطيب
 قلوبهم فخرج إليهم وهو مخمور قد شرب طول ليلته فتقدم إليه الرجلة ليشتكوا حالهم ويطلبوا
 ما لهم من الجوامك فلما رآهم يقصدونه بأيديهم السيوف خافهم على نفسه فهرب فطمعوا

فيه وتبعوه فانتهى به الهرب الى باب مسدود فأدركوه عنده فقتلوه بالسيوف وقتلوا خادمه وصاحوا يا مقتدر * يا منصور * فهرب كل من كان في الدار من الوزير والحجاب وسائر الطبقات وبقيت الدار فارغة فحملوا نازوك وصلبوه هو وخادمه أمام دجلة ثم ساروا الى دار مؤنس وهم في ضجة شديدة وزعقات متتابعة وطالبوه بالمقتدر وغلانته وأراد أبو الهيجاء بن جندان أن يخرج من الدار فتعلق به القاهر وقال أنا في ذمامك فأخذ بيده وهما بالخروج فوجدوا الابواب مغلقة ورأى الظاهر كثرة الجمع فاشتد خوفه وحار في أمره واختفى في بستان الدار ودخل بعض الخدم فقتلوا أبا الهيجاء واحتزوا رأسه وجاوه واشتدت زعقات الرجال المصافية على مؤنس الخادم فقال وما ذا تريدون قالوا نريد المقتدر بالله الساعة فأمر بتسليمه اليهم فلم يقبل المقتدر الخروج وخاف على نفسه وامتنع فدخلوا عليه وجاوه وأخرجوه فحملوه الرجال على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة فسأل عن أخيه القاهر وابن جندان فقيل له هما حيان فكتب لهم أمانا بخطه وأمر خادما بالسرعة بكتاب الامان اثلا يحدث على أبي الهيجاء حادث فجاء له برأس أبي الهيجاء فأسف عليه كثيرا وأحضروا اليه القاهر فأدناه منه وأجلسه بجانبه وقبل جبينه وقال له يا أخي قد علمت أن لاذنب لك وأنت قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر والقاهر يقول يا أمير المؤمنين نفسي نفسي اذكر الرحم التي بيني وبينك فقال له المقتدر لا بأس عليك ولا تخف وأقسم له الايمان فسكن خوفه واطمان قلبه وأخرجوا رأس نازوك ورأس أبي الهيجاء وشهرا وفودى عليهما هذا جزاء من عصى مولاه وأحضر المقتدر أبا علي بن مقله وأعادته الى وزارته وكتب الى الآفاق بما تجدد له وسكنت الفتنة وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم وأتم أعطياتهم قالوا وأتم مؤنسا الخادم ولم يفعل به شيئا لان ارجاع المقتدر الى منصب الخلافة بعد خلعه كان بارشاد مؤنس وتديره * وجعل الخليفة المقتدر يتصرف في الأمور ويعزل ويولي في الوزراء وأصحاب الرتب العالية ولم يقلع عما كان فيه حتى وقعت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم بسبب ذلك وحقد مؤنس على المقتدر وناواه الشر وجعل يراقب الفرص حتى فرغ بيت المال ولم يبق فيه ما يست طلبت الجند وأرزاقهم فأشار عليهم مؤنس بالخروج وطلب أرزاقهم فخرجوا جميعا وشغبوا وطلبوا من الخليفة المال خفاف وأراد أن يخرج الى واسط ويكتب العساكر من جهة البصرة والاهواز وفارس وكرمان وغيرها ويترك بغداد لمؤنس وأصحابه الى أن يجتمع به العسكر ويعود الى قتاله فردوه عن ذلك وزينوا له البقاء والخروج عن عنده من الجند لقتال مؤنس وأصحابه فخرج كارها وبين يديه الفقهاء والقراء معهم والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل عال بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم وأكثروا الرسل وهو واقف فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهمزم أصحابه قبل أن يقترب منهم ولقيه علي بن بليق وهو من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الارض وقال له الى أين تمضي

ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلفيسه قوم من المغاربة والبربر
فتركه على معهم وسار عنه فشهروا عليه سيفوفهم فقال ويحكم أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك
باسفلة أنت خليفة ابليس تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير وكان
قبل هزيمة أصحابه فادى مناديه بذلك ثم ضربه أحد المغاربة بسيفه على عاتقه فسقط على
الارض وذبحه بعضهم قيل ان علي بن بليق هو الذي غمز عليه فقتلوه ورفعوا رأسه على
خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة
الى أن مر به رجل من الاكره فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وأخفى قبره وكان
قوله وقت صلاة العصر يوم الاربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية
أى نحو سنة أربع وستين وتسعمائة ميلادية وكان وزيره يومئذ أبا الفتح الفضل بن جعفر
ذكر أن الفضل المذكور أخذ الطالع في وقت ركوب المقتدر بالله الى الواقعة التي قتل
فيها فقال له المقتدر أى وقت هو قال وقت الزوال فقطب المقتدر وأراد أن لا يخرج فلم
يقدر على ذلك فكان آخر العهد به من ذلك الوقت * قال بعض الكتاب وهذا دليل الفاضل
أن كل سادس من بنى العباس مخلوع مقتول * قلت فكان السادس منهم محمد بن هارون
مخلوع والسادس الآخر المستعين والسادس الآخر المقتدر بالله وهو ثامن عشرهم وكانت
خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً وله من العمر ثمان
وثلاثون سنة وخمسة عشر يوماً وقيل غير ذلك * وكان كثير الطاعة والانقياد الى
النساء وانخدم يأخذ بأقوالهم ويعمل بمشورتهم * قال صاحب النشوان وغيره ان صافيا مولى
المقتدر قال مشيت يوماً بين يدي المعتضد بعنى أبا المقتدر بالله وهو يريد دار الحرم فلما بلغ
باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل في الستر فإذا هو بالمقتدر وله اذ ذلك خمس
سنين أو نحوها وهو جالس وحوله قدر عشرة وصائف من أتباعه في قدر سنه وبين يديه طبق
فضة فيه عنقود عنب في وقت فيه العنب عزيز جدا والصبي يأكل عنبه واحدة ثم يطعم الجماعة
عنبه عنبه على الدور حتى اذا بلغ الدور اليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى قنى العنقود
والمعتضد يتميز غبطة ثم رجع ولم يدخل الدار فرأيت به مهموما فقلت يا مولاي ما سبب ما فعلت
فقال يا صافي والله لولا العار والنار لقتلت هذا الفلام اليوم يعنى المقتدر فان في قتله صلاحا
للامة فقلت يا مولاي ما شأنه وأى شئ عمل أعينك بالله يا مولاي من هذا فقال ويحك أنا
أبصر بما أقول أنا رجل قد سست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولا بد من موتى
وأنا أعلم بعدى لا يختارون أحدا على ولدى وأنهم سيجلسون ابني عليا يعنى المكتفي وما أظن
عمره يطول لليلة التي به يعنى الخنازير التي كانت في حلقه فينلف عن قريب ولا يرى الناس
انراجها عن ولدى ولا يجدون بعده أمثل من جعفر يعنى المقتدر وهو صبي وله من الطبع
والسجيا هذا الذي رأيت من أنه أطمع الوصائف مثل ما أكل وسأوى بينه وبينهن في شئ
عزيز في العالم والشع على مثله في طباع الصبيان غالب فتحسوى عليه النساء لقرب عهده

بهن فيقسم ما جمعته من الاموال كما قسم العنب ويذر ارتفاع الدنيا فنضيع الثغور وتعظم
 الأمور وتخرج الخوارج وتحدث الاسباب التي يكون منها زوال الملك عن بني العباس
 رأساً فقلت يا مولاي يبقيك الله حتى ينشأ في حياتك ويصير كهلاً في أيامك ويتأدب بأدبك
 ويتخلق بأخلاقك ولا يكون هذا الذي ظننت فقال ويحك احفظ عني ما أقول لك فإنه كما
 قلت قال ومكث يومه مهموماً مخموماً وضرب الدهر ضربانه ومات المعتضد وولى المكتفي ولم
 يطل عمره فمات وولى المقتدر فكانت الصورة كما قال مولاي المعتضد بعينها فكنت كلما ذكرت
 قوله أعجبت منه فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو في مجلس لهو فدعا بالأموال
 فأخرجت إليه ووضعت البدر بين يديه فجعل يفرقها على الجواري والنساء ويلعب بها
 ويمسحها وبهها ففكرت قول مولاي المعتضد اه

واستعمل المقتدر على مصر في خلافته أبا منصور تكين النخاس ثم صرفه في سنة ثلاث
 وثلاثمائة وولى ذكاه أبا الحسن ثم صرف وأعيد تكين ثم صرف سنة تسع وولى هلال
 ابن بدر ثم صرف في سنة إحدى عشرة وولى أحمد بن كيغلق ثم صرف من عامه وأعيد
 تكين النخاس فأقام إلى أن مات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة في خلافة القاهرة بن أحمد
 المعتضد كما سيدكر في محله

(الفصل التاسع عشر)

(في خلافة القاهرة بالله محمد بن أحمد المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بالله ببيع له بالخلافة
 ببغداد للثلاثين بقينا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أي نحو سنة اثنين وثلاثين
 وتسعمائة ميلادية ولقب بالقاهر وكان الذي أشار بالبيعة له أبو يعقوب اسحق بن اسمعيل النوبختي
 وما زال بمؤنس الخادم حتى استماله إلى ذلك فأحضره وباعوه وكان مؤنس يخافه ويعرف شربه
 فلما تمت له استخلفه مؤنس لنفسه وخاجبه بليق ولعلي بن بليق وأخذوا خطه بذلك فحزوا
 من بطشه وأرسل القاهرة إلى فارس في طلب ابن مقله فحضر فاستوزره واستحجب علي بن بليق
 وجعل يتصرف في الامور فأحضر والده المقتدر وطالبها بما عندها من الاموال فاعترفت له
 بما عندها من المصوغ والنياب ولم تعترف بشيء من المال والجوهر فضر بها أشد ما يكون من
 الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لم تملك غير ما أطلعته
 عليه وقالت لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل ثم صادر جميع حاشية المقتدر
 وأصحابه وحل جميع أوقاف والده المقتدر وباعها وقد كانت موقوفة على البر والخير وشهد

في البحث على أولاد المقتدر فكبس أعوانه الدور وفتشوها وأزبحوا الناس ومازالوا حتى عثروا على أبي العباس الراضى وهرون وعلى والعباس وإبراهيم والفضل فمملوهم إلى دار الخلافة فصوروا على مال كثير ثم وكل بهم من يتأظرهم واشتد القاهر بالله على أصحاب المراتب في دولته وأهل الوظائف في بابيه ولا سيما مؤنس الخادم وابن مقله وابن بليق فكبر عليهم الأمر ونحشوا العاقبة فأوعز مؤنس إلى أصحابه أن يأتوه بأخبار القاهر ووكل ابن بليق على دار القاهر أحمد بن زيرك وأمره بالتضييق على القاهر وتفتيش كل من يدخل إلى الدار ويخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المتنبئات وأن وجد مع أحد رقعة دفعها إلى مؤنس الخادم ففعل ذلك وبالغ في التشديد وأخرجوا من كان محبوبا في دار الخلافة وبينهم والده الخليفة المقتدر فأخذها ابن بليق وتركها عند والدته وقد اشتدت بها علتها من ضرب القاهر فماتت في جادى الآخرة وكانت مكرمة مرفهة قد دفنت في تربتها بالرصافة فاضطرب القاهر من ذلك وعلم بأن ذلك إنما هو برأى مؤنس وابن مقله فأخذ في تدبير الحيلة وقد تمكن من اللقاء الفتنه بين الأحزاب وما زال حتى اقتتلوا وتفرق عن مؤنس أصحابه من طوائف الجند الذين كان معتمده عليهم ثم قبض على مؤنس وحبسه في دار الخلافة وأراد القبض على ابن مقله فأختفى فقلد الخليفة الوزارة أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وختم على دور مؤنس الخادم وابنه ودور ابن مقله وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون وجميع من كان له يد في المشاغبة ونقل دوابهم ووكل بنسائهم وأمر بأحراق دار ابن مقله فأحرقت ونهبت دور أتباعهم ونادى على المستترين منهم وإباحة مال من أخفاهم وهدم داره واجتهد في طلب أحمد بن المكتنى فظفر به فبنى عليه حائطاً وهو حي فمات وقد كانوا على عزم البيعة له وخلع المقتدر قبل ظهور أمرهم بأيام

ولما طال على مؤنس الحبس دس إلى أصحابه من يحرضهم على الخروج على الخليفة والدناء بشعار مؤنس فثاروا وتبعهم سائر الجند وشغبوا وأحرقوا روشن دار الوزير أبي جعفر وقالوا لا نرضى إلا بإطلاق مؤنس فلما عظم شغبهم دخل القاهر على علي بن بليق فأمر به فذبح واحترأ رأسه فوضعه في طشت ثم مضى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويرتشفه فأمر به القاهر فذبح أيضاً وجعل رأسه في طشت وجعل بين يدي القاهر حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه فلما رأى الرأسين تشهد واسترجع وأعلن قاتلهما فقال القاهر جروا برجل السكب الملعون فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه في طشت وأمر بالرؤس فطيف بها في جانبي بغداد ونودى عليها هذا جزاء من يخون الامام ويسعى في فساد دولته ثم أعيدت ونظفت وجعلت في خزانة الرؤس كما هي العادة في مثل هذه الأحوال عند الخلفاء * وكثر عسف القاهر بالله وسفكه للدماء ونكثه للعهود والایمان التي حلفها إلى كبار العسكر الساجية وغيرهم من الذين قاموا لنصرته فأبغضوه وعملوا على خلعه وزادت رغبتهم في ذلك بظهور علي بن مقله بينهم

والاجتماع بهم ليل نارة في زى أعى ونارة في زى مكى ونارة في زى امرأة ويغريهم به ويخونهم من شره ويذكر لهم غدره ونكته وشره وخبثه وبالغ في تحذير سيما كبير العسكر الساجية وتخويفه حتى يادروا جميعا وهموا بخلعه بجمع سيما جميع العسكر الساجية وأعطاهم العدة والسلاح وتحالفوا مع العسكر الخيرية أيضا على أن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد وقتل من خالف منهم فأنصل ذلك بالقاهر ووزيره الخصي فاعملا الخيلة على افساد أمرهم فلم يفلح فلما كان يوم الاربعاء است خلون من جمادى الاولى اجتمع الساجية والخيرية ومقدمهم سيما وزحفوا الى دار الخلافة ووكل سيما بأبوابها من يحفظها وبقي هو على باب العامة وهجموا على الدار من سائر الابواب وكان القاهر نائما مخجورا قد شرب أكثر ليلته فلما عملا الضحج وتتابعت زعقات الجند استيقظ مخجورا وطلب بابا يهرب منه فقبل له ان الابواب جميعها مشحونة بالرجال فهرب الى سطح حمام ودخل الجند فلم يجدوه فأخذوا الخدم وسألوهم عنه فدلوههم عليه فقصده فوجدوه وبيده السيف فاجتهدوا به فلم ينزل لهم فقللوا له فلم يقبل منهم وقال من صعد الى قتلته فأخذ أحدهم سهما وقال ان نزلت والا وضعته في نحره فنزل حينئذ اليهم فأخذوه وساروا به الى الحبس فقبسوه ثم سملوا عينيه وهرب وزيره الخصي ولبت القاهر معتقلا الى أن تمت البيعة لأبي العباس أحمد بن المستدر بالله ثم كان من أمره ما سيذكر في محله ان شاء الله

وكان القاهر كثير القلب سريع الغضب شديد البطش سفاكا للدم يخافه الناس وخشوا سطوته واتخذ حربة عظيمة يحملها في يده اذا سعى في الدار ويطرحها بين يديه في حال جلوسه ويباشر الحرب بها لمن يريد قتله وكان قليل الثبث في أمره * قال محمد بن علي العبدى الخراساني الاخبارى وكان القاهر به آتسا قال خلا بي يوما فقال أصدقني أو هذه وأشار الى بالحربة قرأت والله الموت عيانا بيني وبينه فقلت أصدقك يا أمير المؤمنين فقال لي انظر بقولها ثلاثا فقلت نعم يا أمير المؤمنين قال عما أسألك عنه ولا تغيب عني شيئا ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيئا قلت نعم يا أمير المؤمنين قال أنت علامة بأخبار بني العباس من أخلاقهم وشبههم من أبي العباس فن دونه فقلت على أن لي الامان يا أمير المؤمنين قال ذلك لك قال قلت أما أبو العباس السفاح فكان سريعا الى سفك الدماء واتبعه عماله في المشرق والمغرب في فعله واستنوا بسيرته مثل محمد بن الاشعث بالغرب وصالح بن علي بمصر وحازم بن جذيمة وحيد بن قطبة وكان مع ذلك مجرا سمعا وصولا جوادا بالمال وسلك من ذكرنا ممن كان في عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمنين به * قال وأخبرني عن المنصور قلت الصدق يا أمير المؤمنين قال الصدق قلت كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس ابن عبد المطلب وبين آل أبي طالب وقد كان قبل ذلك أمرهم واحدا وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه فوجت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلأ النوبختية وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم

وهيئة الفلك وعلى بن عيسى الاسطرلابي المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات
الاجمعية الى العربية منها كتاب كاليلا ودمنة وكتاب السندهند وترجمت له كتب ارسطاطاليس
من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارسطاطيقي وكتاب افليدس
وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وخرجت الى
الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها * وفي أيامه وضع محمد بن اسحق كتاب المغازي والسير
وأخبار المبتدأ ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفه وكان أول خليفة استعمل
مواليه وغلبانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من
ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها وأفضت الخلافة اليه وقد نظر
في العلوم وقرأ المذاهب وارتاض في الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت في
أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم

قال القاهر قد قلت فأحسن وتعبرت فبينت فأخبرني عن المهدي كيف كانت خلافته
فلن كان سمحا سخيا كريما جوادا فسلكت الناس في عصره سبيله وذهبوا في أمرهم مذهبه
واتبعوا في مساعيهم وكان من فعله في ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم فلا يسأله
أحد إلا أعطاه وإن سكت ابتداء المفرق بين يديه وقد تقدم بذلك اليه وأمعن في قتل الملحدين
والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه واعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب
ماني وابن دميان ومرقيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية
الى العربية وما صنف في ذلك ابن أبي العرياء وحجاج بن محمد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس
من تأييد المذاهب المانية والدنساقية والمرقونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في
لناس * وكان المهدي أول من أمر الجذليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب
على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المغارين وأزالوا شبه
الملحدين فأوضحوا الحق للساكنين * وشرع في بناء المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه
وسلم على ما هما عليه الى هذه الغاية وبني بيت المقدس وقد كان هدمته الزلازل * قال فأخبرني
عن الهادي على قصر مدته كيف كانت أخلاقه وشيمه * قلت كان جبارا عظيما وأول من
مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرفهة والاعمدة المشهورة والقسي الموترة فسلكت عماله
طريقه ويمموا منهجه وكثر السلاح في عصره * قال لقد أجدت في وصفك وبالغت فيما
ذكرت من قولك فأخبرني عن الرشيد كيف كانت طريقته * قلت كان مواظبا على الحج والغزو
وانخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة وأظهر ذلك بها وبغنى وعرفات ومدينة
النبي صلى الله عليه وسلم فعم الناس احسانه مع ما قرن به من عدله ثم بنى الثغور ومدن المدن
وحصن فيها الحصون مثل طرسوس وأدنة وعمر المصبصة ومرعش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك
من دور السبيل والمواضع للرايطين واتبعه عماله وسلكوا طريقته وتبعته رعيته مقتدية بعمله
مستنة بامامته فغبط الباطل وأظهر الحق وأثار الاسلام وبرز على سائر الامم وكان أحسن الناس

في أيامه فعلا أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة
 واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف الى هذه الغاية وما أحدثته من الدور
 للتسبيل بالشجر الشامي وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف وما ظهر في أيامه من فعل
 البرامكة وجودهم وافضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم وكان الرشيد أول خليفة لعب
 بالصولجان في الميدان ورعى بالنسب في البرجاس ولعب بالكرة والطبطاب وقرب الخذاق في
 ذلك فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس والتد وقد قدم
 اللعب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لتضاربت وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس
 وله كثير مما يتجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف * قال القاهر فأراك قد قصرت في تفصيل
 أم جعفر فلم ذلك قلت يا أمير المؤمنين ميلا الى الاختصار وطلبنا للايجاز قال فتناول الحربة
 وهزها فقرأت الموت الاحمر في طرفها ثم برق عينه مع ذلك فاستسلمت وقلت هذا ملك الموت
 ولم أشك أنه يقبض روعي فأهوى بها نحوى فزغت منه فاسترجع وقد أخطأتني فقال وبك
 أبغضت ما فيه عينك ومللت الحياة قلت ما هو يا أمير المؤمنين قال أخبار أم جعفر زدني منها
 قلت نعم يا أمير المؤمنين كان من فعلها وحسن سيرتها في الجدل والهزل ما برزت فيه عن غيرها
 فأما الجدل والآثار الجيلة التي لم يكن في الاسلام مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش
 بالجواز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى
 أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا الى مكة فكان جلة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصى ألف
 ألف وسبع مائة ألف دينار وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالغور والحجاز
 وانفاقها الألوف على ذلك دون ما كان في وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف
 والخصب وأما الوجه الثاني مما تنباهي به الملوكة في أعمالهم وينعمون به في أيامهم ويصونون
 به دولهم ويدون في أفعالهم وسيرهم فهو أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة
 بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف
 دينار وهي أول من اتخذ الشاكزية من الخدم والجواري يختلفون على الدواب في جهاتها
 وبذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل
 وكلاهما من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الاحمر
 والاصفر والاحضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس في
 سائر أفعالهم بأم جعفر ولما أفضى الأمر الى ولدها يا أمير المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ورفع
 منازلهم ككواثر وغيره من خدمه فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت
 الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعمت رؤسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية
 وألبسنن الاقيسة والقراطق والمناطق فبنات قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن اليه
 فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وأبرزهن للناس من الخاص والعام واتخذ
 الناس من الخاصة والعامه الجواري المظموحات وألبسوهن الاقيسة والمناطق وسموهن

الغلاميات * فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور ونادى بأعلى صوته يا غلام قدح على وصف الغلاميات فبادر اليه جوار كثيرة قدّهن واحد توهمتهن غلبانا بالقراطق والاقبية والطرر ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكأس بيده فأقبلت أنامل صفاء جوهر الكاس وفورية الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجوارى والحربة بين يديه وأسرع في شربه فقال هيه فلت نم يا أمير المؤمنين ثم أفضى الأمر الى المأمون فكان في بدء أمره لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها وينقاد الى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كاردشسير بن بابك واجتهد في قراءة الكتب القديمة وأمعن في دراستها وواظب على قراءتها فتفتن في فهمها وبلغ درايته فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرياستين ما اشتهر وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرب اليه كثيرا من الجدليين والنظارين كأبي الهذيل وأبي اسحق وابراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم من الامصار وأجرى عليهم الارزاق فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتابا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله وكان أكثر الناس عفوا وأشدّهم احتمالا وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم عن التساقط واتبعه وزراؤه وأصحابه في فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه * ثم المعتصم فانه يا أمير المؤمنين سلك في التحلة رأى أخيه المأمون وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الاعاجم في الآلة ولبس القلائس والشاشيات فلبسها الناس اقتداء بفعله وائتما بما به فسميت المعتصميات وعم الناس افضاله وأمنت به السبل في أيامه وشمل احسانه * ثم هرون بن محمد الواثق فانه اتبع ديانة أبيه وعمه وعاقب المخالف وامنع الناس وكثر معروفه وأمر القضاة في سائر الامصار أن لا يقبلوا شهادة من خالفه وكان كثير الأكل واسع العطاء سهل الانقياد متحبا الى رعيته * ثم المتوكل يا أمير المؤمنين فانه خالف ما كان عليه المسامون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه وأمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه وغير ذلك يا أمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه * فقال القاهر قد سمعت كلامك وكأني مشاهد للقوم على ما وصفت معان لهم فيما ذكرت ولقد سرني ما سمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرياسة قال المحدث ثم أمر لي بجائزة عجل لي عطاها في وقتها ثم قال لي اذا شئت فقم فقم وقام على أثرى بحربته نخيل لي والله أنه يرميني بها من ورائي ثم عطف نحو دار الخدم فما مضت الا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر اه

قال ابن البطريق في تاريخه وكان القاهر قد ارتكب أمورا قبيحة لا يسمع بمثلها في الاسلام وذكر منها طرفا طويلا أضربنا عن ايراده هنا * وحكي أن رجلا قال صليت في جامع المنصور ببغداد فاذا أنا بانسان عليه جبة غابية وقد ذهب وجهها وبقي بعض

قطن بطانتها وهو يقول أيها الناس تصدقوا عليّ بالامس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين فسألت عنه فقيل لي انه القاهر بالله اه قلت وفي هذه الحكاية تذكرة وعبرة والله ليس بظلام للعبيد

واستعمل القاهر بالله علي ديار مصر في خلافته بعد موت تكين الخصاص سنة احدى وعشرين وثلاثمائة محمدا ابنه وصير اليه بتنفيذ الولاية واستقرارها فخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقاتلهم محمد بن تكين واشتدت الفتنة وكادت تعم البلاد وكثر شغب الغوغاء وتطاوت أيديهم الى النهب والسلب وذهب الامن وكثر الخوف وانكس الناس بعصر أياما حتى ظفر محمد بالخوارج وأرجع الأحزاب الى الطاعة فلم تستقر به الولاية حتى صرف وولي أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالاخشيدي ثم صرف من عامه وأعيد أحمد بن كيغنج الى أن صرف سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة في خلافة الراضي بالله كما سيذكر في محله ان شاء الله

(الفصل العشرون)

(في خلافة أبي العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد القاهر ابن أخيه أبو عباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر بن المعتضد بوبيع له بالخلافة يوم خلع عنه القاهر سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة هجرية أي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ميلادية فاستوزر علي بن مقله وأطلق كل من كان في حبس القاهر وكان قبل توليته محبوسا هو ووالدته في حبس القاهر فأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى ولقبوه بالراضي بالله وبابعه القود والناس وجعل يتصرف في الامور واستقدم علي بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وأدناهما منه وأخذ بمشورتهم وهم باعطاء الوزارة الى علي فامتنع لشيوخته وأشار ابن مقله فاستخضر ووليها بعد أن أرسل يؤتمنه فأحسن ابن مقله التدبير وأعاد الامن الى ربوع الخلافة وضم اليها المشاغبين والخوارج وزاد في تمكين صلاتها مع الروم وغيرهم * ولم يمض الا القليل حتى ظهر ابن رائق وغلب على الراضي وتمكن من مسند الخلافة فصارت الكلمة له فلم يبق للوزير ابن مقله من الامر شيء فوقعته الوحشة بينه وبين ابن رائق واستحكمت الخلاف فجعل ابن مقله يدبر على هلاك ابن رائق وهم باجراء ذلك فنعته منها ظهور فتنة الحنابلة ببغداد وذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عصابتهم فجمعوا ببالغون في اظهار عقيدتهم ويسوقون الناس كرها الى احترام شيعتهم والعمل بقولهم فكانوا يكسبون دور العامة وقواد الجند فان وجدوا نبيضا أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا

الناس في بيعهم وشراهم ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا أحدا من الناس مع امرأة أو صبي سألوه عن الذي معه من هو فأخبرهم والا ضربوه وخرجوا يوما على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهارا فاضطربت بغداد من فعالهم وضح الناس فركب بدر الخرشقي وهو صاحب الشرطة المذكور ونادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البربهاري بأن لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلي منهم امام الا اذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين فلم يقد فيهم وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيقومون عليه ويضربونه حتى يكاد يموت لخلاف الرازي شر العقوبة وأخرج توقيعه بما يقرأ على الحنابلة وهو ينكر عليهم فعلهم ويقبح عليهم اعتقاد التشبيه وغيره فكان منه قوله * انكم معاشر الحنابلة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا نعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ثم طعنكم على خيار الائمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم الى الكفر والضلال ثم استدعأكم المسلمين الى الدين بالبرع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الائمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وانتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما أغواء واعلموا أن أمير المؤمنين يقسم بالله فما جهدا اليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوصلكم ضربا وتسميدا وقتلا وتبيديا وليستعملن السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم اهتدوا عند ذلك وانكشوا ولم يحركوا يومئذ ساكنا فلما سكنت الحال عاد ابن مقلة الى مشاغبة ابن رائق وكتب الخليفة الرازي في أمر هلاك ابن رائق وحبس له ذلك فوافقه أولا ثم خالفه وأظهر خطه الى ابن رائق ثم أمر به فقطعت يده ثم عولج فبرئ فعاد يكتاب الرازي ويطلب الوزارة ويقول ان قطع يده لم يمنعه من عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب واستوزر الرازي بعده عبد الرحمن بن عيسى وسلم اليه ابن مقلة فصادره حتى استصفي ماله وخلع بعد بدر الخرشقي من الشرطة فلم تطل أيام عبد الرحمن وظهر عجزه وعدم فلاحه فضاق عليه أمر الوزارة واستعفى فلما ظهر عجزه الى الخليفة الرازي ووقوف أمور الخلافة قبض عليه فصادره على مائة ألف دينار وصادر أخاه عليا بسبعين ألف دينار وكان ابن مقلة يدعو على من ظلمه وقطع يده فأوصلوا خبره الى الرازي والى ابن رائق فأمرأ بقطع لسانه ثم نقلوه الى محبس ضيق وألقوه فيه فأصابه ذرب في الحبس ولم يكن معه من يخدمه فآل به الحال الى أن كان يستقي الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه وما

زال على هذا الحال من الشدة والضيقة حتى مات ودفن بدار الخليفة ثم إن أهله نبشوه ودفنوه في داره ثم نبش ونقل إلى دار أخرى * قال بعض الكتاب ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث دفعات ووزر لثلاث خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين منفيا إلى شيراز وواحدة في وزارته إلى الموصل ودفن بعد موته ثلاث مرات وخص به من خدمته ثلاث وهو من عجيب الاتفاق

وكان القاهر قد عمد إلى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس الخادم وبلقي وابنه على وغيرهم فغلبها كما تقدم القول فلما قبض عليه وسمت عيناه وأفضت الخلافة إلى الرازي وطولب القاهر بالأموال أنكر أن يكون عنده شيء من ذلك فأوذى وعذب بأنواع من التعذيب وكل ذلك لا يزيده إلا انكارا فأخذته الرازي وقربه وأذناه وطالت مجالسته إياه وإكرامه له وأعطاه حق العمومة والسن والتقدم في الخلافة ولاطفه وأحسن إليه غاية الاحسان وكان للقاهر في بعض الحصون بستان من ريحان وغرس من النارج قد حل إليه من البصرة وعمان مما حل من أرض الهند قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالبحر من أحر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر وقد جعل مع ذلك في الصحن أنواع الاطيار من القناري والديابي والشحارير والبيغا مما قد جلب إليه من الممالك والأمصار وكان القاهر كثير الشرب كما تقدم فكان يشرب في ذلك البستان ويجلس كثيرا في تلك المجالس فلما أفضت الخلافة إلى الرازي اشتد شغفه بذلك الموضع فكان يداوم الجلوس والشرب فيه ثم إن الرازي رفق بالقاهر وأعلمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال والحاجة إليها ولا شيء قبله منها وسأله أن يسعفه بما عنده منها إذ كانت الدولة له وأن يدبر تدبيره ويرجع في كل الأمور إلى قوله وحلف له بالايمن الأكيدة أن لا يسعى في قتله ولا الاضرار به ولا بأحد من ولده فأنعم له القاهر بذلك وقال ليس لي مال إلا في بستان النارج فسار به الرازي إلى البستان وسأله عن الموضع فقال له القاهر قد حجب بصري فلست أعرف موضعه ولكن مر بحفره فأنك تظهر على الموضع ولا يخفى عليك فكان ذلك حفرة البستان وقلع تلك الأشجار والغروس والازهار حتى لم يبق منه موضع الاحفره وبولغ في حفره فلم يجد شيئا فقال له القاهر وهل عندي من المال شيء وإنما كانت حسرتي جلوسك في هذا الموضع وتمتعك به وكان لذتي من الدنيا فتأسفت على أن يتمتع به غيري فتأسف الرازي على ما توجه عليه من الحيلة في أمر ذلك البستان وندم على قبوله منه وأبعد القاهر فلم يكن يدنو منه خوفا على نفسه أن يتناول بعض أطرافه

وضعت أمور الرازي واضطربت واختل نظام الخلافة فاستدعى بالامير محمد بن رائق فجعله أمير الامراء وفوض إليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء فبطل من ذلك اليوم أمر الوزارة ويغداد ولم يبق إلا اسمها فقط والحكم للامراء والملوك المتغلبين إذ كان ملك الخلافة جميعه في أيديهم وهم ملوك الارض فكان كل من حصل في يده بلد مملكة وما منع عنه

فأصبحت البصرة وواسط والاهواز في يد عبد الله البريدي وأخويه وفارس في يد عماد الدولة
ابن بويه والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مصر في يد بني جندان ومصر والشام في يد
الأنشيد بن طنج والمغرب وأفريقية في يد المهدي والاندلس في يد بني أمية وخراسان
وما والاها في يد نصر بن أحمد الساماني واليمامة وهجر والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي
وطبرستان وجرجان في يد الديلم ولم يبق في يد الرازي وابن رائق الا بغداد وما والاها فبطلت
دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها واختلت الأمور كافة وتقهقر مسند
الخلافة كما سيذكر في محله ان شاء الله

ومات الرازي ليلة السبت خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة
هجرية بعلة الاستسقاء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وشهورا فكانت خلافته ست سنين
وعشرة أشهر وكان أدبيا شاعرا ظريفا وله أشعار حسان منها

يصفر وجهي اذا تأمله * طرفي ويحمر وجهه بخلا

حتى كان الذي بوجنته * من دم جسمي اليه قد نقل

ومنها أيضا

كل صفوا الى كدر * كل أمر الى حذر * ومصر الشباب للشموت فيه وأالكبر
تدثر المشيب من * واعظي نذر البشر * أيها الآمل الذي * تاه في بحلة الغر
أين من كان قبلنا * درس العين والائر * سيرة المعاد من * عمره كالمه خطر
رب اني ذنرت عنك أرجوك مسدخ * اني مؤمن بما * بين الوحي في السور
واعترافي بترك نفسي وايتاري الضرر * رب فاغفر لي الخطيئة ياخير من غفر
وكان حاضر الذاكرة حادّ الذهن لا يغيب عن معرفته شيء من أحوال المملكة يحب
المنظرة والبحث في أخبار القدماء ومن ذلك ما ذكر الصولي قال * قال الرازي ما كان السبب
في لبس المأمون الخضره ورفع السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك قلت هو ما أخبرنا به محمد بن
زكريا العلالي قال حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان قال لما قدم المأمون ببغداد اجتمع
الهاشميون الى زينب بنت سليمان بن علي وكانت أقعد ولد العباس نسبا وأكرمهم بيتا
فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين في تغيبه الخضره فضمنت لهم ذلك وجاءت الى المأمون
فقلت يا أمير المؤمنين انك على برأهالك من ولد علي بن أبي طالب أقدر منك على برهم لنا
من غير أن تزيل سنة من مضي من آبائك فدع لباسك الخضره ولا تطمعن أحدا فيما كان
منك فقال لها يا عني ما كلني أحد في هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ولا أقصد لما أردت
لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي فولي الأمر أبو بكر فقد عرفت ما كان من أمره
فينا أهل البيت ثم وليا عمر فلم يتعد فيها فعل من تقدمه ثم وليا عثمان فأقبل علي بن أمية
وأعرض عن غيرهم ثم آل الأمر الى علي بن أبي طالب من غير صفو كصفوها لغيره بل
مشوبة بالأكدار فولي مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة وولي عبيد الله بن العباس اليمن

وولي قثم البحرين وما أحد منهم الا ولاء فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت
ولا يكون بعد هذا الا ما تحبون قال ثم رجع الى لبس السواد وللمؤمنون يا أمير المؤمنين شعر
يشاكل معنى ما ذكرت من هذا الخبر وهو قوله

ألام على شكر الوصي أبي الحسن * وذلك عندي من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والأول الذي * أعان رسول الله في السر والعلن
ولولاه ما عُدَّتْ لهاشم إمرة * وكانت على الأيام تقضى وتمتن
فولي بن العباس ما اختص غيرهم * ومن فيه أولى بالتكرم والمعن
فأوضح عبد الله بالبصرة الهدي * وفاض عبيد الله جودا على اليمن
وقسم أعمال الخليفة بينهم * فلا زلت مربوطا بهذا الشكر مرتين

وكان الراضى كثير الاستعمال للطيب حسن الهيئة سخيا جوادا فلم يكن ينصرف عنه
أحد من ندمائه في كل يوم الا بصلة أو خلعة أو طيب وكانوا عدة ندماء منهم محمد بن يحيى
الصولي وابن جندون النديم وغيرهما فعوتب على كثرة افضاله على من يحضره من الجلساء
فقال أنا أستحسن فعل أمير المؤمنين أبي العباس لأنه كانت فيه فضائل لا تكاد تجتمع في
أحد لا يحضره نديم ولا مغن ولا قينة فينصرف الا بصلة أو كسوة قلت أو كثرت وكان لا يؤخر
احسان محسن لغد ويقول العجب من انسان يفرح انسانا فيتمجّل السرور ويؤخر ثواب من
سره تسويفا وعدة فكان أبو العباس في كل ليلة أو يوم يقعد لشغله ولا ينصرف أحد من
حضره الا مسرورا ونحن وان لم تقأت لنا الامور كتأثيرها من سلف فانا فواسى جلساءنا واخواننا
ببعض ما حضرنا * وكان لا يستكثر على أحد من ندمائه ما يصل اليه على طول الايام حتى
كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله وختم الخلفاء في عدة أمور
فنها أنه آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة خطب كثيرا على المنبر وآخر خليفة جالس
الجلساء ووصل اليه الندماء وآخر خليفة كانت له نفقة وجوائز جمة وكانت عطاياه وجراياه
وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه على ترتيب الخلفاء المتقدمين

واستعمل على مصر في خلافته بعد أحمد بن كيغلاغ الذي صرفه في سنة ثلاث وعشرين
محمد بن طغج الاخشيدى وقد أصبحت ديار مصر في يد ابن طغج المذكور لتغلب جميع العمال
على ما بأيديهم من البلاد كما تقدم ذكر ذلك فأقام محمد بن طغج في مصر الى أن مات في ذي
الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في خلافة المستكفي بالله كما سيأتى ذكر ذلك في محله

(وصل)

(في مبدا الدولة الاخشيديّة وفي كيفية ظهورها)

لما عظم حب الخليفة المعتصم بن هرون للاتراك وكثر اعتماده عليهم جعل يأتي بهم من البلاد البعيدة ويبدل في ذلك الاموال الطائلة فيوليهن المناصب العالية والوظائف السامية ويجند منهم الجند ويولي القواد ويكثر من نعمته عليهم وعلى بنينهم وبناتهم ويفضلهم على سائر الغلمان والاتباع وقد علم بأن في فرغانة جماعة من الترك موصوفين بالبأس والشجاعة والتدريب على الحرب والقتال وبينهم شاب اسمه جف من اولاد ملوكهم فسير في طلبهم فجاءوا وجاء جف المذكور معهم فلما رآه المعتصم مال اليه وأحبه وأدناه من بابه وأقطعاه اقطاعا بسرا من رأى وما زال في نعمة وافرة الى أن مات ببغداد سنة سبع وأربعين ومائتين هجرية فخرج اولاده في طلب العيش والاسترزاق واتصل أحدهم وهو طغج بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون بمصر فقال اليه لؤلؤ واستخدمه على مصر وأقام على هذا الحال حينما تم انجاز الى أحمد بن كنداج فلم يزل معه الى أن مات أحمد بن طولون ووقع الصلح بين ابنه خمارويه وبين ابن كنداج وتطهر خمارويه الى طغج فأعجبه فأخذه من ابن كنداج وقربه اليه ووثقه على سائر من معه ثم قلده دمشق وطبرية وما زال على نعمة من خمارويه حتى قتل خمارويه فخلق طغج بالخليفة المكتفي فأحبه وخلع عليه خلعة الرضا وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فطلب من طغج أن يجري معه مجرى التذلل كغيره من أرباب المناصب فأكبر طغج هذا الأمر وأعظمه فأغرى به الخليفة المكتفي فحبسه وحبس معه ابنه أبا بكر محمدا فلما زال طغج معتقلا حتى مات بالسجن وبقي أبو بكر محمدا مسجوناً أياماً ثم ذكره الخليفة المكتفي فأطلقه وخلع عليه فجعل هو وأخوه عبد الله يرصدان العباس بن الحسن الوزير ليأخذاً بشار أبيهما حتى تمكنا من قتله وخرجا الى الشام في سنة ثمان وتسعين ومائتين هجرية وقيل هرب طغج الى الشام وأخوه عبد الله الى ابن أبي الساج وأقام أبو بكر محمدا متغرباً في البرية حولا كاملا ثم اتصل بأبي منصور تكين الجزري فكان من أعظم المقربين اليه ومن كان عليهم معتمده وولاه عمل عمان وجبل الشراة فأحسن السيرة وأخلص لابي منصور السرية فسيره سرية الى قوم قطعوا طريق الحاج فقاتلهم حتى ظفر بهم ومزق شملهم وأسرمهم جماعة وفتح الطريق للحجاج وكان ممن سار مع الحج في تلك السنة امرأة من دار الخليفة المقتدر يقال لها العجوز فلما عادت حدثت المقتدر بما رأت من أبي القاسم محمد فأنفذ اليه خلعاً وزاد في رزقه ولبث أبو بكر محمدا في صحبة تكين الى ان كانت سنة ست عشرة وثلاثمائة هجرية فارقه لاسباب وسار الى الرملة

فجاءته كتب الخليفة المقتدر بالولاية عليها فنولها وأقام يتصرف فيها الى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة هجرية فكتب اليه المقتدر بولاية دمشق فسار اليها ولم يزل بها الى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر في رمضان سنة احدى وعشرين وثلاثمائة بعد موت تكيين ولى على الصلات ولم يدخلها أميرا عليها الا في ولايته الثانية ودعى له فيها على المنابر وهو بدمشق اثنين وثلاثين يوما وقيل ثلاثين يوما ثم صرف عنها وولى مكانه ابن كبلغ من قبل الراضى بالله بن المقتدر وصرف عنها ثم وليها أبو بكر محمد فدخلها أميرا في رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وقد ضم اليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وغير ذلك وقيل كان على مصر فقط كل أيام الراضى والذي ضم اليه ما ذكر من البلاد المتقى أخو الراضى وزاد في نعمته وضاف الى ألقابه «الخشيد» والاشيد لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم كما تقدم ومعناه ملك الملوك وكان هذا اللقب عند ملوك فرغانة ككسرى عند فارس وقبصر عند الروم ودعى له بهذا اللقب على المنابر واشتهر به حتى نسب اليه ورثته المعروفون بالدولة الاخشيديّة وتعرف أيضا بدولة بنى طغج وقد اكتسب شهرة واسعة وعم ذكره الاتاق وهاب الملوك وتفرّبوا منه وهادوه وتواددوا اليه وخرج من صلبه ملوك على ديار مصر عرفوا بالدولة الاخشيديّة فهو الامير أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين وقيل بلتكين بن نوران بن نوري بن خاقان الفرغانى الاصل صاحب سرير الذهب ويقال له في بعض التواريخ اخشيذ بالذال المعجمة ثم كان من أخباره وحوادث أيامه ما سيذكر في محله ان شاء الله

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى خلافة أبى اسحاق ابراهيم المتقى تدبىر المقتدر)

ثم قام بالامر بعد الراضى ابن أخيه أبو العباس ابراهيم المتقى لله بن المقتدر بن المعتض ببيع له بالخلافة فى العشرين من ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية وعرضت عليه ألقاب فاختار منها المتقى لله وباعه الناس كافة فصلى بالناس وصعد على سرير الخلافة وسير الخلع واللواء الى بجكم بواسط وكان بجكم هذا واسع الكلمة كبير الشهرة فلما ارتقى منصب الصدارة لم يبق للخليفة معه سوى الاسم فقط وغلب أبو الوفا تورون التركى على ما بقى من الامر للخليفة وظل حال المتقى هكذا ما بين بجكم وأبى الوفا تورون حتى خرج بجكم يوما يتصيد فبلغ نهر جور فسمع أن هناك أكراد لهم مال وثروة فشرهت نفسه الى أخذ المال فقصدهم فى قلة من أصحابه فهرب الاكراد من بين يديه ورعى هو أحدهم فلم يصبه فرى آخر فأخطأه أيضا وكان سهمه لا يخيب فأناه غلام من

الاكراد من خلفه وطعنه في خاصرته فقتله لاربعة بقين من رجب فلما قتل بجكم تفرقت
جنوده وانحدر الديلم منهم الى ابي عبد الله البريدي وكان قد خرج عن طاعة الخليفة وكانوا
منتخبين ليس فيهم حشو ولا دخیل فقوى بهم وعظمت شوكته فستر فعوا الى واسط وعلم
الخليفة المتقي بحالهم فأرسل اليهم يأمرهم بأن لا يصعدوا فقالوا نحن محتاجون الى
مال فان أنفذ لنا منه شيء تربصنا فأنفذ اليهم مائة ألف وخمسين ألف دينار فلم يقنعوا
خفافهم واستمال اليه جماعة الاثراك وبعض أجناد بغداد القداماء وبذل فيهم مالا قدره
أربعمائة ألف دينار وجعل عليهم سلامة الطولوني مقدما فاصلحوا حالهم ودبروا أمرهم
وبرزوا مع المتقي الى نهر دياي ووصل البريدي من واسط الى بغداد فاختلفت عند وصوله
جماعة الاثراك واستأمن بعضهم اليه وسار بعضهم الى الموصل واختفى سلامة الطولوني
وخاف أهل بغداد فهم الكثير منهم الى الخروج خوفا من البريدي وعسفه وظلمه ودخل
الى بغداد فلقبه الوزير أبو الحسن والقضاة والكتاب وأعيان الناس وكان معه عدة
سفن كثيرة فأنفذ اليه المتقي يهنئه بسلامته وأظهر له اللين والتلطف عليه لينكف وأنفذ
اليه طعاما وغنميه عدة ليال وجعل يخاطبه بالوزير ثم أنفذ البريدي الى المتقي يطلب
خمسائة ألف دينار ليفرقها في الجند فامتنع من ذلك فأرسل اليه يتهدده ويذكره
ما جرى على المعتز والمستعين والمهتدي وترددت الرسل فأنفذ اليه تمام خمسائة ألف دينار
ولم يلق البريدي الخليفة المتقي مدة مقامه ببغداد فلما صار اليه المال انصرف أطماع
الجند عن الخليفة الى البريدي وناووه الشر وعادت مكيدته عليه فشغبوا وكان الديلم قد
قدموا على أنفسهم كورتيكين الديلي وقدم الاثراك تكيك التركى غلام بجكم فانفقوا معا
على الايقاع بالبريدي ونهب ما عنده فساروا الى مقره وتبعته العامة فقطع البريدي الجسر
ووقعت الحرب في الماء ووثب العامة بالجانب الغربي من بغداد على أصحاب البريدي
فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه واتحدروا الى واسط فنهب داره ودورقوا
فدخل كورتيكين على الخليفة المتقي وأخبره بخبر البريدي وما جرى عليه ففرح بذلك وقلده
امارة الامراء وخلع عليه فتاقت نفس كورتيكين الى التفرد بالامر فقبض على تكيك
التركى وغرقه وتفرد بالامر ففعلت كلمته وطغت جماعة الديلم وزاد شرهم فاخرجوا الناس
من دورهم وسكنوا هم فيها فشكا الناس منهم الى كورتيكين فلم يلتفت اليهم فنارت العامة
ومنع الخليفة من الصلاة وقاموا على جماعة الديلم فاقتتلوا قتالا عنيفا فقتل من
الفرقيين جماعة كثيرة ولما كثر شر الديلم واتسعت كلمة كورتيكين ضاقت أمور المتقي لله
وجار وكتب الى ابن رائق بدمشق يستقدمه الى بغداد ليوليه امارة الامراء مكان كورتيكين
بجمع اليه ابن رائق جماعة كثيرة من الاثراك وكان فيهم من القواد توزون وفشتكين
وغنميهما وسار بهم من دمشق بعد أن استخلف أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل فلما علم
كورتيكين بقسدهم خرج من بغداد الى عكبرا ووصل اليه ابن رائق فوقع الحرب

بينهم واتصلت عدة أيام ثم سار ابن رائق من عكبرا ليلا مع عسكره فاصبح ببغداد
دخلها من الجانب الغربي وعبر من الغد الى الخليفة المتقي فلقية وركب معه في دجلة ثم عاد
فلحقه في ثاني يوم كورتكين بجيوشه من الجانب الشرقي ثم دخل بغداد فأبس ابن رائق
من ولايتها وخاف شر العاقبة فامر بحمل أنقاله والعود الى الشام وترك الخليفة وكورتكين
وشأنهما فلما شاع هذا الخبر أخذ الناس أيضا في رفع أثقالهم يريدون الخروج عن بغداد
ثم ان ابن رائق عزم أن يناوش كورتكين وأصحابه شيئا من قتال قبل مسيره فرسم لطائفة
من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الاتراك من ورائهم وركب هو سميرية وركب معه
جماعة من أصحابه في عشرين سميرية ووقفوا يرمون الاتراك بالنشاب ووصل أصحابه
وصاحوا من خلفهم واجتمعت العامة مع أصحاب ابن رائق يضجون قطن كورتكين أن
العسكر ~~كس~~ عليه من خلف ومن أمام فانهزم هو وأصحابه شرهزيمة واختفى كورتكين
ورجم العامة أصحابه بالآجر والاحجار فقوى أمر ابن رائق وأخذ من استأمن اليه
من الديلم فقتلهم عن آخرهم وكانوا زهاء أربعمائة فلم يسلم منهم غير رجل واحد اختفى
بين القتلى وحمل معهم وألقى في دجلة فنجوا وعاش طويلا وقتل جميع الاسرى من القواد
وكانوا بضعة وعشرين رجلا فخلع عند ذلك المتقي على ابن رائق وجعله أمير الامراء وبث
ابن رائق العيون حول ~~ك~~ كورتكين حتى قبض عليه واعتقله في دار الخليفة وكان
البريدى في غضون هذه الحوادث بواسط فاستعظم أمر ابن رائق وحسده فأثر عنه حمل
للمال فكان به ابن رائق في ذلك فلم يرسل شيئا فالتحدر ابن رائق الى واسط فهرب بنو
البريدى الى البصرة ثم عادوا وضموا بقايا واسط وعاد ابن رائق الى بغداد فخرجت عليه
الجنود وفيهم يوزون وغيره من القواد فلم يقدر على ردهم فتركوه ورحلوا الى ابن البريدى
بواسط ونحزوا اليه ففرح بقدمهم وقوى بهم وعزم على الشخصوس الى دار السلام
ثم لم يلبث أن سبر الى بغداد جيشا عظيما من الاتراك والديلم ومقدمه أخوه أبو الحسين
البريدى فلما أحس ابن رائق بقدمهم تحصن بدار الخليفة ورم سورها ونصب عليه
المنجنيقات والعرادات وحصن دجلة وحرك العامة للقتال وجند منهم جماعة فناروا في بغداد
وأحرقوا ونهبوا وأخذوا الناس ليلا ونهارا قبل أن تصل جيوش ابن البريدى وخرج
المتقي لله وابن رائق وتبعهما أصحابهما فاقتتلوا مع البريدى وأصحابه فانهزم أهل بغداد
واستولى أصحاب البريدى على دار الخليفة وهرب المتقي وابنه الأمير أبو منصور في نحو
عشرين فارسا ولحق بهما ابن رائق في جيشه فساروا جميعا نحو الموصل وقتل أصحاب
البريدى من وجدوه في دار الخليفة من الحاشمية فنهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب وعم
بغداد ليلا ونهارا وأخذوا كورتكين من حبسه وأنفذه أبو الحسين بن البريدى الى أخيه
عبد الله البريدى بواسط فكان آخر العهد به * واشتد البلاء على أهل بغداد وعظم الأمر

ووقع الغلاء وعزت الاقوات وأخذ القوى بالضعيف ووقعت الفتن بين الناس فضجوا وبعجوا
وابتهلوا الى الله

ولما عظم أمر البريدى وأراد الشخصوس من واسط الى دار السلام في جيوشه وعرف
الخليفة المتقي ما وراء ذلك أنفذ الى ناصر الدولة بن جسدان يستمده على البريدى فأرسل
أخاه سيف الدولة على بن عبد الله بن جسدان نجدة له في جيش عظيم فلقى المتقي وابن رائق
في تكريت منهزمين فسار معهما الى الموصل ففارقها صاحبها ناصر الدولة وعبر الى الجانب
الشرقي من دجلة وكان بينه وبين ابن رائق وحشة قديمة وكان كل منهما يضر للآخر سوء
فترددت الرسل بينهما على الصلح فاصطلحا وعبر الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق يسلمان
على ناصر الدولة فتمت الدنانير والدراهم على واد المتقي قلبنا عنده برهة فلما أراد الانصراف
ركب ابن المتقي وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة تقيم اليوم عندي لنحدث فيما
نفعه فاعتذر ابن رائق بابن المتقي فألح عليه ابن جسدان فاستراب ابن رائق من الخاحه وجر بكمه
من يده فقطعه وأراد الركوب فشب به الفرس فسقط فصاح ابن جسدان بأصحابه اقتلوه وألقوه
في دجلة * وأرسل ابن جسدان الى المتقي يقول انه علم بأن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل
به ذلك فرد عليه المتقي ردا جميلا ورسم اليه بالحضور لديه فسار اليه فخلع عليه المتقي ولقبه
ناصر الدولة وجعله أمير الامراء وخلع على أخيه أبي الحسين على ولقبه سيف الدولة * وجاء
الخبر الى الاخشيد صاحب مصر بموت ابن رائق ففرح وسار من مصر الى دمشق في عسكر
كثيف يريد أخذها من خليفة ابن رائق فلما وصلها استأمن اليه خليفة ابن رائق وتسلمها
الاخشيد فبسط يده على ما جاورها مضافا ذلك الى ديار مصر وطال مكث ابن البريدى ولمومه
ببغداد وزاد عسفه وظلمه وجوره فكبرهته العامة وكانت لا تنكف عن مشاغبه ففارقه الجند
وانضموا الى الخليفة المتقي لله وابن جسدان فكثرت جوعهما وقويت عزيمة الخليفة فزحفوا
جميعا الى بغداد فهرب ابن البريدى واضطرب العامة ببغداد ونهب الناس بعضهم بعضا
ودخل المتقي الى بغداد ومعه بنو جسدان في جيوش عظيمة فأقام بها والكلمة لبني
جسدان ثم اتوردون وغيره من كبار الاتراك وعظماء الديلم والخليفة في أيديهم كالألة الصماء فلما
ضاقت عليه المذاهب خرج من بغداد الى الموصل وأرسل الى الاخشيد محمد بن طغج متولى
مصر يشكو حاله ويستقدمه فأتاه من مصر ووصل اليه وهو بالرقعة فأكرمه المتقي وأجله
وروقف الاخشيد وقوف الغلمان ومشى بين يدي المتقي وحمل اليه هدايا عظيمة وكذلك
لوزير أبي الحسين بن مقلة وسائر الاصحاب وتقدم الى المتقي في أن يسير معه الى مصر والشام
ويكون بين يديه فلم يفعل فخوفه من الرجوع الى بغداد وحذره من توزون التركي وغدره
وقال له يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الاتراك وغدرهم فلا تأمن على
نفسك فلم يقبل فقال له فأقم هنا وأنا أمدك بالمال والرجال فلم يقبل المتقي وصمم على
الرجوع الى دار السلام وكان قد أنفذ رسلا الى توزون في الصلح فتم الصلح وحلف توزون

على الطاعة لأمر المؤمنين فأخضر المتقي من الرقة في الفرات الى دار السلام لاربعة بقين
من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وعاد الاخشيدي الى مصر فلما وصل المتقي الى هيت أقام بها
وأنفذ من يجدد اليمين على توزون فعاد وحلف وسارعن بغداد ليلتي مع المتقي فالتقى معه
بالسندية فنزل توزون وقبل الارض وقال ها أنا قد وفيت بيمينى والطاعة لك ثم وكل به
وبالوزير وبالجماعة وأنزلهم في مضربه مع نساء المتقي وأنفذ رسله الى دار ابن طاهر ليحضروا
المستكني فلما حصل في المضرب قبض على المتقي وتغل عينيه فصاح وصاح من عنده من
النساء والخدم فأمر توزون بضرب الدباب حول المضرب لئلا تظهر أصواتهم فخفيت
أصواتهم وعى المتقي لله وأخضر توزون من الغد الى دار السلام ومعه المتقي ووزيره ابن مقله
وقاضيه أجد بن عبد الله بن اسحق فكانت خلافة المتقي لله ثلاث سنين وخمسة أشهر
وثمانية عشر يوما وكان خلقه في يوم السبت لعشر بقين من صفر وبقي الى أن مات سنة
سبع وسبعين وثلثمائة

ولما امتنع المتقي من المسير مع الاخشيدي الى ديار مصر ومن البقاء في الرقة تحول
عنه الاخشيدي الى دمشق فجري للخليفة ما جرى ووصل الاخشيدي الى دمشق وولى عليها
الحسين بن لؤلؤ ثم صرفه من عامه الى نيابة حصص وولى على دمشق يانس المؤنس وعاد الى
مصر فدخلها في جمادى الاولى سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ثم ورد عليه الخبر بخلع المتقي
ومبايعة المستكني فأسف لذلك جدا وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر في خلافة المستكني
وفي سنة احدى وثلاثين وثلثمائة أى في خلافة المتقي المذكور قدّم المتأصلون غبريال
بطركا لاسكندرية بعد الفترة التي خلا فيها المنصب البطريكي وقدرها أربع عشرة سنة كما
تقدم الكلام على ذلك فكان غبريال هذا سابع خسيم وأصله راهب من دير أبى مقار
وهو من أهل التوفية وقد أخذت في أيامه الديارية على النساء والرجال تخلصا من طلبان
ابن طغج الاخشيدي وفرارا من الشدة التي نالهم جميعا بسبب ذلك فصل منها شئ كثير جدا
وعم لذلك الضيق وكثرت الكوارث وبلغت الشدة الى حد لا يطاق

(الفصل الثانى والعشرون)

(فى خلافة المستكني بالله بن المستكني)

ثم قام بالامر بعد المتقي ابن عمه أبو العباس عبد الله المستكني بالله بن المستكني بالله على
ابن المعتض بالله ببيع له بالخلافة بالسندية يوم خلع المتقي لله سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة
هجريه أى سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم السبت لثلاث خلون من صفر
حكى أبو العباس التميمي الرازى وكان من خواص توزون قال كنت أنا السبب في البيعة

المستكني وذلك أنه دعاني ابراهيم بن الزويندار الديلمي فضيت اليه فذكر لي أنه تزوج الى قوم وأن امرأة منهم قالت له ان هذا المتقي قد عاداكم وعاديتوه وكشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتني وذكر عقله وأدبه ودينه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسكم ويدلكم على أموال جلييلة لا يعرفها غيره ونستريحون من الخوف والحراسة قال فعلت أن هذا الأمر لا يتم الا بك فدعوتك له فقلت أريد أن أسمع كلام المرأة فجاءني بها فرأيت امرأة عاقلة جزلة فذكرت لي نحوه من ذلك فقلت لابد أن ألقى الرجل فقالت تعود غدا الى ههنا حتى أجمع بينكما فعدت اليها من الغد فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر في زى امرأة فعرفتني نفسه وضمن اظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون وذكر وجوهها وخاطبني خطاب رجل فهم عاقل ورأيت به يتشيع قال فأنت توزون فأخبرته فوقع كلامي بقلبه وقال أريد أن أبصر الرجل فقلت لك ذلك ولكن اكنم أمرنا من ابن شيرزاد فقال أفعل وعدت اليهم وأخبرتهم بالذي ذكر ووعدتهم حضور توزون من الغد فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مستخفين فاجتمعنا به وخاطبه توزون وبأيعه تلك الليلة وكتم الأمر فلما وصل المتقي قلت لتوزون لما لقيه أنت على ذلك العزم قال نعم قلت فافعله الساعة فانه ان دخل الدار بعد عليك مراره فوكل به وسمله وجرى ماجرى وبويع المستكني بالخلافة يوم خلع المتقي وأحضر المتقي فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكني وسمت نفسها علم وغلبت على أمره كله واستوزر المستكني أبا الفرج محمد بن علي الشاري فلم يكن له من الوزارة الا الاسم فقط والكلمة لابن شيرزاد وحبس المتقي وخلع المستكني بالله على توزون خلعة وتاجا اه

فلما كان يوم الاثنين انحدر المستكني في الماء راكبا في الطراد المسمى الغزالة وعليه قلنسوة طويلة محدودة يقال انها كانت لايه المكتني بالله وعلى رأسه توزون التركي ومحمد ابن محمد بن يحيى شيرزاد وجاعة من غلبانه وسلم اليه المتقي ضميرا وأحمد بن يحيى القاضي مقبوضا عليه وحضر بعد ذلك جميع القضاة مع الهاشميين فبايعوا له وجلس للناس وسأل عن القضاة وكشف عن أمور شهود الحضرة فأمر بإسقاط بعضهم وقبول بعضهم لاشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة واستتابه بعضهم من الكذب فامتثل القضاة ما أمر به من ذلك واستعفى على الجانب الشرق محمد بن عيسى المعروف بابن أبي موسى الحنفي وعلى الجانب الغربى الحسن بن أبي الشوارب الأموى الحنفي فتطيرت من ذلك العامة وقالت يومئذ الى ههنا انتهى سلطانه وانتهى في الخلافة أمره ونهيه * وما دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حتى مرض توزون التركي وانقطع بداره في بغداد أياما ثم مات ففرح الخليفة المستكني بنحبه موته وظن رجوع الامر والكلمة اليه فكانت مدة اماره توزون على ما قاله أصحاب التاريخ سنتين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما

ولما مات توزون كان ابن شيرزاد بناحية بهيت لتخليص أموالها فلما جاء الخبر عزم على عقد الامارة لناصر الدولة ابن جدان فاضطربت الاجناد لذلك وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد فحضر الى بغداد ونزل خارجها فخرج اليه جميع الجند واجتمعوا عليه وحلقوا ووجهه الى الخليفة المستكفي بالله ليحلف له فأجابته الى ذلك وحلف له بحضور القضاة والعدول ودخل اليه ابن شيرزاد فأكرمه وأجمله وخرج فزاد في مرتبات الجند زيادة عظيمة فضاقت الأموال عليه وعز نوالها فأرسل الى ناصر الدولة مع أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي وهو بالموصل يطالبه بالمال ويبعده برد الرياسة اليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشياً من الاقوات كثيراً ففرقها في العسكر فلم تكف فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم لا رزاق الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلباته فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العسف والعريضة فهرب التجار وأصحاب الاموال وجعل يعزل ويولي الولاة والعمال فاستعمل ينال كوشه على واسط والشكري على تكريت فاما ينال فإنه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه الى بغداد وحلف له بالطاعة اليه ان هو قدم على بغداد وكان ابن بويه يومئذ بالاهواز فسار منها الى بغداد في جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس في بغداد واختفى المستكفي بالله وابن شيرزاد أياماً ثم ترددت الرسل بين المستكفي وبين ابن بويه فظهر وعاد الى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة في جموعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المستكفي وبايعه وحلف له المستكفي وخلع عليه ولقبه في ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه علياً عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكأهم على الدينار والدرهم وجعل يتصرف في الامور كما يشاء ورتب للمستكفي بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمر ابن شيرزاد فظهر وحضر الى بغداد ولقي معز الدولة فولاه الخراج وجباية الاموال

ولما سكنت الامور واطمأنت الخواطر أولت علم قهرمائه المستكفي وليمة عظيمة دعت اليها جماعة من قواد الديلم والأتراك ولم تعلم معز الدولة بخبرها فاستعظم معز الدولة ذلك منها واتهمها بأنها انما فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفي فيزيلون معز الدولة عن منصبه وجعل من ذلك اليوم يعمل على خلع المستكفي ويدبر الحيلة على الإيقاع به فلما كان ثاني عشر جمادى الآخرة حضر معز الدولة والناس عند الخليفة ثم حضر رجلاً من نقباء الديلم بصحان فتناول يد المستكفي بالله فظن أنهم يريدان تقبيلها فدها اليهما فذباه عن سريره وجعل عمامته في حلقه فنهض عند ذلك معز الدولة وخرج من الدار وساق الرجلان المستكفي بالله ماشياً الى دار معز الدولة فاعتمقل بها واضطرب الناس ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وأخذت علم القهرمائه فقطع لسانها فكانت مدة خلافة المستكفي بالله سنة واحدة وأربعة أشهر كان فيها مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد حدث أبو اسحق ابراهيم بن اسحق المعروف بابن الوكيل وهو من كان في خدمة

المستكني قال كان المستكني في سائر أوقاته فازعا وجسلا من المطيع أن يلي الخلافة ويسلم اليه فيحكم فيه بما يريد فكان صدره يضيق لذلك فيشكو الامر في بعض الاوقات الى من كان بأفقه من ندمائه فيشجعونه ويهتفون عليه أمر المطيع الى أن قال لهم في بعض الايام قد انتهيت أن نجتمع في مكان كذا وكذا فنتذاكر في أنواع الأطعمة وما قال الناس في ذلك منظوما فاتفق معهم على ذلك فلما كان في اليوم الذي حضروا أقبل المستكني فقال ها توما ما أعدته كل واحد منكم فقال بعضهم أبيتا طويلا في وصف سلة سجادج كوامخ فأمر المستكني أن تحضر هذه الجونة بعينها على ما وصفها القائل ثم قال آخر وآخر والمستكني يأمر باحضار كل ما يجري في وصفه ما يمكن احضاره قال أبو اسحق فلم أر المستكني منذ ولي الخلافة أشد سرورا منه في ذلك اليوم وأجاز جميع من حضر من الجلساء والندماء والملهين ثم أحضر ما حضره في وقته من عين وورق عند ضيق الأمر عليه فولته ما رأيت له بعد ذلك يوما مثله حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلمي وسمل عينيه اه
وبقي المستكني معتسلا في دار معز الدولة بن بويه الى أن مات في سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أبيض حسن الوجه قد ونحطه الشيب * ولما قبض عليه بويج بعده للطبيع لله

وكان لما ولي المستكني الخلافة أرسل الى محمد بن طغج الاخشيد فأمره على ولاية مصر والشام فلم يحفل بذلك لعله أن أركان دولته ثابتة لا تتزعزع فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وقعت بينه وبين سيف الدولة منافرة واشتدت شدة باغية ثم اصططها على أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وجص وباقي بلاد الشام للاخشيد ولتوكيد الصلح بينهما تزوج سيف الدولة بنت أخي الاخشيد ولكن لم يلبثا طويلا على هذا الحال حتى وقع التفور بينهما ثانية فجهز الاخشيد جيشا عظيما لقتال سيف الدولة وسيره مع خادمه كافور وأبي شجاع فأتاك المجنون ثم خرج الاخشيد خلفهم في شعبان من السنة واستخلف أخاه أبا الطفر وسار حتى لقي سيف الدولة بقتسر بن خازبه وقهره وفرق بجوعه وأخذ منه حاب ثم بلغه خلع المستكني فعاد الى دمشق وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر في خلافة المطيع

(الفصل الثالث والعشرون)

(في خلافة ابن الفضل المطيع لله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد المستكني ابن عمه أبو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد بويج

له بالخلافة لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم خلع ابن عمه المستكنى بالله وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة وأحضر المستكنى عنده فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع وقد سمل معز الدولة عينيه وأعماه كما تقدم فلم يكن للطبع من الخلافة إلا الاسم فقط فقد ازداد أمر الخلافة إديارا وزالت حرمتها أو كادت على يدى معز الدولة بن بويه فلم يبق فى يد المطيع إلا أمر ولا نهى ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر واختل النظام واستخف الديلم بمقام الخلافة فكانوا يقولون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقها وكانوا بتشيعون ويغالون فى التشيع فلم يبق عندهم وازع ديني يحثهم على الطاعة * قال صاحب الكامل حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى اخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للعز الدين الله العلوى أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فانه قال ليس برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله اقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك فأعرض عن ذلك قال فهذا كان من أعظم الاسباب فى زوال أمرهم ونهيمهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها اهـ

ونزع معز الدولة من الخليفة العراق بأمره وما والاها فلم يبق مع الخليفة منه شئ البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته الخلافة فاشتد الحال على المطيع وعظم الخطب ولبث على هذا الحال طويلا وكان معز الدولة اذا أراد غزو جهة حل معه الخليفة المطيع ليؤمهم الناس أنه انما يحارب للخليفة ومعه والامر على عكس ذلك واشتد فى التشيع للعلويين فأمر أصحابه ببغداد فكتبوا على المساجد ما هذه صورته * لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفي أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى اهـ فأغضب ذلك الخليفة ولكنه كان محكوما عليه لا يقدر على المنع فلما كان الليل حيا الكتابة بعض الناس فغضب معز الدولة وأراد إعادة ما محى فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكروا أحدا فى اللعن الامعاوية ففعل ذلك * وسار معز الدولة فى سنة ست وخمسين الى واسط فجهاز فيها الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين صاحب البطائح فلما هم بالمسير ابتدأ به مرض الاسهال وقوى عليه فأججم عن الخروج الى ابن شاهين وسار الى بغداد وخاف أصحابه ووعدهم أن يعود اليهم فلما وصل الى بغداد اشتد به مرضه فلما أحس بالموت عهد الى ابنه عز الدولة بختيار وأظهر التوبة وقصدق بأكثر ماله وأعتق مماليكه ورد شيا كثيرا على أصحابه مما كان قد اغتاله ثم مات ودفن بمقابر قریش فكانت امارته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين فجعل ابنه بختيار

يتصرف في الامور فأساء السيرة وجار وظلم وصرف عنه كبار الترك والديلم وأبغض صغارهم وضيق على الخليفة المطيع وطالبه بمال كثير فاعتذر وقال من أين لي ذلك ولم يبق لي من حكم البلاد سوى الاسم والخطبة فان شئتم أن أعتزل فعلت فلم يقبل منه وتهده فبذل له المطيع أربع مائة ألف درهم واحتاج الى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وبلغ فساد الامور الى حد لا يطاق فكثير ادلال الجند على بختيار واطراحهم لجانبه وشغبهم عليه ومطالبتهم له بالارزاق والجوامك المتأخرة وقد قلت عنده الاموال وتعذر عليه تسكين خواطر الجند ولم يجد ديوانه ووزيره جهة يحتمل منها شيء فسار الى الموصل بهذا السبب فلم يفتح عليه فسار منها الى الاهواز ليتعرض الى متوليها ويأخذ منه مالا ويخلف عنه سبكتكين التركي أحد كبار الجند الاثرأ ولم يسرمعه فلما وصل الى الاهواز لاقاه متوليها وخدمه وقدم له الطاعة وحمل له أموالا جارية المقدار وبختيار يفكر في طريق يأخذه به فانفق أنه جرت فتنة بين الاثرأ والديلم سببها مضاربة بين غلام تركي وآخر ديلي فاتصل خبر ذلك بأصحاب كل واحد منهما فقام بعضهم على بعض واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير وخرجوا الى ظاهر البلد فاجتهد بختيار في تسكين الفتنة فلم يفلح فاستشار جماعة الديلم في ذلك وفيما يفعلون وكان أذا يتبع كل قائل فأشاروا عليه بالقبض على كبار الاثرأ لتصفو له البلاد فقال الى ذلك وقبض على جميع كبارهم وقبضهم وأطلق الديلم في الاثرأ فقتلوا ونهبوا أموالهم وهرب الاثرأ ولحقوا بسبكتكين وكان بختيار قد دبر الحيلة للنقض على سبكتكين أيضا فلم يفلح وظهرت حيلته فركب سبكتكين عند ذلك فحين جاءه من الاثرأ وحصره دار بختيار يومين ثم أحرقها ودخلها وأخذ ابني عز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما وسيرهم الى واسط فانحدر معهم الخليفة المطيع لله فاسترجعه سبكتكين ورده الى داره واستولى على ما كان لختيار جميعه ببغداد ونزل الاثرأ في دور الديلم وتبعوا أموالهم وأخذوها ونارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لانه كان سنيا نفع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد فقتلوا وناروا بالشيعة وحاربوهم فكانت كلها حرب دينية وسفكت بينهم الدماء وأحرقت الدور وزال الامن وكثر السلب والنهب في الليل والنهار واشتد البلاء وعظمت الفتنة وما زالت نارها تتأجج حتى تم الامر لسبكتكين فجعل يتصرف ثم لم يلبث أن آنس من الخليفة لمطيع الكره له وكان المطيع به مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فدعاه سبكتكين الى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها الى ابنه الطائع ففعل وأشهد على نفسه بالخلع ثالث عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة فكانت خلافته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر الاياما وكان وطيء الجانب كثير الصدقات حسن الاخلاق

ولما سار الاخشيدي من حلب الى دمشق بعد انتصاره على سيف الدولة وورد الخبر اليه بخلع المستكني وبيعة المطيع كما تقدم لبث بها أياما فمرض واشتدت علته ومات يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فحملوا تابوته الى بيت المقدس

فدفن هناك وكانت ولادته في سنة ثمان وستين ومائتين هجرية ببغداد بشارع باب الكوفة
 وكان ملكا حازما متيقظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة
 عظيمة لا يكاد أحد يجتر قوسه وله هيبه في قلوب الرعية وكان متجلا في مركبه وملبسه فكان
 موكب يضارع موكب الخليفة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف وعدد جيوشه أربعمئة ألف
 وكان يكره سفك الدماء شديد التحرز على نفسه فكانت تحرسه مماليكه بالمناوبة وإذا نام
 حرسه ألف مملوك وعاش سبعين سنة وقيل ستا وستين وخلف عدة ذكور ولما مات تولى
 الملك بعده ابنه أبو القاسم أنوجور الاخشيدي في ثاني يوم وفاة أبيه ولله الخليفة المطيع على
 سائر ما كان لأبيه مع حداثة سنه وجعل مدبر مملكته كافورا الخادم الاسود فكان أنوجور
 مغلوبا على أمره ليس له من الملك سوى الاسم والكلمة لكافور فكان كافور يطلق لأنوجور
 في كل سنة أربعمئة ألف دينار ويتصرف بما يلقى واتسعت كلمة كافور وهابه الناس فأفسد
 من أبي بكر محمد بن علي بن مقاتل صاحب خراج مصر وحشة فقبض عليه في سنة خمس
 وثلاثين وثلثمائة وخلعه وولى مكانه محمد بن علي المارداني * وسار أنوجور الى دمشق ولبت
 بها ماشاء ثم رحل عنها الى مصر فلم يستقر به المقام حتى جاء الخبر باستيلاء سيف الدولة على
 دمشق وضمها الى أملاكه فأكبر هذا الامر وأعظمه وكر راجعا الى دمشق في عسكر عظيم
 ومعه عمه الحسن بن طغج وكافور الخادم وقصدهم سيف الدولة في عسكر وجوع كثيرة
 فالتقوا بالرملة في يوم الجمعة ولم يهتم بنوحدان بلقاء عسكر أنوجور وجعلوا يطغون في ذلك
 اليوم في أرباض البلاد فاستغنم كافور الخادم فرصة غيابهم وزحف على معسكرهم بخيله ورجله
 وكبسهم من كل صوب وحذب وغنم مؤنتهم وذخيرتهم وسائر متاعهم ففقر سيف الدولة هاربا
 الى الشام فتبعه كافور في عسكره فانهزم الى حلب ثم الى الرقة فلما تم النصر لعسكر أنوجور
 عادوا الى ديار مصر وبينما هم عائدون جاءهم الخبر بخروج غلبون متولى الريف ونزوله على ديار
 مصر وتغلبه على الكثير من البلاد فأسرع أنوجور في المسير ودخل مصر في قلة فهرب غلبون
 وعادت الامور الى ما كانت عليه وسير كافور جيشا خلف أصحاب غلبون فأجلوهم عن سائر
 بلاد مصر وعادوا ظافرين غانمين وما زال أنوجور على حاله حتى مات في ذى القعدة سنة تسع
 وأربعين وثلثمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وعشرة أيام ودفن ببيت المقدس عند
 أبيه * فقام بالامر بعده أخوه علي الملقب بأبي الحسن فلم يكن له من حظ الملك في جانب
 كافور الخادم غدير ما كان لأخيه أنوجور وبقي مغلوبا على أمره * وفي أيامه قصر النيل في
 زيادته سنتين متواليتين فصل بسبب ذلك غلاء شديد ثم قحط تسع سنوات فاشتد الحال بالناس
 شدة بالغة وكثر الخطف والنهب وعاث اللصوص في مصر وبقيّة البلاد وأفسدوا فارتفع الامن
 وعم الخلل وكاد الناس يفتنون فتنة كبرى

ووقع بين أبي الحسن الاخشيدي وكافور الخادم منافرة وعظمت فشاغب بعضهم بعضا أياما
 كانت أشد هولاء على الرعية من الغلاء والقحط وقطع الطرق ثم تصالحا وما زال كافور يتصرف

في الصغير والكبير من الامور ولا كلمة لابي الحسن عليّ حتى مات سنة خمس وخمسين وثلثمائة هجرية فاستقر الملك باسم كافور وصار يدعى له على المبار بالديار المصرية والشامية والجزائر فلم تطل أيامه ومات بمصر في جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة فكانت مدة تصرفه منفردا سنتين وأربعة أشهر * وكان عاقلا ذا رأى وتدبير واسع المعرفة كبير السياسة كيسا حازما كثير التبصر في العواقب * قال الذهبي كان كافور هذا خصيا حبشيا اشتراه الاخشيدي من بعض أهل مصر بثمانية عشر ديناراً ثم تقدم عنده لعقله ورأيه الى أن صار من كبار القواد ثم لما مات استأذنه صار أتابك ولده أنوجور وكان صبيا فغلب كافور على كافة الامور وصار الاسم للولد والدست لكافور ثم استقل بالامر ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغ كافور ومدحه المتنبي بقوله

قوا صيد كافور توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه * وخلت بيضا خلفها وما قيا

وهجاء بقوله

من علم الاسود المخصى مكرمة * أقومه البيض أم آباؤه الصيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة * عن الجليل فكيف الخصية السود

قال محمد بن عبد الملك الهمداني كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال يوما في قصصه انظروا الى هوان الدنيا على الله تعالى فانه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ابن بويه ببغداد وهو أشل وكافور عندنا بمصر وهو خصي فرفع اليه قوله وظنوا أنه يعاقبه فتقدم اليه بخلة ومائة دينار وقال لم يقل هذا الا لجنائي له فكان الواعظ يقول بعد ذلك في قصصه ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة لقمان وبلال المؤذن وكافور * قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي كنت أسير كافورا يوما وهو في مركب خفيف فسقطت مقرعته من يده فبادرت بالنزول وأخذتها من الارض ودفعتها اليه فقال أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يبلغني حتى يفعل بي هذا وكاد يبكي فقلت أنا صنعة الأستاذ ووليه فلما بلغ باب داره ودعته وسرت فاذا أنا بالبغال والجنائب يمرن بها وقال أصحابه أمر الأستاذ بحمل هذا اليك وكان عنها يزيد عن خمسة عشر ألف دينار اه والكافور أخبار أخرى كثيرة أضربنا عن ارادها هنا * ولما مات كافور ولي المصريون مكانه أبا الفوارس أحمد بن عليّ بن الاخشيدي وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة وكان بالشامات التابعة لمصر حسين بن الاخشيدي فلما وصل أهل الشام خبر موت كافور الخادم وولاية أبي الفوارس أحمد لم يرضهم ذلك وولوا عليهم حسينا المذكور ولكنه لم يلبث حتى قام عليه القرامطة وانتزعوا منه البلاد فجاء هاربا الى مصر وفي نفسه نزعة من يد أبي الفوارس فلم تساعد الايام على قوال ذلك وخائنه الاقدار ولم يتم على ولاية أبي الفوارس حول

كامل حتى أتى جوهر القائد لجيوش المعز لدين الله المهدي المغربي صاحب إفريقية فانتزعها منه كما سيذكر تفصيل ذلك في محله

ومات في خلافة المطيع أيضا غبريال بطرل المتأصلين فكانت مدته إحدى عشرة سنة كابد فيها من البلاء والمحن ما لا يطاق فأقاموا بعده قسما أو هو قزمان ثامن خسيهم فلبث اثنتي عشرة سنة ومات وفي أيامه أحرقت المسلمون كنيسة مريم بدمشق الشام ونهبوا ما فيها من الاواني وغيرها وكانت قيمتها كثيرة ونهبوا كذلك ديرا للنساء بجوارها وقتلوا وسبوا ونهبوا كنائس النسطورية والمتأصلين ولم يبقوا فيها شيئا فكانت أيامه كلها شدايد فلما مات أقيم بعده مكاريس أو هو مقار تاسع خسيهم وهو راهب من دير أبي مقار وأصله من شبري ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(وصل)

(فما قاله أصحاب التاريخ في أصل الفاطميين وفي ظهور دولتهم بدار مصر
وفي اعتبارنا لهم ملوكا عليها خلفاء كما يدعون)

قال أصحاب التاريخ قد كان مبدأ ظهور هذه العائلة ببلاد المغرب سنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقد أجمعوا على هذا وعلى أن عدد من ملأ منهم أربعة عشر نفرا منهم ثلاثة ظهوروا بالمغرب وماتوا أولهم أبو محمد عبيد الله فليل هو محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب * قال بعضهم ومن ينسب هذا النسب يجعله عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب اليه القداحية وقال آخرون بل هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فيكون أبو محمد عبد الله هذا على مقتضى القول الاول أو عبيد الله على مقتضى القول الثاني رأس هذه العائلة ومؤسسها وقد اختلفوا في صحة نسبه فقال هو وأصحابه القائلون بامامته ان نسبه صحيح على ما ذكرنا ولم يرتابوا فيه قال صاحب الكامل وذهب كثير من العلويين العالمين بالانساب الى موافقتهم أيضا ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضي

ما مقامى على الهوان وعندي * مقول صارم وأنف جي
ألبس الذل في بلاد الاعادي * وبصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا * ي اذا ضامني البعيد القصي
اف عرقى بعرقه سيد الذ * اس جيجا محمدا وعلى

ان ذلئ بذلك الجسد عـز * وأوامى بذلك الربح رى

قال وانما لم يودعها فى بعض ديوانه خوفا ولا حجة بما كتبه فى المحضر المتضمن القدرح فى أنسابهم فان الخوف يحمل على أكثر من هذا قال وسألت جماعة من أعيان العلويين فى نسبه يعنى فى نسب محمد أبى عبيد الله هذا فلم يرتابوا فى صحته اه وذهب آخرون الى غير هذا المذهب فقالوا بل ان نسبه مدخول ليس بصحيح وانه كان يهوديا وكذلك كتبوا فى الايام القادرية محضرا يتضمن القدرح فى نسبه ونسب أولاده ووقع عليه جماعة من العلويين وغيرهم أن نسبه الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب غير صحيح وكان ممن كتب فيه من العلويين المرتضى وأخوه الرضى وابن الطحاوى وابن الأزرق العلويون ومن غيرهم ابن الاكفانى وابن الحرزى وأبو العباس اليبوردى وأبو حامد والكشغلى والقندورى والصميرى وأبو الفضل النسوى وأبو جعفر النسفى وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وزعم الفائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب فى ذلك المحضر انما كتبوا خوفا وثقمة وأن نسبه الى على صحيح لامراء فيه * وأما من رفع نسبه الى الحسين بن محمد القدرح ثم تغالوا حتى قالوا انه لم يكن من ولد الحسين المذكور ولكنه ابن لامرأة يهودية كان قد أحبها الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القدرح فقد اعتمدوا فى ذلك على ما رواه أهل التاريخ ونقله الكتاب من أخبار أيام القدرح جد هذه العائلة وكيفية ظهوره أنه لما ظهرت كلمة أبى عبد الله الشيعى يعنى ابن ميمون القدرح وكثرت أضرابه وانتشرت حواشيه فى بلاد أفريقية فجعل يغرى الناس بأبى مضر ويعيبه ويسفه أحلامه وما زال حتى فشت دعوته بين سائر وزراء زيادة الله صاحب أفريقية فقالوا اليه وأحبوا نصرته فلما كاد يتم له ذلك مات عبد الله ميمون المذكور وظهر ولده فجعلوا يقولون انهم من ولد عقيل بن أبى طالب ولكنهم لم يجسروا على الظهور بين الناس فكانوا يخفون أشخاصهم ولبشوا على هذا الحال حينما كان ولده أحمد هو المشار اليه منهم فتوفى وخلف ولده محمد وكان محمد هذا هو الذى يكتبه الدعاة فى البلاد فتوفى محمد وخلف أحمد والحسين فسار الحسين الى سلمية من أرض حص اذ كان له بها ودائع وأمواى من ودائع جده عبد الله القدرح ووكلاء وعلماء وبقى بيغداد من أولاد القدرح أبو الشلغلخ وكان الحسين يدعى أنه الوصى وصاحب الامر والدعاة باليمن والمغرب بكتابونه ويراسلونه فى أمور الشيعة كلها * واتفق أنه جرى فى مجلسه يوما حديث النساء سلمية وجمال بعضهن فوصفوا له امرأة رجل يهودى حداد مات عنها زوجها وهى فى غاية الحسن والجمال وأن لها ولدا من الحداد يماثلها فى الجمال فمال الى زواجها فتزوج بها وأحبها وحسن موقعها معه وأحب ولدها وأدبه وأحسن تعليمه وكان اسمه عبيد الله فعلم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كسيرة ثم مات الحسين فقال بعض علماء زمانه من أهل سلمية انه مات عن غير ولد فعهد الى ابن اليهودى الحداد وهو عبيد الله هذا

وعرفه أسرار الدعوة من قول وفعل ودله على مواضع الدعاة وأعطاه الاموال والاعلامات
وتقدم الى أصحابه بطاعته وخدمته وانه الامام والوصي وزوجه ابنة عمه أبي الشلفلغ الذي
نزل ببغداد وهذه دعوة أبي القاسم الابيض العلوي وغيره قالوا وجعل لنفسه أي عبيد الله
المذكور نسبا وهو عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد
ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب * وبعض العلماء بالانساب يقولون بل هو أي
عبيد الله المهدي من ولد القداح جاءه من زوجة اليهودي الحساد وظهرت كلمة عبيد الله
المذكور وعرفه الدعاة واجتمعوا حوله فبذل الاموال وأكثر من الاعطية وشاع خبره عند
الناس أيام المكنى العباسي فطلبه فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الذي ولي بعده وهو يومئذ
غلام وخرج معه خواصه ومواليه يريد المغرب وعليها زيادة الله فلما انتهى الى مصر لبث بها
مستترا بزى التجار وكان العامل على مصر يومئذ عيسى النوشري فأثته الكتب من الخليفة
بصفته وحليته والامر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه وكان بعض المقرين من مجلس عيسى
النوشري متشبعا فأخبر عبيد الله بخبر القبض عليه وأشار عليه بالانصراف فرحل عن مصر
مع أصحابه ومعه من الاموال شيء كثير فأوسع النفقة على من صحبه وفرق عيسى النوشري
الرسل في طلب المهدي المذكور وعلم بخروجه فخرج خلفه في عسكر فلحقه وقد نزل ببستان
فلما رآه لم يشك فيه فقبض عليه ووكل به فلما حضر الطعام دعاه لياكل فأعلمه أنه صائم
فرق له وقال له أعلمني بحقيقة حالك حتى أطلقك فخوفه بالله تعالى وأنكر حاله وما زال يعظ
النوشري ويخوفه الله ويتلطفه حتى رق له وأطلقه وخلي سبيله وقيل انه أعطى النوشري
مالا جزيلا حتى أطلقه وعلم أصحاب النوشري بما جرى فرجعوا على النوشري باليوم وغنوه
على اطلاقه فندم وسير خلفه سرية من العسكر وكان المهدي لما لحق بأصحابه رأى ابنه أبا
القاسم قد ضيع كلبا كان يصيده وهو يبكي عليه فعرفه عبيده أنهم تركوه في البستان
الذي كانوا فيه فرجع المهدي في طلب الكلب حتى دخل البستان ومعه جماعة من غلمانه
فرآهم النوشري فسأل عنهم فقبل فلان قد عاد بسبب كذا وكذا فقال النوشري لأصحابه
فبحكم الله أردتم أن تحملوني على قتل هذا الرجل حتى آخذه فلو كان يطلب ما يقال أو كان
مرييا لكان بطوى المراحل ويخفي نفسه ولا كان رجعا في طلب كلب وتركه

واتسعت شهرة أبي عبيد الله بعد ذلك وكثرت جوعه فتقوت بهم عزيمته وكان في غصون
هذه الحوادث قد عاث أبو عبد الله الشيعي بالمغرب وكبر الدعوة الى المهدي عبيد الله بن القداح
وقتل ونهب وفتح عدة بلاد من افريقية مثل ميلا وسطيف وطبنة ومدينة بازنة ودار ملوك
ومدينة تيجس وباغاية وأنكيجان ومجاعة وتيفاش ومسكانة وتبسة ومدبرة ومرججة والقصرين
وقسطنطية وغير ذلك من المدن والبلدان وأخرج أبو عبيد الله الجمال الى تلك البلاد وطلب أهل
الشر والفساد فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الاموال والسلاح وغير ذلك
وكان زيادة الله قد هرب الى ديار مصر فاجتمع له شيء كثير وفيه كثير من الجوارى لهن مقدار

وحظ من الجمال فوكل بهن امرأة صالحة كانت لزيادة الله ولم يتطرا الى واحدة منهن ولما استقر بالقيروان وحضرت الجمعة أمر الخطباء بأقامة الخطبة فيها وفي رقادة نخطبوا ولم يذكروا أحدا وأمر بضرب السكة ولم ينقش عليها اسم ولكنه جعل مكان الاسم من وجهه * بلغت حجة الله * ومن الوجه الآخر * تفرق أعداء الله * ونقش على السلاح * عدة في سبيل الله ورسم الخيل على أظفارها * الملك لله * وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ وبغلب أبي عبد الله على هذه المدن والامصار زال ملك بني الأغلب وملك بني مدرار من أفريقية وكان قد مضى على ملكهم ثلاثون ومائة سنة وهم منفردون بملك سلجقاسة وزال كذلك ملك بني رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت * وجاء عبيد الله المهدي وولده أبو القاسم بدعوة من أبي عبد الله الشيعي فدخل القيروان بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا وأبو عبد الله الشيعي ورؤساء كرامة مشاة بين يديه وولده خلفه ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد ولقب بالمهدي أمير المؤمنين وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوههم الى مذهبهم فن أجاب أحسن اليه ومن أبي حبس فلم يدخل في مذهبهم الا القليل وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم وقسم على وجوه كرامة أعمال أفريقية ودون الدواوين وجبى الاموال واستقرت قدمه ودانت له أهل البلاد وقتل أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس لأمور لا موضع لذكرها هنا * وتأفت نفسه الى فتح الديار المصرية وضمها الى مملكته الواسعة فاستشار جماعة من قواده في ذلك فأشاروا عليه بالفتح وهتفوا عليه الامر وكشفوا له عما أصاب الخلافة العباسية من الوهن وما هي عليه من قرب الزوال * فلما كانت سنة احدى وثلاثمائة هجرية جهز المهدي جيشا عظيما وسيره من أفريقية مع ولده أبي القاسم الى الديار المصرية فقصده برقة واستولى عليها في ذي الحجة وسار الى مصر فلكوا الاسكندرية وساروا منها الى الفيوم فلما كرها وصار في يده أكثر ما جاورها من البلاد فضيق عليها وشدد على أهلها ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر بالله العباسي فأكبرها وأعظمها جدا وسير لخلاص البلاد مؤنسا الخادم في جيش عظيم فالتقى بأبي القاسم وجيوشه واقتتلوا قتالا عنيفا فظفر بهم مؤنس وهزمهم شر هزيمة فعادوا الى المغرب مهزومين وعلم المهدي بما جرى لهم فحشد جيشا آخر وسيره مع قائد من قواده يقال له حباسة الى الاسكندرية في البحر فنزل عليها وقاتلها وتغلب عليها ثم سار منها الى مصر ونزل بين مصر والاسكندرية وجاء الخبر بذلك الى المقتدر فأرسل مؤنسا الخادم في عسكر الى مصر لقتال حباسة وأمدّه بالسلاح والمال فسار اليها فالتقى العسكران في جمادى الاولى فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير وجرح خلق واشتد القتال وتعددت الوقائع وجند أصحاب مؤنس في قتال المغاربة حتى هزموهم شر هزيمة وتبعوهم بالقتل والاسر فكان مبلغ القنلى على ما قاله صاحب الكامل سبعة آلاف مع الاسرى وهرب الباقون وكانت هذه الواقعة في سلخ جمادى الآخرة من

السنة أى سنة اثنتين وثلاثمائة وعادوا الى المغرب فلما وصلوا الى المغرب قتل المهدي حباسة أمير تلك الجيوش ومع ذلك لم تفتر للمهدي عزيمته ولم يتحول عن عزمه من أخذ مصر عنوة واشتد عليه هذا الامر وأقلقه جدا فلما كانت سنة سبع وثلاثمائة جهز المهدي جيشا عظيما تحت رئاسة ابنه أبي القاسم وسيّره الى مصر فوصل الى الاسكندرية في ربيع الآخر من السنة فرحل عامل المقتدر عنها لعدم قدرته على القتال فدخلها أبو القاسم وسار الى مصر فدخل الخيزة وملك الأشمونين وكثيرا من الصعيد ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر فبعث مؤنسا الخادم في شعبان لرد أبي القاسم وجنوده عن البلاد فحصل بينهما وبين أبي القاسم عدة وقعات ووصل من أفريقية ثمانون مركبا فجدد لابي القاسم وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكناحي وهما أشجع قواد المهدي وجاء الخبر بذلك الى الخليفة المقتدر بالله فأمر بأن يسير مركب طرسوس اليهم فسارت خمسة وعشرون مركبا وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو الين فالتقت السفن بالسفن واقتتلوا على رشيد فظفر أصحاب مركب المقتدر وأحرقوا كثيرا من مركب أفريقية وهلك أكثر أهلها وأسرى منهم كثير وفي الأسرى سليمان الخادم ويعقوب فقتل من الأسرى كثير وأطلق كثير ومات سليمان في الحبس بمصر وحمل يعقوب الى بغداد ثم هرب منها وعاد الى أفريقية واشتد مؤنس الخادم فائد جيوش المقتدر بالله وألح في قتال أبي القاسم ومن معه حتى ظفروه وقهره فجاءه مرسوم الخليفة بالتشريف ولقب المظفر ووقع الوباء أيضا في عسكر أفريقية وكذلك الغلاء فمات منهم كثير من الخلق والخليل فعاد من سلم الى أفريقية وسار عسكر مصر في أثرهم حتى أجلاهم عن البلاد

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة هجرية مات أبو محمد عبيد الله المهدي في ربيع الاول فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته سنة لتدبير كان له وكان يخاف أن يختلف الناس عليه اذا علموا بموته وكان عمر المهدي لما توفى ثلاثا وستين سنة وكانت خلافته منذ دخل رقادة ودعى له بالامامة الى أن مات أربعين سنة وشهرا وعشرين يوما * فقام بالامر بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان أبوه قد عهد اليه ولقب بالقائم بأمر الله فلما استتب له الامر ودانت له المملكة هم بفتح ديار مصر فحشد جيشا عظيما وسيّره اليها مع خادمه زيدان وبالغ في النفقة عليه فدخلوا الاسكندرية وكان المتولى على ديار مصر في هذا الحين محمد الاخشيده فأخرج لقتالهم جنودا فقاتلوهم وهزموا المغاربة وقتلوا فيهم وأسروا خلقا وعاد المغاربة مغلوبين وبقي الحال في سكون والقائم لا يبدي حراكا الى أن كانت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مات القائم بأمر الله لثلاث عشرة مضت من شوال * فقام بالامر بعده ابنه اسمعيل وتلقب بالمنصور بالله وكنى خبر موت أبيه لسبب الفتنة القائمة وخروج المدعو أبا يزيد وكان المنصور شهما شجاعا حسن التدبير فضبط أركان الملك وأحسن تدبير البلاد فبلغت شهرته مبلغا عظيما وما زال يتصرف حتى مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة للهجرة بالمهدية فكان ثالث من ظهر ومات من هذه العائلة بالمغرب * فقام بالامر بعده ولده المعز لدين الله أبو تميم معد وهو أول ملوكهم

الاحد عشر بديار مصر فلما تمت له البيعة وصفت له الامور تاقت نفسه الى فتح ديار مصر
 والتغلب عليها وقد طمع فيها * وكان لما مات كافور الاخشيدى لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه
 فاختلفت عند ذلك كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وافتتنوا أو كادوا وأصابهم في ذلك الحين
 غلاء شديد ثم حط ثم وباء أفنى من الخلق ما لا يكاد يدخل تحت الحصر فلما بلغ ذلك المعز أبا
 نعيم طمع في فتحها وكثرت رغبته في ذلك فجهز القائد أبا الحسن جوهر غلام والده المنصور وهو
 روى في مائة ألف مقاتل فبرز جوهر الى رمادة وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال
 وصار المعز يخرج اليه في كل يوم وأطلق يده في بيت ماله يحكى أن المعز خرج يوما الى
 معسكر جوهر فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع القواد وكبار القوم الذين خرجوا مع الجيش
 فنظر المعز اليهم وقال والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ووالله لتدخلن ديار مصر
 بالوردية من غير حرب ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا
 وأمر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة وأمر أولاده
 وإخوانه وولى عهده أن يسيروا في ركاب جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم
 اذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة في خدمته فالتحدر جوهر بجيوشه ونزل برقة فتقدم
 اليه صاحبها بمخمسين ألف دينار ذهباً فداء من ترجمه ومشيه في ركابه فردده جوهر عليه
 وقال لا بد من العمل بما أمر به أمير المؤمنين فثنى صاغرا وكان خروج جوهر من القيروان
 في رابع عشر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فهناك الشعراء يوم خروجه وودعه
 بكبار الدولة وبالغوا في تعظيمه * ومدحه محمد بن هاني لشاعر بقصيدة منها هذه الابيات

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع * وقد راعني يوم من الخسر أروع
 غداة كان الافق سـمـة * فعاد غروب الشمس من حيث نطلع
 فلم أدرك اذ ودعت كيف أودع * ولم أدرك اذ شيعت كيف أشيع

الى أن قال

اذا حل في أرض بناها مدائنا * وان سارعن أرض غدت وهي بلقع
 تحل بيوت العز حيث محله * وجم العطايا والرواق المرفح
 رحلت الى الفسطاط أول رحلة * بأيمن فأن بالذي أنت تجمع
 فان بك في مصر ظمأ لمورد * فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر بمن معه من الجيوش الى مصر فلما اتصل خبر وصوله هربت العساكر
 الاخشيدية على وجوههم فنزل بالجيزة في سابع عشر شعبان من السنة فخرج الناس للقائه
 واجتمع سائر الامراء وبينهم الوزير جعفر وبجاعة من الاعيان وعبروا النيل الى الجيزة
 والتفوا بالقائد ونادى مناديه فنزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه
 واحدا واحدا والوزير عن شماله والشريف عن يمينه ثم دخل بجيوشه البلد من وقت
 الزوال بسلاحهم وعددهم وكراعهم وطبولهم وبنودهم ونزلوا فيما هو موضع القاهرة اليوم

ثم سار الى القسطنطينية ونزل فيه بعسكره وخطب للعز يوم الجمعة على منابر مصر وسائر أعمالها وأمر أن ينادى عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم صل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين » وأمر المؤذنين بجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحسبى على خير العمل فشنق ذلك على الناس ولكنهم ما استطاعوا له ردا وشرع في بناء القاهرة للجند والقصرين والجامع الأزهر وأرسل بشيرا الى المعز يبشره بفتح مصر وإقامة الدعوة له بها ويطلبه اليها وقد بدأ ببناء القاهرة في سنة تسع وخسين وثلاثمائة للهجرة فلم تأت سنة إحدى وستين حتى تم بناؤها * قال بعض الكتاب وقد كانت البقعة التي ابنت فيها القاهرة والقصرين والجامع بقعة رملية فيما بين القسطنطينية وعين شمس لا شيء فيها الا بعض البساتين منها بستان الاخشيدي شرق الخليج وميدان الاخشيدي ودير للنصارى من أهل البلاد كان يسمى دير العظام فيه بئر لا يزال باقيا يعرف بئر الجامع الاقر وتسميه العامة بئر العظمة وكان في تلك البقعة أيضا موضع يعرف بقصر الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك

ولما استقر بجوهر المقام بمصر وثبت قدمه سير جعفر بن فلاح الكتاني الى الشام في عسكر عظيم فبلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج فقاتله في ذي الحجة من السنة أى سنة ثمان وخسين وثلاثمائة واشتد ابن فلاح في قتاله وألح فكانت بين الفريقين حروب كان الظفر فيها لابن فلاح وأسمر ابن طغج وغيره من كبار القواد وسيروهم الى جوهر القائد بمصر فبعث بهم جوهر الى المعز بأفريقية ودخل ابن فلاح الرملة عنوة فقتل ونهب وسبي ثم آمن من بقي من أهلها وجبى منهم الخراج وسار الى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للعز لدين الله فسار عنها الى دمشق فامتنع عليه أهلها وقائلوه فقاتلهم وألح في قتالهم حتى ظفر بهم ومك البلد ونهب بعضه وأقام الخطبة للعز يوم الجمعة لايام خات من المحرم سنة تسع وخسين وقطعت الخطبة العباسية * قال صاحب الكامل * وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي وكان جليل القدر نافذ الحكم في أهلها فجمع أحداثانها ومن يريد لفنة وثأرهم في الجمعة الثانية وأبطل الخطبة للعز لدين الله وأعد خطبة المطيع لله ولبس السواد وعاد الى داره فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالا شديدا وصبر أهل دمشق ثم اقتربوا آخر النهار فلما كان الغد تراخف الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما وكثرت القتلى من الجانبين ودام القتال فعاد عسكر دمشق منهزمين والشريف ابن أبي يعلى مقيم على باب البلد بحرض الناس على القتال وبأمرهم بالصبر وواصل المغاربة الحلات على الدماشقة حتى ألجؤهم الى باب البلد ووصل المغاربة الى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا فلما رأى ابن أبي يعلى الهاشمي والاحداث ما لقي الناس من المغاربة خرجوا من البلد ليلا فأصبح الناس حيارى فدخل الشريف الجعفرى وكان قد خرج من البلد الى جعفر

ابن فلاح في الصلح فاعاده وأمره بتسكين الناس وتطبيب قلوبهم ووعدهم الجليل ففعل ما أمره
وتقدم الى الجند والعامه بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها الى أن يدخل جعفر بن فلاح
البلد ويطوف فيه ويعود الى عسكره ففعلوا ذلك قال فلما دخلت المغاربة البلد عاثوا فيه
ونهبوا فطرا منه فثار الناس وجلوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوا منهم جماعة وشرعوا
في تحصين البلد وحفر الخنادق وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس في الحفظ وأجمعت
المغاربة عنهم ومشى الناس الى الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى فطلبوا منه أن يسعى فيما
يعود بصلاح الحال ففعل ودبر الحال الى أن تقرر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من
ذي الحجة سنة تسع وخسين وثلثمائة وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت
الحرب * وأدخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلى مع الناس وسكنهم
وطيب قلوبهم وقبض على جماعة من الاحداث في المحرم سنة ستين وثلثمائة وقبض على
الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى الهاشمي المذكور وسيره الى مصر واستقر أمر دمشق للمعز
لدين الله اه * وجاء الخبر بما وقع بدمشق من القتل والنهب الى الحسين بن أحمد بن بهرام
القرمطي صاحب القرامطة وأن ابن فلاح ملك البلد وقتل ابن طغج فاهمه هذا الخبر وأقلقه
هو وأصحابه وأزعجهم جدا وذلك لانه كان قد تقرر بينهم وبين ابن طغج أن يحمل اليهم ابن
طغج المذكور ثلثمائة ألف دينار نقرة في كل سنة فلما ملك ابن فلاح الشام علموا أن المال
يفوتهم فعزموا على قصد الشام وأرسل صاحبهم الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطي الى عز
الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابته الى ذلك فساروا الى دمشق في ذي
القعدة من السنة في عدة عظيمة وبلغ خبرهم الى جعفر بن فلاح فاستهان بهم ولم يحترز منهم
فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه ونهبوا أمواله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق
وأمنوا أهلها وساروا الى الرملة فاستولوا على جميع ما بينها وبين دمشق فلما سمع من بها من
المغاربة خبرهم ساروا عنها الى يافا فتحصنوا بها وملك القرامطة الرملة وساروا الى مصر وتركوا
على يافا من يحصرها فلما وصلوا الى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب والجنود
والاخشيديين والكافورية فاجتمعوا بعين شمس واجتمع عسكر جوهر القائد وخرجوا اليهم
فاقتتلوا غير مرة كان الظفر في كل وقعة للقرامطة وحصروا المغاربة حصرا شديدا وخرج
المغاربة يوما من مصر وجلوا على مينة القرامطة فانهمز من بها من العرب وتلك اللوم
وقصدوا سواد القرامطة فنهبوه فاضطروا الى الرحيل وعادوا الى الشام فنزلوا الى الرملة
وحاصروا يافا وضيقوا على من بها فسير جوهر من مصر نجدة الى أصحابه بيافا ومعهم ميرة
في خمسة عشر مركبا فخرجت مركب القرامطة عليها فأسروا مركب جوهر كلها ولم
يخرج منها غير مركبين فغنمهما الروم ثم كان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر في محله
ولما وصل البشير الى المعز لدين الله وبشره بفتح الديار المصرية واقامة الدعوة له بها وطلبه
اليها فرح لا يوصف وسار من افر بقية يريد الديار المصرية فكان أول مسيره أوخرشوال

من السنة أى سنة احدى وستين وكان أول رحيله من المنصورية فأقام بسردانية وهي قرية قريبة من القيروان ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك حتى ان الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وجعل كل طاحونتين على جبل وسار عن سردانية بعد مقام أربعة أشهر الى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه ثم رحل عنها الى مصر ونزل على بركة ومعه محمد بن هاني الشاعر الاندلسي وكان عند ما خرج المعز من القيروان يريد مصر مدحه ابن هاني المذكور بقصيدة طويلة مطلعها

تقول بنو العباس هل فتحت مصر * فقل لبني العباس قد قضى الامر

فأصبحوا وقد رأوا ابن هاني المذكور ملقى على جانب البحر قتيلا ولم يدروا من قتله وكان قتله أواخر رجب من سنة اثنيتين وستين وثلثمائة وكان من الشعراء المجيدين قال أهل الانتقاد ولكنه غالى في مدح المعز حتى كفره العلماء فن ذلك قوله

ماشتت لاما شاعت الاقدار * فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله * وإطالما زاجت تحت ركابه جبريلا * قال صاحب السكامل ومن ذلك ما ينسب اليه ولم أجدها في ديوانه قوله

حصل برقادة المسبح * حل بها آدم وفوح

حل بها الله ذو المعالي * فكل شئ سواء ريح

ورقادة اسم مدينة بالقرب من القيروان الى غير ذلك قال وقد تأول ذلك من يتعصب له والله أعلم اه ووصل المعز لدين الله الى الاسكندرية أواخر شعبان من السنة وأناه أهل مصر وأعابانها فلقبهم وأكرمهم وأحسن اليهم وخطب بالاسكندرية خطبة بليغة وكان ممن سار للفائه قاضي مصر أبو طاهر الذهلي فجلس الى جنبه فسأله المعز هل رأيت خليفة أفضل مني فقال لم أر أحدا من الخلائق سوى أمير المؤمنين فقال له أعجبت قال نعم قال وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وقبر أبي بكر وعمر قال القاضي فتخبرت ماذا أقول ثم تطرت فاذا ابنه قائم مع كبار الامراء فقلت شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد ونهضت اليه وسلمت عليه فأفصح المجلس الى غیری * وسار من الاسكندرية الى مصر فدخلها خامس رمضان سنة اثنيتين وستين وثلثمائة وأنزل عساكره مصر والقاهرة في الديار وبقي كثير منهم في الخيام ونزل هو بالقصرين فكانت أول حكومة انتهت اليه أن امرأة لسكافور الاخشيدي تقدمت اليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلا من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوجا بالذهب وأنه يجد ذلك فاستحضره وقرره فأسكر اليهودي فأمر أن يفتش فوجدوا القباء قد جعله في جرة ودفنها في الارض قد دفعه المعز اليها فتقدمت اليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها فاستحسن منه الحاضرون ذلك وامتدت مملكة المعز لدين الله من حلب الى بلاد المغرب الى مكة كما كانت دولة الخلفاء العباسيين في أيامه ممتدة أيضا من بغداد وسائر الممالك الشرقية الى العراق وأعمالها

ولما كان أصحاب التاريخ على اختلاف في أصل نسب هذه العائلة أعنى بها الفاطمية وقد
أكثروا القول في ذلك وأطالوا الكلام واحتج كل فريق بحجة واستمسك بشئ من الأدلة على صحة
دعواه ولم تكن لتقطع أيضا إلى هذا الحين الخلافة من العباسيين وكان القائم بأمرها أمير
المؤمنين الخليفة العباسي المطيع لله أبو الفضل ابن الخليفة المقتدر يدعونه على المنابر في بغداد
وسائر الممالك الشرقية والعراقين وأعمالها وقد ورد في حديث صاحب الشريعة الإسلامية
النهي عن التعدد في الأئمة قوله ﷺ إذا بويع لخليفةين فاقتلوا أحدهما ﷺ وكانت خلافة
الفاطميين لم تظهر لانقراض الخلفاء العباسيين ولانفقدان صلاحيتهم لحاية البيضة الإسلامية
ولا تعطيل وقع في الأحكام الشرعية المتعلقة بالامامة بل كان ظهورها بظهور جوهر الزوي
قائد المعز المغربي المذكور وتغلبه على ديار مصر بعد موت كافور الاخشيدي واختلاف كلمة
أهل البلاد يومئذ فضلا عما قد كان أصابهم من الغلاء والقحط والوباء الشديد الذي لم يبق ولم يذر
فلذلك رأيت أن لا أتحوّل عن تتبع سني الخلافة العباسية بذكر مدة كل خليفة وما وقع فيها
من الحوادث وجعلها مبدءا كل مدة حتى تنقطع تماما اما بقيام من هو أحق بالخلافة وأولى
بالامامة وهذا بعيد لاسبيل اليه بعد انقراض العباسيين كما قاله المحققون من أهل السنة واما
بتقلب من هو أصح لحاية البيضة الإسلامية وأقدر على تنفيذ الأحكام الشرعية المتعلقة
بالامامة وهذا ليس بعيدا إذا كان المراد من الامامة في عرف المتأخرين اختيار الأصلح للامة
كما فعل جهور المهاجرين السابقين من العقبات الثلاث وأصحاب الهجرتين والقبيلتين وأهل بدر
وبينهم عمر بن الخطاب من اختيارهم لابي بكر الصديق ومبايعته بالخلافة دون سعد بن عباد
سيد قبيلة الاوس الذي اختاره الانصار والخزرجيون من الانصار ودون علي بن أبي طالب
ابن عم صاحب الشريعة وزوج ابنته فاطمة الزهراء وحينئذ نرجع في التاريخ اليه وتتبع
في ذكر الحوادث سني خلافته وهكذا من يأتي بعده من الخلفاء الى ما شاء الله * وأما المعز
لدين الله بن المهدي عبيد الله المغربي رأس هؤلاء الفاطميين بديار مصر فقد حسبناه في
عداد من ملك قبله من الملوك لفتحها على يد جوهر قائد جيوشه وكذلك من يقوم بعده
من ولده الى أن يورثها الله من يشاء من عباده ولذلك فاني ذاكر هنا حوادث أيامهم واحدا
فواحدا في قلب مدة كل خليفة من الخلفاء العباسيين كن سبقهم من النواب والملوك الى أيام
كافور الاخشيدي حتى لا يلتبس الامر على القارئ بتعدد الخلفاء فيقوته الغرض والله الهادي
الى الصواب

(الفصل الرابع والعشرون)

(في خلافة أبي بكر بن عبد الكريم الطائع لله)

ثم قام بالامر بعد المطيع ولده عبد الكريم أبو بكر الطائع لله ببيع له بالخلافة يوم خلع أبوه نفسه من الخلافة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ سبع وأربعون سنة فلم يل الخلافة من بنى العباس من هو أكبر منه سناً * قال صاحب رأس مال النديم * ولم يتقلد الخلافة من أبوه حتى سوى الطائع لله والصديق رضى الله عنه وكلاهما اسمه أبو بكر اه تولى الخلافة وليس له منها سوى الاسم فقط كن تقدم من العباسيين والامر يومئذ لابن بويه وغيره من الأتراك وكان ابن بويه هذا واسع الهيبة على الكلمة لم يبق للخليفة الطائع من مراسم الخلافة وأبهرها شيئاً إلا وحاربه لنفسه فكان الخليفة يخافه جداً ويتحز من قربه الى بغداد ويعمل فى السر على اعلاء كلمة بختيار وتجبب الجند اليه وتزوج بانه بختيار لتعظم بذلك شوكته وتكبر هيئته فاحس عضد الدولة بن بويه بما وراء ذلك وكتب الى عز الدولة بختيار المذكور يدعوه الى طاعته وأن يسير عن العراق الى أى جهة أرادها وكان بختيار يومئذ على العراق فاستشار بختيار أصحابه فى ذلك فاختلفوا عليه فكتب الى عضد الدولة بالاجابة الى ما يطلب وانما يريد المساعدة بما يحتاج اليه من مال وسلاح فاجابه عضد الدولة الى ذلك وأنفذ اليه خلعة وتجهز بختيار بما أنفذه اليه عضد الدولة وخرج من بغداد عازماً على قصد الشام وسار عضد الدولة فدخل بغداد وخطب له بها * قال أصحاب التاريخ ولم يكن قبل ذلك يخطب لاحد بها وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر أن يلقي الوزير أبو طاهر بن ببيعة وزير عز الدولة بختيار بين قوائم الفيلة لثقلته وكان قد طلبه من عز الدولة قبل جلائه عن بغداد فسلمه اليه بعد أن قلع عينيه فداسته الفيلة حتى قتلتته ثم صلب على رأس الجسر فرأه أبو الحسين بن الانبارى بمرثية لم يسمع فى مصلوب مثلهما وهى

علو فى الحياة وفى الممات * لحق أنت احدى المعجزات
كان الناس حولك حين قاموا * وفود نذاك أيام الصلوات
كأنك قائم فيهم خطيباً * وكلهم قيام للصلاة
مددت يدك نحوهم اقتفاء * كدهما اليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الارض عن أن * يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجوق بك واستعاضوا * عن الاكفان نوب الساقيات

لعظمك في النفوس بقيت ترى * بحراس وحفاظ ثقات
 وتوقد حولك النيران قوم * كذلك كنت أيام الحياة
 ركبت مطية من قبل زيد * علاها في السفين الماضيات
 وتلك قضية فيها تأس * تعاود عنك تعبير العداة
 ولم أر قبل جذعك قط جذعا * تمكن من عناق المكرمات
 أسأت الى النوائب فاستثارت * فأنت قتييل ثار النائبات
 وكنت تحيرنا من صرف دهر * فعاد مطالبك بالثرات
 وصير دهرك الاحسان فيه * البنا من عظيم السيآت
 وكنت لمعشر سعدا فلما * مضيت نفرقوا بالمنحسات
 غليل باطنك في فؤادي * حقيق بالدموع الجاريات
 ولو أني قدرت على قيام * بفرضك والحقوق الواجبات
 ملأت الارض من نظم القوافي * ونحت بها خلاف النائحات
 ولكني أصبر عنك نفسي * مخافة أن أعد من الجناة
 ومالك تربة فأقول تسقي * لانك نصب هطل الهاطلات
 عليك تحية الرجن تترى * برجات غواد دائمت

قوله زيد علاها في البيت التاسع يعني زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما قتل وصلب بأمر هشام بن عبد الملك بن مروان * وبقي ابن بقية المذكور مصلوبا الى أيام صمصام الدولة فأنزل ودفن وسار بختيار يريد الشام ليأخذها مقرا له وسار معه ابن ناصر الدولة بن حمدان أخو أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل فلما صار عن معهما بعكرا حسن ابن حمدان الى بختيار المسير الى الموصل لكثرة أموالها وأطمعه فيها وقال انها خير من الشام وأسهل مأخذا فقال بختيار الى ذلك وسار نحوها فلما وصل الى تكريت أتته رسل أبي تغلب تسأله المصالحة وأن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه اليه واذا فعل سار بنفسه مع عساكره اليه وقا تل معه عضد الدولة وأعاد بغداد الى ملكه فأجابهم بختيار الى ذلك وقبض على ابن حمدان وسلمه الى رسل أبي تغلب فحبسه في قلعة وسار بختيار الى الموصل والتقى بأبي تغلب وساروا جميعا نحو العراق وكانت جند أبي تغلب زهاء العشرين ألفا فلما جاء الخبر بذلك الى عضد الدولة قام من بغداد في جيش عظيم وسار نحوهما فالتقوا بفصر الحصن على مقربة من تكريت واقتتلوا قتالا عنيفا فهزمهما شر هزيمة وأسرى بختيار وأحضر عنده وقتل من أصحابه خلق كثير واستقر ملك عضد الدولة بعد ذلك ببغداد ثم سار الى الموصل فملكها وملك ما يليها فهرب أبو تغلب ومعه نساؤه وأولاد بختيار فسير عضد الدولة الجند في طلبه فلم يدر كوه وصار ينقل من بلد الى بلد والجند في أثره حتى أعياهم القبض عليه ثم سار الى دمشق ومعه نساؤه يريد النزول عند العزيز صاحب مصر فلم يملكه

عامل دمشق من الدخول فوقعت بينه وبين أصحاب العزيز وقائع كثيرة انكشفت عن
هزيمته وأسروه فقطعوا رأسه وبعثوا به الى العزيز بمصر فشهروه

وصفت الأمور لعضد الدولة فعمد الى عمارة بغداد وكانت قد تخربت بتوالي الفتن فرم
مساجدها وأسواقها وأدبر الاموال على الأئمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون
الى المساجد وألزم أصحاب الدور الخراب بعمارتها ووجد مادثر من الأنهار وأعاد حفرها وأطلق
مكوس الججاج وأصلح الطريق من العراق الى مكة وأطلق الصلات لاهل البيوتات والشرف
والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة واطمأنت قلوب الناس بعد تراكم الفتن وتوالي الحن
وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسائيين
والاطباء والحساب والمهندسين وأذن لوزيريه نصر بن هارون وكان نصرانيا يبنيا الديار
وعمارة البيع واطلاق الاموال للفقراء من النصارى فأجبه الناس ومالوا اليه كثيرا وانسعت
شهرته وعظم ملكه فكان له العراق وكرمان وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحوار
وصيغ وهو أول من سمي ملكا في الاسلام ومال اليه الخليفة الطائع كرها وتزوج ابنته
وكان غرض عضد الدولة من تزويج ابنته للطائع أن تلد له ذكرا فيجعل له ولي عهده فنسكون
الخلافة في ولد لهم فيه نسب وكان الصداق مائة ألف دينار فزفت اليه ومعها من الجواهر
والخلى شئ لا يخصى وما زال عضد الدولة يتصرف في الأمور ويفتح الفتوحات العظيمة ويغزو
ويقاتل كل من خالفه حتى وافته منيته في شوال سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة وكان به
الصرع مات ببغداد وحمل الى مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فدفن به وكانت ولادته
ببغداد خمس سنين ونصفا قبل ولما احتضر جعل يقول ما أغنى عنى ماليه هلك عنى
سلطانيه ولم ينطق لسانه بغير هذه الآيات * وما يحكى عنه أنه خرج يوما الى بستان له
متنزها فقال ما أطيب يومنا هذا لو ساعدنا فيه الغيث فجاء المطر في الوقت فأنشد يقول

ليس شرب الراح الا في المطر * وغناء من جوار في السحر
ناعمت سـالبات للنهى * ناعمت في تضاعيف الوتر
بارزات الكاس من مطلعها * ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها * ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغية * في ملوك الأرض ما دار القدر
وأراه الخبير في أولاده * ليساس الملك منهم بالغرر

فيل فلم يفلح بعد هذه الابيات وعوجل بقوله غلاب القدر * فلما مات قام بالامر بعده
ولده الأمير صمصام الدولة فخلع عليه الخليفة الطائع لله وقلمه ما كان بيد أبيه ولم تستقر به
الولاية حتى قام عليه أخوه شرف الدولة وقبض عليه واعتقله وأحاط بدوره وأمواله ببغداد
وجعل هو يتصرف في الأمور حتى اعتل وانقطع عن الناس فأشار عليه بخير الخادم بقتل

أخيه صمصام الدولة فكان يعرض عن كلامه فلما اشتدت علته ألح عليه فحرر وقال له ان الدولة معه على خطر فان لم تقبله فاسمه فأرسل في ذلك محمد الشيرازي الفراهي فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفراهي الى حيث صمصام الدولة فتأخر الفراهي عن عمله واستشار أبا القاسم العللاء بن الحسن الناطر في ذلك فأشار عليه بسمه فسمه فكان صمصام الدولة يقول ما أعماني الا العللاء لانه أمضى في حكم سلطان قد مات

وتوفي شرف الدولة مستهل جمادى الآخرة وحمل الى مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فدفن به فكانت امارته سنتين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان قد سير ولده أبا علي الى بلاد فارس وأصحابه بالخرائن والعدد والعسكر الكثير من الأتراك فلما اشتدت علته وأيس أصحابه منه دخل عليه كبارهم يسألونه أن يولي أحدا فقال أنا في شغل عما تدعوني اليه فقالوا له من أهلك بهاء الدولة أبا نصر أن ينوب عنك الى أن تعافي لئلا تمور فتنة فقال لكم ذلك فاستدعى أخاه وكله في ذلك فتوقف بهاء الدولة وامتنع عن قبول الوكالة ثم أجاب فلما مات شرف الدولة جلس بهاء الدولة في المملكة وقعد الغزاء وركب الطائع لله الخليفة الى الغزاء فتلقاء بهاء الدولة وقبل الارض بين يديه فخلع عليه الطائع خلع السلطنة وجعل يتصرف في الامور فكان قليل الحظ سيئ الطالع كثير شغب الجند عليه وقتل بعضهم لبعض وطلبهم للجماكي والمرتبات وما زالت الاحوال في اختلال والجند في تمرد وخروج حتى كانت سنة احدى وثمانين وثلثمائة هجرية فعظم شغب الجند عليه وظهرت الفتنة وطالبوه بالجماكي وقد قلت عنده الأموال فقبض على وزيره سابور واستصنى ماله فلم يغن عنه ذلك شيئا وكان أبو الحسين المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم في مملكته فحسن له القبض على الخليفة الطائع لله وأطعمه في ماله وهون عليه ذلك فقال بهاء الدولة الى ذلك وأرسل الى الطائع وسأله الاذن في الحضور في خدمته ليجدد العهد به فأذن له بذلك وجلس له على عادة الخلفاء فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما دخل قبل الأرض وجلس على كرسي فدخل بعض الديلم كأنه يريد يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا اليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت اليه وأخذوه وأخذوا ما في داره من الذخائر وشاع خبر القبض عليه فافتتن الناس ونهب بعضهم بعضا وكان من جلته الشريف الرضي فبادر بالخروج فسلم وقال أبياننا من جلته

من بعد ما كان رب الملك مبتسما * الى أدنوه في النجوى ويدني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه * لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني * يا قرب ما عاد بالضراء يبكي
هيات أغتر بالسلطان ثانية * قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما وصلوا بالطائع الى دار بهاء الدولة عقد لحضوره مجلسا وأشهد عليه بالخلع فخلع

كارها فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام وكان أبيض مربوعا حسن
 الجسم وكان أنفه كبيرا جدا وكان شديد القوة كثير الاقدام
 وامتدت أيام المعز لدين الله العلوي الى خلافة الطائع لله فلما دانت له الامور وتمت
 عليه نعمة الله تحرك القرامطة وناقت نفس مقدمهم حسن بن أحمد الى غزو ديار مصر
 واستخلاصها من المعز لدين الله فسار في سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية من الاحساء في
 جوع كثيرة الى ديار مصر فخصرها ووردت الاخبار بذلك الى المعز فأكبر هذا الامر وأعظمه
 جدا وكتب الى حسن بن أحمد القرمطي كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة
 واحدة وأن القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى آباءه من قبله ووعظه وبالغ في تهديده
 فلما وصل كتاب المعز الى حسن بن أحمد كتب جوابه * وصل كتابك الذي قل تفصيله وكثر
 تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام * وسار حتى نزل على عين شمس بعسكره
 وأنشب القتال وبث السرايا في البلاد ينهبونها فكثرت لذلك جوعه وجاءه من طوائف
 العربان خلق كثير * قال صاحب الكامل وكان ممن أتاه حسن بن الجراح الطائي أمير العرب
 بالشام ومعه جمع عظيم فلما رأى المعز كيرة جوعه استعظم ذلك وأهمه وتخير في أمره ولم
 يقدم على اخراج عسكره لقتاله فاستشار أهل الرأي من نصحاء فقالوا ليس حيلة غير السبي
 في تفريق كلمتهم والقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك الا بآبى الجراح فراسله المعز واستماله وبذل
 له مائة ألف دينار ان هو خالف على القرمطي فأجابه ابن الجراح الى ما طلب منه فاستخلفوه
 خفاف انه اذا وصل اليه المال المقرر انهم بالناس فاحضروا المال قال فلما رأوه استكثروه
 فضربوا أكثرها دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها في أسافل الاكياس وجعلوا الذهب
 الخالص على رؤسها وحمل اليه فأرسل الى المعز أن يخرج في عسكره يوم كذا ويقا تلونه وهو
 في الجهة الفلانية فانه ينهزم ففعل المعز ذلك فانهمز وتبعه العرب كافة فلما رآه الحسن
 القرمطي منهزما تخير في أمره وثبت وقال بعسكره الا أن عسكر المعز طمعوا فيه وتابعوه
 بالجلات عليه من كل جانب فارهقوه فولى منهزما واتبعوا أثره ونظفروا بعسكره فأخذوا من
 فيه أسرى وكانوا نحو ألف وخمسمائة أسير فضربت أعناقهم ونهب ما في المعسكر ووجد
 المعز القائد أبا محمد ابراهيم بن جعفر في عشرة آلاف رجل وأمره باتباع القرامطة والابقاع
 بهم فأتبعهم وتشاغل في سيره خوفا أن ترجع القرامطة اليه قال وأما هم فانهم ساروا حتى نزلوا
 أذرعات وساروا منها الى بلدتهم الاحساء ويظهرون أنهم يعودون اه وما زال القائد أبو محمد
 ابراهيم بن جعفر سائرا بمن معه من العسكر حتى دخل دمشق وكان المعز ولي القائد ظالم
 ابن موهوب العقيلي عليها قبل وصول أبي محمد اليها بقليل فخرج ظالم للقاء أبي محمد مسرورا
 بقدومه لانه كان مستشعرا من عود القرامطة اليه وطلب منه أن ينزل بعسكره بظاهر
 دمشق فنزل ولم يستقر به المقام حتى تطاولت أيدي أصحابه بالعبث والفساد وقطع الطريق
 فاضطرب الناس وكادوا يفتنمون واتفق أن صاحب الشرطة أخذ اناسا من أهل البلد

فقتله فثار به الغوغاء والاحداث وخرجوا عليه وقتلوا أصحابه وكادت الفتنة تم البلاد فبعل ظالم يدارى الناس ويهتون عليهم وانصل عبث أصحاب أبي محمد بالقرى فنزح أهلها وفارقوها ودخلوا البلد وهم يضحكون من جور المغاربة فلما كان منتصف شوال من السنة قامت الفتنة بين أهل دمشق والمغاربة عسكر المعز وعظمت وجرى بين القريتين قتال شديد ودام الحال على ذلك من القتل والنهب وحرق الدور وتخريب القرى الى ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلاثمائة الى أن جاء مرسوم المعز لدين الله الى أبي محمد بالعزل والتخلي عن قيادة من كان معه من الجند فاعتزل المنصب وورد مرسوم المعز الى القائد ريان الخادم والى طرابلس بأمره بالمسير الى دمشق لمشاهدة حالها وكشف أمور أهلها بعهد الذي ذاقوه من هذه الحروب والحن وأن يصرف القائد أبا محمود عنها فسار ريان الى دمشق وكشف الامر فيها وكتب به الى المعز وتقدم الى القائد أبي محمود بالانصراف فسار في جماعة قليلة من العسكر الى الرملة وبقي الامر كذلك الى أن ظهر الفتكين أبو منصور التركي بظاهر دمشق يريد غزوها وأخذها من المعز لدين الله والفتكين هذا من موالى معز الدولة بن بويه قد كان خرج على مولاة بختيار بن معز الدولة وعضاه وقاتل مولاة بختيار فهزمه بختيار ومزق جوعه فهرب في جماعة قليلة من أصحابه وكلهم أهل نجدة وقوة ودوخ بعض مدن الشام وما زال وقد هابه العرب وتخوفوا منه حتى نزل على دمشق يريد غزوها وكان نزوله عليها في إبان ظهور الفتنة وتغلب الاحداث عليها حتى لم يبق للاعبان معهم حكم ولا لاسطان عليهم طاعة فلما وافاها خرج اليه أشرافها وشيوخها وأظهروا له الفرح بقدمه وسألوه أن ينزل عندهم ويملك بلدهم ويزيل عنهم سمة المصريين فأجابهم الى ذلك واستخلفهم على الطاعة والمساعدة وحلف لهم على الحماية وكف الاذى عنهم ومن غيره ثم دخل البلد بمن معه من الجند وأزال عنه ريان عامل المعز لدين الله وقطع خطبة المعز وخطب للخليفة الطائع لله وقع أهل العسف والفساد فهابه الناس وخافوه جدا وكانت العرب قد استولت على سواد البلد وما يتصل به فأوقع بهم وقتل كثيرا منهم فأذعنوا له وقد ظهرت لهم شجاعته وعزة نفسه وكتب الى المعز لدين الله يداريه ويظهر له الطاعة فدحه المعز وأرسل يستقدمه عنده ليخلع عليه ويوليه من جانبه فتخوف الفتكين من ذلك وامتنع من المسير فتجهز المعز وجمع العساكر لقصده فلم يتم له ذلك حيث وافته منيته وهو على قدم المسير فمات في سابع عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة وله من العمر خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريبا * قال صاحب الكامل وكان سبب موته أن ملك الروم بالقسطنطينية أرسل اليه رسولا كان يتردد اليه بأفريقية فخلا به بعض الايام فقال له المعز أتذكر إذ أتيتني رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها قال نعم قال وأنا أقول لك لتدخلن علي ببغداد وأنا خليفة فقال له الرسول ان أمتني على نفسي ولم تغضب قلت لك ما عندي فقال له المعز قل وأنت آمن قال بعثني اليك الملك ذلك العام

فرأيت من عظمتك في عيني وكثرة أوصيائك ما كدت أموت منه ووصلت الى قصرك فرأيت
 عليه نورا عظيما غطي بصري ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقا فلو قلت
 لي انك تعرج الى السماء لتحقق ذلك ثم جئت اليك الآن فما رأيت من ذلك شيئا أشرفت
 على مدينتك فكانت في عيني سوداء مظلمة ثم دخلت عليك فما وجدت من المهابة ما وجدته
 ذلك العام فقلت ان ذلك كان أمرا مقبلا وانه الآن بضد ما كان عليه قال فأطرق المعز
 وخرج الرسول من عنده وأخذت المعز الحى لشدة ما وجد واصل مرضه حتى مات فكانت
 ولايته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام منها مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهر
 والباقي بأفريقية وهو رأس العائلة الفاطمية بديار مصر وكان شهما حازما مغريا بالنجوم لا
 يعمل الا بأقوال المنجمين قال له منجمه ان عليه قطعا في وقت كذا وأشار عليه بعمل سرداب
 يخفى فيه الى أن يجوز ذلك الوقت ففعل ما أمره وأحضر قواده وبكار دولته فقال لهم ان
 بيني وبين الله عهدا أنا ماض اليه وقد استخلفت عليكم ولدي نزارا يعني العزيز فاسمعوا له
 وأطيعوا ثم نزل السرداب فكان أحد المغاربة اذا رأى سميا نزل عن دابته وأوما بالسلام
 اليه ظنا منه أن المعز فيه فغاب سنة ثم ظهر وبقي مدة ثم مرض وتوفي فستر ابنه العزيز
 خبر موته الى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزى بابيه
 وكان المعز عالما فاضلا جوادا شجاعا حسن التدبير عهد في أيامه الى يعقوب بن
 يوسف بن كاس خراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى
 ذلك من سائر الاعمال وقد كان يعقوب هذا يهوديا من بغداد جاء الى مصر في أيام كافور
 الاخشيدى وأسلم بها فعرفه كافور وقربه من مجلسه وولاه بعض المناصب العالية فظهرت
 كلمته وانتسعت شهرته وما زال الى أن دخل جوهر مصر فعرف يعقوب المذكور وأقره على ما
 بيده من الاعمال حتى قلده المعز الخراج وضم اليه عساوج بن الحسن وكتب لهما المعز سجلا
 بذلك فجلسا في جامع ابن طولون واتخذاه دارا للامارة والنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال
 فحضر الناس للقبالات وطالبا بالبقايا من الاموال على المنتقلين أي الملتزمين والمالكين والعمال
 واستقصيا الطلب وتطرا في النظام فكثرت موارد الاموال وزيد في الضياع وكثر الناس
 وتكاثفوا وحسنت أحوال البلاد ودرت الارزاق وعم الاخذ والعطاء سائر البلاد وبقي
 يعقوب على هذا الحال من النقض والابرام في أمور السلطنة حتى مات المعز * يحكى عن
 المعز أنه لما كان قادما الى ديار مصر وخرج الناس للقاءه اجتمع به أناس من الاشراف وفيهم
 عبدالله بن طباطبا فتقدم اليه وقال الى من ينتسب مولانا فقال سنعقد مجلسا نجتمع فيه
 ونسرد عليكم نسبنا ان شاء الله فلما استقر بالمعز المقام في قصره بالقاهرة جمع الناس في مجلس
 عام وجلس بهم وقال هل بقي من رؤسائكم أحد قالوا لم يبق معتبر فسل نصف سيفه وقال
 هذا نسبي * وبدر عليهم شيئا كثيرا من الذهب وقال وهذا حسبي * فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا
 ويقال انه كان شاعرا ومن شعره هذه الايات

لله ماصـنعت بنا * تلك المهاجر بالمعابر
أَمْضَى وَأَقْضَى فِي النَفْسِ * س من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت بينكم * تعب المهاجر في الهواجر

ولما استقر بالعزیز الملك بعد أبيه المعز أطاعه العسكر واجتمعوا عند كلمته وكان هو يدبر
الامور منذ مات أبوه الى أن أظهر خبر موته وأقر ابن كاس على ما بيده وفوض اليه النظر في
سائر الامور وبالح في اطلاق يده فعلت كلمة ابن كاس فأحكم نظام المملكة ورتب الدواوين
وجعل منها ماهو للاموال والخراج والمستغلات ومنها ماهو للجيش والانشاء والسجلات وجعل
فيها الكتاب ورؤساء الكتاب والامناء وكان يجلس للنظر بنفسه في الظلمات ويخاطب الخصوم
ويوقع على الرقاع وما زال على هذا الحال من بسط الكلمة والتصرف في سائر الامور حتى
مات في سنة ثمانين وثلثمائة هجرية * وعاد الفتكين الى الظهور في أيام العزیز ووالى الهجمات
على سائر الشمامات التابعة لدار مصر فاهتم العزیز لذلك وسير جوهر القائد في جيش عظيم
لقتال الفتكين ووردت الاخبار بذلك الى الفتكين فتحصن في دمشق وملاها بالمؤن والذخيرة
وزحف عليه جوهر بعسكره ونزل بظاهر دمشق وبنى على معسكره سورا وحفر خندقا عظيما
فقاتله الفتكين بن معه من الرجال وألح في قتاله فكانت بينهم سجالا وما زال جوهر يوالى
الهجمات على حصون البلاد حتى قُلت الاقوات في البلاد واختل أمر الفتكين وكاد يسقط في
يده ثم عاد فتقوى وجاء الخبر الى جوهر القائد بخروج القرمطي أحمد وزحفه الى دمشق
فخاف جوهر وقد كانت أمواله قُلت وهلك أكثر جنوده ودوابه فراسل الفتكين في طلب الصلح
على شروط معلومة فأجابته الفتكين اليها فرحل جوهر عن دمشق يريد القاهرة فلحقه القرمطي
بن معه وجعل يتخطف مؤخرة عسكر جوهر حتى دخل جوهر الرملة فأرسل القرمطي بسرية
فاقتلت مع جوهر في واقعة كبيرة قتل فيها جماعة من الفريقين وفر جوهر الى عسقلان
فلحقه الفتكين أيضا في عسكر وحاصر عسقلان فسير جوهر الى العزیز في طلب النجدة وأرسل
الى الفتكين في طلب الصلح وأن تقرر قاعدته على مال يحمله اليه وأن يخرج من تحت سيفه
فأجابته الفتكين الى ذلك وعلق سيفه على باب عسقلان فخرج جوهر ومن معه من تحته وساروا
الى القاهرة فوجدوا العزیز قد برز في عسكر عظيم يريد المسير لقتال الفتكين فساروا معه
حتى التقى الجمعان واشتبك القتال فلم تكن غير ساعة حتى انهزم جيش الفتكين وانتصر
العزیز نصرة عظيمة فطلب الفتكين فاذا هو قد فر على فرس فقبض عليه أحد العرب وجاء
به الى العزیز وعصامته في عنقه فأمر به فطيف به على العساكر على جمل فجعل العسكر
يلطمونه ويهزون لحيتـه * وسار بالفتكين وجميع الاسرى يريد القاهرة فدخلها في أهنة
وتجمل زائد والغنائم أمامه والاسرى خلفه ثم رق الى الفتكين فاستخدمه ومن معه وأحسن
اليه غاية الاحسان وأنزله في دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال الفتكين يوما لقد احتشمت
من ركوبى مع مولانا العزیز بالله وتطرفى اليه بما غمرنى من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزیز

قال لعمري حيدر ياعم والله اني أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى وما زال الفتكين يتقلب في نعم العزيز حتى مات في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة هجرية وعظمت دولة العزيز بالله وكبر سلطانه فقلت الفتن في أيامه الا ما كان منها ضد النصارى ودرت الارزاق وهبطت الاسعار وعم الاخذ والعطاء سائر البلاد وما زال ينصرف مع هيبة ووفار حتى وافته منيته في خلافة القادر بالله أبي العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر كما سيذكر في محله

ومات في أيام الخليفة الطائع لله مكاريوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة قام في خلالها المسلمون في بيت المقدس على كنيسة القيامة فأحرقوها ونهبوا ما فيها وأخذوا منها ما قدروا عليه حتى لم يبق فيها شيء يذكر ثم اشتد مسلمو مصر على من بها من القبط أهل البلاد شدة بالغة فنهبوا أكثر دورهم وخربوا عدة كثيرة من منازلهم وضيقوا عليهم وطالت أيام هذه الشدة حتى كادت نعم سائر البلاد ثم زالت فأقام المناضلون بعد موت مكاريوس المذكور ناوفايوس وهو ستموهم وأصله من مدينة الاسكندرية وكان عالما تقيا محبا للخير ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الخامس والعشرون)

(في خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله بن اسحق)

ثم قام بالامر بعد الطائع لله أبو العباس أحمد القادر بالله بن اسحق بن المعتضد بوليح له بالخلافة ليلة خلع الطائع لله سنة احدى وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة احدى وتسعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة * قال أصحاب التاريخ * لما قبض على الطائع لله واعتقل في دار بهاء الدولة ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة وتكلم مع أصحابه في ذلك فاتفقوا على القادر بالله وهو أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد هذا وكان بعيدا عن دار السلام خوفا من الطائع فأرسل بهاء الدولة في طلبه فشغب جماعة الديلم ببغداد ومنعوه من الخطبة فقبل على المنبر * اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله ولم يذكروا اسمه تسكينا للفتنة فلما وصل الرسل الى حيث القادر بالله دخلوا عليه وهو يحكى مناما رآه تلك الليلة وهو ما حكاها هبة الله بن عيسى كاتب مذهب الدولة * قال كنت أحضر عند القادر بالله كل أسبوع مرتين فكان يكرمى فدخلت عليه يوما فوجدته قد تأهب تأهبا لم تجرب به عادته ولم أر منه ما ألفته من اكرامه واختلفت بي الظنون فسأته عن

سبب ذلك فان كان لزلّة منى اعتسذرت عن نفسى فقال بل رأيت البارحة فى منامى كأن
نهركم هذا نهر الصليق قد اتسع فصار مثل دجلة أضعافا فسرت على حافظه متعجبا منه
ورأيت قنطرة عظيمة فقلت من حدث نفسه يجعل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم
ثم صعدتها وهى محكمة فيينا أنا عليها أنجب منها اذ رأيت شخصا قد تأملنى من ذلك الجانب
فقال أترى أن تعبر فقلت نعم قد يده حتى وصلت الى فأخذنى وأعبرنى فهالنى فعله فقلت من
أنت قال على بن أبى طالب وهذا الامر صائر اليك ويطول عمرك فيه فأحسن الى ولدى
وشيعنى قال المحدث فما انتهى القادر الى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم
وسألنا عن ذلك واذا هم الواردون اليه لاصعاده ليتولى الخلافة فخاطبته باهرة المؤمنين
وبايعته وقام مهذب الدولة بخدمته أحسن قيام وحل اليه من المال وغيره ما يحمله بكار الملوك
للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله الى بغداد فلما وصل الى جبل افسدر بهاء الدولة وأعيان
الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثلثى عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة
والناس وخطب له ثالث عشر رمضان فلم تستقر به الخلافة حتى أعاد لها بهجتها وجمّدت
ناموسها وعظم حرمتها وألقى الله هيئته فى قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين فى رجب سلم بهاء الدولة الطائع لله الى القادر بالله فأجله
وأكرمه وأنزله حجرة من خاص حجره ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته وأحسن
ضيافته فكان الطائع يطلب الزيادة فى الخدمة كما كان أيام الخلافة فكان القادر بالله يأمره
بذلك ويلاطفه * حكى عنه أن القادر بالله أرسل اليه يوما طيبا فقال الطائع من هذا يتطيب
أبو العباس يعنى القادر فقالوا نعم فقال قولوا له عنى فى الموضع الفلانى كندوج فيه مما كنت
أستهله فإرسل الى بعضه ويأخذ الباقي لنفسه ففعل ذلك وأرسل اليه يوما القادر بالله عدسية
فقال ما هذا فقالوا عدس وسلق فقال أوقد أكل أبو العباس من هذا قالوا نعم قال قولوا له
عنى لما أردت أن تأكل عدسية لم اختفيت فما كانت العدسية تعوزك ولم تقلدت هذا الامر
فأمر حينئذ القادر أن تفرد له جارية من طباخانه تطبخ له ما يلمسه كل يوم فأقام على هذا
الى أن توفى * وكاتب القادر بالله الملوك فى ارجاع الخطبة لبني العباس ففعلوا الا القليل جدا
وبايع لولده أبى الفضل بولاية العهد وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم بذلك ولقبه الغالب بالله
قال أصحاب التاريخ وكان سبب البيعة لولده المذكور أنه كان بنصيبين رجل من ولد الوائى
بالله أمير المؤمنين اسمه أبو عبد الله بن عثمان الوائى فجاء أبو عبد الله هذا الى بغداد وأقام بها
أباما ثم سار عنها الى خراسان وعبر النهر الى هرون بن أيلك بقرا خاقان ومعه الفقيه أبو الفضل
التميسى فأكرم هرون وفادتهما فأخبره أبو الفضل أنه رسول من عند الخليفة القادر بالله الى
هرون يأمره بالبيعة الى أبى عبد الله بن عثمان المذكور فانه ولى عهده فأجابه خاقان الى ذلك
وبايعه وخطب له فى بلاده وأنزله منزلا رحبا وجعل ينفق عليه فلما بلغ ذلك القادر بالله
عظم عليه جدا وراسل خاقان فى الامر فلم يلتفت خاقان لقوله ولا صغى لرسالته فلبث القادر

يعطل النفس حتى مات هرون خاقان وولى بعده أحمد قراخاقان فكتب أحمد المذكور في أمر أبي عبد الله بن عثمان وبالحق في الطلب فأجاب أحمد إلى ما طلب وأمر بإبعاد ابن عثمان فبادر القادر بالبيعة لولده أبي الفضل بولاية العهد وجاء ابن عثمان إلى بغداد مستكرا فعرف بها وطلبه القادر فهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان ثم إلى بلاد الترك مستنجدا فلم يتم له ما أراد وراسل الخليفة الملوك بطلبه فضاقت عليه الأرض وسار إلى خوارزم وأقام بها ثم فارقها فأخذه عين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه في قلعة إلى أن مات بها

ومرض القادر بالله وانقطع فأرجف الناس بموته فبلغه ما يتحدث به الناس فجلس لهم جلوسا عاما وأذن للخاصة والعامة فوصلوا إليه فلما اجتمعوا قام صاحب أبو القاسم وقال إن خدام مولانا أمير المؤمنين دأبوا له باطالة البقاء وشاكرون لما شملهم من نظره لهم وللسلمين باختيار الأمير ولده بولاية العهد فقال الخليفة للناس قد أذننا بالعهد له فلما عهد إليه ألقيت الستارة وقعد أبو الفضل على السرير الذي أقاموه له وخدومه الحاضرون وهنؤه ودعى له على المنابر يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة فلما كان شهر ذي الحجة من السنة المذكورة مات أمير المؤمنين القادر بالله وعمره ست وثلاثون سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما وكان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف فيه كتابا على مذهب السنة وكان يخرج من داره في زى العامة ويوزر قبور الصالحين وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق * قال القاضي حسين بن هرون كان بالكرك ملك أي عقار لبيتم وكان له قيمة جيدة فأرسل إلى ابن حاجب النعمان وهو حاجب القادر يأمرني أن أفك عنه الحجر ليشتري بعض أصحابه ذلك الملك فلم أفعل فأرسل يستدعيني فقلت لغلامي تقدمني حتى أحقق وخفته فقصدت قبره معروفا ودعوت الله أن يكفني شره وهناك شيخ فقال لي علي من تدعو فدكرت له ذلك ووصلت إلى ابن حاجب النعمان فأغلظ لي في القول ولم يقبل عذري فأتاه خادم برقعة ففوضها وفرأها فتغير لونه ونزل من الشدة فاعتذر إلى ثم قال كنت إلى الخليفة قصتي فقلت لا وعلمت أن ذلك الشيخ كان الخليفة * قيل وكان يقسم طعامه في كل ليلة لثلاثة أقسام فقسم كان يتركه بين يديه وقسم يرسله إلى جامع الرصافة وقسم يرسله إلى جامع المدينة يفرق على المقيمين فيهما فاتفق أن الفراش حمل ليلة الطعام إلى جامع المدينة ففرقه على الجماعة فأخذوا الشباب فأنه رده فلما صلا المغرب خرج الشاب وتبعه الفراش فوقف على باب فاستطعم فاطمونه كسرات فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش ويحك ألا تستحي ينفذ إليك خليفة الله الطعام حللا فترده وتخرج وتأخذ من الأبواب فقال والله ما رددته إلا لأنك عرضته على قبل المغرب وكنت غير محتاج إليه فلما احتجت طلبت فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك فبكي وقال له راع مثل هذا واغتنم أخذه وأقم إلى وقت الإفطار * وقال أبو الحسن الأبهري أرسلني بهاء

الدولة الى القادر بالله في رسالة فسميعة يتشد

سبق القضاء بكل ما هو كائن * والله يا هذا لرزقك ضامن
تعنى بما يغنى وتترك ما به * تعنى كائنك للحوادث آمن
أو ما ترى الدنيا ومصرع أهلها * فاعمل ليوم فراقها يا خائن
واعلم بأنك لأبالك في الذي * أصبحت تجمعه لغيرك خازن
يا عامر الدنيا أتعمر منزلا * لم يبق فيه مع المنية ساكن
الموت شئ أنت تعلم أنه * حق وأنت بذكره تتهاون
ان المنية لا تؤامر من أنت * في نفسه يوما ولا تستأذن

قال فقلت الحمد لله الذي وفق أمير المؤمنين لانشاء مثل هذه الابيات فقال بل لله المنية
اذ ألزمتنا بذكره ووفقنا لشكره ألم تسمع قول الحسن البصري في أهل المعاصي هانوا عليه
فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم اه وكان القادر أبيض طويل اللحية كبيرها يخضبها لشيبه
وكان دائم التمجيد كثير الصدقات

ومات في خلافته أى سنة ست وثمانين وثلثمائة هجرية العزيز أبو منصور نزار صاحب
مصر مات في بليس بعد مرض طويل بالقولنج والحصاة وله من العمر اثنان وأربعون سنة
وبضعة أشهر وكانت خلافته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما فحمل
الى القاهرة ودفن في تربة القصر وكان العزيز جيلا كثير العفو محبا للخير أمهر طويلا أصهب
الشعر عريض المنكبين واستوزر عيسى بن نسطور القبطي فكان عيسى هذا حسن التدبير
ولسياسة على الهمة عاقلا رزينا مهيبا واسع الكلمة فن حلم العزيز وحبه للعفو أنه كان
بهمر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي وكان كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كاس وزير
العزيز وكاتب الانشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني فقال

قل لابي نصر صاحب القصر * والمتأني لنقض ذا الامر
انقض عرا الملك للوزير تفز * منه بحسن الثناء والذكر
وأعط وامنع ولا تحف أحدا * فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ما ذا يراد به * وهو اذا ما درى فما يدري

فشكاه ابن كاس الى العزيز وأنشده الشعر فقال له هذا شئ اشتراك فيه في الهجاء
فشاركني في العفو عنه ثم ان الدمشقي المذكور قال وعرض بالفضل القائد بهذه الابيات

تنصر فالتنصر دين حق * عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا * وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا * عزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه أيضا الفضل الى العزيز فامتنع منه الا أنه قال اعف عنه فعفا عنه ثم دخل

الوزير علي لعزير فقال لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غرض من السياسة وتقض لهيبة الملك
فانه قد ذكرك وذكرى وذكر ابن زبارج نديمك وسبك بقوله

زبارجى نديم * وكاسى وزير * نم على قدر الكلب بصلح الساجور
فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته ثم بدا للعزيز اطرافه فأرسل
اليه يستدعيه وكان للوزير عين في القصر ينقل له الاخبار فأخبره بذلك فأمر بقتله فقتل فلما
وصل رسول العزيز في طلبه أراه رأسه مقطوعا فعاد اليه فأخبره فاغتم له * وكان للعزيز
محاسن أخرى وهو أول من اتخذ وزيرا أثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه وأول من
رى من العلويين بالنشاب وأول من اتخذ منهم الاثراك واستخدمهم وجعل منهم القواد وأول
من ركب من العلويين بالذؤابة الطويلة وضرب بالصولجان ولعب بالرمح وأول من اتخذ
الحيرلركوبه اياها وأول من أقام الطعام في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان
ورمضان

ولما مات ولي بعده ابنه أبو علي منصور الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه ولي وعمره
احدى عشرة سنة وستة أشهر وأوصى العزيز أرجوان الخادم به فكان يتولى أمر داره ويدبر
أمر مملكته وهو الذى أخذ له البيعة على الناس ولم يرض على ولايته الا القليل حتى ظهر
بصر ابن عمار شيخ كرامة وسيدها وعلمت كلمته فتمكن من أمور السلطنة وأمر ونهى وحكم
البلاد ولقب بأمر الدولة قال أصحاب التاريخ وهو أول من لقب في دولة العلويين المصريين
بهذا اللقب ولما بسط يده على جميع الامور أشار عليه أصحابه بقتل الحاكم بأمر الله
واستخلاص البلاد لنفسه والاستقلال بملكها فلم يقبل ذلك احتقارا للعاكم واستصغارا لسنه
وطغت كرامة وتجبرت وتطاولت أيديهم الى أموال الناس والعبث في البلاد وأخذ النساء وأرجوان
الخادم لا يقدر على منعهم وهو مقيم مع الحاكم في قصره يحرسه فلما ضاقت على أرجوان المذاهب
كتب الى منجوتكين وهو يومئذ بدمشق يشكو اليه من فعال ابن عمار وأصحابه ويستنفضه
الى نجدة الحاكم بأمر الله فجهز منجوتكين جيشا وسار به من دمشق الى مصر فعلم ابن عمار
بخبيره وخشى العاقبة فأنظر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وحضر الى مصر ليخضعه من
السلطنة ونادى في جنده بالخروج لقتال منجوتكين فخرجوا ونقدتهم أبو تميم سليمان بن
جعفر بن فلاح الكتامى والتقوا بعسقلان واقتتلوا قتالا شديدا فانهمز منجوتكين وأصحابه
وقتل منهم خلق كثير وأسرى منجوتكين وحمل الى مصر فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه وولى
على الشام أبا تميم الكتامى بدل منجوتكين المذكور فسار الى طبرية واستعمل على دمشق
أخاه عليا فامتنع الناس عليه فأرسل اليهم أبو تميم يتهديهم ان هم أصروا على عدم الطاعة
فخافوا وأذعنوا فدخل البلد فأحرق وقتل وعاد الى معسكره وقدم عليهم أبا تميم فأحسن
اليهم وأطلق المسجونين واستعمل أخوه علي طرابلس بدل دمشق وخلع عنها حبش بن
الصمصامة الكتامى فساء ذلك ومضى الى مصر واجتمع بارجوان وحبيب اليه العمل على خلع

الحسن بن عماره فقال الى ذلك وانتز فرصة غيباب كرامة عن مصر مع أبي تميم الا القليل منهم
فدس أرجوان الى المشاركة أن يفتكوا بن بقي من كرامة بمصر وبابن عمار معهم فبلغ ذلك
ابن عمار فعمل على الايقاع بأرجوان وشكر العضدي فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار
بذلك فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكيين واستدعوا كبار المشاركة وفرقوا فيهم الأموال
فثاروا على ابن عمار ومن معه من كرامة وشدوا في قتالهم فانهزم ابن عمار وأصحابه واختفى
ففتقوت عزيمة أرجوان وفرح بهذا الظفر وأخرج الحاكم بأمر الله وأجلسه وجدد له البيعة
وكتب الى وجوه القواد والناس بدمشق بالايقاع بأبي تميم فلم يشعر الا وقد هجموا عليه
ونهبوا خزانته فخرج هاربا وقتلوا من كان معه من كرامة فعادت الفتنة بدمشق واضطربت
لأموار وعصى أهل صور والرملة وغيرهما فسير أرجوان لقتالهم جيشا عظيما وظفر بهم
وأرجعهم الى الطاعة وظفر بأبي تميم فكان ذلك أول فتح حصل على يد أرجوان
وما زال أرجوان يدبر الأمور ويعهد العقبات وبثت سلطنة الحاكم بأمر الله ويفتح
الفتوحات الكبار مثل برقة وطرابلس الغرب وغيرهما ويبلغ في خدمة الحاكم حتى كانت
سنة تسع وثمانين فثقل مكانه على الحاكم وأبغضه وأراد التخلص منه فقتله وكان أرجوان
هذا خصيا أبيض حسن التدبير صائب الرأي وكان له وزير قبلى اسمه فهد بن ابراهيم وكان
فهد هذا عاقلا حسن السياسة فاستوزره الحاكم ومال اليه وأحبه كثيرا وعلت كلمة الحاكم
بأمر الله فسير الجيوش للغزو واشتد على القواد وكبار القبائل بمصر وأكثر فيهم القتل فخرج
عليه الوليد المعروف بأبي ركة وخرج معه كبار القبائل وأكثر النواد قال بعض أصحاب
التاريخ في سبب خروجه على الحاكم مانصه * كان أبو ركة اسمه الوليد وانما كنى بأبركة
لركة كان يحملها في أسفاره سنة الصوفية وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب
في النسب من المؤيد هشام بن الحكم الأموي صاحب الاندلس ولما استولى المنصور بن
أبي عامر على المؤيد وأخفاه عن الناس تتبع أهله ومن يصلح منهم للملك فقتل البعض وهرب
البعض وكان أبو ركة ممن هرب وعمره يومئذ يناهز العشرين سنة وقصد مصر وأقام بها
وكتب الحديث ثم رحل الى مكة واليمن وعاد الى مصر ودعا بها الى القائم فأجابه بنو قرة وغيرهم
قالوا وسبب استجابتهم له أن الحاكم بأمر الله كان قد أسرف في مصر في قتل القواد
وحبسهم وأخذ أموالهم وصارت القبائل معه في ضنك وضيق ويودون خروج الملك من
يده وكان الحاكم في الوقت الذي دعا فيه أبو ركة بنو قرة قد آذاهم وحبس منهم جماعة
من أعيانهم وقتل بعضهم فلما دعاهم أبو ركة انقادوا له وكان بين بنو قرة وبين زناتة
حروب ودماء فانفقوا على الصلح ومنع أنفسهم من الحاكم فقصد بنو قرة وفتح مكتبا يعلم
الصبيان الخط وتظاهر بالدين والنسك وأتهم في صلواتهم وشرع في دعوتهم الى ما يريد فأجابوه
وبابعوه وانفقوا عليه وعرفهم حينئذ نفسه وذكر لهم أن عندهم في الكتب أن ملك
مصر وغيرها ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا فاجتمع بنو قرة وزناتة

على بيعته وخطبوه بالامامة وكانوا بنواحي برقة فلما سمع الوالي ببرقة خبره كتب الى
الحاكم ينهيه اليه ويستأذنه في قصدهم واصلاحهم فأمره بالكف عنهم واطراحهم ثم ان
أبا ركة جمعهم وسار الى برقة واستقر بينهم أن يكون الثلث من الغنائم له والثلثان لبنى قرة
وزناته فلما قاربها خرج اليه واليها فالتقوا فانهزم عسكر الحاكم وملك أبو ركة برقة
وقوى هو ومن معه بما أخذوا من الاموال والسلاح وغيرهما ونادى بالكف عن الرعية
والنهب وأظهر العدل وأمر بالمعروف فلما وصل المهزمون الى الحاكم عظم عليه الامر
وأهمته نفسه وملكه وعاود الاحسان الى الناس والكف عن أذاهم وندب عسكرا نحو خمسة
آلاف فارس وسيرهم وقدم عليهم قائدا يعرف بإيصال الطويل فبلغ ذات الحمام وبينها
وبين برقة مفازة فيها منزلان لا يلقى السالك الماء الا في آبار عميقة بصعوبة وشدة فسير أبو ركة
قائدا في ألف فارس وأمرهم بالمسير الى إيصال ومن معه ومطاردتهم قبل الوصول الى المنزلين
المذكورين وأمرهم اذا عادوا أن يغتروا الآبار ففعلوا ذلك وعادوا حينئذ سار أبو ركة
في عساكره وقيمهم وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش فقانلهم واشتد القتال فحمل
إيصال على عسكر أبي ركة فقتل منهم خلقا كثيرا وأبو ركة واقف لا يحمل هو ولا عسكره
فاستأمن اليه جماعة كثيرة من كلمة لما نالهم من الأذى والقتل من الحاكم وأخذوا الامان
لمن بقي من أصحابهم ولحقهم الباقون فحمل حينئذ بهم على عساكر الحاكم فانهزمت وأسر
إيصال وقتل وأسر أكثر عسكره وقتل منهم خلق كثير وعاد الى برقة وقد امتلأت أيديهم من
الغنائم وانتشر ذكره وعظمت هيئته وأقام ببرقة وترددت سراياه الى الصعيد وأرض مصر وقام
الحاكم من ذلك وقعد وسقط في يده وندم على ما فرط وفرح جند مصر وأعيانها وعلم الحاكم
ذلك فاشتد قلقه وأظهر الاعتذار عن الذي فعله وكتب الناس الى أبي ركة يستدعونه وعن
كتب اليه الحسين بن جوهري المعروف بقائد القواد فسار حينئذ من برقة الى الصعيد وعلم
الحاكم فاشتد خوفه وبلغ الأمر به كل مبلغ وجمع عساكره واستشارهم وكتب الى الشام
يستدعي العساكر فجاءته ففرق الاموال والدواب والسلاح وسيرهم وهم اثنا عشر ألف رجل
بين فارس وراجل سوى العرب واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله فلما قاربوا أبا ركة لقيهم
في عساكره ورام المناجزة المصريين والفضل يناجز ويدافع ويراسل أصحاب أبي ركة يستبليهم
ويبذل لهم الرغائب فأجابه قائد كبير من بني قرة يعرف بالماضي وكان يطالعه بأخبار القوم
وما هم عازمون فيدير الفضل أمره على حسب ما يعلمه منه وضائق الميرة على العساكر فاضطر
الفضل الى اللقاء فالتقوا واقتتلوا بكوم شريك فقتل بين الفريقين قتلى كثيرة ورأى الفضل من
جمع أبي ركة ما هاله وخاف المناجزة فعاد الى عسكره وراسل بنو قرة العرب الذين في عسكر
الحاكم يستدعونهم اليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم فأجابوهم واستقر الامر على أن
يكون الشام للعرب ومصر لابي ركة ومن معه ولما عادوا ليلية يسير فيها أبو ركة
الى الفضل فاذا وصل اليه انهزمت العرب ولا يبقى دون مصر مانع فكتب الماضي الى الفضل

بذلك فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده وأظهر أنه صائم وطاولهم الحديث وتركهم في خيمة واعتزلهم ووصى أصحابه بالحذر ورام العرب العود إلى خيامهم فعلمهم وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم فأكلوا وتحسّدوا وسير الفضل سرية إلى طريق أبي ركوته فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا ووصل الخبر إلى العسكر فارتج وأراد العرب الركوب فنعهم وأرسل إلى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤسائهم فركبوا واشتد القتال ورأى بنو قرة الأمر على خلاف ما قرروه ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها وورد لأبي ركوته مدد من أصحابه فلما رآه الفضل ردّ أصحابه وعاد إلى المدافعة وجهاز الحاكم عسكرا آخر نحو أربعة آلاف فارس وعبروا إلى الجيزة فسمع أبو ركوته بهم فسار مجتداً في عسكره ليواقعهم عند مصر وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل ولم يمكن الماضي أن يكاتبه بذلك فساروا وأرسل إليه من الطريق بعزفه الخبر وقطع أبو ركوته مسير خمس ليال في ليلتين وكبسوا عسكر الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو ألف فارس وخاف أهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره وأمر الحاكم من عنده من العساكر بالعبور إلى الجيزة ورجع أبو ركوته فنزل عند الهرميين ثم انصرف من يومه وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً يقول فيه إن أبا ركوته انهزم من عساكرنا ليفرأ على القواد وكتب إليه سرا يعلمه بالحال فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبي ركوته تسكيناً للناس ثم سار أبو ركوته إلى موضع يعرف بالسبخة كثير الأشجار وتبعه الفضل ولكن أبو ركوته بين الأشجار وطارد عسكر الفضل ورجع عسكره القهقري ليطمعوا عسكر الفضل ويخرج الكمين إليهم فلما رأى الكمين رجوع أبي ركوته ظنوها الهزيمة لاشك فيها فولوا يتبعونهم فركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألوف كثيرة وانهزم أبو ركوته ومعه بنو قرة وساروا إلى حللهم فلما بلغوها ثبطهم الماضي عن المقام معه فقالوا له قد قاتلنا معك ولم يبق فينا قتال نخذ لنفسك وانج فسار إلى النوبة فلما بلغ إلى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم إلى ملكهم فقال له صاحب الحصن الملك عليل ولا بد من استخراج أمره في مسيرك إليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل إلى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وأرسل إلى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفي وملك بعده ولده فأمر بأن يسلم إلى نائب الحاكم فتسلمه رسول الفضل وسار به فلقية الفضل وأكرمه وأنزله في مضاربته وحمله إلى مضرب فأنهر بها وطيف به وكتب أبو ركوته إلى الحاكم رفعة يقول فيها يا مولانا الذنوب عظيمة وأعظم منها عقوبك والدعاء حرام ما لم يحلله سخطك وقد أحسنت وأسات وما ظلت الانفسي وسوء علي أدبني وأقول

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن * مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
وواته ما كان الفرار حاجة * سوى فزع الموت الذي أنا شارب

وقد قادني جري اليك برمتي * كما خرميتا في رجا المسوت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي * فيارب ظن ربه فيك كاذب
وما هو الا الانتقام وينتهي * وأخذك منه واجب لك واجب

ولما طيف به ألبس طرطورا وجعل خلفه قرد بصفعه وكان معلما بذلك ثم جل الى ظاهر
القاهرة ليقتل ويصلب فتوفي قبل وصوله فقطع رأسه وصلب وبالع الحاكم في اكرام الفضل
الى حد أنه عاده في مرضه مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم انه عمل على قتل الفضل
لما عوفي فقتله

وصفت الأمور للحاكم فكثير شره وكبر ظلمه وعظم افساده وطغيانه فكان لا يستقر
على أمر من الأمور وكان له في كل ساعة شأن قيل انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء
والمشايخ وبالسخ في اتقانها وتعزيزها ثم عاد فقتلهم جميعا وخربها وألزم الناس باغلاق
الاسواق نهارا وفتحها ليلا فامتلأوا ذلك دهرًا طويلا حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل التجارة في
أثناء النهار فوقف عليه وقال ألم نهكم عن هذا فقال ياسيدي أما كان الناس يسهرون لما
كانوا يتعيشون بالنهار فهذا من جملة السهر فتبسم وتركه وأعاد الناس الى أمرهم الأول وكان
يعمل الحسبة بنفسه فيدور في الاسواق على حماره وكان لا يركب الا حمارا فمن وجده
قد غش في معيشته أمر عبدا أسود معه اسمه مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى وكان
قد منع النساء من الخروج من بيوتهن وأن لا يطلعن من الطاقات أو الاسطحة ومنع
الخفافين من عمل الأخفاف ومنعهن من دخول الحمامات وقتل خلقا من النساء على مخالفة
ذلك وهدم بعض الحمامات عليهن ومنع من طبخ الملوخية والقرع وله رعونات كثيرة للغبابة
لا تدخل تحت الحصر فابغضه الناس وكتبوا له الاوراق بالشم له ولاسلافه في صور قصص
حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وازارها وفي يدها قصة فيها من الشتم شيء كثير فلما
رأها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فلما رأى ما فيها غضب وأمر
بقتلها فلما تحققها من ورق ازداد غضبا الى غضبه وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر
وينهبوا ما فيها من الاموال ويسبوا النساء ففعلوا وقاتلهم أهل مصر قتلا عنيفا ثلاثة أيام
والنار تعمل في الدور والسبي في النساء واجتمع الناس في الجامع ورفعوا المصاحف ولبثوا الى
الله تعالى واستغاثوا به وما انجلي الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها
وسبيت نساء كثيرة وفعل بهن الفاحشة العظمى واشترى الرجال من سبي لهم من النساء
والحریم من أيدي العبيد قال ابن الجوزي وزاد ظلم الحاكم وعن له أن يدعى الربوبية فصار
الناس اذا رأوه يقولون يا واحد يا أحد يا محي يا ممت اه

وأنزل بالنصارى شدايد لم يعهدوا مثلها من قبل وذلك أنه لما تمكن الكثير منهم من أعمال
الدولة وصاروا الوزراء حسدهم المسلمون واتهموهم بالمكيدة وشوا بهم عند الحاكم بأمر
الله فغضب جدا وكان لا يملك نفسه اذا غضب فقبض على عيسى بن نسطور القبطي وهو

اذ نال في رتبة الوزارة فضرب عنقه جهارا وقبض على فهد بن ابراهيم كاتب الاستاذ برجوان وضرب عنقه وشدد على النصارى وألزمهم بلبس ثياب الغبار وشدد الزناير على أوساطهم ومنعهم من عمل الشعمانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عليه عاداتهم في الاعياد والمواسم من الاجتماع وقبض على جميع ما هو محبس للكنائس والديارات وأدخله في الديوان وكتب الى عماله كلهم بذلك وأحرق خلقا كثيرا ومنعهم من شراء العبيد والاماء وهدم الكنائس التي بخط راشدة ظاهر مدينة مصر وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح ما فيها للناس فانتهبوا منها مايجل عن الوصف وهدم دير القصير وأنهب العتبة ما فيه ومنعهم من عمل القطاس على شاطئ النيل بمصر المحروسة وأبطل ما يعمل فيه من الاجتماع وألزم الرجال منهم بتعليق الصليبان من الخشب التي زنة كل صليب منها خمسة أرطال في أعناقهم ومنعهم من ركوب الخيل ورسم لهم أن يركبوا البغال والخيول بسروج ولحم غير محلاة بل من جلود سود ومنع من ضرب الجرس في القاهرة ونهيه أن لا يركب أحد من المكارية ذميا ولا يحمل فوقه مسلم أحدا من أهل الذمة وأن تكون ثيابهم وعمائمهم شديدة السواد وركب سروجهم من خشب الجيز وأن يعلق اليهود كذلك في أعناقهم خشبا مدورا زنة الخشبة منها نحو الخمسة أرطال وهي ظاهرة فوق ثيابهم وزاد في الجور والعسف فهدم ما بقى من الكنائس وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهيا واقطاعا فهدمت بأسرها ونهب جميع أمتعتها وأقطع أحباسها وبني في مواضعها المساجد وأذن بالصلاة في كنيسة ماري شنوده بمصر وأحيط بكنيسة المعلقة في قصر الشمع وأكثر العامة من رفع القصص يطلبون بها هدم كنائس أعمال مصر ودياراتها فلم يرد قصة منها الا وقد وقع عليها باجابه رافعها الى ما سأل فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوها بأسواق مصر من أواني الذهب والفضة وغير ذلك وتصرفوا في أحباسها ووجدوا بكنيسة ماري شنوده مالا جليلا وكذلك في كنيسة المعلقة من المصاغ وثياب الديباج شيئا كثيرا جدا ثم كتب الى ولاة الاعمال بتسكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات فعم الهدم والتخريب فيها من سنة ثلاث وأربعمائة هجرية حتى ذكر بعض أصحاب التاريخ أن الذي هدم لغاية أخريات سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التي بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها

وألزم النصارى أن تكون الصليبان في أعناقهم اذا دخلوا الحمام وألزم اليهود أن تكون في أعناقهم الاجراس اذا دخلوا الحمام ثم ألزم الاثنين معا بخروجهم كلهم من أرض مصر الى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا وصاحوا بطلب العفو حتى أعفوا من التني وفي خلال هذه الاذن أسلم كثير من النصارى وضربتهم يد الشتات فتمزقوا أوكدوا وأسكن اليهود في حارة زويلة وتهتدهم بالقتل ان لم يسلموا فخافوا وأسلم منهم عدد كثير ثم أمرهم بالرجوع الى دينهم فأرند منهم في يوم واحد سبعة آلاف ثم عاد فأمر بهدم معابدهم

فهدمت ثم أمر بإعادتها لهم فأعيدت وادعى الألوهية فسكران يكتب له * بسم الحاكم الرحمن الرحيم * ثم انه ادعى علم الغيب فسكران يقول ان فلانا قال في بيته كذا وكذا ودخل له كذا وكذا وكان ذلك بانفاق اعتمده مع العجائز اللواتي كن يدخلن بيوت الامراء وغيرهم ويخبرنه بما جرى ثم كان من أمره أن تعدى شربه الى أخته الاميرة سيدة الملك فاتهمها بالفاحشة وتهديها بالقتل وقد كانت من أفضل وأزكى نساء عصرها فأخذت في تدبير الحيلة على قتله فأرسلت الى أحمد بكار قواد الحاكم وهو الامير سيف الدين بن الدواس تقول اني أريد أن ألقاك وسارت اليه ليلا وقالت له قد جئت اليك في أمر تحفظ فيه نفسك ونفسي وأنت تعلم مايجري من أخى من سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلى وأخاف أن الناس يشورون به فيهلك هو ونحن وتنقلع هذه الدولة فقال وما الحيلة في أمره قالت الرأى عندي أن ترسل اليه غلاما يقاتلونه عند خروجه الى جبل المقطم في غد وليس معه غلام الا الزكابي وصبي وينفرد بنفسه فاذا قتل نقيم ولده وتكون أنت وزيره ومدير دولته وأزيد في اقطاعك مائة ألف دينار * ومضت سيدة الملك الى قصرها فلما كان الغد خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه بالجبل المذكور فعمد ابن الدواس الى عشرة من العبيد السود وأعطى كل واحد منهم خسمائة دينار ومضوا الى الجبل وقتلوه وأتوا به الى أخته ليلا فدفنته في دارها وكان عمره ستا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمس وعشرين سنة وعشرين يوما وكان قتله ليلة الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة هجرية وبقى الناس على رسمهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه الى سلخ شوال * فلما كان ثالث ذى القعدة خرج مظفر الصقلي صاحب المظلة وغيره من خواص الحاكم ومعهم القاضي فبلغوا حلوان ودخلوا في الجبل فبصروا بالجمار الذي كان عليه راكبا وقد ضربت يدها بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولجامه فاتبعوا أثره فانتهوا به الى البركة الى شرق حلوان فأروا ثيابه وهي سبعة قطع صوف مزركز بحالها لم تحل وفيها أثر السكاكين فعادوا ولم يشكوا في قتله واجتمع الجند على سيدة الملك أخت الحاكم يسألون عن سبب عدم رجوع الحاكم ففرقت في قوادهم الاموال وأصبحت وقد ألبست أبا الحسن عليا بن أخيها الحاكم أفخر الملابس وكان الجند قد اجتمعوا حول القصر ليعلموا ما جرى على الحاكم فلم يلبثوا أن خرج أبو الحسن وهو صبي والوزير بن يديه فصاح يا عبيد الدولة مولانا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ثم قبل ابن الدواس الارض بين يديه وكذلك القواد الذين أرسلت اليهم الاموال ودعوا له فتبعهم الباقون ومشوا معه ولم يزل راكبا فنزل ودعا الناس من الغد فبايعوه وأقب الظاهر لاعزاز دين الله وسير الكتب الى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة وجعلت سيدة الملك الناس ووعدهم وأحسنن اليهم ورتبت الامر ترتيبا حسنا وجعلت الامر بيد ابن الدواس وبالغ في تعظيمه ثم انها قالت له اننا نريد أن ترد جميع أحوال المملكة اليك ونزيد في اقطاعك ونسرفك بالخلع السنية فاختر يوما يفعل فيه ذلك وشاع هذا الخبر بين الناس وتحدثوا به كثيرا

ثم أحضرته وأحضرت جميع القواد الى قصرها فلما انتظم بهم المقام أمرت الغلمان فأغلقوا الابواب وأرسلت الى ابن الدواس غلاما ومعه السيف وقالت له اذا وقفت على رأس ابن الدواس فقل للقواد ان هذا قاتل مولاكم الحاكم ثم اضربه بالسيف ففعل ذلك وقتله فلم يختلف رجلاان وجعلت تتصرف في الامور بنفسها فأحسنّت التدبير واتسعت كلمتها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الامور على يديها وعاشت بعد الحاكم أربع سنين لارادّ لكتبتها وكان للحاكم بأمر الله المذكور وزير اسمه حزة كان عظيم الدهاء واسع العلم غزير المادة قد وضع للحاكم مذهبا مخصوصا هو من مذاهب الباطنيين وقيل بل من اعتقادات القرامطة وقيل هو دين مستقل لاعلاقة له بشيء من الاديان الأخرى فظهر الدين المذكور واشتهر أوائل القرن الخامس للهجرة المحمدية فتبعه خلق كثير جدا وبالع آصحابه في اخفاء أمره وكتمان سره وغلق جميع أبواب الوصول اليه ومع ذلك فقد اجتهد أهل التاريخ وكتاب الاخبار من السلف في الحصول على معرفة ما يمكن معرفته من تلك الاسرار وفاز بعضهم بالاطلاع على بعض المؤلفات والرسائل في ذلك الحين وبحوثا وفتشوا فوجدوا من الكتب والرسائل الخاصة بهذا الدين عدّة منها كتاب المشاهد والاسرار التوحيدية وكتاب الرد على النصيرية وهو يتضمن ستا وعشرين رسالة والرسالة المعروفة بالشافعية لنفس الموحدين الممرضة لقلوب المقصرين الجاحدين والرسالة المعروفة بالرسالة الموسومة بالاسرار ومجالس الرحمة للاولياء الاررار وأخرى اسمها الرسالة الموسومة بمجالس الرحمة * قال بعض المكاتب ويظن أن الكتب عندهم سبعة لان عدد سبعة هو من الاعداد المقدسة عندهم قالوا لان السموات سبع وكذلك الارضون والسيارات وأيام الاسبوع والعناصر والأئمة عندهم والناطقون وغير ذلك فقد وجد في أحد كتبهم المار ذكرها هذه العبارة * الجزء الاول من السبعة الاجزاء * وفي كتاب آخر ما نصه فوضعت هذا الكتاب وهو الجزء الاول من السبعة الاجزاء يشتمل على فرائض فرضها مولانا ذوالمنة والاحسان وأنطق بها عبده قائم الزمان بتلو بعضها بعضا ويوضح في العقل أنها فرض وفي كل كتاب ذكر فرض ما يجب أن يفرض واسقاط ما يجب أن يسقط وينقض * قال العلامة البستاني في كتابه دائرة المعارف ولهم عدّة كتب أخرى محفوظة بدار الكتب في بلاد الفرنسيس والانجليز والمكتبة الباباوية وغيرها وتشتمل هذه الكتب على عدّة رسائل أو فصول لكل رسالة أو فصل منها عنوان مخصوص وكلها تعاليم وردود على بعض المارقين من دينهم أو المخالفين لتعاليمهم وجلها بل كلها تنسب الى حزة المذكور الملقب عندهم بالعقل

فن قواعد دينهم هذا ما جاء في كتبهم ان الله واحد وهو الكائن الوحيد الذي تجب عبادته والوهيته لاتدركها العقول فهي غير قابلة للتحديد والتعريف وقد ظهر للبشر عدّة مرار في ناسوته ثم ظهر لهم أخيرا باسم الحاكم فعمل من الاعمال ما لا يدرك العقل البشري وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة للغاية ثم اختفى فلا يظهر الا بعد مجيئه الأخير لتأييد دين التوحيد

ومعاقبة الجاحدين ويقول حجة أيضا ان الله هو الابدى السرمدى القديم المولى المملوء
كرامة والسيد الرحيم وهو واحد لا يشابه الكائنات في شئ وهو يفوق جدا النعمين بالاعداد
والمشابهات عظيم فلا زوجة له ولا ولد تعجز الناس طرا عن استيفاء وصفه فالاعين التى تراه
لا تدركه وجوهره لا يدركه بالتأمل فالالوهية له وحده دون غيره ولا سبيل الى وصفه بالاوصاف
الموافقة للكائنات المخلوقة فيمتجانس مع المتجانسين فالعقول والتصورات تعجز عن ادراكه
تعالى عن الكيف والايان فلا تدركه الاعين ولا تنسب اليه الحركة والراحة فهو واحد ولكن
وحدته ليست كاتى يدركها البشر فهو البداية والنهاية وتتره عما اعتقده به الناس خطأ
وعما نسب اليه مما لا يليق الا بمخلوقاته والادراك البشرى يقصر عن فهم أعماله ففخر
الاسن اذ لم نجد لمستخدمها سبيلا الى توحيد باريها * وعندهم ان الله الرحمن الرحيم اسم
يدل على بعض وزراء دين التوحيد قال حجة المذكور كيف توصف وحده من لاحدوده
ولا بداية ولا أصل ولا نهاية فان أقدم الاشياء أى وزراء الدين والانفس تقر أنه خالقها
والكائنات الاخيرة كالاجساد تقر أن وجودها جديد فهو ملك الملوك الذى لا يعرف ولا يحدد
بلسان قلم فالحمد لك يا من امتزت بالعظمة والقدرة المتعالى عن جميع البشر بالحدود والممكن
الذى كنت موجودا فى كل دهر وزمان ومكان فلا تشبه البشر ولا يقدر مخلوقك أن يحددك
أنت المنزه عن كل تشبيهه ووصف مع الايمان والاعتقاد الثابت الذى لا يتزعزع فى بداية
وجودى ونهايته من صميم القلب وعلى رؤس الاشهاد أنك الاله الخالق القادر الفريد الوحيد
الغير القابل الزيادة بالاعداد ولا بالكميات ولا الاسباب والاحساب فأنت الخالق الفريد موجد
الكائنات المنزه عن النظر القادر الذى لا كائن له قدرة عليك الغالب ولا ملجأ ولا مجير منك
الا بنفسك الخاكم المولى الذى لا يخضع لحكم أحد تفعل ما تشاء وتأمر بما تشاء بأمرك
العالى الممجد عن مقارنة الاصوات واللغات * قال العلامة المشار اليه فهذا هو توحيد
الموحدين مترجما عن اللغات الاجنبية لتعذر الحصول على كتبهم الاصلية ويقولون ان للحاكم
لاهووتا وناسوتا فلاهوته ثابت عندهم بأعماله التى تفوق ادراك جميع البشر وبمحكمة العظيمة
جسدا وقد دونوا فيها سوالات وجوابات ومنها ما يتعلق بظهور الحاكم وهى
سؤال ماهى كيفية ظهور مولانا الحاكم وفى أى زمان ظهر
جواب فى سنة أربعمائة للهجرة

س كيف ظهر

ج بالتظاهر بانه من الفاطميين بستر الوهيمته

س لما ذا ستر لاهوته

ج لنقصان الاعتبار وقلة الاصحاب

س فى أى سنة ظهر لاهوته

ج فى السنة الثامنة بعد أربعمائة للهجرة

- س كم سنة أظهر لاهوته
- ج ثمان سنوات وأخفاه في السنة التاسعة لأنها كانت زمان تجارب وأسرار وأظهره ثانية في بداية السنة العاشرة وأثناء السنة الحادية عشرة ثم أخفاه في بداية السنة الثانية عشرة فلا يظهر بعد ذلك الا يوم الدين
- س كيف كان الوزراء يحيمون الحاكيم عند مثولهم لديه
- ج كانوا يقولون بصوت منخفض السلام عليك يا مولانا ومرجعته اليك لان السلام لك ودينك مقر السلام فالبركات والعظمت لك يا مولانا العالي صاحب المجد والشرف
- س ماذا ينبغي أن تفهم مما جاء في رسالة خوار بن جيش السليمانى العكاوى الذى هو أخو مولانا المعظم
- ج ان مولانا أظهر نفسه بحيث أوهم الناس أنه ابن أبيه فعلا فظن خوار أن مولانا أخوه مع أنه لم يكن كذلك الا بحسب الظاهر فازداد ضلال خوار وكان ضلاله موجبا لصدور أمر مولانا بقتله
- س ماهو معنى ركوب مولانا الخيرون سروج
- ج الحمار رمز الى المناطق فركبه مولانا دلالة على ابطال الناموس وغيره . . . وهنا وضع المترجم أسفارا استقباحتها لترجمة ما جاء بعد كلمة وغيره عملا بادب التحرير
- س الى ماذا يرمز الثوب الصوف الاسود الذى كان مولانا يلبسه
- ج انه ثوب حداد يرمز الى التجارب التى يمحن بها عباده بعده
- ولهم غير ذلك من الاسئلة والاجوبة التى لاعلاقة لها بعقدهم ويقولون فى الوهية الحاكيم انها ثابتة بأعماله وقد ذكر حجة وزيره المذكور تلك الاعمال فى الرسالة المسماة السيرة المستقيمة وقال فيها ما محصله * لو كانت أشجار الارض كلها أقلاما والبحر حبرا وأضيف اليه سبعة بحور لما كانت كافية لمدوين جميع كلمات الله ﷻ والله هنا اسم انسانية الحاكيم ﷻ قال فأقتصر على ذكر أمور قليلة العدد غزيرة النفع للتأمل المعترف بوحدة مولانا المستحق التعظيم الذى تفوق قدرته ادراك البشر فأول عمل قام به قتله لبرجوان وابن عمار مع أن برجوان كان متسلطا على الشرفية كلها وابن عمار على الغربية فقتلا كأنهما كلبان بلا تحاش ولا خوف من قيام الفتنة بين الجند والعسكر وهذا أمر لا يأتىه أكبر ملوك العالم بأسره وكذلك قتله لرؤساء فطاعته ولم يبال قط بأولادهم وأصحابهم وكان يسرى ليلا بين أولادهم وعيالهم ولا سيف معه ولا خنجر ولما أثار أبو ركوة الوليد بن هشام الفتنة خرج مولانا المعظم فلاقى حسن بن علوان ليلا فى خمسمائة فارس فوقف بينهم بغير سلاح وسأل كلا منهم عن مراده ثم دخل البستان وليس معه أحد غير غلام والمؤذنين قال ولما ظهرت فتنة المفترج كان الناس ينتظرون دخوله مصر هو وأصحابه وتسلفه عرش السلطنة فكان مولانا يخرج على عادته ويسير نحو الطريق

التي كان يؤمل دخول المفترج منها حتى وقع الخلاف بين زعماء الفتنه وعاد حسين بن جعفر الحسيني الى مكة خوفا من أن المفترج يوقع به وهذا أيضا مما لا يقدر على فعله أي ملك من ملوك الارض وكان مولانا يخرج في حجارة الحر في الغبار دون مبالاة وأصحابه يـكـادون يهلكون مما يعانونه وهو لا ينظهر العرق على وجهه مع أنه كان يبيل أثواب أصحابه حتى ظاهرها وهذه من الأدلة المثبتة لاهوتية الحاكـم عندهم * وذكر حجة في هذه الرسالة أيضا أموراً أخرى يضيـق المقام دون إيرادها كلها ويقولون ان لاهوته لا يفارق ناسوته أبدا بل هما متلازمان أما ما يتعلق بناسوت الحاكـم وما جاء فيه من قولهم فيعرف من الأسئلة والأجوبة الآتية وهي

سؤال كم مرة ظهر مولانا الحاكـم بالناسوت
جواب ظهر عشر مرات باسماء بشرية وهي عليّ والباري والموئل والقائم والمعز والعزير وأبوزكريا والمنصور والحاكم

س أين وقع الظهور أو الكشف الاول
ج في الهند في مدينة اسمها تشماتشن
س أين ظهر البار أو الباري

ج في فارس في مدينة اسمها أصبهان ﷺ واسم الله عند الفرس بار خدای ﷻ وعليّ ظهر في اليمن والموئل في المغرب وكان ظهوره كائنه رجل صاحب ألف جبل وانقائم ظهر في مدينة المهديـة بالمغرب أيضا ثم جاء مصروحي بابا اسمه رشيدية وأبوزكريا والمنصور ظهرا في المنصورية

ومما كتبه حجة بشأن ناسوت الحاكـم وظهوره أن الظهور تم عدة مرات في القدم ولكنه لم يكن الدور الناسوتي وورد في كتاب الحجة أيضا ما محصله * اننا نظهر لكم في كتاب آخر أسماء مولانا الناسوتية التي اتخذها لنفسه عند ظهوره في الارض منذ خلق العقل الى زمن ظهور آدم الصفاء وعبادة الملائكة له وهي مدة سبعين دورا وبين كل دور سبعون أسبوعا وكل أسبوع سنة وكل سنة ألف سنة من سني هذا الزمان وأبين لكم الاسماء أيضا التي اتخذها العقل وجنوده في تلك الادوار واسم كائناته كما أن اسم هذا الجبل هو الانساني أو البشري وقال في كتابة أخرى انني أبين لكم الاسم الذي اتخذته في كل من تلك الادوار والاسم الذي كان للروح المضاد المدعو إبليس

وحجة عندهم هو ظهور العقل وعند ظهوره بين البشر سمي آدم الصفاء وكان له وزيران فعصيا فسمى أحدهما آدم العاصي والثاني آدم الناسي وأنه عند ما ظهر العقل المرة الاولى ظهر أيضا ناسوت الاله باسم البار أو الباري * وكتب أيضا في بعض كتاباته يقول ﷻ وقالوا الحاكـم جل ذكره بار خدای يعنون بذلك ﷻ الله ﷻ عبد مولانا جل ذكره قال بعض الكتاب ومراد

جزء من هذه العبارة هو أن أسماء الخالق سبحانه وتعالى الواردة في الكتب الدينية هي كلها عندهم أسماء وزراء الحاكم فاسم الله تعالى اسم لاحد وزراء الحاكم وقال أيضا ﴿ قد كان مولانا في زمن شنغيل في ظاهر الامر يسمى ناسوته من حيث العالم البشري بالبار أو الباري فيقول الناس عند ذكرهم الحاكم «الحاكم بار خدای» والعرب تقول «الحاكم الله» قال وهذا لا يوافق فان «الله» اسم الوزير الاول يعنى للحاكم ولكن «بار خدای» معناه الاله الاعلى أو الالهة فهذا الاسم يوافق لمولانا أكثر من الاسم الاول قال وأما محمد بن اسمعيل فاسمه في تلك الكتب الناطق السابع وهو الثانى من الأئمة الذين هم سلف الخلفاء الفاطميين وفي أيام الثالث منهم ظهر الناسوت يعنى الحاكم باسم أبى زكريا وظهر في أيام الامام الرابع باسم على الاعلى فابو زكريا لم يكن ملكا في هذا العالم ثم ظهر العفل معه باسم قارون وفي آخر أيامه عند ما كبر وشاخ سمى بديار اليمن بالمهدى ثم ظهر أيضا النفس باسم أبى سعيد المظنى فلما كان الظهور الثالث يعنى للحاكم باسم الموثل كان في بلاد تدمر وفي الايلات المشرقية وكان ظهوره في شخص تاجر * وجاء في كتاب حجة المسمى بالنقض الخفى أن الناطقين سبعة وهم آدم وفوح وابراهيم وموسى وعيسى المسيح ومحمد وسعيد وهو عبد الله الخليفة الاول الفاطمى الملقب بالمهدى وهو أبو القائم أعظم الوزراء * أما ما جاء عن وزراء الحاكم في كتبهم وهم الذين لقبوهم بألقاب مختلفة كالسابق والناطق وغير ذلك قولهم ﴿ وقد نظرنا الى السابق والتالى والناطق والاساس والامام والحجة والقائم فرأيناهم كلهم عبيدا مزدوجين فعرفنا بان المعبود سواهم وعرفنا بتوفيق مولانا عز ذكره أن الهاء المشار اليها هي الخاتمة أى خاتمة الله وعلمه واللامين والالف خلف تالية وهو آخرهم ورابعهم وتمام القدرة به لانه لا يقال لاحد من الحدود يعنى الوزراء ما قيل له وهو المهدى الذى وقع عليه هذا الاسم الاعظم بقوله أبو القاسم ولا يجوز أن يقع هذا الاسم الاعلى أعظم الحدود ونهايتهم كما أن لهاء نهاية لا اله الا الله

وقد عمل حجة للدخول على الحاكم دستورا بعث به الى أبى عبد الله محمد بن وهاب قال فيه ما محصله ﴿ لا تحضر لى مالم تدع اليه ولا تكلمه الا مجيبا وتقول بصوت منخفض جدا السلام فليأت السلام منك يا مولانا ويرجع اليك فانه لك ودينك مقام السلام أنت الميجل المجد يا سيدنا المتعالى لك المجد والكرامة * وإياك ان ترفع صوتك ولا تحرك يديك ولا تؤمى بعينيك ولا ترفع رأسك * وكان الناس يسجدون بين يديه ويقبلون الارض فاذا قابله أحد وهو راكب نزل عن مركوبه فاذا تقدم للسلام عليه سلم عليه من الجهة اليمنى واذا رفعوا له قصة كانت أسطرها فردية أى لا تكون زوجية وأن يكون كلام الناس معه بالفرد وعندهم أن هذه الامور كلها رموز في الدين التوحيدى لابد من العمل بموجبها وعندهم أن الحاكم لم يمت بل غاب عن الناس الى ساعة معلومة وهي القيامة التى

يعتبرون عنها بفوز الدين التوحيدى ومن الاسئلة والاجوبة الآتية يعلم بعض الشئ من معتقدتهم فى ذلك

- سؤال ماذا نفهم يوم الدينونة
 جواب هو اليوم الذى يلبس فيه مولانا ناسوته ويدين الناس بالسيف الدينونة القوية
 س كيف يتم ذلك ومتى
 ج لا يعلم أى متى يكون ذلك غير انه لا بد من ظهور علامات أولية نعرف بها الساعة
 س ما هى هذه العلامات الاولى
 ج هى تصرف ملوك الوقت فى الرعية على هوى أنفسهم وتسلط المسيحية
 س فى أى شهر يتم ذلك
 ج فى شهر جادى أو رجب حسابا هجرى
 س ماذا ترك مولانا عند غيخته
 ج ترك سجلا معلقا فى باب الجامع سماه بالسجل المعلق

وكان ملخص ما فى السجل المذكور هذه العبارة الآتية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * ان الاحسان فى الاستقبال هو للذين حادوا عن السبل المعوجة وابتعدوا عن حافة الجهال وكان ايمانهم حقيقا الذين يؤمنون بالله تعالى وولاته وشهادته عند الناس ونوابه فى الارض الذين سلم اليهم أمير المؤمنين أمور مخلوقاته وكذلك الاحسان للذين لا يخاطبون الا الابرار الذين يخافون الله والذين يؤمنون باليوم الآخر ايمانا صحيحا قلبيا خاليا من الشك والريب والله سبحانه لا يحرم أهل الخير وفاء على البر جزء ما يستحقون وما العداوة والبغضاء الا للاشرار والعصاة والابالسة والخداعين والكذابين الذين يقاومون الحق والمرائين الذين ينكرون اليوم الآخر وقد حى غضب الله عليهم وعلى الذين يسلكون السبل المعوجة ﴿ ثم بلى هذا تعظيم الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على النبي محمد وعلى آله وصحبه * ثم يأخذ كاتب ذلك السجل فى تعنيف الموحدين وتوبيخهم على الالهال والتغافل والجهل الذى وقعوا فيه ويحذره من سوء العاقبة ويذكرهم بما حصلوا عليه من الممافع الزمنية والروحية من لدن الحاكم رحمة منه ومنه حيث أنعم عليهم بجميع الحقوق الشرعية التى تؤهلهم للتصرف فى أنفسهم وفى مقتنياتهم على أنهم لا يستحقون شيئا من ذلك ويستأنفهم الى ما نالوه من الهبات الوافرة والعطايا الجزيلة من الذهب والفضة وجياد الخيل والمناشبة والاطعامات وغير ذلك وكيف ان الحاكم رفع أمرهم وأعلى مقامهم الى درجات العز والرفاهية ووسع سلطانهم شرقا وغربا فى السهول والجبال وفى البحر والبر حتى صاروا ملوكا وسلطين تحمل اليهم الجزية من كل صوب ودرب ويقول ان ما منحهم

اياء من المنح الروحية انما هو تعزيز لشريعة الاسلام وتوحيد دعائم بنيانها واقامة شعائرها
بزيين المساجد وتوسيع المعابد وضرب صنوف الرق والمذلة على جميع اليهود والنصارى
لا كراههم على اعتناق الاسلام ديننا وانشاء مدرسة للفقهاء والتوحيد * الى أن قال في السجل
المذكور * واعلموا معشر الموحدين أن ما نلتهموه من الهبات الروحية وفزتم بالحصول عليه فهو
نتيجة ولائه وصداقته مع الامم الخارجية وهما علة مجدهم وشرفكم في هذا الحين مع
أعلى السعادة والسلامة الابدية وهذه النعم انما هي لازدياد كنود الانسان وازدياد ذنوبه
فوان كان أعداء الله وأمير المؤمنين لم يحاربوا الله وأمير المؤمنين خوفا منه ورهبة الا أن
بعضهم حارب البعض الآخر واقتتلوا عاصين على الله عابثين بحرمته الدين مستخفين بمقام
الامير مستصغرين الايمان فأراقوا الدماء وتعدوا على أعراض الناس فتضاربوا وضرب دينهم
وضرب بهم نائب الله أمير المؤمنين فغضب الله سبحانه لذلك وغضب أمير المؤمنين من صنعهم
وخرجهم عن الطاعة فخرج لذلك أمير المؤمنين من بينكم لان الله سبحانه وتعالى قال
لست بمعاقبهم حتى تخرج من بينهم فغضب نائب الله يدل على غضب الله سبحانه وقد
ظهرت لكل ذي عينين علامات غضب الامام حيث أغلق أبواب أمته وأبطل مجالس
الحكمة وأخرج من قصره مكاتب القواد والعبيد ومنع جميع الناس من التسليم عليه ومنع
الجلوس على المقاعد حول قصره المقدس وامتنع عن اقامة الصلاة مع الجماعة في الاعياد
والمواسم وشهر رمضان ومنع المؤذنين من الاذان ومنع أن يقال له مولانا وأن لا تقبل الارض
بين يديه وأن لا ينزل الناس عن حميرهم وخيولهم اذا مروا به ولبس الصوف من ألوان
مختلفة ومنع حاشيته وعبيده من السير في ركابه وامتنع من اقامة الحدود وغير ذلك والناس
عن كل هذه العلامات غافلون فلذلك خرج أمير المؤمنين الذي هو نائب الله من بينهم وترك
جميع المخلوقات وشأنها جزاء ما فعلوه * فلهلوا أيها الناس هلموا قائمين في بداية السبيل الذي
سلكه أمير المؤمنين عند غيبته وتشبهوا به أنتم وبنوكم مطهرين قلوبكم من الاهواء
وأحسنوا النية أمام صاحب الكائنات وارجعوا اليه بقلوبكم واستغفروا لمن عليكم بارجاع
نائبه ولا يخرج أحدكم مفتشا عن أمير المؤمنين ولا سائلا عما جرى ولا تنقطعوا عن
الصلاة في مدخل تلك الطريق فائلين هنا نسكن وهنا نقيم فاذا حلت ساعة الرحمة ظهر
نائب الله بينكم باختياره وارادته فقوموا بذلك في الليل والنهار قبل حلول اليوم الآخر
وساعة الدينونة وقفل أبواب الرحمة والانتقام من العصاة اه وجاء في آخر السجل المذكور
ما معناه قد كتبه عبد أمير المؤمنين في ذي القعدة سنة احدى عشرة وأربع مائة مع الامر
بأن لا يمنع أحد من قراءته ولا استنساخه وحرم كل من يقدر على نسخه ولم يفعل
قلت ولا غرابة من تسمية صاحب هذا السجل للحاكم في هذه المرة باسم أمير المؤمنين
ونائب الله تعالى لان سجدته هذا كان مكتوبا للعالم بأسره فالتزم في تحريره جانب التستر
والمواربة ومع ذلك فانه لا يبعد تفسير كل كلمة منه بحسب تعاليم دين الموحدين فاسم الله

سجانه وتعالى عندهم ليس هو الا اسم لا هوت الحاكم ونائب الله وأمير المؤمنين هو اسم
 ناسوته * ولما غاب الحاكم وانقطع خبره عن أصحابه خاف زعماء دينه من الفتنة وردة
 أصحابهم فكتبوا لهم رسالة في بداية السنة الثانية عشرة والاربعمئة للهجرة يطمنونهم
 ويعنونهم بالاماني البعيدة ولكي يباعدوا بينهم وبين السقوط في الخطا من جرى توهم ظهور
 اللاهوت بعد الغيبة في جسم آخر وفي تلك الرسالة ما محصله الى الموحدين المؤمنين بوحدة
 مولانا سعيد يوم الدين خضعوا وسلوا لكل ما يأمر به مولانا من نحوكم وأيقنوا أنه سيعيد
 أنفسكم وأنفس جميع البشر وقد اعترفتم بوحدة وتوحيدهم بأن لا تكونوا عبيدا لسواه
 فاحذروا الشكوك واخشوا الله ولا تخشوا الناس وانكسروا على حماية العالي ولا تخافوا
 الا من لا قدرة لاحد خلافه فاذا جاءت الشدة وظهر الاضطهاد ظهر ثبات الايمان منكم
 اخواني انكم على يقين أن مولانا لا تخلو منه الديار فان لم تبصره أعينكم فما ذلك الا
 لتفاقم خطوبكم وكثرة ذنوبكم فافقهوا * قال بعض الكتاب والمراد من كلمة الدار هنا تجرد
 الحاكم في ثلاث من السنين وهي سنة ثمان وأربعمئة وعشر وأربعمئة واحد عشر
 وأربعمئة للهجرة * وعندهم أن ظهور الحاكم بعد تلك الغيبة تسبقه علامات مختلفة منها
 كشف ستر معلم الاديان الكاذبة منذ الدهور القديمة ومنها تهافت الناس قاطبة على الآثام
 والفجور والفساد والآراء الكاذبة ومنها ظهور الخداع الذي هو المسيح الدجال وله مخادع اسمه
 الحسد غشاش فيحارب زمان القيامة بيت الامامة ويقاقل حتى ينكسر وينهزم ويكون الخبر
 انهزامه ضجة في أرض الاقطاب ويعقبها زلزلة تهدم بيسان الفسطاط وظهور مخادع آخر
 في مدينة الفسطاط ومن علامات اليوم الاخير عندهم خراب مدينة حلب بجيوش المسيح
 الدجال الذي يخرج منها ويقال يومئذ ان خداع زمان القيامة الحسد غشاش قد خرج من
 حلب في يوم فحس وقد اجتمع الروم حول رايته فلا بد وأن يلقى تلك المدينة في ويل وحرب
 ومن العلامات أيضا خراب جميع مساجد الشام بالزلزال وضعف الايمان ووقوع الموحدين
 في شدة عظيمة للغاية وبلوغ النصرانية أوج الاعالي وغير ذلك مما لا يسعنا ابراده هنا
 ومن الامور الاساسية في الدين التوحيد عندهم معرفة وزراء الحاكم واحدا
 فواحدا الى قسمين ويجعلون لهم خمس رقب فالوزراء الاولون خمسة الوزير الاول حزة
 ويقال له العقل والثاني اسمعيل بن محمد التميمي ويقال له النفس والثالث أبو عبد الله
 محمد بن الوهاب القريشي ويقال له الكلمة والرابع أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السعدي
 ويقال له السابق والخامس أبو الحسن علي بن أحمد الملقب بهاء الدين ويقال له التابع
 وأما الوزراء الثانويون فهم أيوب بن علي ويقال له المجد ورفاع بن عبد الوارث ويقال له الفخ
 ومحسن بن علي ويقال له الخيال وأما غير هؤلاء فدعاة ونقباء وغير ذلك * وورد في كتبهم
 عن الوزراء الخمسة الموحدين العظام ما نصه فريدان خمسة أحرف دليل على خمسة حدود
 النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهو ذومعة العقل الكلي

النفسانى وذومعة النفس الروحانى والجناح الربانى والاعين الباب الاعظم وهو السابق
والسالى معدن العلوم ومنه ابتناؤها اه وكتب حجة الى أبى الحسن على بن أحمد الملقب
بالمقتنى وبهاء الدين ما صورته الى رابع الحدود النفسانيين وتالى الروحانيين تالى
السابق الفضل الشيخ المقتنى بهاء الدين اه

أما أصل هؤلاء الوزراء فهم كما ذكره حجة فى رسالته المسماة كشف الحقائق حيث
قال ما معناه و واعلم أن البارئ خلق من نوره الشعشاعى شخصاً كاملاً وهو الارادة التى هى
سيد جميع الاشياء وسماء العقل فكان ك كامل النور والقوة جمعت فيه الصفات الخمس
الاصلية وضمن فيه كامل ما هو كائن وجعله امام الائمة فى جميع الأزمنة والأجيال وهو
السابق الحقيقى لانه سبق الجميع بالاعتراف بوحدة الخالق والعقل كائن يدرك ويقع تحت
الحواس فى كل ويشرب وليس كما قال عنه السابقون لا يدرك وهو أول الكائنات التى
خلقها تعالى وسماه أيضاً علة العلل وهذا العقل تام العمل حكيم فى السكون قادر فى الحركة
وهو نقطة البيكار يحكم على الارضيات والسمويات وبه شرف الانسان ومجده فى الزمانيات
والروحيات وأول ما خلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزى
وجلالى ما خلقت أجل منك شيئاً بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب فلما
سمع العقل كلام البارئ نظر الى نفسه فرأى أن ليس له مثيل ولا تطير فظن أنه لا يكون له
منازع ولكن مولانا جل ذكره أخرج من طاعته العصيان ومن نوره الظلام ومن دعتيه
الكبرياء ومن حكمته الجهل وهى صفات أربع رديئة مضادة للصفات الاربع الحسنة وهى
العقل وصفاته وهى توقد العقل وقوة النور وراحة النواضع وبرودة الحكمة ورطوبة
المادة فكل آلة روحية آلة مضادة تقاوم العقل ونعصيه فأدرك العقل أن ذلك انما هو
تجربة من الخالق له تأديبا على ظنه فى نفسه الكمال فاعترف بضعفه واستغفره وسأله بأن
يجعل له معيناً على الضد المخالف وخليفة يتوب عنه عند المؤلف ليستغنى به عن مخاطبة
الضد ومشاكاة الند فأجاب وخلق نفس الوزير ذى مصة من العقل وهو التابع الخاضع له
وجعل له نصف ما للعقل فكان كالانثى والعقل كالذكر ولذلك يكون للذكر حظ الانثيين
وجميع الوزراء أولاد هذين الكائنين فالذكر هو العقل والانثى النفس والوزير المسمى
الكلمة هو تحت السابق والنفس تحت الكلمة والعقل فوق الجميع وهو روح الوزراء
وسابق جميع القدماء ونور فى الظلام يعنى بذلك (حجة) الذى هو العقل قالوا وأما الارواح
الضدية التى خرجت من نور العقل وجاءت النفس متوسطة بين نور العقل وكلام الضد لان
النفس حاصلة على نور العقل فتسمع كلامه وتتفجع بأوامره ولكنها تشترك فى ظلام الضد
الحادث فتعرف حيله ومكره وخداعه وهو ذولين لانه فى الاصل من نور العقل وما هو الا
ظلام وظلم بالنسبة اليه ولكنه لين بالنسبة الى خشونة العالم والكلمة أخرجت من العقل
لعاونته ومعاونة النفس على الضد وصدر السابق من النفس وقامت الكلمة عن اليمين

والسابق عن اليسار فأسمى الضد مخاطبا بالعقل والنفس والكلمة والسابق فحاول أن
يقلت من تحتهم فسمى بالحائر حيث حار في نفسه ثم سمي بابليس لانه خرج من العقل
دون ارادته كن ليس له أب لانه جاء على غير ارادة أبيه فهو ضد الاولاد الناموسيين أي
الموحدين الذين هم أولاد العقل وهو النور وأمهم الرحمة وهي النفس اه

ولحزة أسماء كثيرة في كتبهم وهي لحاته الروحانية المجردة عن الشخص الذي ظهر به
للناس ومنها * السابق الحقيقي * وذومصة * والارادة * والعقل الكلي * والعقل *
وقائم الزمان * والباب * والامام * والامر * وعلة العلل * والوزير الثاني يسمى
روحيا أيضا بالنفس * والنفس الكلي * والمشئة * وذومصة * والتالي * وحجة
الامام * وداعي الامام * والوزير الثالث يسمى كذلك الكلمة * والجناح * والجناح
الرباني * وداعي القائم * وسفير القدرة * وصاحب السعادة * والكلام * والوزير
الرابع يسمى السابق * والصغير * والباب السابق * وباب حجة القائم * والباب الاعظم *
والجناح الايمن * ويسمى الوزير الخامس أيضا بالتابع * والتالي * والجناح اليسر *
ورابع الحدود * وآخر الحدود * ولهم أسماء غير مذكورة أيضا وينسبون التعاليم الالهية
الى حجة الدلالة على نفسه وهي

سؤال كم مرة ظهر حجة وماذا كانت أسمائه
جواب قد ظهر في جميع الادوار من آدم الى النبي جسد أي سبع مرات (كذا في
الاصل الذي أخذنا عنه)

س ما هي الاسماء التي كانت له

ج كان اسمه في زمان آدم شطنيل وفي زمان نوح فيثوغوروس وفي أيام ابراهيم
داود وفي أيام موسى شعيا وكان المسيح الحقيقي في أيام يسوع وكان اسمه العازر
أيضا وفي أيام الهجرة كان اسمه سلمان الفارسي وفي أيام سعيد كان اسمه صالحا
من أين عرفنا شرف قائم الحق حجة بن علي علينا سلامه

س من شهادته بنفسه لنفسه حيث قال في رسالة التحذير والتنبيه * انا أصل مبدعان
ج المولى وأنا صراطه والعارف بأمره وانا الطور والكتاب المسطور والبيت المعجور
وانا صاحب البعث والنشور النافع في الصور وانا امام المتقين وأنا صاحب النعم
وانا الناسخ للشرائع ومبطلها وأنا مهلك العالمين وأنا النار الموقدة التي تطلع على
الافئدة

س من هو نقطة البيكار

ج حجة بن علي

س ماذا نفهم بالطريق المستقيم

- ج حجة بن علي الذي يسمى أيضا قائم الحق وامام الزمان والعقل والسابق والنبي
الكريم وعلة العلل
- س من هو قائم الزمان
- ج هو حجة بن علي
- س ما ذا نقول عن الانجيل الذي هو في أيدي النصارى
- ج هو حقيقى وفيه كلام المسيح الحقيقى الذى كان يسكن في أيام صاحب الهجرة
سلمان الفارسى وهو حجة بن علي
- س من هو الذى قام من القبر ودخل والابواب مقفلة حيث كان التلاميذ مجتمعين
- ج هو المسيح الحى الابدى وهو حجة عبد مولانا الحاكم
- وقد اختلفت حجة هذا بعد اختفاء الحاكم وغيبته عن الناس فلم يعلم له خبر صحيح فقال
بهاء الدين الذى هو المقتنى في غيبة حجة المذكور ما معناه عند ما غاب المعبود * يعنى
الحاكم * امتنع قائم الزمان عن الوجود اه
- وكان بعد وظائف الوزراء الخمسة عندهم على أيام الحاكم ثلاث رتب أخرى للذين
نعلقوا بخدمة دين التوحيد عندهم ويعرفون بالدعاة والمأذونين والمكاسرين الذين يسمون
عندهم أيضا النقباء * قال حجة ما معناه * يصح للداعى أن يسير للدعوة مأذونا ومكاسرا
وقال عن الدعاة * انهم دعاة الاجلال البائسون بالكشف لدعاة الاعور الدجال المتفاضلون
بتصوير الحقائق وهم من أذن لهم بالكسر والخبر وبعدهم النقباء المنزهون عن الكذب
الذين يعرفون حقوق وزراء الحق * قالوا ومن أعمال الدعاة أنهم يدعون الناس الى
الاعتراف بالوحدانية والمأذونون يخضعون للدعاة وعليهم القيام بتنفيذ أوامره ولا يعلم من
كتبهم شيا عن المكسرين وربما كان المقصود من اسمهم أنهم يكسرون الاعتقادات القديمة
الراخنة في عقول الناس ويهدونهم الى التمسك بالدين التوحيدي * ومن اعتقاداتهم ان
الله قال: للدنيا كوني فكانت على الحالة التى عليها الآن ذكورا واناثا وشيوخا وشبابا كهولا
وأطفالا آلاف آلاف وجعلهم يتوهمون أن لهم آباء وأجدادا وأمهات وجدات فكان كل
منهم يتوهم أن أباه فلان بن فلان وزاروا القبور فقرأوا العظام وكان يقول هذا هو ذا قبر
والدى وذلك هذا قبر أمى وهم جرا وكان كل انسان عارفا بعمله وصنعتة وحرفته فتوهموا
أنه منقول عن زيد وعمرو على أن ذلك لم يكن غيرهم وتخيل لجهل قوة البارى * قالوا ثم
أخسدت الانفس تنقل من جسد الى جسد بموت الجسد الاقل ويبقى هذا مدى الدوران *
وفيه ان الله سبحانه وتعالى معلم كل حرفة وعمل وعندهم أن أهل التنزيل هم المسلمون
وأهل التأويل هم النصارى وقد وضعوا في سؤالات وجوابات وهى
- سؤال ما هو اسم المسلمين
- جواب اسمهم التنزيل

- س ما هو اسم المسيحيين
 ج اسمهم التأويل الذين أولوا كلام الانجيل والمسلمون سموهم بالتزويل لانهم يعتقدون
 أن القرآن أنزل من السماء
 س كيف يدين الحاكم أصحاب الاديان الاجنبية عن التوحيد
 ج ينقسمون الى أربعة أقسام وهم المسيحيون واليهود والكفرة والموحدون
 س كيف تنقسم هذه الاقسام
 ج أما النصارى فهم النصيرية والمناولة وأما اليهود والمسلمون والكفرة فهم الذين
 تركوا دين مولانا الحاكم
 س ما هو قصدنا من مدح الانجيل
 ج ان قصدنا انما هو تمجيد اسم الحاكم بأمر الله وهو حجة نفسه لانه هو الذى علم
 الانجيل والانجيل مبني على حكمة الهيئة ومعناه الرمزى يدل على الدين التوحيدي
 س ماذا نقول عن الشهداء الذين يعظم المسيحيون بسالتهم ويكثرون عددهم
 ج نقول ان حجة لم ير من الموافق الاعتراف بهم ولذلك رفضهم ولو شهد بهم جميع
 المؤرخين
 س اذا قالوا لنا ان حقيقة دينهم مؤسسة على أدلة وبراهين أقوى من كلام حجة
 وأثبت منه فماذا يكون جوابنا وبأى شئ عرفنا جودة حجة بن علي
 ج بشهادته لنفسه عند ما قال أنا أول خلق المولى
 س ما ذا نقول عن الانجيل الذى فى أيدي النصارى
 ج هو حقيقى لانه يتضمن كلام المسيح الحقيقى الذى كان اسمه فى أيام محمد سلمان
 الفارسى وهو حجة بن علي والمسيح غير الحقيقى هو المولود من مريم فانه ابن يوسف
 س أين كان المسيح الحقيقى عند ما كان المسيح غير الحقيقى مع التلاميذ
 ج كان معهم وكان من تلاميذه وفاه بكلام الانجيل وعلم المسيح بن يوسف وأراه ماذا
 ينبغى أن يفعل ليكون عمله منطبقا على ناموس الدين المسيحى فكان يصغى اليه
 ويلتفت ثم انه خالف بعد ذلك المسيح الحقيقى فألقى بغضه فى قلوب اليهود فقاموا
 عليه حينئذ وصلبوه
 س ماذا جرى بعد الصلب
 ج دفن فأتى المسيح الحقيقى وأخذ من القبر وخبأه فى البستان ثم أذاع بين الناس
 أن المسيح قام من بين الاموات
 س لماذا فعل ذلك
 ج لانشاء الدين المسيحى ولحفاظ الناس على التعاليم التى علمهم اباها
 س لماذا فعل هذا كله وخدع الغير المؤمنين

ج فعل ذلك ليتمكن الموحدون من الاستئثار بالدين المسيحي بحيث لا يعلم أحد بهم
 س من هو الذي نهض من القبر ودخل المكان الذي كان التلاميذ فيه والابواب مقفلة
 ج هو المسيح الحى الذى لا يموت وهو حجة عبد مولانا الحاكم
 س من الذى أذاع الانجيل
 ج متى ومرقس ولوقا ويحنا وهم النساء الاربع
 س كيف لم يعرف النصارى الدين التوحيدى
 ج لم يشأ الله ذلك وهو الحاكم بأمر الله * والله هنا اسم لحجة
 س كيف يمكن ان الله يستحسن الضرر ويرضى عن عدم الايمان
 ج قد جرت عادة مولانا أن يعرف البعض ويعرض عن البعض
 س اذا كان الوقوع فى عدم الايمان هو منه فلماذا يجازون عليه
 ج يجازون لظهاره نفسه لهم وهم لا يطيعونه
 س كيف يطيعون رجلا قد خدع حيث كانت الاشياء مجهولة عنده كما ورد ابسنا عليهم
 ومكرنا بهم
 ج لا يجب أن يحاسبوا على ذلك ولا يصح أن يطلب الى الحاكم تبين أسباب
 تصرفه بعبيده

وكانوا يعتبرون الديانة النصرانية ويجلوها فقد غنوا احدى رسائلهم الموسومة
 بالمسيحية للفتنى بهذه العبارة ❀ الى جميع من تقرب الى اللاهوت بحقيقة القربان وتمسك
 به من كل أهل الحق من قسيس وبطرک ومطران ❀ ومن مذهبهم أيضا الاشتراكية أى
 انهم جميعا اخوة بعضهم لبعض ومن المقرر عندهم ذب القوى منهم عن الضعيف والذود
 عنه جهد الاستطاعة وجل كل فرد منهم لسلاحه ليل ونهار للدفاع عند الحاجة فقد قال
 حجة ما معناه أطلب اليكم أن يذب بعضكم عن بعض فانكم جميعا اخوة فاذا فعلتم ذلك
 كل ايمانكم وافضوا حاجات بعضكم الدينية والعالمية واقبلوا عذر بعضكم بعضا وكونوا
 أعداء من يخدعونكم وزوروا المرضى منكم وأحسنوا الى المساكين * وقال بهاء الدين
 باباكم وأن يحاكم بعضكم بعضا فان ذلك مجلبة للبوار * ولهم مبادئ وأصول وشرائط كثيرة
 لا يسعنا ايرادها هنا اكتفاء بهذا القدر نقلا عن أصدق الكتاب وأدقهم تقيما للفائدة *
 وأقام الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله يتصرف فى الملك ويدبر أموره على ما يشاء
 حتى كان من أمره ما سيذكر فى خلافة القائم بأمر الله

ومات فى خلافة القادر بالله توفانيوس بطرک الاسكندرية بعد أن أقام أربع سنين وفى
 رواية أربع سنين وستة أشهر فقدم المناصلون بعده مينا وهو حادى ستيهم وأصله من مدينة
 جولاً وكان راهبا بدير أبو مقار فأقام احدى عشرة سنة ومات نخلا الكرسي بعده سنة وقيل
 أقام سبع عشرة سنة فأقيم بعده أفرام أو هو ابراهيم السريانى ابن زرعة وهو ثمانى ستيهم

فأقام ثلاث سنين وقيل ثلاث سنين وستة أشهر ومات مسجوماً من بعض كبار كتاب القبط على ما شاع يومئذ وسببه منعه من التسرى فخلاً الكرسي بعده ستة أشهر وكان ورعاً تقياً كثير المحبة للفقراء غيوراً على الدين جاهد جهاداً عظيماً في إبطال التسرى وقد كان شائعاً قبله قيل وظهرت على يديه عجائب كثيرة وآيات عديدة والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق وفي أيام إبراهيم هذا بنيت عدة كنائس مما هدم بسبب الفتن المتتابعة والآخر المترددة وكانت أيامه كلها همدواً وطمأنينة فلما مات أقيم بعده فيلوثاوس وهو ثالث ستمهم وكان راهباً بدير أبو مقار ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل السادس والعشرون)

(في خلافة أبي جعفر عبد الله القائم بامر الله بن القادر بالله)

ثم قام بالامر بعد القادر بالله ولده أبو جعفر عبد الله القائم بامر الله جددت له البيعة وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين كما تقدم القول واستقرت الخلافة له وذلك سنة اثنين وعشرين وأربعمائة هجرية أي سنة ثلاثين وألف ميلادية قال أصحاب التاريخ وأول من بايع له الشريف أبو القاسم المرتضى وأنشده

فأما مضى جبل وانقضى * فنك لنا جبل قد رسا
وأما فجئنا بيدر التمام * فقد بقيت منه شمس الضحى
لنا نحن في محل السرور * وكم ضحك في خلال البكا
فيا صار ما أغمدته يد * لنا بعدك الصارم المنتضى

وهي طويلة للغاية وأرسل القائم بامر الله قاضي القضاة أبا الحسن الماوردي إلى الملك أبي كالجار ليأخذ له البيعة ويخطب له في بلاده فأجاب إلى ذلك وخطب له في بلاده وأرسل إليه هدايا جليلة وأموالاً كثيرة فلم تستقر بالقائم الخلافة حتى قامت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أن الملقب بالذكور أظهر العزم على الغزاة واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له وكتب له دستوراً من دار الخلافة وأعطى علماً فأجتمع له لقيف من الناس فسار واجتاز بباب الشعير وطاف الخرافى وبين يديه الرجال بالسلاح فبينما هم على هذا الحال من التطواف إذ تحرك جماعة منهم وصاحوا بذكر أبي بكر وعمر وقالوا هذا يوم معاوى فتبعهم الجميع وصاحوا كذلك فنافرهم أهل الكرخ ورموهم وثارت الفتنة ونهبت دور اليهود لأنهم قبل عنهم أنهم أعانوا أهل الكرخ فلما كان الغد اجتمع السنية من الجانبين ومعهم جمع من الترك وقصدوا الكرخ فأحرقوا وهدموا الأسواق وأشرف

أهل الكرخ على خطر عظيم للغاية وسئل الخليفة في ذلك فأنكره إنكارا شديدا ونسب اليهم تخزين علامته التي مع الغزاة فركب الوزير عند ذلك يريد تلافى الامر قبل استفحاله فوقعت في صدره آجرة فسقطت عمامته واشتد الحال واتسع الخرق وقتل من أهل الكرخ جماعة وأحرق وخرب في تلك الفتنة عدة أسواق كبيرة وعمائر واسعة وقتل العامة الكلالكي وهو صاحب العونة وأحرقوه ووقع القتال في أصقاع البلد من الجانبين واقتتل أهل الكرخ ونهبوا الاسواق وقطع الجسر ليفرق بين الناس وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة وأرادوا قطع خطبته ففرق فيهم المال وحلف لهم الايمان الغلاظ فسكنوا ثم أعادوا الشكوى الى الخليفة منه وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته فلم يجبههم الى ذلك فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس للناس وضرب النوبة وأوقات الصلوات وانصرف الطبايون لانقطاع الجارى لهم ودامت هذه الحال الى عيد الفطر فلم يضرب بوق ولا طبل ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط وما دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة حتى انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وزالت هيبتها أو كادت وعم الخلل وارتفع الامن حتى ان بعض الجند خرجوا الى قرية على مقربة من بغداد فلقبهم جماعة من الاكراد فأخذوا منهم دوابهم فذهبوا الى مراح الخليفة فنهبوا أشياء من عمرته وقالوا للعاملين فيه أنتم عرفتم حال الاكراد ولم تعلمونا فبلغ الخليفة الحال فعظم عليه جدا ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الاكراد لهجزه وشدة وهنه واجتهد في تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والى الشهود بترك الشهادة والى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الاجناد ليحبسوه الى أن يحملهم الى ديوان الخليفة ففعلوا فلما وصلوا الى دار الخلافة أطلقوا وعظم أمر طائفة العيارين من الجند فصاروا يأخذون أموال الناس ليلا ونهارا ولا مانع يمنعهم لان الجند لا يحمون الا عن السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر كذلك العرب في البلاد فعانوا ونهبوا وقطعوا الطرق وبلغ النهب الى أطراف بغداد وأخذوا ثياب النساء فكانت فتنة شديدة ومحنة كبرى

وكان في أيام القائم بأمر الله أى سنة ثلاثين وأربعمائة قيام دولة السلاطين السلجوقية وانقراض دولة بنى بويه فكانت مدة ملكهم مائة سنة وسبعاً وعشرين سنة ذكر ذلك ابن البطريق في تاريخه في حوادث سنة ست وأربعين وفي أيامه أيضاً أى في سنة ست وستين وأربعمائة غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي من بغداد * قال أصحاب التاريخ وسببه أن دجلة طغى ماؤه وارتفع كثيرا وانفتح القورج عند المسناة المعزية وجاء في الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية وهبت ريح شديدة جدا وجاء الماء الى البيوت من فوق وفاض من البلايص والآبار بالجانب الشرقي فهدم البيوت وسقطت على ما بها من الخلق فمات خلق كثير فكثر الصياح من كل صوب وحذب وترك الناس بيوتهم وهم يضحجون ويهجون الى الله وقام الخليفة يتضرع ويدعو الله وعليه البردة وبيده القضيب واشتد الكرب بالناس وكبر

خوفهم وتم هدم أكثر المقابر بالجانب الشرق ومعظم الاسوار ودخل الماء من شيا بيلك
 البيمارستان المعصدي وكانت شدة بالها من شدة * قال بعض الكتاب ومن عجيب ما يحكى
 في هذا الغرق أن الناس كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والجور فقطع بعضهم أوتار عود
 مغنية كانت عند أحد العسكر فناربه ذلك الجندى فضر به فأجعت عند ذلك العامة وعات
 الضوضاء وكان ممن اجتمع مع العامة كثير من الائمة منهم أبو اسحق الشيرازى واستغاثوا
 الى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وألحوا في ذلك فوعدهم الخليفة بأنه سيكتب
 السلطان في ذلك فسكنوا وتفرقوا وقد لازم الكثير من الصالحين الدعاء بكشفه فانفق أن
 غرقت بغداد ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم وعمت مصيبتهم كافة الناس فرأى
 الشريف أبو جعفر بن موسى بعض الحجاب الذين كانوا يقولون للناس نحن نكتب السلطان
 في أمر الحانات والمغنيات ونسعى في تفريق الخلق وينتهرهم ويقول لهم اسكنوا الى أن
 يرد الجواب فقال له أبو جعفر قد كتبنا يا رجل وكتبتم فجاء جوابنا قبل جوابكم يعنى
 أنهم شكوا ما حل بهم الى الله تعالى فأجابهم بالغرق قبل ورود جواب السلطان اه
 ومع ما كان عليه الخليفة القائم من رقة الجانب وحسن السيرة وطيب الاخلاق والميل
 الى قضاء حوائج الخلق فانه كان مغلوبا على أمره لا كلمة له البتة ولا رأى ولا صوت مع
 السطو قيسين بعد بن بويه فكانوا اذا رأوا منه انحرافا عنفوه وهددوه وشددوا في المراقبة
 عليه فكانت دار الخلافة كلها عيونا وأرصادا للسلطان وما زال الحال هكذا حتى مات
 الخليفة سنة سبع وستين وأربعمائة لعشر ايام مضت من شعبان فكانت خلافته
 أربعين وأربعين سنة وثمانية أشهر وقيل خسا وأربعين سنة وفي رواية أنه خلع ثم أعيد
 الى الخلافة ثانية ولكن أصحاب التاريخ لم تذكر شيئا من ذلك * قال صاحب الكامل
 وسبب موته أنه كان قد أصابه ما شرا فاقتصد ونام منفردا فانفجر فصاده وخرج منه دم كثير
 ولم يشعر واستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته فأيقن بالموت فأحضر ولى العهد ووصاه بوصايا
 وأحضر المنقبين وقاضى الفضاة وغيرهم مع الوزير أبي جهم وأشهدهم على نفسه أنه جعل
 ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القاسم بأمر الله ولى عهده فلما مات غسله الشريف
 أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي وصلى عليه المقتدى بأمر الله وكان عمره ستا وسبعين سنة
 وثلاثة أشهر وخمسة أيام * وكان القائم مليح الوجه أبيض مشربا حرة حسن الجسم ورعا
 دينيا زاهدا عالما قوى اليقين كثير الصبر ميلا للعدل قال محمد بن علي بن عامر الوكيل
 دخلت يوما الى المخزن فلم يبق أحد الا أعطاني قصة فامتلت أكمى منها فقلت في نفسي
 لو كان الخليفة أنى لأعرض عن هذه كلها فألقيتها في بركة والقائم ينظر ولا أشعر فلما
 دخلت اليه أمر الخدم بإخراج الرفاع من البركة فأخرجت ووقف عليها ووقع فيها بأغراض

أصحابها ثم قال لي يا عاى ما حالك على هذا فقلت خوف الضجر منها فقال لانعد الى مثلها فانا ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً انما نحن وكلاء

ومات في خلافته أبو الحسن على الظاهر لأعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله وكان موته في سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية الا أنه كان مشتغلاً بلذاته محباً للدعة والراحة ففوض الأمور الى وزيره أبي القاسم على بن أحمد الجرجاني لمعرفته بإخلاصه وكفايته ولما مات ولّى ابنه أبو تميم معتمد ولقب المستنصر بالله ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة فكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في خلافة المقتدى بأمر الله * ومات في خلافة القائم أيضاً فيلوثاوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربعاً وعشرين سنة وقامت في أيام فيلوثاوس طائفة الملكية على المتأصلين أهل البلاد الذين هم قبط مصر فأخذوا منهم كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك كرها ونسبها لرسانيوس بطرك الملكية قهراً فقامت لذلك الفتنة بين الفريقين واشتدت الخلاف وكثر الاخذ والرد وطال الحال على ذلك أياماً وكادت الفتنة تبلغ مبلغاً عظيماً لولا الخطوب المتتابعة والكروب المتراكمة فتركه المتأصلون الأمر الى حين آخر * ولما مات فيلوثاوس المذكور أقيم بعده زخرياس وهو زخرياس رابع ستمهم وكان قسيساً بمدينة الاسكندرية فوقع له من البلايا والهن ما سيذكر في محله

(الفصل السابع والعشرون)

(في خلافة أبي القاسم المقتدى بامر الله بن محمد بن القائم بامر الله)

ثم قام بالأمر بعد القائم بأمر الله ولد ولده أبو القاسم عبد الله المقتدى بأمر الله بوضع له بالخلافة يوم موت جده القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وألف ميلادية وحضر مؤيد الدولة بن نظام الملك والوزير نجر الدولة بن جهير وابن عميد الدولة والشيخ أبو اسحق وأبو نصر بن الصباغ وبقية النقباء وغيرهم من رجال الدولة والامائل فبايعوه * قال بعض الكتاب وكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي مومى الهاشمي وذلك أنه كان قد تولى غسل القائم فلما فرغ منه قام وبايع المقتدى وأنشده * اذا سيد منا خلا قام سيد * ثم ارتج عليه فقال المقتدى * قوّل بما قال الكرام فعول * ولم يكن للقائم من أعقابيه ذكر سوى المقتدى فان الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفي

أيام أبيه ولم يكن له غيره فتحقق الناس انقراض نسله وانتقال الخلافة من البيت القادرى الى غيره وتوقعوا اختلال الاحوال بعد القائم لان من عدا البيت القادرى من العباسيين كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقه فاذا ولى أحدهم يحكم الضرورة لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة التى هى لآل البيت القادرى وكان للخليفة أبى العباس ولد القائم جارية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما مات ورأت ما نال القائم من المصيبة بانقراض عقبه ذكرت أنها حامل فتعلقت النفوس بذلك فولدت بعد موت سيدها أبى العباس لسنة أشهر ذكرا فسموه المقتدى واشتد فرح القائم وعظم به سروره وبالع فى الاشفاق عليه والمحبة له * قال بعض الكتاب فلما كانت حادثة الباسرى (وهى طويلة) أضربنا عن ايرادها هنا) كان للمقتدى المذكور أربع سنين تقريبا فأخفاه أهله وحمله أبو الغنائم بن المطلبان الى حران فلما عاد القائم الى بغداد بعد قيام الفتنة واختلاف أمورها بسبب الباسرى المذكور أعيد المقتدى اليه فلما بلغ الحلم جعله ولى عهده واستقرت بالمقتدى الخلافة فأقر نحر الدولة بن جهير على الوزارة بوصية من جده القائم وسير حميد الدولة بن نحر الدولة بن جهير الى السلطان ملكشاه ليأخذ له البيعة وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجلب عن الوصف

ووردت الاخبار الى المستنصر بالله العلوى صاحب مصر بموت القائم وولاية المقتدى ففرح بذلك وظن بلوغ مافى نفسه وكتب الى صاحب مكة ابن أبى هاشم يسأله أن يعيده له الخطبة بمكة وكانت قد انقطعت وعادت الى العباسيين وأرسل له هدية سنوية للغاية ورسالة يقول فيها ان أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا فاخطب لى فخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدى فكانت مدة الخطبة العباسية بمكة أخيرا أربع سنين وخمسة أشهر ثم أعيدت فى ذى الحجة سنة ثمان وستين فلم يتم للمستنصر هذا الامر حتى سار الاقيس من دمشق الى ديار مصر مع جيش عظيم يريد أخذها من المستنصر وكان قد أخذ دمشق بعد حروب أضربنا عن ايرادها هنا فحاصر مصر بعد وصوله اليها وأطال الحصار وشدد وضيق ولم يبق الا أن يملكها فاجتمع أهلها مع ابن الجوهري الواعظ فى الجامع وبكوا وتضرعوا وابتلوا الى الله تعالى فاستجاب الله لهم فلما خرجوا لقتال الاقيس المذكور اتهم من غير قتال وعاد على أقبح صورة بغير سبب فوصل الى دمشق وقد تفرق أصحابه فرأى أهلها قد صانوا مخلفيه وأمواله فشكروهم ورفع عنهم الخراج تلك السنة وأتى بيت المقدس فرأى أهله قد قبضوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم فى محراب داود عليه السلام فلما قارب البلد تحصن أهله منه وسبوه فقاتلهم حتى فتح البلد عنوة ونهب وقتل من خلفها كثيرا جدا حتى أعمل السيف فىمن التجأ الى المسجد الأقصى وكف عن كان عند الصخرة وحدها قال صاحب الكامل هكذا يقول الشاميون هذا الاسم اقيس والصحيح أن اسمه أئسر وهو اسم تركى قال وقد ذكر بعض مؤرخى الشام ان أئسر هذا لما وصل الى ديار

مصر جعل أمير الجيوش بدرب العسكر واستمد العرب وغيرهم من أهل البلاد فاجتمع معه خلق كثير واقتتلوا فانهزم أنسز وقتل أخ له وقطعت يد أخ آخر وعاد منهزما الى الشام في نفر قليل من عسكره فوصل الرملة ثم سار منها الى دمشق * وقال آخرون ولما وصل أنسز الى بلاد مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة في الناس وظلموا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا الافاعيل القبيحة فأرسل عظماء القرى جماعة فتقدموا الى المستنصر بالله العلوي يشكون اليه ما نزل بهم فأعاد الجواب بأنه عاجز عن دفع هذا العدو فقالوا نحن نرسل اليك من عندنا الرجال المقاتلة يكونون معك ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحا وعسكر هذا العدو قد آمنوا وتفرقوا في البلاد فنشور بهم في ليلة واحدة ونقلهم وتخرج أنت اليه فيمن اجتمع عندك من الرجال فلا يكون له بك قوة فأجابهم الى ذلك وأرسلوا اليه الرجال وناروا كلهم في ليلة واحدة بن عندهم فأوقعوا بهم وقتلوه عن آخرهم ولم يسلم منهم الا من كان عنده في عسكره وخرج اليه العسكر الذي كان عند المستنصر العلوي بالقاهرة فلم يقدر على الثبات قبلهم فولى منهزما وعاد الى الشام مذعورا فتبعه العساكر المصرية وتقدمهم نصر الدولة وما زالوا خلفه وهو يجتهد في السير حتى دخل دمشق فلقوه وحصلوا دمشق وضيقوا عليها فأرسل اقيس الى تاج الدولة تنش يستنصر به فسار الى نصرته فلما سمع المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المهزمين وخرج صاحب دمشق يلتقيه عند سور البلد وكأنه ندم على الاستنجاد به فاغتاز تاج الدولة من ذلك حيث لم يبعد في تلقيه وعاتبه فاعتذر الاقيس بأمور لم يقبلها تاج الدولة وقبض عليه في الحال وقتله ودخل دمشق بن معه من الجنود وملكها وأخذ يتصرف في أمورها فأحسن السيرة في أهلها وعدل فيهم وذلك سنة إحدى وسبعين وأربع مائة كما رواه ابن الهمداني وغيره من العراقيين * وأما الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي صاحب تاريخ دمشق فقد قال ان تاج الدولة تنش المذكور كان غلبه في سنة اثنتين وسبعين ولما كان شهر ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وصل أمير الجيوش في عساكر مصر الى الشام فحصر دمشق وضيق عليها وبها صاحبها تاج الدولة تنش وما زال يقاتلها ليلا ونهارا حتى أعياه أمرها ولم يظفر منها بشيء فرحل عنها عائدا الى مصر واتسعت كلمة تنش فلك حصا وغيرها من سواحل الشام وأخذ منها ما كان بيد صاحب مصر فسير أمير الجيوش بدرا وزير المستنصر عسكرا عظيما الى تلك الاطراف فقاتلوا قتالا عنيفا حتى رجعت الى الطاعة وقرر أمير الجيوش أمورها وجعل فيها الامراء وولى مدينة صور أمير اسمعيل الدولة الجوشي فلم تستقر به الولاية حتى عصى وخرج عن طاعة المستنصر فركب عليه أمير الجيوش في عسكره وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه فلما وصل أمير الجيوش بالعسكر المصري الى صور وأحاطوا بالبلد وقاتلوا نار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلموا البلد فهجم العسكر المصري بغير مانع ولا مدافع ونهبوا ما في البلد من مال ومتاع وأسروا منير الدولة ومن معه

من أصحابه وجعلوا الى مصر فقتلوا عن آخرهم

وكانت أمور البلاد في قلق واضطراب بسبب المجاعة العظيمة التي لم يسمع بشئها من قديم الزمان * قال أصحاب التاريخ اشتدت المجاعة بمصر في هذه الايام أعنى في أيام المستنصر بالله العلوى حتى أكل الناس بعضهم بعضا وكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير واشتد الغلاء وعظم البلاء على الناس حتى شوهده في كثير من الاحيان أن ما بقى من الكلاب كانت تدخل الدور وتأكل الاطفال وهم في المهود وآبأؤهم وأمهااتهم ينظرون اليهم ولا يقدرون على النهوض لخلاصهم من شدة الجوع وكان الرجل يسرق ابن جاره وبذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك قالوا وكان في مصر حارة بها عشرون دارا كل دار يساوى ثمنها نحو ألف دينار يقال انها بيعت كلها بطبق خبز فسميت من ذلك الوقت بحارة الطباق وخرجت امرأة يوما الى السوق وبسطها عقد من الجوهر فقالت من يأخذ منى هذا العقد ويعطينى عوضه فحبا فلم يجد من يأخذ منها فالتفتت الى العقد وقالت اذا كنت لا تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك وألقته على الارض وسارت مضطربة * ويقال ان وزير المستنصر ركب بغلة يوما الى دار المستنصر فلما نزل عنها أخذها غلمانها وأكلوها ولم يتركوا منها الا المشامش والجلد وكان الرجل يعيش من جامع ابن طولون الى باب زويلة ولا يرى في وجهه انسانا الا نادرا ولبث الحال على هذا الوصف أياما كثيرة مات فيها من الناس والبهايم وبقيت الحيوانات مالا يكاد يدخل تحت الحصر وارتفع النيل على عادته وعم الاراضى وهبط ولم يوجد من يزرع الارض سنة * وكثرت الفتن في البلاد وعظمت نارها ما بين الاتراك جنود السلطنة والسودان أتباع المستنصر وغلمانهم الذين عليهم معتمده وقد كانوا كثيرى العدد والعدد ولهم الكلمة النافذة والقول المطاع وكانت والدته المستنصر تخرج اليهم لانها كانت سوداء مثلهم وتحب ظهورهم على جماعة الاتراك وانفق أن المستنصر خرج يوما الى بركة عميرة التي هي بركة الحج على عادته ومعه جماعة من أصحابه وطائفة من السود وأخرى من الاتراك فنزلوا هناك يتعاطون الخمر فأمرط أحد الاتراك في شربها حتى سكر وقام ويده سيفه فأهوى به على أحد السود من أولئك الغلمان فصاح الاسود في وجه التركي وقام بقية الغلمان عليه فقتلوه بسيوفهم وانقضى ذلك اليوم وعاد المستنصر الى القاهرة فدخل عليه جماعة من كبار الاتراك وقالوا ان كان قتل صاحبنا باغرائك فالسمع والطاعة والا فالسيف يحكم بيننا وبين السود فأناكر المستنصر ذلك وحلف انه لم يأمر بقتل صاحبهم فخرجوا من فورهم لقتال السود فاجتمع الفريقان واقتتلوا في الازقة والحارات في القاهرة ومصر قتالا عنيفا حتى جرى الدم فيها ثم افترقوا على أن القاتل يسلم الى جماعة الاتراك وبقيت الاحقاد كامنة في قلوب الفريقين حتى قدم الاتراك عليهم ناصر الدولة أحد كبار اقواد الخلويعين فجمع كلمتهم وأحسن تدبير شؤنهم وجعل يتأهب لقتال السود فرأى جماعة السود أن لا قبل لهم على قتال الاتراك فنزلوا الى الصعيد الاعلى فانضم اليهم كثير من العربان والمصريين فقويت

فلو بهم وكثرت جوعهم وانحدروا الى القاهرة والاسكندرية وقاتلوا الاثراك وأوقعوا بهم في
كوم شريك فكانت الدائرة على السود وقد مات منهم خلق كثير وغرق منهم جماعة في النيل
قال بعض الكتاب فكان من قتل وغرق منهم زهاء ثلاثين ألفا ومات مقدمهم المدعو أبا
سعيد وكان من المقربين عند والدة المستنصر فكبر عليها هذا الامر جدا وأخزنها وكثر عبث
السود في القاهرة ومصر وسائر القرى والبلاد وعم الخطب واستفحل أمر الفتنة وطالب
الاثراك المستنصر بما لهم من الجوامك والموتبات وألحوا في الطلب وركبوا على المستنصر
وهددوه فاعتذر لفاد ما في يده وطاولهم فلم يقنعوا وكانوا لا يتكفون عن مطالبته كل قليل
من الزمان فسقط في يده وخرج يوما هائما على وجهه حتى دخل جامع عمرو بن العاص
بفسطاط مصر وأقام به يريد خلع نفسه وترك أشغال الملك لمن يتولاه فلم يفعل وأعاده رجال
دولته وألحوا عليه بالبقاء وعاد الاثراك والسود الى الفتنة وخروج بعضهم على بعض فاقتلوا
ثانية عند الجيزة أيا ما كثيرة كانت الحرب بينهم سجالا ثم دارت الدائرة على السود فأوقع بهم
الاثراك ومزقوا شملهم كل ممزق فترفعوا الى الصعيد الاعلى وعاد الاثراك الى القاهرة ومعهم
مقدمهم ناصر الدولة وقد صغرت مهابة المستنصر في أعينهم فطالبوه بالزيادة في رواتبهم
وما زالوا به حتى بلغت أربع مائة ألف دينار نقرة في كل شهر بعد أن كانت ثمانيا وعشرين
ألفا فاشتد خوف المستنصر من ناصر الدولة وأصحابه وكبرت طيرته فكان لا يرتاح في أكله
ولا شربه ولا فومه حتى في صلاته وكذلك كان وزرائه فقاموا أنفسهم من منصب الوزارة
ومع ذلك كان الاثراك لا يتكفون عن مطالبته بالمال فأخرج كل ما كان في قصره من الذخائر
الثينة والتحف الغالية التي كانت لأجداده وباعها لهم بأجنس الاثمان وقد كانت شيئا
كثيرا جدا من الحلى والاحجار الكريمة والاوراق من الذهب والفضة والقماش والرياش
والسروج المحلاة بالياقوت والزمرد والمرجان والسيوف الهندية مما لا يكاد يدخل تحت
الحصر فلما استصفوا ما في قصره أخذوا أيضا ما كان في قبر أجداده من التحف والنفائس
ونهبوا ما كان في خزانة الكتب من الكتب النفيسة * قال بعض أصحاب التاريخ وعددها
عشرون ألف مجلد فاقتسموها بينهم وسيروا الى ابن المحترق حاكم الاسكندرية بشئ كثير منها
وكان يزعم أنه يخصه فلما بلغوا بالكتب بلدة أبيار خرج عليهم جماعة من عربان قبيلة لواتة
فنهبوا واتخذوا لهم من جلود بعضها أحذية وأحرقوا بعضها وتركوا بعضها ملقى في بعض
الدروب فانهمالت عليه الرمال حتى صار تلا نظيما فكان يعرف بتسل الكتب وكثر عبث
جماعة الاثراك وازداد طغيان ناصر الدولة وعسفه فكتب اليه المستنصر يوما يقول لما تقربت
منا وتطلبت حايثنا حينئذ وأوسعناك هبات وخبرات فكافأتنا بالعقوق وما زادك حلمنا الا حقة
فألقيت عصا الشقاق في جيوشنا وبواطأت مع ذوبك على دمارنا فالآن اخرج من عاصمتنا
ونحن نضمن لك الامان ونأذن لك بأن تحمل معك من ثروتك ما شئت الى حيث شئت وان
لم تدعنا الى ذلك فالعقاب ان شاء الله شديد فلم يلتفت اليه ناصر الدولة فكبر الامر

على المستنصر وجع اليه قواد المغاربة وأمراء كتامة ومن استمالهم من قواد الاتراك وبينهم الامير دكوز صهر ناصر الدولة وكان نافذ الكلمة واسع الهيبة وكلهم في أمر ناصر الدولة وما يأتيه جماعة الاتراك في كل يوم من الجور والعسف وهدم أركان السلطنة وجدد عليهم بيعته فبايعوه وحلفوا الايمان فتسلل عند ذلك أصحاب ناصر الدولة وتفرقوا عنه الا القليل فخرج الى الجزيرة ليدبر الخيلة في ذلك فثار أصحاب المستنصر وانتهبوا بيت ناصر الدولة وسائريوت أصحابه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وعم القتل والنهب وخرج المستنصر بالله راكبا على فرس في درعه وآلة حربيه وأمامه الطبول الحربيه وحوله القواد و كبار العسكر والاعلام تخفق على رأسه ونادى مناديه بالامان والطاعة الى السلطان فتوافد الاتراك زمرا ومروا من تحت العلم الكبير وصاحوا بطلب الامان وجاء جماعة من كبار قواد ناصر الدولة وفعلاوا كذلك وكثرت الغوغاء وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان فلما رأى ناصر الدولة ما حل بأصحابه وأيقن أنه مأخوذ لالمحالة فترهبا في نفر من خواصه الى الاسكندرية ويحصن بها وجعل يدس الدسائس ويبعث البعث الى ما جاورها من المدن والبلدان لجل أهلها على الخروج عن طاعة المستنصر وخاع بيعته والمبايعة الى الخليفة القائم بأمر الله العباسي واستمال اليه جماعة من عربان أولاد علي وأمتهم بالمال فطافوا يحرضون الناس على الخروج فأفلحوا قليلا فأنحدر عند ذلك ناصر الدولة الى القاهرة مع من وافقه يريد حصارها وأخذها من المستنصر وأحرق كل ما مر به من المدن والقرى والمزارع وعاث وأفسد حتى أحاط بسور القاهرة ونصب عليه الخنيقات وجعل يقاتل من بها أياما ثم تقررت قاعدة الصلح بينه وبين المستنصر بالله على أن يكون بيد ناصر الدولة ما كان له من قبل بشرط الطاعة وحسن الولاء للمستنصر فأقام ناصر الدولة حينما لا يحرك ساكنا وقد علم بما آلت اليه حالة المستنصر بالله من الضنك والفاقة وذهاب نعمته حتى لم يبق عنده من حطام الدنيا غير سجادة قديمة وبعض أثواب بالية لا تستر عورته وثلاثة عبيد فأعظم ناصر الدولة هذا الحال جدا ورتب الى المستنصر في كل يوم مائة دينار ينفقها في حاجات بيته وكف عن مشاغبه وما زال ناصر الدولة على حاله من بسطة اليد والتصرف في سائر الامور حتى دخل عليه يوما دكوز صهره وهو جالس في ايوانه مع أخيه نحر العرب فقتلها واحتز رأسهما وحملهما الى المستنصر بالله فقويت عند ذلك عزيمته المستنصر بالله وتجددت آماله ونشط الى ارجاع سلطانه واعلاء كلمته فسير الى بدر الجمالى صاحب الشام يستقدمه الى مصر ليوليها سائر ما وراء بابه وألح عليه في ذلك فأجاب طلبه وسار بدر في جماعة كثيرة من أصحابه ذوى البأس والنجدة حتى جاؤا عكا وركبوا السفن فلم تكن الا أيام حتى بلغوا مصر ونزلوا ما بين تيس ودمياط وسير بدر الى الشيخ سلمان عظيم البحيرة يعلمه بحضورهم فخرج اليه في جمع عظيم وساروا جميعا نحو القاهرة فلما وصلوا الى قليب سير بدر الى المستنصر بالله يلزمه بالقبض على دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليه في الحال وسجنه في خزنة البنود فدخل بدر القاهرة

يوم الاربعاء سادس عشرى جمادى الاولى سنة سبع وستين وأربعمائة ولم يكن عند مقدم
الأتراك علم بعقدته فما منهم الا من أضافه فلما انقضت ضيافتهم أعد لهم وليمة في داره وبقيت
مع أصحابه ان القوم اذا جنهم الليل فلا بد أن يحتاجوا الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء
فاقتلوه ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه وأقطعه جميع ما تركه المقتول من دار ومتاع
واقطاع فعاد القوم اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا ليلتهم تلك فما طلع النهار حتى استولى
أصحابه على جميع دور من قتلوا وشاع الخبر بذلك ففرح المستنصر بالله وخلص على بدر
بالطليسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر أرباب الدولة
رهن أمره وزيد في ألقابه لقب أمير الجيوش **ك**اقل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين
وارتفعت كلمة بدر الجالى واتسعت شهرته فتبعه المفسدين بالقتل والنشر يد فلم يبق منهم
أحدا وقتل من أمائل البلاد وقضاةهم ووزرائهم جماعة وسار الى الوجه البحرى فى
جند وخدم وأتباع فأسرف فى قتل أصحاب الفتنة والخوارج من لواتة على عهد ناصر
الدولة واستصفى أموالهم وأخر دورهم ثم سار الى مدينة الاسكندرية فقتل بها من قتل
وشرد من شرد حتى دامت الامور الى المستنصر بالله وعاد الى مصر ظافرا غانما ثم سار الى
الصعيد لقتال جهينة والنعالبة **و**كانوا قد أفسدوا فقتل منهم وسبي وغنم من
الاموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر فبلغ بما غنمه حال ذلك الصعيد بعد فساد * فلما
دانت للمستنصر الامور وبعدت كلمته قدم عليه الحسن بن صباح رئيس الطائفة الاسماعيلية
فى رى تاجر واجتمع به وخاطبه فى اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها فأجابه الى ذلك فعاد
الحسن ودعا الناس اليه سرا ثم أظهر الدعوة فتبعه خلق عظيم وكثرت لمومه فقاتل بهم
ملك القلاع والحصون وقال للمستنصر من امامى بعددك فقال له ابى نزار وكان نزار أكبر
أولاد المستنصر والاسماعيلية يقولون بامامة نزار الى هذا الحين ثم **ك**ان من أمر
الاسماعيلية وظهورهم وقتالهم ما سبى عليك فى محله * وتزايدت محبة بدر للرعية ورفقه
بجالهم بعد الذى ذاقوه على عهد ناصر الدولة فأباح الارض لمن يزرع بغير مال ثلاث
سنوات فترفعت حال الفلاحين واتسعت المزارع وأخصبت الارض وكثرت غلاتها فدرت
الارزاق وهبطت الاسعار وشبع الجائع وأكل الفقير وامتلات مخازن الاغنياء وراجت
التجارة فهرع التجار الى مصر والقاهرة وجأوها من كل صوب وحذب وعم الامن سائر الاشياء
وبلغ خراج مصر على يديه ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار عينا وأقام البنايات العظيمة
وبنى دار الوزارة الكبرى وسماها الدار الافضلية فكانت مقره ومقر كل من يلي امرة الجيوش
وبقيت كذلك الى أن انتقل الامر للايوبيين وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مع حشمة ووقار
قال علقمة بن عبد الرزاق العلمى قصدت بدرا الجالى بمصر فرأيت أشرف الناس وكبراءهم
وشعراءهم على بابيه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه فبينما أنا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد
فخرجت فى أثره ثم أقمت الى أن رجع من صيده فلما قاربته وقفت على نشر من الارض

وأومات برقعة في يدي وأنشأت أقول

فحن التجار وهذه أعلاقنا * در وجود عيـنك المبتاع
 قلب وفتشها بسمعك انما * هي جوهـر تختاره الاسماع
 كسدت علينا بالشآم وكلنا * قل النفاق تعطل الصنـاع
 فأتاك يحملها اليك تجارها * ومطيها الآمال والاطماع
 حتى أناخوها بيبالك والرجا * من دونك السمسار والبياع
 فوهبت ما لم يعطه في دهره * هـرم ولا كعب ولا القـعـقاع
 وسبقت هذا الناس في طلب العلا * فالناس بعدك كلهم أنباع
 يا بدر أقسم لو بك اعتصم الوري * ولجوا اليك جميعهم ما ضاعوا

وكان على يد بدر بازي فألقاه وانفرد عن الجيش وجعل يستعيد الأبيات وهو ينشدها
 الى أن استقر في مجلسه ثم قال لجماعة علمائه وخاصة من أحبني فليطلع على هذا الشاعر
 فخرجت من عنده ومعي سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وأمر لي بعشرة آلاف درهم
 فخرجت من عنده وفرقت كثيرا من ذلك على الشعراء اه

وطالت أيام بدر وعظمت نعمته وما زال يتصرف في الأمور ولا كلمة فوق كلمته
 حتى وافته منيته في سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر ثمانون سنة فكانت
 أيام حكمه زهاء عشرين سنة يقال انه قتل في خلالها من الخلائق ما لا يكاد يدخل تحت
 الحصر ومع ذلك فقد كان محبوبا مطاع الكلمة وافر الحرمة فحزن عليه المستنصر حزنا
 عظيما وحزن عليه أهل مصر والقاهرة كافة وأقام المستنصر مكانه ابنه الأفضل وولاه
 سائر ما وراء بابه فانطلقت كلمته واتسعت هيئته وظل يتصرف في الأمور حتى مات المستنصر
 بالله في ثامن عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر سبع وستون
 سنة وخمسة أشهر * ولما مات المستنصر ولي بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلي بالله وكان
 المستنصر قد عهد بالخلافة من بعده الى أكبر أولاده نزار فخلعه الأفضل بن بدر الجمالي من
 ولاية العهد وبايع المستعلي بالله المذكور * قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أن
 الأفضل ركب مرة أيام المستنصر ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكبا ونزار خارج
 والجهاز مظلم فلم يره الأفضل فصاح به نزار انزل بأرمني كلب عن الفرس ما أقل أدبك فخذها
 عليه فلما مات المستنصر خلعه خوفا منه على نفسه وبايع المستعلي فهرب نزار الى
 الاسكندرية وبها ناصر الدولة أفتكين فبايعه أهل الاسكندرية وسموه المصطفى لدين الله
 فخطب الناس ولعن الأفضل بن الأمير بدر الجمالي وأعانه أيضا القاضي جلال الدولة بن عمار
 قاضي الاسكندرية فسار اليه الأفضل في جيش عظيم وحصره بالاسكندرية فعاد عنه
 مقهورا ثم زاد في عسكره وسار اليه فحصره وأخذه وأخذ أفتكين فقتله وتسلم المستعلي أخاه
 نزارا فبنى عليه حائطاً فمات وقتل القاضي جلال الدولة بن عمار ومن أعانه على الخروج

ولما كان الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات الخليفة الأمام
المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم بأمر الله أمير المؤمنين فجأة وكان
قد رفع اليه تقليد السلطان بركيارق ليعلم ما فيه وكان السلطان بركيارق المذكور قد جاء الى
بغداد وأرسل الى الخليفة يطلب الخطبة لنفسه فأجيب الى ذلك وخطب له ولقب ركن
الدين وجل الوزير عميد الدولة الخلع الى بركيارق فلبسها وعرض التقليد على الخليفة ليعلم
عليه فقرأه وتدبره وعلم ما فيه ثم قدم اليه طعام فأكل وغسل يديه وهو على أكل حال
وأحسن هيئة في نفسه وجسمه وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال لها ماهؤلاء الأشخاص
الذين دخلوا بغير إذن فالتفتت فلم تر أحدا ثم نظرت اليه فرأته قد تغير وجهه واسترخت
بداه وانحلت قواه وسقط الى الأرض فظنت أنه قد غشي عليه فإذا هو قد مات فأمسكت
عن البكاء واستدعت الوزير أبا منصور فبكيا ثم أحضرا أبا العباس أحمد المستظهر بن
المقتدى وكان قد عهد اليه أبوه فعزياه وهنأه بالخلافة ثم جهز مقتدى وصلى عليه ابنه
المستظهر بالله ودفن وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته
نسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت
الخلافة على يديه وكان السلطان بركيارق مصحما على اخراجه قبل موته من بغداد الى
البصرة تخلصا منه إذ كانت حرمة وافرة وهيئته عظيمة جدا والقلوب مجمعة على طاعته وكان
قوى النفس عظيم الهمة من رجال بني العباس

(الفصل الثامن والعشرون)

(في خلافة المستظهر بالله أبي العباس أحمد)

ثم قام بالأمر بعد مقتدى بأمر الله ولله المستظهر بالله أبو العباس أحمد ببيع له
بالخلافة يوم موت أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية أي سنة أربع وتسعين وألف
ميلادية بايعه الوزير ثم ركب الى السلطان بركيارق وأعلمه الحال وأخذ بيعته للمستظهر بالله
فلما كان اليوم الثالث من موت مقتدى جلس المستظهر للعزاء فحضره عز الملك بن نظام
الملك وزير بركيارق وأمراء السلطان وجميع أرباب المناصب العالية والقضاة والعلماء
فجلسوا في العزاء وبايعوا وكان للمستظهر بالله لما بيع ست عشرة سنة وشهران ليس الا
ولما استقرت به الخلافة جعل يتصرف في الأمور فلم يكن له من حفظها ما كان لأبيه
المقتدى بأمر الله لشدة السلطان بركيارق وبسطة يده على جميع الأمور وكرهته لاتساع
نفوذ الخلافة وكانت أحوال سلطنة بركيارق مع ذلك في غاية الضعف والانهلال لتغلب

الفرنجة على الكثير من بلاده وفتحها عنوة اذ كانوا الى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قد ملكوا من بلاد الاسلام عدة مدن وتطرفوا الى أطراف افريقية فملكوا منها جزيرة سيسيليا التي كانت في يد الفاطميين بعد نزاعها من أيدي الغاليين الذين هم قدماء الفرنسيين وذلك أنه لما كثر شغب أهل هاتئ الجزيرة وانقسم بعضهم على بعض واستعصى على المعز لدين الله العلوي اصلاح ما أفسده عماله أكثر من العزل والتولية في عملها وشدت في مراقبتهم وتبعه في ذلك من أتى بعده من ذريته فلم يفلحوا أيضا وتضافهم الخطب وتناولت أيدي الفرنجة الى دس الدسائس واغراء من بالجزيرة من المسيحيين الى الخروج وشق عصا الطاعة وكان المسلمون من أهل الجزيرة أيضا قد انقسموا الى حزبين مختلفين وشطرين متخاصمين وكان مقدم أحد الحزبين رجلا يقال له ابن تمامة وهو من عظماء القوم وكرامهم فخرج في أصحابه لقتال الفريق الثاني فانتشبت الحرب بينهما ثم انجلت عن هزيمة ابن تمامة ومن معه ففر هاربا الى كاتان وكانت الى هذا الحين في يد الفرنجة فأكرم صاحبها وفادته وأمه بالعدة والرجال وعلم الفريق الثاني بما آلت اليه حال ابن تمامة فطلبوا المدد من صاحب افريقية فأمدهم فكانت بين الفريقين حرب هائلة وكان ممن خرج مع ابن تمامة للقتال القمص دوجر في طائفة عظيمة من الفرنسيين فأبلى هذا القمص في عسكر افريقية بلاء حسنا وانتصر ابن تمامة وانهمزم من كان في تلك الجزيرة من المسلمين فدخلها دوجر وجعل يتصرف بدهاء وحكمة وما زال بأهلها حتى بايعوه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجرية وخرجت من يد العلويين كخروج غيرها من بقية المدن والبلدان وما زال دوجر يدبر أمرها ويتصرف في ملكها حتى مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة هجرية فقام بالامر بعده ابنه ولقب دوجر الثاني فزاد في عمارتها وبالغ في تحسين أحوالها حتى زهت وغنيت وكثرت خيراتها وتنعم أهلها براحة العيش بعد العناء والشدة وفي سنة تسعين وأربعمائة خرج الفرنجة أيضا الى بلاد الشام وساروا في جيش عظيم للغاية وقصدوا انطاكية وصاحبها يومئذ آياغبيسان وكان أهل انطاكية من المسلمين والنصارى فخاف آياغبيسان أن تغدر به النصارى وتخذله فلما علم بقرب الفرنجة أخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر خندق حول البلد ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضا ليس فيهم أحد من المسلمين فعملوا فيه الى العصر فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم انطاكية لكم فلا بد وأن تمبوها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنجة فقالوا ومن يحفظ أبناءنا ونساءنا قال أنا أخلفكم فيهم فساروا الى عسكر الفرنجة فقبلهم ريشارد ملك الفرنجة وأنزلهم منزلا رحبا وحاصر ريشارد بعسكره البلد تسعة أشهر وظهر من شجاعة آياغبيسان وجودة رأيه وخزمه ما لم يشاهد من غيره فلما طال مقام ريشارد على انطاكية راسل الذي كان على برج الوادي من أبراج البلد واسمه بروزبه وبذل له أموالا واقطاعا فلما تقرر الأمر بينهما أفرج لعساكر ريشارد عن البرج فتمقدموا من ناحيته وتسلى جاعة

كثيرة منهم بالجمال ومازالوا يتسلقون حتى زادت عدتهم عن الخمسمائة ثم ضربوا البوق وكان
 ذلك عند السحر والجند والحراس نيام فاستيقظ آياغسيان وسأل عن الحال ف قيل ان هذا
 البوق من القلعة ولا شك أنها قد ملكت فدخله الرعب وأمر بباب البلد ففتح وخرج هاربا
 في ثلاثين غلاما على وجهه وخرج نائبه أيضا من باب آخر ودخل عسكر ريشارد البلد فنهبوا
 وقتلوا من فيه من المسلمين وملكوه فلما سمع ملوك الاسلام بما جرى على انطاكية اجتمع
 منهم قوام الدولة **كربوقا** ودقاق بن تنش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حص
 وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن ارتق وغيرهم من الأمراء وتحالفوا على استخلاص
 انطاكية من يد ريشارد وساروا في جوع كثيرة فحو انطاكية فما اقتربوا منها حتى وقع
 الخلاف بينهم وأساء كربوقا السيرة مع من معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم
 وانفرد بالكلمة فظنوا منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال فأضمرؤا له السوء وعقدوا
 النية على خذلانه اذا التقوا بجيوش الفرنجة فلما أحاطوا بانطاكية خرجت جيوش الفرنجة
 لقتالهم وضربوا مصفا عظيميا فوق الخوف في قلوب المسلمين وانهمزوا شر هزيمة ولم يضرب
 أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهمز كربوقا وتبعهم الفرنجة فقتلوا منهم
 خلقا كثيرا وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فكان
 شيا لا يكاد يدخل تحت الحصر * ولما وردت الأخبار الى مصر بهزيمة الترك عن انطاكية
 وضعفهم وتفرق كلمتهم طمع أبو القاسم المستعلي بالله صاحب مصر في استخلاص بيت
 المقدس من تاج الدولة تنش وكان قد أقطعه للأمير سقمان بن ارتق فسير اليه عسكرا
 ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش فحصره وبه الأمير سقمان وایلغازي ابنا أرتق
 وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتى ونصب عليه الأفضل نيفا وأربعين منجنيقا فهدم
 مواضع من سورهم وقتلهم أهل البلد فدام القتال والحصار نيفا وأربعين يوما وملكوه
 بالامان وأحسن الأفضل أمير الجيوش المصرية الى سقمان وایلغازي ومن معهم وأجرل لهم
 العطاء وسيرهم فساروا الى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام سقمان ببلد الرها وسار ايلغازي الى
 العراق واستناب الأفضل في بيت المقدس رجلا يعرف بافتخار الدولة فبقى فيه ١٠ ولما فرغ
 ريشارد من قتال المسلمين على انطاكية وأخذها سار بعسكره ومن معه من أمراء الفرنجة
 الى عكا وحاصروها أياما كثيرة فلم يقدرؤا عليها فساروا عنها الى بيت المقدس وحصلوه نيفا
 وأربعين يوما ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون فقوى عليه المسلمون وأحرقوه
 وقتلوا كل من به فلم يفرغوا من احراقه حتى آتاهم المستغيث بان المدينة قد ملكت من
 الجانب الآخر ودخل الفرنجة البلد وركب الناس السيف ولبث الفرنجة أسبوعا يقتلون
 فيه المسلمين واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقتلوا فيه ثلاثة أيام
 فبذل لهم الفرنجة الأمان فسلموا اليهم ووفى لهم الفرنجة وخرجوا ليلا وقتل الفرنجة بالمسجد
 الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم

وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشاحي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نفرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء رواه صاحب الكامل وكانت شدة عظيمة للغاية على المسلمين وتمكن الفرنجة من البلاد واستتببت أقدامهم ولم يقدر المسلمون على ردهم لتفرق كلمة سلاطينهم واختلاف أهواء أمراءهم فقال أبو المنظر البيهقي في هذا المعنى أبياتا

من جنا دماء بالدموع السواحج * فلم يبق مناعضة للراحم
وشر سلاح المرء دمع بفيضه * إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بني الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهوية في ظل أمن وغبطة * وعيش كتوار النجيلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقلهم * ظهور المذاكي أوبطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم * فحزرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيعتم ومن دمي * توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محجرة الطبا * وسمر العوالى داميات الالهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة * تطل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغيب عن غمارها * لبسلم يقرع بعدها سن نادم
سلان بأيدى المشركين قواضبا * ستخدم منهم في الطلى والجحاحم
يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت بأل هاشم
أرى أمتى لا يشرعون الى العدا * رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى * ولا يحسبون العار ضربا لازم
أترضى صناديد الاعراب بالاذى * ويغضى على ذل كمة الاعاجم

ومنها

فليتهم اذ لم يذودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا في الاجرا دجس الوفا * فهلا أتوه رغبة في الغنائم
لئن أذعنتم تلك الخياشيم للبرى * فلا عطسوا الا باجدع راغم
دعوناكم والحرب ترفو ملحمة * السنا بالحائط النصور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية * تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم

فاستعظم المستعلى صاحب مصر ماتم على أهل القدس واغتم له ورسم الى الافضل أمير الجيوش بقتال الفرنجة واستخلاص بيت المقدس منهم فحشد الافضل جيشا عظيما وسار الى

عسقلان وأرسل الى الفرنجة ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم بالقتال فأعادوا الرسول بالجواب
ورحلوا على أثره بخيلهم ورجلهم وطاعوا على المصريين عقب وصول الرسول ولم يكن عند
المصريين خبر بوصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال فلما أحسوا بهم نادوا
في الجند بالخروج وكثر النداء بركوب الخيل فأجملهم الفرنجة فهزموهم وقتلوا منهم خلقا
وغنموا ما في المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك وانهمز الافضل ودخل عسقلان وهرب الكثير
من جنده فاختلفوا في شجر جيز كان هناك كثيرا فأحرق الفرنجة بعض الشجر فمات من كافوا
فيه وأعلموا السيف فممن خرج منهم ثم عاد الافضل في نفر قليل من خواصه وأتباعه الى مصر
ونازل الفرنجة عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار وقيل
عشرين ألف دينار فعادوا الى بيت المقدس ظافرين غائبين وعظم أمرهم فملكوا أكثر
سواحل الشام وغيرها مما لاعلاقته بنا هنا * وانكف المستعلي عن قتالهم بعد هزيمة الافضل
أمير جيوشه عند عسقلان واهلاكهم لعسكره وكذلك تشاغل عنهم السلطان بركيارق بقتال
أخيه السلطان محمد وغيره من الامراء الذين خرجوا عن طاعته وخرقوا سلطنته لاسيما طائفة
الباطنية الذين هم الاسماعيلية أصحاب الحسن بن الصباح الذي تقدم ذكر خبر حضوره الى
المستنصر صاحب مصر ومخاطبته اياه في اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها وجعلهم نزار ولده
مامهم بعد المستنصر المذكور فقد كان عظم شرهم وكبر أمرهم وخافهم الامراء والعظماء
والقواد والجنود وتبعوا طريقهم صاغرين وانبثت تعاليمهم في أكثر المدن فظفروا بها وأقاموا
القلاع والحصون وجندوا الاجناد وكادق تم دعوتهم المشرق بأسره * وحيث قد وعدنا بأن
نأتي على ذكر حال هذه الشيعة مفصلا في محله * وهذا محله الآن * فها نحن نتلو عليك ما قاله
أصحاب التاريخ وأجمعوا عليه من أحوال هؤلاء الشيعة التي كانت تسمى قبلا بالقرامطة قالوا
كان ابتداء ظهور دعوتهم الاخيرة التي اشتهرت بالباطنية والاسماعيلية في أيام السلطان ملك
شاه وكان أول ما انكشف من أمرهم أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلا فصلوا صلاة العيد
في ساوة على طريقهم الشيعية ففطن بهم أصحاب الشحنة وانكشف لهم بعض ما خفي من
أمرهم فقبض عليهم واعتقلوا أباما ثم أفرج عنهم بشفاعة بعض الوجوه والاعيان فكان ذلك
أول اجتماع لهم ظاهر للناس ولما أطلقوا من الحبس أقاموا بساوة يدعون الناس ويكاشفون
بعضهم ثم ساروا الى أصبهان يدعون أيضا فكان ممن دعواهم مؤذن من أهل ساوة كان مقيما
بأصبهان فلم يجيبهم الى دعوتهم فخافوا أن يتم عليهم فقتلوه فكان أول قتل لهم وأول دم أراقوه
فبلغ خبر قتله نظام الملك فأمر بأخذ من يتم بقتله فوعدت التهمة على نجار اسمه طاهر
فقتل ومثل به وجروا برجله في الاسواق فكان أول قتل منهم وكان والد طاهر هذا
واعظا أتى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ست وثمانين وأربعمائة هجرية فخطب منه ثم
فصد البصرة فولى القضاء بها ثم توجه في رسالة الى كرمان فقتله العامة في القنسة التي جرت
وقالوا انه باطني وتقوى الباطنية واشتد أمرهم بمن انضم الى شيعتهم من العظماء والقواد

وظهور دعوتهم فتمكنوا من قتل نظام الملك فكان لفعالهم هذا أثر مهم للغاية وكان أول فتكة مشهورة لهم ولذلك كانوا يقولون قتل نظام الملك منا نجارا فقتلناه به ثم نزلوا ببيلد عند قاين وبها مقدمهم فاجتمعوا عنده فتقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان الى قاين فخرج عليهم المقدم المذكور ومعه أصحابه ومن اجتمع اليه من الباطنية فقتل أهل القفل جميعهم ولم ينج منهم الا رجل تركاني فوصل الى قاين فاجبر بالقصة فقتلهم أهلها مع القاضي الكرمانى يريدون قتالهم فلم يفلحوا ورجعوا عنهم وفشا مذهبهم بين جند السلطان بريكارق وتقوى به كثير منهم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى انه لم يتجاسر أحد لا أمير ولا مقدم على الخروج من منزله الا حاسرا فيلبس تحت ثيابه درعا حتى ان الوزير الاغر أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه واستأذن السلطان بريكارق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من يقاتلهم فأذن لهم في ذلك وأشاروا على السلطان أن يقتلهم قبل أن يجز عن تلافى أمرهم

ولما مات السلطان ملكشاه وقد تمكنوا من قتل نظام الملك عظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم واجتمعوا في أصبهان بعد أن كانوا متفرقين واتخذوا أصبهان مقرا وعظم شهرهم فصاروا يسرفون من قدروا عليه من مخالفهم ويقتلونهم وقد فعلوا ذلك بخلق كثير وزاد الأمر وكثر خوف الناس فكان الرجل اذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله قتله وفعدوا للعزاء فتحذر الناس وصار لا يتقرب أحد خوفا من فتك الباطنية ودعا أحدهم جارا له الى مذهبهم فلم يقبل فأخذوه وأخفاه فقام أهله للسياحة عليه فأصعده جماعة من الباطنية الى سطح داره من غير أن يشعر به أحد وأروه أهله كيف يلطمون ويبيكون عليه فنظر اليهم وهو لا يقدر أن يتكلم خوفا منهم واشتد الحال بالناس في أصبهان وهاجر الكثير من أهلها فرارا من فعال هؤلاء الطغاة واتفق أن رجلا بأصبهان دخل في دار صديق له فرأى فيها ثيابا ومدايات وملابس لم يعهدها فدنا منه الطنون وخرج من عنده وأخبر الناس بما رآه فكشف الناس عنها فعملوا أن صاحب الدار من الباطنية وأن الملابس هى من ملابس الناس الذين قتلهم الباطنية فثاروا جميعا يبحثون عن قتل ويستكشفون فظهروا على الدروب التى تسكن فيها تلك الطائفة وعلموا أنهم كانوا اذا اجتاز بهم انسان أخذوه الى دار منها وقتلوه وألقوه فى بئر فى الدار قد صنعت لذلك وكان على باب درب من دروبهم رجل أعمى فاذا اجتاز به انسان يسأله أن يقوده خطوات الى باب الدرب فيفعل ذلك فاذا دخل الدرب قبض عليه وسلمه الى جماعة منهم فيقتلونه فلما انكشف أمرهم وعلم الناس بما هم عليه قاموا فومة رجل واحد وتجرّد للانتقام منهم أبو الفاسم مسعود بن محمد البخندى الفقيه الشافعى وانضم اليه لفيف الالهالى بالاسلحة وأمر بجفر أخايد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يقبضون على الباطنية جماعات وفرادى فيلقونهم

في النار وأوقفوا جماعة يشعلون النيران وسبوا أحدهم مالهكا فقتلوا منهم خلقا كثيرا وتفرق من بقي واختنفى وكذلك نارهم -م جاولى سقارو صاحب البلاد التي بين رامهرمز وأرجان وذلك لانهم -م لما ملكوا القلاع والحصون بخوزستان وفارس وغيرهما وكثر شرهم وقطعوا الطريق بتلك البلاد وقتلوا وسبوا وفعلوا ما لاخير فيه اتفق جاولى المذكور مع جماعة من صناديد أصحابه على أن يظهروا الشعب عليه ويخرجوا عن طاعته ويفارقوه ويقصدوا الباطنية ففعلوا وأظهروا أنهم معهم وعلى مذهبهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم ثم أظهر جاولى أن الامراء من بني برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها ليجزءه عن ردهم وأنه يريد همدان فلما شاع هذا الخبر وسار قال من عند الباطنية من أصحابه لهم -م الرأي اننا نخرج الى طريقه ونأخذه وما معه من الاموال فساروا اليه في ثلثمائة من أعيانهم -م وصناديدهم فلما التقوا نار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر سعدوا الى الجبل وهربوا وغنم جاولى مامعهم من دواب وسلاح وغير ذلك وركب عليهم أيضا السلطان بركارق وقتل منهم خلقا كثيرا للغاية فكادت تضعف شوكتهم وتزول هيبتهم وانكفوا عن أفاعيلهم -م فقل أذاهم واطمأنت قلوب الناس واستراححت واختنفى بكارهم وتبعهم بركارق فكان لاينظر بأحد منهم الا قتله وشهره

وأقام المستعلي يدبر الامور بمصر الى أن مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة لسبع عشرة خلت من شهر صفر فكانت سلطنته سبع سنين وقريبا من شهرين فولى بعده ابنه أبو علي المنصور بوبيع له في اليوم الذي مات فيه أبوه وله خمس سنين وشهر وأربعة أيام ولقب الأمر بأحكام الله ولم يكن ممن يولى قط أصغر منه ومن المستنصر فقام بتدبير دولته الافضل بن أمير الجيوش أحسن قيام وأخلص في خدمته غاية الاخلاص ﴿ قال ابن يسر في تاريخه لما توفي المستعلي أحضر الافضل أباعلى وبأيعه بالخلافة ونصبه مكان أبيه ولقبه بالأمر بأحكام الله وكان له من العمر خمس سنين وشهر وأيام فكتب ابن الصيرفي الكاتب السجل بانتقال المستعلي وولاية الأمر وفرض على رؤس كافة الاجناد والامراء وأوله من عبد الله ووليه أبي علي الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين بن الامام المستعلي بالله الى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها شريفهم ومشروفهم وأميرهم ومامورهم مغربهم ومشرفهم أحرهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم بارك الله فيهم * سلام عليكم فان أمير المؤمنين يحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما ﴿ أما بعد ﴿ فالحمد لله المنفرد بالنسب والدوام الباقي على تصرف الليالي والايام القاضى على أعمال خلقه بالتعاضى والانصرام الجاعل نقض الامور معقودا بكال الاتمام جاعل الموت حكما يستوى فيه جميع الانام ومنه لا يعصم من ورده كرامة نبي ولا امام والقائل معزيا لنبيه ولكافة أمته كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام الذي استدعى الأئمة لهذه الامة ولم

تخل الأرض من أنوارهم لطفًا بعباده ونعمه وجعلهم مصابيح الشبه إذا غدت داجية مدلهمة
لتضيء للمؤمنين سبل الهداية ولا يكون أمرهم عليهم غم بحمده أمير المؤمنين جد شاكر
على ما نقله فيه من درج الامامة ونقله اليه من ميراث الخلافة صابرا على الرزية التي
أطار هجوعها الالباب والفجعة التي أطال طروقها الاسف والا كآب ويسأله أن يصلي
على جده محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ومجلى غياهب الكفر ومكشف عمائه الذي
قام بما استودعه الله من أمانته وحمله على أعباء رسالته ولم يزل هاديا الى الايمان داعيا
الى الرحمن حتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون
فحينئذ أنزل الله عليه اتصافا لحكمته التي لا يعترضها المعترضون ثم انكم بعد ذلك لمبتون
ثم انكم يوم القيامة تبعثون صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه وأبناء أمير المؤمنين على بن
أبي طالب الذي أكرمه الله بالمنزلة العلية وانتخبه للامامة رافة بالبرية وخصه بغوامض
علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم مزينة وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل عن
سواء السبيل وعلى الأئمة من ذريته العترة الهادية من سلالتهم آباءنا الابرار المصطفين
الاخير ما تصرفت الاقدار وقوالى الليل والنهار وأن لامام المستعلي بالله أمير المؤمنين
قدس الله روحه كان ممن أكرمه الله بالاصطفاء وخصه بشرف الاجتباء ومكن له في بلاده
فامتدت أفياء عدله واستخلفه في أرضه كما استخلف أباه من قبله وأيده بما استرعاه أباه
بهديته وارشاده وأمره بما استخفظه عليه من مواد توفيقه واسعاده ذلك هدى الله يهدي
به من يشاء من عباده فلم يزل لاعلام الدين رافعا ولشبه المضلين دافعا ولراية العدل
ناشرا وللدن عامرا وللعنوة قاهرا الى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة
فلو كانت الفضائل تزيد في الاعمار أو تحمي من ضروب الاقدار أو تؤخر ما سبق تقديمه
في علم الواحد القهار لحى نفسه انفيسة كريم مجدها وشريف محتدها وكفاها خطر
منصبها وعظيم هيبتها ووقتها أفعالها التي تستقي من منبع الرسالة وصانها خصالها التي
ترتقى الى مطلع الجلاله لكن الاعمار محررة مقسومة والآجال مقدرة معلومة والله تعالى
يقول وبقوله يهتدى المهتدون ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون فأمر المؤمنين بحسب عند الله هذه الرزية التي عظم أمرها وفدح وجرح
خطبها وقرح وغدت له القلوب واجفسه والآمال كاسفقه ومضاجع السكون منفضه
ومدامع العيون مرفضة فانا لله وإنا اليه راجعون صبرا على بلائه وتسليما لأمره وقضائه
واقضاءه من أثنى عليه في الكتاب انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وقد كان الامام
المستعلي بالله قدس الله روحه عند نقله جعل لى عهد الخلافة من بعده وأودعنى ما حازه
من أبيه عن جده وعهد الى أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والاحسان
على منهجه القائم وأطلعنى من العلوم على السر المكنون وأفضى الى من الحكمة بالغامض
المصون وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرة المرضية على على بما جبلنى الله

عليه من الفضل وخصني به من آثار العدل واثني فيما استرعيتك سالك على منهاجه
عامل بموجب الشرف الذي عصب الله في تاجه وكان مما ألقاه الي وأوجهه على أن أعل
محل السيد الاجل الافضل من قلبه الكريم وما يجب اليه من التبجيل والتكريم وان
الامام المستنصر بالله كان عند ما عهد اليه ونص بالخلافة عليه أوصاه أن يتخذ هذا
السيد الاجل خليفة وخليلا ويجعله للامامة زعيما وكفيلا ويحفظ به أمر النظر والتقدير
ويفوض اليه تدبير ما وراء السرير وانه عمل بهذه الوصية حذوا على تلك الامانة النبوية
وأسند اليه أحوال العساكر والرعية وناط أمر الكافة بعزيمته الماضية وهمة العلمية
نكان قلبه بالسداد يربح ولا يخف وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ورأيه
في حسم مواد الفساد يرسخ ولا يخف فأوصاني أن أجعله لي كما كان له صفيا وظهيرا وأن
لا أسترعه في الامور لاصغرها ولا كبيرا وأن أقتدي به في رد الاحوال الى تكليفه واسناد
الاسباب الى تدبيره والينا حوط نازل الخطب ومنتهى الى غير ذلك مما استودعني اياه
وألقاه الي من النص الذي يتضوع نشره ورياه نعمة من الله قضت لي بالسعد العميم
ومنذ شهرت بالفضل المتين والخط الجسيم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم فنعزوا
معاشر الاولياء والامراء والقواد والاجناد والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ودانيكم
وفاصيكم عن الامام المنقول الى جنات الخلود واستبشروا بامامكم هذا الامام الحاضر
وابتهجوا بكريم نظره المطلع لكم كواكب السعود ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغض
جفنا عن مصابكم وأن يتوخى ما عاد بيمانكم ومناجحكم وأن يحسن السيرة فيكم ويدفع
أذى من يعاديكم ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولأمر المؤمنين عليكم أن تعتقدوا
موالاته بمخالص الطوية وتجمعوا له في الطاعة بين العمل والنية وتدخلوا في البيعة بصور
منشرحه وآمال منفسحه وضمائر نقية وبصائر في الولاء قوية وأن تتقدموا بشروط
بيعته وتنهوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والنال في حقوق خدمته وتقتربوا الى
الله سبحانه وتعالى بالمناسبة لدولته وأمر المؤمنين يسأل أن تكون خلافته كافلة بالاقبال
ضامنة بلوغ الآمال وأن يجعل ديمتها دأمة بالخيرات وقسمتها نامية على الاوقات ان شاء
الله تعالى اه

ولم تكدر تستقر الولاية بالامر بأحكام الله حتى كثر عيث الفرنجة بالاملاك المصرية
وتناولت أيديهم الى ايداء المسلمين فأنفذ الافضل أمير الجيوش بمصر سعد الدولة الطواشي
ملوك أبيه الى الشام في جيش عظيم لحرب الفرنجة وردعهم فلقهم بين الرملة ويافا فتصافوا
واقتلوا قتالا عنيفا وطال القتال ثم جمل الفرنجة جملة صادقة على المسلمين فأنهزموا شر
هزيمة ومات سعد الدولة تحت سنابك الخيل * قال بعض الكتاب وكان المنجمون يقولون
لسعد الدولة انك تموت تحت سنابك الخيل فكان يتحرز من ركوب الخيل حتى ولى
بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفا أن تزلق فرسه فيسقط فلم ينفعه الحذر عند

نزول القدر وملك الفرنجة خيمه وجميع ما للمسلمين وشردوا من بقي منهم فلما رجع
المستنفرون الى مصر غضب الافضل وسير ابنه شرف المعالي في جمع كثير فالتقوا هم
والفرنجة بيازور بقرب الرملة فانهمزمو الفرنجة وتفرقوا وسار شرف المعالي بن الافضل من
المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه جماعة من كبار الفرنجة فقاتلهم خمسة عشر يوما حتى
أخذهم أسرى وحمل منهم جماعة الى مصر ثم اختلف أصحاب شرف المعالي وتفرقت أهواؤهم
فمنهم من أراد المسير الى بيت المقدس لاستخلاصه من الفرنجة ومنهم من أراد المسير الى يافا
وأخذها وبقوا على هذا الخلاف أياما فبينما هم كذلك اذ وصل الى الفرنجة المدد فاجتمعوا
وساروا الى عسقلان وبها شرف المعالي فقاتلوه ومن معه فلم يصبر على قتالهم ففقل منها
راجعا الى مصر من بقي من أصحابه فأحزن ذلك ابن الافضل وسير رجلا يقال له تاج العجم
في السبر وهو من كبار عماليك أبيه وجهازه معه أربعة آلاف فارس وسير في البحر رجلا
يقال له القاضي ابن قادوس في عمارة حربية الى يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه
ابن قادوس اليه ليتفقا على كيفية القتال فلم يجبه الى ذلك ولا أرسل اليه أحدا فراجع
فلم يقبل فأشهد عليه ابن قادوس قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وسير الخبر بما وقع الى
ابن الافضل أمير الجيوش فأرسل ابن الافضل من قبض على تاج العجم وأرسل رجلا يلقب
بجمال الملك وأسكنه عسقلان وجعله مقدم ~~العسكر~~ فلم يقدر على استخلاص ما بأيدي
الفرنجة من السواحل والمدن الشامية فقد كانوا استولوا الى هذا الحين على فلسطين وبافا
وارسوف وقيسارية وحمفا وطبرية ولاذقية وانطاكية ما عدا بيت المقدس ولهم بالجزيرة الرها
وسروج والرفة وقلعة جعير وجبيل وعسفان من الشام وبيروت وطرابلس وبانياس وصيدا
وكان السلطان بركيارق كلما سمع بفوز الفرنجة وأخذهم لبلاد المسلمين زادت همومه وعظم
حزنه وجد في حشد الجنود والاكتثار من معدات القتال فاذا هم بالخروج لحربهم عاقبه
العوائق وحالت دون عزمه الموانع وما زال حتى مرض وهو بأصهبان ونقل به مرضه فسار
منها في محفة طالبا بغداد فلما وصل الى بروجرود ضعف عن الحركة فأقام بها أربعين يوما
فاشد مرضه وأيس من نفسه فخلع الأمر على ولده ملكشاه وعمره بثمانين أربع سنين
وثمانية أشهر وأحضر جماعة الامراء وكبار قواده وأعلمهم بما فعله وأخذ عليهم العهد
بالطاعة لولده ومساعدته على حفظ السلطنة خلفوا وتعهدوا فأمرهم بالمسير الى بغداد
فساروا فلما كانوا على اثني عشر فرسخا من بروجرود وصلهم خبر موته وكان بركيارق قد
تخلف على عزم العود الى أصهبان فعاجلته منيته فرجع جماعة منهم وحملوا تابوته الى
أصهبان ودفن بها * ووصل السلطان ملكشاه بن بركيارق الى بغداد فخرج وزير الخليفة
وأصحاب الوظائف للقائه وكان وصوله في خمسة آلاف فارس نخطبوا له ولقبوه بالقباب جده
ملكشاه ولم تستقر به السلطنة حتى علم السلطان محمد أخو بركيارق بخبر موت بركيارق فسار
في جيش عظيم يريد بغداد وحمل الناس بها على البيعة له فلما وردت الاخبار بذلك الى الامير

اباز وزير ملكشاه الوصى عليه من قبل أبيه بركارق خاف كثيرا وجع اليه بكار الجند وقواد
بركارق وأعلمهم بخبر مجيء السلطان محمد ورغبته في أخذ الملك من ابن أخيه ملكشاه
واستخلفهم على الطاعة لملكشاه فحلفوا فلما وصل السلطان محمد في عسكره ونزل بالجانب
الغربي من بغداد نقض بعض القواد العهد وأظهروا الميل الى السلطان محمد فخاف الوزير
أباز وأسرع الى تقرير الصلح مع السلطان محمد وتسليم السلطنة اليه وترك منازعته فيها
فغبر الى عسكر السلطان محمد واجتمع به وسلم اليه مقاليد السلطنة فأمنه هو وجميع الامراء
والقواد وضم اليه ولد أخيه ملكشاه ودخل السلطان محمد الى بغداد في موكب حافل ولبث
بها أياما حتى رتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى أصبهان وجعل يتصرف في الامور
وبقاتل الفرنجة على ما أخذوه من بلاد المسلمين حتى وافقه منيته في الرابع والعشرين من
ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسة * وكان لما اشتد به مرضه أحضر واده محمودا
وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره بالخروج والجلوس على تخت السلطنة وأن يتظر في أمور
الناس وعمره اذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال يا أبت انه يوم غير مبارك يعني من
طريق النجوم فقال له صدقت يا بني ولكن على أبيك وأما عليك فبارك بالسلطنة فخرج
وجلس على التخت بالتاج والسوارين فلم يمض على السلطان محمد اليوم الثاني من جلوس
ابنه حتى مات فجمعوا الامراء وقدرت عليهم وصيته الى ولده محمود يأمره فيها بالعدل
والاحسان وكان السلطان محمد عادلا حسن السيرة شجاعا أطلق المكوس والضرائب في
جميع البلاد فأحبه الناس كثيرا واجتمعوا على طاعته اثنى عشرة سنة

ولما تمت البيعة للسلطان محمود ودبر دولته الوزير الرئيس أبو منصور أرسل الى الخليفة
المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد فخطب له في يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة اثنى
عشرة وخمسة فلم يتم على الخليفة المستظهر بالله بعد الخطبة للسلطان محمود ببغداد
الا ثلاثة أشهر وبضع أيام حتى مات بعلة الترقى وكان عمره احدى وأربعين سنة وستة
أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى في
خلافته ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تنش بن ألب ارسلان والسلطان
بركارق ومحمد ابنا ملكشاه * قال بعض الكتاب ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان
ألب ارسلان توفى بعده القائم بأمر الله ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر
الله ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب
كرام الاخلاق محبا للخير وأهله كثير البر والاحسان لا يرد مكرمة تطلب منه وكانت أيام
سرور للرعية فكأنها من حسن أعياد وكان حسن الخط جيد التوقيعات جيد الشعر
فن شعره

أذاب حر الهوى في القلب ما جادا * لما مسدت الى رسم الوداع يدا
وكيف أسلاك نهج الاضطبار وقد * أرى طرائق في مهوى الهوى قددا

قد أخلف الوعد لما أن شغفت به * من بعد ما قد وفي دهرى بما وعدا
 ان كنت أنقض عهد الحب في خلدي * من بعد هذا فلا عاينته أبدا
 وكانت أيامه عند الرعية كأنها أعياد فكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره واذا تعرض
 سلطان أو نائب الى أذى أحد بالغ في الانكار والزجر عنه فلما مات تولى الخلافة بعده ولده
 أبو منصور الفضل ولقب المسترشد بالله
 ومات في خلافة المستظهر بالله أيضا زكريا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثمانيا
 وعشرين سنة صرفها في الشدائد العظيمة والبلايا الكثيرة واعتقل ثلاثة أشهر وضربت
 عليه المغارم الفادحة وأخذت منه الاموال الكثيرة وأمر به يوما فألقى الى السباع هو
 وسوسنه النوبي فلم تضرهما باذن الله تعالى فأخذت السلطان يومئذ اخاذة من الخوف
 فصرفهما وانكف عنهما ورسم بالكف عن إيذاء النصارى فانكفوا عنهم حينئذ ولما مات
 خلا الكرسي بعده أربعة وسبعين يوما ثم أقيم بعده سافونبو أو هو شنوده خامس ستيهم من
 بلدة تلمانة وكان راهبا بدير أبو مقار وكان عالما كبيرا واماما خطيرا وله مناقب كثيرة ومكارم
 لاتعد ووقع من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل التاسع والعشرون)

(في خلافة أبي منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله)

ثم قام بالامر بعد المستظهر بالله ولده المسترشد بالله أبو الفضل بن أبي العباس أحمد بن
 المستظهر بالله ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه سنة احدى عشرة وخمسمائة هجرية
 أي سنة سبع عشرة ومائة وألف ميلادية وكان سن المسترشد يومئذ سبعا وعشرين سنة
 وبابعه أخواه ابن المستظهر وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المفتدي
 بأمر الله وغيرهم من القضاة والامراء والائمة والاعيان وكان المتولى لاخت البيعة القاضي
 أبو الحسن الدامغانى وكان نائبا عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها * قال أصحاب التاريخ
 ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا وأحمد بن أبي دواد فإنه أخذها للوائح بالله والقاضى أبو
 علي اسمعيل بن اسحق أخذها للعضد بالله ثم ان المسترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة
 الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الريب أبا منصور وزير السلطان محمود ولما اشتغل
 الناس بالبيعة للمسترشد بالله ركب أخوه الامير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينة ومعه
 ثلاثة نفر وانحدر الى المدائن وسار منها الى ديبس بن صدقة بالحلة فأكرمه ديبس وأخبره
 بموت المستظهر بالله وأقام له الاقامات الكثيرة فلما علم المسترشد بالله خبره أهمله ذلك وأقلقه

وخشى عاقبته فأرسل الى ديبس يطلب منه اعادة أبي الحسن ويشدد في ذلك فأجابه بأنني
عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فان أبا الحسن استنم بي ودخل منزلي فكيف
أكرهه على الرجوع وكان رسول المسترشد في ذلك الى ديبس نقيب النقباء شرف الدين علي
ابن طرار الزيني فقصد الامير أبا الحسن وكلمه في عوده وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب
الى العود وقال انني لم أفارق أخي لشرأراده وانما الخوف منه جلني على مفارقتة فاذا أمتني
قصده وتكفل ديبس باصلاح الحال بنفسه والمسير معه الى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة
بالحال فأجاب الى ماطلب منه ثم حدث من الاسباب والرواجف ماأخر الحال وأقام الامير
أبو الحسن عند ديبس الى سنة ثلاث عشرة وخسمائة ثم سار عن الحلة الى واسط فانضم
اليه كثير من الناس وكبر جمعه وأتت الاخبار الى الخليفة بذلك فتكدر جدا وركب الامير
أبو الحسن على مدينة واسط فلما كان في جانبها وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة
لولي عهده ولده أبي جعفر المنصور وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له ببغداد وكتب الى
الآفاق بالخطبة له وأرسل الى ديبس بن مزيد في معنى الامير أبي الحسن وانه الآن قد
فارق جواره ومديده الى بلاد الخليفة وزاحمه على سلطانه وما يتعلق به ورسم اليه بقصده
ومعاجلته قبل قوته فأرسل ديبس العساكر اليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلوا
عن الطريق ووصلت عساكر ديبس فصادفوههم عند الصلح فنهبوا أنثاله وهرب الاكراد من
أصحابه والآثر إلى وعاد الباقيون الى ديبس وبقي الامير أبو الحسن في عشرة من أصحابه وهو
عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ وكان الوقت قيظا فأيقن بالتلف وتبعه بدويان
فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذهما وقد اشتد به العطش فسقياه وجلاه الى ديبس فسيره
الى بغداد وحمله الى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل الى دار العزيرة وكان
بين خروجه عنها وعوده اليها أحد عشر شهرا

ولما أدخلوه على المسترشد بالله انكب على قدميه فقبلهما فقام المسترشد وقبله وبكى
وأزله دارا حسنة كان يسكنها قبل أن يلي الخلافة وحمل اليه الخلع والتحف العظيمة وطيب
نفسه فأطمأن وزالت عنه الوسوس وأخلص لآخيه المحبة وجعل المسترشد يتصرف في الامور
فلم تكد تستقر به الخلافة حتى خرج عليه ديبس وخلق طاعته فكانت بينهما حروب كثيرة
خرج في احداها الخليفة بنفسه ومعه العلماء والقضاة والمشايخ وهو متجمل بممامة سوداء
وجبة سوداء وشاش وعلى كتفه البردة وبمده القضيبي وكان ينادي يا آل هاشم الغزاة الغزاة
والعامة والعسكر ينادون يا منصور يا منصور فانكشفت الحروب المذكورة عن هزيمة ديبس
وموت أصحابه وعظم أمر الخليفة وظهرت كلمته وهابه الامراء وحسدوه وعظمت شوكة نوابه
فاتفق أن وقعت بين نوابه وبين برتقش الزكوي نفرة وطالت أيامها فأرسل اليه الخليفة
بتهدده ان هو أطال العناد معهم تخاف برتقش على نفسه وسار عن بغداد الى السلطان
محمود بهمدان وشكا اليه مما يفعله نواب الخليفة وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد

العسكر ولقى الحروب وقويت نفسه فان لم تعاجله قصد العراق ودخلها فيزداد قوة وجعما
وينزعك عن نفسه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده قال السلطان الى مقاتله وسار
نحو العراق وأشاع الخبر بذلك فأرسل الخليفة يعلمه بما عليه البلاد من الضعف والوهن بسبب
غارات ديبس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات لهرب
الكرة عن بلادهم ويطلب منه أن يتأخر هذه الدفعة الى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود اليها
فلا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالا كثيرا فلما سمع السلطان محمود هذه الرسالة قوى عنده
ما قرره الزكوى برنقش وأبى أن يجيب الى التأخير وصمم العزم وسار اليها مجددا فلما بلغ الخليفة
الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربي مظهرا للغضب
والانتزاع عن بغداد ان قصدها السلطان محمود فلما خرج من داره بكاه الناس بكاء عظيما
فلما علم السلطان بذلك اشتد عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله
العود الى داره فأعاد الجواب أنه لابد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء
ونخراب البلاد وأنه لا يرى في دينه أنه يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فان عاد السلطان والارحل
هو الى العراق كيلا يشاهد ما يلقي الناس بمجيء العسكر فغضب السلطان لقوله ورحل نحو
بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربي فلما حضر عيد الاضحى خطب في الناس وصلى بهم فبكى
الناس خطبته وأرسل عفيفا الخادم وهو من خواصه في عسكر الى واسط لينع عنها نواب
السلطان فأرسل السلطان اليه عماد الدين زنتكي بن آقسنقر وكان له حينئذ البصرة فلما وصل
عفيف الى واسط سار اليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاع عنها فأبى ولم يفعل فعبر
اليه عماد الدين واقتنلوا فانهمز عسكر عفيف وقتل وأسر منهم خلق كثير وتغافل عن عفيف
حتى نجا لمودة كانت بينهما * وجاء الخبر الى الخليفة بما جرى فجمع السفن جميعها اليه وسد
أبواب دار الخلافة سوى الباب الغربي وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام عليه لحفظ
الدار ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه ووصل السلطان في عسكره الى
بغداد ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس
ذلك الى السلطان فرسم باخراجهم وبقى فيها من له دار وبقى السلطان يرسل الخليفة بالعود
ويطلب الصلح وهو يمنع فكان يجري بين العسكرين مناوشة والعامسة من الجانب الغربي
يسبون السلطان أخش سب ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا
التاج وحجرات الخليفة فضج أهل بغداد من ذلك واجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية
فلما رآهم الخليفة خرج من السراشق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب
الكؤسات والبوقات ونادى بأعلى صوته بالهاشم وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس
دفعة واحدة وكان له في الدار ألف رجل محتفون في السراشب قطهروا وعسكر السلطان
مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الامراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة
من الامراء ودار عزيز الدين المستوفي ودار الحكيم أوحده الزمان الطبيب وقتل منهم خلق

كثير في الدروب وعبر الخليفة الى الجانب الشرقى ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بجفر الخنادق حفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر فكان القتال عليهم **كل** يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فلم يتم لهم ذلك اذ غدر بهم أبو الهيثم الكردى صاحب اربل وخرج كآته يريد القتال فانضم الى عسكر السلطان وترك الخليفة وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب في البر جمع كل سفينة بالبصرة ليشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح وأصعد فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح واطهار ما عندهم من الجلد والنهضة فسارت السفن في الماء والعساكر في البر على شاطئ دجلة وقد انتشروا وملؤا الارض برا وبحرا فرأى الناس منظرا عجيبا كبر في أنفسهم وملا صدورهم فركب السلطان والعسكر الى لقائهم فنظروا ما لم يتظروا مثله وعظم عماد الدين في أعينهم وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ والحد في ذلك برا وبحرا فلما رأى الخليفة المسترشد بالله الامر على هذه الصورة وقد خرج الامير أبو الهيثم من عنده بمن معه من العسكر خاف شر العاقبة وأجاب الى الصلح وترددت الرسل بينه وبين السلطان محمود فاصطلحا واعتمر السلطان مما جرى وكان السلطان حليما جدا يسمع سبه باذنه فلا يعاقب عليه فعفا عن أهل بغداد جميعهم * وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال والله لا تساوى الدنيا مثل هذا الفعل وأقام ببغداد الى رابع شهر ربيع سنة احدى وعشرين ورجل الخليفة من المال كل ما استقرت القاعدة عليه وأهدى للسلطان سلاحا وخيلا وغير ذلك واستمرت الأمور بين صفاء وكدر وخروج وعصيان لا تستقر على حال من الاحوال والخليفة المسترشد يعالجها بالصبر والكياسة ويلبس لكل أمر منها لبوسه لعل الله يآتيه بالفرج القريب

وكما كانت الحال على ذلك بين الخليفة والسلطان محمود كانت بين الامر بأحكام الله صاحب مضروبين أمرائه وقواده وجنوده وأهل البلاد اذ قد ساءت سيرته ووقع تصرفه وكثر أخذه للناس بالشبهات بخار وظلم وأراق الدماء بغير موجب ولا سبب فاختل نظام البلاد وعاث فيها الفسادون في البر والبحر وسلبوا وقتلوا وأحرقوا وارتفع الامن وتعطلت الزراعات وكادت تقل الاقوات فانفق جماعة على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان اليوم الثاني من شهر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة علموا بعزمه على الخروج الى منتزهه بالروضة فكمنوا له في الطريق فخرج في ثلاثة من قومه فوثبوا عليه بالسيوف فأخنوه وقيل ان الذين قتلوه هم الباطنية باغراء بعض قواده فكانت ولايته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولد المهدي عيسى الله * قال بعض الكتاب وكبر حبه في آخر أيامه للنساء واشتد شغفه بهن فكان له معهن كل يوم شأن

وحكى له يوما عن جارية من عرب البادية وأنها من الجمال والكمال والرفقة ومعرفة ضروب الشعر والأدب على جانب عظيم فشغف بحبها وجاه عشقه الى التزوي بزى العرب وخرج يتنسم أخبار أهلها حتى نزل على حيسم وما زال يفصيل حتى رآها فأخذت بمجامع قلبه ووقعت منه موقعا عظيما فطلبها من أهلها فأجابوه الى زواجها فلما صارت في قصره استوحشت فقالت له يوما مالى ولهذه القصور العالية فهلا أرجعتنى الى مضرى فتزيل عني وحشتى قيل فبنى لها اليهودج بالجزيرة على النيل وهو من غرائب البناء وكانت تحب ابن عم لها يعرف بابن مباح فكثبت له يوما هذه الأبيات

يا ابن مباح اليك المشتكى * مالكم من بعد كم قدملكا
كنت في حبي حرا مطلقا * نائلا ماشئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد * لأرى الاحيساء مسككا
كم تثنينا بأغصان اللوا * حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برمالات الحمى * حينما شاء طليق سلكا

فلما وصلت اليه هذه الابيات كتب يقول

بنت عمى والى غنديثها * بالجوى حتى علا واحتسكا
بعت بالشكوى وعندى ضعفها * لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى * هالك وهو الذى قد أهلكا
شان داود غدا في عصرنا * مبدىا بالنبيسه ماقد ملكا

فبلغت هذه الابيات الامر فقال والله لولا انه أساء الادب فى البيت الرابع لرددتها الى حبه وزوجته بها

ولما قتل الامر لم يكن له ولد بعده فظهر غلام أرمى من غلمانه وتغلب على البلاد لاختلال الحال واستحوذ على الامور ثلاثة أيام ورام أن يتأمر فخر الوزير أبو علي أحمد ابن الفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش وأقام الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم بن المستنصر بالله وبإيعازه لينظر فى الامر نيابة حتى يكشف عن حبل كان للامر فتكون الولاية فيه ويكون هو نائبا عنه فلما تم له الامر استحوذ الوزير أبو علي على جميع الامور دونه وحصره فى مجلس لا يدخل اليه أحد الا من يريده الوزير وخطب لنفسه على المنابر ونقل جميع الاموال من قصر الامارة الى داره وأسقط من الدعاء ذكر اسمعيل الذى هو جدّهم واليه تنسب الاسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق وأسقط من الأذان حى على خير العمل وأمر الخطباء أن يحظبوا له بألقاب كتبها لهم وهى ❀ السيد الافضل الاجل سيد عمالك أرباب الدول والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الاقربين والابعدين ناصر امام الحق فى حالتى غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتديره أمين الله على عباده وهادى القضاة الى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاة

المؤمنين بواضح بيانه وارشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف
والقلم أبو علي أحمد بن السيد الاجل الافضل شاهنشاه أمير الجيوش * قال أصحاب التاريخ
وكان الافضل امامى المذهب يكثر ذم الآمر والتنافس به فتفر منه شيعة العلويين ومماليكهم
وكرهوه وعزموا على قتله فخرج في العشرين من المحرم سنة ست وعشرين يريد خزانة السلاح
ليفرق على الاجناد على جارى العادة في الاعياد فسار معه عالم كثير من الرجال والفرسان
فتأذى من الغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفردا معه رجلا فصادف رجلين بسوق الصياغة
فضرباه بالسكاكين وجاء ثالث فضربه بسكين في خصره فسقط عن دابته ورجع أصحابه
فقتلوا الثلاثة وجلوه الى داره فدخل عليه الحافظ وتوجع له وسأله عن الأموال فقال أما
الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة يعرفه وكان من أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة وأما
الباطن فابن البطائحي يعرفه فقالا صدق فلما مات نقل من أمواله مالا يحصى عددا وبقي
السلطان في داره أربعين يوما والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهارا ووجد له
من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة القليلة الوجود مالا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده
وكان عمره سبعا وخمسين سنة وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة منها أيام المستنصر
وجميع أيام المستعلى وأيام الآمر الى هذه السنة من أيام الحافظ * وكان الافضل المذكور
حسن السيرة محبا للناس مبالا للخير عاملا على اعلاء شأن البلاد مجتادا في عمارها ونماء
زوتها فبنى فيها المباني العظيمة والعمائر المفيدة ووسع نخلها وأكبر مساقى أرضها وهو
الذى حفر البحر المعروف ببحر أبي المنجا في سنة ست وخمسمائة هجرية ونماه باسم مهندس
أبو المنجا أبو شعيب اليهودي وأنشأ أيضا المرصد الكبير على مقربة من المقطم في المكان الذى
كان يعرف قبل ذلك بالجرف وله غير ذلك من الآثار النافعة * حكى انه لما قتل وظهر الظلم
بعده اجتمع جماعة من الناس واستغاثوا بالسلطان وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا
الافضل بحضرة السلطان فسألهم عن سبب لعنهم اباه فقالوا عدل وأحسن السيرة ففارقنا
بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلاده لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا قبل
فأحسن السلطان اليهم وأمر بالاحسان الى الناس وكثرت الاقوال في سبب قتل الافضل
وقاتله فقال قوم ان صاحبه الآمر بأحكام الله وضع عليه فقتله * قلت * وصوابه الحافظ لدين
الله قالوا ولقد كان في قصد الآمر أن يضع عليه من يقتله اذا دخل عليه قصره للسلام أو في أيام
الاعياد فنه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد وقال له ان في هذا الفعل شناعة وسوء
سمعة لانه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة وليس منهم الا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد
سار ذلك في أقطار البلاد فلا يجوز أن تظهر منا هذه المكافحة الشنيعة ومع هذا فلا بد وأن
نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه في منصبه فيمكن مثله أو يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل
ما فعلناه بهذا فيحذر من الدخول اليها خوفا على نفسه وان دخل علينا كان خائفا مستعدا
للامتناع وفي هذا الفعل ما يسقط المنزلة قال والرأى عندي أن ترسل أبا عبد الله البطائحي

فانه الغالب على أمر الافضل والمطلع على سره وفصده أن يولييه منصبه ونطلب منه أن يدبر الامر في قتله اذا ركب فاذا ظفرونا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الاحدوثه ففعلوا ذلك وقتلوه وقال آخرون غير ذلك ❀ قلت ونسبة قتله الى الامر بأحكام الله خطأ فان الامر مات في ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة والافضل قتل في المحرم افتتاح سنة ست وعشرين وخمسمائة فيكون بين موت الاثنين سنة وشهران فيكون القاتل له اذا الحافظ لدين الله بن محمد ❀ ولما قتل ولي بعده أبو عبد الله بن البطائحي ولقب المأمون وتحكم في الدولة وتصرف واتسعت كلمته وبقي على ذلك الى سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض عليه وصلب هو واخوته واتسعت كلمة الحافظ بعد موت الافضل وتصرف في الامور واستبد بالملك فكثرت ظلمه وكبر عسفه واشتد على الاسراء والقواد شدة عظيمة وأخذ الكثير منهم بالشبهات واشتد على النصارى وبالغ في التضييق عليهم لأنهم كانوا يحبون الافضل بن بدر الجمالي وكان يثق بهم ويعمل بمشورة بكارهم لاخلاصهم في خدمة الدولة وخلودهم الى السكون والطاعة وما زال على هذا الحال الى أن كان من أمره ما سيذكر في محله

ولما كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة في سابع عشر ذى القعدة مات الخليفة المسترشد بالله فكانت خلافته كلها خروج وعصيان وتمرد وطغيان ولكنه كان شهما مقداما على الهمة واسع الدراية كبير الدربة قيل لم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أعظم شهامة منه اذ كان شديد الهيبة وقد ضبط الامور وأحيا مجد بني العباس وجاهد وغزا مرارا فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وقيل سبعة أو ستة أشهر ❀ روى أنه ورد اليه رسل يجلس لهم في جماعة من أهل بيته فلما أحضروهم بين يديه هجم عليه الفداوية منهم بالسكاكين فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه يقال ان مسعودا أخا السلطان محمود جهز عليه الفداوية المذكورين ففعلوا به ذلك وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة وقيل خمس وأربعون فباعوا بالخلافة بعده ولده أبا منصور جعفر الراشد بالله

ومات في أيامه سائتو بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربع عشرة سنة قاسى فيها من الشدائد أعظمها وفعل العمال بالنصارى من الجور والظلم مالا يكاد يدخل تحت حصر فأقام المتأصلون بعده خرستودولو ومعناه عبد المسيح وكان راهبا بصومعة سنجار وهو سادس ستهم وأصله من بلدة بورا فلما استقر به المنصب قام من مدينة الاسكندرية الى مصر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر القسطنطين مقرا له وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الثالثون)

(في خلافة أبي منصور جعفر الراشد بالله)

ثم قام بالامر بعد المسترشد بالله ابنه أبو منصور جعفر الراشد بالله بن المسترشد ابن المستظهر ببيع له بالخلافة ثاني يوم موت أبيه في ثامن عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة هجرية أي سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ميلادية بعهد من أبيه فجعل يتصرف في الامور سنة فلما كانت سنة ثلاثين حضر برتقش الزكوي من عند السلطان مسعود الى بغداد يطالبه بما كان استقر عليه الخليفة المسترشد من المال الى السلطان وهو أربعمائة ألف دينار كما تقدم بيان ذلك فذكر الخليفة الراشد بالله أنه لا شيء عنده وأن المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب أيام الفتنة فلم يقتنع برتقش بذلك وأعاد القول فراجع الخليفة وترددت الرسل بينهما أياما ثم علم الراشد أن برتقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها وأخذ ما فيها من الأموال فجمع الخليفة العساكر لمنعها وأمر عليهم كيج آبه وأعاد عمارة السور الذي تهدم من الحوادث المترددة فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك آبه صاحب الشحنة ببغداد وأعلمه أن السلطان إنما يريد أن يهجم على دار الخلافة فأحس الراشد بذلك واستنعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العساكر والامراء الكجكية ومحمد بن عسكر في نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا قتالا شديدا فأخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر بك آبه الى واسط وسار برتقش الى البندنجيين فنهب العامة دار السلطان ولم يبقوا فيها شيأ فاشتدت العداوة بين الخليفة وبين السلطان وعظمت الفتنة وكبر الامر على السلطان واستخدم الخليفة الراشد جندا كثيرا وأكثر من جمع السلاح ومعدات الحرب وتهيأ للقاء السلطان مسعود فلما جاء الخبر الى السلطان باستعداد الراشد كاتب أتابك زنكي واستماله وكذلك فعل ببرتقش فأشار أصحاب الراشد عليه بالتوقف فأقبل السلطان مسعود بجيوشه ودخل بغداد في ذي القعدة وقبل في ذي الحجة سنة ثلاثين فنهب دور الجند ومنع من نهب البلد واستمال الرعية اليه وأحضر القضاة والشهود فقدموا في الخليفة الراشد بأنه صدرت عنه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرمة وارتكاب المنكرات وفعل مالا يجوز فعله وشهدوا عليه بذلك فحكم قاضي القضاة وهو يومئذ ابن الكرخي بخلعه نخلعه لاربعة عشرة من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة وكان الراشد لما دخل السلطان الى بغداد ونهب عسكره الدور هرب في قبائل من خواصه ومعه أتابك زنكي الى الموصل فطلبه السلطان مسعود فهرب الى فارس ثم دخل الى اصفهان محاصرها وقرض هناك فدخل عليه جماعة من الفداوية

فقتلوه وله احدى وعشرون سنة وقيل ثلاثون سنة ووردت الأخبار بموته الى بغداد فجلسوا للعزاء به في دار النوبة يوما واحدا فكانت خلافته أحد عشر شهرا وأحد عشر يوما ولما خلع الخليفة الراشد على هذه الصورة وانقطعت خطبته في بغداد وجميع أعمالها استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير علي بن طراد وصاحب الخزن وغيرهما فبين بصلح أن يلي الخلافة فقال الوزير أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ثم ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد ابن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الزينبي وصاحب الخزن ابن الفشلاني وغيرهما وأمر باحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي كان يسكنه فأحضر وأجلس في الميمنة ودخل السلطان اليه والوزير ومخالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة ولقب المقتنى لأمير الله كما سيمدكر في محله

(الفصل الحادى والثلاثون)

(في خلافة أبى عبد الله محمد المقتنى لأمر الله)

ثم قام بالامر بعد الراشد عمه أبو عبد الله بن محمد ولقب المقتنى لأمير الله بن محمد المستظهر ابن المقتدى بويج له يوم خلع ابن ٤٤ وهو الرابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة هجرية أى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة أرسل اليه ابن عمه الراشد رسولا من الموصل مع رسول اتابك زنكي وهو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهر زورى فأحضروه في الديوان وسمعت رسالته عن الراشد بالله في أمر خلع بيعته وقرروا ذلك بحضرة القضاة والشهود ثم سیرت الكتب بخلافته الى الآفاق واستوزر شرف الدين علي بن طراد البرنشى ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب الخزن * قال بعض الكتاب فجرت الامور على أحسن نظام وأرسل السلطان مسعود بعد قليل الى الخليفة المقتنى لأمر الله في تقرير اقطاع ليكون لخاصته فكان جوابه ان في الدار يعنى دار الخلافة ثمانين بغلة تنقل الماء من دجلة فليمنظر السلطان ما يحتاج اليه ممن يشرب هذا الماء ويقوم به فتددت الرسل في ذلك بينهما وطال الكلام أياما كثيرة كادت تتكدر الخواطر في خلالها وما زالوا حتى تقررت القاعدة بينهما على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله من الاقطاع فأجاب الخليفة الى ذلك وقال السلطان لما

بلغه قوله لقد جعلنا في الخلافة رجلا عظيما * قلت * وهو قول يدل على زوال ما كان باقيا
 الى هذا الحين من بأس الخلافة وأنها صارت تحت كلمة السلطنة خاضعة لامرها
 وجاءت الاخبار الى الحافظ العلوي بمصر بخلافة المقتدى بالله فلم تهمله لاشتغاله بالفتنة
 القائمة بالقاهرة بسبب خروج وزيره تاج الدولة بهرام النصراني الارمني وذلك أنه لما
 استوزره في سنة تسع وعشرين وخسمائة تمكن في البلاد واتسعت كلمته وغلب على الحافظ
 واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا
 فيهم ولم يكن من أهل مصر من تحرّكه الغيرة ولا تأخذه الخوة سوى الأمير رضوان بن
 الربيعي فإنه لما ساء فعل الوزير وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام
 الوزير فخاف وهرب الى الصعيد بغير قتال ولا جرب وقصد مدينة اسوان فنبهه واليها من
 الدخول اليها وقتله وقتل السودان من الارمن أصحابه كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى
 اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فأمنه فعاد الى القاهرة فسجن بالقصر فبقى مدة ثم
 لبس زي الرهبنة وترهب ولحق بأحد الديارات واستوزر الحافظ الأمير رضوان المذكور واقبى
 بالملك الافضل فكان أول وزير للمصريين لقب بالملك فجعل يتصرف في الامور واتسعت كلمته
 وكاد يتغلب على الحافظ ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على اخراجه فنار الناس عليه
 منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين وخسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها فذهب الناس
 منها ما لا يعد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس واختفى النهابون ونقل ما بقى في دار
 رضوان الى قصره وسار رضوان الى الشام يستنجد بالانراك ويستنصرهم فأرسل اليه الحافظ
 لأمير ابن مصال ليرده بالامان والعهد أن لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده في
 القصر * وفي رواية أنه سار الى الشام وقصد صرخد فوصل اليها في ذى القعدة ونزل على
 صاحبها أمين الدولة كشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة أربع وثلاثين
 وخسمائة ومعه جيش عظيم فقاتل المصريين عند باب النصر فهزمهم وقتل منهم جماعة
 كثيرة وأقام على الباب المذكور ثلاثة أيام فتفرق منه كثير من كان معه فخشى العاقبة وعزم
 على العود الى الشام فأرسل اليه الحافظ الأمير بن مصال فردّه وحبسه في القصر وجعل بينه
 وبين عياله وأهله فأقام في القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد
 أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فاجتمع عليه كثير من المغاربة وغيرهم فشد
 منهم جمعا كبيرا وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل
 القاهرة فنزل عند جامع الانخر وأرسل الى الحافظ يطلب منه ما لا يفرقه على عادتهم فانهم
 كانوا اذا وزروا وزيراً أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فأرسل الحافظ اليه عشرين
 ألف دينار فقسّمها وكثر عليه الناس فطلب زيادة فأرسل اليه الحافظ عشرين ألف دينار
 ففرّقها فتفرق الناس وخفوا عنه وبقي هو في قلعة من أصحابه واذا الصوت قد وقع وعلت
 الصوضاء وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانهم فقتلواهم

وأعلموا السيف فيمن معه من المغاربة فقدم اليه بعض أصحابه الفرس ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وجعل رأسه الى الحافظ فأرسله الى زوجته فوضع في حجرها فألقت به وقالت هكذا يكون الرجال * ولم يستور الحافظ أحدا بعد موت رضوان وباشر الامور بنفسه وما زال يتصرف والامور طوع يده تارة وخارجة عنه أخرى حتى وافقته منيقه في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة الا خمسة أشهر وعمره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوما عليه مغلوبا على أمره لا كلمة له وانما الكلمة لوزرائه حتى انه جعل ابنه حسنا وزيره وولى عهده ليتخلص بذلك من أسر الوزراء وتعليمهم عليه فلم يفلح اذ حكم عليه ابنه المذكور واستبد بالامر دونه وتجبّر وظلم وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر الكثير منهم فكبر ذلك على الحافظ واستعظمه جدا فسقاه سمات * قال أصحاب التاريخ ولم يل الامر من العلويين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاقد * ولما مات الحافظ ولى الامر بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور اسمعيل بن عبيد الحميد الحافظ فاستوزر ابن مصال فلبث أربعين يوما يدبر الامر واتفق بعد ذلك أن خرج جماعة من السودان عن الطاعة فعاثوا وأفسدوا وعظم شرهم فخرج ابن مصال لقتالهم وردعهم فلما علم العادل بن السلار وهو بالاسكندرية بخروج ابن مصال سار الى القاهرة ونازعه في الوزارة حتى تولاها وتمكن منها ثم سير ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في عسكر لقتال ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن وعلت كلمته فلم يبق للسلطان معه حكم واشتد على الامراء وأخذ بأسباب الخزم وبالغ في التجلد فلم يغن هذا كله شأنا اذ كثر الاختلال واشتد وهن الدولة وتطاوت أيدي الطامعين الى أملاكها فأخذ الفرنجة في أيامه عسقلان وجاءت مراكبهم الى دمياط فقاتلوا تنيس وحاصروها وضيقوا عليها أياما كثيرة ثم انصرفوا عنها وأخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبوق وما زال ابن العادل يتصرف الى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقام عليه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي فقتله باغراء الأمير أسامة بن منقذ ووافقته على ذلك الظافر بالله وولى الوزارة بعده فكانت الوزارة في مصر لمن غلب والعلويون وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين لا كلمة فوق كلمتهم * قال أصحاب التاريخ وقل أن ولى الوزارة أحد بعد الأفضل أمير الجيوش الابحرب وقتل وما شابه ذلك

وتمكن عباس من الدولة وبسط يده على الأمور وعزل وولى وجع الأموال وهادنه الامراء وخضعت اليه العمال في جميع الجهات وكان الامراء والاجناد يعلمون أنه انما ارتقى منصب الوزارة بفعل الأمير أسامة بن منقذ حيث أغراه على قتل العادل كما تقدم فعزموه على قتل ابن منقذ وصاروا يراقبون الفرص فلما أحس ابن منقذ بما عزموا عليه خاف على نفسه وأخذ يدبر الحيلة في فساد أمرهم فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على

ما أسمع من فيج القول قال وما ذلك قال الناس يزعمون ان الظافر يواصل ابنك نصرا وكان نصر خضيصا للظافر وكان ملازما له ليلة ونهاره وكان من أجل الناس صورة وكان الظافر يهتم به فانزعج لذلك عباس وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله * وفي رواية أخرى أن الظافر أقطع نصر بن عباس المذكور قرية قليوب وهي من أعظم قرى مصر يومئذ فدخل عليه مؤيد الدولة بن ممقذ وهو عند أبيه عباس فقال له نصر قد أقطعني مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هي في مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأذن من هذا الحال وشرع أبوه عباس في قتل الظافر وأمر ابنه بذلك فحضر نصر عند الظافر يوما وقال أشتهي أن تجيء الى دارى لدعوة صنعتها ولا تمكث من الجمع فشى معه في نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خوادم صغيرا اختبأ فلم يره ودفن القتل في داره وأخبر أباه عباسا بالخبر فبكر الى القصر وطلب من الخدم الخصىين بخدمة الظافر أن يطلبوا له أذنا في الدخول عليه لأمري يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا انه ليس في القصر فقال لابد منه وكان غرضه أن ينفي التهمة عنه بقتله وان يقتل كل من بالقصر من يخاف أن ينارعه فيمن يقيمه في السلطنة فلما ألح عليهم عجزوا عن احضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر اذا دخل عليهم الخوادم الصغير الذى شاهد قتله وقد هرب من دار العباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لانهمما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال أريد أن أستعرض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفأتر بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله اسمعيل ثاني يوم قتل أبيه وله من العمر خمس سنين فخلفه عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس يومئذ من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك فيه الا مالا خيرا فيه * وظن عباس بعد قتله للظافر واقامة ابنه الفائز أن الامر يتم له على ما يريد فكان الحال خلاف ما اعتقده فان الكلمة اختلفت عليه وناربه طوائف الجند من الأتراك والسودان فكان اذا أمر أمرا لا يلتفت اليه ولا يسمع له قول فزالت هيئته وانحطت مرتبته في أعين الرعية فأرسل من بالقصر من النساء والخدم الى الصالح طلائع بن رزيق وهو يومئذ في منية ابن خصيب بالصعيد واليا عليها وعلى أعمالها ولم تكن يومئذ من الاعمال الجليلة ولكنها كانت اقرب الاعمال اليهم يشكون ما حل بهم من عباس وكان في ابن رزيق شهامة فجمع جيشا عظيما وانحدر يريد قتال عباس فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر الى الشام بمأمره من الاموال التي لا تحصى كثيرة ومن الخف والاشياء التي لا توجد الا هنالك مما كان قد أخذ من القصر فلما سار وقعه به عسكر الفرنجة في الطريق فقتلوه وأخذوا جميع ما كان معه وسار الصالح صاحب منية ابن خصيب فدخل القاهرة باعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التي أرسلت اليه من نساء القصر على رؤس الرماح نخلع

عليه خلع الوزارة واستقر له منصبها وأحضر الخوادم الذي شاهد قتل النظار فأراه موضع
دفنه فأخرجه ونقله الى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنجة عباسا وأخذوا ما معه من
الاموال وغيرها أسروا ابنه فأرسل الصالح الى الفرنجة وبذل لهم مالا وأخذ منهم فساد من
الشام مع أصحاب الصالح ولم يكلم أحدا منهم كلمة واحدة الى أن رأى القاهرة فأنشد
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والحدود العواثر

فأدخلوه القصر ثم أخرج بعد أيام ميتا وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح بيوت
الكبار والاعيان بالديار المصرية فقبض على أهلها وأخذ أموالهم وأبعدهم عن ديارهم فممن
هلك ومنهم من تفرق في البلاد ومنهم من نزح الى الحجاز واليمن وغيرهما * قال بعض الكتاب
وكان دخول الملك الصالح الى القاهرة بالاعلام السود والسياب السود من الفأل العجيب فانه
لم يمض سوى خمسة عشر عاما حتى دخلت القاهرة الاعلام السود العباسية وأزالت الاعلام
العلوية ولم يزل الفائق بنصر الله لا كلمة له والحكم للصالح بن رزيق الوزير حتى مات الفائق في
صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وعمره احدى عشرة سنة فمكثت سلطنته ست سنين ونحو
شهرين فلما مات دخل الصالح بن رزيق القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح
للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبيرا السن فأمر باحضاره
فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس الوزير أحزم منك حيث اختار الصغير للخلافة وترك
الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله
أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد يومئذ مرافقا
قارب البلوغ فبايع له وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله

وكما كانت أمور السلطنة في مصر في اختلال وأحوالها في اعتلال بسبب الفتن
والخطوب المستراكة المترتبة على فعال الطامعين في منصب الوزارة فكذلك كانت أحوال
الخلافة ينعقد الى هذا الحين اذ ظهرت الفتن وعمت الاحن وقامت الحروب في كل الجهات
على ساقها واشتدت وطالت أيامها فاختل نظام الامور وتعذر تدبير الجمهور وعاث أصحاب
الفساد فقتلوا ونهبوا وفعلوا مالا خيرا فيه وكان من الحوادث أيضا في تلك الايام أن زاد دجلة
الى حد لم يسبق له مثال فخرق الفوارج فوق بغداد وأقبل المد الى البلد فامتلات الصحارى
وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء
فتحة أخرى وأهملوها ظنا أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق
كثير من الدروب والحارات ودب الماء تحت الارض الى الكثير من الاماكن فوفعت وأخذ
الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت أجرة المعبرة عدة دنائير ولم يكن يقدر عليها
أصاب الناس ثم نقص الماء وتهدم السور وبقي الماء الذي بداخل السور يدب حتى كثر الخراب
وبقيت المحال لا تعرف وانما هي تلؤل وقد غرق أيضا بالجانب الغربي من دجلة جميع المقابر
وانخفضت وخرج الموق على سطح الماء فكان أمرا عظيما جدا لم يسبق له مثيل فيما غير

ولما كانت سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض الخليفة المقتنى لامر الله واشتد مرضه وخاف الناس عليه ثم عوفي فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلفت الحصوات أسبوعا وعم الفرح جميع الاهالي ثم لم يلبث أن عاوده المرض في سنة خمس وخمسين فمات في ثاني ربيع الاول بعلة الترقى وهو ابن ست وستين سنة فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وقيل أربعاً وعشرين وثلاثة أشهر وستة عشر يوما وقيل خمسا وعشرين سنة وكان شهما كريما حليبا حسن السيرة ذا رأى وتدبير وهو أول من استعبد بالحكم منفردا عن السلطان بالعراق من أول يوم الديلم الى موته وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن الا الخليفة المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الاموال الجليلة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء وقد عمل لنفسه من العقيق تابوتا دفن فيه ❦ ولما مات ولي الخلافة بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله

(الفصل الثاني والثلاثون)

(في خلافة أبي المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتنى لأمر الله)

ثم قام بالامر بعد المقتنى لامر الله ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتنى لامر الله وقد كان أبوه ولاء العهد في سنة سبع وأربعين وخمسمائة فبويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم وقيل بل يوم موت أبيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة هجرية أي سنة ستين ومائة وألف ميلادية وكان للمقتنى حظية هي أم ولده أبي علي وكانت تكره أبا المظفر وتنفى تسليم الامر لولدها أبي علي فلما اشتد مرض المقتنى وأيست منه أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة فقالوا وكيف الحيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على أبيه قبضت عليه وكان يدخل الى أبيه كل يوم فقالوا لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبي المعالي ابن الكبا الهراسي فدعوه الى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرا فقبلوا ما طلب فلما استقرت القاعة بينهم وعلمت أم أبي علي أنها حضرت عدة من الجوارى وأعظمهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان للمستنجد خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار أبيه فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبي علي وأمه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هي الى المستنجد تقول ان والدك حضر الموت فأحضر لتشاهده فاستمدعي

استاذ دار عضد الدولة وأخذ معه هو وجعاعة من الفراشين ودخل لدار وقد لبس الدروع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن جرحها وكذلك أخرى وصاح فدخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى فأخذ أخاه أبا علي وأمه فسجنهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وأغرق

وجلس المستنجد للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم ولما استقرت به الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضي ابن مزاحم وبئس الحاكم هو وأخذ منه مالا كثيرا وأخذ كتبه فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشا كلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء فكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير أن يقوم له تعظيما وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن أحمد الدامغانى وأقام مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي وخاع عليه وأدناه منه ١٠٠٠ ووردت الاخبار الى مصر بخلافه المستنجد وموت المقتفي فلم يلتفت اليها الملك الصالح بن رزيق وزير العاضد لدين الله وأهملها كهماله لغيرها من بقية الامور واشتغاله بالتحكم في دولة العاضد واستبداده بالامر والنهي وجباية الاموال وعزله الولاة والعمال وتبعييده كل من كان يخشى من وقوبه حتى أبغضه الامراء والعامة وحرم القصر وتغنوا موته والخلاص من شره فأرسلت عمه العاضد لدين الله الاموال الى بعض الامراء ودعتهم الى قتله وكان أشدهم عليه في ذلك انسان يقال له ابن الداعي فاتفقوا على قتله ووقفوا له يوما في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهنش منه فجرحوه بجراحات مهلكة وحمل الى داره وفيه رمق فأرسل الى العاضد لدين الله يعاتبه على الرضا بقتله فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت لم ترض به وبريأ منه فسلم عمتك الى حتى أنتقم منها فرسم بتسليمها اليه فأخذها قهرا وقتلها ووصى بالوزارة من بعده لولده رزيق ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد أبيه * قال أصحاب التاريخ وكان الصالح المذكور كرما فيه أدب وله أشعار حسنة بليغة تدل على فضل عزيز فنها في الافتخار

أبي الله الآن يدوم لنا الدهر * ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تقى ألوفا * ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحلنا الى الحرب مرة * قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما أنشأ في السلم نهدل جودنا * ويرتع في انعامنا العبد والحر
وكان لاهل العلم عنده منزلة ويرسل اليهم العطايا الكثيرة وكان اماميا لم يكن على مذهب

العلويين المصريين * وكان شديد المغالاة في التشجيع صنف كتابا فيه الزد على أهل الفساد
جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن أبي طالب والبحث في الاحاديث
الواردة في ذلك ومن شعره في التدين هذه الايات

يا أمة سلكت ضلالا بينا * حتى استوى اقرارها وجودها

ملتم الى أن المعاصي لم تكن * الابتقاسدير الاله وجودها

لوضح ذا كان الاله بزعمكم * منع الشريعة أن تقام حدودها

حاشا وكلا أن يكون الهنا * ينهى عن الفحشاء ثم يريدنا

قالوا ولما ولي العاضد الخلافة وركب سماع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقبل اثمهم
يفرحون بالخليفة فقال كافي بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا
وما علموا أنني كنت في ساعة أستعرضهم استعراض الغنم وقال عمارة دخلت الى الصالح
قبل قتله بثلاثة أيام فناولني قرطاسا فيه بيتان من شعر وهما

نحس في غفلة ونوم ولما * ت عيون يقظانة لاتنام

قد رحلنا الى الحمام سنيما * لمت شعري متى يكون الحمام

قال فكان آخر عهدي به * وقال عمارة أيضا ومن عجيب الاتفاق أنني أنشدت ابنه
قصيدة أقول فيها

أبولك الذي تسطو الاليالى بحده * وأنت عين ان سطا وشمال

لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومنال

تخالصك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وجمال

قال فانتقل الأمر اليه بعد ثلاثة أيام * وكان من جملة وصية الصالح لولده العادل
عند ما أشرف على التلف أن لا يغير على شاور والى الصعيد قال فأننى أنا أقوى منك وقد
نمت على استعماله ولم يمكن خلعه فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون * وشاور
هذا تركى الاصل جاء الى مصر ودخل في خدمة الصالح بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح
ولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال يومئذ بعد الوزارة * فلما استقر به المنصب ظهرت منه
كفاءة عظيمة وتقدم زائد واستمال لنفسه الرعية والمقدمين من العربان وغيرهم فعسر
أمره على الصالح ولم يمكنه بعد ذلك خلعه فاستدام استعماله لثلاثين خرج عن طاعته
فلما ولي العادل الوزارة مكان أبيه الصالح حسن له أهله عزل شاور المذكور واستعمال
بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فأرسل اليه بالعزل وخالف وصية الصالح فجمع
شاور عند ذلك جموعا كثيرة وانحدر بهم الى القاهرة فهرب العادل بن الصالح بن رزيك فلحقه
شاور وأخذه وقتله فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله سبع سنين وشهرا وأياما وولي
شاور منصب الوزارة ولقب بامير الجيوش واستولى على جميع أموال بنى رزيك وودائعهم
ونخرائتهم وأخذ منها أيضا طيا والكامل ابنا شاور شيئا كثيرا وأنكر ما أخذاه * قال

بعض الكتاب ثم ظهر عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ولم يلبث شاور في منصب الوزارة طويلا حتى ظهر الضرغام في جوع كثيرة للغاية وأخذ ينازع شاور في الوزارة وظهر أمره وعذت كلمته وطال نزاعه فانهمزم شاور منه الى الشام فتولى ضرغام منصب الوزارة وأمر ونهى فكان في هذه الدولة ثلاثة وزراء العادل بن شريك وشاور صاحب الصعيد وضرغام هذا كان أحد كبار الامراء البرقية الذين أقامهم الملك الصالح ابن رزيك على عهد وزارته ويقال له ضرغام أبي الاشبال وهو يومئذ حاجب الباب فلما تمكن ضرغام هذا من الوزارة قتل الكثير من الامراء المصريين لتخوله البلاد من المنازعين وأكثر من الأخذ بالشبهات فضعفت لذلك الدولة وانحطت شهرتها وزالت هيبتها وطمع في أخذها الطامعون فخرجت بعد ذلك من أيديهم كما سيتلى عليك في محله ❦ أما شاور فانه لما وصل الى الشام التجأ الى صاحبها نور الدين محمد بن زنكي واستجار به وشكا ما حل به من ضرغام فأكرم نور الدين مشواه وأحسن اليه وأنعم عليه وكان وصوله في ربيع الاول من السنة أي سنة تسع وخسين وخسمائة وطلب من نور الدين أن يرسل معه عسكريا الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العسكر ويكون شريكه ابن شادي مقدم العسكر التي تصعبه مقيما بعسكره في مصر ويتصرف له بأمر نور الدين واختياره فبقي نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة تحمله رغبات قصد شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنجة وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنجة فيه وكذلك تخوف من ابن شاور ان استقرت قاعدته رجلا لا يفي له ثم قوى عزيمته على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة علمها وكان هوى أسد الدين في ذلك وميله شديدا الى المسير الى مصر وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي معه بخافة جهاز جيشا جارا وجعل عليه الامير أسد الدين شريكه المذكور وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وساروا وشاور في صحبتهم وذلك في جادى الاولى سنة تسع وخسين وتقدم نور الدين الى شريكه بن شادي بان يعيد شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنجة مما يلي دمشق بعسكره لينع الفرنجة من التعرض لاسد الدين شريكه ومن معه فوصل أسد الدين والعساكر الذين معه الى مدينة بلبس فخرج ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر من مصر ولقيهم فاقتتلوا فانهم زعم ناصر الدين وعاد الى القاهرة خائرا ووصل أسد الدين قنزل على القاهرة وأخرج جادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلم الشهر لقتال أسد الدين فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ثم حمل ودفن بالقرافة وقتل أخوه فارس المسلمين فلما تم الظفر لآسد الدين خلع على شاور مستهل رجب وأعادته الى الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر وفاء ما قرره شاور فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا وأرسل الى أسد الدين بأمره بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه

فأرسل في الحال أسد الدين الى نوابه فتسلخوا مدينة بلبس وحكم على اقليم الشرقية فأرسل
شاور الى الفرنجة يستمدهم ويخوفهم من نور الدين اذا ملك مصر فسارعوا الى تلبية دعوته
ونصرتهم وطمعوا في ديار مصر وكان شاور قد بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وسادوا
فلما بلغ نور الدين خبر ذلك سار بعساكره الى أطراف بلادهم لينعهم عن المسير فلم يتمكن
من ذلك اذ سار ملك القدس في عسكره على عجل وكان قد وصل الى الساحل جح كثير من
الفرنجة يريدون زيارة بيت المقدس فسار جماعة منهم مع صاحب القدس فلما قاربوا مصر
فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن بها
فاجتمعت العساكر المصرية وجوع الفرنجة ونزلوا أسد الدين بمدينة بلبس وحصروه بها
ثلاثة أشهر وهو يغادهم القتال ويرواحهم فلم يبلغوا منه غرضا فبينما هم على هذا
الحال اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنجة على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى
بانياس فأردوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود الى الشام
ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فأجابهم الى ذلك لان الأقوات والذخائر
قلت عليه وخرج من بلبس في ذي الحجة وسار الى الشام وأقام على حاله في خدمة نور
الدين ولكنه كان دائما يتحدث بمصر مولعا بها ويجب أن يقصدها وكان عنده من الحصر
على ذلك كثير

فلما كانت سنة اثنتين وستين وخمسة تجهز للمسير الى مصر وسار في ربيع الاول في جيش
ضخم للغاية فسير معه نور الدين جماعة من الامراء فكانت عدتهم يومئذ ألفي فارس وكان نور
الدين كارها لذلك ولكن لما رأى من جد أسد الدين ورغبته في المسير لم يمكنه الا أن
يسير معه هذا الجمع خوفا من الهزيمة أو حادث يتجدد عليهم وسار أسد الدين
بعسكره برا وترك بلاد الفرنجة على يمينه فوصل مصر وقصد اطفح وعبر النيل عندها
الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل مصر ومدينة الفسطاط وأخذ يتصرف في البلاد
القريبة وأنفذ حكمه فيها وأقام على ذلك نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجيء أسد
الدين أرسل الى الفرنجة يستجبد بهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها فترفع أسد
الدين بن معه الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين فتبعهم العساكر المصرية وعسكر الفرنجة
فأدركوهم بها في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أسد الدين قد أرسل الى
المصريين والفرنجة جواسيس فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه
فعمزم على قتالهم الا أنه خاف من أصحابه أن تضعف قلوبهم عن القتال في هذا المقام
الخطير الذي عظيم فيه أقرب من سلامتهم لقلّة عددهم فاستشارهم فأشاروا بعبور النيل الى
الجانب الشرقي والرجوع الى الشام وقالوا ان نحن انهمزنا وهو الذي يغلب على الظن
فالى أين نلتجئ وعن نخمى وكل من في هذه الديار من جندي وعامى وفلاح عدونا فقام
أمير من عماليك نور الدين يقال له شرف الدين بن برغش صاحب شفيق وكان شجاعا وقال

من يخاف القتل والاسر لا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعدز فيه لياخذن مالتنا من الاقطاع والجمامية ولا يعود علينا جميع ما أخذناه منذ خدمنا الى يومنا هذا ويقول تأخذون أموال المسلمين وتقررون من عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال أسد الدين هذا الرأي وبه أعمل فقال ابن أخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فأقام أسد الدين بمكانه حتى أدركهم المصريون والفرنجية وهو على أهبة وجعل الاثقال في القلب يستكثر بها وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولئن معه ان المصريين والفرنجية يجعلون حلتهم على القلب ظنا منهم اني فيه فاذا جالوا عليكم فلا تصدوهم بالقتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فأرجعوا في أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم في الحروب ووقف بهم في الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنجية ما ذكره وجالوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهمزوا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنجية فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين جالوا من المسلمين والفرنجية الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأئخذوا وأكثر القتل فلما عاد الفرنجية من أثر المسلمين رأوا عسكرهم منهزما فانهمزوا أيضا ولما تمت هزيمة المصريين والفرنجية سار أسد الدين بن معه الى ثغر الاسكندرية وبقى باقي القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين بن أخيه وعاد الى الصعيد فملكها وبقى أموالها وأقام بها حتى صام رمضان فكبر ذلك على المصريين والفرنجية واجتمعوا بالقاهرة وأصلحوا حال عسكرهم وجمعوهم وساروا الى الاسكندرية فحصرها صلاح الدين بها واشتد عليه الحصار وقيل الطعام على من بالاسكندرية فصبروا على ذلك وانحدر أسد الدين من الصعيد الى الاسكندرية وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنجية والمصريين يطلبون الصلح * قال بعض الكتاب وبنوا الى أسد الدين خمسين ألف دينار سوى ما أخذ من البلاد فأجاب الى ذلك واشترط على الفرنجية أن يقيموا بالبلاد ولا يملكوا منها قرية واحدة فأجابوه الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية من نصف شوال من السنة ووصل أسد الدين شيركوه الى دمشق فامن عشرى ذى القعدة * أما الفرنجية فانهم اتفقوا مع المصريين بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد طائفة من فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر في كل سنة مائة ألف دينار وهذا كله استقر مع شاور اذ لم يكن للعاضد حكم ولا كلمة وقد حجب عن الأمور كلها وعاد جماعة الفرنجية بعبد ذلك الى الساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور أرسل الى نور الدين سرا مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته وتعاهدوا أن يفعل

هذا وبذل مالا يحمله في كل سنة فأجابه نور الدين الى ذلك فحمل اليه ابن شاور مالا جزيلا وبقي الأمر على هذا الحال وشاور لا يعلم بالخبر * فلما كانت سنة أربع وستين وخسمائة فصد أسد الدين ديار مصر ثالثة ومعه العسكر النورى فملكها وجعل يتصرف فيها * وتحرير الخبر أنه لما تمكن الفرنجة من البلاد المصرية وجعلوا لهم شحنة في القاهرة حكموا ونصرفوا في الأمور وشددوا على الرعية فضج المسلمون واستغاثوا فأرسل الفرنجة الى ملكهم بالشام المسمى مرى وكان أشجع ملوكهم بالشام يستدعونه لملكها وأعلموه خلوها من ممانع وهؤفوا عليه أمرها فلم يجيبهم الى ذلك * قال أصحاب التاريخ فاجتمع اليه نرسان الفرنجة وذو الرأى منهم فأشاروا عليه بملكها فقال لهم الرأى عندى أننا لانقصدها ولا بغية لنا فيها وأموالها تساق اليها فتقوى بها على نور الدين وان نحن فصدناها لتملكها فان صاحبها وعسكره وجميع بلاده وفلاحها لا يسلمونها اليها ويقاثلونها دونها ويحملهم الخوف على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين كانت العاقبة شرا علينا وأجلانا ولا محالة عن الشام فلم يقبلوا قوله وألحوا عليه في قصدها فقبل منهم على كره وشرعوا يجهزون ويشيعون أنهم انما يريدون مدينة حص فلما سمع نور الدين بالخبر شرع أيضا في جمع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنجة في السير الى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبس وملكوها قهرا مستمل صفر ونهبوا ما فيها وقتلوا وأسروا وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنجة ووعدوهم أن يأخذوا بناصرهم نكاية في شاور وتخلصا من جوهره منهم ابن الخياط وابن فرجلة فاشتد عضد الفرنجة وساروا من بلبس الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها تخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم ما فعلوه بأهل بلبس فحملهم الخوف على الامتناع فحفظوا البلد وقاموا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه وأمر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالجللاء عنها الى القاهرة وأن ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق في حالة تبكي الناظر ونهبت المدينة وأصبح أهلها لا يملكون شيئا وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم فبقيت النار تضطرم فيها وتحرقها أربعة وخسين يوما فكانت شدة لم يسبق لها مثال ومنظر تنفطر منه الأكباد واشتد الفرنجة في الحصار فعم البلاء وكبر خوف الناس فأرسل العاضد العبيدى الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنجة وأرسل في الكتب شعور نسائه وقال هذه شعور نسائي من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنجة فلما وصلت كتب العاضد الى نور الدين كبر عليه الامر وشرع في تسير الجيوش أما الفرنجة فانهم لما علموا بعزم نور الدين اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هوولى أمر العساكر فضاق به الخناق وضعف عن ردهم فأخذ الى اعمال الخيلة وأرسل الى ملك الفرنجة يذكر له مودته وصداقته له قديما وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد صاحب البلاد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين

فأجابه مري الى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يجعل بالبعض ويهمل بالبعض
فاستقرت القاعدة على ذلك فجعل لهم شاور بمائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنها ليجمع لهم
المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من أهالي القاهرة ومصر فلم ينحصل
الامقدار خمسة آلاف دينار وذلك لان أهل مصر كانت قد احترقت بيوتهم وما فيها
وما سلم من الخريق نهب وهم لا يقدر على الاقوات فضلا عن الاقساط وأما أهل القاهرة
فلان أغلب أهلها الجند وغلماهم تعذر عليهم المال وهم في خلال ذلك يرسلون نور
الدين بما أصبح الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين مقبلا عندهم في
عسكره واقطاعهم من البلاد المصرية أيضا خارج عن الثلث الذي لهم وكان نور الدين لما
وصلت كتب العاضد اليه يجلب أرسل الى أسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد في
طلبه فلقية على باب حلب وقد قدمها من حصص وكانت اقطاعا له وسبب وصوله أن كتب
المصريين وصلت اليه أيضا في هذا المعنى فسار الى نور الدين واجتمع به فحجب نور الدين من حضوره
في الحال وسر بذلك ونفاهل به وأمر بالتجهز الى مصر وأعطاء مائتي ألف دينار سوى الثياب
والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه في العسكر والخزائن فاختر من العسكر ألقى فارس وأخذ
المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل
الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من كان مع أسد الدين عشرين دينارا معونة غير
محسوبة من جامكته وأضاف الى أسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم ملوكه عز الدين
جربك وغرس الدين قلع وشرف الدين برغش وعين الدولة الباروق وقطب الدين ينال بن
حسان المنيجي وملاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه وسار أسد الدين
شيركوه من رأس الماء مجتدا منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنجة الى بلادهم
وسمع نور الدين بعودهم فسر ذلك جدا وأمر بضرب البشائر في البلاد وبعث رسلا الى الاتاق
مبشرين بذلك فلما وصل القاهرة ودخل اليها اجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه العاضد
وعاد الى خيامه بالخلعة وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة
والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لانه رأى أن العساكر كثيرة مع أسد الدين
وهو العاضد العلوي معه فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه وقد كان يكره بقاء أسد الدين
في مصر ويخشى منه على نفسه وشرع بمأطل أسد الدين في تقرير ما كان بذله لنور
الدين من المال والاقطاع للجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد
الدين ويسير معه ويعده ويمنيه

وعزم شاور يوما على أن يعمل دعوة يدعو اليها أسد الدين والامراء الذين معه ويقبض
عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنجة وكلم ابنه الكامل في ذلك
فنهأ وقال له والله لئن عزمتم على هذا الامر لأعلمن به شيركوه فقال له أبوه لئن لم تفعل هذا
لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد

ملكها الفرنجة فترك شاور ما كان قد عزم عليه ورأى العسكر النورى الذين مع أسد الدين
مطل شاور خافوا شره وتكلموا في أمره كثيرا ثم اتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز
الدين جردبك وغيرهم على قتل شاور فنهزم أسد الدين على عادته فسكتوا وهم على هذا
العزم من قتله فاتفق أن قصد شاور عسكر أسد الدين كما كان يفعل كل يوم فلم يجده في الخيام
وكان قد توجه لزيارة قبر الامام الشافعى فلقبه صلاح الدين يوسف وجردبك في جمع من العسكر
فخدموه وأعلموه بان شيركوه قد انصرف لزيارة قبر الامام الشافعى فقال غمضى اليه فساروا جميعا
فساير صلاح الدين وجردبك ومازالا حتى تمكنا منه وألقياه الى الارض عن فرسه فهرب أصحابه
عنه فأخذ أسيرا ولم يتمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين فتوكللا بحفظه وأعلمنا أسد الدين
فحضر ولم يتمكن الا اتمام ما عملاه فقتل شاور ووصل الخبر بما جرى الى العاضد لدين الله
العلوى فأرسل الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فأرسلوا رأسه الى
العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع
الخلق ما أخافه على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق
الناس الى الدار فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور
أمير الجيوش فسار بالخلق الى دار الوزارة وهى التى كان بها شاور فلم يبق فيها ما يقعد عليه
واستقل بالامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق به
من أصحابه وأقطع البلاد لعسكره وأما الكامل بن شاور فانه لما قتل أبوه دخل القصر هو
واخوته معتصمين فكان آخر العهد بهم * ذكر أن أسد الدين شيركوه حزن على شاور لانه
بلغه ما كان منه مع أبيه من منعه من قتل شيركوه وما استتب الامر لشيركوه وتثبت
قدماءه في منصب الوزارة حتى أناه أجله على عجل فمات في يوم السبت الثانى والعشرين من
جادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام فلما مات
قام جماعة من الامراء النورية الذين كانوا معه وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة
العاضدية بعده منهم عين الدولة الباروقى وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى
وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين يوسف وكان كل واحد من هؤلاء يخطبها
وفد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد الى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه
الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر
سنا من يوسف والرأى أن يولى الوزارة فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من
يستطيعها الينا فيصير عندنا من الجند ما نمنع بهم عن البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجهم فوافقهم
العاضد على ذلك وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم يطعه أحد من أولئك الامراء الذين
يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان معه الفقيه عيسى الهكارى فسعى مع المشطوب حتى
أماله الى صلاح الدين وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما
ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر

فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك فقال اليه أيضا ثم فعل هكذا بالباقيين فأطاعه كلهم غير عين الدولة الباروقي فإنه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام فلما استقرت بصلاح الدين الوزارة استمال اليه قلوب الناس وبذل الاموال فأجبهه وضعف أمر العاضد صاحب البلاد ولم يبق له الا الاسم ثم أرسل يوسف الى نور الدين يطلب أن يرسل اليه اخوته وأهله فأرسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ اقطاعات الامراء المصريين فأعطاهم أهله والامراء الذين معهم وزادهم فازدادوا حبالة وطاعة لامره وكان يوم ولاية صلاح الدين يوما مشهودا جدا * قال أبو شامة كانت الخلع التي لبسها صلاح الدين يوم ولايته عمامة بيضاء وثوبا دميمقيا بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسانا مطرزا بذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيفا محلي بخمسة آلاف دينار وجرا بثمانية آلاف دينار وعليه سرج ذهب وسر سار ذهب مجوهر وفي رأسه مائتا حبة جوهر وفي قوائمه أربعة عقود جوهر وفي رأسه قبعة بذهب شديدة البياض بأعلام بيض ومع الخلع عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين قال وكان يوما مشهودا وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية واستلفت اليه القلوب وخضعت له النفوس واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد اه

فلما كانت سنة خمس وستين حاصر الفرنج مدينة دمياط خمسين يوما فقاتلهم صلاح الدين حتى أجالهم وجعل صلاح الدين يأمر وينهى ويتصرف في الامور لا راد لكلمته ولا أمر فوق أمره والعاضد في قصره محجور عليه لا يعرف من أحوال البلاد شيئا ولا يدرى ماهي عليه فكان نور الدين صاحب دمشق اذا خاطب صلاح الدين يوسف لا يخاطبه مع ذلك الا بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الجواب تعظيما عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرد بكتاب بل يكتب الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا وأرسل نور الدين الى صلاح الدين بعد أن ضعف أمر العاضد وانحطت كلمته بأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسي بمصر لان الخليفة بعث يعاتبه في ذلك ويطلب اعاده الخليفة اليه كما كانت قبل العلويين فأخذ صلاح الدين من هذا الحين في تدليل العاضد والتضييق عليه في جميع أموره واشتد عليه شدة بالغة فشكى العاضد من ذلك وراسل صلاح الدين وعاتبه فلم يلتفت اليه فكبر الامر على من بالقصر واتفق مؤمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه مع جماعة من المصريين على مكتبة الفرنجة واستدعاهم الى البلاد والنقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع رجل يثقون اليه وأقاموا ينتظرون جوابه فسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقية انسان تركاني فرأى معه ثعلبين جديدين فأخذهما منه وقال في نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلعين فإنه رث الهيئة وارتاب فيه وفيهما فأتى به الى

صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتب فيهما فقرأها وسكت عليه وكانت رغبة مؤمن الخلافة أن يحرك الفرنجة الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها وخرج صلاح الدين في العسكر لقتالهم ثار مؤمن الخلافة بن معه من المصريين على مختلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والفرنجة من بين يديه فلا تبقى لهم باقية فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه ف قيل انه رجل يهودى فاحضره فأمر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم وأخبره بالخبر وأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤمن الدولة بما جرى فلزم القصر ولم يخرج منه خوفا من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شياً من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانة للتنزه فلما علم به صلاح الدين أرسل اليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأنوا برأسه ثم عزل جميع الخدم الذين يتولون أمر القصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض فكان لا يجرى في القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمره فغضب السودان لقتل مؤمن الخلافة واجتمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألقوا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضا وانتشبت الحرب بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين وكاد يتم الظفر للسودان وظهرت هزيمة الاجناد الصلاحية فأرسل صلاح الدين في الحال الى محلة السودان المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وعيالهم فلما جاءهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الامان بعد أن كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك وأخرجوا من مصر الى الجزيرة فعبر اليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الاكبر في طائفة من عسكره فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم الا الشريد ولم يراع لهم ذمة ولا عهدا وذلك سنة أربع وستين فكانت هذه الواقعة من الوقائع التي تمكنت بها ساطنة صلاح الدين وعلت كلمته

واشتد خوف الفرنجة بالشام من تلك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين لمصر فقاموا في سنة خمس وستين وخمسمائة وكانوا اخوانهم بصقلية والاندلس وغيرهما يستنجدونهم ويعرفونهم ما يتجدد من ملك الترك لمصر وأرسلوا جماعة يستنصرونهم فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واستعدوا للنزول على دمياط فلما عزموا على الرحيل كان أسد الدين قد مات كما تقدم وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحاصروها وضيقوا على من بها فأرسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشد فيها كل من عنده وأمدتهم بالاموال والسلاح والذخائر وأرسل الى نور الدين بشكو ما هم فيه من الخافة ويقول انى ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنجة وان سرت اليها خلفى المصريون في أهلها بالشروخرجوا عن طاعتي وساروا في أثرى والفرنجة أمانى فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العسكر اليه أرسلوا يتلو بعضهم بعضا ثم سار هو بنفسه الى بلاد الفرنجة الشامية فنهبا وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه قبل خلوا البلاد من ممانع فلما رأى الفرنجة تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا ولم يظفروا بشئ وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما

وأخرج فيها صلاح الدين من الاموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر * حكى انه قال ما رأيت
أكرم من العاضد أرسل الى مرة لمقام الفرج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى
التياب وغيرها وأرسل صلاح الدين الى نور الدين والخليفة المستنجد بالله العباسي يعلمهما
بأنه على عزم إعادة الخطبة الى المستنجد بديار مصر ففرح الخليفة المستنجد وأرسل الى نور الدين
يستخذه على ذلك وظل المستنجد يتصرف في الخلافة ويدبر أمرها جهدا استطاعة حتى
وافته المنية في الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة هجرية يقال ان سبب
موته انه مرض واشتد عليه المرض وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن
رئيس الرؤساء وقطب الدين قايمار القنفوي وهو حينئذ أكبر أمير في بغداد فلما اشتد
مرض الخليفة اتفقا ووصيا الطبيب على أن يصف له ما يؤذي فوصف له دخول الحمام
فامتنع لضعفه فأدخلوه هم قهرا وأغلقوا عليه بابه فمات وفيما ان الخليفة كتب الى
وزيره مع طبيبه ابن صفية بأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن
صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول اني أوصلت الخط الى الوزير
ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار وقطب الدين ويرزن وأخوه تنامش وعرض الخط عليهم
فاتفقوا على قتل الخليفة فلم يكن بأسرع من أن دخل عليه يرزن ومعه قايمار الحمدي
حمله الى الحمام وهو يستغيث وألقوا وأغلقوا الباب عليه وهو يصيح الى أن مات * وكان
ابن وزير الخليفة أبي جعفر ابن البلدي وبين أستاذ الدار وقطب الدين عداوة مستحكمة لان
المستنجد بالله كان يأمر الوزير بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان انه هو الذي يسعى بهما
فلما مرض الخليفة وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهم بالعدد فلم
يتحقق عنده خبر موته فأرسل اليه عضد الدين يقول ان أمير المؤمنين قد خف ما به من
المرض وأقبلت اليه العافية يخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فرجعا أنكر عليه ذلك
فعاد الى داره وتفرق عنه الناس وكان عضد الدين أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا
للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان يدخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار
أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضره هو وقطب الدين أبا محمد الحسن بن الخليفة
المستنجد وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بنور الله وشرطا عليه شروطا أن يكون عضد
الدين وزيرا وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك فبايعه
بعد ذلك أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه وبايعه الناس من الغد في التاج البيعة
العامية وعلم الوزير ابن البلدي بما جرى فسقط في يده وقرع سنه ندما على ما فرط من عوده
وأثناء من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء فضى الى دار الخلافة فلما دخلها
صرف الى موضع ثم دخل عليه جماعة فقتلوه وقطعوه قطعاً وألقوها في دجلة وأخذوا جميع
ما في داره فأروا فيها خطوط المستنجد بالله بأمره فيها بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين
وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براهته مما كانا يظنان فيه

فندما على تقريريهما في قتله

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا شهما كثير الرفق بهم شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس * قال صاحب الكامل بلغني أنه قبض على انسان كان يسعي بالناس فأطال حبسه فشقع فيه بعض أصحابه المختصين بمخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه قال ورد كثيرا من الاموال الى أصحابها وقبض على القاضي ابن المرخم وقد أخذ منه مالا كثيرا فأعادته الى أصحابه وكان ابن المرخم ظالما جائرا في أحكامه اه ومات في خلافة المستنجد اخرستودولو بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثلاثين سنة كلها احن وشدائد وكان موته بكنيسة المعلقة بقصر الشمع بفسطاط مصر فبقى الكرسي خاليا مدة اثنين وسبعين يوما ثم أقيم بعده كيرواس الثاني وهو سابع ستيم كان حبيسا بصومعة سنجار وامه بجرس من أهل اقلامه فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفة بالروضة وهو أول من عمل الكسوة البطركية من ديباج أزرق وبلارية من ديباج أحمر بتصاوير ذهب وقطع الشرطونية فلم يول بعده بطركا مدة مائة وأربعة وعشرين يوما ثم أقيم خائل وهو ثامن ستيم وأصله من بلدة سخا وكان حبيسا بصومعة سنجار وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الثالث والثلاثون)

(في خلافة المستضيء بنور الله بن المستنجد)

ثم قام بالامر بعد المستنجد أبو الحسن علي المستضيء بنور الله بوضع له بالخلافة يوم موت أبيه في ثامن ربيع الثاني سنة ست وستين وخمسمائة هجرية أي سنة سبعين ومائة وألف ميلادية وخطب له باليمن والديار المصرية وقد كانت الخطبة العباسية منقطعة عنهم من زمن المطيع كما تقدم الكلام وكان صلاح الدين يوسف قد شرع من أيام المستنجد في تهديد الخطبة لبني العباس فقطع الاذان بحى على خير العمل من ديار مصر كلها وعزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة وولى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي واستناب في سائر الاعمال شافعية فلما كانت سنة سبع وستين أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر أول جمعة من المحرم وبالقاهرة في الجمعة الثانية فكان ذلك يوما مشهودا قالوا والعجب ان أول من خطب للعز حين أخذت مصر عمر بن عبد السميع الخطيب بجامع عمرو

وبجامع ابن طولون فكان أول من خطب لبني العباس هذه النوبة شريف علوى يقال له
محمد بن الحسن بن أبي الضياء البعلبكي وسير صلاح الدين الخبر بذلك الى نور الدين فأرسل نور
الدين الى الخليفة المستضى يعلمه بذلك فزيت بغداد وأغلقت الاسواق وعملت القباب
وفرح المسلمون فرحا عظيما قال ابن الجوزى وقد ألفت في ذلك اليوم كتابا سمّيته النصر على
مصر وكتب العماد الكاتب صلاح الدين الى الملك نور الدين صاحب دمشق يشمره بذلك

قد خطبنا للمستضى بمصر * نائب المصطفى امام العصر

في أبيات قد أضربنا عن ايرادها هنا صفحا * وقال بعض شعراء بغداد في ذلك أبياتا
كثيرة منها

لينك يا مولاى فتح تتابعث * اليسك به خوص الزكائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها * من الترك ناس فيهم الحق يقذف
فعادت بحمد الله باسم امامنا * تنبسه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن ذلت ليوسف مصره * وكانت الى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف * وخلصها من عصبة الرفض يوسف
كشفت بها عن آل هاشم سيات * وعارا أبى الابسيفك يكشف

وهي طويلة ❦ قال صاحب حسن المحاضرة قال أبو شامة أنشدت هذه القصيدة للخليفة
قبل موته عند تأويل منام روى في هذا المعنى وأراد بيوسف الثانى الخليفة المستنجد
فلم يخطب الاولاده المستضى بجري الغال باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب
قال صاحب الكامل عند ذكر حوادث سنة سبع وستين وخمسائة * وفي هذه السنة في
ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبى محمد الامام عبد الله بن يوسف بن
الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن
الظاهر لأعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور بن زرار بن المعز
لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى القاهر اسمعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد
ابن المهدي بالله أبى محمد عميد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم
بالخلافة وخطبوا بأمر أمير المؤمنين وكان السبب في إعادة الخطبة العباسية بمصر أن
صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة
العاضد وصار يحكم في قصره صلاح الدين ونائبه قراقوش الخصى وهو من أعيان الامراء
الاسدية كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمد بن زكي يأمره بقطع الخطبة
العاضدية وإقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار
المصرية عليهم ليلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم
خوفا من نور الدين فانه كان يخاف أن يدخل الى الديار المصرية فيأخذها منه فكان يريد
أن يكون العاضد معه حتى اذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه قال

فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاماً لا فسخة له في مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراء قنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافه الا أنه لم يمكنه الا الامتثال لأمر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمي يعرف بالأمر العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ما هم فيه من الاجحام وأن أحداً لا يتجاسر بخطب للعباسي قال أنا أبثدي بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضي ففعلوا ذلك فلم ينطق فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله ولا من أصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي أن نفعجه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة * فلما توفي جلس صلاح الدين للجزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه حفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان رتبة قبل موت العاضد فحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تملأ الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فنه الحبل اليافوت وزنه سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً قال أنا لا أشك فاني رأيته ووزنته واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الرمز الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ عليه فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب به فسحروا من العاضد فأخذوا انسان فضرب به فضرط فقتضوا حكموا منه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب عليه يضرط فألقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل عمل لأجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك ❦ قلت وهو موضع للنظر * قال وكان فيه من الكتب النفيسة لمعدومة المثال ما لا يعد فباع بعض من فيه من أمة وعبد وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يكن بالامس فسبحان الحى الدائم الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حياه ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يرض اليه فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه واتقياده وكان في نسبه تسعة خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزير والمعز والمنصور والقائم والمهدى ومنهم من لم يخطب له بالخلافة وهو أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القائم محمد بن المستنصر وبقي من خطب له بالخلافة وليس من آبائه وهم المستعلي والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم باقر يقيم المهدى والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج اليها من افرريقية والعزير والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد

ومدة حكمهم من حين ظهور المهدي بسلمجاسة في ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين الى أن مات العاضد مائتان واثنان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تسكن الا اضطربت ولم تعط الاستلبت ما وهبت ولم تحل الا وتررت ولم تصف الا وتكررت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويرهدنا فيها ويرغبنا في الآخرة انه سميع الدعاء قريب من الاجابة ﴿ قال ابن خلكان سمعت جماعة من المصريين يقولون ان هؤلاء القوم يريدون العبيدين في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ألقابا في ورقة تصلح للخلفاء حتى اذا تولى واحد منا لقبوه ببعض تلك الألقاب فكتب لهم ألقابا وآخر ما كتب في الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولي منهم العاضد اه ﴿ قال ابن الاثير ومن الغريب أن العاضد في اللغة القاطع وفي الحديث لا يعضد شجرها فبالعاضد قطعت دولة بني عبيد * قلت وزالت من ديار مصر وانمحت آثارها وقامت مكانها الدولة الايوبية

ولما وصلت البشائر الى بغداد باعادة الخطبة للخليفة العباسي كما سبقت الاشارة الى ذلك ستر الخليفة الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم والمقدمين في الدولة لنور الدين صلاح الدين فسار صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة الى صلاح الدين بالديار المصرية والاعلام السود ثم أرسل الخليفة الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتاب التقليد ولم يحجم عن ايراده هنا مع طوله تقيما للفائدة قال ﴿ أما بعد فان أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قيادا * ولكل أمر مهادا * ويستزيده على نعمته التي جعلت التقوى له زادا * وجعله أعباء الخلافة فلم يضيق عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهدا * وصغر لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا * وحققت فيه قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا * ثم يصلى على من أنزلت الملائكة انصره امدادا * وأسرى به الى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا * وتبلى له ربه فلم يزغ منه بصرو ولا كذب فؤادا * ثم من بعده على أسرته الطاهرة التي زكت أوراقا وأعوادا * وورثت النور المبين بلادا * ووصفت بأنها آخر الثقلين هداية وارشادا * وخصوصا عمه العباس المدعوله بان يحفظ نفسه وأولادا * وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا * واذ استوفى القم مراده من هذه الخلد * وأنبا القول فيها عن فصاحته المرسلة * فانه يأخذ في انشاء هذا التقليد الذي جعله حايقا لقرطاسه * واستدام سجدته على صفحته حتى لم يكدر يرفع من راسه * وليس ذلك الا قناعة في وصف المناقب التي كثرت لحسن لها مقام الاكثار * واشتبه الطويل فيها بالاختصار * وهي التي لا يعزى واصفها الى القول المعاد * ولم يستوعر سلوك أطواها ومن الحجب وجود السهل في سلوك الأطواد * وتلك هي مناقبك أيها الملك الناصر السعيد الأجل الكبير العالم العادل المجاهد المربط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن

أبوب والديوان العزيز يسألوها عليك تحدينا بشكرك * ويباهي أوليائه تنويها بذكرك *
ويقول أنت الذى تستكنى فتكون للدولة سهمها الصائب * وشهابها الثاقب * وكثرها
الذى تذهب الكنوز وليس بذهاب * وحاضرها وقد حضرت فى نصرتها اذا كان غيرك هو
الغائب * فاشكر اذا مساعيدك التى أهلتك لما أهلتك * وفضلتك على الاولياء بما
فضلتك * ولئن شورك فى الولاية بمعية الاضمار * فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر
للدولة بسطة الانتصار * وفرق بين من أمد بقلبه وبين من أمد بيده فى درجات الامداد *
وما جعل الله القاعد كالذى قال لو أمرتنا لضربنا أكبادها الى برك النجاد * وقد كفالك من
المساعي أنك ككفيت الخلافة أمر منازعها * وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت
تدعيها * ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها مخفوف من الباطل بمحرا بين * ورأيت
مارآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذا بين * فبمصر منهما
واحد تجرى أنهارها من نحمته ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته * ولعب بالدين حتى
لم يدري يوم جمعه من يوم أحده ولا يوم سبته * وأعانه على ذلك قوم رعى الله بصائرهم بالهوى
والصمم * واتخذوه صنما ولم تكن الضلالة هناك الا لجل أو صمم * فقامت أنت فى وجه
باطله حتى قعد * وجعلت فى جبهه جبلا من مسد * وقلت ليد تبت فاصبح ولا يسع
بقدم ولا يبطش بيد * وكذلك فعلت بالآخر الذى فجحت باليمن ناجته * وسامت فيه
سائتته * فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية * وقال هذا ذو الخصلة الثانية * فأى
مقابلك يعترف الاسلام بسبقه * أم أيهما يقوم باداء حقه * وههنا فليصيح القلم للسيف
من الحصاد * ولتقصم مكانته من مكانته وقد كان له من الانداد * ولم يحط به هذه المزية
الا أنه أصبح لك صاحباً * ونفرك حتى طارخرا كما عز جانباً * وقضى بولايتك فكان
بها فاضيا لما كان حده ماضيا * وقد قللك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمن غورا
ونجدا * وما شملت عليه رعية وجندا * وما انتهت اليها أطرافها برا وبحرا * وما
تستفذه من مجاورها مسألة وقهرا * وأضاف اليها بلاد الشام وما تحوى عليه من المدن
المدينة * والمراكز المحصنة * مستثنيا منها ماهو بيد نور الدين اسماعيل بن نور الدين محمد
رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الاسلام ترفع ذكره فى
الناكرين * وتخلقه فى عقبه فى الفائزين * وولده هذا قد هذبتة الفطرة فى القول
والعمل * وليست هذه الربوة الامن ذاك الجبل * فليكن له منك جار تدفونه ودادا كما دنا
أرضا * وتصبح وهواك كالبنيان يشد بعضه بعضا * والذى قدمناه من الثناء عليك
ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد * وألقتك عن فضيلة الازدياد * فأياك أن تنظر الى سبعبك
نظر الإعجاب * فتقول هذه بلادنا افتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب *
ولكن اعلم أن الارض لله ورسوله ثم خليفته من بعده * فلا منة للعبد باسلامه بل المنة
لله بهداية عبده * وكم سلف قبلك ممن لورام مارمته لذنا شاسعه * وأجلب مائعه *

لكن ذخره الله لك لتخفى في الآخرة بعفازه * وفي الدنيا برقم طرازه * فألق بيدك عن
 هذا القول القاء التسليم * وقل لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم * وقد قرن
 تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الاسلام شعارا * وفي الرسم فخارا * وتناسب محل
 قلبك وبصرك * وخير ملابس الاولياء ما ناسب قلوبنا وأبصارنا * ومن جعلها طوق يوضع
 في عنقك موضع العهد والميثاق * ويشير اليك بأن الانعام قد أطاف بك اطفافة الاطواق
 بالاعناق * ثم انك خوطبت بالملك وذلك خطاب يفضى لصدرك بالانشراح * ولأملك
 بالانفساح * وتؤمر معه بمد يدك العليا لاتضعها الى الجناح * وهذه الثلاثة المشار اليها
 هي التي تكمل بها أقسام السيادة * وهي التي لا مزيد عليها في الاحسان فيقال انها الحسنى
 وزياده * فاذا صارت اليك فانصب لها يوما يكون في الايام كريم الانساب * واجعله لها
 عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب * هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك
 لك حاضرا وأنت ناء عن الحضور * وتضمن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والصفة
 من شيم الغيور * وهذه المكانة قد عرفت لك نفسها وما كنت تعرفها * وما تقول الا أنها
 لك صاحبة وأنت يوسفها * فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديعها * واعمل لها فان
 الاعمال بخواتيمها * واعلم أنك تقلدت أمرا يفتن به التقى الخلو * ولا يتفك صاحبه
 عن عهدة المألوم * وكثيرا ما ترى حسنة يوم القيامة وهي منقصة بأيدي الخصوص * ولا
 ينجو من ذلك الا من أخذ أهبة الحذار * وأشفق من شهادة الاسماع والأبصار * وعلم
 أن الولاية ميزان احدى كفتيه في الجنة والاخرى في النار * قال النبي صلى الله عليه وسلم
 يا أبا بكر اني أحب لك ما أحبه لنفسى لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم فانظر الى
 هذا القول النبوي نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال * ومثل الدنيا وقد سمعت
 اليك مجذافيرها أليس مصيرها الى الزوال * والسعيد من اذا جاءته قضى بها أرب الارواح
 لا أرب الجسوم * واتخذ منها وهي السم دواء وقد تتخذ الادوية من السموم * وما
 الاغباط بما يختلف على تلاشييه المساء والصباح * وهو كما أنزلناه من السماء فاختلط
 به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح * والله يعصم أمير المؤمنين وولاه أمره من
 تبعاتها التي لا يستهم ولا بسوها * وأحصاها الله ونسوها * ولك أنت من هذا الداء
 حظ على قدر محلك من العناية التي جذبت بضبعك * ومحلك من الولاية التي بسطت
 من ذرعك * فخذ هذا الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان * وكن في رعاية من
 اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان * وملاك ذلك كله في اسباغ العدل الذي جعله الله ثالث
 الحديث والكتاب * وأغنى بشوابه وحده عن أعمال الثواب * وقد رويما منه بعبادة ستين
 عاما في الحساب * ولم يأنس به أمير الازيد قوة في أمره * وتحصن به من عدوه ومن
 دهره * ثم يجاء به يوم القيامة وفي يده كتاب أمان * ويجلس على منبر من نور على بين
 الرحمن * ومع هذا فان مركبه صعب لا يستوى على ظهره الا من أمسك عنان نفسه

قبل عنائه * وغلبت له ملكه على لمة شيطانه * ومن أكبر فروضه أن تمحي السير السيئة
 التي طالت مدد أيامها * وأيس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمدا لانحسار
 ظلامها * تلك السير هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيمة * ولا غنى للإيدى الغنية
 إذا كانت ذات نفوس فقيرة * وكلما زادت الاموال الحاصلة منها قدرا زادها الله محقا * وقد
 استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقا * ولولا أن
 صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ في عقابه * وقبلت توبة المرأة الغامدية بتمابه * وهي
 أشقى من يكون السواد الاعظم له خصما * وبصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به
 علما * وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلمات فتنتهي عن اجرائها * وتلحق أسماءها في
 المحو واهمالها * حتى لا ييسق لها في العيان صورة منظوره * ولا في الالسننة أحاديث
 مذكوره * وإذا فعلت ذلك أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يدها فبادر الى ما أمرت به
 مبادرة من يضيق به ذراعا * ونظر الى الحياة الدنيا بعينها فرأها في الآخرة متاعا * واجد
 الله على أن قبض لك اماما مهديا يقف بك على هدالك * وبأخذ بحجرتك عن خطوات
 الشيطان الذي هو أعدى عدالك * وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف
 متباعدة * وتفتقر في سياستها الى أيد متساعده * ولهذا يكثر بها قضية الاحكام * وأولو
 تدبيرات السيوف والاقلام * وكل من هؤلاء ينبغي أن يفتن على الاختبار * ويسلط عليه
 شاهد عدل من أمانته درهم والدينار * فما أضل الناس شئ كحب المال الذي فترقت
 من أجله الاديان * وهجرت بسببه الاولاد والاخوان * وكثيرا ما يرى الرجل الصائم القائم
 وهو عابد له عبادة الاوثان * فإذا استعنت بأحد منهم على شئ من أمرك فاضرب عليه
 بالارصاد * ولا ترض بما عرفته من مبدا حاله فان الاحوال تنقل بتنقل الاجساد * وإياك
 أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد * وكذلك تأمر هؤلاء
 على اختلاف طبقاتهم بأن يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن المنكر محاسبين * ويعلموا أن ذلك
 من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين * وليبدؤا أولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها *
 وبأمرؤها بما يأمرؤن به سواها * ولا يكون ممن هدى الى طريق البر وهو عنها حائد *
 وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج الى طيبب وعائد * فما تنزل بركات السماء الاعلى من
 خاف مقام ربه * وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه * فإذا صلحت الولاية صلحت
 الرعية بصلاحهم * وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضي كل قوم الا بمصابيحهم * ومما
 يؤمرؤن به أن يكونوا لمن تحت أيديهم اخوانا في الاصحاب وجيرانا في الاقتراب * وأعوانا
 في توزيع الحمل الذي يشغل على الرقاب * فالسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميرا * وأولى
 الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا * وليست الولاية لمن يستعبد بها كثرة
 اللفيظ * ويتولاها بالوطء العنيف * ولكنها لمن يمال عن جوانبه * ويؤكل من أطايبه *
 ولن اذا غضب لم ير للغضب عنده أثر * وإذا ألحف في سؤاله تخلق بخلق الضجر * وإذا

حضر الصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر * فذلك الذي يكون صاحبه في أصحاب اليمين * والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوى الامين * ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأديين بأدابه * وجارين على نهج صوابه * وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبنة في كتابه * وبعد الوصية فان ههنا حسنة للحسنات كالأم للولد ولطالما أغنت عن صاحبها اغناء الجود * وتبقت لنصره والعيون رقود * وهي التي تسمى لها اللالاء * ولا يخطاها البلاء * ولأمير المؤمنين عناية يتبعها الرحمة الموضوعة في قلبه * والرغبة في المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه * وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية افضالها * وجعلها سببا الى التعويض عنها بعشر أمثالها * وهو بأمرك أن تنفق أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الارزاق * وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الاملاق * فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا * وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا اليها اذا نظروا * وينبغي لك أن نهى لهم من أمرهم مرفقا * وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا * وما أطلنا لك القول في هذه الوصية الا اعلاما بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر * ويستكثر منه ولا يستكبر * وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال * ويتلو جهاد العدو الكافر في مواقف القتال * وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه بما يجعل السيف في ملازمه أجا * وتسخره بنفسك ان كان أحد بنفسه سخا * ومن صفاته أنه العمل المحبوب بفضل الكرامه * الذي يتم أجره بعد صاحبه الى يوم القيامة * وبه يتحن طاعة الخالق على الخلق * وكل الاعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها بزينه الخلق * ولولا فضله لما كان محسوبا بشرط الايمان * ولما جعل الله الجنة ثمنا وليست لغيره من الاعمان * وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى * والذي يبلغك وتبلغه عينا وأذنا * وتكن للاسلام نعم الجار * حتى لا يكون له بئس الجار * ولا عذر لك في جهاده بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك الاعذار * وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحا * أو تطرق أرضه مماسيا أو مصابحا * بل يريد أن تقصد البلاد التي في يد عدوه قصد المغير * وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير * وعلى الخصوص البيت المقدس فانه بلد السلام القديم * وأخو البيت الحرام في الشرف والتعظيم * والذي توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم * وقد أصبح وهو يشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته فأنهض اليه نهضة تنوغل في فرعه وتبدل صعب قياده بسحبه * وان كان له عام حديبية فأتبعه بعام فحه * وهذه الاستزادة بعد سداد ما في اليد من ثغر كان مهلا فحمت موارده * أو مستهدما فرفعت قواعده * ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعى عورته مكشوفه * وخطنه مخوفه * والعدو قريب منه على بعده * وكثيرا ما يأتيه فجأة حتى يثق برقه برعده * فينبغي أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها * ويقل أقرانها *

ويكون قتالها لان تكون كلمة الله العليا لالاته يرى مكانها * وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسرار * وتعلم أهله أن نبأ السيف أمنع من نبأ الاخبار * ومع هذا فلا بد له من أسطول يكثر عدده * ويقوى مدده * فانه العدة التي تعين على كشف العما * والاستكثار من سبايا العبيد والاماء * وجيشه أخو الجيش السليماني فذالك يسرى على متن الريح وهذا يجري على متن الماء * ومن صفات خيله أنها جعلت بين العوم والمطار * وتساوت أقدار خلقتهما على اختلاف مدة الاعمار * فاذا أسرع قتل جبال متلفعة بقطع من الغيوم * واذا نظر الى أشكالها قيل أهلة غير أنها تهدي في مسيرها بالنجوم * ومثل هذا الخيل ينبغي أن يغالى في جياها * ويكثر من قيادها * وتؤمن عليها أميرا يلقى البحر بمثله من سعة صدره * ويسلك طرقه سالوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره * وكذلك فليكن ممن أقتت الايام تجاربه وزاجتها منا كبسه * وممن يذل الصعب اذا هو ساسه وان سبس لين جانبه * وهذا هو الرجل الذي يرأس القوم فلا يجد هزة بالرياسة * فان كان في الساقفة في الساق أو كان في الحراسة في الحراسة * ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه * وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنج من روائه * واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح في علمه وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق النبوة تأتي في أوله * وذلك هو قسم الغنائم فان الايدي قد تناولته بالاجحاف * وخلطت جهادها فيه بغلوها فلم ترجع بالكفاف * والله قد جعل الظلم في نعدى حدوده المحدودة * وجعل الاستئثار بالغنم من أشراط الساعة الموعودة * ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمان والناس به شر ناس * لا ممن يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمل اهمال مضيع ولا اهمال ناس * والذي نأمرك به أن تجرى هذا الامر على النصوص من حكمه * وتبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائر بقوائده وأنت المطالب بأتمه * وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الاكلة التي تكون غدا نكالا وبجيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما * فتصفح ماسطرناه لك من هذه الاساطير التي هي عزائم مبرمات * بل آيات محكمات * ونحب الى الله والى أمير المؤمنين بافتقار كلها * وابن لك بها مجدا يبقى في عقبك اذا أصيبت البيوت في أعقابها * وهذا الذي ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التي أوصاها * فانه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها * ثم انه قد ختم بدعوات دعاها أمير المؤمنين عند ختامه * وسأل فيها خيرة الله التي تنزل من أبر منزلة نظامه * ثم قال اني أشهدك على ما قلدته شهادة تكون عليه رقيسة وله حسية فاني لم آمره الا بأوامر الحق التي فيها موعظة وذكرى * ولين تبعها هدى ورجة وبشرى * واذا أخذ بها فلج بحجته يوما يسأل فيه عن الحجج * ولم يختلج دون رسوله على الحوض في جملة من يختلج * وقيل له لا حرج عليك ولا إثم اذا نجوت من ورطات الائم والخرج والسلام اه

وفرّح يوسف بهذا التقليل فرحاً لا يوصف وأمر فضرّبوا البشائر وسيرها إلى الآفاق
وعلمت الولاة والأفراح أياماً وامتدحه الشعراء وتواردت عليه التهاني من أقطار البلاد شرفاً
وغرباً فتقوّت عزيمته وثبت جأشه وتآقت نفسه إلى الغزو والجهاد ومنع أغارات الفرنجة
فسير جيشاً إلى بلاد الفرنجة الشامية وسار هو وخلف الجيش حتى نزل على أعمال عسقلان
فأغار عليها وعلى الرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنجة في قلة مسرعين لردّه
عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنجة هارباً ثم عاد صلاح الدين يوسف إلى مصر
فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجبل في البحر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب
وأنزله في الماء وحصر أيلة براً وبحراً وفتحها عنوة واستباح أهلها وما فيها ثم عاد غانماً إلى
مصر فجاءت إليه الأخبار بخروج العرب بالاقليم القبليّة وانهم عاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا
فسير لقتالهم أخاه تورانشاه في عسكر كبير فقاتلهم وفهرهم وسامهم الخسف حتى دخلوا تحت
الطاعة وانكفوا عن الفساد وانكش بكاهم خوفاً من صلاح الدين وبطشه واتسعت كلمة
صلاح الدين وطار صيته وأجله ملوك الفرنجة وحسبوا ما وراء ظهوره واتساع كلمته وحسده
نور الدين صاحب الشام وكبر عليه ظهوره * واتفق أن صلاح الدين يوسف سار عن مصر في
صفر سنة سبع وستين وخمسة إلى بلاد الفرنجة غازياً ونازل حصون الشوبك وبينه وبين
الكرّك يوم ليس إلا وحصرها وضيق عليها وشدّد على من بها من طوائف الفرنجة ودام
القتال فطلبوا الأمان واستمهلوا عشرة أيام فأجابهم صلاح الدين إلى ذلك فلما سمع نور الدين
بما فعله صلاح الدين داخله الريب وحرك فؤاده الحسد فسار على عجل من دمشق قاصداً بلاد
الفرنجة أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى فكلّم صلاح الدين يوسف أصحابه في أمر نور الدين
ومسيره إلى بلاد الفرنجة فقالوا له إن دخل نور الدين بلاد الفرنجة على هذا الحال أنت من
جانب ونور الدين من جانب ملكها نور الدين ومتى زال الفرنجة عن الطريق وأخذ ملكهم
لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا فلا بد لك من
الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكّم فيك بما شاء إن شاء تركك أولاً فقد لا تقدّر على
الامتناع عليه والمصلحة الرجوع إلى مصر فأذعن صلاح الدين إلى قولهم وأخذ برأيهم وأمر
بالرحيل عن الشوبك مسرعين إلى مصر ولم يأخذ من الفرنجة شيئاً وكتب إلى نور الدين
يعتذر باختلال البلاد المصرية لأموار بلغته عن بعض شيعة العلويين فيها واتهم عازمون
على الوثوب بها وأنه يخاف عليها إذا بعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم
وتعود بمنّة وأطال الاعتذار فلما وصل كتابه إلى نور الدين تغير حاله وتحرك بغضه الذي كان
يكنه على يوسف وعلم أن ذلك من يوسف حيلة ومكر وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها
وجعل يتهيأ لذلك فسمع صلاح الدين بالخبر تخاف العاقبة وجع أهله وفيهم أبوه نجم الدين
أيوب وخاله شهاب الدين الحارثي ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين
وحركته إليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال

اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد فوافقهم غيره من أهلهم وبالغوا في القول فتطاول عليهم نجم
 الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وسفه على تقي الدين وأفعده وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا
 خالك شهاب الدين ونحن أكره محبة لك من جميع من ترى والله لورأيتك أنا وهذا خالك نور
 الدين لم غنكت الا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا
 نحن هكذا فما بالك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم
 يتجاسروا على الثبات في سروجهم وهذه البلاد له ونحن عماليك ونوابه فيها فان أراد سمعنا
 وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغني أنك تريد الحركة الى البلاد فأى
 حاجة الى هذا يرسل المولى نجابا يضع في رقبتى منديلا ويأخذنى اليك وما ههنا من
 يمنع * وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا الحال فلما خلا به أيوب قال له بأى
 عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربتك جعلنا أهم
 الوجوه اليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن فاذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل
 بغيرنا والاقدار تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قسبة من قصب السكر لقاتلته أنا
 عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين يوسف ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده
 واشتغل بغيره وأرسل صلاح الدين يعتذر الى نور الدين من نفسه بالحركة على ما
 بقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما على أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور
 الدين من دمشق لغزو الفرنجة فأيها سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه ونوعدا
 على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر في عسكر عظيم في شوال من
 السنة لان طريقه أبعد وأشق فوصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل
 اليه كتاب صلاح الدين بخروجه من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه
 وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين
 بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين
 لانهم علموا أنهم ان اجتمعوا به كان عزل صلاح الدين يوسف على نور الدين سهلا فأمر صلاح
 الدين جنوده بالرحيل فرحلوا مسرعين وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الى نور الدين
 يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وانه مريض شديد
 المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه من التحف
 والهدايا شيا كثيرا فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه بذلك فعظم عليه وعلم المراد من عود
 صلاح الدين وداخله ما داخله من الغيظ والكدر وعزم على قصد يوسف * ولما وصل صلاح
 الدين الى مصر وجد أن أباه نجم الدين أيوب قد مات وكان سبب موته أنه ركب فرسه يوما
 بمصر فبينما هو سائر اذ جعل الفرس قدقه بالارض دقة شديدة فخملوه الى داره فلم يلبث الا
 يومين ومات فحزن عليه يوسف وبكاء وأقام بمصر يفكر فيما سيكون من نور الدين بعد
 تركه أباه في الكرك وعدم لقائه به فعلم أن نور الدين حائق من ذلك وأنه على عزم الحركة فزاد

خوفه وسقط في يده وجمع أهله وكلهم في الامر وقال لهم ان نور الدين على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأي بينهم على أنهم يملكون بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصموده عن البلاد فان قدروا على منعه أقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا البلاد التي اقتتحوها لجهاز صلاح الدين أخاه شمس الدولة نورا نشاء في عسكر عظيم وسيره الى بلاد النوبة فوصل الى جزيرة اسوان ثم سار منها الى قلعة ابريم فحصرها وقائله أهلها قتالا شديدا فلم يتغلبوا عليه لانهم لم تكن لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلات الحرب فسلموه القلعة فملكها نورا نشاء وأقام بها ولم ير في البلاد شيئا يرغب فيه وتحتل المشاق لاجله ثم شق عليه مالفقيه من شطف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة الكروب والخطوب فترك البلاد وعاد الى مصر بها غنم من الاماء والعبيد

وظهر لصلاح الدين يوسف أن جماعة من كبار الدولة يريدون الايقاع به واعادة ذرية العلويين وذلك انه كان قد اجتمع جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر ووافقههم على ذلك جماعة من الامراء التابعين لصلاح الدين وجمندته وتقررت القاعدة بينهم على استدعاء الفرنجة من صقلية ومن ساحل الشام الى مصر على شئ بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا مصر فان خرج صلاح الدين بنفسه لقتالهم ثارواهم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنجة وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر للقتال ثاروا به وأخذوه باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه الى اليمن خوفا أن يستمسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنجة وصقلية والساحل في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنجة وكان جماعة المصريين قد أدخلوا معهم في هذه المؤامرة زين الدين علي بن نجما الواعظ والقاضي المعروف بابن بجمية ورتبوا الخليفة من ذرية العلويين والوزير والحاجب والداعي والقضاة الا أن بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنو شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا وكلاهما من بيت الوزارة بمصر فلما علم ابن نجما الحال دخل على صلاح الدين وأعلمه حقيقة الخبر فأمره بملازمتهم ومخاطبتهم ومواطنتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدد أولا فأولا ففعل وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من بلاد الفرنجة بالساحل بهدية ورسالة وهي في الظاهر الى صلاح الدين وفي الباطن الى أولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصاري وتأتيهم رسائلهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنجة بما كان من سر خصومه فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يشق به من النصاري ودخله فأخبر الرسول بالخبر على الحقيقة فقبض صلاح الدين في الحال على المقدمين في هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب

والعويرس وغيرهم وأمر بصلبهم فصلبوا وبثقوا كذلك أيا ما * وقيل في كشف أمرهم أيضا عبارة أخرى وهي انه كان بين عبد الصمد الكاتب وبين القاضي الفاضل الصلاحى مودة فكان اذا لقي القاضي بخدمة ويتقرب اليه بمجده وطافته فلقية يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضي الفاضل ما هذا الا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجبا الواعظ وأخبره بالأمر وقال أريد أن تكشف لي الامر فسعى في كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئا فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنتهى الحال اليه فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وفررهم فأقروا فأمر بصلبهم جميعا وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في اطلاقه فظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يا مولانا لا تسمع منه في حق فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك فندم فأخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصى الصعيد وأحيط بمن بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ولم يتعرض صلاح الدين للذين نافقوا عليه من جنده ولا أعلمهم أنه علم بحالهم فكانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث التي فاز بالخلاص منها صلاح الدين ووقف على خفي أمرها * ولم يرض بعد ذلك الا القليل حتى جاءته الاخبار بموت نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر ففرح بموته فرحا لا يوصف * مات في يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسائة بعللة الخواثيق ودفن بقلعة دمشق ثم نقل منها الى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين قبل ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثاني شوال والى جانبه بعض الامراء الاخيار فقال له أحد الامراء سبحان من يعلم هل تجتمع هنا في العام المقبل أم لا فقال نور الدين لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل تجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين بعد أحد عشر يوما ومات الامير المذكور قبل الحول فأخذ كل منهما بما قال * وكان قد شرع في التجهز للدخول الى مصر لاختذها من صلاح الدين يوسف فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنجة من ناحيته وكان يعلم أن ما منع صلاح الدين من الغزو سوى الخوف منه ومن الاجتماع به فان صلاح الدين يؤثر كون الفرنجة في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل الى الجزيرة والموصل وديار بكر يطلب الجند للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى ديار مصر فيطلع يوسف عنها ويخرج به هو وجميع أهله منها ويستردها لنفسه فيمنها هو يتبها لذلك

أتاه أمر الله الذي لا مرد له * قال صاحب الكامل حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الاطباء قال استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء فدخلنا اليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له كان ينبغي أن لا تؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغي أن نجعل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسح مضى فله أثر في هذا المرض قال وشرعنا في علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستمين لا يقصد وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم يجفع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضي عنه اه * وكان نور الدين أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالخرمين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله * وبموته قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده وكان عمره يومئذ احدى عشرة سنة وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وجاءت الاخبار الى صلاح الدين بولايته فخطب له بديار مصر وضربت السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فلم يرض به بعض الامراء بالشام وقال له كمال الدين ان صاحب مصر من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاورة في الذي نفعه ولا نخرجه من بيننا فخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لانه قد انفرد بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراض بعض أمراء الشام لا سيما شمس الدين محمد وخافوا أن يدخل صلاح الدين يوسف فيخرجهم فلم يرض الا القليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزبه ويهينه بالملك وأرسل اليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه فلما سار سيف الدين غازي صاحب الموصل الى بلاد الجزيرة وملكها للاسباب التي لم نأت على ذكرها لبعدها عن غرضنا أرسل صلاح الدين يوسف الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعله بقصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر في خدمته ويكف سيف الدين عن اطماعه وكتب أيضا الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يجعل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بولاي دوتى فسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده

وتعسك ابن المقدم ومن معه من الامراء بالملك الصالح وهم يراقبون الامور وكانهم كانوا يعلمون بقصد الفرنجة بلاد مصر بناء على طلب جماعة الامراء الذين كانوا تأمروا على صلاح الدين يوسف فلم يهتموا لجوابه ولا أعاروه أنذا صاغية فلما كانت سنة سبعين

وخمسمائة سير صاحب صقلية الى الاسكندرية عمارة عظيمة عدتها مائتا سفينة تحمل
 الرجال وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلات الحرب وأربعين تحمل
 الازواد وفيها من الرجال خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة وكان المقدم عليهم ابن
 عم صاحب صقلية وكان وصول هذه العمارة في السادس والعشرين من ذي الحجة
 سنة تسع وثمانين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها فلما شوهدت أمام المدينة
 خاف الناس خوفا عظيما وخرجوا بسلاحهم وعدتهم لينعولهم من النزول الى البر فنعولهم
 والى الاسكندرية من ذلك وأمرهم بلازمة السور فنزل الفرنجة الى البر مما يلي الماء والمنارة
 وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد
 وسيرت الكتب في الحال الى صلاح الدين يوسف يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال
 من أول النهار الى آخره ثم أعاد الفرنجة القتال في اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف
 حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل في ذلك اليوم بعض الجنود المصرية ممن
 كانوا في أقطاعهم القريبة من الاسكندرية فتقوت بهم عزائم أهل البلد وفرحوا بوصولهم
 وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح أهل الاسكندرية أبواب البلد وقاتلوا
 الفرنج قتالا شديدا اليوم كله ثم عادوا الى البلد فدخلوه وقد قتل منهم خلق كثير
 وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر خرج بعسكره وسير مملوكا له ومعه ثلاث جنائب
 ليجتد السير عليها الى الاسكندرية ويشير بوصوله وسير طائفة من العساكر الى دمياط خوفا
 عليها واحتياطا ووصل مملوك صلاح الدين والناس في شدة ونادى في البلد بمجيء صلاح الدين
 والعسكر مسرعين ففرح الناس بذلك وتقوت نفوسهم وعادوا القتال وجدوا قنأخ الفرنجة
 وتقهفروا وقد علموا بقرب وصول صلاح الدين وأنه على ما هو عليه من نفوذ الكلمة وبعد
 الصبب فأقلعوا برا كبرهم وعادوا الى صقلية وكفى الله الناس شرهم * ولم يكن ليظمن صلاح
 الدين يوسف يرجوع مراكب الفرنجة عن الاسكندرية وكفهم عن قتال أهلها حتى جاءه الخبر
 من الاقاليم القبلية بخروج الكنز أحد المقدمين بالصعيد وأنه اجتمع اليه من أهل البلاد
 والغوغاء والسودان والعربان وغيرهم خلق كثير جدا فجعل صلاح الدين يتأهب لقتاله وأمر
 بجمع الجند وآلات الحرب وكان بالاقاليم القبلية أمير من الأمراء الصلاحية في أقطاعه
 وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين فقام عليه الكنز المذكور وقتله ونهب أرزاقه فعظم
 قتله على أخيه أبي الهيجاء وكان من أكبر الأمراء وأوسعهم شهرة وأشجعهم في الحروب
 فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وجيشا كبيرا فلما وصلوا
 الى مدينة طود قاتلوا من بها وجدوا في قتالهم حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا
 ثم ساروا بعد فراغهم من طود الى الكنز وقد عظم أمره واتسعت كلمته وخضع له معظم
 البلاد فقاتلوه قتالا شديدا وما زالوا يجتدون في قتاله حتى قتل هو ومن معه من الاعراب
 وغيرهم من السود والغوغاء وأمنت بعده البلاد وجاء الخبر بذلك الى صلاح الدين فأمر

بضرب البشائر فانه كان يخشى من استفعال أمر الكنز وقيام الاقاليم القبلية معه
ولما صفت لصلاح الدين الأمور تآقت نفسه الى الغزو والجهاد وفتح المدن والبلدان فجمع
عسكرا عظيما للغاية ونأهب للخروج وبينما هو على هذا الحال اذ وردت اليه الاخبار
باختلال الامور في دمشق واضطراب الاحوال بها وتطاول أيدي الظالمين اليها وانحطاط كلفة
الملك الصالح بن نور الدين صاحب الشام واستقلال الكثير من عماله بأعمالهم وخروج بعض
الامراء عليه واجتماع كلمة بعض أصحاب الكلمة الذين في خدمة الملك الصالح على استدعاء
صلاح الدين يوسف ليلمكوه عليهم ويسلموه جميع البلاد وكان مقدمهم في ذلك شمس الدين بن
المقدم فسر صلاح الدين بذلك وبالف في التأهب والاستعداد ثم حصل من الاسباب ما
أوجب تأخيرته فجاءته الرسل من الشام تستخنه على المسير فلم يلبث أن سار جريدة في سبعة
فارس ومعه القاضي الفاضل وبعض الامراء فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان
بها حينئذ صاحبها وهو من جلة من كاتب صلاح الدين بالقدوم لاختد البلاد فلما رأى قلة
من كانوا مع صلاح الدين خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال ما أرى معكم
عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم
أهل السواد فان كان معكم مال سهل الأمر فقلوا هنا مال كثير مقدار خمسين ألف دينار
فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة
آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فلما وصل خبر وصوله الى من بها من العسكر
حتى خرجوا جميعا للقائه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيق وكانت
قلعة دمشق بيد خادم اسمه ربحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو
يومئذ قاضى البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله الى
ربحان المذكور ليسلم القلعة اليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت الا لانصره وأخدمه
وأعيد البلاد التى أخذت منه اليه فصعد كمال الدين الى ربحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة
فصعد صلاح الدين اليها وأخذها وأخذ ما فيها من الاموال وأخرجها الى دار أبيه واتسع بها
وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع ذلك يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملك والخطبة
والسكة باسمه وما زال بدمشق حتى قرر أمرها واستخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن
أيوب ثم سار عنها الى مدينة حص وكانت حص واحة وقلعة بعشرين وسماية وتل خالد
والرها من بلد الجزيرة فى أقطاع الامير نجر الدين مسعود الزعفرانى ولكنه كان مغلوبا عليها
لا كلمة له فيها لسوء سيرته فى أهلها وتغلب ولاة نور الدين عليها وكان بقلعة حص وال يحفظها
فراسل صلاح الدين من بمحمص بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم فلما كان الليل وأمن أهلها وامتنعت
عليه القلعة فسار عن حص الى مدينة حماة بعد أن وكل بمحاصر من فى القلعة وقطع عنهم
الزاد وهو فى جميع أحواله لا يظهر الا الطاعة للملك الصالح بن نور الدين وأنه انما خرج
لحفظ بلاده من الفرنجة واستعادة ما أخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من بلاد

الجزيرة فلما وصل الى حجة ملك المدينة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من
الماليك النوريه فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ماهو
عليه من طاعة الملك الصالح وانه انما يريد حفظ بلاده فاستخلفه جورديك على ذلك وسيره الى
حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي اطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان
أولاد الداية وقد كانوا معتقلين بحلب فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حجة أخاه
ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك
خاف وسلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

وسار صلاح الدين بعيد ذلك يريد أخذ حلب فحصرها وضيق على من بها فقاتله أهلها
قتالا شديدا وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب
وقال لهم قد عرفتم احسان أبي اليكم ومحبة لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا
الظالم الجاحد احسان والدي اليه بأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق فهل يرضيكم
فعله وهل تطيقون الصبر على ما تكرهون ثم بكى وأعاد عليهم القول وبكى فأبكى الناس
فبذلوا له الاموال والأنفس وانفقوا على القتال دونه والمنع من بلده وجدوا في القتال
وأظهروا من الشجاعة والاقدام ما أعجز صلاح الدين عن التقدم نحو البلد وأرسل سعد
الدين الى سنان مقدم الاسماعيليه وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة
منهم الى عسكره فلما وصلوا رأيهم أمير اسمه خمارنكين صاحب قلعة برقيس فعرفهم لانه
جارهم كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رأيهم قال لهم ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم
فقاموا عليه وضربوه بالسكاكين فخرحوه بجراحات ممتنة وجل أحدهم على صلاح الدين
ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقيون من الاسماعيليه جماعة ثم قتلوا وتحرز صلاح الدين واشتد
تحفظه وبقي محاصرا لحلب الى سلخ جمدى الآخرة سنة سبعين وخمسة ثم رحل عنها
مستهل رجب قاصدا حصن لرد الفرنجة عنها حيث كانوا قد حضروا لنجدة أهل حلب وخلص
ما بيد صلاح الدين من البلاد الشاميه فلما علم الفرنجة بوصولهم رحلوا عن حصن
ووصل صلاح الدين اليها فحصر القلعة الى أن ملكها وقد كانت ممنعة عليه كما تقدم ثم سار
منها الى بعلبك وكان الوالي بها من أيام نور الدين خادما اسمه عين فحصرها صلاح الدين وهم
بقناتها فأرسل اليه عين يطلب الامان له ولمن معه فأمنهم وتسلم القلعة رابع عشر رمضان
من السنة فصار أكثر بلاد الشام بيده وعظم الأمر جدا على الملك الصالح بن نور الدين
فكتب الى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين
ويخبره بما جرى على بلاده ويطلب أن يعبر اليه ليقتلوا صلاح الدين معا ويأخذوا البلاد
منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زكي صاحب سنجار ليقتل اليه
بعساكره فيجتمعوا على المسير الى الشام فامتنع عماد الدين من ذلك وكان صلاح الدين
قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لانه هو الكبير فمعه الطمع على الامتناع على

أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في معظم عسكره وسيره
الى الشام وجعل المقدم عليه أكبر أمراءه المدعو عز الدين محمود زلقندار وسار هو
الى سنجار فحصرها وقاتلها وجت في قتلها فامتنع أخوه عماد الدين بها وجسد في حفظها
والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها ويضيق على من بها أتاه الخبير بانهمزام
عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين
وصالحه على ما بيده ورجل الى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة
ونحافه الناس واتسعت شهرته وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي على الصلح فلم
يستقر حال * هذا والملك الصالح بن نور الدين يرسل سيف الدين ويطلب حضوره اليه
بعسكره ويستحلفه فكبر الامر على سيف الدين واستعظمه وسيره عسكره مع أخيه عز
الدين زلقندار الى حلب ففرح الملك الصالح بوصولهم واجتمع معهم عسكر حلب وساروا
كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف الدين يبذل تسليم حص
وجاه وأن يقرب يده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يقبل ذلك وأبى الاتسليم
جميع ما أخذ صلاح الدين من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح الدين في هذه الاثناء
يحشد الجنود ويكثر من معدات الحرب وينجز للقتال فلما سمع بامتناع سيف الدين من اجابته
الى ما طلب نادى في عسكره بالركوب فركبوا وركب وسار بهم الى عز الدين مسعود
وزلقندار فالتقوا بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة * قال بعض الكتاب
وكان زلقندار جاهلا بالحروب غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه الا أنه قد رزق سعادة وقبولا من
سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين وانهمزوا شرهزيمة وثبت عز الدين
أخوه سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته تعجب جدا وقال اما أن هذا
يكون أشجع الناس أو أنه لا يدري شيئا في الحرب وأمر أصحابه بالحيلة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه
وتمت الهزيمة على عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين بعسكره فقتل وغنم من السلاح
والدواب شيئا كثيرا للغاية ووصل المنهزمون الى حلب فلقطعهم صلاح الدين في عسكره وقاتلهم
عليها وحاصرها وجت في حصارها وضيق وأمر بقطع خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال
اسمه من السكة في جميع بلاده * ولما طال الحصار واشتد عليهم الامر راسلوا صلاح الدين
في الصلح فتقررت القاعدة بينهم على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها
فتم الصلح على هذه القاعدة ورجل صلاح الدين بجيوشه عن حلب الى حماة فسير اليه الخليفة
العباسي بها خلعة نفيسة للغاية مع رسوله ثم سار الى دمشق وأقام بها وقد عظم شأنه بما
ملكه من بلاد الشام وبفوزه المتتابع على الملك الصالح وجميع عماله وولائه وقد ملت
جنوده من طول الاقامة بأرض الشام وامتلات أيديهم من السلب والغنائم فطلبوا العود
الى بلادهم والاستراحة فأذن لهم وسار هو كذلك في عسكر مصر ومعه الغنائم الكثيرة فلما
وصل اليها خرج اليه أهله وضربت البشائر وأولم وتصدق وأكثر من الخير للناس

ولما كانت سنة خمس وسبعين وخسمائة مات الامام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد وكان موته في ثلثي ذي القعدة فكانت خلافته نحو سبع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخسمائة وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في أمن عام واحسان شامل وسكون وطمأنينة لم يروا مثلها وكان حليما مجبا للعتفو والصفح عن المذنبين واستوزر في أيامه عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء فلبث يتصرف في الامور الى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخسمائة فاستوزر بعده ظهير الدين أبا بكر منصور بن نصر المعروف بالعطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء فتمكن من الخلافة وظهرت كلمته فلما مات المستضيء قام ظهير الدين المذكور بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله فلما تمت له البيعة صار الحكم في الدولة لاستاذ الدار محمد الدين بن أبي الفضل بن صاحب * قال صاحب الكامل ولم يلبث بن العطار أن قبض عليه ووكل عليه في داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفي ليلة الاربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتا على رأس جمال فغرز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الجمال وكشفوا سوائه وشددوا في ذكركه حبلا وسحبوه في البلد ووضعوا بيده مغرفة كأنها قم ونمسهوها في العذرة وصاروا يقولون وقع لنا يامولانا الى غير ذلك من الافعال الشنيعة ثم خلاص من أيديهم ودفن قال هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم ومات في خلافة المستضيء خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته تسع سنين وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وكانت وفاته بالعلقة بمصر واتفق في أيامه أن نقص النيل نقصا فاحشا فسيره الخليفة الى بلاد الحبشة بهدية سنوية الى التجاشي فتلقياه التجاشي وأكرم وفادته وأجله كثيرا وسأله عن سبب قدومه فعرفه بنقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك قيل فأمر بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ففتح فزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد خائيل البطرك فخاع عليه الخليفة وأحسن اليه وأكرمه جدا فلما مات أقيم بعده مقارى أو هو مكارىوس الثانى تاسع سنين وهو راهب من دير بو مقار وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع والثلاثون)

(في خلافة أبى العباس أحمد الناصر لدين الله)

ثم قام بالامر بعد المستضيء ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بويع له بالخلافة

يوم وفاة أبيه في أول ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة هجرية أي سنة تسع وسبعين ومائة وألف ميلادية وعمره ثلاث وعشرون سنة وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة له فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجع صدر الدين وأغلظ عليه في القول حتى انه قال لعسكره في حضرته مالهذا عليكم طاعة مالم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلصوه وتقاتلوه نخاف البهلوان وأذن للبيعة والخطبة للناصر وسير رضى الدين القزوينى مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله في هذه السنة وجاءت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بموت المستنصر وخلافة ابنه الناصر لدين الله فبايع له وخطب له أيضا وسير اليه الهدايا النفيسة والاعلاق الثمينة وهو بمصر ينشئ العمار العظيمة والابنية الجسيمة فانه منذ رجوعه من الشام رسم بترميم القناطر والجسور وتطهير الترع وكانت جسور النيل قد أهملت من عهد الدولة الفاطمية فكان اذا فاض طغت مياهه فأغرقت وخربت الطرق وأفسدت الزرع فمرم ما فسد منها وأقام السدود ونقل لبنائها كثيرا من حجارة الاهرام الصغيرة التي كانت حول الكبيرة بالجيزة وغيرها من أحجار المعابد والهيما كل القديمة المصرية ومهد الطريق من مصر الى الصعيد الاعلى وأنشأ القلعة بسفح المقطم المعروفة الآن بقلعة الجبل وبني له فيها قصرا وقد كان الى هذا الحين يسكن في دار الخليفة العبيدى ودار الوزير فجعلهما مسكنا لقواد الجيوش وأمراء الدولة من بعده ووكل بالبناء وزيره الأمير بهاء الدين الاسدى الحصى وكان جليل القدر مقداما حسن السياسة والتدبير فبالغ في العمل وأكثر من البنائين والعمال والمهندسين ونقر في القاعة بئرا في الصخر عميقا فيه من الماء ما يكفي حاجة الجند والمرابطين بالقلعة وهى باقية الى يومنا هذا والعامية يقولون انها البئر التي ترك فيها يوسف اخوته * قال بعض الكتاب وانما هذا البئر من عمل المصريين القدماء فانطمس بالرمال ولم تحتف معالمه فأعاد بهاء الدين حفره عند بناء القاعة واهتم بهاء الدين ببناء سور حول مصر والقاهرة وقلعة الجبل طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمي وكان قد بدأ بعمارته صلاح الدين يوسف سنة ست وستين وخمسمائة على عهد العاضد الملوى ثم بطل العمل فيه بسبب الفتن والحروب فجد بهاء الدين في عمارته وهدم في تخطيطه كثيرا من المساجد والمعابد والقبور والبيوت والوكائل والعمائر الجسيمة فضج الناس من ذلك وكبر عليهم هذا الامر وحسبوه جورا وظلما من بهاء الدين فابغضوه وسموه قراقوش وكافوا يلقون الرفاع في طريقه وكلها سب ولعن له ولاصحابه وكان اذا مر بالاسواق صاح العامة في وجهه وقالوا ما نحمل لك هذه النعال يا ظالم وهو لا يلتفت اليهم ولا يؤاخذهم بشئ من ذلك وقد ألف الاسعد بن مماتى كتابا سماه القاشوش في أحكام قراقوش ذكر فيه من أفاعيل الجور والعسف وأنواع المظالم شيئا كثيرا وحفر بهاء الدين خندقا يمتد من باب الفتوح الى المقس وهو الخطة التي بها جامع أولاد عنان اليوم ومن الجهة الشرقية خارج

باب النصر الى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سورا آخر بابراج مبنيا
بالحجارة العظيمة وابنتى الاشوان العظيمة بمصر لحفظ الغلال التى ترد فى كل سنة من الاعمال
من الاقليمين القبلى والبحرى وهى الى الآن تعرف بمخازن يوسف والناس يظنون أنها مخازن
فرعون يوسف التى بناها بعد تعبى رؤياه * قال أصحاب التاريخ وقد بنى سور القاهرة ثلاث
مرات بناء فى المرة الاولى جوهر القائد وفى الثانية أمير الجيوش بدر الجمالى وفى الثالثة بهاء
الدين وزير صلاح الدين يوسف فزاد فيه بهاء الدين القدر الذى يندى من باب القنطرة
الى باب الشعربة ومن باب الشعربة الى باب البحر وابنتى مع ذلك قلعة المقدس جعلها على
النيل بجانب جامع المقدس المعروف الآن بجامع أولاد عنان وزاد فيه أيضا قطعة مما بلى
باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير حتى يتصل
بسور قلعة الجبل

وبينما كان صلاح الدين يشيد العمار ويجهز الطرق ويقم الجسور ويصلح الترع ويسهل
العقبات بالديار المصرية جاءه الخبر بوفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب والشام
مات فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان على
صغر سنه كثير التأمل واسع الفكر كبير المعرفة وكان يخشى من صلاح الدين يوسف
ويعلم أنه سياتخذ عنه يوما مابقى له من بلاد الشام ولذلك كان كثير الاحتياط بعيد الحساب
فلما مرض وأيس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن
عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستخلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد
الدين ابن عمك أيضا أحق بها وهو زوج أختك وكان والدك نور الدين يحبه ويؤثره وقد تولى
تربيته بنفسه فهو أصلح للولاية وليس له غير سنجار فلو أعطيت له البلد لكان أوفق وعز الدين
له من البلاد من الفرات الى همدان ولا حاجة به الى بلادك فقال له ان هذا لم يغب عني
ولكن قد علمت أن صلاح الدين يوسف قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي الآن
ومنى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا
معه مقام وان سلمت الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا فعالة
وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى أتابك عز الدين
بستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل الى الامراء فحضروا
عنده وساروا جميعا الى حلب فدخلوها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ
بمصر * قال أصحاب التاريخ ولولا ذلك لراحهم عليها وقاتلهم وكان تقي الدين عمر بن أخی
صلاح الدين يوسف بمدينة منبج فلما مر بها عز الدين ومن معه الى حلب خاف تقي الدين
وهرب من منبج الى حماة فثار أهل حماة فأشار الامراء والقواد بحلب على عز الدين بقصد
دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من البلاد وأعلموه بمحبة أهل الشام له ولأهل بيته فلم
يفعل وقال بينا عين فلا تغدربه وأقام بحلب ما شاء ثم سار عنها الى الرقة فلم يستقر به المقام

حتى جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجان ليطلب أن يسلم اليه حلب ويأخذ
عوضاً عنها مدينة سنجان فلم يجبه الى ذلك وألح عماد الدين وترددت الرسل بينهما أياماً كثيرة وكله
الامراء في ذلك أيضاً فسلمها اليه وأخذ بدلها سنجان وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين
يوسف لما بلغه خبر دخول عز الدين الى حلب وتصرفه فيها كبر عليه الامر جداً وخاف أن
يسير منها الى دمشق وغيرها فيأخذ ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فأنكش وجعل
يراقب الفرص فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان
خروجه في الخامس من المحرم افتتح سنة ثمان وسبعين * قال صاحب الكامل ومن عجب
ما يحكى من التنظير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته ظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر
والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب وكلهم مودعه وسائر معه وكان كل واحد
يقول شيئاً في الوداع والفراق وما هم بصده من السفر وكان ممن حضر هذا المجلس معلم
لبعض أولاد صلاح الدين وكان جالساً خلف الجالسين فأخرج رأسه من بينهم وأنشد

تمتع من شميم عرار نجيد * فلما بعد العشية من عرار

فأنقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح
الدين الى مصر الى أن مات مع طول الوقت اه وسار صلاح الدين عن مصر فتبعه التجار
وأهل البلاد ممن كان قصد مصر من الشام فراراً من الغلاء وغيره فجعل
طريقه على أيلة فلما سمع الفرنجة بمسيره جعلوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فسير
الضعفاء والانتقال مع أخيه تاج الملوک بوري الى دمشق وبقي هو في المقاتلة فشن الغارات
على أطراف الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منها أحد فسار الى دمشق فوصلها بمن معه
سالماً ولبت بها أياماً حتى أصحح حال جنده وتظم عسكره وسار بهم الى بلاد الفرنجة
في ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم في ألقوان من الاردن فنهأ الفرنجة
وجاؤا اليه بجموعهم فنزلوا بطبرية ونأهبوا للقتال فسير صلاح الدين يوسف فرخشاہ ابن
أخيه الى بيان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبي وعم القتل والسبي وجاءت العرب
فأغارن على جفین واللجون وما جاورهما من البلدان حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنجة
من طبرية حتى نزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وأرسل عسكره يرمونهم
بالنشاب فلم يتحركوا للقتال فعاد صلاح الدين الى دمشق ولبت بها أياماً ثم سار منها فعب
الفرات وملك عدة بلاد من ديار الجزيرة وأقطعها للامراء الذين كانوا في خدمته ودخل
الفرنجة دمشق فقتلوا ونهبوا وسبوا ورحلوا عنها وجاءت الاخبار بذلك الى صلاح الدين فلم
يقدر على الرجوع وقد اطمأن بترك الفرنجة لها ورحيلهم عنها ثم سار الى الموصل وحاصرها
فلم ينل منها وعاد عنها الى سنجان فقاتلها فخامر معه بعض الامراء الاكراد وسلم اليه الناحية
التي هو بها فطره صلاح الدين فلما أحس شرف الدين صاحبها بذلك استسكان وخضع
وطلب الامان فأمنه وملك البلد صلاح الدين وسار شرف الدين ومن معه الى الموصل

وقويت عزبة صلاح الدين بملك سنجار واطمان على ما بيده من البلاد الشامية اذ صارت
 سنجار على جميع تلك البلاد كالسور واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين أتر وهو من
 كبار الامراء وأحسنهم سيرة وبقي صلاح الدين يوسف مشغول بالبال بملك حلب ونزعها من
 عماد الدين زنكي بن مودود وهو يراقب الفرض ويتبين انتفاعها فلما كان المحرم افتتح سنة
 تسع وسبعين نزل عليها بجيش عظيم وأقام بالميدان الاخضر عدة أيام ثم انتقل منه الى جبل
 جوشن فنزل باعلاه وأظهر انه انما يريد أن يبنى مساكن له ولا يحببه وعسكره وأقام عليه أياما
 والقتال بين العسكرين كل يوم وعماد الدين زنكي ومن معه من العسكر النورى يجتدون في
 القتال ويدفعون عن البلد فلما كان في بعض الايام جاء الى عماد الدين بعض الجنود وطلبوا منه
 مال النفقة فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم ان من يريد أن يحفظ بلدا مثل حلب لابد
 له من صرف الاموال ولوياع حلى نسائه خفاف عماد الدين وحسب ما وراء ذلك فقال الى
 تسليم حلب الى صلاح الدين وأخذ العوض عنها وأرسل في الحال مع الأمير طومان الياروفى
 وكان ممن يميل الى صلاح الدين يوسف أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور
 والرفة وسروج وبحر المين على ذلك * قال أصحاب التاريخ وباعها عماد الدين بالبخس
 الاثمان أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثمان عشر صفر
 ونسلمها صلاح الدين يوسف فحجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا فعل عماد الدين حتى ان
 بعض عامة حلب أحضر اجانة وماء وناداه أنت لا يصلح لك الملك وانما يصلح لك أن تغسل
 الثياب وأسمعهوا المنكروه * واستقر ملك صلاح الدين يوسف وسار عماد الدين الى البلاد
 التي أخذها فنسلمها وتقررت القاعدة بينه وبين صلاح الدين على أن عماد الدين يحضر في
 خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لايحتج بحجة وامتدح محبي الدين بن الزكي
 فاضى دمشق صلاح الدين يوسف بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان فتح بيت المقدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيد كرى محله وهو
 من غريب الاتفاق * قال صاحب الكامل وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك
 بوري أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن
 الاخلاق طعن في ركبته فانفكت خات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح
 الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر الصلح حضر صلاح الدين
 عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهي لك فقال ذلك لو كان وأنا حي ووالله
 لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وأبكى ولما خرج عماد الدين الى
 صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فيمنعاهم في سرور ان جاء انسان فأسر الى صلاح
 الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعاً ولا حزناً وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه

في الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتأكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل اه
 ووصلت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بوفاة قطب الدين صاحب ماردين وتلك ابنة بعده
 وهو طفل وأن الحكم الى شاه أرمن صاحب خلاط وعسكره فيها وشاه أرمن هذا خال قطب
 الدين فطمعت نفس صلاح الدين في أخذها فصار اليها في جيش عظيم من الرجال والفرسان
 ونازلها فرآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنتان لها منه وهي
 أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فحاصر صلاح الدين البلد وشدد في حصارها وكان المقدم
 على عسكرها أمير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وهو من كبار قواد العسكر وأشجعهم وأعلمهم
 بقنوت الحرب واشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة فلم يصل صلاح الدين الى ما يريد فعدل
 من القوة والحرب الى اعمال الحيلة والدهاء فراسل زوجة قطب الدين وهي بالبلد يقول لها
 ان أسد الدين برتقش قد مال الينا في تسليم البلد ونحن نرى حق أخيك نور الدين فيك بعد
 وفاته ونريد أن يكون لك في هذا الامر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى ويكون ميافارقين
 وغيرها لك وبحكك ووضع أيضا من أرسل الى برتقش أن الخاتون قد ماتت للقاربة والانقياد
 الى السلطان وان من بخلاط من الجند والعسكر كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك وانفق أن
 رسولا وصل من خلاط ليعلم صلاح الدين يوسف بالطاعة ففرح صلاح الدين بقدوم الرسول
 وأمره بالدخول الى ميافارقين والاجتماع ببرتقش فدخل واجتمع به وقال له أنت عن
 تقايل وأنا قد جئت في تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط برتقش في يده وضعفت عزيمته
 وأرسل الى صلاح الدين يطلب أن يقطعه بلدا ومالا وهو يتخلى عن البلد الى صلاح الدين
 فأجاب صلاح الدين الى ذلك وتسلم البلد فلما دخل اليها وفي بوعده الى زوجة قطب الدين
 وعقد نكاح بعض أولاده على بعض بناتها وأقر بيدها قلعة هناخ لتكون فيها هي وبناتها
 ورتب الامور في ميافارقين وقرر اقطاعاتها وجميع ولاياتها وأحكم قواعدها ثم سارعها يريد
 الموصل فانه كان كثير الرغبة في أخذها من صاحبها شديد الطمع في ذلك فسار نحوها وجعل
 طريقه على نصيبين فوصل الى كفر زمار والوقت شتاء فنزلها في عساكره وعزم على المقام بها
 وقطع المدد من الغلة والاقوات عن الموصل لاضعافها فقد علم أنه لا يقدر على محاربتها لمنعها
 وكثرة ما بها من الجند وآلات الحرب وطال مكث صلاح الدين بعسكره نخاف عز الدين
 صاحب الموصل فأرسل رسوله الى صلاح الدين في الصلح فقال صلاح الدين الى ذلك فيبينها
 الرسل تتردد بينهما اذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائدا الى حوران فلحقه الرسل
 بالاجابة الى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم اليه عز الدين
 شهرزور وأعمالها وولاية القرايلى وجميع ما وراء الزاب من الاعمال ويخطب له على منابر بلاده
 ويضرب اسمه على السكة وأرسل رسوله الى عز الدين ليحلف بحضورهم على ذلك فخلف وتسلم
 البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حوران فأقام بها
 مريضا وطال مرضه فأمنت الدنيا وسكنت الفتنة * وكان عند صلاح الدين

من أهله أخوه الملك العادل وهو يومئذ على حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أبسوا منه خلف الناس لاولاده بالطاعة وجمع اليه الامراء وقواد الجند وجعل لكل من اولاده شياً من البلاد معلوما وجعل أخاه العادل وصيا على الجميع وجاء ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حصص والرجبة ليزوره فرأى من شدة مرضه ما أطمعه في أخذ دمشق اذا هو مات فسار من عنده الى حصص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها وانتقل صلاح الدين من حوران الى دمشق فبلغه ما قاله ناصر الدين فلم يمس غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الاضحي قبل ان يشرب الخمر وأكثر منه فأصبح مبنا وقيل ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العيسد من دمشق فحضر عنده ناصر الدين في تلك الليلة وناداه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح المذكور فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن * ولما مات ناصر الدين شيركوه أخذ صلاح الدين جميع اقطاعه وأعطاها لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة قال بعض الكتاب وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شياً كثيراً فحضر صلاح الدين في حصص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك الا مالا خيراً فيه قال صاحب الكامل وبلغني أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له الى أين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً قال فحجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة أخرج صلاح الدين يوسف ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائباً عنه واستدعى تقي الدين منها وسبب ذلك أنه كان استناب تقي الدين بمصر وجعل معه ولده الأكبر الافضل عليا فأرسل تقي الدين يشكو من الافضل ويقول انه قد عجز عن جباية الاموال معه لانه كان حليماً كريم الطبع اذا أراد تقي الدين مطالبة أحد أو معاقبته منعه فأحضر صلاح الدين ولده الافضل وكتب الى تقي الدين يقول ليس لك بعد أخذ الافضل حجة في الخراج أو غيره وتغير عليه بسبب ذلك وظن انه انما يريد اخراج الافضل عن مصر لينفرد بها حتى يملكها اذا مات صلاح الدين وقوى هذا الخاطر عنده فأحضر أخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقي الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع العساكر والاجناد ليسير الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نقوسة وبرقة وغيرها وكتب اليه يرغبه في تلك البلاد فتهماً للسفر اليه واستصحب معه الجند والعساكر وآلات الحرب فلما سمع ذلك صلاح الدين يوسف ساءه وعلم انه ان أرسل اليه يمنعه لم يجبه فأرسل اليه يقول أريد أن تحضر عندي لأودعك وأوصيك بما

تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد في اقطاعه حاة ومنيع والمعة وكفر طاب وميا فارقين وجبل
جور بجميع أعمالها * قال صاحب الكامل بلغني من خير بأحوال صلاح الدين انه انما حله
على أخذ حلب من العادل واعادة تقي الدين الى الشام ان صلاح الدين لما مرض بجران
أرجف بمصر انه قد مات فجري من تقي الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفي
صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند
الى مصر وأمره باخراج تقي الدين والمقام بمصر ففسار مجدا فلم يشعر تقي الدين الا وقد دخل
الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يأمره بالخروج منها فطلب أن يمهله الى أن يتجهز
فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول الى الغرب فقبال له
اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل اليه بطلبه ففسار الى الشام فأحسن
اليه ولم يظهر له شياً مما كان لانه كان حليماً كريماً صبوراً رجه الله اه

ولما دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر
الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر
وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز ثم خرج من دمشق
في عسكرها فصار الى رأس الماء وتلاصقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم
ولده الملك الافضل علياً ثم ساروا جميعاً الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك
والشوبك وغيرها فنهبوا وخربوا وأحرقوا ثم سار منها الى طبرية فلكها وأمن صاحبها فرحلت
عنها فرتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى عكا فاستسلمت اليه ونزع الكثير من أهلها
بما أمكنهم من أموالهم وتركوا ما بقي ودخل المسلمون اليها وسلم البلد بعد ذلك
الى ولده الافضل وأعطي جميع ما فيه من اقطاع وجناح وغير ذلك الى الفقيه عيسى
وكان فيها من السلاح والاموال والمتاع وغير ذلك شيء لا يكاد يدخل تحت الحصر وأقام
صلاح الدين بعكا بعد ذلك عدة أيام حتى أتم تقرير جميع أمورها على قواعد مرتبة ثم ملك
بيروت وجبلي وغيرها وأجرى فيها أحكامه وأقام العمال بها على نظامه وترتيبه المألوف عنده
فلما دانت له الامور في جميع بلاد الشام الا ما كان منها بيد الفرنجة كان أمر عسقلان
وبيت المقدس عنده أهم فكان كثير التحدث بمخاوتهم كبير التولع بعرفة أخبارهما وكان
يقول أما عسقلان فانها على طريق مصر وأحب الاشياء عندي أن تتصل الولايات لي فلا
يصعب على خروج العسكر منها ودخولهم اليها وأما فتح بيت المقدس ففيه من الذكر الجليل
والصيت العظيم ما يبق على مر الايام وفي أخذ البلدين فائدة للاسلام والمسلمين وعظمت رغبته
وقويت نفسه بأخذ بيروت فصار منها نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من
العسكر المصري ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وحدث في قتالها ونصب
المنجنيقات ورمى بالاجار ليلاً ونهاراً وستة عليها جميع المسالك فانقطع المدد وقلت الأقوات
وطال القتال أياماً كثيرة فلم يرمن بالمدينة من الفرنجة بدا من التسليم فراسلوا صلاح الدين في

ذلك واشتروا شروطا فأجابهم صلاح الدين اليها فسلموها ونزع منهم من أراد الخروج بماله وعياله ووفى لهم صلاح الدين بالامان ثم مال صلاح الدين بعسكره على ماجاور عسقلان من البلدان فأخذها وأنفذ في جميعها أحكامه فذاع صيته واتسعت كلمته وهابه الملوك لما رأوه من انتصاره في غزواته وفتوحاته * ولما فرغ من أمر عسقلان وماجاورها من البلدان وقد استتب له الامر فيها أرسل الى مصر فأخرج الاسطول الذي بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الخاحب فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنجة كلما رأوا لهم مراكبا ما كسوه أو أخذوه بما فيه من غلة أو متاع وما زال على هذا الحال حتى وصل فصار صلاح الدين عن عسقلان الى بيت المقدس وكان به جمع كبير من المقاتلة والفرسان الأشداء وقد حصنوه تحصينا ونصبوا عليه المنجنيقات وتأهبوا للذب والدفاع فلما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير من أمراء جند صلاح الدين في جماعة من أصحابه فلقبه جمع من الفرنجة قد خرجوا من البلد ليناشوهم القتال فقاتلوه ومن معه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جميع من معه فأهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على بيت المقدس فرأوا على سوره من الرجال ما هالهم وسعوا لأهل من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع * وبقي صلاح الدين يوسف خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لانها كانت في غاية المنعة فلم يجد عليها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمور أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية ونزلها ونصب في ليلة وصوله المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ورمى الفرنجة بمنجنيقاتهم وقاتلوا أشد قتال لم يره أحد من الناس وكان فرسان الفرنجة يخرجون في كل يوم الى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون فقتل من الفريقين خلق ومات من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكبر الأمراء في جيش صلاح الدين وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلي القتال بنفسه حتى قتل وما زالوا على جد وشدة في القتال حتى وصل المسلمون الى الخندق وجاوزوه والتصقوا بالسور ينقبونه والرملة يحمونهم * والمنجنيقات نوالى الرمي لتكشف الفرنجة عن الاسوار حتى يتمكن المسلمون من النقب حتى نقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك أرسلوا الى صلاح الدين في طلب الامان وخرج صاحب الرملة واجتمع بصلاح الدين يوسف وكله في الكف عن القتال وتقرير قاعدة لتسليم البلد وقال له أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير جدا لا يعلمه الا الله وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم أنك تجيبهم اليه فاذا رأينا أن لامناص من الموت فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تأخذون منها دينارا ولا درهما ولا تسبون ولا تأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم نخرجنا اليكم كلنا وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحيث لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله وغوت

أعزاء أو تظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم الى ما يطلبون وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرون عاقبة الامر فيه عن أى شئ ينبغي فأجاب صلاح الدين حينئذ الى ما طلبه صاحب الرملة واستقر أن يأخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقر ويرى الطفل من الذكور والبنات دينارين وترى المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجح ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤدها فقد صار مملوكا فبذل صاحب الرملة عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ورتب صلاح الدين على كل باب من البلد أميرا من الامراء ليأخذوا من أهلها ما استقر عليهم فاستعملوا الخيالة ولم يؤدوا فيه أمانة واقسم أولئك الامراء الاموال وتفرقت أيدي سبأ * قال صاحب الكامل وغيره وكان على رأس قبة الصخرة بالبيت المقدس صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة المذكور تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صيحة واحدة من البلد ومن ظاهرها من المسلمين والنصارى فسمع الناس فجة عظيمة كادت الارض أن تعبد بهم لعظمتها وشدها فكان هذا الحادث من العجائب وتحدث الناس به كثيرا * ثم أمر صلاح الدين بإعادة ما تخرب من الابنية الى ما كان عليه ولما كانت الجمعة الاخيرة رابع شعبان صلى المسلمون في المسجد الأقصى صلاة الجمعة ومعهم صلاح الدين يوسف وصلى أيضا في قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيي الدين بن الزكي قاضى دمشق ثم رتب صلاح الدين فيه خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وشرع من قام من الفرنجية في بيت المقدس في بيع مالا يمكنه حمله من أمتعة وذخائر وأموال وأخذ ما يطيق حمله فكان ما يبيع شيا كثيرا من الاسرة والصناديق والبنيات وغير ذلك فاشتراه تجار المسلمين وتركوا أيضا من الرخام الذى لا مثيل له من الاساطين والالواح والفصوص وغيره شيا كثيرا ثم ساروا ورحلوا متفرقين * قال أصحاب التاريخ وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين يوسف رحمه الله وكفاه ذلك نفرا وشرفا

ولما شاع خبر أخذ صلاح الدين يوسف بيت المقدس وشحنه بالعساكر والاجناد والمهاجرين من المسلمين وأنه قد ولى عليه الظهير أبا الفقيه عيسى وفوض اليه تدبيره هاج النصارى وماجوا ووصل بعض المستنقرين من أهل بيت المقدس الى قسطنطينية وغيرها من البلاد الألمانية وأخبروا بما جرى ووردت كتب بابا رومية الى امبراطور الالمان وغيره من ملوك أوروبا في هذا المعنى فهموا بأعداد المقاتلين وأكثروا من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وبالغوا في التجهز للقتال * قال بعض الكتاب وسار بطريرك بيت المقدس الى رومية في جمع من القسوس يستنفرون الناس الى الجهاد واستخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف ورسوموا صورة المسيح في زى رجل عارى البدن حاسر الرأس وبجانبه آخر في زى أعرابي وقد طعنه وأسأل دمه وطاقوا بهذه الصورة في الطرق والشوارع وهم يضحون

ويكون ويحثون الناس فهاج الناس وماجوا وكبر عليهم الأمر جدا وزادت حيتهم
وتبعوهم وهم ينادون بالشار بالشار * وبينما كانت خواطر النصارى فى اضطراب
وامبراطور الالمان يجهز المقاومة للخروج للقتال كان صلاح الدين يوسف أيضا يجيش الجيوش
ويكثر من الكراع ومعدات الحرب وهو على عزم أن يفتح مابقى من بلاد الساحل وسار الى
جبلة ففتحها باغراء قاضيا وفتح ماحولها مثل انطربوس ومرفية وأخذ حصن بكسرايل
بين جبلة ومدينة حماة وبعد أن قرر أحوال جبلة وجعل فيها الأمير سابق الدين عثمان بن
الداية صاحب شيزر سار عنها الى اللاذقية وكان الفرنجة قد ساروا عنها وأخلوها وصعدوا
الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وقاتلوهما
وقد دخل الى الفرنجة بالقلعتين قاضى جبلة وما زال بهم حتى استأمنوا لصلاح الدين وخرب
عسكر صلاح الدين ما فى مدينة اللاذقية من الابنية العظيمة والمائير الجسيمة المزخرفة المملوءة
بالرخام الملون ونقلوا رخامها وشعثوا كنسيرا من كنائسها التى قد غرم عليها الاموال الجليلية
المقدار وبعد أن قرر أحوالها سلمها الى ابن أخيه تقي الدين عمر وسار صلاح الدين من
اللاذقية الى قلعة صهيون فقاتل من بها وما زال يقاتلهم حتى سلموا اليه على قطعة فتسلم
الحصن وسلمه الى الامير ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس ثم بث صلاح الدين
سراياه حول صهيون فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيدو وحصن الجاهرتين وكان جماعة
الفرنجة قد تركوها ورحلوا عنها * قال أصحاب التاريخ فأتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية
الا أنه كان دون الوصول اليها من البلاد الاسلامية على عقبه بكسرايل أهوال لان الطريق
السهلة كانت غير مسلوكة فان بعضها كان بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنجة فلما
استسلمت الحصون المذكورة استسلمت أيضا قلعة الثغر ووجدوا قلعة بكاس خالية ليس فيها
أحد من الفرنجة فأخذوها وسير صلاح الدين ولده الظاهر غازى صاحب حلب الى سرمينية
فحاصرها وضيق عليها وما زال بأهلها حتى استنزلهم على قطعة قررها عليهم فلما أنزلهم
وأخذ منهم المفاطعة هدم الحصن وكان فيه وفي بقية تلك الحصون من أسارى المسلمين
الجم الغفير فأطلقوا وكانت جميع هذه الحصون الى سرمينية من أعمال أنطاكية فلم يبق
لها سوى القصور وبغراس ودرب سالك كما ذكره أصحاب التاريخ ثم سار صلاح الدين يوسف الى
حصن برزية ونزل عليه وفتح بعد قتال شديد دام أياما وأمن صاحب الحصن هو
وعائلته ووفى له بالعهد وسيره الى أنطاكية ولبث برزية يومين ثم رحل عنها وأتى
جسر الحديد على نهر العاجى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من
الجند والقواد وسار عنه الى قلعة درب سالك فنزل عليها ونصب المنجنيقات وتابع الرمي
عليها بالحجارة وما زال يمتد فى قتالها ويرحف على الاسوار بجنده المرة بعد المرة حتى ظهر
ضعف من بها من الفرنجة وهجزهم عن القتال وطلبوا من صلاح الدين الامان فأجابهم الى
ماطلبوه فخرجوا وساروا الى أنطاكية ولم يأخذوا من أموالهم ومتاعهم شيئا وكذلك فعل

بقلعة بغراس ولما تم له فتح بغراس عرض عسكره ليسيروا عن بقي منهم الى فتح أنطاكية
فرأى من ضعفهم وملاهم وانقباض نفوسهم ماخافه وأشفق منه فلبث أياما لا يأمرهم بالسير
واتفق أن صاحب أنطاكية أرسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وأطلق كل أسير
عنده من المسلمين ففرح صلاح الدين بذلك واستشار من عنده فأشاروا بإجابته الى ما طلب
ليعود الناس فيستريحوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فأرسل صلاح الدين الى صاحب
أنطاكية بالقبول واصطلحوا مدة على ثمانية أشهر واستخلفه على حفظ الزمام خلف له وأطلق
من عنده من الاسرى فرحل صلاح الدين بعسكره عن أنطاكية الى حلب ثلاث شعبان
من السنة أى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق العساكر
الذين مع ذنكى بن مودود وعسكر الموصل وغيرها وكانوا قد أشاروا عليه بذلك ففعل وهو
يخشى العاقبة وكان صلاح الدين قبل المهادنة مع صاحب أنطاكية قد جعل على الكرك عسكرا
يحصره وكان به الامير رينودى شاتيلون أحد ملوك الصليبيين فلأزموا حصاره مدة طويلة
حتى فنت أزواد من به من الفرنجة وذخائرهم والملك العادل أخو صلاح الدين يشدد في
الحصار ويضيق على من به فأرسلوا اليه يطلبون الامان ويبدلون تسليم القلعة فأجابهم الى
ذلك وتسلم القلعة منهم ونزلوا وتسلم أيضا ما يقاربها من الحصون كالشوبك وهرمز والوعبرة
والسبع فاطمأنت قلوب المسلمين بأخذ ذلك الصقع وفرح صلاح الدين بفتحه فرحا عظيما وهو
مع ذلك كان يقول ان العمر قصير والأجل غير مأمون وكيف أطاول الفرنجة ويدهم الى
الآن كوكب وصفد وغيرها وأقام بدمشق الى منتصف رمضان حتى وافته الجنود والعساكر
المشرقية وغيرهم ثم سار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وضيق عليها ونصب المنجنيقات
ورأى الرمي عليها بالجارة وكان من بها من عسكر الفرنجة قد مضى عليهم أيام كثيرة وهم
يدافعون عنها ولم يأتهم شئ من المؤنة فقلت أزوادهم وضافت نفوسهم فأرسلوا يطلبون
الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور ووفى لهم صلاح الدين
بالعهد ثم سار عن صفد الى كوكب فحاصرها وأرسل الى من بها من الافرنج يبذل لهم
الامان ان سلموا ويتهذد بهم بالقتل والسبي والنهب ان امتنعوا فأبوا الا القتال فقاتلهم وحدث في
قتالهم ونصب المنجنيقات وتابع الرمي بالجارة فلم يتمكن منها وطال مقامه عليها ثم حبلوا
على سورها جملة رجل حتى التصقوا به ونقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك مالوا الى التسليم
وأرسلوا الى صلاح الدين في ذلك فأجابهم واستلم منهم الحصن في ذى القعدة وسيرهم
الى صور فانضموا الى من بها من المقاتلين وأصلحوا حالهم ورتبوا أمورهم فاشتدت
شوكتهم وجاءهم المدد تباعا من صقلية وغيرها فصاروا جيشا عظيما فقدم صلاح الدين
على تقريظه حيث لم ينفعه ذلك واجتمع المسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة الى أقصى
أعمال بيروت فكان لا يفصل بينها غير مدينة صور وقد صارت في غاية القوة والامتناع

بما وفد عليها من جوع الفرنجة والامداد المتتابعة واجتمع لهم أيضا جميع أعمال أنطاكية سوى القصر

ولما تم اصلاح الدين أخذ صفد سار الى بيت المقدس فعيد فيه عيسى الاضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة فلما كان ربيع الاول من سنة خمس وثمانين سار الى شقيف ارفوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون وأقام بها يدبر أمر جيوشه فجرت بينه وبين صاحب الحصن وهو صاحب مدينة صيدا أيضا محادثات في معنى القتال وفي المطالبة وترددت الرسل بينهما وكل منهما راض عما يسأل الاخر فتقررت القاعدة بينهما على تسليم الحصن في جادى الآخرة من تلك السنة ولبت صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الاجل المضروب بينهما ولكنه كان قلقا مضطرب البال مفكرا في قرب انقضاء مدة الهدنة بينهما وبين صاحب أنطاكية فسير تقي الدين ابن أخيه فمين معه من عسكره ومن يأتى من بلاد المشرق وأمره بالنزول مقابل أنطاكية لثلا بغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكانت الاخبار عن صور تأتى اليه في كل يوم أشكالا وكلها تدل على اجتماع الفرنجة بها وما يتصل بهم من الامداد في البحر وتزايد جوعهم يوما عن يوم فكان منزع الخاطر كثير الهم شديد الخوف وكان يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجوع المتكاثفة فتقطع الميرة عنه وكان صاحب الشقيف في هذه الهدنة يشتري الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه وصلاح الدين لا يسيى به الظن * وما دخلت سنة ست وثمانين حتى تم تجهيز جوع الفرنجة وكثر عددهم وعددهم تحت راية امبراطور الالمان فسار بهم وهم لا يحصون كثرة يريد بيت المقدس وجعل طريقه على القسطنطينية فلم يمتهم صاحبها بشئ من الذخيرة ولا الازواد وخشى منهم على بلاده وكادت تقع الحرب بينهما على ذلك ثم عبروا خليج القسطنطينية واتصلوا ببلاد الملك قلى ارسلان بن مسعود بن قلى ارسلان بن قتلش بن سلجق فلم يطؤا حدودها حتى ثارت بهم قبائل التركان فناوشتهم القتال فلم تنل منهم فجعلوا يسايرونهم ويسرقون ماقدروا عليه وما زالوا سائرين حتى قاربوا مدينة قونية فخرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلى ارسلان يريد منعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد مسرعا مدحورا الى قونية فأسرعوا السير في أثره ونازلوا قونية وجردوا في قتالها وشددوا فأرسل اليهم قطب الدين يسألهم الجلاء عن المدينة ولهم ما يطلبون فأجابهم الامبراطور الى ذلك بشرط أن يسلم اليهم جميع ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فأنابهم بما يريدون فتزودوا وطلب منه رهائن وتسير الكتب الى جميع بلاده بملازمة السكون والطاعة والقيام بكل ما يطلب منهم فسلم الى الامبراطور نيفا وعشرين أميرا كان بكرهم رهنا وسير الكتب الى الاتفاق بامداد جيوشهم بالميرة والازاد وجميع ما يحتاجون اليه وسار امبراطور الالمان في جوعه حتى أتى بلاد الارمن فخرج اليه صاحبها لاقونه بن اصطفان بن ليون في جماعة من بكر قومه وأحسن وفادته وقدم له من الاقوات شيا كثيرا وكذلك العلوفات وحكم الامبراطور في بلاده

وأظهر له الطاعة فلبث أياما ثم نادى في جوعه بالرحيل فصاروا يريدون انطاكية ونزلوا على نهر في طريقهم ولبثوا أياما واتفق أن الامبراطور نزل يوما في النهر ليغتسل فغرق في مكانه فغظم ذلك على أصحابه وأحزنهم جدا وكان معه ولده فاجتمع على البيعة له جميع الامراء وبارالهند والاجزاب وسار بهم يريد انطاكية فرأى من تحصينها وامتناعها مالا يحتاج معه الى المدد فصاروا عنها يريدون عكا فمروا بجبلية ولاذقية وقد ملكهما المسلمون فقاتلوهما قتالا عنيفا حتى أخذوهما ثم ساروا الى عكا فخرج عليهم أهل حلب وغيرهم فلم ينالوا منهم ما أرادوا فكانوا ينخطفون من خلفهم وبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياما فرتبوا أمورهم وأحكموا نظامهم وتزودوا وركبوا السفن وأقلعوا الى عكا فلما وصلوا اليها سعدوا الى المنتسبين أمامها من جوع الفرنجة من سعد ممن يفضلون الجهاد على العود الى الاوطان وأقلع من أقلع عائدا الى أهله وولده صحبة امبراطور الالمان وكان صلاح الدين وأصحابه في قلق وخوف ماعليه مزبد وهم يتوقعون جلاءهم عن جميع أرض الشام في كل يوم انهم خسروا عكا وكانوا كلما علموا بقرب جوع ملك الالمان منهم ترفعوا عنهم وأخلوا لهم المسالك وبالغوا في التحرز والانتفاث * فلما سافر ملك الالمان بن سافر معه من جوعه وقد تقوت نفوس من بالمتاريس أمام عكا من الفرنجة بن جاهد من المقاتلين والمنطوعة رتبوا أمورهم وخرجوا في عدتهم وسلاحهم لقتال المسلمين وقصدوا معسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهمز المصريون وتقهقروا فتبعهم الفرنجة وأعملوا فيهم القتل ودخلوا خيامهم ونهبوا جميع أموالهم وكانت عساكر الموصل قريبة من العساكر المصرية فلما رأوا ما حل بالمصريين حملوا على الفرنجة ومقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل وجدوا في قتالهم وبالغوا قتالوا منهم ثم افترقوا والقتلى لا تسكد تدخل تحت الحصر فلما كان بعد يومين رأى صلاح الدين وأصحابه من تكرار ورود المدد في السفن والبطس الكبيرة الى من بعكا ما أذهلهم وأخافهم وأوقعهم في حيرة ثم وصل الأمير هنري ابن أخي ملك الفرنسيين لأمه وابن أخي ملك انجلترا لأمه ووصل معه من الاموال والذخيرة وآلات الحرب شئ كثير للغاية فلم يستقر به المقام حتى حشد وجند وبذل الاموال ورتب الأمور وأحكم نظام المقاتلين من كل صنف ثم أظهر أنه يريد الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين بعسكره من مكانه الى الخروبة فعكف الأمير هنري بن معه على المتاريس ونصبوا خلفها المنجنيقات ورموا بالحجارة على البلد وتابعوا الرمي ليلا ونهارا وقويت نفوسهم واشتدت عزائمهم وجاءتهم رسائل بابا رومة بالحث والاستنهاض والمثارة على الجهاد والجد في القتال وأنه سير الى الآفاق يستنص مسلمي المسيحيين الى استخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف وأن المدد قائم عليهم برا وبحرا فلما كان حادي عشر شوال من السنة أي سنة ست وثمانين خرجوا في عدد عظيم فهال منظرهم صلاح الدين وأصحابه وانقبضت له نفوسهم فنادى صلاح الدين بنقل الاثقال الى بلدة ميمون فبقلوها

وأرسل يستسرع حضور العساكر اليه من الاطراف فحضروا فأحكم نظامهم وجعل أولاده
الافضل عليا والظاهر غازي والظاهر مما يلي القلب وأخاه العادل أبا بكر في المينة مع
العساكر المصرية ومن انضم اليه وجعل في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين
صاحب خجاعة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمراءه ونصب
صلاح الدين خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم لمرض أصحابه
يومئذ فاقتلوا قتالا خفيفا ثم عادوا الى مراكرهم وقد عرف الأمير هنري موافق عسكر
المسلمين وما لديهم من الأسلحة والكرع وغير ذلك فجعل يطاولهم ولا ينكشف عن الرمي
على من بعكا منهم بالجارية تارة وبالسهم أخرى واشتد الغلاء في عسكر صلاح الدين وقل
الوارد من المؤنة لتعذر نقلها بسبب الشتاء ووقوف جماعة الفرنجة فبلغت غرارة الخنطة
أكثر من مائة دينار صوري فصبروا على هذا ومع ذلك فكانت تأتيهم المؤنة من البلدان
القريبة على الصعب والثلول وأرسل من بعكا الى صلاح الدين يشكون الضجر والملاحة
والسائمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فرسم صلاح
الدين بأقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من بها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل
الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وشحنها بما تيسر من الجنود
والعساكر وكانت مراكب الفرنجة قد بلغت الى صور والجزائر فرارا من عواصف الشتاء
فانفتح الطريق الى عكا وتمكنت مراكب صلاح الدين من دخول المينا وتنزيل المقاتلة
فدخل عكا عشرون أميرا وخرج منها ستون أميرا لاستيلاء الضجر والملا على جميع
العساكر وأهمل نواب صلاح الدين تجهيز الرجال وانفاذهم وقلت النفقة على المقاتلين
فتفرق بهذا السبب أيضا خلق كثير * قال أصحاب التاريخ وانضاف الى ذلك تواني صلاح
الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب فانحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنجة
الى عكا وانقطع الطريق وعاد الرمي بالمنجنيقات على البلد ليلا ونهارا وكان ممن دخل
من الأمراء الى عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية
وكان دخولهم الى عكا في أوائل سنة سبع وثمانين فجدد الفرنجة في القتال وشددوا في
الحصار وسدوا الطرق برا وبحرا وعظم الامر على صلاح الدين وأصحابه * قال صاحب
الكامل فكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم
واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هناك ابتلى المؤمنون
وزلزلوا زلزالا شديدا * ووقع في عسكر صلاح الدين بعض الموت فبات يوسف بن
زين الدين علي صاحب اربل وكان قد حضر في عسكره نجدة لصلاح الدين في جملة من
حضر من الاطراف والقتال من الفرنجة قائم على ساق في البر والبحر ووصل الى عكا في
الثاني عشر من ربيع الاول الملك فليب ملك الفرنسي في سفن كثيرة ومعه كثير من
المقاتلة والمنطوعة فنزلت طائفة منهم الى البر ونزل الملك فليب فقابله الأمير هنري وضربت

لقدومه البشار وعلم من في جميع البلاد التي بيد الفرنجة بخبر قدومه ففرحوا به ولم يلبث أن قاتل من بعكا من المسلمين وألح في قتالهم وشدد في التضييق عليهم وكان صلاح الدين نازلا بمن معه على شفر عم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنجة ليشغلهم بالقتال عن الزحف الى البلد فلم يكن ليقدروا على ذلك واشتد الكرب على من بالبلد وتولاهم الضجر والملل وكبر خوف صلاح الدين وكاد يتولاه القنوط عند ما جاءته الاخبار أيضا بقرب وصول الملك ريشارد الملقب بقلب الاسد ملك الانجليز الى عكا في كثير من العساكر والمقاتلين على ظهور البطس العظيمة ومراكب الحرب وكان ريشارد قد أذنر بالجهاد فسار في عسكر عظيم من انجليز يريد عكا ومر بجزيرة قبرص فنزل عليها ليملكها لأمور بينه وبين صاحبها لاتعلق بما نحن بصدده ووصلت بعض سفنه الى عكا ونزل من بها من المقاتلين والمتطوعين وقاتلوا المسلمين مع من يقاتلون من المسيحيين وألحوا في القتال وأمر الملك فليب فنصبوا سبع منجنيقات وتابعوا الرمي بها على عكا ليلا ونهارا فعظم الأمر على صلاح الدين وقدم ريشارد ملك الانجليز ثالث عشر جمادى الاولى في جوعه وقد استولى في طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم ووصل الى ميناء عكا في خمس وعشرين قطعة كارا مملوءة رجالا وأموالا فلما عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين أرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدم شيئا فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب من البلد واجتمع بالملك فليب ملك الفرنسيين وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق من به من المسلمين ويكفهم من اللعوق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك وأبى الا التسليم بغير شرط فرجع المشطوب وأخبر بقية الأمراء بما جرى فلما كان الليل اجتمع منهم عز الدين أرسل الاسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاق وغيرهم وانفقوا على الهرب فخرجوا سرا من أكصاهم ولحقوا بصلاح الدين فلما أصبح الناس ورأوا ذلك انفضوا وازدادوا وهنا على وهنهم وضعفا على ضعفهم وأيقنوا بالعطب وأرسل صلاح الدين الى فليب في معنى التسليم بشرط أن يطلق من أسرى النصارى بعدد ما في عكا من المسلمين ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنع بما بذل وأمر بتشديد القتال فشددوا وزحفوا على البلد مجتهدا وحديدهم فلما صارت على وشك السقوط ظهر من بها من المسلمين على السور يحتركون أعلامهم ليراها أصحاب صلاح الدين وكانت هي العلامة اذا احترمهم أمر فضجوا بالبكاء والعويل ولكنهم لم يقدروا على نفع ولم يدفعوا عن البلد ضرا * قال بعض الكتاب فخرج المشطوب الى ملوك الفرنجة وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه وبذل لهم على ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت مع أربعة عشر ألف دينار الى صاحب صور فأجابوه الى ذلك فسلم البلد اليهم ودخلوه فلما ملكوه غادروا وأحاطوا بمن فيه من المسلمين وأموالهم وجبوسهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وقال آخرون بل قضموا البلد عنوة وأعملوا فيه السيف وأخذوا ما به

من الاموال والمنافع وأرسلوا إلى صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم من المسلمين فطاولهم صلاح الدين فأعملوا السيف فبين بقي من المسلمين ولم يستبقوا الا بعض الامراء والمقدمين ثم أخذوا يصلحون حال البلد ويرمون ما تهم منها حتى عادت الى ما كانت عليه من الامتناع وأقاموا الى شعبان من السنة لا يحركون ساكنا ولا يشتغلون بغير تحصين البلد وترتيب أمورهم ثم برزوا منها وساروا يريدون حيفا وكان الملك الأفضل بن صلاح الدين يوسف في طائفة من العسكر والمنطوقين يراقبون حركات الفرنجة ومعهم جماعة من الامراء وهم سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك وعدة من كبار الجند فلما أحسوا بخروج الفرنجة وعلما أنهم يقصدون حيفا كتب الملك الأفضل الى أبيه صلاح الدين يعلمه بالحال ويستدته فنادى صلاح الدين فبين معه بالمسير اليه فامتنعوا فعادهم فامتنعوا وقد تولاهم الفشل واختلط الحال على صلاح الدين فلم أبطأ المدد على الملك الأفضل وعجز عن الوقوف في طريق الفرنجة جعل يتخطف ساقتهم فعاد ريشارد ملك إنجلترا على ساقه الفرنجة فحماها وجعهم وساروا وهم على أحسن نظام وأجل هيئة حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقرية قيمون على مقربة من حيفا فأقام الفرنجة بحيفا أياما ثم ساروا منها الى قيسارية والمسلمون يسايروهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقتلهم فلم ينالوا منهم ونزل الفرنجة بها ثم قاموا من قيسارية وقد أصلحوا حالهم وساروا يريدون أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها وتبعهم السوقة والباعه وغيرهم ممن يتبعون العساكر في الحروب فلما اقترب الفرنجة من البلد خرج عليهم المسلمون وحملوا عليهم حملة منسكرة فحملت فرسان الفرنجة على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون منهزمين لايولى أحد على أحد واختلطوا بالسوقة فعلا الضجيج والصياح ووقع السيف على الاعناق وكثر القتل والتجأ من بني من المنهزمين الى قلب الجيش وفيه صلاح الدين يوسف فاختل نظامه وولوا جميعا منهزمين ودخلوا شعرة كثيرة الشجر قريبة من موقفهم فظنوا الفرنجة أنها مكيدة فلم يتبعوهم * قال أصحاب التاريخ فلو علم الفرنجة أنها هزيمة لتبعوهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون عن آخرهم وعاد الفرنجة فدخلوا أرسوف وأقاموا بها أياما ثم برزوا منها وقد رتبوا أمورهم وساروا الى بافا فنزلوها وملكوها وبشوا سراياهم في الاطراف فعانوا وقتلوا وتخطفوا من المسلمين خلقا كثيرا فم الخوف وضافت نفوس المسلمين وتفرق عن ملوك الاطراف أصحابهم والمجاهدون معهم وعظم الامر جدا على صلاح الدين يوسف ولازمه الحزن والكدر وتولاه القنوط واليأس فسار مجتأ في نفر قليل الى الرملة ولحقه بأنقاله فيها وجمع اليه الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتدمير عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا ومنهم بالامس واذا جاؤا الى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يظفرون بنا وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان العدو قوى ونحن قد ضعفنا وتولانا اليأس ولازمنا المذل فلم تسمع نفس يوسف بتدميرها

ونادى فيمن عنده من العساكر والمتطوعة بالدخول اليها والذب عنها فلم يجبه أحد الى ذلك وقالوا ان أردت الذب عنها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فإنا يدخلها منا أحد ونحن الى الآن ما ننسى ما أصاب أهل عكا فلما أبس من حفظها سار نحوها وأمر بتخريبها فحربت وألقيت أجزاؤها بالبحر وهلك فيها من الاموال والذخائر شئ كثير للغاية وعنى أثرها ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد تخريبها الى الرملة فحرب حصنها وهدم الكنيسة الكبرى التي بها وأتلف جميع ما كان بها من الذخيرة وأما الفرنجة فانهم أطالوا المقام بيافا وشرعوا في عمارتها ونحسينها وأكثروا فيها من الاسلحة والكرع والمدد يتواصل بينها وبين بقية القلاع والحصون التي بأيديهم فلما طال مكثهم بها عظم الامر على صلاح الدين وأصحابه وقلت عندهم الاقوات واشتد بهم الضجر فتددت الرسائل بين الملك العادل أبي بكر ابن أيوب أخى صلاح الدين وبين ريشارد ملك الانكليز في معنى الصلح أو المهادنة واجتمع الملك العادل بملك الانكليز مرارا كثيرة وتكلموا في المعنى وشاع يومئذ بين العسكرين أن ستقرر القاعدة على أن ملك الانكليز يزوج ابنة عمه الاميرة جوليا من العادل ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنجة من البلاد لابنة عم ريشارد الملك ثم لم تلبث أن بطلت هذه الاشاعة ولم يتم بينهما صلح ولهذا المصالحة والمصاهرة أسباب تكلم الكتاب من الانكليز عنها كثيرا فأضربنا عن ارادها هنا خوف الاطالة قالوا وكان ريشارد ملك الانكليز يفعل ذلك مع الملك العادل خديعة ومكرا وأظهر ريشارد العزم على قصد بيت المقدس فاضطرب صلاح الدين من ذلك وسار الى الرملة بجريدة وترك الاثقال بالبترون ثم عاد الى البترون وقد برز الفرنجة من يافا يريدون الرملة في ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فاقتربوا من المسلمين ونحطفوهم وأكثروا القتل واشتد البلاء على أصحاب صلاح الدين وعظم الخطب فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكر بلقاء الفرنجة فلقوا من ذلك شدة بالغة للغاية وأقبل الشتاء وبألت الامطار واشتد البرد والناس في ضنك وخرج من حمل السلاح والسهل الدائم نحو رما من الفرنجة ورأى صلاح الدين من ملل الجند وعجزهم ما أخافه فسرهم الى أوطانهم فلم يبق معه الا العسكر المصرى ومقدمهم يومئذ أبو الهيجاء السمين فسار بهم صلاح الدين الى البيت المقدس فنزلوا جميعا داخل البلد ونزل صلاح الدين بدار الاقصى بجوار بيعةقامة ورسم بعمارة سور البلد وتجديد ما رث منه فأحكموا بنيانه وعملوا خندقا عظيما خارج السور ورتبوا الابراج ونلم كل برج منها أمير وحصن البلد حتى صارت في غاية الامتناع أما الفرنجة فانهم وصلوا الى الرملة وملكوها وأقاموا بها أياما ثم ساروا منها الى البترون ثالث ذى الحجة وقالوا من بها من أصحاب صلاح الدين ونالوا منهم وجدوا في قتالهم حتى ملكوها ورحل عنها من بقي من أصحاب صلاح الدين فنزل بها الفرنجة وأقاموا أياما وبث ريشارد ملك الانجليز عينه وارصاده لتأتى له بخبر ما يفعله صلاح الدين بالبيت المقدس ورسم بعمارة

عسقلان وارجاعها الى أحسن ما كانت عليه وتأهب للسير الى البيت المقدس وقد رتب
المقاتلين على أحسن ترتيب وكان صلاح الدين لما دخل الى البيت المقدس سير رسلا الى
سنان مقدم الاسماعيلية يطلب منه أن يرسل من يقتل ملك الانجليز قبل أن يبرح من
البترون ويأتى الى البيت المقدس وأن من قتل المركيز منسرات صاحب صور فله عشرة
آلاف دينار فأجاب سنان الى ذلك ثم عدل عن قتل ملك الانجليز كي لا يخلو الجوارح لصلاح الدين
فتطمع نفسه في البلاد وتكثر غزواته واعد الى قتل المركيز منسرات وكان من كبار الملوك
معرفة بالحروب وحسن السياسة وبينه وبين ريشارد عداوة ومنافسة بسبب تقدم ريشارد
على جميع الملوك الصليبيين واستلامه قيادة الجيش وتصرفه في جميع الامور بدون مشورتهم
خلافًا للعهد واليمين الذي كان بينهم فأرسل رجلين في زى الرهبان فاتصلا بصاحبي صيدا
والرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما أياما كثيرة يظهران العبادة فأفس بها المركيز
وركن اليهما فلما كان في بعض الايام سار المركيز الى أسقف البلد ولبث معه برهة ثم خرج
يريد مقره فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرأه جراحا بليغة وهرب أحدهما فدخل
كنيسة يختفي فيها واتفق أنهم جلاوا المركيز الى هذه الكنيسة ليشدوا جراحه فوثب عليه
الباطني المذكور وقتله فقبضوا عليه هو ورفيقه وقتلوهما في الحال وعظم قتل المركيز على
أصحابه جدا وظنوا أن قتله بوضع من ملك الانجليز ليجلوا وجهه وينفرد بملك السواحل
الشامية فولوا بعده الامير هنري ابن أخت ملك الفرنسيين من أبيه وهو من كبار الامراء
وأجودهم رأيا وأحسنهم سياسة وخبرة بالحروب وقد تولى ملك جميع بلاد الساحل الشامى
بعد رجوع ريشارد الى بلاده والفراغ من هذه الحرب الصليبية

ووصل ريشارد ملك الانجليز في عسكره الى حصن الداروم أوائل جمادى الاولى
نقربه وعنى معاليه وسار الى بيت المقدس وصلاح الدين فيه فوصل بالعسكر الى بيت
نوبة ثم ساروا من هناك الى قلونية سلع الشهر وهى على قيد فرسخين من بيت المقدس
وبث سراياه في الأطراف وطاف هو حول البيت المقدس ليرى من أين يأتيه ويقاوم من
به فكبر خوف المسلمين وعظم عليهم الامر وثابروا على السهر والوقوف على السور ليللا
ونهارا لا يلقون عنهم السلاح وعلم الفرنجة بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير
ومقدم ذلك العسكر أمير اسمه فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ومعه عدة أمراء من
المصريين فأسرى الفرنجة اليهم وأحاطوا بهم جميعا وأعملوا فيهم السيف بنواحي الخليل
فأنهم زعم الجنود شريعة وكثر فيهم القتل وغنم الفرنجة خيامهم وآلاتهم وجميع ما لهم
وهرب من نجا من الامراء والجنود وصعدوا جبل الخليل فلم يتبعهم الفرنجة *
قال بعض كتاب الاخبار ولو اتبعوهم نصف فرسخ لا قوا عليهم جميعا وعفوا أثرهم وبقي ملك
الانكليز بعسكره حول البيت أياما كثيرة وعسكر صلاح الدين لا يغفلون ولا يبارحون الاسوار

ثم ترددت الرسل بين ريشارد وصلاح الدين في أمر الصلح والكف عن القتال وحقن الدماء
ورحل ريشارد عن بيت المقدس وسار الى يافا ثم عنها الى عكا فخرج صلاح الدين في عسكر
من البيت المقدس وسار نحو يافا يريد أخذها فقاتل من بها من الفرنجة قتالا عنيفا وحاصر
القلعة وشدد في حصارها أياما وإذا ريشارد قد أحاط بالبلد وقاتل صلاح الدين وهزمه
وانتصر عليه ومزق ثمل جوعه * قال أصحاب التاريخ وبرز ريشارد الى ظاهر المدينة في
ذلك اليوم واعترض المسلمين وحده وحل عليهم فلم يتقدم اليه أحد وخافوا منه خوفا عظيما
فوقف بين الصفيين واستدعى طعاما ونزل عن فرسه وأكل فشق ذلك على صلاح الدين ونادى
في عسكره بالهجوم على الفرنجة والحد في قتالهم فتقدم اليه بعض أمرائه ويعرف بالجنّاح
وهو أخو المشطوب بن علي بن أحمد الهكاري فقال له يا صلاح الدين قل للمالِك الذي
أخذوا أمس الغنائم وضربوا الناس بالجماعات أن يتقدموا ليقاتلوا عند انتشاب نار القتال
وتكون الغنائم نصيبا لهم * وكان لما دخل عسكر صلاح الدين الى يافا بعد فتحها وصار
المقاتلون ينهبون ما فيها وقف جماعة من مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة وكل من
خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا
فلما سمع صلاح الدين كلام الجنّاح غضب وقد أنس الغدر من الأمراء ان هو أطلال الحرب
مع الفرنجة وراسل ملك الانجليز في طلب الصلح وطلب التجميل وقد عرف صلاح الدين
ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من سلاحهم ودوابهم وما نفد من نفقاتهم وقال
ان لم نجعل بالصلح تأخر ملك الانجليز ومن معه من الماوك والأمراء الصليبيين عن الرحيل الى
أوطانهم لم لدخول الشتاء فنبقى هنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين وما زال
ريشارد حتى تقرررت القاعدة بينهم في العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسمائة
وعقدوا الصلح وتحالفوا على هذه القاعدة ونادى كل فريق في عسكره بتقرير قاعدة الصلح
فاختلط العسكران وزار بعضهم بعضا وأباح صلاح الدين لطوائف الفرنجة زيارة بيت
المقدس فزاروه وتفرقوا وبقي ما بيد الفرنجة من السواحل الشامية خاضعة للملك هنري قال
صاحب الكامل وكان هنري هذا خيرا قليل الشرفيقا بالمسلمين محبا لهم * وعاد صلاح
الدين بعد ذلك الى بيت المقدس فرسم بأحكام سورة وعمل به المدرسة والرباط والبيمارستان
وغير ذلك ووقف عليها الوقوف ثم سار عن البيت المقدس نحو دمشق واستتاب به الأمير
جورديك أحد المماليك النورية فدخل دمشق في الخامس والعشرين من شوال من السنة
ففرح الناس به اطول غيبته عنهم وكان بها أولاده الضغار والظاهر والافضل والظافر فلبث
بها فلما كان اليوم الخامس عشر من صفر من السنة أي سنة تسع وثمانين ركب في
طائفة من أصحابه لملافة الحاج ثم عاد وقد أصابته حمى شديدة ولازمته ثمانية أيام ثم مات
بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر المذكور فحزن عليه الناس
حزنا عظيما وغشى الملك والقلعة في ذلك اليوم وحشة وكان كريما جوادا حسن الاخلاق

متواضعا صبوراً على ما يكره ~~كثير~~ التغافل عن ذنوب الناس مات وله من العمر سبع وخمسون سنة فعمل الشعراء فيه المراثي الكثيرة من ذلك قصيدة للعماد الكاتب مائتان وثلاثون بيتاً أولها

شمل الهوى والمملوك عم شتانه * والدهر ساء وأقلعت حسناته
بأنه أين الناصر المملوك الذي * فله خالصة صفت نيانه
أين الذي ما زال سلطاناً لنا * برجي نداه وتبقى سطوانه
أين الذي شرف الزمان بفضله * وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج أباسه * ذلاً ومنها أدركت ناراته
أغلال أعناق الوري أسيافه * أطواق أجياد الوري حسناته

الى آخر ما قال

قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى له يعني صلاح الدين من الفتوحات التي خلصها من الفرنجة قلعة ايليا وطبرية وعكا والقدس والخليل والكرك والشوبك و نابلس وعسقلان وبيروت وصيدا ويسان وغزة وولد وحصا وخورية والفولة ومغليسييا والطود والاسكندرية وهفوس وباماس وارسوف وقيسارية وجبيل ونبل ومملكية ومقرلا والجون وآسمه وياقول ومجدل وبابايل والصابية وبيت فوبا والبسرون والحب والكرسه- وبيت لحم وريحافرا وأحصر الدير وبئر فلفيلة وصرير الزيت والوعر والهرمس وتغليسا والغازية وتفرع ومجدل والحار والشقيف وسيطة التي يقال لها قبر زكريا وجبيل وكوكب وانطوطوس واللاذقية ومسكراثيل وصهيون وجبله وقلعة العبد وقلعة الجاهيرية وبلاطنس والشغروبكاس وسرمينية وبرزية ودرج ساك وبغراس وصفد وله مضافات يطول شرحها * قال وكانت مملكته من المغرب الى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز وملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم اليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها وأكثر بلاد ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره ونشر العدل في الرعية وحكم بالقسط وبني المدارس والخوانق وأجرى الارزاق وهو الذي بني قلعة الجبل المقطم التي هي دار سلاطين مصر وولاتها ولم يكن لهم قبلها الا دار الوزارة بالقاهرة وفتح من بلاد المسلمين حران وسروج و الرها والرقه والبيرة وسنجار ونصيبين وآمد وملك حلبا والموارنج وشهرزور وحاصر الموصل الى أن دخل صاحبها تحت الطاعة وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب وكسر عسكر توتس وخطب بها لبني العباس ولولم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم الى المغرب لملك المغرب بأسره ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من العسكر وكان رقيق القلب جدا هذا كله من كلام ابن السبكي في الطبقات * ومن صنائعه انه أسقط المكوس والضرائب عن الحاج بمكة وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير ومن عجز عن أدائه حبس فربما فانه الوقوف بعرفة وعوض أميرها المدعو ثمال اقطاء بديار مصر يحمل اليه

منه في كل سنة ثمانية آلاف اردب غلة عوناً له ولمن بعده * قال العماد السكاتب وغيره مات صلاح الدين ولم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد صوري وستة وثلاثين درهما ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا منزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك وترك سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة واحدة وكان متديناً في ما كله ومشربه وملبسه فلا يلبس الا القطن والسكتان والصوف وكان به عرج فقال فيه ابن عيينة الشاعر

سلطاننا أعرج وكان به * ذو عمش والوزير منحذب

وكان الخليفة المستضيء أرسل اليه في سنة أربع وستين وخمسمائة خلعة سنبة جديدة وزاد في ألقابه معز أمير المؤمنين فلما ولي الخليفة الناصر في سنة ست وسبعين على ما تقدم بيانه أرسل اليه خلعة الاستمرار ثم أرسل اليه في سنة اثنتين وثمانين يعاتبه على تلقيبه بالملك الناصر مع انه لقب أمير المؤمنين فأرسل يعتذر اليه بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء وانه ان لقبه أمير المؤمنين بلقب فهو لا يعدل عنه وتأدب مع الخليفة غاية الادب ولما مات صلاح الدين يوسف بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الافضل كما تقدم القول وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياة أبيه فلما مات أبوه استقل بملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعليك وصرخد وبصري وبانياس وهوين وتبنين وجميع الاعمال الى الداروم وانحلت جميعها عن ملك مصر وكان بمصر أيضاً ولده العزيز عثمان فاستولى عليها واستقر مملكته بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشم واعزاز وبرزية ودرب سالك ومنبج وغير ذلك وكان بحمة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بمحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قد صار الى الكرك في أيام أخيه فامتنع به ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه وهكذا اقتسموا مملكة صلاح الدين فيما بينهم وتصرف كل واحد منهم بمصلحته وهواه * ولمضرب صفحا عن جميع من ذكر وتنبع حوادث صاحب مصر منهم وهو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح فقد كان من أمره بعد أن استقل بحكم البلاد ودانت له الامور أن سار في الرعية سيرة حسنة مع العفة في المال والغيرة حتى انه ضاق ما بيده ولم يبق في الخزانة درهم ولا دينار فجاء اليه رجل يسعي في قضاء الصعيد بمال فامتنع وقال وانه لا بيعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الارض فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب وأخلصت له الطاعة وجعل يتصرف فلما كانت سنة تسعين وخمسمائة ناقت نفسه الى توسيع سلطانه وتبديد مملكته فعمد الى الاغارة على سلطنة أخيه الملك الافضل على فساد الى دمشق وحصرها وبها أخوه المذكور ونزل بميدان الحصن فكبر الأمر على الافضل وأرسل الى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب وهو يومئذ صاحب الديار الجزرية يستجده وكان للافضل غاية الوثوق به والاعتماد عليه فساء الملك العادل ما فعله الملك العزيز وسار من فوره الى دمشق وضمهته الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقي الدين

صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرهم واجتمعوا جميعا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم أن العزيز ان ملكها أخذ بلادهم وأذهب سلطانهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلاد فترددت الرسل حينئذ بينهم في الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها للأفضل على ما كانت عليه وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من اخوته الى بلاده ولكن لم يمض على هذا الاتفاق الا سنة واحدة غير كاملة حتى نقض العزيز العهد وخرج من مصر في عسكر عظيم الى دمشق يريد حصرها ثانية وكان سبب ذلك أن من كان عنده من مماليك أبيه صلاح الدين المعروفين بالصلاحية مثل نحر الدين بركس وقراسنقر وقرابا وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل على أنه كان أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصصيري وسنقر الكبير وأبيك وغيرهم فكافوا بكرهونه لذلك وكانوا يخوفون العزيز من أخيه الأفضل ويحرضونه على الاغارة على بلاده ويقولون ان لم تفعل ذلك مال الاكراد والمماليك الاسديّة من عسكر مصر الى أخيك وانضموا الى عسكره فيخرجك من البلاد فصدق قولهم وعمل بمشورتهم وخرج في سنة احدى وتسعين وخمسمائة فبلغ خبر تأهبه الى الأفضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به في قلعة جعبر ودعا الى نصرته وسار من عنده من حلب الى أخيه الملك الظاهر غازي فاستجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الملك الأفضل اليها ودخلها وكان الأفضل لثقته به أمر نوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الأفضل من حلب الى دمشق فأرسل مقدم الاسديّة وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء السمين وغيره الى الأفضل والعاقل بالانحياز اليهما والكون معهما وبعضهما على الاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليلسوها اليهما * قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض هؤلاء للعزيز وميلهم الى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال الى طائفة المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت الى هؤلاء الامراء فانفوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الأفضل والعاقل فاتفقا على ذلك أيضا واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق الى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق على ذلك فانحاز اليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما العادل والأفضل فانهما أرسلتا الى البيت المقدس وفيه نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا بن معهما من الاسديّة والاكراد الى مصر فرأى العادل من انضمام العسكر الى الملك الأفضل وميلهم اليه ما أخافه وعلم أنه أي الأفضل ان أخذ مصر رعا لا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرا الى الملك العزيز بأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها جعل العزيز

بجاعة الناصرية ومقدمهم نحر الدين جر كس بها ومعهم بجاعة أخرى فلما وصل العادل والافضل الى بلبس نازلوا من بها من أصحاب العزيز وعزم الافضل على مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر ففقه العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فان قتلوا في الحرب فنرى العدو الكافر وما بها حاجة الى ذلك فان البلاد لك وبمحكك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذت قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الايام وأرسل الى العزيز سرا وأمره بأرسال القاضي الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصالحى لعل منزلته عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانحلت العزائم واستقر الامر على أن الافضل البيت المقدس وجبى البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه التي كانت قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز قالوا وانما اختار ذلك لان الاسديّة والاكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز

ولم يستقر الصلح بينهم على ما وصفنا أكثر من حول واحد حتى عاد العادل أبو بكر فأخذ دمشق من الافضل ابن أخيه صلاح الدين وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الافضل بالعادل المذكور وقد بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه كما تقدم القول وخالف فيه قول أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب * وقال بعض كتاب الاخبار غير ذلك * وهو أنه لما أن سار العادل والافضل الى مصر وحاصرا بلبس ثم اصطالحا مع العزيز صاحب مصر أقام العادل مع العزيز بمصر فلم يلبث حتى استمال العزيز اليه وقرر معه أن يخرجاهما الى دمشق ويأخذاها من الافضل وأن يسلمها اليه فسار معه الى دمشق وحصر وهاجمها واستمالوا أميرا من أمراء الافضل يقال له العزيز بن أبي غالب الحصى وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد عليه والثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقي ليحفظه فمال الى العزيز والعادل ووعدهما أن يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه في اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم يشعر الافضل الا وبعده معه في دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربي دمشق فلما رأى الافضل أن البلد قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل في دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا وانفق العادل والعزيز على أنهما يبقيان على الافضل البلد خوفا من أنه يجمع من عنده من العسكر ونار بهما ومعه العامة فأخرجهما من البلد وعاد الافضل الى القلعة وبات العادل في دار شيركوه وخرج العزيز الى الخيام فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه فأقام به وعسكره في البلد وفي كل يوم يخرج الافضل اليهما ويجتمع

بهما فبقوا على هذا الحال أياما ثم أرسلوا اليه وأمراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة
 أن يعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق ونجر الافضل ونزل في جوسق بظاهر
 البلد غربي دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياما فجلس يوما في مجلس شرابه
 فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه على عزم أن يعيد دمشق الى أخيه الافضل فنقل
 ذلك الى العادل في الحال فحضر المجلس من ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم اليه
 البلد وخرج منه وعاد الى مصر وسار الافضل الى صرخد * واتفق أن يخرج العزيز من
 القاهرة يريد الصيد فجعل ينقل من بلد الى آخر حتى وصل الى مدينة الفيوم فرأى
 ذئبا فركض فرسه في طلبه فعثر الفرس فسقط عنه ولحقته حتى فعاد الى القاهرة مريضا
 واشتد به مرضه فمات في العشرين من المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين وخمسمائة
 * قال أصحاب التاريخ وكان الغالب على أمره مملوك ولده نحر الدين جهار كس فلما مات
 العزيز سير نحر الدين المذكور الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب وهو يحاصر مارد بن
 يستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما بلغ الشام رأى بعض أصحاب الملك الافضل
 فقال له قل لصاحبك ان أخاه العزيز مات وليس في مصر من يمنعها فليسر اليها على عمل
 وكان الافضل محبوبا الى الناس فلم يلتفت الى قول ذلك القاصد ولم يتحرك من صرخد حتى
 جاءت رسل الامراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه البلاد وكان سبب ذلك أن الامير سيف
 الدين بركج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يحبونه كثيرا وكانت المماليك
 الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية المذكور ونحر
 الدين جهار كس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال نحر الدين نولي ابن الملك
 العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد ثغر الاسلام ولا بد من قيم بالاك يجمع
 العساكر ويقاتل بها والرأى أننا اذا جعلنا الملك في هذا الطفل نجعل معه بعض أولاد
 صلاح الدين يدبره الى أن يبلغ أشده فان العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لاحد غير أهل
 هذا البيت وجرى بين الفريقين كلام ثم اتفقا على هذا فقال جهار كس ومن يتولى القيام بذلك
 فأشار سيف الدين بغير الافضل فجري بينه وبين جهار كس منازعة لثلاثتهم وينفر جهار كس
 عنه فامتنع من ولايته * قال بعض أصحاب الاخبار فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين
 واحدا بعد آخر الى أن ذكر آخرهم الافضل فقال جهار كس هو بعيد عنا وكان يومئذ
 بصرخد مقيما بها من حين أخذت منه دمشق فقال سيف الدين نمضي الى القاضى الفاضل
 ونأخذ برأيه فاتفقا على ذلك وأرسل سيف الدين في الحال القاصد وراءه فسار عن صرخد
 للبلتين بقيتا من صفر متسكرا في تسعة عشر نفرا فلما قارب بيت المقدس وقد عدل عن
 الطريق المؤدى اليها لقيه فارسان قد أرسلوا اليه من بيت المقدس فأخبراه أن من بالمقدس
 قد صار في طاعته فجاء في السير فوصل الى بليس خامس ربيع الاول ولقبه اخوته
 وجاعة الامراء المصريين وجميع الاعيان واتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما

وصنع له نحر الدين مملوك أبيه طعاما أيضا فابتدأ بطعام أخيه ليمن حلقتها أخوه أن يبدأ به فظن نحر الدين جهار كس أنه فعل هذا انحرافا عنه وسوء ظن به فاضطرب خاطره وتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الأفضل وقال إن طائفة من العربان قد اقتتلوا وإن لم نض اليهم نصلح بينهم لأدى ذلك إلى فساد عظيم فأذن له الأفضل في المضى اليهم فقارقه وسار مجدا حتى وصل بيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزره كش وسرا سنقر واستقدموا أيضا ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لأن أطماعه كانت قد قويت في أخذ ماردين وقد عجز من بهما عن حفظها حتى إذا أخذها جاءهم على الأثر ليدخل معهم مصر

أما الملك الأفضل فإنه بعد أن استراح من متاعب السفر سار عن بلبس إلى القاهرة فوصلها سابع ربيع الأول وعلم بهرب نحر الدين جهار كس فأهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبين جهار كس ومن معه ليعودوا إليه فلم يزدادوا إلا بعدا ولحق بهم جماعة آخرون من الناصرية أيضا فاستوحش الملك الأفضل ممن بقي من الناصرية فقبض عليهم وهم شقية وأبيك فطيس والبيكى الفارس وغيرهم وكل من هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور وسجنهم وجعل الأفضل يتصرف في الأمور ويقرر القواعد ويصلح الأحوال ويقضى حوائج الخلق والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدين يار كج فكان معه ابن أخيه الملك العزيز ملكا بالاسم فقط * ولم يرض إلا القليل حتى اجتمعت له الكلمة ومالت إليه القلوب وأحبه الأمراء والرعية ووصل إليه رسول من عند أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب وأرسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حصن يحنثانه على الخروج إلى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فقال إلى رأيهم وبرز من القاهرة في منتصف جمادى الأولى من سنة خمس وتسعين وخسمائة على العزم إلى دمشق وأقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب ثم رحل فيه وتعوق في مسيره * قال أصحاب التاريخ ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق بغير ممانع ولكنه تأخر فوصل إليها ثالث عشر شعبان فتنزل على جسر الخشب على قيد فرسخ ونصف من دمشق وكان الملك العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم فقارق ماردين وخلف ولده الكامل مجدا في جميع العساكر على حصارها وسار بجريدة فجاء السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبله بيومين وتقدم الأفضل إلى دمشق في الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل في ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلام وكان سبب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة لذلك الباب اجتمعوا بأمر اسمه مجيد الدين أخى الفقيه عيسى الهكاري وتحدثوا معه في أن يقصد هو والعساكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجيد الدين

المذكور أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ أحدا من العسكر بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الافضل فاستسلم من به من العساكر والاجناد ونزلوا عن الاسوار وبلغ الخبير الملك العادل فيكاد يستسلم ولكنه غماصك أما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل الذين كانوا بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا عليهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيامه بالميدان الاخضر وقارب عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقد رآه أنه أشير على الافضل بالانتقال الى ميدان الحصن ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصري ثم ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا الآخر فظن الافضل وباقي الاسدية أنهم فعلوا ذلك لقاءة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوهم من موضعهم وتأخروا ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حصص الى الافضل في الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب وعزموا على الزحف الى دمشق فنعهم الملك الظاهر مكرأ بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك أما الملك العادل فانه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه الامر فارسل الى المماليك الناصرية ببيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل فسير أسد الدين صاحب حصص ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم فنعوهم فسلوكوا غير طريقهم فجاء هؤلاء ودخلوا دمشق فقوى العادل بهم قوة عظيمة وزال عنه ما كان يخشاه وأبى الافضل ومن معه من أخذ دمشق وخرج عسكر دمشق فكبسوا العسكر المصري فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين ونزل بمن معه بحوران فاستدعاه اليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل الى دمشق ثلثي عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق الى ذيل جبل الكسوة واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوهم الى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام وانفقوا على أن يعود كل الى بلده فلما وصل الافضل الى مدينة بلييس نزل بها أياما فوصلته الاخبار بان عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوا له على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو (أي العادل) المدبر للملك الى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكر الافضل بمصر قد تفرقوا فسار كل منهم الى اقطاعه فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد فأجعله الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة من قرب اقطاعه ووصل العادل في عسكر عظيم فأشار بعض الناس على الافضل أن يخرب سور بلييس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلييس ونزل موضعا يقال له السامح

والتقى هو والعاذل سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين واقتتلوا فانهزم الافضل ودخل
 القاهرة ليلًا وانفق في تلك الليلة موت القاضي الفاضل عبيد الرحيم بن علي البيساني كاتب
 الانشاء لصالح الدين ووزيره فحضر الافضل للصلاة عليه وسار العادل حتى نزل على القاهرة
 بعسكره وحاصرها وضيق عليها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم
 فخذلا فارسل الى عمه في طلب الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق
 فلم يجبه العادل فنزل عنها الى حوران والرها فلم يجبه أيضا فنزل الى ميفارقين وحاني وجبل
 جوز فأجابه الى ذلك ونحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع
 الآخر واجتمع بالعاذل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة في اليوم المذكور
 ولما ثبتت قدم الملك العادل بمصر تأقت نفسه الى الاستبداد بالملك فقطع خطبة الملك
 المنصور بن الملك العزيز وخطب لنفسه وصادر طوائف الجند في اقطاعهم واعترضهم في
 أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم وانحرفوا عليه واتفقت على
 ذلك كلهم وبينما هو على هذا الحال اذ وردت الاخبار بتأهب الفرنسيين لاختد مدينة دمياط
 فلم يهتم العادل بذلك فلما كانت سنة خمس عشرة وستمائة وصلت مراكبهم الى دمياط في
 صفر فارسوا على الجزيرة بينهم وبين دمياط النيل وبنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يحول
 بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرساة وأبراجا ينحرفون بها
 في المراكب الى برج عظيم كان بدمياط مشحون بالرجال ليقاتلوه ويملكوه وقد نزل الكامل بن
 الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادية بالقرب من دمياط والعسكر متصل من عنده الى دمياط
 لم يمنع الفرنسيين من العبور الى أرضها وأدام الفرنسيين قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه
 بشيء قيسل وكسرت مرماهم وآلاتهم ومع ذلك لازموا قتله وبقوا على ذلك أربعة
 أشهر حتى ظفروا وملكوا البرج وكان منيعا مبنيا في وسط النيل وفيه سلاسل من حديد
 غلاظ ممدودة من النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر الملح أن تصعد في
 النيل الى ديار مصر فلما ملكوا البرج قطعوا تلك السلاسل لتدخل مراكبهم الى النيل
 ويتمكنوا من البر فأمر الكامل فنصبوا عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك
 النيل فقاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا حتى قطعوه فأخذ الكامل عدة مراكب كبار وملاها
 رملا وخرقها وغرقها في النيل فنهت سفن الفرنسيين من السلوك فلما رأى الفرنسيين ذلك
 قصدوا خليجا هناك يعرف بالخليج الأزرق كان النيل يجري فيه فحرقوا ذلك الخليج وعمقوه
 وأبحروا الماء فيسه الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بورة على أرض
 الجزيرة مقابل المنزلة التي فيها الكامل ليقاتلوه من هناك فلما صاروا في بورة حازوه وقتلوه
 في الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة أي سنة
 خمس عشرة وستمائة وردت الاخبار من القاهرة بموت الملك العادل فقام ولده الكامل من
 المنزلة الى القاهرة جريدا اذ بلغه أيضا أن أمراء الاكراد اتفقوا مع الامير عماد الدين أجد

ابن علي المشطوب على خلعه وتعليك أخيه الملك الفائز ابن الملك العادل ليصير الحكم لهم عليه وعلى البلاد وشاع الخبر بذلك بين الجند فركب كل انسان منهم هواه ونادى فيهم منادى القشل فتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم وسلاحهم ولم يأخذوا منها الا القليل جدا وتركوا من الميرة والكراع ودواب الجمل ما يجبل عن الحصر ولحقوا بالكامل وأصبح الفرنسيين من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل وعلموا بالخبر فعبروا النيل الى دمياط فغنموا ما في عسكر المسلمين فكان شيا عظيما جدا واتفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس في أمر مريع جدا وكان قد أرسل اليه يستجده فقوى به قلبه واشتد أزره وثبت جنانه وعاد الى أشمون طنح وسير الى القاهرة من أخرج ابن المشطوب الى الشام فهرا فاتصل بالملك الاشرف وصار من جنده أما الفرنسيين فانهم لما عبروا الى أرض دمياط شرعوا في حصارها والنضيق عليها فاجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وطغوا في الطريق وأفسدوا وبالغوا في الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الافرنج وأحاط الفرنجة يومئذ بدمياط وفانلوها برا وبحرا وعلموا عليهم خندقا يمنعهم عن يريدهم وأداموا القتال واشتد الحال على أهلها شدة بالغة وتعذرت عليهم الاقوات وكثر القتل والجرح فيهم ودام الحصار زهاء أربعة شهور فسلموا البلد الى الفرنسيين في عشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فهرا وخرج منهم قوم وأقام آخرون فدخل الفرنسيين المدينة وأقاموا بها وبثوا سراياهم في كل ما جاورها فجلا أهلها عنها وشرعوا في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى انها صارت لا ترام الا بعد عناء شديد أما الكامل فانه أقام بالقرب من الفرنسيين في أطراف البلاد لا يأق عملا وكثر توارد المدد للفرنسيين من كل صوب وحيد فعضمت هيبتهم في قلوب المسلمين وعم الخوف منهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فحرب بيت المقدس في ذي القعدة خوفا من وصول الفرنسيين اليه وأخذ هذه وقد خاف الناس كافة وأشرف الاسلام وأهله وبلاده على خطة خسف في مشرق الارض ومغربها وصاروا يتوقعون البلاء في كل يوم وأراد أهل مصر الجلاء عن البلاد الى الافطار الحجازية والديار الشامية وغيرها فلم يتمكنوا من ذلك لوقوف العربان في الطرق وافسادهم في البلاد وفعلهم بالمسلمين ما لم تفعله الفرنسيين من النهب والسلب وهتك الاعراض وسبي النساء والفرنسيين قد أحاطوا بهم من كل جانب وتابع الكامل كتيبه الى أخويه المعظم صاحب دمشق والاشرف موسى بن العادل صاحب الجزيرة وديار أرمينية يستجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فليرسلا العسكر اليه وبقي الامر كذلك مع الفرنسيين الى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم وصل الملك الاشرف الى مصر وكان الفرنسيين قد ساروا من دمياط وقصدهوا الكامل ونزلوا مقابله وبينهما خليج من النيل وهو بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرح الى عسكر المسلمين وقد ثقف الناس جميعا بأنهم على كون الديار المصرية لا محالة فلما علم الكامل

بوصول أخيه الأشرف توجه اليه ولقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما أما الملك
المعظم صاحب دمشق فإنه قصد دمياط نظرا أن أخويه وعسكرهم ما قد نزلوا بها واجتمع
الأشرف بالكامل فاستقر الأمر بينهم ما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة
فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنسيين وازدادوا قربا وتقدمت شواني المسلمين من النيل وقاتلوا
شواني الفرنسيين وترددت الرسائل بين الفريقين في تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون
للفرنسيين بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبله مع اللاذقية وجميع ما فتحه صلاح
الدين ما عدا الكرك ليسلوا دمياط فلم يقبلوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب
بيت المقدس ليعمره بها فلم يتم بينهم أمر * وبينما هم على هذا الحال من الخلاف عبر طائفة
من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنسيين فقطعوا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض
ولم يبق للفرنسيين جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فنصب الكامل حينئذ سورا على
النيل عند آثمون وعبرت العساكر عليها فلك الطريق التي يسلكها الفرنسيين أن أرادوا
العود إلى دمياط فراسل الفرنسيين عند ذلك الكامل وخبروه في أمر الصلح وتسليم دمياط
بغير عوض وانفق في هذه الأثناء وصول الملك المعظم صاحب دمشق ومعه عسكر جرار
فاشتدت بحضوره ظهور المسلمين وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة سابع
رجب سنة ثمان عشرة وستمائة وتسلمت في تاسع رجب المذكور فدخلها المسلمون فلم يجدوا
من أهلها إلا القليل فقد كانوا تفرقوا أيدي سببا ورأوها حصينة لما بذله الفرنسيين في
تحصينها

ولما رحلت جيوش الفرنسيين عن دمياط جلس الأفضل للعزاء على موت أبيه الملك
العادل مع طول المدة فإنه مات في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة كما تقدم
القول وحمل إلى دمشق ودفن بالتربة التي أعدها لنفسه بها * قال أصحاب التاريخ وكان العادل
عاقلا ذا رأي شديد ومكر شديد وخديعة صبوراً حليماً متواضعاً وكان عمره خمساً وسبعين
سنة وشهوراً وملك دمشق من الأفضل ابن أخيه وملك مصر منه أيضاً * ومن أعجب ما روي
في مناقبة الطوابع أنه لم يملك الأفضل مملكة إلا وأخذها منه عمه العادل المذكور فأول ذلك
أن صلاح الدين أعطى ابنه الأفضل حوران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة
تقي الدين فسار إليها فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ
هذه البلاد منه ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعده وفاة
أخيه الملك العزيز فأخذها أيضاً منه ثم تملك صرخدا فأخذها منه وهذا من غريب الاتفاق
وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمداً وبدمشق
والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل
بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخراسان وأعمالها لابن أخيه الملك الأشرف موسى وأعطى الرها
لولده شهاب الدين غازي وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفي ثبت كل في

المملكة التي أعطاها له أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا ولم يجز بينهم من الاختلاف شيء بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه ولا يظن به سوء

وحدث في أيام الملك العادل المذكور فناء عظيم بديار مصر أهلك الكثير من الأغنياء ولفقراء وحصل عقب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع في جميع البلاد فرحل الكثير من الناس الى دمشق والمشرق والمغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والقطط والحيوانات فلما نفدت أوكلات صاروا ينبشون القبور ويأكلون جيف الاموات وبلغت بهم الشدة مبلغا عظيما حتى صاروا يخطفون الاطفال في الاسواق من أمهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم وبأكلهم جهارا في الشوارع * قال أصحاب الاخبار دخلت امرأة يوما على الملك العادل وهي خائفة ترجف فسألها عن حالها فقالت اني يامولاي قابلة وان قوما استدعوني في هذا الصباح لأولاد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لي طعاما كثير اللحم غير أنه لا يشبه اللحم المعهود فأنكرته ولم تقبله نفسي ثم وجدت بنتا صغيرة هناك فاخليت بها وسألتها عن ذلك اللحم فقالت البنت ان فلانة السمينه دخلت لتزورنا فذبحها أبي وها هي معلقة اربا في هذه الخزانة فاقشعر جسمي من هذا الخبر وجئت في الحال الى تلك الخزانة ففتحتها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة فجئت اليك لاعلمك بذلك وهذه قصتي فتعجب الملك العادل من كلامها وأرسل معها من هجم على تلك الدار وأخذ من فيها وهرب صاحبها وبقي محتفيا حتى أصلى أمره مع حاكم البلد بدفع ثلثمائة دينار فدية عن نفسه * وكان الذين اعتادوا منهم على أكل لحم بني آدم يصيدون الناس باصناف الخيل والحدادة فكانوا يستجلبونهم الى بيوتهم بانواع الملاعب فيذبحونهم وبأكلهم فوقع مرة في أشراكهم ثلاثة أطباء أحدهم خرج معهم ولم يرجع والثاني أعطته امرأة درهمين على أن يذهب معها الى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغأت به في الازقة ومضائق الطرق فكفر في نفسه وعلم الحيلة نخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتها فتركه وهربت وأما الثالث فان رجلا استدعاه الى زيارة مريض وأطعمه في الاجرة فذهب معه وما زال يسير به من مكان الى مكان حتى أدخله دارا خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف في وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج اليه رفيقه وهو يقول له ما هذه العاقبة هل حصلت على صيد ينفع نخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وأيقن بالهلاك وكان في حائط ذلك الدرج شبك صغير يشرف على اصطبل فألقى نفسه من ذلك الشباك فجاء في وسط الاصطبل فقام اليه صاحب الاصطبل وقال له من أنت ومن تكون نخاف خوفا عظيما وكنتم أمره عنه خوفا منه أيضا فقال له الرجل صاحب الاصطبل لا بأس عليك قد علمت ما هالك ولا يخفك أن أهل هذا البيت يذبحون الناس بالاحتتيال والحداد والحسد لله على سلامتك ثم أخرجه من ذلك المكان وسار معه حتى أوصله السوق قال الراوي ولولا هذا التصادف والاتفاق

لهلاك الطبيب وانقطع خبره وكانت مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة
كلها المحن ومحن

ولما كانت سنة اثنيتين وعشرين وستمائة مات الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد
ابن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله مات في آخر ليلة من رمضان فكانت
خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وعثمانية وعشرين يوما وكان عمره سبعين سنة تقريبا
فلم يبل الخلافة أطول مدة منه الا ما قبل عن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر فانه ولي
ستين سنة * وكان الخليفة الناصر قد بقي ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت
احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا ثم أصابه في آخر أيامه اسهال شديد استمر
عشرين يوما مات بسببه * قال أصحاب التاريخ ولم يطلق في طول مرضه شيئا مما كان
أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما تخرب بلاد العراق وتفرق أهله
في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده فن ذلك أنه عمل دور الضيافة
في بغداد ليفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة
للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التي جردها في بغداد خاصة ثم أعادها
وقصرهم على رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فأبطل الفتوة في البلاد
جميعها الا من يلبس سراويل يدعى اليه ويلبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة وكذلك
منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق الا من ينتهي اليه
فأجاب الناس بالعراق وغيره الى ذلك * قلت فاذا كان هذا غرام الخليفة أيام خلافته كان
من أعجب الامور بل من أكبر المعاييب وكان ما ينسب به العجم اليه من أنه هو الذي أطمع
التر في البلاد وراسلهم في ذلك صحيفا فهو اذا الطامة الكبرى على هامة الخلافة والداهية
الدهياء التي يصغر عندها كل ذنب عظيم

ومات في أيامه مكاريوس بطرئ الاسكندرية وكان يعرف بمكاريوس الثاني وكان تقديسه بدير
أبومقار وكل بالاسكندرية ثم عاد الى مصر وأقام بها أياما ثم عاد الى دير أبومقار ثمانية فقدس
به ثم جاء الى مصر فقدس في كنيسة المعلقة وأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات
نقلت مصر من بطرئ للتأصلين سنتين وشهرين وفي أيامه حصلت زلزلة عظيمة بالقاهرة هدمت فيها
كنيسة المختار بالروضة قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن الذي هدمها هو الافضل فانها كانت
في بستانه وكان كثير الضجر من وجودها في بستانه فلما مات أقيم بعده غبريال المكنى بابي العلاء
صاعد بن شريك الشماس بكنيسة مرقوريوس بالمعلقة وهو السبعون من بطاركة الاسكندرية
وأصله من بكار الكتاب بمصر وكل بالاسكندرية وقدس بالديارات بوادي هيب وأقام أربع
عشرة سنة ومات نخلا الكرسي بعده ثمانية أشهر ثم قدم بعده مخائيل بن التقادوسى الراهب
بقلاية الدمشقية وهو حادى سبعين وأصله راهب من دير أبى مقار فأقام سنة وسبعين يوما
ومات ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكروا فقيم بعده يوحنا الخامس المكنى بأبى الفتح

بالمعلقة وكل بالاسكندرية وهو ثاني سبعيم وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الخامس والثلاثون)

(في خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة الناصر ابنه محمد الظاهر بأمر الله ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه في الاول من شوال سنة اثنيتين وعشرين وستمائة هجرية أي نحو سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ميلادية ولم يكن أبوه الملك الناصر يحبه فانه بعد أن خطب له بولاية العهد على منابر العراق وغيرها من البلاد عاد لخلعه وأرسل الى الآفاق بقطع الخطبة له * قال أصحاب التاريخ وإنما فعل ذلك لانه كان يميل الى ولده الاصغر علي فاتفق أنه مات سنة اثنى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد خلاف ولي العهد المذكور فاضطر الى اعادته الا أنه كان تحت الاحتياط والجبر عليه لا يتصرف في شيء ما فلما مات أبوه ولي الخلافة وأحضر الناس لاختذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله يعني بذلك أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الامر عنه فظهر وولي الخلافة بأمر الله لا بسعي أحد * فلما وليها أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العشرين وأعاد الاموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله وكانت شياً كثيراً جداً وأطلق المكوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وأن يسقط جميع ما جددته أمير الخراج بأمر أبيه وكان شياً كثيراً وتقدم الى القاضي في أن كل من عرض عليه كتاباً يصحها ملك يعيده اليه من غير اذنه وأقام رجلاً صالحاً في ولاية الحشرى وبيت المال وكان هذا الذي أقامه خنبلياً فقال انني من مذهبي أورث ذوى الارحام فان أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له أعط كل ذي حق حقه واتق الله ولا تتق سواه * وكانت العادة ببغداد أن الحارس بكل درب يكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع بعض الاصديقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كل صغيرة وكبيرة فكان الناس من هذا في حجر عظيم فلما ولي الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم فلا يكتب أحد اليانا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقبل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله أن يصلح أحوالهم * ومحاسن أعماله كثيرة جداً منها أنه أخرج نوبعيا الى الوزير بخطه ليقرأ على أرباب الدولة فلما وصل الرسول قال أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منه الى امام قوال فقرؤه فاذا في أوله بعد البسملة * اعلموا

أنه ليس امهالنا اهمالا ولا اغضاؤنا اغفالا ولكن لنباوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ماسلف من تخريب البلاد وتشريد الرعية وتقيج الشريعة واطهاد الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيده وتسميه الاستئصال والاجتياح استيفاء واستندرا كالاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من برائن لبث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناء وثقاته فتستميلون رأيه الى هواكم وتزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والا أن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطا يقيّل العثرة ولا يؤاخذ الا من اصر ولا ينتقم الا من استمر بأمركم بالعدل وهو يريد منكم وبينكم عن الجور وهو يكره لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه والا هلكتم والسلام ﷺ وكانت أيامه قصيرة اذ مات في الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما * قال صاحب الكامل وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والاحسان الى رعيته ولما مات وجدوا في بيت في داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيس له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات ولقصرمدة خلافته لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وعمل له العزاء في البلاد كلها لاحسانه وفضله على الرعية وولى الخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور

(الفصل السادس والثلاثون)

(في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بالله)

ثم قام بالامر بعد الظاهر بالله ابنه الاكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله ببيع له بالخلافة يوم وفاة أبيه في الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية أي سنة ست وعشرين ومائتين وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة سلك في الخير والاحسان الى الناس سيرة أبيه وأمر فنودي ببغداد بأفاضة العدل وأن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء قبل له ان المطبق الذي يسلك فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع وهو جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقبض أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين من حرير ولم يترك أحدا عشي معه من أصحابه للصلاة بالموضع الذي كان يصلي فيه وسار هو ومعه خادمان وركا بدار لا غير فصلى وعاد

وكذلك

وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق * واهتم بمصالح الرعيمة وحاجات الخلق فدبر الأمور وأحسن السياسة وكان محبا للرعيمة ميالا للعدل كثير الحلم كثير العفو ولكنه كان قليل الحظ إذ تحرك الفرنجة في أيامه ولم ينكفوا عن شن الغارات على بلاد الاسلام في البر والبحر وكانوا يبالغون جدا في قتال المسلمين فهاله أمرهم وأزعجه وخشى العاقبة وسير الى الملك الكامل صاحب مصر يستجده فتجهز الملك الكامل وجع عسكرا جرارا وسار به الى الشام في شوال سنة خمس وعشرين وستمائة وفي نيته التغلب عليها وأخذها فوصل الى بيت المقدس ثم سار عنه الى مدينة نابلس وأغار على تلك البلاد وكانت من أعمال دمشق وهي تابعة للملك المعظم فلما علم الملك المعظم بذلك خاف أن يقصده أيضا ويأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الملك الأشرف يخبره بحاله ويستجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلاد كان منيعا وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل اليه الملك الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء الى دمشق الاطاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنجة عن بلاد المسلمين فأعاد الكامل الجواب يقول وأنا ما جئت لهذه البلاد الا بسبب الفرنجة فانه لم يكن في البلاد من يمنعه عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الحسن على مدى الاعصار وحر الايام فان أخذه الفرنجة حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوث ما ينافض ذلك الذكر الجليل الذي ذكره عمنا وأمي وجهه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه وتعدونه الى غيره وحيث قد حضرت أنت فانا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني اني قاتلت أخي أو حاصرته حاشا لله تعالى ❦ وتأخر عن نابلس يريد الديار المصرية ونزل تل العجول تخاف الأشرف ومن بالشام قاطبة وعلموا أنه ان عاد استولى الفرنجة على البيت المقدس وغيره مما يجاوره ولا ممانع دونه فتددت الرسل وسار الأشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده في ليلة عيد الاضحى ومنعه من العود الى مصر فلبثا بمكانهما وقد تم ما كان يتوقعه الملك الكامل من عودة الفرنجة فانهم وصلوا في عدد كثير ونزلوا على السواحل الشامية وأخذوا يفسدون فيما يجاورهم من البلاد الداخلة تحت حكم الاسلام * قال بعض كتاب الاخبار ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم على المسلمين واتفق موت الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق فقوى طمع الفرنجة بموته فساروا الى عكا ونزلوا بها ورتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للقتال فلما رأى الملك الكامل هو وأخوه الملك الأشرف ما فعله الفرنجة خافا وبعثا بالرسول الى ملك الفرنجة دفعات كثيرة وتخبرا معه في الصلح وطال الامر بين الفريقين ثم استقرت القاعدة على أن يسلموا للفرنجة بيت المقدس ومعه عدة بلاد أخرى من ملحقاته

ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين فتسلمه الفرنجة ورموا سوره وحصنوه تحصينا عظيما وذلك سنة ست وعشرين وستمائة هجرية * ولما كانت سنة خمس وثلاثين وستمائة جاءت الاخبار الى الملك الكامل صاحب مصر بموت أخيه الملك الاشرف فصار من مصر الى الشام يريد دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لا يشك في أن الملك الكامل يسلم اليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما وكان بدمشق الملك الصالح اسمعيل فاستعد للعصار وأرسل اليه صاحب حصن فحجة فنازل الملك الكامل دمشق وما زال يقا تلها حتى ظفر وأخرج منها الملك الصالح اسمعيل وعوضه عنها بعلبك وما حولها مضافا الى بصرى وكان قد ورد من قبل الخليفة المستنصر محي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين بن الجوزي رسولا للتوفيق بين الكامل ومن معه فسلم الملك الكامل دمشق لاحدى عشرة بقيت من جادى الاولى واشتد حنق الملك الكامل على شيركوه صاحب حصن لمعاونته للصالح اسمعيل فأمر العسكر فبرزوا بقصد حصن وأرسل أيضا الى صاحب حماة وأمره بالمسير الى حصن فاشتد خوف شيركوه وتخضع للملك الكامل وأرسل اليه نساءه فدخلن على الملك الكامل فلم يلتفت اليهن وصمم على الانتقام ولكنه لم يتم له قصده اذ اخترمته المنية حنق أنفه بدمشق وكان سبب موته أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة الى صدره وتورمت معدته واشتدت به الحصى فنهاه الاطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيا فمات لوقته وعمره نحو ستين سنة * قال أصحاب التاريخ وكان بين موته وموت أخيه الاشرف نحو ستة أشهر وكانت وفاته لتسع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة فكانت مدة ملكه على مصر من حين مات أبوه عشرين سنة وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة لحكم في مصر نائبا وملكها زهاء أربعين سنة * وكان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق في أيامه وكان مباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صني الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان يخرج بنفسه فيسخر في أمور الجسور عند زيادة النيل واصلاحها فعمرت في أيامه البلاد وزاد خصبها وكثرت غلاتها ودرت أرزاقها فأحبه الرعية ومالت اليه القلوب المتباعدة عن محبة أهل هذا البيت الصالحى واتفق الامراء الذين كانوا معه بدمشق على تحليف العساكر والاجناد لولده الملك العادل أبي بكر وهو حينئذ نائب أبيه بمصر خلف له جميع العساكر وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب نائبا عن أبي بكر بن الكامل وتقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وتهديدوه ان هو تأخر فرحل الى الكرك وتفرقت العساكر فصار أكثرهم الى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعضهم ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ * ولما بلغ شيركوه صاحب حصن خبر موت الملك الكامل صاحب مصر فرح فرحا عظيما وحصل على ما كان يطمع نفسه فيه وأظهر سرورا ما عليه

من مزيد ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو في عشر السبعين وأرسل عسكريا فاسترجع
سليمة من نواب الملك المظفر وتغلب عليها وقطع القناة الموصلة منها الى حماة فبيست بساينها
وعزم على قطع النهر العاصي عن حماة أيضا فسدت مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حص
وتجهز وركب متن هواه غير حاسب لما وراء ذلك حسابا * وكانت أعمال الكامل كلها خيرا
واصلاحا قال الحافظ عبد العظيم المنذرى أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وعمر القبة
على ضريح الشافعي وأجرى الماء من بركة الحبش الى حوض السبيل والساقية التي على
باب القبة المذكورة وأوقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر وله المواقف المشهورة بدمياط
مع الفرنجة اه وقال ابن خلدكان واتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة
مرة عند الدعاء له * سلطان مكة وعبيدها * واليمن وزبيدها * ومصر وصبيدها
والشام وصناديدها * والجزيرة ووليدها * سلطان القبلتين * ورب العلامتين * وخادم
الحرمين الشريفين * الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين اه
ووردت الاخبار الى الملك الاكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وهو صاحب حصن
كيفا بولاية أخيه العادل أبي بكر واتفاق كلمة الامراء والقواد على البيعة له فأهمه
ذلك وأقلقه وجعل يراقب الفرص الى أن علم بعجز أخيه عن القيام باعباء الملك واختلال
أمور المملكة فتجرد للقتال وسار في عسكر عظيم يريد مصر ليأخذها من العادل
ويتغلب عليها فبرز العادل الى بليس يريد قتال الملك الصالح فلم يكذبصل اليها حتى
اختلفت عليه الامور وخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقبضوا عليه واءتقلوه وأرسلوا
الى الصالح أيوب فوصل اليهم في قلة فلكوه وبايعوا له وذلك في صفر سنة سبع وثلاثين
وسمائه وسيروا الخبر بذلك الى الاتفاق وأقام الصالح في الملك وقد دانت له الامور وثبت قدماء
فأحسن السياسة والتدبير فكانت مدة ملك العادل سنتين غير كاملتين واتسعت كلمة الملك
الصالح وتصرف في الامور وقبض على سائر الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه
ثم أمر بهم فقتلوا جميعا وخلق الملك الجواد يونس ومنعه من دخول مصر وبوعده باقتنل
ان هو عاد اليها فسار الجواد الى جماعة الفرنجة في عسكا وجب اليهم قتال الصالح
واستخلاص البلاد منه ففرحوا به وأحسنوا وفادته وسبروه الى صاحب دمشق والملك المنصور
التعاقد على ما فيه المصلحة لهم جميعا فتم لهم الاتفاق مع صاحب دمشق والملك المنصور
ابراهيم صاحب حصن ونحالفوا على أن تسير جماعة الفرنجة الى مصر لقتال الصالح ونزع
البلاد منه وأن يكون لهم في مقابل ذلك أورشليم وطبرية وعسقلان والشفيف والصعيد
وبادر الفرنجة من حينئذ فلكوا تلك الاماكن وأخذوا في ترميم حصون عسقلان
وطبرية وجعلوا يعدون المعدات ويتأهبون للزحف على ديار مصر ووردت الاخبار بذلك
الى الملك الصالح فأقلقته وكان لما تمكن جنكيزخان من شرقي آسية ودانت له الامور
فيها ولم يطعه الخوارزميون كبر عليه هذا الامر وأعظمه وطردهم من آسية فجأوا شرقي

الشامات ونزلوا هناك في طلب الرزق وقد علم الملك الصالح صاحب مصر بمقدمهم ذلك فأنفذ اليهم رسلا في التحالف على قتال الفرنجة ومن تعاهد معهم على قتاله فأجابوه الى ذلك وأسرعوا في الزحف الى أن بلغوا غزة فخاربوا الفرنجة عند أسوارها ووصلت اليهم النجدة من الملك الصالح فانهزمت الفرنجة فقبضهم الخوارزميون وعسكر مصر حتى أخذوا منهم غزة وبيت المقدس واشتدت عزيمته الملك الصالح بما ناله من الغلبة على الفرنجة فسار في جيش عظيم الى دمشق يريد أخذها فحاصرها وألح في قتالها حتى أخضعها لسلطانها وخرج الى حصن وحاصرها فلم يزل منها مأربا وعمد الى التقرب من الخليفة المستنصر بالله العباسي ليعظم بذلك أمره وتعلو كلمته وتنضم اليه القلوب المتباعدة عنه فأرسل اليه هدية نفيسة فلم يكذب بل وصل رسوله بالهدية حتى جاء الخبر بموت الخليفة مات بكرة يوم الجمعة العاشر من جادى الآخرة سنة أربعين وستمائة هجرية فكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة الا شهرا * قال أصحاب التاريخ وكان حسن السيرة عادلا في الرعية وهو الذي بنى المدرسة في بغداد المسماة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلي دار الخلافة فلما مات اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبد الله ولقبوه المعتصم وهو سابع ثلاثى الخلفاء العباسيين وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور

ومات في أيام الخليفة المستنصر بالله يومنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكان اسمه أولا يونس أبو الفتح من دير أبي حنس وكانت أيامه كلها شدة داء واحنا وبلايا ومحنا تكاد أن لا تدخل تحت الحصر وقد أضربنا عن إيرادها هنا وخلا الكرمى بعد موته ثلاثة وأربعين يوما ثم أقاموا بعده مرقس بن زرعة المكنى بأبى الفرج ثالث سبعهم وهو سريانى المخذ ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في حينه

(الفصل السابع والثلاثون)

(في خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله)

ثم قام بعد المستنصر بالله ولده المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر ابن الظاهر محمد بن الناصر العباسي وهو آخر الخلفاء العراقيين بوبع له بالخلافة في جادى الاولى سنة أربعين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ميلادية فلم تستقر به الخلافة حتى أساء التدبير وانهمك على اللعب بالحمام وغير ذلك مما لا يليق بالخلافة قال أصحاب الاخبار وكان قليل الرأى ضعيف العزيمة لاهزم له ولا حرمة ولا هيبة فلما جاءت

البشارى الى الملك الصالح بخلافته أرسل اليه يطلب منه تقليداً بعصر والشام فجاءه الشريف
 والطوق الذهب والمركوب فلبس الشريف الاسود والعمامة والحبية وركب الفرس فى موكب
 حافل للغاية وأول لاهراء الدولة وبار الجند وليلة فائقة ولم تتم أفراحه هذه حتى ورد عليه
 كتاب الملك لويز ملك الفرنسيس يقول * أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الامة العيسوية
 كما أنه لا يخفى على أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عمدنا أهل جزائر الاندلس وما
 يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال والنساء
 ونستأسر البنات والصبيان ونفلى منهم الديار وأنا أرسلت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك
 النصيح الى النهاية فلو حلفت لى بكل الايمان وأدخلت على القس والرهبان وجلت قدامى
 الشمع طاعة للصليبان لكنت راحلا اليك وفانك فى أعز البقاع عليك فاما أن تكون البلاد
 لى هدية حصلت فى يدى واما أن تكون البلاد لك والغلبة على فيدك العليا ممنسدة الى
 وقد عرفتك وحذرتك من عساكر فى ساحق تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم
 مرسلون اليك بأسيايف القضا ۞ فلما وقف الصالح على ما فى الكتاب بكى واسترجع وقال
 للقاضى بهاء الدين زهيراً كتب الجواب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا
 محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين * أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة
 جيوشك وعدد أبطالك فخن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الاجتدناه ولا بقى علينا باغ
 الا دمرناه ولورأت عينك أيها المغرور حدة سيوفنا وعظم حروبنا وفنصنا منكم الحصون
 والسواحل ونخرينا ديار الاواخر منكم والاولى لك أن تعض على أناملك بالندم ولا
 بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسمى الظنون وسيعلم الذين ظلموا
 أى منقلب يتقلبون فاذا قرأت كتابى هذا تكون فيه على أول سورة النحل أنى أمر الله
 فلا تستعجلوه وتكون فيه على آخر سورة ص وتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله
 تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين
 وقول الحكماء ان الباغى له مصرع وبغيتك يصرعك والى البلاء يقبلتك والسلام
 وجاءته الاخبار بوصول المراكب الفرنساوية مشحونة بالعساكر والاجناد وهذه غزوتهم
 السابعة الصليبية فأهمه أمرهم وخرج من القاهرة الى المنصورة ونزل بها وشحن مدينة دمياط
 بالآلات العظيمة والذخائر الوفيرة وجعل فيها بنى كنانة وهم موصوفون بالبسالة والافدام
 وأرسل نحر الدين ابن الشيخ فى طائفة عظيمة من الجند ليكونوا قبالة الفرنسيس اذا نزلوا من
 مراكبهم فتمقدم الفرنسيس نحو البر ونزلوا من المراكب وهجموا على المدينة يريدون أخذها
 وذلك فى أوائل سنة سبع وأربعين وكان مقدم الفرنسيس فى هذه الحملة الملك لويز التاسع
 ملك الفرنسيس تخاف نحر الدين ابن الشيخ وهاله كثرة جيوش الفرنسيس فعبر من البر
 الغربى الى البر الشرقى فى جماعة من المسلمين ووصل الملك لويز بعسكره الى البر الغربى لتسع
 بقين من صفر من السنة فلما جرى ذلك هرب أيضا بنو كنانة وأهل دمياط كافة وأخلوها

وتركوها مفتحة الابواب فللكها الفرنسيين بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والسلاح
فعظم الامر جدا على الملك الصالح وأمر بالقبض على من يوجد من بني كنانة وصلبه فقبضوا
عليهم وصلبوا عن آخرهم وكان الملك الصالح وهو مقيم بالمنصورة يقاسى ألم المرض وهو
السل والقرحة التي كانت به فلم يقدر على الخروج للقاء عساكر الفرنسيين واشتدت به علته
شدة بالغة وكان كلما سمع بنظر الفرنسيين قلق واضطرب فلما كانت ليلة الاحد لأربع
عشرة ليلة مضت من شعبان من السنة أى سنة سبع وأربعين وستمائة مات فكانت مدة
تملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين
سنة وقبل أربعين وكان مهيبا على الهمة عفيفا طاهر اللسان وقد جمع من المماليك الترك
ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم
حول دهلزيه وسماهم (البحرية) فكان من أمرهم ما سبى عليك في محله * وكان شديد البأس
لا يجسر أن يخاطبه أحد الا بحجبا ولا يتكلم أحد بمحضرته ابتداء وكانت القصص تضعها
بين يديه الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للويعين وكان لا يستقل أحد من أهل دولته
بأمر من الامور الا بعد مشاورته وكان يحب العمارة والبناء فبنى قلعة الجزيرة التي هي الروضة
واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها وسماهم البحرية وبنى بالقاهرة المدارس الاربع بين
القصرين وبنى الصالحية وهي بلدة بالشام وبنى له فيها قصورا للصيد وبنى قصرا عظيما
بين مصر والقاهرة يسمى بالكش وكان له ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر مات في
حبس الصالح اسماعيل وكان قد مات ولده الآخر قبله ولم يبق له غير المعظم تورانشاه بحصن
كيفما ومات الملك المسد كور ولم يوص بالملك لاحد وكانت له جارية اسمها شجرة الدر
فلما مات أخفت خبر موته وبقيت تعلم بعلامته ثم أحضرت نحر الدين ابن الشيخ والطواشي
رجال الدين محسنا وهما من كبار الامراء وعرفتهما بموت السلطان فنكتموا ذلك
خوفا من الفرنسيين واتفقوا على أن شجرة الدر تجتمع الامراء كافة ونقول
لهم ان السلطان يأمركم أن تحلقوا له أولا ثم ولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا
من بعده والامير نحر الدين بن الشيخ بأنا بكية العسكر فاجتمع الامراء وحلقوا وكتب الى حسام
الدين بن أبي علي وهو يومئذ النائب بمصر بمثل ذلك خلف وحلفت العساكر والاجناد
وجميع الكبراء بمصر والقاهرة على ذلك أيضا في العشر الاواسط من شعبان من السنة
فكانت تخرج الكتب وغيرها وعليها علامة الملك الصالح وكان الذي يكتبها خادما صغير يقال
له السهيلي فلا يشك أحد في أنها بخط السلطان * وأرسل نحر الدين ابن الشيخ قاصدا
لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا فلما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن
كان أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوهوا بذلك وبلغ الخبر الملك لويز ملك الفرنسيين وهو
بدمياط فسار في طائفة عظيمة من جنوده في مستهل رمضان يريد المنصورة فلما صار على مقربة
منها لاقته عساكر المسلمين فاقتتلوا قتالا عظيما جدا مات فيه جماعة من كبار المسلمين ونزل

الفرنسيس بحر مساح ثم اقتربوا من معسكر المسلمين وكبسوهم على المنصورة بكرة الثلاثاء
 لخمس خلون من ذي القعدة وكان نحر الدين يوسف بن الشيخ صدر الدين بن جويه مقدم
 العساكر الاسلامية في الحمام بالمنصورة فركب مسرعا فصادفه جماعة من عسكر الفرنسيس
 فقتلوه حمل المسلمون والأتراك البحرية على الفرنسيس حتى ردوهم بعد قتال عنيف للغاية
 أما الملك المعظم تورانشاه فإنه لما وصل اليه القاصد قام من يومه من حصن كيفا ووصل
 الى دمشق وعيد بها عيد الفطر ووصل الى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة
 سنة سبع وأربعين وستمائة فلم يستقر به المقام حتى شدد الفرنسيس في القتال وقامت الحرب
 بين الفريقين برا وبحرا وحلت مراكب المسلمين على مراكب الفرنسيس فأخذت منهم عدة
 كثيرة واشتد الامر على الفرنسيس وقتل عندهم الاقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة
 المسلمين فرحلوا ليلة الاربعاء لثلاث بقين من المحرم افتتاح سنة ثمان وأربعين يريدون مدينة
 دمياط فافتنى المسلمون أثرهم فانماز الملك لويز بن معه من الملوك والامراء الى بلد هناك
 وطلبوا الامان فأمّنهم الطواشي محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى الى المنصورة
 ف قيد الملك لويز وجعله في دار كان ينزلها كاتب الانشاء نحر الدين بن لقمان * قلت وآثارها باقية
 الى هذا اليوم وقد تهدم أكثرها * ووكّل به الطواشي صبيح المعظمى ففرح المسلمون بذلك
 فرحوا لا يوصف وسار الملك المعظم من المنصورة الى فارسكور ونزل بها ونصب بها برجا من
 خشب وقرب اليه أصحابه الذين جاؤا معه من حصن كيفا واعتمد عليهم وسلم اليهم مقابليد
 الامور * قال كتاب الاخبار وكان أولئك الناس من الاراذل * واطرح جانب أمراء أبيه
 وعاليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه فاتفقوا جميعا على قتله وتحالفوا
 على ذلك فلم يشعر الا وقد هجموا عليه بالسيوف ومقدمهم ركن الدين بيبرس وضربه بالسيف
 فهرب الملك المعظم الى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور فأطلقوا في البرج النار فخرج
 المعظم منه هاربا طالبا البحر ليركب في حراسته فخلوا بينه وبين الحرافسة بالنشاب فطرح
 نفسه في البحر فأدركوه وأجهزوا عليه في نهار الاثنين المذكور فكانت مدة اقامته في الملك
 من حين وصوله شهرين وأياما * ولما جرى ذلك اجتمع الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة
 الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وأن يكون عز الدين أبيك الجاشنكير الصالحى المعروف
 بالتركانى أتابك العسكر وحلفوا على ذلك وخطبوا لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة
 باسمها * قال أصحاب الاخبار فكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة
 الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا وكان اسمه
 خديلا فسميت والدة خليل وكانت علامتها على التوقيع والدة خليل

ولما استقر لها الملك وقع الحديث مع لويز ملك الفرنسيس في تسليم مدينة دمياط
 بالافراج عنه فتقدم لويز الى من بها من نوابه في تسليمها فسلموها وأصعد عليها السلطان يوم
 الجمعة لثلاث مضي من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وأطلق ملك الفرنسيس فركب في

البحر مع جنوده نهار السبت وأقلعوا الى عكا ثم عادت العساكر ودخات القاهرة يوم الخميس
 تاسع صفر وأرسل المصريون رسولا الى الامراء الذين بدمشق في موافقتهم على ما فعلوه من
 تولية شجرة الدر فلم يجيبوا اليه وطال الامر بينهم أياما ثم عادوا فاتفقوا على جعل عز الدين
 أيبك الجاشنكير في السلطنة لانهم رأوا أنه اذا استقر أمر المملكة لامرأة على ما هو عليه
 الحال تفسد الامور فولوا أيبك وأركبوه بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم
 السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ولقبوه بالملك المعز * وكان اصلاح الدين
 يوسف بن الملك الكامل ولد اسمه الاشرف موسى وله من العمر ثمان سنين فملكوه مع عز
 الدين أيبك فخطب لهما معا وضربت السكة باسمهما وسموا الاشرف المذكور السلطان
 وأبطلوا السكة والخطبة التي كانت باسم شجرة الدر فكانت مدة ملكها ثلاثة أشهر * قال
 بعض كتاب الاخبار ان شجرة الدر هي التي خلعت نفسها من تحت المملكة وتزوجت بالامير
 أيبك المذكور وهو أول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية * فلما استقرت به السلطنة
 ونصرف في الامور شملت أنوف الاتراك أبناء جنتسه وعظم من يومئذ شأنهم ومدوا أيديهم
 الى العامة واستوزر الاسعد الفائزي فكان بش الرجل أكثر من احدث المغارم والمكوس
 فأبغضه الناس وكبر بغضهم لاييبك فكان أهل مصر والقاهرة يحرقونه ويسمونه ما يكره
 اذا ركب ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة لاعبدا رقا وانحرفت خواطر
 الجند عليه فجعل يسايرهم ويسترضيهم بالعطايا الجزيلة وما زال حتى دانت له بعد ذلك
 الامور واستنبت كلمته وبسط يده على جميع المملكة فرسم بهدم سور مدينة دمياط تخلصا
 من غارات الفرنسيس فهدموه في العشر الاخير من شعبان وبنوا مدينة بالقرب من
 دمياط في البر وسموها المنشية وكانت الاسوار التي هدموها من عمارة المتوكل الخليفة
 العباسي وكبر أمر ولاية الامير أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق
 وأعظمه جدا لخروج الملك من بيت أبيه الى الموالي والعبيد فتعزك يريد أخذ ملك مصر
 من يد أيبك المذكور استصغارا له واستخفافا بقدره فسار من دمشق وصحبته من ملوك أهل
 بيته الصالح اسماعيل بن العادل بن أيوب والاشرف موسى صاحب حصص والمعظم تورانشاه
 ابن السلطان صلاح الدين وأخو المعظم نصرة الدين والامجد حسن والظاهر شادى ابنا الناصر
 داود بن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب وتقي الدين بن عباس بن الملك العادل بن أيوب
 في جيش عظيم للغاية ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الارمني واليه تدبير المملكة وكان
 خروجهم من دمشق في يوم الاحد منتصف رمضان من السنة فلما بلغ المصريين خبر
 فدومهم هالهم أمرهم واهتموا لقتالهم ودفعهم وبرزوا الى السائح وتركوا الاشرف المسمى
 بالسلطان بقلعة المقطم ونزع أيبك حينئذ على ولدى الصالح اسماعيل وهما المنصور ابراهيم
 والملك السعيد عبد الملك وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وقطع
 عليهما ليشوهن الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح اسماعيل ويتخوف منه ثم

التقى العسكران بالقرب من العباسية بأقليم الشرقية في الخامس عشر من ذي القعدة فكانت الغلبة أولا على جنود مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك في جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر الى المعز أيبك فلما انكسر المصريون وتبعهم العسكر الشامى ولم يشكوا في النصر والغلبة بقى الملك الناصر تحت الصناجق السلطانية مع جماعة بسيرة من المتعممين لا يتحركون من موضعهم فحمل المعز أيبك بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ثم حل أيبك لطاب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم وأخذ شمس الدين أسيرا فضرب عنقه بين يديه **و** كذلك أسر الأمير ضياء الدين بن أيوب القهري فخر رأسه وأسر يومئذ الملك الصالح اسماعيل والاشرف صاحب حصص والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ووصل عسكر الملك الناصر في أثر المنهزمين الى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين فلما جاءهم الخبر بفرار الملك الناصر اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم فمنهم من أشار بالدخول الى القاهرة وتملكها * قال بعض كتاب الاخبار ولو فعلوه لما بقى مع المعز أيبك من يقاثلهم به وكان هرب منهم لترفع المنهزمين الى الصعيد الاعلى * ومنهم من أشار بالرجوع الى الشام وكان معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح بجراح ليست خفيفة * ودخل المنهزمون من المصريين الى القاهرة من غد الواقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر والقاهرة في غلبة الملك الناصر وملكه ديار مصر فخطب له الخطيب في الجمعة المذكورة بقلعة الجبل وبمصر وأما القاهرة فلم يبق فيها في ذلك النهار خطبة لاحد ثم وردت اليهم البشرى بانتصار المماليك البحرية ودخل المعز أيبك والبحرية الى القاهرة يوم السبت ثلثي عشر ذي القعدة ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وفي ثالث يوم دخوله أمر باخراج أمين الدولة وزير الصالح اسماعيل وأستاذ داره المسمى بـ **و** كانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنتقهما على باب قلعة الجبل وأوعز الى جماعة من أصحابه بقتل الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل بن أيوب فلما كانت ليلة الاحد السابع والعشرين من ذي القعدة هجموا عليه وهو يصقصب السكر ونبضوا عليه وأخرجوه الى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفنوه هناك وعمره يقرب من خمسين سنة فعلت كلمة المعز أيبك من حينئذ واتسعت شهرته ومالت اليه القلوب وجعل يتصرف في أمور المملكة بالاشتراك مع الملك الاشرف لا يقدر على الاستقلال بها ولا الاستبداد بالاحكام لممانعة خوشداده اقطاي الجندار له في ذلك فكان أيبك في حزن دائم من ذلك * فلما كانت سنة اثنتين وخمسين وستمائة دبر المعز أيبك أمر قتل اقطاي فأوقف له في بعض دهليز الدور التي بقلعة الجبل ثلاثة مماليك أحدهم يسمى قطز والثاني بهادر والثالث سنجر الغتمى فلما هم بهم فارس الدين اقطاي المذكور ضربوه بالسيوف

فقتلوه ووصل خبر قتله الى المماليك البحرية فانزعجوا وفروا من مصر الى الشام خوفاً من المعز أيك نخل الجوز للعز واستقل بالسلطنة وخلع الاشرف موسى منها وسيره الى عمانه فكان الاشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في ديار مصر وكان انقضاء دولتهم في هذه السنة أي سنة اثنتين وخمسين وستمائة هجرية وسنة خمسين ومائتين وألف ميلادية فكان عدد ملوكهم تسعة أولهم الملك صلاح الدين بن أيوب وآخرهم الاشرف موسى أو الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح الايوبي فسبحان من له الملك وحده والسلطان الدائم بلا زوال

فبادوا جميعا ولا مخبر * وما نوا جميعا وصح الخبر

فلما تمت نعمة المعز أيك بملكه على ديار مصر وما يتبعها من الشامات واستقل بحكمها ظهرت على يديه الدولة الشركسية التي هي إحدى فروع الدولة التركية ويمكن سلطانها فتولى حكم البلاد منها سبعة وأربعون ملكاً أولهم المعز أيك المذكور وآخرهم طومان باي وهم الملقبون بـماليك الدولة الايوبية الكردية ليمتازوا عن المماليك البحرية وكان الملك الصالح الايوبي قد اصطفاهم لنفسه وخصهم بخدمته فكان لهم التقدم في أيامه كما سبقت الإشارة الى ذلك قال أصحاب التاريخ وكان فيهم قضاة وخشونة واستتار بالامور كلها * وأحسن المعز أيك التدبير وأقام العدل بين الرعية وشد على المماليك العزيرية لتمردهم وتناول أيدي بعضهم الى العامة فكروه وجعلوا يترقبون الفرص للقبض عليه فلم ينهزم واستعد لهم وبالع في الاستعداد * فلما كانت سنة ثلاث وخمسين هموا بالقبض عليه فلم يفلحوا فهربوا من مخيمهم الى العباسية على حجة فأحاط على وطافاتهم جميعها وأخذ ما فيها قهابة الاشرار كافة وحسده الملك الناصر صاحب الشام وخاف أن يأخذ ملكه فسير كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من قبله الى الخليفة المستعصم وصحبته مقدمة جليلة وطلب خلعة من الخليفة فعلم المعز أيك بقصده فأرسل شمس الدين سنجر الاقارع وهو من مماليك المظفر غازي صاحب ميافارقين الى بغداد بتقدمة جليلة جدا وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب الشام فبقى الخليفة متحيراً أباناً ثم انه أحضر سكيناً من البلسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في انه له خلعة عندي في وقت آخر وأما في هذا الوقت فلا يمكنني اعطاؤه شيئاً فأخذ رسول صاحب الشام السكين وعاد الى الملك الناصر يوسف بغير خلعة فكبر عليه هذا الامر وجعل يراقب الفرص وهو قلق وجل ودس الى شجرة الدر من يعلمها بحاله * وكانت شجرة الدر كشيعة التداخل في أمور المملكة ولها بعض الغلبة على أمر المعز أيك فأحس المعز بذلك فكان يضر لها السوء ويعمل على التخلص منها وانتفى عنه سيره الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من يخطب له ابنته ليتزوج بها فلما علمت شجرة الدر بعزمه وكانت قد آسست منه البغض وأحست بالشر صارت تترصد الفرصة للايقاع به فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وخمسين

وسمائه خرج الى لعب الكرة ثم عاد ودخل الحمام فأوعزت في الحال الى سنجر الجوهري
 ملوك الطوائى محسن وبعض الخدم بأن يقتلوه فدخلوا عليه وقتلوه وأرسلت شجرة الدر في
 تلك الليلة اصبح المعز أيبك وخاتمه الى الامير عز الدين الجلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم
 بالأمر فلم يجسر على ذلك وظهر الخبر فنارت بمالك المعز لقتل شجرة الدر فنانع عنها طوائف
 الممالك الصالحية واجتمع كافة الامراء وكبار الجند ليولوا ملك البلاد لمن يصلح فانفتحت
 كلمتهم جميعا على اقامة نور الدين على بن المعز أيبك ولقبوه بالملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة
 سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة الى البرج الاحمر ثم قبضوا على الخدام الذين وافقوها
 على قتل الملك فصلبوههم وهرب سنجر الجوهري ولكنهم ظفروا به بعد ذلك وصلبوه
 واحتيط بالصاحب بهاء الدين على بن خبا الذى كان وزير شجرة الدر وأخذ خطه بسنين
 ألف دينار ۞ ولما تولى الملك نور الدين على المنصور واستقرت به السلطنة قبض على شجرة
 الدر ودخل بها على أمه فأمرت باعدامها فقتلها الجوارى بالقباقيب ورماها بالخندق وهى
 عريانة على باب القلعة وبقيت أباما ثم دفنت بالتربة التى كانت قد أعدتها لنفسها * قال
 كتاب الاخبار وقد جوزيت من جنس عمالها لانها كانت سعت في قتل الملك المعظم فبات
 غريبا كما تقدم بيانه في محله وترك ثلاثة أيام على شاطئ النيل فكذلك فعل بها

ودخلت سنة ست وخمسين وستمائة هجرية بكثير من الحوادث المهمة فقصده في
 أولها هولاء كوكو ملك التتار دار السلام وحاصرها وضيق عليها وشدد حتى ملكها في
 العشرين من المحرم وقبض على الخليفة المستعصم بالله * قال أهل التاريخ وكان
 سبب ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة كان رافضيا وكان أهل الكرخ
 أيضا روافض فحرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر بن
 الخليفة وركن الدين الموادار العسكر فذهبوا الكرخ وقتلوا النساء وركبوا بهن الفواحش
 فعظم فعلهم على الوزير ابن العلقمى وعزم على الانتقام فكتب التتار وأطمعهم في
 ملك دار السلام وكان عسكر بغداد قد بلغ يومئذ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم
 ليحمل الى التتار منحصل اقطاعهم فأصبح عسكر بغداد بعد ذلك أقل من عشرين
 ألف فارس ثم أرسل ابن العلقمى الى التتار أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين ببغداد في جمع
 عظيم للغاية فلما علم الخليفة بخبر قدومهم أخرج عسكره لقتالهم ومقدمهم ركن الدين بن
 الموادار فالتقوا على مرحلتين من دار السلام واقتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة
 ودخل بعضهم ببغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاء كوكو على ببغداد من الجانب
 الشرقى ونزل باجو من أكبر مقدميه الى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج
 مؤيد الدين بن العلقمى الوزير الى هولاء كوكو فاستوثق لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال
 ان هولاء كوكو يقيمون في الخلافة كما فعل بسطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر
 وحسن له الخروج الى هولاء كوكو فخرج اليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزله في

نجمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والامائل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محبي الدين بن الجوزي وأولاده وكذلك صار يخرج الى التشارطائف بعد طائفته حتى تكاملوا فأمر هولاكو قتلهم التشارع عن آخرهم ثم سدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف في بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيرا فأخذ أسيرا ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوما ثم قودى بالامان قال الراوى وأما الخليفة فانهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق في دجلة وقيل غير ذلك وكان هذا المستعصم وهو عبدالله أبو أحمد ابن المستنصر أبي جعفر منصور بن محمد الطاهر بن الامام الناصر أحمد ضعيف الرأي كما تقدم وقد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره وانهماكه في اللذات وعدم اهتمامه بمقام الخلافة ومسند الامامة فكانت خلافته نحو ست عشرة سنة وبموتها زالت الخلافة من العباسيين وانقرضت دولتهم وانمحت آثارها فلم تكن شيا مذكورا رحم قال أصحاب التاريخ كان ابتداء دولة الخلفاء العباسيين في سنة اثنتين ومائة هجرية وهي السنة التي بوبع فيها السفاح بالخلافة وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة على التقريب وعدة خلفائهم سبع وثلاثون خليفة * حكى القاضي جمال الدين بن واصل قال لقد أخبرني من أتق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ماضوته * ان علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض الخلفاء من بني أمية عنه أنه قال ان الخلافة تصير الى ولده فأمر الاموى بعلي بن عبدالله فحمل على جبل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفتري ويقول ان الخلافة تكون في ولده فكان علي بن عبدالله المذكور رحمه الله يقول اى والله لتكون الخلافة في ولدى ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العليج من خراسان فينزعهما منهم فوق مصداق ذلك ورود هولاكو وازالة ملك بني العباس على يديه فأقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الاربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخسين وستمائة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم الى سنة تسع وخسين وستمائة فسبحان من له الدوام والبقاء

وكما كانت دار السلام في قلق واضطراب بسبب دخول هولاكو اليها بعسكره ظافرا منصورا وقتله للخليفة المستعصم وجميع رجال الدولة وكبار البلد كانت مصر كذلك بسبب الارهاصات الداخلية والفتن المتوالية وتحزب بعض الامراء ضد البعض الاخر وتغلب بعضهم على امر الملك المنصور لاسيما سيف الدين قطز أحد مماليك المعز أيبك فقد كان شديد البأس واسع الكلمة كبير الهبة وكان يراقب الفرص نطلع الملك المنصور ليمتولى الملك مكانه وما زال على هذا الحال الى أن انفق في أوائل ذي الحجة سنة تسع وخسين وستمائة خروج علم الدين المغنى وسيف الدين بهادر وجع من كبار المعزية الى الرمي بالبندق وكان لهما كلمة نافذة وشهرة كبيرة فانتهز سيف الدين قطز المذكور فرصة غيابهما وقبض على ولد

استأذنه الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة فلما قدم الغمى
وبهادر المذكوران لم يعيلاهما حتى قبض عليهما واعتقلهما بخافه بقمية الامراء ودانوا له وبالغوا
في الخضوع اليه فتولى الملك وقبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك المظفر ووردت عليه
رسائل التهاني من كل صوب وحذب * وكان الملك الناصر يوسف صاحب الشام قد أرسل
الى الملك المنصور علي قبل خلعه كمال الدين بن العديم مستجيذا على التنازل واتفق خلعه الملك
المنصور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم المذكور فلما استقر قطز بمنصب السلطنة
كلمه كمال الدين فيما جاء بصدده فأعاد جواب الملك الناصر يوسف بأن يتجده ولا يقعد عن
نصرته فعاد ابن العديم بهذا الجواب ثم أخذ الملك المظفر حينئذ في جمع الجيوش واعداد
معدات الحرب وفرق في جيوشه الاموال فكانت زهاء ستمائة ألف دينار جمعها مما فرضه على
أهل البلاد مما سماء تصقيع الاملاك وزكاتها وما ناله من ثلث التراكات مما قيمته ستة آلاف
دينار في سنة ونخرج يريد قتال التنازل ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك
الافضل علي في أوائل رمضان من السنة فلما علم كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام
ومقدم التنازل بسير العساكر الاسلامية اليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من بالشام من التنازل
وسار الى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة بن الملك العزيز بن الملك العادل
ابن أيوب صحبة كتبغا فتقارب الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فانهمز التنازل شر هزيمة
وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب وكثر فيهم القتل وقتل كتبغا وأسرا به وترفع من سلم
من التنازل الى رؤس الجبال وتبعهم المسلمون فاخذوهم وهرب من سلم منهم الى المشرق فجرد
الملك المظفر قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في أثرهم وهو من مقدمي الامراء المصرية
وبكار العسكر وكان ممن صحب التنازل أيضا في هذه الوقعة الملك الاشرف موسى صاحب
حصص فلما رأى ما حل بهم من القتل والفشل فارقهم وتقدم الى الملك المظفر قطز في طلب
الامان فأمنه وأقره على ما يبيده من البلاد وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فانه أمسك
أسيرا وأحضر بين يدي الملك المظفر قطز فأمر به فضرب عنقه بين يديه ثم دخل الملك
المظفر دمشق ظافرا منصورا ففرح به أهل دمشق فرحا لا يوصف فجعل ينظر في الامور
وبأمر وينهى ويصلح ما أفسده التنازل ولبث على هذا الحال أياما فعظم شأنه واتسعت شهرته
وطار صيته فحسده أصحابه وكرهوه وخافوا أن تطول مدته فاتفق منهم بيبرس البندقداري
الصالحى مع آخر اسمه آنصو مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان
أوغلى على قتله وتحالفوا على ذلك فلما قام من دمشق وسار يريد الديار المصرية ساروا معه
يرتقبون الفرص فلما وصلوا الى القصر بطريق الرملة وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق
الدليز والعسكر الى الصالحية قامت بين يدي قطز أرنب ففرح بها وساق عليها يريد قنصها
فساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدم اليه آنصو وأظهروا أنه يريد أن يشفع عند
الملك المظفر قطز في انسان فأجابته الى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس

البندقدارى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وكان ذلك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخسين وستمائة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون معه بعد قتله حتى لحقوا بالدهليز بالصالحية فسألهم أقطاي فارس الدين نائب السلطنة عن الملك المنظر فطر فقالوا له قتلناه فقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له أقطاي ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة اجلس فاستدعيت العساكر والاجناد للتخليف له فحلفوا فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخسين وستمائة

واستقرت السلطنة لبيبرس وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقب به أحد فطالت مدته فلما حلف له الجنود ورجال الدولة يعين الطاعة سار بهم الملك الظاهر بيبرس المذكور من الصالحية يريد القاهرة ثم تركهم فى الطريق وسار فى جماعة من أصحابه فصعد الى قلعة الجبل ففتحت له فدخلها واستقرت قدمه فى المملكة وفرح الناس به وزينوا له مصر والقاهرة أياما فجعل ينصرف فى الامور ويقرر قاعدتها على ما يجب ثم لم يلبث أن سير علاء الدين البندقدارى أستاذاره فى عسكر عظيم لقتال علم الدين سنجر الجلبى المستولى على دمشق من قبل الملك قطز فقاتله بظاهر دمشق فهرب الجلبى الى بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل الى مصر فاعقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة وبغيرها من الشامات مثل حجة وحلب وحصن وغيرها وأقام ايدكين البندقدارى الصالحى فى دمشق لتدبير الامور فعظمت شوكة الملك الظاهر وظهرت كلمته ودانت له الامور كما يشاء وهما به الملوك وتزلفوا اليه وسيروا اليه الهدايا الجليلة والتحف النفيسة حتى كان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر فى محله

(المقالة السادسة)

(فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله)

(وفيها فصول)

لما كان الملك الظاهر بيبرس المذكور شديد الرغبة فى الغزو والفتوحات ومنازعة هؤلاء و من حذوه من ملوك الخوارج وكان يخشى أنه اذا تقدم الى ذلك فشل أمره وتفرق الناس عنه وزالت سلطنته اذا لم تفرض له الامور بالفرض الشرعى وقد كانت الدنيا

الى هذا الحين بغير خليفة بعد موت الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه عمد الى البحث عن بقى من سلالة الخلفاء العباسيين وأظهر الاهتمام بامرهم وأجزل العطاء لجماعة من العربان لبأتوه بالخبر فلما كانت سنة تسع وخسين وستمائة قدم الى القاهرة في مستهل رجب جماعة من العربان ومعهم رجل أسود اسمه أحمد أبو القاسم زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر العباسي قالوا وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق وكان عدة أولئك العربان عشرة منهم الامير ناصر الدين مهنا فلما علم الملك الظاهر بقدومهم أظهر الفرح وخرج للاقائهم ومعه القاضي تاج الدين والوزير والعلماء والاعضاء والشهود والمؤذنون فتلقوه فدخل من باب النصر في أبهة عظيمة وكبكية زائدة وأنزلهم الملك الظاهر ببيرس مكانا رحبا وبالغ في الضفاوة بهم فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخسين جلس الملك الظاهر ببيرس وأبو القاسم الاسود المذكور في الديوان بقلعة الجبل وجلس القاضي والوزير والاعضاء على طبقاتهم وأثبت أبو القاسم المذكور نسبه لدى القاضي تاج الدين بالوجه الشرعي فلما ثبت ذلك وقف قاضي القضاة قائما وأشهد على نفسه ثبوت النسب ثم قام عز الدين ابن عبد السلام شيخ الاسلام يومئذ فبايعه بالخلافة أولا ثم السلطان الملك الظاهر ثم القاضي تاج الدين ثم الاعضاء ورجال الدولة واحدا فواحدا وركب من يومه في دست الخلافة بمصر والاعضاء بين يديه والناس حوله وشق القاهرة ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وطبروا الاخبار بذلك الى الاتفاق فكان الناس في خلافته على طرفي تقيض ولكل فريق حجة والله سبحانه أعلم بالحقائق

أقول ولما لم يكن من رأينا الانتقال الى البحث في كنه هذه الخلافة ولا في كيفية صيرورتها الى أبي القاسم الاسود المذكور كي لا يتطرق بنا القلم الى الخوض في مجال قد تسابق فيه أقوال الكتاب وكبار أهل النقد على غير جدوى لاختلاف الاقوال فيه وتعدد المذاهب وتباين الاهواء وقد جاء في حديث صاحب الشريعة الاسلامية في الامر بطاعة الخليفة ما نقله * اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زينة * وكان الغرض من هذا المؤلف انما هو ذكر الحوادث على ترتيب سني خلافة كل خليفة ممن سبق الى هذه الفترة التي بات فيها الاسلام بغير خليفة قد التزمنا هذه الخطة بعينها في تقييد حوادث وأبناء المدة من ظهور أبي القاسم هذا على ترتيب سني خلافته وخلافة من يأتي بعده ممن يكون لله في الارض خليفة كما جاء به حديث صاحب الشريعة عسى أن لا يشكل الامر على القارئ ولا تفوته الفائدة من سرد الحوادث والاخبار متتابعة كتتابع سني الخلافة وانصال أدوارها بعضها ببعض ❀ وكما كانت دار السلام وغيرها مقرا للخلافة العباسية والامامة الاسلامية الى هذا الحين فقد أصبحت مدينة القاهرة مقرا لها أيضا بظهور أبي القاسم هذا والبيعة له ولكن على آخر رمق من حياة الخلافة بعد ذلك الحول والطول والقوة والسود فسيحان من قسم الحظوظ

(الفصل الاول)

(في خلافة المستنصر بالله احمد بن الخليفة الظاهر بالله)

وفام بالامر بعد قتل الخليفة المستنصر على ما مر بك بيانه في حينه عمه احمد بن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسي * قال أصحاب التاريخ وهو آخر المستنصر ببيع له بالخلافة بمدينة القاهرة في يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخسين وثمان مائة أي سنة ستين ومائتين وألف ميلادية وذلك بعد قتل المستنصر بثلاث سنين ونصف سنة وأيام ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وكتب الكتاب ببيعته الى الاتفاق وأنزل بقلعة الجبل هو وخدمه وخشمه فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ركب في أبهة السواد وجاء الى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس ودعا للسلطان ثم نزل فصلى بالناس وفي يوم الاثنين رابع شعبان ركب أيضا وركب معه السلطان والقاضي والوزراء والامراء وأهل الحل والعقد الى خيمة عظيمة قد ضربت له بظاهر القاهرة فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء وطوقا من ذهب في عنقه وقيدا من ذهب في رجله وفوض اليه الأمور في البلاد الاسلامية كافة وما سيقه من البلاد الأخرى ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ثم صعد بعد ذلك مقر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبرا فقرأ عليه تقليد السلطان وركب السلطان بهذه الابهة والقيد في رجله والطوق في عنقه والوزيرين يديه ورجال الدولة مشاة سوى القاضي والوزير فشق من القاهرة وقد زينت له فكان يوما مشهودا ثم بعد قليل طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه الى بغداد لقتال هولاء كرو واستخلاص دار السلام منه فأجابته الى ذلك ورتب له جندا وجيش له عسكريا وأقام له كل ما يحتاج اليه ودفع اليه ألف ألف دينار وسار السلطان بصحبته الى دمشق فدخلوها في يوم الاثنين سابع ذي القعدة وصليا فيها الجمعة ثم سار الخليفة من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودعه وأوصاه بالتأني في الامور ثم عاد الى الديار المصرية فدخلها سابع عشر ذي الحجة فلم يلبث الا قليلا حتى وصلت اليه كتب الخليفة بمصر انه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت اليه يستحثونه على الوصول اليهم ففرح الملك الظاهر بذلك وترامت آماله الى المرمى البعيد * وبينما كان الخليفة يجهز السير بعسكره الى بغداد اذ وصل اليه التتار في جمع كثير وأحاطوا بعسكره واقتتلوا قتالا يسيرا فظفر التتار بعسكر الخليفة وقتلوا الخليفة وجماعة كثيرة من أصحابه ونهبوا ما كان معه من الاسلحة والكراع وشددوا على من بقي من العسكر فتفرقوا أيدي سبأ ووصلت

الاخبار الى السلطان الملك الظاهر بما وقع فشق عليه الامر واستعظمه * قال أصحاب التاريخ وقد كان يود نصرته وفتح له السبلاد رجاء أن تكبر دولة الملك الظاهر على يديه فلم يوفق الى ذلك وقتل الخليفة في ثالث المحرم سنة ستين وستمائة فكانت خلافته دون الستة أشهر

وكان ممن شهد الواقعة مع الخليفة وهرب مع من فجا أبو العباس أحمد بن الأمير أبي علي الحسن القبي بن الأمير علي بن الأمير أبي بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء الى عيسى بن مهنا فكانت فيه الملك الظاهر فطلبه فقدم الى القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها في سابع عشر ربيع الآخر فلقاه السلطان وأظهر السرور به وأنزله بقلعة الجبل وأغدى عليه واستمر بقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول فلما كان المحرم افتتح سنة إحدى وستين تمت له البيعة وتقلد الخلافة بعد ثبوت نسبه على ما سيذكر

(الفصل الثاني)

(في خلافة الحاكم بامر الله بن المستظهر بالله العباسي)

ثم تولى الخلافة أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي بكر علي بن أبي بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسي ببيع له بالخلافة في يوم الخميس ثامن المحرم افتتح سنة إحدى وستين وستمائة هجرية أي سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ميسلادية وذلك انه لما كان يوم الخميس المذكور جلس السلطان الملك الظاهر ببرس مجلسا عاما وجاء أبو العباس المذكور راكبا الى الايوان الكبير وجلس مع السلطان بعد ثبوت نسبه فقرأ نسبه على الناس ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بأمر المؤمنين ثم أقبل هو على السلطان فقلده الأمور ثم بايعه الناس على طيقاتهم ولقب الحاكم بأمر الله فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس فقال في خطبته الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركنا وظهيرا * وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا * أحده على السراء والضراء * وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء * وأستنصره على الأعداء * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له * وأن محمدا عبده ورسوله * صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه فنجوم الاهتداء * وأئمة الاقتداء * الاربعة الخلفاء * وعلى العباس عه * وكاشف غمه * وعلى السادة الخلفاء الراشدين * والأئمة المهديين * وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين * أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام * والجهاد مخموم على

جميع الانام * ولا يقوم علم الجهاد * الا باجتماع كلمة العباد * ولا سببت الحرم الا
 بانتهاك المحارم * ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم * فلو شاهدتم أهل الاسلام *
 حين دخلوا دار السلام * واستباحوا الدماء والاموال * وقتلوا الرجال والاطفال *
 وهتكوا حرم الخلافة والحريم * وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم * فارتفعت
 الاصوات بالبكاء والعيويل * وعلت الضجبات من هول ذلك اليوم الطويل * فكم من
 شيخ خضبت شيبته بدمائه * وكم من طفل بكى فلم يرحم لبيائه * فشمروا عن سابق الاجتهاد *
 في احياء فرض الجهاد * فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لانفسكم
 ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدين *
 والمحاماة عن المسلمين * وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الاجل العالم العادل المجاهد المؤيد
 ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الامامة عند قلة الانصار * وشرد جيوش الكفر بعد
 أن جاسوا خلال الديار * فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود * والدولة العباسية
 متكاثرة الجنود * فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة وأخلصوا نياباتهم تنصروا *
 وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا * ولا يرد عنكم ما جرى فالجرب سجال والعاقبة للمتقين *
 والدهر يومان والآخرة للؤمنين * جع الله على التقوى أمرهم * وأعز بالايان نصرهم *
 وأستغفر الله العظيم لى ولئكم ولسائر المسلمين فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم * ثم خطب
 الثانية ونزل فصلى بالناس وكتب ببيعته الى الاتفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه
 قال أبو شامة نقطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من
 هذه السنة * وقال ابن فضل الله ونقش اسمه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم قال ثم
 خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده بقلعة الجبل وعنده حريمه وخدمه وعلماؤه وموسعا
 عليه في النفقات والكساوى يتردد عليه العلماء والقراء على أكل ما يكون من أنواع الاكرام
 وملازمته بجانب الاجلال والمهابة ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ثم أسقط اسمه من
 سكة النقود وأبقى على المنابر فقط

وجعل الظاهر بيبرس منذ مبايعة هذا الخليفة الحاكم بأمر الله يتأهب لغزو التتار
 والاختذ بالثار فبنى دار العدل القديمة تحت سور قلعة الجبل وصار يجلس بها لعرض
 العساكر في كل اثنين وخميس وما زال حتى جيش جيشا خفما وسار به في سنة ست وستين
 الى الشام وقاتل من ينافا حتى ملكها واستولى على الشقيف وانطاكية وبغراس وطبرية
 والقرين وارصوف وصافيتا وايباس ومريقة وعرج على دار السلام فحاصرها وضيق
 في حصارها وما زال بها حتى دخلها وأباحها أياما ثم رتب أمورها وأحكم نظامها ثم سار منها
 وصحبته ولده الأمير بركة خان الى مصر يريد الحج فمر بمدينة حلب وكانت في أيدي التتار
 فقاتلهم وأجلاهم عنها ثم عرج الى بيت المقدس وعاد قافلا الى مصر ولبث بها الى ميعاد
 خروج ركب الحاج فخرج من القاهرة في كبكة عظيمة وسار بها الى السويس يريد

مكة وخروج معه جماعة كثيرة وقد كانت الطريق من مصر الى مكة الى ذلك الحين من
صحراء عيذاب فكان الحجاج يركبون السفن بالنيل من ساحل القسطنطين الى مدينة قوص
بالصعيد الاعلى ثم يركبون الابل منها فيقطعون صحراء عيذاب الى ساحل البحر الاحمر
ويركبون السفن بالبحر الاحمر الى جدة التي هي ميناء مكة وكذلك كانت تأتي على هذه
الطريق جميع قوافل التجار من الحبشة والهند واليمن وجميع جزيرة العرب فكانت لذلك
الصحراء المذكورة آهلة عامرة آمنة فلما سار الظاهر بيبرس الى مكة برا تبعه الناس في ذلك
واقفوا به وتحولوا عن طريق صحراء عيذاب وكذلك تحولت قوافل التجار بعد سنة ستين
وسبعمائة هجرية فزالته بهجة مدينة قوص وقلت أهميتها وتقهقرت تفهقرا سريعا حتى
أصبحت بالحالة التي هي عليها الآن أو أهم بقليل * ولما رجع من الحج اهتم بأمر الرعية وبالغ
في ترتيب أحوال المملكة وعمل على تأمين السبل وقطع شأفة أهل الفساد * وبينما هو على
هذا الحال اذ جاءته الاخبار ترى بزحف طوائف التتار الى أرض الشام ومحاصرتهم بيرة
فجيش عسكرا عظيما وسار بهم الى قتال التتار وصحبته الأمير قلاوون الثاني فالتقى الجمعان
عند بيرة واقتتلوا قتالا عنيفا فانتهصر المسلمون على التتار نصرة مؤزرة واستولوا على بيرة
وساروا منها الى أرمينية ففكسوها عنوة وأباحها بيبرس أياما فغفوا وسبوا وقتلوا وأراقوا فيها
الدماء الكثيرة ولبث بها حتى رتب أمورها وقرر أحوالها وسار عنها يريد القاهرة فلما صار
على قيد فرسخ منها خرج الامراء والكبراء والعلماء والفقهاء وعامة الناس للقائه وضربت
البشائر لقدمه فدخل من باب النصر وقصد فرشوا له الطريق بالبسط والطنافس الفاخرة
اجلالا وتعظيما فشق من وسط المدينة وصعد الى قلعة الجبل ثم أولم وأعطى الناس وكان قد
ترك الأمير قلاوون بأشام فلم يمس الا القليل على وصوله حتى جاءه الخبر بزحف بغا خان بن
هولاكو ملك التتار على أرض الشام وحصره بيرة ثانية فأنفذ الى الأمير قلاوون بقتالهم
واجلائهم عن البلاد فسار اليهم الأمير قلاوون في قلة من العساكر المصرية وضميرهم
ضربة أرجعهم على أعقابهم فسر الملك الظاهر بذلك سرورا عظيما ومال الى الأمير قلاوون
وأحبه واعتمد في كثير من الأمور عليه

وتأقت نفس الملك الظاهر بيبرس الى فتح بلاد النوبة والصعيد الاعلى فأنفذ في سنة أربع
وسبعمين الأمير آق سنقر في جيش عظيم فسار من ساحل القسطنطين الى اسوان فقاتلها وما
زال بها حتى استولى عليها ورتفع الى الصعيد الاعلى يغزو ويفتح ويمحق ويخرب ويسفك
الدماء حتى ملك جميع مصر العليا وأخضعها لحكم الملك الظاهر وقرر أمورها على ما شاء
وقفل راجعا مقللا بالغنائم من الذهب والفضة وشن القليل والريش والعبيد والاماء
والخصيان والنيل والدواب ووحوش البر ففرح الملك الظاهر بقدومه وسر باتساع ملكه
وطمع في فتح بركة واخضاعها لحكمه فسار لقتال من بها وعاد ظافرا منصورا فلما كانت سنة
خمس وسبعمين عاد بغا خان بن هولاكو الى الزحف على أرض الشام ليأخذها من عامل

الظاهر فأهم الظاهر ذلك واستعظمه وجيش جيشا عظيما وخرج به من القاهرة في يوم الخميس لعشرين مضت من رمضان من السنة وسار يريد قطع شافسة التتار ومحو أثرهم فوصل الى حلب ومنها الى النهر الازرق ثم الى ابلستين فوصل اليها في ذى القعدة فسير بغيا لقائه عسكرا عظيما ومقدمهم كبير اسمه تماون وهو من كبار المقدمين فالتقى الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة واقتتلوا فانهزم التتار وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم تماون وغلب كبراهم وأسروا منهم جماعة كثيرة وكان ممن أسروا في هذه الموقعة سيف الدين قبحق وسيف الدين أرسلان فلما تم الظفر للملك الظاهر بيبرس سار الى قيسارية واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدولة سليمان البرواناه فكان يكتب الملك الظاهر في الباطن والملك الظاهر يظن انه ان وصل قيسارية يصل اليه البرواناه على ما كان قد اتفق معه في الباطن فلم يحضر اليه وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام في انتظاره وخطب له على منابرهما ثم رحل عن قيسارية وقد نفذت منه الافوات فحصل للعسكر شدة بالغة جدا وفقى العلف فماتت دواب الحمل والخيول ووصلوا الى عمق حارم وهم في أسوأ حال فلبثوا بها شهرا فلما بلغ بغيا بن هولاكو ما حل بقومه التتار ساق في جمع الغسل حتى جاء الانبستين وشاهد عسكره صرعى جيفا واشلالا ولم يشاهد أحدا من عسكر الروم مقتولا فالتهب قلبه بنار الغيظ وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ونهب وخرب وفعل مالا خيرا فيه ثم سار الى الاردن وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالاردن أمر بالبرواناه فقتل وقتل معه نيفا وثلاثين نفسا من مماليكه وخواصه

أما الملك الظاهر بيبرس فانه بعد أن أقام بمق حارم شهرا يصلح حال عسكره رحل عنها في أواخر سنة خمس وسبعين ونزل بالقصر الابلق ثم سار منها لغزو الروم وعاد فلما كان المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة مرض مرضا شديدا ومات في يوم الخميس السابع والعشرين منه وكانت وفاته وقت الزوال وقد اختلف في سبب موته * قال بعض كتاب الاخبار انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر فاراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الايوبية يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى وأحضر خرا مسموما وأمر الساقى فسقى الملك القاهر ثم شرب الملك الظاهر ناسيا بذلك الكاس التي شرب منها القاهر على أثر شربه فمات القاهر عقب ذلك وحصلت للملك الظاهر حى محرقة ومات بها في التاريخ المذكور وقال آخرون غير ذلك فكنتم نائبه ومملوكه بدر الدين بيلبك المعروف بالخزندار خبر موته وحفظه وكفنه وتركه في قلعة دمشق الى أن تمت تربته بدمشق بفرب الجامع فدفن بها وهي مشهورة معروفة وارثه بعد ذلك بيلبك بالعساكر ومعهم الحفصة مظهرا ان الملك الظاهر فيها وانه مريض وسار الى مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركة خان ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده فوصل بيلبك الخزندار بالخزائن والعسكر الى الملك

السعيد بركة وهو بقلعة الجبل وأصبحوا وقد أظهروا موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاه ثم جددوا له البيعة واستقرت له السلطنة فكانت مدة ملك الملك الظاهر ببيرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام على التحقيق لانه ملك في سابع عشرين القعدة سنة ثمان وخسين وثمانئة ومات في السابع والعشرين من المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وثمانئة وكان ملكا شجاعا عافلا مهيبا ملك مصر والشام واستولى على النوبة وفتح الفتوحات الجليلة فكان ما فتحه مما بأيدي الصليبيين ياقا وطبرية وصفد والشقيف وارسوف وقيسارية وانطاكية وحصن الاكراد والقصر وبغراس وحصن عكا والقرين وهرقية وصافيتا وحلب قال أصحاب التاريخ وناصفهم في طرسوس وأدنة والمرقب والمصيصة وبانياس وغيرها وتلك مما كان بيد المسلمين على مجلون وبعليك ودمشق وحصن وصرخد والصلت وتل ناسر والرحبة وتدمر والرصافة والخوانى والقدموس والعلبيقة وقلعة الكهف وصهيون وبلاطيس والرصافة ومصيف والقلعة والشوبك والكرك

وعمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وبني منارة رشيد وأنشأ الشوانى وعمر عدة فلاع بالديار الشامية والاناطول وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير خارج باب الحسينية وحفر خليج الاسكندرية القديم وبني في طريقه قرية سماها الظاهرية وحفر بحر أشمون طنناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة بعد انقطاعها حينما من الدهر وأنشأ قناطر السباع وأصله مملوك قيجاني الجنس وكان أسمر أزرق العينين جهورى الصوت حضر هو ومملوك آخر مع تاجر الى حاة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجه واحد منهما وكان ايدكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح وكان قد توجه ايدكين الى ناحية حاة فأرسل الملك الصالح المذكور وقبض على ايدكين واعتقله بقلعة حاة فتركه الملك المنصور صاحب حاة في جامع قلعة حاة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر ببيرس مع التاجر فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتره وبقي عنده ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار فسار من حاة وصحبته الملك الظاهر وبقي مع أستاذة البندقدار مدة ثم أخذ الملك الصالح من البندقدار فانتسب الى الملك الصالح دون البندقدار وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير ببيرس الصالحى فسبحان المعطى بغير حساب

واستقر الملك السلطان الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر ببيرس في مصر والشام في أوائل ربيع الاول من السنة أى سنة ست وسبعين واستقر بدر الدين بيلبك الخزندار في نيابة السلطنة على ما كان عليه مع أبيه الملك الظاهر واستمرت الأمور على أحسن حال وأتم نظام فلم تطل أيام بيلبك الخزندار بعد ذلك ومات على ما يقال حتف أنه وقيل انه مات مسموما والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق فتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين العزبانى قال أصحاب التاريخ

ولكنه لم يتمكن من التغلب على الملك السعيد فحبط لذلك الملك السعيد وخطط وقدم الاصاغر على الاكابر وأبعد عنه أكثر الامراء وقبض على سنقر الاشقر والبيسرى وبقى الامر كذلك حتى خرجت هذه السنة ودخلت سنة سبع وسبعين وستائة فتجهز السلطان الملك السعيد يريد الديار الشاميه ثم خرج في عسكر عظيم ووصل الى دمشق ثم جرد منها عسكرا مع الامير سيف الدين قلاوون الصالحى وجرّد أيضا صاحب جنّة فساروا بجيعة ودخلوا الى بلاطيس وشنوا الغارة عليها وغنموا ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على أن يشقوا عصي الطاعة على الملك السعيد بركة ويخلعوه من السلطنة لسوء تدبيره وبغضهم لافعاله ومروا بدمشق ولم يدخلوها فأرسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم وأدخل عليهم والدته فلم يافتحوا الى ذلك وداوموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وصعد الى قلعة الجبل وسار العسكر في أثره فلما كانت سنة ثمان وسبعين وصل العساكر الى مصر في أثر الملك السعيد وذلك في ربيع الاول وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه أكثر من كان معه من الامراء فصاروا يهرون واحدا بعد واحد من القلعة وينضمون الى العسكر المحارب فلما رأى الملك السعيد منهم ذلك أجاب الى الانضلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه الى ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وسبعين وسيروه في الحال الى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجعاة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال والخزائن وكان شيبا كثيرا قال كتاب الاخبار وبعد أن جرى ذلك وتم على ما أرادته الامراء اجتمعوا وهم بدر الدين البيسرى الشمسى وابتنش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في السلطنة ولقبوه بالملك العادل وذلك في شهر ربيع الاول المذكور وعمره يومئذ سبع سنين وشهور ثم خطب له وضربت السكة باسمه وصار الامير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر فلما استقر الحال على ما ذكر أرسل الامير سيف الدين قلاوون الامير شمس الدين سنقر الى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد بركة على ما تقدم بيانه قبضوا على عز الدين ايدمر نائب السلطنة بدمشق وسجنوه وتولى تدبير دمشق بعده أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب فسار الامير شمس الدين وبولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة

ولم تكن مدة الملك العادل سلامش المذكور لتطول سوى بضع أشهر وقام الامير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر وخلعه من السلطنة وجلس هو على تخت الملك يوم الاحد الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين ولقب نفسه بالملك المنصور فلما استقرت به السلطنة وثبتت قدماء فيها قام سنقر الاشقر متولى دمشق وخرج عن طاعته وادعى السلطنة واستحلف العساكر والاجناد خلفوا له وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر وكان ذلك لاربع وعشرين خلت من ذى القعدة وجاءت الاخبار بذلك الى الملك المنصور قلاوون فأهمه الامر جدا وجهز عسكرا عظيما للغاية مع علم الدين سنجر الجلبى وهو من

مقدمي العساكر المصرية وكذلك بدر الدين بكتاش وبدر الدين الابدري وعز الدين الاخرم
فساروا جميعا الى الشام وبرز سنقر بجيوش الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان في تاسع
عشر صفر واشتبك القتال فلم يكن بأسرع من أن ولي الشاميون وسنقر منهزمين فلبعت فيهم
سيوف المصريين ونهبت أثقالهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه
حسام الدين لاجين السلطان نائبا بقلعة دمشق فاعتقله سنقر بها فلما انهزم سنقر أفرج عن
حسام الدين وعن آخرين لم يخالفوا مع سنقر ولم يخالفوا له وكتب الجلبى الى السلطان
الملك المنصور بالنصر فرسم بتعيين الامير لاجين المنصورى نائبا للسلطان بالشام أما سنقر
الاشقر فانه هرب الى الرحبة وكتب أبيغابن هولاءكو ملك التتار وأطمعه في البلاد
وكان عيسى بن مهنا أمير العربان مع من حلف لسنقر وقاتل معه وكتب بذلك الى
أبيغابن أيضا موافقة له ثم سار سنقر من الرحبة الى صهيون في جمادى الاولى واستولى
عليها وعلى برزية وبلاطس والثغر وغيرها بعد حروب كثيرة * وطمع أبيغابن هولاءكو
ملك التتار في ملك الشام فسير جيشين عظيمين أحدهما مقدمه اباكه خان والثاني مقدمه
منجو تيمور بن هولاءكو عدته ثمانون ألف فارس فالتقوا بالمصريين واقتتلوا قتالا عنيفا
فصبر المصريون وقاتلوا قتال الاسود حتى فازوا بالتتار وانتصروا عليهم نصرة مؤثرة
وقتل منجو تيمور تحت سنبك الخيل وفرأباكه خان الى جددان فقبض عليه أخوه
نبكودارا وغلان وسقاء السمقات حينه وتولى نبكودارا المذكور الملك بعده وراسل
الملك المنصور قلاوون في أمر الصلح أو الهدنة وأظهر الاسلام وسمى نفسه أجد خان فتمرت
قاعدة الصلح بين الفريقين وتعهد أجد خان بالطاعة والولاء فعاد الملك المنصور ظافرا مؤيدا
وابت الحال في سكون والأمور على ما يرام حتى قامت الفتنة في جوف البلاد وخرج على
الملك المنصور كبار الامراء والمماليك ونبذوا طاعته وعملوا على خلعه فتأهب لاذلالهم وتجرد
لقطع شافتهم وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام كاملة ولم يرحم صغيرا أصغره ولا شيخا
لشيخوخته واشتد القتل حتى امتلأت الاسواق بجثثهم بين رجال ونساء وأولاد فاشتد
الهول على الناس وعظم الخطب وارتفعت أصوات النساء بالبكاء واستنغاوا فاجتمع العلماء
ودخلوا على السلطان وشكوا اليه ما يلاقيه الناس من هول هذا الامر وتلطفوا في القول
وبالغوا في الاستشفاع فأجابهم الى ما يسألون وأمر قنا دوا بالكف عن القتل وحقق الدماء
الا أنه ضيق على من بقي منهم وأبطل كثيرا من عاداتهم بعد أن كانوا يلبسون
اللبسة المطرزة بطراز الذهب والفضة وبضعون العمام من الحرير والوشى ويرغون
ضفائر الشعر على ظهورهم مغطاة بالحرير وغير ذلك من أنواع الزينة والترفة فزال ذلك
هيئتهم وانكسرت شوكتهم وأمن الناس من شرهم وزال عنهم بأسهم

ولما كانت سنة أربع وثمانين وستمائة هجرة تحرك الامير سلامش متولى الكرك يريد
الاستقلال والخروج عن تابعية السلطان الملك المنصور قلاوون فاستعظم الملك المنصور هذا

الامر وسار من مصر في جيش عظيم الى الكرك فلاقاه سلامش في جبع عظيم واقتتلوا فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة وسقط سلامش في قبضة الملك المنصور فأحضره الى القاهرة مكبلا بالحديد وسجنه فلبث مسجوناً الى ما بعد وفاة الملك المنصور * ورسم بعد ذلك الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين بولاية العهد بعده وسلطنته وأركبه بشعار السلطنة وشق في وسط المدينة بابية وكبكية عظيمة ولكنه لم يلبث أن أدركته المنية وهو في شرخ الشباب وزهوة العمر أصابته حتى خبيثة فمات في سنة سبع وثمانين وستمائة فخرن عليه السلطان الملك المنصور حزناً عظيماً وبكاه وبكاء مرا وجلس للعزاء أياماً كثيرة وفرق الصدقات الكثيرة وخرج من مصر في جيش فراراً مما يلاقيه من ألم الحزن على فقد ولده فسار يريد فتح طرابلس وقد كانت الى ذلك الحين في أيدي الصليبيين لا ينازعهم عليها منازع من نحو المائة وثمانين سنة * فلما وصل اليها حاصرها وضيق عليها وشدد ووالى الرمي عليها ليلاً ونهاراً حتى ظفربها وفتحها فأباحها أياماً كثيرة وهدم أسوارها وخرب بناءها حتى أوشكت أن تصح أثراً بعد عين ثم أمر فرموا ما بقى منها وأعادوا اليها بعض رونقها وولى عليها أميراً من المصريين ورتب له جماعة من العساكر يقومون بحراسة أبراجها ويدفعون عنها عند الحاجة * قال أهل التاريخ ولم يجسر أحد الى هذا الحين ممن سبقه من الملوك مثل صلاح الدين أيوب وغيره على التعرض الى طرابلس لحصانتها وكثرة عساكرها ثم سار لغزو عكا ففتحها أيضاً وبرز الى مسجد التبرز ومعه العساكر والاجناد المتوافرة فلما أقام به أياماً ابتداء مرضه وكان في العشر الاواخر من شوال وهو بالدهليز بالمكان المذكور وأخذ مرضه يتزايد حتى مات يوم السبت سادس ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة وكان جلوسه على تخت الملك في اليوم الثاني والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة فكانت مدة ملكه نحو من احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياماً وترك ولدين هما الملك الاشرف صلاح الدين خليل والسلطان الاعظم الملك الناصر محمد * وكان ملكاً مهيباً حليماً جليلاً القدر كثير العفو شجاعاً غير سفالاً للدماء محباً للرعية ميالاً الى فعل الخير كثير الاحسان وافر الحرمة فلما مات اجتمع الامراء من الخاصكية وغيرهم وتكلموا فيمن يتولى السلطنة بعده فانفقت كلمتهم على تولية ولده الملك الاشرف صلاح الدين خليل

فلما كان اليوم الثاني من موت الملك المنصور اجلسوا الاشرف صلاح الدين خليل المذكور على تخت السلطنة وبايعوه البيعة العامة بعد أن بايعه الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المستظهر بالله في السابع من ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ولم تستقر به السلطنة حتى قبض على حسام الدين طرطاي نائب السلطنة يومئذ قبض عليه في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة وقتله وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيسدر وقلد الوزارة الى شمس الدين محمد بن السلجوس * ولما رتب أمور الدولة على ما شاء سار الى ارمينيا وحاصر أرودم وضيق عليها وشدد في الحصار حتى فتحها وأقام بها أياماً فذاع صيته وكبرت

هيبته وهابه الملوک المجاورون لذلك وتزلفوا اليه وعاد الى القاهرة وأقام بها أباما ثم خرج منها على الهجن يريد الكرك وسارت عساكره على الطريق الى دمشق وسار السلطان ودخل دمشق ثم سار منها الى البرية متصيدا ووصل الى العزقلس وهو جفار في طرف بلاد حص من الشرق ونزل عليه وأرسل الى مهنا بن عيسى أمير العرب وأخويه محمد وفضل وولده موسى بن مهنا وكان قد أضر لهم السوء لامر نقه على عيسى المذكور فحضروا اليه في قلة من قومهم وهم لا يعلمون بسوء نيتهم فقبض عليهم في الحال وسيرهم الى مصر فحبسوا في قلعة الجبل وعاد السلطان خلفهم فوصلها في رجب من السنة وجعل يتصرف في الامور فظهرت عليه علامات الخيلاء وتبدلت أحواله وتغيرت طباعه وأساء معاملة رجال الدولة وكافة الناس وتخوف لافل سبب فانخرقت الخسواطر عنه وأبغضه الامراء وتمنوا هلاكه * وكانت طائفة الكتاب من القبط الى سلطنته في صدر الدولة ولهم الكلمة النافذة والرأى المسموع وقد أحبهم الامراء الخاصكية كثيرا ومالوا اليهم جدا وكان منهم كاتب عند خاصكي يعرف بعين الغزال فوجد يوما في طريقه بمصر سمسارا بشونة مخدومه فلما رآه السمسار نزل عن دابته وسلم عليه فسأله الكاتب عن مال تأخر عليه من ثمن غلة الأمير وأمر غلامه فنزل وأمسك السمسار وسار به نحو دار الأمير فصاح السمسار فجمع الناس وكثرت العامة وعلت بينهم الضوضاء حتى صار الى صليبة جامع ابن طولون والناس يكثررون وكان قد قرب الكاتب من بيت أسناده فأحاط العامة بالكاتب وألقوه عن دابته وخلصوا السمسار من غلامه فسبق الغلام الى بيت الأمير ليستنجد به فجاءت طائفة من غلمان الأمير فخلصوا الكاتب من العامة وشرعوا في القبض عليهم فصاحوا هذا ما يحل ومرروا مسرعين الى أن وقفوا تحت قلعة الجبل وصاحوا نصر الله السلطان وأكثروا من الضجيج والصياح فأرسل من يكشف الخبر فعرفوه ما كان من أمر الكاتب والسمسار وما وقع منهما فغضب السلطان وطلب الكاتب ورسم للعامة باحضار النصراني اليه وطلب الأمير بدر الدين بيدر النائب والأمير سنجر النجاشي ورسم لهما باحضار جميع النصراني بين يديه ليقتلهم فما زال به حتى استقر الحال على أن ينادى في القاهرة ومصر بأن لا يخدم أحد من النصراني أو اليهود عند أمير وأمر الامراء كافة بأن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصراني الاسلام فمن امتنع ضربت عنقه ومن أسلم استخدموه عندهم ورسم للنائب بان يعرض على جميع مباشرى الديوان السلطاني ويفعل بهم كذلك فنزل الطاب لهم فصارت العامة والحرافيش تسبق الى بيوتهم وتنهبها حتى عم النهب بيوت جميع النصراني واليهود وأخرجوا نساءهم سبايا وقتلوا جماعة منهم بأيديهم فقام الأمير بيدر مع السلطان لرد العامة وركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصراني حل دمه وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ماضربهم فانكفوا عن النهب بعد ما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا جماعة بها * ثم جمع النائب جماعة من كتاب السلطان

والامراء وأوقفهم بين يدي السلطان فرسم للشجاعي والامير جاندار أن يأخذا عدة معه ما وينزلوا الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ويحفرها حفرا كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب نارا فتقدم الامير بيدر وشفع فأبى أن يقبل شفاعته وقال ما أريد في دولتي ديوانيا نصرانيا فلم يزل به حتى سمع بأن من أسلم منهم يستقر في خدمته ومن امتنع ضربت عنقه فأخرجهم الى دار النيابة وقال لهم يا جماعة هذا ما وصلت قدرتي اليه مع السلطان في أمركم وقد قبل شفاعتي على شرط وهو أن من اختار منكم دينه قتل ومن اختار الاسلام خلع عليه وبأمر خدمته فابتدعه المكيين بن السقاعي أحد المستوفين وقال ياخوند وأي شيء تختارونه منا الآن قولوا لنا ما تختارونه ونحن نتبع قولكم فغلب الامير بيدرا الضحك وقال وبحك يا مكيين أختار غير دين الاسلام ثم أمر فأحضروا العدول واستسلمهم جميعا وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بها على السلطان ثم خرجوا الى مجلس الوزير صاحب شمس الدين محمد بن السلعوس فبدأ بعض الحاضرين بالمكيين بن الصقاعي وناوله ورقة ليكتب عليها وقال يا مولانا القاضي اكتب على هذه الورقة فأجابه على الفور * يا بقاء الله ما كان لنا هذا القضاء في خلد * فأعجب القوم بفصاحته وسرعة خاطره في هذا الوقت الضيق وتوجهوا لحالهم جدا وراجع الامراء السلطان في أمرهم وألحوا عليه فأجابهم الى ما يطلبون فكانت حاله من أشد الاحوال وأنكها مات فيها من الاطفال والشيخ والرجال عدد كثير وبلغت فعال العامة بأصحاب البيوتات من النساء مبلغا عظيما للغاية فكان يخرجن حاسرات مكشوفات الوجوه هائعات في الطرق والحارات لا يعرفن للسلامة سبيلا وكان الامير بيدرا يرق لحالهن ويتوجع لمصابهن فأعجل ذلك السلطان وندم على ما بدا منه وتوجع كثيرا وقد كثرت خطاه وخطه وأخذ للناس بالشبهات وتخوفه من ممالكه وأمراء دولته حتى من أقرب الناس اليه وأخصهم به فشدد وهدد وبالغ في التحرز فكرهه ممالكه وتفرقوا عنه وجعل الامير بيدرا يراقب الفرص للايقاع به والتخلص من شره فلما كان أول المحرم افتتح سنة ثلاث وتسعين وستمائة خرج من قلعة الجبل يريد الصيد وسار في طائفة من الجند الى أن وصل تروجة بالجيزة ونصب دهليزه وركب في نفر قليل من خواصه وخرج للصيد فقصده ممالك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولاچين الذي كان متوليا نيابة السلطنة بالشام وكان قد اعتقله السلطان مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذي كان خلعه عن نيابة السلطنة بحلب وبهادر رأس النوبة وجماعة من الامراء فلما قاربوا السلطان خاف منهم وأرسل اليهم أميرا يقال له كرت أميرا خور ليكشف خبرهم وسبب هجيتهم في هذا الحين فلما وصل اليهم أمسكوه على الفور وقاربوا السلطان وكان بينهم وبينه خور نقاضوه ووصلوا اليه وتقدم بيدرا نحو وعاجله بضربة بسيفه ثم فعل به كذلك لاچين حتى مات وتركوه ملقى على الارض فمسه أيد مر الفغري والى تروجة الى القاهرة فدفن في تربته التي أنشأها بجوار مشهد السيدة نفيسة وذلك في الثالث عشر من المحرم المذكور فكانت مملكته ثلاث سنين وشهرين ليس الا

وفرّح الناس بموته فرحا عظيما فكافوا لايد كرونه الا بالعنات

واتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا الذي هو مملوكه وأن يلقبوه بالملك
القاهر فساروا على هذا العزم نحو قلعة الجبل فاجتمعت عنده ذلك مماليك السلطان
الملك الاشرف وانضموا الى زين الدين كتبغا المنصوري وساروا في أثر بيدرا ومن معه
فلحقوهم عند الطرانة في خامس عشر المحرم فاقتتلوا فانهزم بيدرا وأصحابه وتفرقوا في الاقطار
فتبعوا بيدرا حتى لحقوه واحتزوا رأسه ورفعوه على ربح واختفى لاجئين وقراسنقر ولم يطلع
لهما على خبر ووصل زين الدين كتبغا وجماعة المماليك السلطانية بعد قتل بيدرا الى قلعة
الجبل وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائباً وانفقوا على تولية السلطان الملك الناصر بن السلطان
الملك المنصور فأجلسوه على تخت السلطنة في العشر الاواسط من المحرم وعمره يومئذ
تسع سنين وتقرر أن يكون الامير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة وعلم الدين سنجر
الشجاعى وزيرا وركن الدين بيسرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار وتبعوا الاحمراء الذين
اتفقوا مع بيدرا على قتل الملك الاشرف فظفروا أولا يهادر رأس النوبة وأقوش الموصل
الحاجب فضربت أعناقهما وأحرق جثثهما ثم ظفروا بطرنطاي الساقى وإتاق ونفيسة
وأروس السلدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجدار وآق سنقر الحسامى فاعتقلوا بخزانة البنود
أياما ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجبال وطيف بهم وأيديهم معلقة في أعناقهم
وقبض بعد أيام أيضا على مختار الساقى فشنق * وتوافق زين الدين كتبغا والشجاعى على
القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الاشرف فقبضا عليه وتولى
الشجاعى معاقبته واستصنى ماله وقتله وكان ابن السلعوس قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة
وعكس في الدولة وصارت الامور كلها له وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق
فلما صار الى هذه الحالة أرسل فأحضرهم بمصر فحضروا جميعا الا شخصا منهم فانه استمر
مقيما وكتب الى ابن السلعوس يقول

تبه ياوزير الارض واعلم * بأنك قد وطئت على الافاعي

وكن بالله معتصما فاني * أخاف عليك من نهش الشجاعى

ولم تمض مدة طويلة حتى وقعت الوحشة بين الامير زين الدين كتبغا وعلم الدين
سنجر الشجاعى المذكور فصار مع كل منهما جماعة من الاحمراء واشتد الامر بينهما واستفحل
الخلاف فنزل كتبغا ومن معه من قلعة الجبل وبقي سنجر وأصحابه بها لا يبرحون فحصره
كتبغا وما زال حتى غلب عليه وقتله واحتز رأسه وطيف به في البلد وذلك في صفر من
السنة أى سنة ثلاث وتسعين وستمائة فلما شاع خبر موته ظهر حسام الدين لاجين وشمس
الدين قرا سنقر من الاستنار بعد الغيبة فأخذ لهما زين الدين كتبغا الامان من السلطان
وقرر لهما الاقطاعات الجليلة وأعز جانبهما وأخذ زين الدين المذكور من هذا الحين يعمل

على اختلاس الملك من أستاذة الملك المنصور فلما كان يوم الأربعاء ناسح المحرم افتتاح سنة أربع وتسعين وستمائة أزال من طريق مقاصده ما كان يحول دون الوصول إليها وخلع السلطان الملك المنصور من تحت السلطنة وجلس هو على سرير الملك ولقب نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا واستخلف الناس على ذلك خلفوا وخطب له على منابر مصر والشام ونقشت السكة باسمه ثم قبض على السلطان الملك الناصر ووضعه في قاعة بقلعة الجبل وحجبه عن الناس فصار لا يراه أحد ولا يسمع بغيره فكانت مدة ملك السلطان الملك الناصر المذكور سنة الأيام

ولما استتب الأمر لزين الدين كتبغا جعل نائبه في السلطنة حسام الدين لاجين الذي كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الأشرف وأخرج عن الأمير مهنا أمير العربان وأخوته وابنه عيسى وزودهم وسيرهم إلى بلادهم وخرج في شوال من السنة يريد الشام فوصل دمشق وأقام بها أياما وقد نغم على عز الدين أيك الحموي نائب السلطنة بالشام أمورا فخلعه وولى مكانه سيف الدين أحمد مماليكه وقام من دمشق في أوائل المحرم افتتاح سنة سبع وتسعين وستمائة بالعسكر متوجها إلى مصر فلما وصل إلى نهر العرجا واستقر بدهليزه وتفرقت مماليكه وغيرهم إلى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب السلطنة بسنجفه ونفاره وانضم إليه بدر الدين البيسري وفرا سنقر المنصوري وسيف الدين قبطاق المنصوري وبهادر الظاهري وغيرهم من كبار الأمراء وكانوا قد اتفقوا مع لاجين نائب السلطنة على الغدر بالسلطان كتبغا المذكور لبغضه لهم واعراضه عنهم إلى بعض خواصه وباغته عند الظهر في دهليزه بالمنزلة المذكورة فلم يتمكن من جمع أصحابه وركب في نفر قليل لحمل عليه نائبه لاجين فقتل يكتول الأزرقي ونجاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل هاربا راجعا إلى دمشق حيث كان بها مملوكه عزلو ووصل إليها فركب مملوكه عزلو المذكور والتقى به ودخل إلى قلعة دمشق واهتم بجمع العساكر والتأهب للقتال مع لاجين فلم يوافقهم عسكر دمشق على ذلك ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة وأبى بقلعة دمشق وأرسل إلى حسام الدين لاجين يطلب منه الأمان وموضعا يأوي إليه فاعطاه صرخد فسار كتبغا إلى صرخد واستقر بها إلى أن كان من أمره ما سيذكر في حينه * وأما حسام الدين لاجين فإنه لما هزم العادل كتبغا على ما ذكر نزل بدهليزه عند نهر العرجا واجتمع مع الأمراء الذين وافقوه على ما بدا وشرطوا عليه شروطا فالتزمها فكان من تلك الشروط أن لا ينفرد عنهم برأى ولا يغري مماليكه بهم كما فعل كتبغا فأجابهم إلى ذلك وحلف لهم واستخلفهم على الطاعة خلفوا وابعده بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وذلك في المحرم افتتاح سنة ست وتسعين وستمائة فكانت مدة ملك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري سنتين تقريبا إلى أن خلع ولما بايع الأمراء الملك المنصور حسام الدين لاجين رحل من فوره بالعسكر إلى مصر

ووصل اليها فدخلها في أبهة زائدة وصعد الى قلعة الجبل واستقر بها وجعل يتصرف في
 الامور ويرتب الاحوال على ما يريد ثم سير الامير سيف الدين منبجى الى دمشق وجعله نائب
 السلطنة بالديار الشامية وأخرج السلطان الملك الناصر من مقلده بقلعة دمشق وسيره الى
 الكرك محبة سلال فأوصله اليها وتركه بها وعاد سلال الى مصر وأفرج كذلك عن بيبرس
 الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم واعتقلهم في أبيهم * وتآقت
 نفسه الى النسبه بكار الملوك عن سلفه في الغزو والفتوحات فحشد جيشا عظيما وسار
 الى بلاد الروم فلم يفتح الله عليه شئ منها الا القليل جدا في جانب ما فقد من المال
 والرجال وذلك لانحراف قلوب الامراء عنه وتسليم أموره الخصوصية الى الاحداث من
 المماليك الذين اصطفاهم لنفسه وعينهم لخدمته وكان القائم عليهم شخص اسمه سيف
 الدين طغجي * قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض الامراء له ما فعله بهم من أخذ
 جانب من اقطاعاتهم وإخراجهم من دواوينهم وجعله لهم ولجميع العساكر والاجناد أحد
 عشر قيراطا بدل عشرين وقد كانت القاعدة الى سلطنة الملك المنصور لاجين أنهم اعتبروا
 أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا فخصوا السلطان منها بأربعة والعساكر والاجناد بعشرة
 وسائر الامراء بعشرة ولما كان الامراء هم المتولين ادارة شؤون جميع العساكر في السلم
 والحرب كانوا لا يعطون للعسكر من اقطاعهم الا بقدر الحاجة وربما أقل بكثير أولا
 يعطونهم ويضمون ما يستغل منها الى دواوينهم الخصوصية فكثرت لذلك اقطاعات الامراء
 وأوى اليها أهل الشقاوة والفساد فعانوا فيما جاورها من البلاد والقرى والمزارع وقطعوا
 الطرق على المارة وأبشوا السبل وعجز الولاة عن ردعهم خوفا من اغضاب الامراء وكانت
 الحقوق الديوانية تمنع من هذه الاقطاعات فكانت طعمة لاعوان الامراء فلما تولى السلطنة
 الملك المنصور لاجين رآه جميع البلاد ورد تلك الاقطاعات على أربابها وأخرجها جميعها من
 دواوين الامراء ورتب للامراء وجميع الاجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة لحاجة
 العسكر عند الاقتضاء وحرر أوراقا بما يكفى الامراء والاجناد * فلما أيس الامراء من رجوع
 الاحوال الى ما كانت عليه قبل سلطنة لاجين وقد أحسوا بهزم السلطان على الايقاع بهم
 عمدوا الى قتله واختاروا لذلك جماعة من مماليكه فلما كانت ليلة الجمعة حادى عشر ربيع
 الآخر سنة ثمان وتسعين في أوائل الليل دخل عليه جماعة من أولئك المماليك وهو يلعب
 بالشطرنج وتقدم أحدهم نحوه واسمه سيف الدين كرجى وضربه بسيفه وقتلاه بالافون
 بسيفهم حتى قتله وطلبوا مملوكه ونائبه منكوتر فهرب واستجار بسيف الدين طغجي
 الاشرقى مقدم المماليك فأجاره وبعث به الى الحب فحبسه هناك ثم بعد استقراره في الحب
 توجه اليه كرجى الذى قتل السلطان ومعه جماعة وأخرجوه وذبحوه على رأس الحب وباتوا
 ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جلس طغجي مقدم المماليك في موضع النيابة وأمر ونهى * قال
 كتاب الاخبار وكان هنالك جماعة من كبار الامراء المتقدمين مثل حسام الدين استاذ الدار

وبيسبرس الجاشنكير وغيرهم فأخذهم أخذ الغيظ مما فعله طغجي فانفقوا على الوقعة به
 وإعادة الملك الى السلطان الملك المقيم بالكرك الذي تقدم الكلام عنه واتفق في هذه الاثناء أن
 حضر بعض العسكر الذين كانوا في حلب ومعهم أمير السلاح وغيره من الامراء فأشار الامراء
 المتأمرين على طغجي المذكور بالركوب للقاء أمير السلاح فامتنع فعاودوه فأجاب وركب
 من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجي فأنزل السلطان الملك المنصور لاجين فلما اجتمع الامراء
 بأمر السلاح تحدثوا فيما فعله أولئك الصبيان من قتل السلطان وبالغوا في الامر واتهموا
 طغجي المذكور بفعله وكان طغجي جالسا بينهم فأنكر ذلك وبأنه في الانكار فقام عليه
 الامراء بالسيوف فهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجي بقلعة الجبل فهرب فاتبعوه وقتلوه
 أيضا وذلك في ربيع الآخر من السنة فكانت مدة ملك حسام الدين لاجين الملقب بالملك
 المنصور سنتين وثلاثة أشهر وقيل سبعة وأربعين يوما لم يأت فيها بعمل يذكر ولا يعرف يشكر
 ولما قتل الملك المنصور وطغجي على الوجه المذكور اتفق الامراء كافة على إعادة
 الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون الى مملكته فبعثوا اليه
 سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولي الى الكرك فأحضراه الى مصر وصعد الى قلعة
 الجبل في أجرة وكبكية عظيمة فلما كان يوم السبت رابع عشر جمادى الاولى من السنة
 أى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة أجلسوه على سرير الملك وطيروا الخيل بذلك الى الآفاق
 وضربت السكة باسمه فكانت هذه ولايته الثانية واتفق معه الامراء على أن يكون سيف
 الدين سلا رنائب السلطنة وبيسبرس الجاشنكير أستاذ الدار وبكتر الجوص كندر أمير جندار
 ففعل وفوض نيابة السلطنة بالشام الى جمال الدين أقوش الافرم وأفرج عن شمس الدين
 قراسنقر من الاعتقال وكان له فيه نحو سنة وشهرين ثم سيره الى الصبية وقد كانت البلاد
 بغير ملك مدة أحد وأربعين يوما الى أن حضر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المذكور
 وعاود التنار الكرك في أيام الملك الناصر على بلاد الشام فعبثوا بالفرات في شهر ربيع
 الآخر سنة سبعمائة فخلفت منهم المسلمون ودخلت بلاد حلب وسارقا سنقر بعسكر حلب
 الى حماة وبرز زين الدين كنبغا وعسكر حماة الى ظاهر البلد ووصل العساكر من دمشق
 أيضا واجتمعوا بحماة ونزل التنار على سرين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون
 فكبر الامر على السلطان واستعظمه جدا وسار في عسكره ووصل الى العرجاء وكان الوقت
 شتاء فانفق أن هطلت الامطار بشدة زائدة فاشتدت الاحوال حتى انقطعت الطرقات
 وانقطعت الاقوات وعجز السلطان والعسكر عن القيام على تلك الحال فرحلوا وعاودوا الى
 مصر وبقيت التنار تعيث وتفسد وتفعل بالبلاد مالا خير فيه نحو ثلاثة أشهر ثم رحلوا الى
 بلادهم فرجع عسكر حلب ولم يستقر بالسلطان المقام بعد رجوعه حتى تغيرت عليه قلوب
 الامراء وقامت الفتنة بسبب تولى بعضهم المناصب دون البعض الآخر وتحزبوا وتفرقت
 كلمتهم وكاد يتعذر على السلطان تلافي الأمر وبينما هم على هذا الحال من الاضطراب

والاختباط اذ مات الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله في ليلة الجمعة ثامن عشر جادى الاولى سنة احدى وسبعمائة فارسل نائب السلطنة خلف جميع من في البلاد من الامراء والقضاة والعلماء والصوفية ومشايخ الزوايا والرباطات وغيرهم ليحضروا للصلاة على الخليفة فكان المجتمعون خلقا كثيرا جدا وبعد الصلاة عليه دفنوه بجوار السيدة نفيسة في قبة بنيت له فكان الخليفة المذكور أول خليفة مات بمصر من بنى العباس وكانت خلافته أربعين سنة وأشهرها ولم يكن له من الامر شئ سوى الامامة والخطبة في صلاة الجمعة

قال أبو شامة ولاخلفه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتم ملاحظة عن سببه ورعى لوده نعمة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة وقال غيره خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين وستمائة بسؤال الملك الأشرف له ذلك وذكر في خطبته تولية السلطنة للأشرف ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورة بحضرة السلطان والقضاة وحض على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم وذلك سنة تسعين وستمائة في ذى القعدة ثم خطب مرة رابعة في التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة احدى وتسعين وحث على الجهاد والنفير وصلى بالناس الجمعة وجهر بالبسملة * وقال الذهبي في العبر آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ولم يخطب بعده خليفة الا الحاكم العباسى هذا فإنه خطب في خلافته * وقال ابن فضل الله لما ملك المنصور لاجين زاد في اكرامه أى في اكرام الخليفة الحاكم بأمر الله وصرفه في الر كوب والنزول فبرز الى قصر الكباش وسكن به ثم انه حج في سنة سبع وتسعين وستمائة فاعطاه المنصور لاجين ستمائة ألف درهم ورجع من الحج فأنهم بمنزله الى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جادى الاولى سنة احدى وسبعمائة ودفن بجوار السيدة نفيسة اه

ومات في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله مرقس بطررك الاسكندرية فكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفي أيام مرقس هذا انتقل مرقس بن قنبر وجاعة من القنبرة الى رأى الملكية وبالغوا في نصرة الملكيين أياما كثيرة فاستعظم المتأصلون هذا الامر وكثريين الفريقين الاخذ والرد الى أن عاد القنبرة الى المتأصلين فقبلوا فلم يلبثوا الا القليل حتى ارتدوا الى الملكية ثم رجعوا فلم يقبلوا وكان مرقس بطررك المذكور ذا همة ومروءة عاقلا رزينا حازما يحسن السياسة والتدبير وكان جليلا مهيبا مقبول الكلمة واحترقت في أيامه كنيسة أبو مرقوره وخلا بعد موته الكرسي سبعة وعشرين يوما ثم أقيم يوحنا بن أبى غالب وهو رابع سبعهم من أهالى مصر وكل بالاسكندرية وكان من طائفة التجار يتردد الى اليمن في البحر حتى كثر ماله وكان معه مال لأولاد الخلباب فانفق أنه غرق في البحر الاحمر وذهب جميع ماله ونجا بنفسه الى القاهرة وقد أبس أولاد الخلباب من مالهم فلما بلغهم خبر حضوره قابلوه فأعلمهم أن مالهم قد سلم لانه كان قد جله في نقائر خشب مسمرة في المركب فصار لهم به من هذا الحين عناية

كبرى فلما مات مرفس البطرك سعى يوحنا المذكور للقس أبى باسريوليوس بطركا قيل
فقال له أولاد الخباب خذ أنت البطركية ونحن نزيك فوافقهم يوحنا على ذلك فسعدوا له
وأقاموه بطركا فشق الامر على أبى باسري وهجره بعد صحة طويلة وكان معه لما استقر في
البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء وأبطل الدبارية ومنع الشرطونية
ولم يأكل لأحد خبزا ولم يقبل من أحد هدية حتى مات رحمه الله تعالى
ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله قام بالخلافة بعده ولده أبو الربيع سليمان ولقب
بالمستكنى بالله وكان أبوه قد عهد اليه بالامر قبل وفاته فبويع بغير خلاف ولا جدال

(الفصل الثالث)

(فى خلافة المستكنى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله)

ثم قام بالامر بعد الحاكم بأمر الله ولده المستكنى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم
بأمر الله بويع له فى العشرة الاواخر من جمادى الاولى سنة احدى وسبع مائة هجرية أى سنة
احدى وثلثمائة وألف ميلادية وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وسائر
البشائر بذلك الى جميع الاقطار والممالك الاسلامية * قال ابن كثير قدم البريد من القاهرة
سادس عشر جمادى الآخرة فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ومبايعة المستكنى
وأنه حضر جنازته الناس كلهم مشاة فخطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة
المستكنى بجامع دمشق وكتب له تقليد بالخلافة وقرئ بحضرة السلطان والدولة يوم الاحد
العشرين من ذى الحجة ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده حتى سأل الشيخ تقي الدين بن
دقيق العيد وهو قاضى القضاة يومئذ هل يصلح للخلافة أم لا فقال الشيخ تقي الدين نعم يصلح
قال وانما احتيج الى ذلك لانه كان صغير السن لم يبلغ عشرين سنة فان مولده كان فى أربع
وثلاثين وستمائة وكان له ابن أخ أسن منسه فكان ينازعه الامر فلما أشار الشيخ باستخلافه
أمضى عهد والده فكان العهد هكذا

الحمد لله الذى رفع المستكنى به لما اتصّب بشريف همته للعمل الاسمى * ومنع الأمة
به بربيع خفض العيش وحزم أمرهم على الصلاح والتوفيق حزما * وأدام الأئمة من قريش
وتظم لآلئ حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما * وجعل الناس تبعاً لهم فى هذا الامر
فغيرهم بالخلافة العظمى لا يدعى ولا يسمى * فالحاكم الحسين المسترشد المستظهر بذخيرة
الدين القائم بأمر الله القادر المقسدر الموفق المتوكل المعتصم الرشيد المهدي الكامل من
اقتنى لسنن سنتهم رسما * استودع الخلافة فى بنى العباس الذى كان لنبيه الكريم عبا *

وفرج عنه ليلة العقبة بمبايعة الانصار كربا ونحما * فبشره بأن الخلافة في عقبه فعمه
بالسرور عما * فلما انتهى ذلك السر في العوالم الى الحاكم قيل وقد نكبت هيئة الخلافة
عن معرفته حقوقها العظيم من كل عظيم ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما * أحده
جد من لم يثن عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزما * والله يؤتيها من يشاء من خلقه
اختيارا ونحما * وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي دعا الى مودة أولى القربى وهم أفضل
قربة زكاة وأقرب رحما * صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وخلفائه وعترته الذين هم أعسل
البرية حكما * وبعد فان الملك السلام منذ أسجد لآدم ملائكته الكرام في سالف الازمان
قدما * جعل طاعة خلفائه في بلاده على سائر عبادته حقا كيف لاوبهم يعمر الوجود وتقام
الحدود وتهدم أركان الجور هدمما * فبجباتهم تأمن البلاد وربما تصادف قرب وفاتهم أن
لبس القمر ليلة التمام حلة السواد وأخفى جرما * ولما كان سنة من تقدم من الأئمة الخلفاء اذا
خاف أن يهجم عليه الجاهل هجما * ولا تهدي اليه الايام ألما وسقا * تفويض الامر بولاية
العهد الى الخلق لخير ذريته وبنيه نجدة وحزما * أشهد على نفسه الشريفة مولانا الامام
الحاكم الحاكم عليه تقواه * المراقب لله في سره ونجواه * الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين
ونخليفة رب العالمين * ابن عم سيد المرسلين وارث الخلفاء الراشدين * أبو العباس أحمد ابن
الأمير الحسن بن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبي منصور الفضل بن أمير المؤمنين المستظهر
بالله أبي العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبي القاسم عبد الله ابن المرحوم الذخيرة للدين ولي
عهد المسلمين محمد ابن الامام القاسم بأمر الله أبي عبد الله محمد بن القادر بالله أبي العباس
أحمد ابن أمير المؤمنين أبي الفضل جعفر المقدر بالله ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبي
العباس ابن الأمير محمد الموفق بالله أبي طلحة ولي عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين جعفر
المتوكل ابن أمير المؤمنين أبي اسحق محمد المعتصم بن هرون الرشيد ابن أمير المؤمنين محمد
ابن أمير المؤمنين عبد الله حبر الأمة بن عباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم
أعز الله به الدين * وأمتع ببقاء نسله الشريف الاسلام والمسلمين * وهو في حالة يسوغ معها
الاشهاد عليه * ويرجع في الامور المنوطة للخلافة الشريفة اليه * أنه عهد الى ولده لصلبه
الامام المستكنى بالله أبي الربيع سليمان شيد الله به أركان الايمان * ونصير بركة سلفه
العصابة المحمدية على أهل الكفر والطغيان * وجعله ولي عهده واستخلفه من بعده لما يعلمه
من أهليته * وعدالته وكفاله وصلاحه لذلك وكفايته * وأشخصه لشهود هذا المكتوب
الشريف * ونبه على استحقاقه لذلك ومجمله العالي المنيف * عهدا صحيحا شرعيا * معتبرا
ناما مرعيا * وفوض اليه أمر الخلافة العظيمة تفويضا شرعيا صريحا * وعقد له عقد
ولاية العهد على الامة عقدا صحيحا * وقبل ذلك منه القبول الشرعي * المعتبر المرضي *
فأله تعالى يجمع به كلمة الاسلام * ويعجبه في خلافته الشريفة رأيا موقفا ويقع ببركة
سلفه الكرام أهل الطغيان * ويهيئ له من أمره مرفقا بمنه وكرمه آمين * والحمد لله رب

العالمين * وصلواته على سيد المرسلين * نبيه وآله وصحبه أجمعين * وبه شهد في اليوم المبارك التاسع عشر من جمادى الاولى سنة احدى وسبع مائة أحسن الله العقبى في ختامها * وأجرى الخيرات فيما بقي من شهورها وأيامها اهـ

ولما بايعه السلطان والقضاة والاعيان ألبس جبة سوداء وطرحه سوداء وخلع السلطان على أولاد أخيه خلع الامراء وأشهد عليه أنه ولي الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوض اليه جميع الامور ثم نزل في داره بالكبش ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم ثم رسم السلطان بعد ذلك أن ينتقل هو وأولاده وجميع من يلوذ به الى قلعة الجبل اكراما لهم وتعظيما فانتقلوا في جمادى الآخرة ونزلوا في دارين منها وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة واستمر هو والسلطان دهرًا كالاخوين يلعبان بالاكرة ويخرجان الى المنتزهات ويسافران معا الى غزو التتار حتى وشى الواشى بينهما وكان من أمرهما ما سيذكر في محله ان شاء الله

ولما دخلت سنة اثنين وسبع مائة نزل بديار مصر نازلة لم يسبق لها مثيل فقد زلزلت الارض زلزالا عظيما فانشقت الصخور وهدم كثير من المباني والدور بمصر والقاهرة والاسكندرية وغيرها ومات خلق كثير تحت الردم ودمرت من أسوار مدينة الاسكندرية سنا وأربعين بدنة وكانت القتلى ثنن ونسفت تحت الردم والناس في دهشة لا يلتفتون اليهم بل كل مشغول بنفسه قال كتاب الاخبار فكانت ساعة يالها من ساعة تشيب من هولها الولدان وبقيت الخرائب دهرًا فكافوا اذا أرادوا حمل ما انهال من ترابها ظهرت جثث النساء والرجال والاطفال على هيئات مختلفة تنفطر من رؤيتها القلوب واستمروا على هذا أياما كثيرة وعم الخوف الناس وأخذ من قلوبهم وتطبروا من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فانهزفت قلوبهم عنه وتطاولت أيدي بعض الامراء الى العبث بأمرور المملكة وظهر سلا رنائب المملكة ويبرس الجاشنكير أستاذ الدار واستبدا بالأمر وتجاوزوا الحد في الانفراد بالاموال والأمر وانتهى ولم يتركوا للسلطان غير الاسم وحصره في قلعة الجبل أياما كثيرة حتى قبل جميع ما طلباه صاغرا وكان كلما هم بالخلاص صادفه من الشدة ما يقعه وطال عليه الحال فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وسبع مائة أظهر الرغبة في الخروج الى الحج وأخذ في التأهب والاستعداد وخرج في الخامس والعشرين منه فسار في خدمته جماعة من الامراء هم عز الدين ايدمر الخطيرى والامير حسام الدين قرا لاجين والامير سيف الدين آل ملك وغيرهم فسار الى الكرك ووصل اليها في عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقوش الاشرفي فعمل الولائم واحتفل بالسلطان احتفالا عظيما فعبه السلطان الى المدينة ثم الى القلعة قال بعض الكتاب ولما عبر على الجسر الى القلعة والامراء تمشى بين يديه والمماليك حوله وخلفه سقط جسر القلعة وقد أصيبت يد فرس السلطان وهورا كب داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حتى كاد أن يدوس الامراء المشاهدين بين يديه وسقط في الخندق من المماليك وأهل الكرك عدد كثير ونزل في

الوقت السلطان عند الباب وأمر فأحضروا الجنبات والحبال ورفعوا الذين سقطوا في الخندق جميعا * ولما استقر به المقام أمر من كان معه من الامراء بالرجوع الى مصر وكشفهم على أنهما أظهر السفر الى الاقطار الخازية وسيلة الى المقام بالكرك وعدم العود الى مصر تخلصا من فعال سلاور وبيبرس الجاشنكير فراجعهم الامراء في ذلك فلم يقبل وأصر على البقاء بالكرك فعاد الامراء الى مصر وأعلموا من بها بالخبر وتشاوروا فيما بينهم وانفقوا على أن يولوا السلطنة بيبرس الجاشنكير وأن يكون سلاور مستمرا على نيابة المملكة كما كان عليها وحلفوا جميعا على ذلك

فلما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وسبعمائة خرج بيبرس من داره راكبا في شعار السلطنة وحوله الامراء والمماليك على اختلاف طبقاتهم وأمامه الجنائب السلطانية وسار الى الديوان الكبير بقلعة الجبل وجلس على سرير الملك ولقب بالملك المنظر ركن الدين بيبرس المنصوري وطير الخبر الى نواب السلطنة بالشام خلفوا له وكتب تقليدا الى السلطان بالكرك ودستورا بما عينه له من الاقطاع وأرسلهما اليه * قال كتاب الاخبار واستقر الحال على ذلك بلا منازع حتى خرجت هذه السنة فكانت مملكة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية نحو العشرين سنة * ولما استقر بيبرس المنصب استبد بالامر وأساء التدبير وأظهر الشدة والجفاء للكثير من الامراء فانخرقت خواتمهم وابتعدوا عنه وظهرت بينهم دلائل الوحشة والنفور ونزع عن مصر منهم جمال الدين أفرش الموصلي المعروف بقتال السبعة وهو من مماليك بدر الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك لاجين الجاشنكير المعروف بالزرتاج ومعهما زهاء ألفي فارس من عسكر مصر وبعض من عسكر حماة قاصدين حلب فدخلوها وكان نائب السلطنة فيها يومئذ قرا سنقر المنصوري وانفق أن حضر أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهري فسرق قرا سنقر بقدمهم وعمد الى تهديد السبل لارجاع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى كرسي السلطنة فجعل يستميل الناس الى طاعة السلطان ويستجدهم لنصرته وخرج أيضا جماعة من المماليك على حيلة وغيظ مفارقين طاعة بيبرس المذكور وساروا الى السلطان بالكرك وأعلموه بما عليه الناس من طاعته ومحبة وبغضهم لبيبرس فتقوت عند ذلك آمال السلطان وأعاد خطبته بالكرك ووردت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته وكذلك وردت اليه المكاتبات من حلب فسارع معه من الكرك في جادى الآخرة الى قرية عمان وهي قريب من رأس الماء ونزل بها لجأه أحد مماليك قرا سنقر نائب السلطنة بجماعة برسالة مذكورة على قرا سنقر الى السلطان بعدم تعويله على ما وردت به كتب أولئك الطامعين وسرعة رجوعه الى الكرك فصدق السلطان هذا الخبر وظنه حقا وعاد مسرعا الى الكرك فيمن معه من العساكر واستمرت العساكر مع ذلك على طاعته واستدعائه وانحلت في هذه الفترة حكومة بيبرس

أو كادت وجاهره الناس بالعداوة وأظهروا الخلاف وانعكست الأمور عليه وخرج أغلب الجند عن الطاعة فرحل من كان بحماة من الجند والعساكر بغير دستور ولا مرسوم ولم يسبق بحماة إلا بعض العسكر المصري * ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العسكر له وخروجهم عن طاعة بيبرس وبقاء العسكر الشامي جميعه على الاخلاص والولاء عاود المسير الى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق الى لقائه وكان نائب السلطنة بدمشق أقوش الأفرم وهو من الطائعين لبيبرس فلما لم يقدر على منع العسكر من الخروج هرب من دمشق فدخلها السلطان في يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان من السنة وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الابلق فأرسل الأفرم اليه بطلب الامان فأمنه فقدم الى طاعته وتتابع وصول العسكر لنجدة السلطان من حماة والساحل ووردت عساكر الشام جميعا فلما تكاملوا رسم لهم السلطان بالتأهب للمسير الى ديار مصر وأرسل الى الكرك فأحضر ما كان بها من الخواصل وأنفق في العسكر ثم سار بهم من دمشق في يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ثمان وسبعمائة * فلما بلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه بمصر ما فعله السلطان خافا جدا وجرى بيبرس عسكرا عظيما مع الأمير برلني وغيره من المتقدمين فساروا الى الصالحية وأقاموا بها وكان برلني المذكور من أكبر أصحاب الجاشنكير وأعزهم اليه وسار السلطان بجيشه حتى وصل غزة في يوم الجمعة تاسع عشر رمضان فلم يشعر عسكر مصر بوصول السلطان الى غزة حتى أخذوا يتقدمون له بالطاعة فريقا بعد فريق وكان ممن قدم له الطاعة أيضا برلني قائد الجيوش وغيره من المتقدمين وكثير من العساكر ثم تتابعت الطلاب وكان السلطان يلقي في كل يوم وهو سائر طلبا بعد طلب من الامراء والمماليك والاجناد يقبلون الارض ويسيرون بين يديه قاصدين الديار المصرية ووردت الاخبار بذلك الى بيبرس فأسرع في خلع نفسه وسير ركن الدين بيبرس الدوادار ومعه بهادر أص الى السلطان في طلب الامان وأن يتصدق عليه ويعطيه اما الكرك واما حماة أو صهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه فأجابه السلطان الى مائة منهم وأن يعطيه صهيون وأسرع مع ذلك في المسير الى مصر فهرب الجاشنكير من قلعة الجبل الى الصعيد وخرج سالرا الى طاعة السلطان والتقاء يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع بركة الحاج وقدم نحوه ثم ضرب للسلطان الدهليز بالبركة فلم ينزل به ورحل في نهاره ومعه العسكران الشامي والمصري فوصل الى قلعة الجبل من يومه وصعد اليها وجلس على سرير الملك بعد العصر في نهار الاربعاء مستهل شوال سنة تسع وسبعمائة فكانت هذه أيضا سلطنته الثالثة

وفي يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من دخول السلطان القاهرة سار سالرا من قلعة الجبل الى الشويك بحكم من السلطان حيث أنتم بها عليه وأعطى سيف الدين قبيق حلبيا واسترجع منه حماة فقام اليها وقام معه عسكر حماة ورسم للأمير أقوش الأفرم

بصرخد فسار اليها وقرر نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حجة للحاج بهادر الظاهري ثم استرجعها منه وقرره على نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل استدمر عنها وقرر الامير سيف الدين بكتمر الجوكندار في نيابة السلطنة بمصر ورتب جميع الامور على ما اراد ودانت له الاحوال فجعل يتصرف فيها * أما بيبرس الجاشنكير فانه لما هرب الى الصعيد وكان قد أخذ معه شياً كثيراً من الاجال والاموال أرسل السلطان فاسترجع منه ما أخذه وضيق عليه فقصد المسير الى صهيون حسبما كان طلب فسار من اطفح الى السويس ومنها الى الصالحية ثم سار منها الى أن وصل الى موضع بأطراف غزة يسمى الغنصر قرب الداروم وكان قرا سنقر متوجها الى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال فوصل اليه مرسوم السلطان بالقبض على بيبرس المذكور فركب قرا سنقر في الحال وكبس عليه بالمكان المذكور وقبض عليه وسار به الى مصر حتى وصل الى الخطارة فبعث اليه السلطان باستدمر الكريحي ونسلم منه بيبرس وأخذه الى قلعة الجبل واعتقله فيها وذلك في يوم الخميس رابع عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعمائة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا لاغير * قال كتاب الاخبار وبيبرس هذا هو الذي بنى البيبرسية بالدرب الاصفر ودفن بها وجدد جامع الحاكيم بعد الزلزلة التي سبق الكلام عنها في حينها * وانتظمت لللك الناصر الامور واستقرت له الاحوال فتصرف واستبد بالامر وأنشأ العمارات العظيمة في سنة عشرين وسبعمائة منها الميدان المعروف بميدان الهاوى المجاور لقناطر السباع وعمد الى بناء زريبة في التل الاعظم بجوار الجامع الطيبرسي فرسم بنقل كوم تراب كان هنالك وحفر ما تحته من الطين لاجل بناء الزريبة وأجرى الماء الى مكان الحفر فصار يعرف بالبركة الناصرية وكان الشروع في حفر البركة المذكورة سنة احدى وعشرين وسبعمائة * قال أصحاب التاريخ فلما انتهى الحفر الى جانب كنيسة الزهري (كانت هنالك كنيسة تسمى كنيسة الزهري بالقرب من قناطر السباع في بر الخليج الغربى غربى باب اللوق وكان بها كثير من النصارى لايزالون فيها ويحياؤها عدة كنائس في الموضع الذي يعرف بجكر اتبغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة الفسطاط) أخذ الفعلة في الحفر حول كنيسة الزهري حتى بقيت قاعة في وسط الموضع الذي عينه السلطان للحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة ومع ذلك لم تسقط وصار العامة من غلمان الامراء العاملين في الحفر وغيرهم في كل وقت يصرخون في طلب هدمها الى أن كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة وترك أعمال الحفر فجتمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم من السلطان وصاحوا بصوت مرتفع الله أكبر ووضعوا أيديهم بالمساحي ونحوها في الكنيسة المذكورة وهدموها حتى بقيت كوما وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان بها من أواني الذهب والفضة والحلى وغيره من الاشياء الثمينة ثم تطاوت أيديهم الى الكنائس الاخرى فهدموا كنيسة بومينا التي كانت بالحراء وكانت معظمة جدا من قديم الزمان وبها كثير من

المسيحيين قد انقطعوا فيها وكان يحمل اليهم بها من مصر سائر ما يحتاج اليه ويبعث اليها بالتذورات الخفيفة والصدقات الكثيرة فوجد فيها مال كثير من نقود ومصوغات وتسلق العامة الى أعلاها وقصوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقشاشا وغيره فكان أمرا مهولا للغاية ثم مضوا من كنيسة الجراء بعد ما هدموها الى كنيسة أخرى بجوار السبع سقليات تعرف احدها بكنيسة البنات وكان بها كثير من الراهبات المتعبدات وعدة من الرهبان فكسروا أبواب الكنيسة وسبوا البنات سيما وكن زيادة عن ستين بنتا وأخذوا ماعلين من الثياب ونهبوا سائر ما ظفروا به وأحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها * قال المقرري هذا والناس في صلاة الجمعة فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق وهرج الناس وشدة حركتهم ومعهم ما نهبوه من الامتعة فكان ذلك اليوم أشبه بيوم القيامة وانتشر الخبر وطار الى الرملة تحت قلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة أفزعته فبعث ليكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجرى العامة وافسدهم على ذلك بغير أمره وأمر الأمير ايدغمش أمير اخور أن يركب بجماعة الاوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله فأخذ ايدغمش يتنبا للركوب واذا بجبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت في القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر في جمع كبير جدا وزحفن الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فقفلهن الموكلون بها وهم محصورون بها وهى على وشك أن تؤخذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة فراجعه الأمير ايدغمش فتأخر ونزل من القلعة في أربعة من الامراء الى مصر وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير ألباس الحاجب الى موضع الحفر وركب الأمير طينال الى القاهرة وكل منهم في عدة وافرة وقد أمر السلطان بقتل كل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يبقوا على أحد فقامت القاهرة ومصر على ساق وفتت النهاية فلم يظفر الامراء منهم الا بن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالنهر الذي نهبوه من الكنائس ولحق الأمير ايدغمش بمصر وقد ركب الوالى الى المعلقة قبل وصول ايدغمش ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبق الا أن يحرق باب الكنيسة فجرد ايدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالما لا يحصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بأرجاف الناس من غير اهراق دم وفنادى مناديه من وقف حل دمه ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار ايدغمش واقفا الى أن أذن العضر خوفا من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هنالك وترك معه خمسين من الاوشاقية * أما الأمير ألباس فانه وصل الى كنائس الجراء وكنائس الزهري ليتداركها فإذا بها قد صارت كيماناً ليس بها جدار قائم فعاد وعاد الامراء فردوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد الاحتفا فلما زالوا به حتى سكن غضبه قال الراوى وكان الامر في هدم هذه الكنائس من أعجب العجب وهو أن الناس لما كانوا في صلاة

الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل فعند ما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصح في وسط الجامع اهدموا الكنيسة التي في القاعة اهدموها واكثر من الصباح المزيج حتى خرج عن الحد ثم اضطرب فتعجب السلطان والامراء من قوله ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك فضا من الجامع الى خرائب التار من القلعة فاذا فيها كنيسة بنيت فهدموها قال ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بوقعة كنائس الحمراء والقاهرة فكثير تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلبه فلم يوقف له على خبر اه ولما شاع خبر الكنيسة التي كانت بخرائب التار بقلعة الجبل وما جرى عليها بأمر السلطان نار العامة وهدموا كنائس الزهري وكنائس الحمراء وغيرها من كنائس القاهرة وسرقوا وقتلوا وسبوا ونهبوا وفعالوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر وكان الذي هدم في ذلك اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بجارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بجارة زويلة ثم جاءت الاخبار ايضا من مدينة الاسكندرية بأن العامة هدمت بها أربع كنائس وكنيستين بمدينة دمنهور وست كنائس بمدينة قوص وما حولها من العمار وواترت الاخبار من الاقاليم القبلية والبحرية بكثرة ما هدم من الكنائس والديارات في جميع أعمال مصر ما بين قوص والاسكندرية ودمياط وغيرها فكانت شدة عظيمة للغاية

ولم تكن لتسكن خواطر الناس حتى ظهر الحريق في القاهرة ومصر في عدة مواضع فوقع الحريق في ربيع بخط الشوائين من القاهرة في يوم السبت عاشر جمادى الاولى وسرت النار الى ما حوله واستمرت الى آخر يوم الاحد فتلف في هذا الحريق شيء كثير وعند ما أطفئ وقع الحريق بجارة الديلم في زقاق العريسة بالقرب من دار كريم الدين ناظر الخاوص في خامس عشر جمادى الاولى وكان يوما شديد الريح فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت الى بيت كريم الدين وبلغ ذلك السلطان فانزعج لما كان هناك من الحواصل السلطانية وسير طائفة من الامراء لاطفائها فجمعوا الناس لذلك وتكاثروا عليها وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين الى ليلة الثلاثاء فستزايد اشتعال النار وجز الامراء والناس عن اطفائها لكثرة انتشارها في الاماكن وقوة الريح التي فلفت باسقات النخل وغرقت المراكب فلم يشك الناس في حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير وضجوا وعجوا وجأروا وكثر صراخ الناس وبكاؤهم وصعد السلطان الى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح واستمر الحريق والحث يرد على المكلفين بالاطفاء من السلطان الى يوم الثلاثاء فنزل نائب السلطان ومعه جميع الامراء وسائر السقائين ونزل الامير بكثر الساقى فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم ولا أشد هولاً منه ووكلا أبواب القاهرة من يرد السقائين اذا خرجوا من القاهرة لاجل اطفاء النار فلم يبق أحد من سقائى الامراء وسقائى البلد الا وعمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والجامعات وأخذ جميع التجارين وسائر البنائين لهدم الدور فهدم في هذه النوبة ماشاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة وعمل في هذا الحريق أربعة

وعشرون مأمورا من الامراء المقدمين سوى أمراء الطيحات والعشراوت والماليك
وعمل الامراء بأنفسهم فيه وصار الماء من باب زويلة الى حارة الديلم في الشارع بجرا
من كثرة الرجال والجمال التي تحمل الماء وتنف بكثرة الساقى والامير أرغون النائب
على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين الى بيت ولده بدرج الرصاصى وخربوا
سنة عشر دارا من جوار الدار وما قابلها حتى تمكنوا من نقل الحواصل فما كل اطفاء
الحريق ونقل الحواصل حتى وقع الحريق في ربيع الظاهر خارج باب زويلة وكان يشتمل
على مائة وعشرين بيتا وتحتته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء وهبت مع الحريق ريح
قوية فركب الحاجب والوالى لاطفائها وهدموا عدة دور من حول الربيع حتى انطفأت ووقع
في ثاني يوم حريق بدار الامير سلار في خط بين القصرين ابتداء من الباذنج وكان ارتفاعه عن
الارض مائة ذراع فوق الاجتهاد فيه حتى أطفئ فأمر السلطان الامير علم الدين سنجر الخازن
والى القاهرة والامير ركن الدين بيبرس الحاجب بالاحتراز واليقظة ونودى بأن يعمل عند كل
حافوت دن فيه ماء أو زير ملؤه بالماء وان يقام مثل ذلك في جميع الحارات والازقة والدروب
فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد درهم وثن الزير ثمانية دراهم ووقع حريق أيضا بجارة
الروم وعدة مواضع حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبتلة بزيت وقطران
قال راوى هذا الخبر فلما كانت ليلة الجمعة النصف من جادى قبض على راهبين خرجا
من المدرسة الهكارية بعد العشاء الاخيرة وقد اشتعلت النار في المدرسة ورائحة الكبريت
في أيديهما فحملا الى الامير علم الدين الخازن والى القاهرة فأعلم السلطان بذلك فأمر بقبضتهما
قال وبينما هو نازل من القلعة واذا بالعامية قد أمسكوا نصرانيا وجد في جامع الظاهر
ومعه خرق في هيئة الكعل في داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما
زال واقفا الى أن خرج الدخان فشى يريد الخروج من الجامع وكان قد فطن به شخص
وتأمله من حيث لا يشعر وقبض عليه فتكاثر الناس فحروه الى بيت الولى وهو بهيئة
المسلمين فعوقب عند الامير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعة من النصارى قد
اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وأنه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه
عند منبر جامع الظاهر ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهم من سكان دير البغل وأنهما
الذات أحرقا المواضع التي تقدم ذكرها بالقاهرة وغيره وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم
الكنائس وان طائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط
واتفق وصول كريم الدين ناظر الخالص من الاسكندرية فعرفه السلطان ما وقع من القبض
على النصارى فقال النصارى لهم بطرك يرجعون اليه ويعرف أحوالهم فرسم السلطان
بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه في أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم في
ذلك نجاء مع والى القاهرة فلما أن دخل بيت كريم الدين بجارة الديلم وأحضروا اليه الثلاثة
النصارى من عند الولى قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك والولى جميع ما اعترفوا به قبل

ذلك فبكى البطرك كثيرا عند سماعه هذا الكلام وقال هؤلاء سفهاء النصارى قصصوا مقابلة
سفهاء المسلمين على تخريب الكنائس وانصرف من عند كريم الدين مجبلا مكرما فوجد كريم
الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار وأصبح كريم الدين يريد الركوب الى
القلعة على العادة فلما خرج الى الشارع صاح به العامة مايجل لك يا قاضى تحامى للنصارى
وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته
واجتمع بالسلطان فأخذ يهتف عليه أمر النصارى المسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال فرسم
السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة شديدة للغاية قال الراوى فاعترفوا بأن
أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على احراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع
النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانمائة وللمصر ستمائة فكبس دير البغل
وقبض على من فيه وأحرق منهم جماعة منهم أربعة بشارع صليبة ابن طولون في يوم الجمعة
فاجتمع لمشاهدتهم عالم كثير فاجترأ من ذلك اليوم جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا
يسلمون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار فغضب السلطان من
ذلك وهم أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير في يوم السبت
فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يضجون نصر الله الاسلام انصر
دين محمد بن عبد الله فجزع من ذلك وعند ما نزل الميدان أحضر اليه الخازن نصرائين
قد قبض عليهم وهما بحرقان الدور فأمر باحراقهما فأخرجا وأحرقا بمصرأى من الناس
وبيناهم في احراق النصرائين اذ ابديوا في الامير بكتير الساقى قد مر يريد بيت الامير وكان
نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته الى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من
الثياب وجلوه ليلقوه في النار ثم تركوه واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف
من الميدان فرجحه من هنالك رجلا متتابعا وصاحوا كم تحامى للنصارى وتشد معهم ولعنوه
وسبوه فلم يجد بدا من العود الى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد فحيح العامة وصياحهم
حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلا غضبا واستشار الأمراء وكان
محضرته منهم الامير جمال الدين نائب الكرك والامير سيف الدين ابوبكرى والخطيرى وبكتير
الحاجب في عدة أخرى فقال ابوبكرى العامة عى والمصلحة أن يخرج اليهم الحاجب
ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم فكره السلطان منه ذلك وأعرض عنه فقال نائب الكرك
كل هذا من أجل الكتاب النصارى فان الناس أبغضوهم والرأى أن السلطان لا يعمل في
العامة شيئا وانما يعزل النصارى من الديوان فلم يجبه هذا الرأى أيضا والتفت الى الامير
ألماس الحاجب وقال له امض ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف من باب زويلة الى
باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد البتة وقال لوالى القاهرة اركب الى باب اللوق والى
باب البحر ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به الى القلعة ومتى لم تحضر الذين رجحوا
وكبلى يعنى كريم الدين والا وحياء رأسى شنتك عوضا عنهم وعين معهم عدة من المماليك

السلطانية فخرج الامراء بعد ما تملكوا في المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الامراء ولا حواشيهم ووقع القول بذلك في القاهرة فقفلت الاسواق وتفرق الناس واختفوا وسار الامراء فلم يجدوا في طول طريقهم أحدا الى أن بلغوا باب النصر وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق على كثير من الكلابية والنونية وأسقاط الناس فاشتد الخوف وعدى كثير من الناس الى البر الغربي بالجيزة وخرج السلطان من الميدان فلم يجد في طريقه الى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامة فلما استقر بالقلعة سار الى الوالى يستجمل حضوره فلما غربت الشمس حتى أحضر من أمسك من العامة نحو مائتى رجل فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم وجعاعة رسم بتوسيطهم وجعاعة رسم بقطع أيديهم فصاحوا جميعا ياخونند مايجعل لك مانحن الذين رجينا فيل فبكى الأمير بكفر الساقى ومن حضر من الامراء رجعة لهم وما زالوا بالسلطان الى أن قال للوالى اعزل منهم جعاعة وانصب الخشب من باب زويلة الى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم فلما أصبح يوم الاحد علق الجميع من باب زويلة الى سوق الخيل وكان فيهم من له بزة وهيئة ولم يفتح أحد من أبواب الخوانيت بالقاهرة ومصر في هذا اليوم حائوتا  وجلس السلطان في السبلك وقد أحضر بين يديه جعاعة عن قبض عليهم الوالى فقطع أيدي وأرجل ثلاثة منهم والامراء لا يقصدون على الكلام معه في أمرهم لشدة حنقه فتقدم كريم الدين وكشف رأسه وقبل الارض وهو يسأل العفو فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا في حفر الجيزة فأخرجوا وقد مات عن قطع أيديهم اثنان وأنزل المعلقون من على الخشب وعند ما قام السلطان من السبلك وقع الصوت بالحريق في جهة جامع ابن طولون وفي قلعة الجبل وفي بيت الأمير ركن الدين الاجدى بحارة بهاء الدين وبالفندق خارج باب البحر من المقس وما فوقه من الاربع واستمر الحريق في الاماكن الى يوم السبت فلما ركب السلطان الى الميدان على عادته وجد خلقا كثيرا جدا من العامة قد صبغوا خرقا من القماش بلون أزرق وعملوا فيها صلبانا بيضا وعند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لا دين الا دين محمد بن عبد الله بملك الناصر يا سلطان الاسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى فتعجب السلطان من فعالهم وسار حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل ولم يستقر به المقام حتى أمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانيا فله ماله ودمه فخرج ونادى بذلك فصاحت العامة وصرخت نصرل الله وضجوا بالدعاء وكان النصارى يلبسون العمام البيضاء فنودى في القاهرة من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله ومن وجد نصرانيا رابكا حل له دمه وماله وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء وأن لا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ومن ركب حمارا فليركبه بلا كاف عرضا ولا يدخل نصراني الى الحمام الا وفي عنقه جرس ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين ومنع الامراء من استخدام المسيحيين وأخرجوا من ديوان السلطان وكتب لسائر الاعمال بصرف جميع المباشرين من

المسيحيين وكثير ابقاع المسلمين بهم حتى تركوا السعي في الطرقات ولبت الحال هكذا أياما ثم فودى في الناس بعد ذلك بالأمان وأنهم يتفرجون على عاداتهم عند ركوب السلطان الى الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقفوا بالمسيحيين وزادوا في الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا على العادة الى جهة الميدان ودعوا للسلطان وصاروا يقولون نصر الله يا سلطان الارض اصطلمنا اصطلمنا فأعجب السلطان منهم ذلك وتبسم من قولهم وقد سكنت الخواطر وعادت الامور الى سابق مجراها وكانت هذه الحوادث من أشنع ما حل بمصر خرب فيها من الكنائس كنيسة بخرائب التربة قلعة الجبل وكنيسة الزهري في الموضع الذي فيه البركة الناصرية وكنيسة الجراء وكنيسة بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات وكنيسة أبي مينا وكنيسة الفهادين بالقاهرة وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيسة بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالهندق وأربع كنائس بشجر الاسكندرية وكنيسة بدمية دمنهور الوحش وأربع كنائس بالغربية وثلاثة بالشرقية وست بالهنساوية وباسيوط ومنفلوط ومنية ابن خصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان احدى عشرة كنيسة وبالاطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينة القسطنطية وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس وخرب من الديارات شئ كثير * قال بعض أهل التاريخ وأقام دير البغل ودير شهران مدة لا بأوى بهما أحد واحترق بالقاهرة ربع في سوق الشوائين وزقاق العريسة بحارة الديلم وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين وعدة أماكن بحارة الروم ودارهم ادر بجوار المشهد الحسيني وأماكن باسطبل الطارمة ودير العسل وقصر أمير سلاح وقصر سلار بخط بين القصرين وقصر يسرى وخان الحجر والجملون وقيسارية الادم ودار ببيرس بحارة الصالحية ودار ابن المغربي بحارة زويلة وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفي قلعة الجبل وغير ذلك من الأماكن بمصر والقاهرة قال وكانت هذه الخطوب العظيمة في مدة يسيرة للغاية فلما وقع مثلها في الازمان المتطاولة هلك فيها من الخلق وتلف من الاموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرتة والله عاقبة الامور

وبينما كانت هذه الخطوب تعاقب والناس في خوف ما عليه من مزيد كان الواشون وأصحاب السعاية يوقعون بين الخليفة المستكن بالله وبين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وما زالوا يوغرون الصدور حتى أبغض الناصر الخليفة ومال عليه وأخذ يراقب أموره ويتقصد أعماله فاشتدت الوحشة بينهما وخرجت سنة ثلاثين وسبعمائة على هذا الحال فأمره السلطان أن ينتقل من القلعة الى مناظر الكباش حيث كان أبوه ساكنا ثم أمره أن يخرج الى بلدة قوص بصعيد مصر فيقيم بها الى ما شاء الله فخرج في ثامن عشر ذي الحجة من سنة سبع وثلاثين هو وأولاده وأهله فكانوا زهاء المائة نفس ورتب لهم ما كان مرتبا لهم بمصر من الكساوى والمأكول فتوجع الناس لخروجه كثيرا * قال الحافظ ابن حجر وكان

طول مدته بخطبه له على المنابر حتى في مدة اقامته بقوص واستمر بها الى أن مات في شعبان سنة أربعين وسبعمائة ودفن بها * وكان قد عهد بالخلافة قبل موته الى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا وأثبت ذلك على يد قاضي مدينة قوص فلما بلغ ذلك الملك الناصر لم يلتفت الى العهد المذكور وطلب ابن أخي المستكني ابراهيم ابن ولي العهد المستمسك بالله أبي عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبي العباس وكان جده الحاكم قد عهد الى ابنه محمد ولقب المستمسك بالله فمات في حياته فعهد الى ابنه ابراهيم هذا ظنا منه أنه يصلح للخلافة فراه غير صالح لما هو فيه من الانهمالك في اللعب ومعاشرة الارذال فنزل عنه وعهد الى ولده المستكني وهو عم ابراهيم وكان ابراهيم المذكور قد نازعه لما مات الحاكم فلم يلتفت الى منازعته اعتمادا على قول الشيخ نقي الدين بن دقيق العيد كما تقدم بيان ذلك في محله فأقام على ضغينة حتى كان هو السبب في الواقعة بين عمه وبين الملك الناصر وجرى ماجرى من تبعيده الى مدينة قوص فلم يرض الملك الناصر عهد المستكني لولده وبابيع ابراهيم هذا يوم الاثنين ثالث رمضان كما سيذكر في محله ولقب الوائق بالله وراجع الناس السلطان في أمره ووسموه بسوء السيرة خصوصا قاضي القضاة عز الدين بن جماعة فإنه جهد كل الجهد في صرف السلطان عنه فلم يفعل وما زال بهم حتى بايعوه كرها * قال صاحب حسن المحاضرة ثم ان الله فجع الملك الناصر موت أعز أولاده الأمير أئول فكان ذلك أول عقوباته ولم يتمتع بالملك بعد وفاة المستكني فأقام بعده سنة وأياما وأهلكه الله وقد قيل ان وفاة المستكني كانت سنة احدى وأربعين فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر حتى مات بعد ثلاثة أشهر سنة الله فيمن من الخلفاء أحدا بسوء فان الله يقضه عاجلا وما يدخره له في الآخرة من العذاب أشد قال ثم ان الله انتقم من الناصر في أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد في البلاد والقتل لجميع من تولى الملك من ذريته اما أن يخلع عاجلا واما أن يقتل فأول ولد تولى بعده عوجل بخلعه ونفيه الى قوص حيث كان قد سير الخليفة ثم قتل بها وغالب من تولى من ذريته لم تطل مدته اه

ومات الخليفة المستكني وهو ابن بضع وخسين سنة بمدينة قوص فكانت خلافته تسعا وثلاثين سنة وكان موته في شعبان سنة أربعين وسبعمائة كما ذكر

ومات في أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية وكان من الحوادث في أيامه ما وصفنا من تخريب الكنائس والديارات وقتل الرجال والاطفال وسبي النساء وغير ذلك من الخطوب التي لم يسبق لها مثال في الايام الغابرة وقد أقام بطركا ستا وعشرين سنة * فلما مات قام أبو الفتح بن العياط مع السلطان الملك الناصر في ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق القيومي فإنه كان خصميا به فأجاب السلطان الى ذلك وكتب توقيعه فشق ذلك على المسيحيين وقام منهم الاسعد بن صدقة كاتب دار النفاذ بمصر ومعه جماعة وتوجهوا سحرا ومعهم الشموع الى تحت قلعة الجبل حيث كان يسكن السلطان واستغاثوا وأوقعوا

في القس داود وقالوا انه لا يصلح وفي شريعتنا أنه لا يقوم البطرك الى هذا المسند الا باتفاق الجمهور عليه فبعث السلطان بطيب خواطرهم وكان القس المحكي عنه قد ركب بكرة ومعه ليف الاساقفة وخلق كثير من المسيحيين ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر وذلك يوم الاحد فركب السلطان من قلعة الجبل وأوقف ولاية القس المذكور وبعث في طلب الاساقفة لتحقيق الامر فوافقتهم الرسل مع القس في الطريق فأخذوهم فدخل القس عندئذ في كنيسة في الطريق وبطلت رسامته يومئذ فأقام المتأصلون بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما وكان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع)

(في خلافة ابراهيم الواصل بالله ابن ولي العهد المستمسك بالله)

لما مات الخليفة المستمكي بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله طلب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابن أخى المستمكي ابراهيم ابن ولي العهد المستمسك بالله أبي عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد وبايعه بالخلافة في يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ميلادية رغا عما بدا من قاضى القضاء عز الدين بن جماعة من صرف السلطان عنه وما زال السلطان بالناس حتى بايعوه في السنة المذكورة واستقرت له الخلافة فبالغ السلطان في تعظيمه وقربه اليه واختص به ورتب له الرواتب الكثيرة نكاه في ولد المستمكي والمتحزبين له وما زال على هذا الحال والناس في خلافته على قسمين حتى مرض السلطان الملك الناصر ومات في يوم الاربعاء سابع عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ولاختلاف الامراء وتباين أغراضهم لم يتفقوا على الذى يولونه السلطنة من بعده فاشتغلوا بذلك وتركوا السلطان المتوفى ليلة في قلعة الجبل بغير دفن حتى تم الامر لابنه أبى بكر المنصور في يوم الخميس ثم أخذوا في تجهيز السلطان المتوفى فوضع في محفة بعد العشاء الاخيرة وجل على بغلين وأنزل من قلعة الجبل الى الاسطبل السلطاني وسار به الامير ركن الدين بيبرس الاحمدى أمير جندار والامير نجم الدين الى القاهرة وقطلوبغا الذهبى وعلمدار خوطا بهار الدوادار وعبروا به الى القاهرة من باب النصر وقد أقفلت الحوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف للنظر اليه وقدام المحفة شعة واحدة في يد علمدار وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون وكان الامير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاء الاربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر بن

الشيخ ابراهيم الجعبري خطت المحفة وأخرج منها ووضع نجاه الفسقية التي بالقبة وأمر ابن أبي المطاهر مغسل الاموات بتغسيله فغسله وكفن في نصيفة وعملت له أخرى طراحة ومخدة ووضع في تابوت من خشب وصلى عليه قاضي القضاة عز الدين عبيد العزيز بن محمد بن جماعة الشافعي بمن حضر وأُنزل الى قبر أبيه في سحلية من خشب وقد ربطت بحبل ونزل معه الى القبر الغاسل الامير سنجر الجاولي * فلت فسبحان من لا يحول ولا يزول انظر كيف ملك كثيرا من المعجور من الارض ومات غريبا وغسل طريقا ودفن وحيدا ان في ذلك لعبرة لقوم يتبصرون ﴿ قال بعض كتاب الاخبار ومات الملك الناصر ولبس له نائب بديار مصر ولا حاجب متصرف وكان أبيض اللون قد وخطه الشيب وفي عينيه حـول وبرجـله البني أثر شوكـة تنغص عليه أحبانا وتؤلمه وكان لا يكاد يس بها الارض ولا يعشى الا متكئا على أحد أو متوكئ على شيء ولا يصل الى الارض الا أطراف أصابعه وكان شديد البأس يتولى الامور بنفسه مهيبا عند أهل دوائه اذا وقف الامراء في خدمته لا يجسر أحد أن يتكلم مع آخر كلمة ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه ولا يمكن أحدهم أن يذهب الى بيت أحد البتة لا في وليمة ولا غيرها فان فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض عليه وأخرجـه من يومـه منفيا وكان عارفا بأمر رعيته وأحوال مملكته وأبطل نيابة السلطنة من ديار مصر في سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأبطل الوزارة وصار يتحدث بنفسه في الجليل من الامور والحقير فعظمت حاشية المملكة وكثرت أنبـاع السلطنة وتحولوا في النعم الخزيـلة حتى انحولة منهم والكلابزية وكان كثير الاخذ بالشبهات فقتل في أيامه خلقا كثيرا من الامراء وكان اذا كبر أحد من أمرائه وظهر قبض عليه وسلب نعمته وأقام بدله من صغار عماليكه الى أن يكبر ويعظم أمره فيقبض عليه ويقسم بدله ليأمن بذلك شرهم وكان كثير التخيـل والحذر حتى انه اذا تخيل من ولده قتله وفي آخر أيامه عظم شرهم في جمع الاموال فصادر الكثير من الدواوين القبط والولاء وغيرهم ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال وانكش وكان مخادعا كثير التخيـل لا يقف عند قول ولا ينـي بعهد ولا يبر في عـين وكان محبا للعمارة فعمر عدة أماكن منها جامع القاعة وقد هدمه مرتين وعمر القصر الابلق بالقلعة ومعظم الاماكن التي بالقلعة وعمر المجرى الذي ينقل الماء عليه من النيل الى قلعة الجبل على السور وعمل الميدان تحت القلعة ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس وحفر الخليج الناصري بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مصر وحدد جامع القيلة الذي بالمرصد والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة وغير ذلك وما زال يعمر منذ عاد في ولايته الثالثة الى أن مات * قال بعض كتاب الاخبار وبلغ مصروف العمارة في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة عنها ثلثمائة وخمسون دينارا سوى من يسخر من المقبدين وغيرهم في عمل ما يعمره وحفر عدة من الخيجان والترع وأقام الجسور

بالبلاد حتى انه كان يصرف من الاختياز على ذلك ربع متحصل الاقطاعات وحفر خليج الاسكندرية وبحر الحلة مرتين وبحر الليثي بالجزيرة وعمل جسر شيبين وجسر أجاش بالشرقية والقلوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجح فأنشأ بنيانا بالطوب والجير وأنفق فيه أموالا عظيمة وراك في أيامه ديار مصر والشام وغزا عدة غزوات فتح فيها جزيرة ارواد في سنة اثنتين وسبعمئة وفتح مطمية في سنة خمس عشرة وانشأ في ربيع الاول سنة ثلاث وعشرين وخربها ثم عمرها الارمن فسير لها جيشا عظيما فأخذها وأخذ معها عدة بلاد من بلاد الارمن وذلك سنة سبع وثلاثين وأقام بها نائبا من أمراء حلب وعمر قلعة جعبر بعد خرابها واندثارها وضرب السكة باسمه في سنة احدى وأربعين في شوال وخطب له في ارتنا احدى بلاد الروم وضربت السكة باسمه أيضا وكذلك ببلاد القرمان وبلاد الكرد وكثير من بلاد الشرق وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف بماليك أبيه وماليك الأمراء باسمهم ووقائعهم وكان على الهمة كبير السياسة واسع المعرفة بمهادنة الملوك يبذل في ذلك من الاموال مالا يوصف كثرة فكان كتابه يتفقد أمره في سائر أقطار الارض وهو مع ذلك مؤيد في جميع أموره مظفر في كل أحواله مسعود في سائر حركاته * وكانت مدة سلطنته في المرة الثالثة أربعاً وأربعين سنة وخمسة عشر يوماً خارجاً عما بين ذلك قال بعض الكتاب ولما احتضر ندم على ما فعل من مبايعة ابراهيم الوائق بالله ابن ولي العهد المستمسك فأوصى الأمراء برد العهد الى ولي عهد المستكنى بالله وخلع بيعة الوائق * فلما استقرت السلطنة بولده أبي بكر المنصور عقد مجلساً يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمئة وطلب الوائق ابراهيم وولى العهد أحمد بن المستكنى المتوفى بمدينة قوص وسأل القضاة قائلًا * من يستحق الخلافة شرعاً * فقال ابن جماعة ان الخليفة المستكنى المتوفى أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلاً بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على يد نائبي بمدينة قوص فعند ذلك قام السلطان وخلع الوائق ابراهيم وبابيع أحمد وبابيع القضاة كلهم * قال الحافظ بن حجر ولقب أولا المستنصر ثم لقب الحاكم بأمر الله لقب جده وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وقد أضربنا هنا عن إيرادها فكانت مدة خلافة الوائق ابراهيم المذكور ثلاثة أشهر وتسعة أيام

قلت ولم يعتبر جماعة المؤرخين خلافة الوائق المذكور مدة صحيحة ولذلك لم يذكرها أحد منهم في مددهم سوى الذهبي في آخر ذيله على العبر وقد قال الحسينى في ذيله على العبر أيضا ان الذى قام بالخلافة بعد المستكنى ابنه أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله وكان ولي عهد أبيه اه

(الفصل الخامس)

(في خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكني بالله)

ثم قام بالامر بعد المستكني بالله ابنه الحاكم بأمر الله أحمد وكان ولي عهد أبيه كما سبقت الإشارة الى ذلك ببيع له بالخلافة يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف لليلاد بمشورة ابن جماعة بإيعه السلطان المنصور أبوبكر بن الملك الناصر قلاوون وبايعه القضاة والامراء بعد خلع الوائق ابراهيم فى اليوم المذكور ولقب بالحاكم بأمر الله لقب جده واستقرت له الخلافة وأمد السلطان بالرواتب الكثيرة والعطاء الوافر * فلما كان ثانى يوم المحرم افتتح سنة اثنين وأربعين وسبعمائة حضر الخليفة الحاكم بأمر الله المذكور والسلطان الملك المنصور أبوبكر والقضاة بدار العدل فجلس الخليفة على الدرجة العليا وعليه خلعة خضراء وفوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب وجلس السلطان دون مقام الخليفة وخطب خطبة فتحها بقوله * ان الله يأمر بالعدل الآتية وبقوله * وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم الآتية * ثم أوصى الامراء بالرفق بالرعية واقامة الحق وتعظيم شعائر الاسلام ونصرة الدين ثم قال * فن نكت فاعلمنا ينكت على نفسه وقرأ الآتية * وجلس ثم جاء بمخلعة سوداء ألبسها الخليفة السلطان بيده ثم قلده سيفاً عربياً ثم أخذ علاء الدين بن فضل الله كاتب السر فى قراءة عهد الخليفة للسلطان حتى فرغ منه ثم قدمه الى الخليفة فكتب عليه ثم كتب بعده القضاة الاربعة بالشهادة عليه ولكن لم تطل مدة السلطان الملك المنصور بعد ذلك فانه سلم الأمير قوصون زمام الملك وصرفه فى جميع الامور بلا استثناء نخائه وعمل لنفسه وكان من أمره ما سبى عليك * قال بعض كتاب الأخبار وقوصون هذا هو سيف الدين حضر من بلاد برصكة الى ديار مصر صحبة خوند ابنة أربك امرأة الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة ومعه قليل من العصى وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم لينتج فيها فطاف بذلك فى الأسواق بالقاهرة وتحت قلعة الجبل وفى داخل القلعة فاتفق انه فى بعض الايام دخل الاسطبل السلطانى ليبيع مامعه فأحبه بعض الاوشاقية وكان صبياً جليلاً طويل القامة له من العمر ما يقارب الثمان عشرة سنة فصار يتردد الى الاوشاقى الى أن رآه السلطان فوقع منه موقعا فسأل عنه فعرف بأنه يحضر لبيع مامعه وأن بعض الاوشاقية تولع به فأمر بإحضاره اليه وإبتاع منه نفسه ليصير من جولة عماليك السلطانية فنزله من جولة السقاة وشغف به وأحبه جداً كثيراً فأسله للأمير بكتر الساقى وجعله أمير عشرة ثم أعطاه امرأة طبلخانة ثم جعله أمير مائة

مقدم ألف ورفاه حتى بلغ أعلى المراتب فلما كبر وظهر أمره أرسل الى بلاده وأحضر اخوته
سوسون وغيره من أقاربه وأمر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله
وزوجه بابنته وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جع له وصيا على أولاده وعهد
لابنه أبي بكر فأقيم في الملك من بعده وأخذ قوصون المذكور في تدبير المملكة وتصرف في
جميع الامور وحجر على أبي بكر وضيق عليه ثم نافت نفسه الى الملك فأخذ في أسباب
السلطنة وأخرج أبا بكر المنصور بعد شهرين من ولايته الى مدينة قوص بصعيد
مصر في يوم الاحد لعشرين من صفر سنة اثنين وأربعين وسبعائة هو واخوته فتهنكت
يومئذ نساء أييه الناصر وكثر البكاء والعيول بالقاهرة يوم خروجه ولم يستقر به المقام
بقوص حتى سهر اليه من قتله وخاف قوصون أن يحجل بارتقاء كرمي السلطنة فأقام بعد
الملك المنصور أخاه أبا بكر علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ولقب بالاشرف ولم
يكمل له من العمر ثمان سنين وقيل ست وقيل خمس وتقلد قوصون نيابة السلطنة بديار
مصر فأمر حاشيته وأقاربه ستين أميرا وأكثر من العطاء وبذل الاموال والانعام فصار
أمر الدولة كله بيده هذا وأجد بن السلطان الملك الناصر بمدينة الكرك مقيم يراقب الفرص
ويستطلع الاخبار نخاف قوصون منه وأخذ في التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك
وحرك ساكنا في نفس أجد فتجرد أجد بعد ذلك لطلب الملك وخاطب الامراء وكاتب بعض
النواب بالديار الشامية والمصرية فأذعنوا اليه وكان بمصر من الامراء الامير ايدغمش والامير
آل ملك وقناري والمارداني وغيرهم فارتاب قوصون منهم وأخذ في التدبير عليهم فأحسوا
بذلك وخافوا فوات الوقت فركبوا لقتاله وحصلوه بقلعة الجبل وما زالوا حتى قبضوا عليه
في ليلة الاربعاء آخر رجب سنة اثنين وأربعين ونهبت داره وسائر دور حواشيه
وأسابيه وسير الى الاسكندرية صحبة الامير قلاي فقتل بها واعتقلوا السلطان الملك الاشرف
بقلعة الجبل في أوائل شعبان وبقي معتقلا الى أن مات في سنة ست وأربعين * قال
صاحب السكردان وانه أعلم كيف كان موته فكانت سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام

وقام الامير ايدغمش بأمر الدولة وتدبير المملكة وسير الى شهاب الدين أحمد بن الناصر
محمد بن قلاوون يستدعيه من الكرك ليولي به سلطنة مصر فقام على البريد في عشرة
من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشر رمضان وعبر الدور من قلعة الجبل بمن كان معه
واحتجب عن الامراء ولم يخرج لصلاة العيد ولا حضر السمات على العادة الى أن لبس شعار
السلطنة وعقد له المباينة بينه وبين الخليفة الشيخ تقي الدين بن السبكي وكان قد حضر
يومئذ من الشام ولقب بالملك الناصر شهاب الدين وجلس على سرير الملك في يوم الاثنين
عاشر شوال من السنة فلما استقرت به السلطنة وتصرفت في الامور أعرض عن الامراء
وتقاعد عنهم ولم يراع لهم حرمة ولا اعتبارا وما زال حتى ساءت سيرته وخبت سريرة
واشتدت الوحشة بينهم وبينه فخشى شر العاقبة وأظهر السفر الى الكرك لترويح النفس

والتخلى عن أشغال السلطنة حينئذ وخرج في يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة واستخلف الأمير آق سنقر نائب الغيبة فلما وصل قبة النصر بظاهر القاهرة نزل عن فرسه ولبس ثياب العرب ومضى مع خواصه من أهل الكرك على البريد وترك الاطلاب فسارت حتى وافته بالكرك فرد العسكر الى بلاد الخليل وأقام بقلعة الكرك ففرح الامراء بخروجه وخلعوه في يوم الأربعاء حادي عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما أو أربعين يوما ثم قتل في أوائل سنة أربع وأربعين كما سيذكر في محله

ولما خلع الملك الناصر شهاب الدين المذكور أقاموا بعده أخاه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وبابعه في يوم الخميس ثاني عشر المحرم المذكور وقام الأمير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة ومعه عدة من الامراء فلما استقرت به السلطنة سيرا الى الكرك جماعة من الامراء وكثيرا من العساكر والاجناد لقتال الناصر محمد وكانت قد وردت اليه الاخبار بتأهب الناصر محمد لرد الملك لنفسه والاستعداد للبطش بجميع الامراء المصريين فالتقى الجعان واقتتل الجنود قتالا شديدا فكانت الحرب بينهم سهالا وطالت أياما كثيرة فلما كان في أحد الايام اشتبك القتال بين الفريقين واشتد فقتلت العساكر المصرية وقانلت قتال الأبطال وما زالت حتى أخذت الناصر محمد من وسط قومه فانقض عليه سيف الدين منبجق اليوسفي وكان من أجناد السلطانية واحتز رأسه فانفشل أصحابه وتفرق جمعهم وولوا مدبرين وقت عليهم الهزيمة وعاد اليوسفي الى مصر ومعه رأس الناصر محمد في غلق وعاد الامراء ومن بقي من العساكر ووصل الخبر بما جرى الى السلطان الملك الصالح عماد الدين ففرح بالنصر وأجاز اليوسفي بالامرة على ديار مصر فظهر نبهه وصار من هذا الحين يتنقل في مراتب الدولة حتى عظم شأنه واتسعت كلمته وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر في حينه * ولما أحضرت رأس الناصر محمد أمام السلطان الملك الصالح ووقع بصره عليها فرع وأخذ الخوف فرض واشتد به المرض وما زال يشابه حتى مات في ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وقيل رابع ربيع الآخر وعمره نحو عشرين سنة فكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما وكان حسن السيرة لين العريكة بعيد الغضب محجورا عليه في جميع أموره ليس له من الملك سوى الاسم فقط والامر بيد الأمير أرغون ومن كان معه من الامراء المصريين فقام بالامر بعده أخوه زين الدين شعبان بعهد من أخيه ولقب الملك الكامل وجلس على تخت السلطنة من غده فلما استقرت به السلطنة ناقت نفسه الى الاستبداد بالملك وعمل على تبعية الأمير أرغون ومن معه من الامراء واستمال اليه جماعة من المماليك فأحسن الامراء بفعاله ووقعت الوحشة بينه وبينهم وطال الامر وكرهوا ما هو عليه وكبر خوفهم فركبوا عليه ونجزوا قتاله وركب هو كذلك في طائفة من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه والتقى الجعان واقتلا

فلم يثبت أصحابه عند احتدام الوطيس وخذلوهم فعاد إلى قلعة الجبل منهزماً فأتبعه الأمراء وساقوا خلفه وحاصروه بالقلعة في يوم الاثنين مستهل جادى الآخرة سنة سبع وأربعين ثم خلعوه في اليوم المذكور فكانت سلطنته سنة واحدة وثمانية وخسين يوماً واجتمع جميع الأمراء وتشاوروا فمِن يصلح للولاية بعده فانفقوا على تولية أخيه زين الدين حاجى فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك المظفر * فلما تمت له البيعة واستقرت به السلطنة عمت بالأمور وأساء السيرة وخبثت منه السريرة وانهمك في الملاذ والملاهي واللعب واستبد بالامر وعمل على تذليل الأمراء وإبعادهم عن خدمة الدولة واختص بطائفة من الأحداث وسير الأمير سيف الدين منبجك اليوسفى إلى دمشق وولاه الحجابة بها مكان ابن طوفل الحاجب فاتسعت كلمته بالشام وكبرت حرمة وعظم أمره فاستعظم الأمراء بمصر ذلك جداً وخافوا من الملك المظفر وهو يخادعهم ويظهر لهم خلاف ما يظن ويعمل على الإيقاع بهم فلما أيسوا من الصلح تحالفوا على قتاله وركبوا جميعاً عليه فركب هو كذلك في طائفة من أصحابه واقتتلوا فكانت الحرب بينهم مجالاً وما زالوا يقاتلون حتى خذله من كان معه من المماليك وتركوه فهرب فتيبعه الأسراء حتى قبضوا عليه واعتقلوه أياماً ثم ذبحوه في يوم الأحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر واثني عشر يوماً لم يعمل فيها عملاً يذكر * وعاد الأمراء وتشاوروا فمِن يصلح للسلطنة فاتحدت كلمهم على تولية أخيه بدر الدين أبى المعالى حسن بن محمد فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك الناصر وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وله من العمر يومئذ إحدى عشرة سنة وأركب من يومه من باب الستارة بقلعة الجبل وعليه شعار السلطنة وفي ركابه جميع الأمراء إلى أن نزل بالايوان السلطاني ومديرى الدولة يومئذ الأمير يلبغاروس والأمير الجيغا المظفرى والأمير شيخو والأمير طاز وأحمد شاد الشرايخناه وأرغون الاسماعيلى فخلع على يلبغاروس واستقر في نيابة السلطنة بديار مصر مكان ارقطاي وقرر ارقطاي في نيابة السلطنة بحلب وخلع على الأمير سيف الدين منبجك اليوسفى واستقر في الوزارة مع الاستدارية وقرر الأمير ارغون شاه في نيابة السلطنة بدمشق الشام وجعل يتصرف في الأمور على ما يشاء * ولما كانت سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية كثر انكشاف الاراضى من ماء النيل بالبر الشرقى فيما يلى بولاق إلى القسطنطين فاهتم رجال الدولة بسد البحر مما يلى الجيزة وقوض ذلك إلى الأمير منبجك فجمع لذلك من الأهالى والأمراء من الأموال شيئاً كثيراً جداً وبالغ في العمل وطال الامر أياماً كثيرة فلم يجد نفعا وساء الحال وانقطعت الآمال من رى تلك الاراضى وتطير الناس وخافوا شرنك السنة فقبض السلطان على منبجك المذكور في ربيع الاول من السنة واعتقله واشتد بأسباب ذلك الغلاء وقتل الوارد من الغلال وغيرها * قال بعض كتاب الاخبار ونظر بعد ذلك الوباء واشتد وكثر الموت في الناس كثرة بالغة فكان الفسقراء يموتون في الأزقة والحارات وعلى أبواب المساجد ولا

يجدون من يحملهم وامتلات كذلك البيوت بالموتى وبقوا أياما بغير دفن فكانت الكلاب تدخل البيوت وتأكل الاحياء من الاطفال وتشبع من جثث الاموات فكان أمرا مهولا للغاية وبقي أياما كثيرة حتى ارتفع وزال * وقد تشاءم الناس من أيام السلطان الملك الناصر بدر الدين وتطيروا من حكمه فاحترفت عنه القلوب وتغيرت عليه الخواطر وقد زادهم بغضاله وحقدا عليه سوء تصرفه وعدم اكترائه بالامور وكراهته للامراء فانه لما رشد وأثبت رشده في سنة احدى وخسين وسبعمائة هجرية استبد بالامر وجعل يتصرف بما في نفسه وقبض على الأمير مفضل الوزير وسجنه ورسم بالقبض على الأمير بلبغاوس نائب السلطنة بديار مصر وهو مسافر الى الحجاز فقبضوا عليه وألقوه في السجن وعمل على الوقيعة بالامير شيخو العري ولكنه كان يخشى العاقبة لما لشيخو المذكور من الصولة والكلمة المسموعة فاتفق ان شيخو خرج متصيذا الى ناحية طنان بالغريرية فلما كان يوم السبت رابع عشر شوال سنة احدى وخسين استدعى اليه السلطان جميع الامراء واستخلفهم لنفسه فخلفوا بالطاعة والوفاء فكتب عند ذلك تقليدا للامير شيخو بزيادة طرابلس وجهزه اليها مع الامير سيف الدين طينال الجاشنكير فصار اليه وأخذ من طينال ولم يمكنه من العود الى القاهرة فوصل الى دمشق امسلة السلاطنة رابع ذى القعدة ولم يستقر به المقام حتى ظهر مرسوم السلطان ببقاء شيخو بدمشق على اقطاع الامير بيلبك السالمى وتجهيزه الى القاهرة فخرج ببيلبك من دمشق وأقام شيخو على اقطاعه فلما وصل ببيلبك الى القاهرة الا وقد وصل دمشق مرسوم السلطان بامسالة شيخو وتجهيزه الى السلطان مقيدا وتقييد مماليكه واعتقالهم بقلعة دمشق فقبض عليه وسير الى القاهرة مكبلا بالقيود * ولما وصل الى قطيا ساروا به منها الى الاسكندرية فلم يزل معتقلا بها الى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وتولى أخوه الملك الصالح فأفرج عنه وعن منجك الوزير وعدة من الامراء فوصلوا الى القاهرة في رابع رجب سنة اثنين وخسين وسبعمائة وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر في محله ان شاء الله * قال أصحاب التاريخ وشيخو هذا هو الامير الكبير سيف الدين أحمد أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون خطى عند الملك المنظر حاجى بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهته حتى شفع في الامراء وأخرجهم من سجن الاسكندرية ثم انه استقر في أول دولة الملك الناصر حسن أحد امراء المشورة ثم ترفع الى أن صارت القصص تقرأ عليه بحضور السلطان في أيام الخدمة وصار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شره وكان نافذ الكلمة مسموع الرأى صائب الفكر مبالا الى الدعة والسكون والتأليف بين الاحزاب فاجبه الامراء ومالوا اليه وأخذوا بقوله فلم يخالفوا له كلمة * واشتد السلطان الملك الناصر على بقية الامراء والعمال بالجهات وضيق عليهم وقبض على الامير المجاهد صاحب اليمن وأتى به الى القاهرة مقيدا بالحديد وألقاه في السجن أياما ثم أطلقه ثم عاد فقبض عليه وسيره الى قلعة الكرك وسجنه بها فامتلات قلوب الامراء كافة حقدا عليه واجتمعوا ونحالفوا على قتاله فلما كان يوم الاحد

سابع عشرى جمادى الآخرة ركبوا لقتاله وهم طاز واخوته ويلبغا الشمسى ويبغوا ووقفوا تحت القلعة وصعد الأمير طاز وهو منقلد سلاحه الى قلعة الجبل في عدة واقرة من الجنيد وقبضوا على السلطان في الحال وسجنوه بالدور الاسفل من القلعة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر

ثم أقاموا بعده أخاه صلاح الدين صالح وبايعوه في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة وطسبوا الاخبار بذلك الى الآفاق وبقي السلطان الملك الناصر أبو المعالى حسن معتقلا مؤثرا الاشتغال بالعالم * قال بعض الكتاب وكتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوة للبيهقي فكانت حسنة وكان لا يتحرس في الظاهر لشيء من أمور الدولة ولا لشيء من أحوالها وكان يظهر غاية الرضا عن الحالة التي هو عليها * أما السلطان الملك الصالح صلاح الدين فإنه لم يستقر به الملك حتى كثر له وه وخرج عن الحد في التبذل والعبث بمصلحة الدولة وأمور المملكة وكان هو الثامن من تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم جعل يبطل ما أمضاه أخوه فرسم بالافراج عن الأمير شيخو والأمير منجك من معتقلهما بمدينة الاسكندرية فحضر الى القاهرة في رجب سنة اثنتين وخسين وسبعمائة ونزل الأمير منجك بالاشرفية من قلعة الجبل وكان السلطان الملك الناصر قد صدره وأخذ جميع أمواله وفتق أملاكه على بعض المماليك السلطانية فلما استقر بالاشرفية بعث اليه الأمير شيخو خمس رؤس خيل وألني دينار وبعث اليه أيضا جميع الامراء بالتقدمات والهدايا وأقام لا يعمل عملا ولا رجع الى خدمة الدولة فكان يجلس على حصير فوق ثوب سرج عتيق وكلما أتاه أحد من الامراء يبكي ويتوجع ويقول انظروا كيف أخذوا جميع مالى حتى صرت على ما ترونى ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجوناً في قيد هدد بالقتل ان لم يسع أملاكه وأنه خشي على نفسه القتل فوكل في بيعها فأقتاه الفقهاء بأنه لا يصح بيع المكره فقدم الامراء الى السلطان في أمره وفي رد أملاكه عليه فعارضهم في ذلك الأمير صرغتمش ثم قبل السلطان أن يرد عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه فاسترد عدة أملاك وأقام الى أن قام يلبغاروس بحلب وخرج عن طاعة السلطان فاخفى منجك بعد ذلك وحسب السلطان ما وراء اخفائه فطلبه فلم يجده فأمر بإطلاق النداء عليه بالقاهرة ومصر وقتس عليه وهدد من أخفاه وألزم عربان العايد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر وكبسوا عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر وقتس عليه حتى في داخل الصحاري التي بالجامع الذي بناه فاعياهم أمره وأدركه السلطان السفر لحرب يلبغاروس بحلب لخروجه فأخذ يتأهب لذلك الى يوم الخميس رابع شعبان فخرج الأمير طاز وعرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلاجهما وقد وصل الأمير طاز الى مدينة بلبيس فحضر اليه من أخبره أنه رأى بعض أصحاب منجك فسير اليه وأحضره وقتشه فوجد معه كتاب منجك الى أخيه يلبغاروس بحلب وفيه أنه مختلف عند الحسام الصفدى استاداره فبعث الكتاب الى الأمير شيخو فوافاه والاطلاب خارجة

فاستدعى بالحسام وسأله فأنكر فعاقبه الأمير صرغتمش فلم يعترف فركب الى بيت الحسام
بجوار الجامع الازهر وهجمه واذا منجك ومعه مملوك فشد وثاقه وساربه مشهرا بين الناس
وقد هرعوا من كل مكان الى قلعة الجبل فسجن بالاسكندرية نانية الى أن شفّع فيه الأمير
شيخو فأخرج عنه في ربيع الاول سنة خمس وخمسين ورسم له أن يسير الى صفد فصار اليها
من غير أن يعبر الى القاهرة ولم يتم خروج السلطان لقتال يلبغاروس حتى دخلت سنة ثلاث
 وخمسين وسبعمئة وظهر الطاعون بمصر واشتد شدة بالغة فكثر الموت في الناس وعم فتأخر
السلطان الملك الصالح عن المسير لقتال يلبغاروس بحلب وتعطلت أعمال الدولة بسبب اشتداد
الطاعون وكثرة الموت وأصاب الطاعون الخليفة الامام الحاكم بأمر الله فمات ولم يعهد لاحد
 بالخلافة بعده فجمع الأمير شيخو جميع الامراء والقضاة وأهل الحل والعقد وكان قد رجع
الى خدمة الدولة بعد الاعتقال وتولى مسند الحل والعقد وطلب جماعة من بني العباس ليرى
من هو أصلح للامامة وتولى منصب الخلافة فوقع الاختيار على أخيه أبي بكر بن المستكني
 فكانت خلافة الحاكم بأمر الله نحو اثنتي عشرة سنة وكانت أحواله كلها شدة وعيشته في
ضيق لعدم كفاية المرتبات المعينة لمنصب الخلافة

(الفصل السادس)

(في خلافة المعتضد بالله أبي الفتح بن أبي بكر المستكني بالله)

ثم قام بالخلافة بعد الحاكم بأمر الله أخوه المعتضد بالله أبو الفتح بوبع بغير عهد
وقيل بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله وهو أبو الفتح بن أبي بكر المستكني بالله أبي الربيع
سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن أبي علي بن المسترشد بالله العباسي ولقب
بالمعتضد وكنى أبا الفتح وذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمئة هجرية أي نحو سنة اثنتين
 وخمسين وثلثمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة ضم اليه نظر المشهد النفيسي
 ليستعين بما يرد الى ضريح السيدة نفيسة من نذر العامة على تقويم أوده * قال كتاب
الاخبار لان مرتب الخلفاء كان الى هذا الحين على مكس الصاغة لا غير وحسبه أن يقوم بما
لا بد منه من قوتهم فكانوا أبدا في عيش ضيق ففسدت نوعا حالة الخليفة المعتضد بما كان يبيعه
من النجع المحول الى المشهد ونحوه وصار في رغد من العيش وكان الى ما بعد تولية المعتضد
 الخلافة بأيام قد ارتفع الطاعون وزال من جميع البلاد فجعل السلطان الملك الصالح يتأهب
 لقتال يلبغاروس بحلب وأمر فنادوا في الجند بالخروج الى ظاهر القاهرة فصاروا يخرجون
أطلابا والسلطان يستحث الامراء ويشدد عليهم وهم يتلكئون ويظهرون غير ما يبطنون

وطالت أيام النداء في العسكر بالخروج وعظم بغضهم لنصرة السلطان الملك الصالح على بلغاروس وكره الامراء السلطان وظهر بغضهم له فأهمل لذلك التجريدة وبطلت أو كادت وتشاغل السلطان عنها باستمالة العامة واسترضائهم ليكونوا له عوناً على الامراء اذا ركبوا عليه وخرجوا عن طاعته فعرف العامة منه ذلك وأخذت منهم الخيلاء فعملوا يطلبون من السلطان المطالبات الكثيرة وتقدم اليه جماعة منهم في طلب أخذ جميع الاملاء الموقوفة على الديارات والكنائس بمصر وأعمالها وألحوا في الطلب فقال السلطان الى قولهم وأحال الامر على ديوان الاحباس فوجد أن للنصارى أوقافاً تبلغ زهاء الخمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الكنائس والديارات فلما عرضوا ذلك على الأمير شيخو والأمير طاز والأمير صرغتمش وهم القائمون بالامر يومئذ قرروا بأن نضاف جميع هذه الاطيان الى اقطاعات الامراء ونزع من أيدي النصارى فانتزعوها واشتد الحال على النصارى بعد ذلك شدة عظيمة وعاد العامة الى تخريب الكنائس وهدم الديارات كما فعلوا في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فهدموا عدة كنائس بمصر والقاهرة وخرّبوا عدة أخرى وخرج الخاحب والأمير علاء الدين على بن الكوراني والى القاهرة الى ناحية شبرى الخيام من ضواحي مصر فهدموا كنيسة بها وأخذوا منها اصبع الشهيد وأحضره الى الملك الصالح فرسم بالحرقه فاحرق بين يديه وذرى رماده في البحر * قال بعض كتاب الاخبار فبطل عبيد الشهيد من يومئذ واشتد العامة على النصارى شدة بالغة ونطاولت أيديهم الى السلب والنهب وغير ذلك والسلطان لا يرد للعامة كلمة ولا يوقفهم عند حد ارضاء لهم والامراء في شاغل بما يدبرونه للسلطان وظل الحال هكذا أياماً ثم سكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه وعاد السلطان الى الاهتمام بتجريد العسكر لقتال بلغاروس مجلب وهم بتولية موفق الدين مسند الوزارة وهو قبضى مرتد فعارضه الامراء في ذلك وطلبوا تولية علم الدين وهو قبضى مرتد كذلك فامتنع السلطان من قبوله وعارض فشدد الامراء في الطلب وانضم بعضهم الى بعض واتحدوا على اكرام السلطان على تولية علم الدين المذكور والا خلعوا السلطان وترددت الرسل بين الفريقين واشتد الخلاف وطال الحال أياماً فبطل الاهتمام بأمر التجريدة ثانية وتحوز السلطان من الامراء وجمع اليه مماليكه الذين اصطفاهم لنفسه فلما كان يوم الاثنين ثمانى شوال سنة خمس وخمسين نار عليه الاميران شيخو وطاز وقبضا عليه وسجناه بقلعة الجبل فكانت سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وهذا عجيب في الاتفاق ثم اتحدت كلمة الامراء على ارجاع السلطان الملك الناصر حسن فأخرجوه من معتقله وأجلسوه على تخت السلطنة في يوم الاثنين المذكور فكانت مدة سجنه بقلعة الجبل ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً فلما استقر به المنصب وتصرف في الامور رسم بالقبض على الأمير طاز فامسك وأخرج الى الديار الشامية ثم جعل يأمر وينهى ويتصرف في الملك مستقبداً فهابه الامراء واتسعت

كلمته وكبرت شهرته وضرب الفلوس الجدد فعمل كل فلس زنة مثقال وكان كثير البغض
للأمراء شديد الرغبة في الإيقاع بهم والتخلص من شرهم فكان لا ينكف عن تذليلهم
والشكاية بهم وتفريقهم عن بعض فاشتد بغضهم له وجعلوا يدبرون على قتله والتخلص
منه * وما دخلت سنة اثنتين وستين وسبعمائة حتى ظهر الطاعون بمصر والقاهرة
واشتد وفشا فكثر الموت في الناس والدواب أيضا وعظم أمره ومات خلق كثير للغاية فخرج
السلطان في طائفة من مماليكه وعدى إلى بر الجيزة وأقام بناحية **ك**وم برا فرارا من
الطاعون وخرج معه الأمير يلبغا في طائفة من عسكره وخيم على مقربة من خيام السلطان
لحراسته فراسله الأمراء في أمر قتله فاجابهم إلى ذلك وجعل يخالف أمر السلطان
ويقبح فعالة فاستعظم السلطان منه ذلك وكبر عليه الأمر وما زال ينتازعان والأمير يلبغا
يراقب الفرص ليغتاله إلى ليلة الأربعاء تاسع جادى الأولى ركب السلطان في جماعة من
أصحابه ليكبس على الأمير يلبغا في خيمته ويقتله فاحس يلبغا بذلك فخرج عن الخيام وكان
بمكان وهو لابس آلة حربه في جماعة من قومه فلم يظفر السلطان به ورجع فتأربه يلبغا
وهجم عليه بمن معه فانكسر السلطان وفريد قلعة الجبل فتبعه يلبغا وقد انضم إليه جماعة
من الأمراء وغيرهم ممن لا يحبون السلطان فدخل السلطان إلى القلعة وصار يقاتل مع
طائفة من مماليكه أياما وراء السور ثم أحس بالكسرة وأنه على وشك أن يؤخذ فنزل مخفيا
ومعه ايدمر الدوادار يريد الخروج إلى الشام وسارا إلى بيت الأمير شرف الدين موسى بن
الازكشى أمير حاجب يريدان الاختفاء به حتى يقيس لهما الخروج فبعث شرف الدين
المذكور إلى الأمير يلبغا يعلمه بمجيء السلطان إليه فبعث يلبغا في الحال من قبض عليه هو
والأمير ايدمر ومن ذلك الوقت لم يوقف له على أثر البنسة مع كثرة تفتيش أتباعه وحواشيه
على قبره وما آل إليه أمره فكانت مدة ولايته الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياما * قال
أصحاب الاخبار واشتد في أيامه على القبط بمصر ورشيد بغير سبب فضيق عليهم وأبعدهم
عن خدمة الدولة فلاطفه بكارهم لعله يرتدع فلم يقلع عما هو عليه فعما كسوه وأتعبوه
وبالغوا في تسفيهه والازدراء به فهم بالإيقاع بهم فلم يظفر لبغض الأمراء له وكرهه طوائف
الممالك له فعاد إلى ملاطفهم واستمالتهم فلم يفلح لتفاقم الخطب واشتداد النفرة منه وما
زال كذلك حتى قبض عليه وقتل

وبنى في أيامه جامع المشهور وهو تحت قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل
وكان موضعه بيت الأمير يلبغا * قال صاحب الخطط وابتدأ السلطان عمارته في سنة سبع
ونسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله في أكبر قالب وأحسن هيئة وأضخم شكل ولا يعرف
في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع أقامت العماره فيه مدة ثلاث
سنين لا تبطل يوما واحدا وأرصد مضر وفها في كل يوم عشرين ألف درهم عنها نحو ألف
منقال ذهباً * قال ولقد أخبرني الطواشي مقبل الشامي انه سمع السلطان حسنا يقول

أنفق على القالب الذي بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم نقرة وهذا القالب مما روى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور * قال وسمعت السلطان المذكور يقول لولا أن يقال ملك عجز عن اتمام بناء بناء تركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه وفي هذا الجامع عجائب من البنين منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا في مثلها ويقال انه أكبر من ايوان كسرى الذي بالمدائن من العراق بخمسة أذرع ومنها القبة العظيمة التي لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ومنها المنبر الرخام الذي لا نظيره ومنها البوابة العظيمة ومنها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع الى غير ذلك وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منائر الى ان كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبع مائة فسقطت المنارة التي على الباب فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الايتام الذين كانوا قد رتبوا بكتف السبيل الذي هناك ومن غير الايتام وسلم من الايتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وبقي هناك منارتان قائمتان الى اليوم * ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت العامة بمصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي بن محمد السبكي في سقوطها هذه الابيات

أبشر فسهلك يا سلطان مصر آفي * بشيـره بمقال سار كالمثل
ان المنارة لم تسقط لمنقصة * لكن لسرخي قد نبهين لي
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت * فالوجد في الحال أذاها الى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل * تصدعت رأسه من شدة الوجـل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت * من خشية الله لالضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت * بنفسها لجوى في القلب مشتعـل
فالحمد لله حظ العين زال بما * قد كان قد نذره الرحمن في الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة * شيدت بنيانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها المتلاآت * علما فليس بمصر غير مشغـل

قال فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما * ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه بعده الطواشي بشير الجدار وكان قد جعل السلطان لهذا الجامع أوقافا عظيمة فلم يترك منها الا شيء يسير وأقطع أكثر البلاد التي وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الامراء وغيرهم وصار هذا الجامع في مقابلة قلعة الجبل لانه قلما تكون فتنة بين أهل الدولة الا ويصعد عدة من الامراء وغيرهم الى أعلاه ويصير الرمي منه على القاعة * فلما كان في سلطنة الملك الظاهر برفوق لم يحتمل ذلك وأمر فهدمت الدرج التي كان يصعد منها الى المنارتين والبيوت التي كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذه الدرج الى السطح الذي كان يرى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج التي كانت

بجانبى هذه البسطة التى كانت أمام باب الجامع حتى لا يمكن التسور الى الجامع وسدت من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله وفتح شبابه من شبابيك احدى مدارس هذا الجامع ليتوصل منه الى داخل الجامع عوضا عن الباب المسدود فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة وامتنع صعود المؤذنين الى المنارتين وبقي الاذان على درج هذا الباب * قال المقرئى وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الاحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقا فى الجامع المذكور بخمسمائة دينار ونقله فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة فركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب * فلما كان يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة أعيد الاذان فى المئذنتين كما كان وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد واستمر الامر على ذلك

ولما مات السلطان الملك الناصر حسن المذكور اجتمع الامراء وتشاوروا فيما بينهم السلطنة بعده فوقع اختيارهم على ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فبايعوه فى يوم الاربعاء تاسع جمادى الاولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور وركب من يومه فى دست السلطنة وصعد الى قلعة الجبل فى كبكبة عظيمة للغاية * ولما استقر به المنصب قام بالامر بلبغا وأخذ فى تدبير الملك والتصرف فى الامور فأمر ونهى واستبد فانتسعت كلمته وعظمت سطوته وهابه الامراء جميعا وتمكن من الملك كل تمكن ودانت له الامور فلما بلغ السلطان الملك المنصور أشده لم يطق الصبر على فعال يلغا وتافى نفسه الى الاستبداد بالملك فجعل يستعمل الخيلة فى نزعه من يد يلغا ويستميل اليه الامراء وطوائف المماليك ويعمل على تقرب العامة منه فلم يفلح وكان من أمره ما سبذ كرى فى محله

ولما دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة مرض الخليفة المعتضد بالله أبو بكر بن المستكن بالله وطال مرضه واشتدت علته الى ليلة الاربعاء ثامن عشر جمادى الاولى مات فى داره بالكيش فكانت خلافته نحو عشرين سنين قال بدر الدين فى ترجمة الخليفة المذكور هو أمير المؤمنين * وقائد المذعنين * وامام الأئمة * وقدوة المتكلمين فى براءة الذمة * عات أركان * وبسطت أغصانه * وتجمعت به ديار مصر * وصغت الى رأيه ملوك عصره * رأس وساد * ومنح وأفاد * ورفل فى حلال النعيم * وهدى الى سلوك الطريق المستقيم * واعتضد بالله فى أموره * ولم يخف عن الناس بحجبه ولا ستوره * واستقر سائرا فى منهاج عزه وبقائه * الى أن لحق بعد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه * وكان الخليفة المعتضد المذكور يقنع بالكفاف حسن السيرة حج مرتين احدهما سنة أربع وخمسين والثانية سنة ستين وكانت أمور عيشه متيسرة

وفي خلافته سعى المتأصلون في إقامة بطرك لهم بعد تلك العطلة التي وقعت بسبب
القس داود بن لقلق التي تقدم بيان حوادثها واتحدت كلمتهم في هذه المرة على إقامة
القس داود المذكور فجعل كبارهم على تقليده المنصب وألحوا وأكثروا الطلب حتى تم له
الامر فكان خامس سبهي بطاركة الاسكندرية وهو من مدينة الفيوم فلما استقر به المنصب
أحسن السياسة وقام بواجب الرياسة وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل السابع)

(في خلافة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد)

ثم قام بالامر بعد الخليفة المعتضد ابنه أبو عبد الله محمد بعهد من أبيه في يوم الخميس
ثاني عشر جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية أي نحو سنة احدى وستين
وثلاثمائة وألف ميلادية ولقب بالمتوكل على الله وخلع عليه من يومه بين يدي السلطان الملك
المنصور محمد بن الملك المظفر حاجي وفوض اليه نظر المشهد النقيسي على ما كان عليه أبوه
من قبل وفوض هو الى السلطان الملك المنصور التصرف في أمور المملكة ومهام الدولة
وأشهد على نفسه بذلك فزادت رغبة السلطان من حينئذ في الاستبداد بالامر والتخلص من
يلبغا وعظم عليه ما هو فيه من الحجر والتقييد وتجرد لمعاداة يلبغا وإيقافه عند حده وجعل
يسمى بعض الامراء وأصحاب الكرامة وأجزل العطاء الى طوائف المماليك ليكونوا له عوناً
على يلبغا كل هذا ويلبغا لا يلتفت اليه ولا يهتم به حتى ظن السلطان أنه بلغ المنشود
وتم له المقصود فلما كان يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ركب
الامير يلبغا في نفر من أصحابه وصعد الى قلعة الجبل وقبض على السلطان الملك المنصور ففر
من كان حوله من الاجناد والمماليك وتركوه فخلعه يلبغا في الحال وسجنه بالقلعة من
يومه فكانت سلطنته سنتين وأشهرًا وبقي مسجوناً الى أن مات سنة احدى وثمانين وسبعمائة
هجرية * وفي اليوم الثاني من خلع السلطان الملك المنصور اجتمع يلبغا مع الامراء
وتشاوروا فيما يصلح للسلطنة فانفقت كلمتهم على تولية ابن عمه زين الدين أبي المعالي شعبان
ابن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ولقب بالملك الاشرف وعمره يومئذ عشر سنين
قال أصحاب التاريخ ولم يل من بني قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواء وقام الامير يلبغا بتدبير
الملك والتصرف في جميع الامور على ما كان عليه أيام الملك المنصور وزيادة ولبث على هذا
الحال زهاء الاربع سنين وقد عظم شأنه وكبر عدم اكترائه بالامور وزاد احتقاره تكبار الدولة
واستخفافه برجال السلطنة وكثرت مماليكه المعروفة بالخاصكية وساروا بسيرته فعاثوا وجاروا

وظلموا الرعية وتناولت أيديهم إلى أموال الناس واستحلوا ما لا يحل * وظهر القحط في هذه الأيام بمصر وعم جميع المدن والقرى فأكل الناس الكلاب والقطط والميتة وجذور الأشجار واشتد الحال شدة بالغة واتصل بالديار الشامية وتفشى فيها فجع الناس وبجوا وأكثر أهل مصر من الاستغاثة والمضجع إلى الله سبحانه وتعالى وذهب جماعة إلى دار الأمير يلعبا ورجوه بالطوب وصاحوا ما يحل لك أن تطلق المماليك يعيشون في الأرض وقد ابتلانا الله بسبب فعالهم بالقحط فعظم الأمر على يلعبا وتطير من ذلك ولبت الحال على هذه الشدة أياما كثيرة حتى أكل بعض الناس أولادهم وفشا هذا الأمر بينهم فلم يبق منكورا ثم ارتفع القحط فعمد الأمير يلعبا إلى إيقاف ممالكه عند حدهم وكف أذاهم عن الرعية وشدد في ذلك وبالع في العقوبة فانحرفت خواطرهم عنه وتوغرت صدورهم منه وزالت عنهم هيئته فانفقوا على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان في بعض الأيام كبسوه بداره التي في الكباش وهم في عدة عظيمة وقتلوه ونهبوا ما في داره من حلي وملبوس ففرح السلطان الملك الأشرف بموته وظن كمال استقلاله بالملك فقام الأمير استدمر الناصري أحد ممالك يلعبا المذكور وضم هؤلاء المماليك إليه ونوى الإمارة عليهم ونادى السلطان الملك الأشرف بالشر وكشف أولئك المماليك بما في سره فقويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وتجهزوا إلى نزاع الملك من آل فلاوون ثم لم يلبثوا أن ركبوا جميعا لقتال الأشرف وركب الأشرف لقتالهم ومعه المماليك السلطانية واقتتل الفريقان وطالت الحرب بينهم أياما وما زالوا حتى انهزم استدمر وجميع الخاصكية وانصر الأشرف عليهم نصرة مؤثرة وقبض على كثير منهم فقتل طائفة وأغرق طائفة وأبعد طائفة وبقي منهم بمصر جماعة التجوا إلى بعض الأمراء * قال بعض كتاب الأخبار وكان هؤلاء المماليك مختلفي الاجناس غلات الطباع أشقياء لا دين لهم ومنهم الأمير صرغمش واستدمر والجاولي اليوسفي ولم يزل من بقي منهم في اختلاف ومقت وهياج وحقد للدولة إلى أن تحيلوا وعادوا إلى خدمة الدولة وانفقوا على أن طائفة منهم تسكن بالطباق وان يدخلوا في سلك ممالك الاسياد يعني أولاد السلطان ففعلوا ومنهم من بقي أمير عشرة ومنهم من انضم إلى المماليك السلطانية وممالك الأمراء وظهروا بعد الانكماش فكانوا أرذل مذكور في الديار المصرية وعادوا إلى العمل على الإيقاع بالسلطان ونزع الملك من ذلك البيت

فلما كانت سنة ثلاث وستين وسبع مائة عزم السلطان الملك الأشرف على الحج وأخذ في الأسباب فانتهمز عند ذلك أولئك المماليك الفرصة وكتموا أمرهم ونوؤا عدا مع أصحابهم الذين تأهبوا للخروج في خدمة السلاطون على أنهم يشيرون الفتنة مع السلطان في العقبة وكذلك المقيمون بمصر يخرجون فينقضون نظام الدولة ويحدثون الفوضى وينالون السلطان وجميع الأمراء ويستبدون هم بالملك فيفعلون ما يستحسنون وخرج السلطان من مصر يريد الجواز وهو في أبهة عظيمة للغاية وتجمل زائد في عدة وافرة من الاطناب وقد رتب قبل خروجه الامور واستخلف بمصر والنغور من يثق بهم في خدمته وأخذ معه من

أولئك المماليك من لا يظن فيه الخيانة وكان بينهم جلة من المماليك الاخر فلم يبعد عن مصر الا قليلا حتى قام من كان بها منهم وأثاروا الفتنة واستمالوا اليهم جماعة من المماليك السلطانية ونادوا بموت السلطان الملك الاشرف وأقاموا ابنه بدلا منه ولبسوا منتظرين فعل أصحابهم الذين هم في خدمة السلطان أما هؤلاء فأنهم لما وصلوا الى العقبة ثاروا على السلطان فقاتلهم واشتد القتال بين الفريقين أياما فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انهزم السلطان بعد أمور طويلة وطلب العود الى مصر وصحبته كبار الامراء وبعض عماليكه الذين اصطفاهم فذهب الخاصكية الخزينة السلطانية وما فيها ونهبوا جميع ركاب الحج وأخذ بعضهم ما سلبه وسار الى الشام والبعض الى الحجاز والبعض الى مصر وعاد نساء السلطان الى مصر في أسوأ حال وأشد ضيق وقد ذبح الكثير من الامراء في هذه الواقعة وتبعوا السلطان فلحقوه عند قلعة الجبل فانتشب القتل بينه وبينهم واشتد وقايل السلطان قتال الابطال وطال الحال أياما اختل فيها نظام الدولة وعاث أهل الفساد وكثرت العريضة بمصر والقاهرة والقرى القريبة وارتفع الامن وعم الخطف فأنكف الناس عن الخروج الى الاسواق وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وقايل أهل الاطراف العامة من فوق أسطحة البيوت وما زال الحال هكذا حتى قبض الخاصكية على السلطان وقد تفرق عنه من بقى من أصحابه وسجنوه أياما فلائلا ثم خنقوه ونهبوا جميع بيوت الاموال وذخائر السلطان واقتسموها محاطيه وكذلك فعلوا بأموال وذخائر ومحاطى جميع الامراء وأزالوا عن الدولة القلاوونية عزها ورونقها وأذهبوا بهجتها وكان قتل السلطان الملك الاشرف في يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما وأنشأ في أيامه قصره المعروف بالاشرفية تحت قلعة الجبل سنة اثنيتين وتسعين وسبعمائة ولما فرغ منه صنع فيه أفراحا عظيمة للغاية لم يعمل مثلها في الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح على بن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاحى وجميع الامراء ونثر عليهم الذهب ونخلع عليهم انخلع السنية

ولما مات السلطان الملك الاشرف اجتمع أصحاب الكلمة من الامراء وهم قرطاي وايتبك وغيرهما وكتبوا الى الخليفة المنوكل بالله العباسى يطلبون منه أن يبايع من يشاء بالملك فكتب يقول اختاروا من بينكم من تشاؤون وأنا أبايعه فوقع اختيارهم على ابن الملك الاشرف علاء الدين وعمره يومئذ سبع سنين فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور وكان الأمير طشتمر رأس الفتنة وزعيم الخاصكية الذين ثاروا على السلطان الملك الاشرف بالعقبة قد تأخر بسبب ركب الحاج فلما وصل الى القاهرة أرسل اليه قرطاي انك قد استقرت في نيابة دمشق فسر الى الشام فرأى العجز فتوجه الى دمشق كارها وجعل قرطاي يتصرف في الدولة ويستبد بالملك حتى علت كلمته ودانت له الامور وعظمت شوكرته فابغضه الامراء وحققوا عليه وأخذوا يراقبون الفرص ليقتكوا به فلما كان في أحد الايام قام ايتبك في نفر من

أصحابه وأمسك قرطاي المذكور وغدريه واستقل بالحكم وتصرف في الامور وطير الخبر بذلك الى الآفاق فلما علم بالخبر الامير طشتمر نائب دمشق شق عليه وكانت نائب حلب وبقيّة نواب الشام واستجدهم على قتال ايتبك فأجابوه الى ذلك وركب اليه اشغتمر نائب حلب ومعه العساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق فأصـدين الديار المصرية وجاءت الاخبار بذلك الى ايتبك فسير عسكرا لقتالهم وخرج هو كذلك ومعه السلطان وبعض الامراء وكان بين ايتبك وبين الامير برقوق والامير بركة شقاق وهما يرافبان القرص للغـدريه فلما وصل ايتبك الى أول منزلة ركب عليه المذكوران في نفر من خواصهما يريدان البطش به فهرب نحو القاهرة وانفشل العسكر ورجع السلطان والامراء وكتب برقوق وبركة الى طشتمر انك تحضر أميرا كبيرا للقاهرة فأجاب الى ذلك وتفرقت العسكر من دمشق وسار طشتمر الى مصر فلاقاه برقوق وبركة ودخل القاهرة في موكب حافل واستقر أميرا كبيرا بمصر وأخذ يتصرف في أمور الدولة فلما رأى برقوق من اتساع كفة طشتمر واقبال الدنيا عليه بجذافيرها حسده وندم على تسليمه مقاليد المملكة وتناقت نفسه الى الملك وكان غاية في المكر والدهاء صبورا حازما مدبرا مولعا بالاستقلال فجعل يدبر لنفسه ويستميل كبار القوم حتى جاء عيد الاضحى من سنة تسع وسبعين وسبعمائة فركب في طائفة من أصحابه على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق يحكم البلاد وتصرف في أمور الدولة فعلت كلمته وكبرت شهرته وطار صيته وهابه الامراء وما زال على هذا الحال من الشهرة والمجد حتى مات السلطان الملك المنصور في سلخ ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة هجرية بعد أن حكم أربع سنين وأربعة أشهر فجمع برقوق الامراء كافة وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فانفق كلتهم على تولية زين الدين حاجي أخى الملك المنصور وله من العمر يومئذ ست سنين فبايعوه من يومه ولقبوه بالملك الصالح وأركبوه في دست السلطنة فلم يكن له منها سوى الاسم والكلمة للامير برقوق وليث الامير برقوق بعد ولاية السلطان الملك الصالح زين الدين سنة ونصف سنة يعمل على اعلاء كلمته وتوسيع شهرته وأخذ الملك لنفسه فلما تم له الامر قام في التاسع عشر من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة على الملك الصالح وخلعه ونفاه واستلم مقاليد الملك فكانت مدة سلطنة الملك الصالح سنة ونصف سنة وبضع أيام وكان هو آخر من حكم ديار مصر من دولة المماليك سلالة قلاوون المعروفين عند أهل التاريخ بالمماليك البحرية وبموته انقرضت دوائهم وعفت آبارهم بعد أن حكموا نحو من مائة وثلاثين سنة وقد مر بك بيان أخبار هذه المدة وما وقع فيها من الحوادث فقامت بعدها دولة المماليك الثانية وظهرت بظهور برقوق المذكور وهو رأسها ومؤسسها فسبحان من له الملك والملكوت وهو على كل شيء قدير

(وصـل)

(في أصل الجراكسة وفي طباعهم وأديانهم)

وفي

(منشأ دولتهم الثانية بديار مصر)

قال أصحاب التاريخ قد سمي الكتاب هذه الدولة بدولة الممالك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم كانوا من الشعب الشراكسي وقد اختلفوا في محل ظهورهم فمنهم من قال انهم ظهوروا بأسيمة العليا ومنهم من قال انهم نشؤا بسيريا ناحية بحيرة بيكال في نحو القرن السادس لليلاد المسيحي * والثاني أشهر * ثم نزحوا الى بحر قزوين فاستوطنوا غربيه وأنشؤا لهم مساكن على شبه الخيام فسميت تلك الاصقاع من ذلك الوقت باسم شراكسيا وتاسلوا ونموا نموا عظيما فكانوا بعد ذلك يحملون الى أقطار العالم للتجارة بهم كالسباع سواء بسواء وكانوا كغيرهم من بقية الامم في الازمان الغابرة عاكفين على عبادة الاوثان والتقرب اليها بالقرابين والذبائح وتقديم التقدمة من الاسلحة والحلي * قال بعضهم وكان في أحد الجبال الواقعة ما بين صخوم وصوغوجق التي يقال لها غوية شجرة عظيمة عجيبية المنظر تعادل في كبرها السنديان وهي مكونة من عدة أشجار مختلفة الاجناس قد نبتت في مكان واحد وتسمى عندهم يعني عند طوائف الشراكسة باسم * قودوش * فكان يأتي اليها في يوم معلوم من كل سنة طير كبير اسمه بيوغه زعوا انه يسند رأسه على تلك الشجرة ليسلم نفسه للذبح قربانا لها ولا يمانع من يأتي ليدبحه فانما فعل ذلك فام أحد الجماعة الحاضرين هناك في ذلك اليوم فيذبحه في الحال ثم يصبون على رأسه وعينه شيئا من الخمر أو البوزة ثم يكشفون رؤسهم ويأخذون طفياتهم بأيديهم ويصبون ويقولون يا الهنا العظيم ان عنايتك بعبيدك ليس لها حساب ولا حد ثم يسجدون ويتضرعون لهذه الشجرة وهم مكشوفو الرؤس وبعد ذلك يقسمون فيما بينهم لحم ذلك الطير وجلده ويحمدون معبودهم وينصرفون واذا سار جماعة منهم الى السرقة والنهب بجرا في القارب المعروف عندهم باسم نجبا أو خرجوا الى السلب في الطرق والجبال ينذرون لتلك الشجرة شيئا من سلاحهم وآلة حربهم ان هم فازوا وظفروا بفريستهم فيقول الواحد منهم ان غلبت في فوتي هذه فاني أنذر لشجرة قودوش أحسن بارودة أو أحسن درع أو أحسن شيء لاتفنيه الامطار ولا تعمل فيه العواصف فاذا تم له ما أراد أتى بما نذره فيعلقه على أغصان تلك الشجرة

ولذلك كان يرى على أغصان قودوش المذكورة شئ كثير من تلك النذور باقية معلقة محترمة لا يستطيع أحد أن يمسه بيده لانهم يزعمون أن من سرق شياً من تلك الاشياء مات لساعته وكان لمعبودتهم قودوش هذه نواب يعرفون باسم طغالك وهؤلاء النواب يختارهم الناس يعنى اذا رأى أحد من الناس شجرة فى جوار داره واستحسنها واستعظم حجمها اتخذها نائبة عن قودوش فيسترساقها بسيلاج لطيف ويربط أطرافها من أعلى بالحبال والحشيش اليابس على هيئة عمامة ثم يسميها باسم طغالك وينسبون اليها نماء زرعهم وحفظه من الصيال فاذا هاف الزرع مثلاً ونقصت غلة الارض فى سنته تقدموا الى تلك الشجرة وجعلوا يتضرعون اليها ويقولون وهم حاسرو الرؤس نرجوكم منكم أيها المعبود العظيم أن تبارك فى غلات أرضنا وتكثرها فى عامنا هذا فقد كانت فى العام الماضى غير كافية لنا ولضيقنا ثم يسجدون تحتها لجهة الشرق ويذبحون رأساً من الضأن أو المعز قرباناً ويصبون على رأسه شيئاً من الخمر أو البوزة ويكثرون هذه الضراعة والابتهاال كل قليل الى زمن الحصاد فاذا أخضبت أرضهم وكثرت غلاتها فى عامهم ذلك فرحوا وخروا سجدا لمعبودتهم وبالعوا فى تعظيمها والا حنقوا وصاحوا عليها لما اذا لا تسمعين ندائنا ثم يغضبون فينزعون عنها أوراقها ويقطعون أغصانها ثم ينزعونها من أصلها ويحرقونها ويتخذون لهم معبودة أخرى مكنتها ثم يتقدمون اليها بالتجليل والتعظيم ويقولون لها يا معبودنا الجديد ان الطغالك الذى كان لنا فعبدناه من قبلك حيناً قد أساء الينا فألقيناه فى النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة وسنة قوم بعبادتك خير قيام فان أنت لم تصنى الى ندائنا فلعنالك وألقينالك فى النار * قال الراوى وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة * وكانت عادة السلاطين الجانكيزيين أنهم يعطون أولادهم الى أمراء الجراكسة لارضاعهم وتربيتهم على حالة البداوة فاذا أغوا مدة الرضاع والتربية ردوهم الى آبائهم فكانوا لذلك يغدون ويروحون الى بلاد القرم ولاختلاطهم بمن اعتنق الدين الاسلامى من التتار مال بعضهم الى التدين به فخلطوه ببعض عاداتهم فكانوا يصومون شهراً فى السنة وبعد أربعة أشهر من هذا الشهر يطبخون حبوب عاشوراء ثم بعد ذلك بشهر أيضاً يدعون لقراءة المولد النبوى شيخاً عارفاً بطائهم فيقرأ عليهم شيئاً تقليداً للاسلام وكانوا يعملون فى كل سنة ضيافة على اسم سلطان الابطال الامام على بن أبى طالب ويتظاهرون مثل العلويين وظلوا على هذا الحال حيناً من الدهر وهم لا يعرفون من الاسلام غير الاسم فقط لان العبادة التى نقلوها عن التتار لم يقصدوا بها عرض العبودية لجانب الحق سبحانه وتعالى وتعظيم نبيه ورسوله بل كانت لحصول الفيض والبركة * قال بعض السكاك وكانوا أيضاً يعملون عيد فصح لروح أبى جهل ويسمون هذا الفصح باسم صاوصوروق اه وقد دخلت النصرانية فى عدة جهات من بلاد الجراكسة بسبب الجنويزيين الذين استوطنوا ساحل البحر الاسود فى القرون المتوسطة فمال الى التدين بها الكثير منهم وكادت تعم جميع القبائل فلما تغلبت الدولة العثمانية على بلادهم واستنقر أمرها ظهر الدين الاسلامى وزال

وكانت لهم حكايات وروايات غريبة للغاية يروونها بالسند الى معبوداتهم ودينهم قبل الاسلام * منها أنهم كانوا يروون أن رجلاً محبوساً في مغارة في جهة قلعة الحجاج السكائنة في جبل البرز يقال له ﴿ ضحالة ماري ﴾ فاتفق أن رجلاً من أهل قرية كانت تقرب من ذلك الجبل كان يتجول في الجبل للصيد فرأى المغارة المذكورة ففكر في نفسه وقال ليتها فصلح مأوى للغنم ثم دخلها فلم يفته الى جوفها حتى سمع صوتاً مريباً أوقفه عن المسير فجعل يفرط عينيه بيديه لعله يرى ما في داخل المغارة وإذا به يرى شيئاً هائلاً على شكل الانسان مربوطاً بحباله الى عنقه ويدها مقيدتان بقييد محكم وفي وسطه سلسلة من حديد فوقف الرجل قليلاً حتى سكن روعه واطمأن بجأشه وعلم أنه محبوس وبينما هو يفكر في أمر ذلك المحبوس اذ خاطبه المحبوس قائلاً مرياً أئني لا تخف واقترّب مني فاني مرهون هنا ومنظر للوقت المعهود فان أنت أحسنت لي العمل فأنني بعصى طويلة تشبه القصب الطويلة التي يعلق بها حبيل الغسيل فان فعلت وقدرت على أن أنزل هذا السيف المعلق أمامي فأنني أنخلص من هذا القيد وهذه السلسلة التي أنا مربوط بها فأجازيك على احسانك بخير الاحسان وأحفظ لك هذا الجبل على الازمان قالوا فحن اليه الرجل وأتاه بعضاً فتمناولها ويدها مربوطتان ومدها نحو السيف واجتهد جهده في تنزيله فلم يقدر فالتفت الى الرجل وقال له بورك فيك لم يأت وقت نجاتي ولا ساعة خلاص من هذا الاسر وكسر العصا قطعاً فجعلها جذاً اذا كقطع السوالف فتركه الرجل وانصرف وعاد الى القرية فأخبر زوجته وأولاده بما رآه وحديثهم بما سمعه من ذلك المحبوس ولبث أربعة أيام ومات وشاع خبر موته وما أخبر به أولاده من خبر ذلك المحبوس فاجتمع أهل القرية وقالوا كيف يموت وقد عاش جده وأبوه أكثر من مائة عام وهما لم يشاهدا ذلك المحبوس ولا المغارة ولو لم يره هو مامات وهو في هذا الامر واستولى الخوف من الموت على جميع أهل القرية فتعاهدوا على أن لا يذهب أحد منهم الى تلك المغارة وشاع خبر ما وقع بين القرى المجاورة فاجتمعوا وتعاهدوا على أن لا يقتربوا من تلك المغارة ولا يراها أحد منهم وعملاً لذلك حدوداً لا يتخطوها فأوت الى تلك الحدود الوحوش من الثعالب والسمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو والليل والرخم والغرفوق ودجاج الارض والدجاج وصيدها جميعها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد للارين وهي آمنة مطمئنة لا خوف عليها * ومن عادة الامهات عندهم أنه اذا بكى الطفل وأسكتته أمه ولم يسكت خوفاً منه بصاحب تلك المغارة فتقول له مه والا أنت بك بصاحب المغارة فيفعل بك كذا وكذا ويروون عن هذا المحبوس غير ذلك أيضاً ولهم عادات في عباداتهم كثيرة غير ما ذكرناه قد أضربنا عن ارادها هنا

(لاحقة)

(في أخلاق الجراكسة وعاداتهم)

جاء في تاريخ العلامة جودت باشا ما تعريبه ۞ جبت أرض قبائل الجراكسة والابانطة طولاً وعرضاً فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الادران ووجدتهم قوما عقلاء قائلين للحضارة والمدنية ذوى شجاعة وجسارة صادقين في أقوالهم ثابتين فيها لا يتكلمون بالكذب أصلاً ولا يخلفون أيماناً كاذباً فإذا اتخذت لك منهم خادماً فهما كان عنيداً فظاً عاصياً فاستخلفه على الأمانة والولاء فإذا حلف لا يخونك أبداً ولا يحنث في يمينه ولا يعمل على خلاف ما أقسم به ولكن يجب استخلافه على كل أمر بحرفه فتقول له احلف أنك لا تخونني في كذا وفي كذا وفي كذا فإذا ارتكب الخيانة في أمر وعاقبته عليه وكان غير داخل في عداد ما استخلف عليه قال قد حنثت في هذا الأمر لأنني لم أحلف على عدم الخيانة فيه * قال وهم قوم في غاية السخاء والكرم يقرون الضيف حتى لو كان صاحب البيت من أشرفهم والمضيف من صغاليكهم أو من أحد العامة فإنه لا يقعد في حضوره بل يخدمه واقفاً على قدميه ولا ينام بل يقضى ليله مسلحاً بسلاحه لحفظه وحراسته ومن عاداتهم أن صاحب البيت لا يأكل مع الضيف ولا من الطعام الذي صنع للضيف ولا ينزعون عن الدجاج الذي يطبخونه للضيف رؤسها عن أبدانها بل يضعونها أمام الضيف كذلك إشارة إلى أن رؤسهم وأجسامهم فداه له وألبستهم تكاد تكون جميعها من لون واحد فلا فرق بين الغنى والفقر في الملابس وفقرائهم لا يصيرون أغنياء وأغنيائهم لا يصيرون فقراء وجميعهم يعتقدون أنهم اخوة بعضهم لبعض فإذا لزم لأحدهم شيء وطلبه من الآخر أعطاه إياه بلا معاوضة ولا يجيبه بكلمة لا * ومن عاداتهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يسبه ولا يضربه ويستخدمون أسرارهم بالرفق واللين من غير أن يضربوهم أو يؤذوهم ولا يقترون عليهم في المأكل والمشرب وليس من الأمور المعيبة عندهم النهب والسلب أو التخريب بل يعتبرون ذلك من البسالة والافدام * ومن عاداتهم احترام الشباب للشموخ فلا يقصر الشاب في خدمة الشيخ بل يقوم بخدمته قيام العبد لخدمة مولاه ويصح لصاحب الحسب والنسب والقدر الرفيع من قبائل الجراكسة أن يتزوج بنت أحد الناس ليكسبها قدراً وشرفاً ولكن لا يصح أن الاصاغر من الناس يتزوجون بنات ذوى الحسب الرفيع مطلقاً ولا يسكنون بجوار بعضهم بل بيوتهم متفرقة على رؤس الجبال فإذا حدث لأحدهم حادث نادى بما يعبر عنه بلسان القتار أبش حريق فيوصل خبر ذلك الحادث إلى جميع البيوت في وقت قريب للغاية فيجتمعون ويتكلمون في أمر ذلك الحادث وإذا قاموا لحرب قدموا عليهم

أحدهم فلا يبقى لأحد منهم كلمة فوق كلمته فعليه تدبير أمرهم في تلك الحرب وعليهم طاعته في جميع ما يأمر به فإذا انقضت الحرب عاد كل إلى ما هو عليه من الحرية والاستقلال ولغتهم متعددة ولا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة قال ومع هذا كله فإنهم متوحشون جبليون لا يميزون بين الكفر والإيمان ولا بين الخير والشر ولا يقدر غريب أن يطوف بينهم وإذا أراد أحد الناس أن يمر بين مساكن إحدى قبائلهم أخذ معه دليلا من قوم تلك القبيلة والا وقع في مخالب العطب وهذا الدليل يقال له (شاغري) وهذا الشاغري يكون مرعى الجانب مسموع الكلمة فإذا شاء أحد من الناس الاختلاط بقبائل أولئك القوم ومعاشرتهم والتطواف بين منازلهم كواحد منهم لزمه أن يتبنى لأحد أصحاب الحسب وطريقة ذلك عندهم أنه يأخذ أولا ثوبين من القماش الأبيض وجلدا من السحتيان وبرة وخيطا ومشطا وكستباناً ثم يطلب له دليلا فإذا وجدته يعطيه أحد الثوبين المذكورين أجرة ليوصله إلى أمير القبيلة التي يختارها فيسير به إلى دار الأمير فيقدم هديته إلى امرأة صاحب الدار وإذا كان صاحب الدار غائبا في ذلك الوقت لزمه الدخول إلى فناء الدار وطلب زوجة صاحب الدار فإذا جاءت هجم عليها وأخذ بغية أحد تديها وجعل يرضعه وهو يقول قد صرت في بيت الوالدين وصرت لك ابناً في الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتا وكان زفافها إليه تلك الليلة وإذا كان لا يعرف رطانهم يبلغهم ما يقول بواسطة ترجمان منهم وقاعدتهم في هذا الأمر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره إشارة لقبول بنوته ثم تأذن له بالإقامة عندهم وعند ما يأتي زوجها تخرج إليه ويقول له انظر إلى هذا فقد اتخذته لي ولدا ثم تشير إلى زوجها بأن يقبل يده فيفعل ويقبله أيضا ويأخذ من يومه في تدارك أمر ضيافته فيعد لذلك ما طاب من إنا كل والمشراب ويدعو قبيلته ومن جاورها من بقة القبائل ويجعل ذلك الوقت عيداً فياً كاون ويشربون ويفرحون يومهم ذلك وفي ختامه يقول صاحب الدار لجميع من حضر انظروا قد اتخذت هذا لي ولدا فيمشون في وجهه ويمنونه ثم ينصرفون ويبقى صاحب الدار وذلك الرجل في الاتصال كلاب والابن ويظهر كل منهما للآخر محبة فيغدو الرجل وروح بلا ممانع فإن كان تاجراً فلا يبقى في حاجة إلى من يحفظ عليه ماله بل يكون آمناً من جميع المخاوف والمخازير فإذا صادفه في طريقه أحد وقصده بسوء من أخذ ماله أو أذهب روحه فقال أنا متبني لنلان فإنه ينكشف عنه فإذا لم يلتفت إلى قوله وأخذ ماله أو أخذ أسيراً واتصل خبر ما جرى له بأبيه قام لاسترجاع ما أخذ منه أو استخلاصه وأخذ أيضاً من الفاعل لذلك تسعة أمثال ما اغتاله ويسمون ذلك عندهم (عيباق) أي جزاء ما ارتكبه من العيب وهي عادة من رسمهم القديم وإذا كان الصائل أو المغتال لا قدرة له على دفع هذا الجزاء أخذ أسيراً وبيع * ومن عاداتهم أن من يحكم عليه بالجزاء لا يهرب بل يسلم نفسه وإذا كان له بنات ورضى أب من أخذ ماله بأخذهن جازله بحسب قانونهم أخذ اثنتين منهن بدلا عن أبيهما فيباعان عوضاً عن أبيهما

والقتل عندهم من أكبر الجرائم وأشدّها عقاباً ولذلك يتقاعدون عنه ما استطاعوا
 فإذا ضرب أحدهم آخر ضرباً أفضى به إلى الموت كان الجزاء بحسب مرتبة الأهل وهم على
 ثلاث مراتب وهي مرتبة البكوات * ومرتبة الأوزنيين * والطوفاد * فالبكوات هم كبار
 القبائل وأصحاب الحسب والنسب والأوزنيون هم أواسط الناس والمساتير منهم والطوفاد هم
 العامة فإذا كان المقتول من أواسط الناس كانت دية عشرة إن عدداً حسب اصطلاحهم
 خمسة منها أسرى تقاس قسودهم على قدر معلوم بالشهر والخمسة الشامية منها عبارة عن
 خمسة رؤس من جباد الخيل كل رأس بقيمة أسير والخمسة الثلاثة منها عبارة عن خمسة
 دروع كل درع قيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقه) يعطى فيها سيف وبارودة
 وفوس ولا بد من قيام المحكوم عليه بالدية بجميع ذلك على أى حال كان ولما لم يكن عندهم
 نقود ولا سكة كان تقدير قيمة الأسير عندهم بالشهر ولا يعتبر عندهم ثمن الأسير بحسب
 جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على حسب الشهر والأسير التام عندهم ستة أشبار فإذا
 كان أقل من ذلك عد ناقصاً فإذا لزم أحدهم أن يعطى آخر أسيراً تاماً وأعطاه إياه بقياس
 أربعة أشبار مثلاً لزمه أن يتم الباقي بشئ آخر * ومن عاداتهم أيضاً أنه إذا زنت امرأة
 وثبت زناها بيعت هي وجميع أولادها بأجنس الأثمان * وقاعدة ذلك عندهم * أن زوج تلك
 الزانية يذهب إلى أبيها وأمها ويخبرهما بما وقع ويقول إن بنتك بنت حرام فخذوها عني
 وأعطيني ما أخذتوه مني مقدماً في عقد نكاحها فعند ذلك يتبرأ منها والداه وبأذناه بأخذها
 وبيعها هي وأولادها فيصمّلها مع أولادها إلى الخناس ويبيعهم ويأخذ عنهم فلا يصل إلى
 داره إلا ويكون قد فرق جميع الثمن المقبوض على اخوانه وخلانه ويبيت ليلته تلك ويصبح
 فيسير إلى بيت الزاني ومعه بعض كبار القبيلة ويقول له قد بعث المرأة بكذا من الثمن وأطلب
 منك حتى ثم يتركه وينصرف ويرسل إليه في ثاني يوم من يطالبه بهذا الثمن فلا يسع الزاني
 إلا أن يقوم بدفع الثمن الذي بيعت به المرأة وتسعة أمثاله أيضاً جزاء ما ارتكبه من فعل
 الزنا فإن كان الزاني لآمال عنده ولم يوجد من يعينه على ذلك فيقوم عليه والداه ويقيدانه
 ويلبسانه إلى زوج المرأة ويقولان له هذا حقك فيأخذ به حيث لا يضربه ولا يشتمه ولا يهينه
 ولا يوبخه ولا يقول له أنك فعلت كذا وكذا لأن الشتم وخش القول عندهم مكروه ويسير
 به إلى السوق ويبيعه بأي قيمة أعطيت فيه ثم يلتفت إلى الشخص ويقول له هذه قيمتك
 ويفرق ما قبضه من الثمن على الحاضرين ثم إن قبيلة الجاني توفى بقيمة حقه

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الأربعة جميلة وأراضيها خصبة ذات
 محاصيل كثيرة وينبت فيها جميع أصناف الخضر ولكن جميع قبائل الجراكسة
 لا يأكلون الخضر ويعيشون على أكل اللحم فقط وليس لهم غاية في الفلاحة فهم ذوو
 كسل وبطالة وطباعهم أشبه شئ بطباع العرب البادية ولكنهم لا يعادون بعضهم
 ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب الترفق والحشمة والاحترام من

بعضهم وفي بلادهم جميع أنواع النباتات كالسنا والراوند الصيفي ونوع من السحلب القوي وجميع أنواع الفاكهة والخضر والزيتون والكستنة والشاي السبرى ومن أشهر الاشجار عندهم شجر البقس وهو يصلح للسفن جدا فلذلك اذا أتى أصحاب السفن لاخذ شئ منه لا يتقدمون الى ذلك الا اذا وضعوا رهائن منهم عند كبار الجراكسة وأخذوا معهم رهائن منهم أيضا ليكونوا آمنين من شر أصحاب القرصان المعروفين باسم نجابا ولا يوجد عندهم ملح مطلقا وهو عزيز للغاية عندهم فلذلك جرت العادة عند أصحاب السفن التي تسير الى بلاد الجراكسة أن يأخذوا معهم كثيرا من الملح ويتعاملون به معاملة العروض وذلك بأن يضعوا مقدارا من الملح في إحدى كفتي الميزان ويجعلون في الكفة الثانية مقدارا من العسل مثلا أو من شمع العسل أو من جلود الثعالب والسمور * وفي بلادهم أيضا سائر أنواع الصيد من الطير والوحش ولهم في القنص أمر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك أنهم يعلقن قطعة من اللحم في شجيرة ذات شعوب فيأتي الفهد ويثب لأخذ اللحم فتعلق رجله في شعبة الشجرة فيمسك وفي الحال يسلمنه الى رجل طويل القامة يسلم جملده * ومن عاداتهم الغريبة أن الذي يسلم الفهد يلزم أن يكون مساويا للفهد في الطول ولهم عوائد أخر غير ما ذكر قد أضربنا عن إيرادها خوف الإطالة وقد جاء بهؤلاء الجراكسة ملوك مصر وأكثروا من شرائهم وتغالوا في ملبسهم ومركبهم لا سيما السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الكامل فكانوا مع من بقي من المماليك البحرية الذين اصطفاهم السلطان الملك الصالح لخدمته وسلم إليهم دولته يدا واحدة فكانت لهم حراسة الحصون والقلاع وفي أيديهم سائر الأبراج وقد سكنوها وتسموا بها فكان يقال لهم البرجية كما كان المماليك البحرية يسمون أيضا في أيام الملك الصالح بالخلفة إشارة الى أنهم كانوا لا يفارقونه في حله وترحاله وما زالوا على هذا الحال حتى عظم أمرهم واشتد بأسهم وظهرت كلمتهم وهابهم الأمراء لتمكنهم من مناصب الدولة وأمور المملكة وتزاف السلاطين الى كبارهم وأذنوهم خوفا من بطشهم وأخذوا برأيهم وعملوا بشورتهم فسادوا وأمروا وفازوا واشتهروا وظهر من بينهم برقوق اليلغاوى العمري الذي تقدم الكلام عنه واشتهر أمره واتسعت كلمته وخضع له كبار الدولة وأمراء المملكة فتصرف في جميع الأمور تصرف المستبد وركب في دست السلطنة في أيام الملك المنصور وفي سلطنة أخيه الملك زين الدين حاجي وما زال على هذا الحال من الرفعة والسود وعلو الكلمة حتى تمكن ورسخت قدمه وخلع السلطان الملك الصالح زين الدين واستبد بالملك وطلب من الخليفة المتوكل البيعة فبايعه وبايعه القضاة والعلماء والأمراء وكبار الدولة ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا بالملك ركن الدين بيبرس البندقداري * ثم كان من أمره وأمر من جاء بعده من هذه الطائفة ما سيذكر بعد

(فصل — ل)

((في الكلام على ما وقع في أيام هذه الدولة أعني دولة الجراكسة الثمانية

الى انقراضها وزوال ملكها))

لما تمت البيعة للسلطان الملك الظاهر برقوق أحسن السيرة وبالع في الاهتمام بشؤون البلاد وراحة الرعية ورتب أمور الدولة وأتقن نظام المملكة وحصن الثغور وعمر الابراج ورم القلاع وأكثر من العساكر والاجناد وتأهب لقتال تيمورلنك وقد كان تيمورلنك على عزم الزحف على الشام وأخذها والركوب على ديار مصر واستخلاصها من يد السلطان الملك الظاهر نخرج السلطان الملك الظاهر في أبهة عظيمة وسار من القاهرة في جيش جرار لقتال تيمورلنك * فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت جيوش تيمورلنك شر هزيمة وعادت خاسرة وعاد السلطان الملك الظاهر برقوق بجيوشه الى القاهرة ظافرا غانما ودخل من باب النصر في أبهة وأمامه الامراء ورؤساء الدولة ففرح الناس برجوعه ودقت البشائر ولم يستقر به المقام بالقاهرة حتى سعى أصحاب السعاية بينه وبين الخليفة المتوكل فاعلموه أن الخليفة واطأ بجاعة من أهل الفساد على قتله اذا لعب الكرة وأنه تعاهد مع آخرين على نصرته واستبداده بالامر وأن الخليفة يقول انه ما فوّض الى السلطان الملك الظاهر برقوق السلطنة لا كرها وأنه لم يسر في ملكه بالعدل فاستعظم الملك الظاهر هذا الامر وبث العيون والارصاد حول الخليفة المتوكل فكبرت الوحشة بينهما وخاف كل من صاحبه وتحفظ فاستدعى السلطان الملك الظاهر بالقضاة والائمة والعلماء وخطبهم في أمر الخليفة وما بدا منه وأعلمهم بخبر الدعاة الذين انضموا اليه ووافقوه على خلع السلطان فأجمعوا على خلع الخليفة وطال الاخذ والرد بينهم أياما ثم خلعوه وقبض عليه وسجن بقلعة الجبل في سنة سبع وثمانين وسبعمائة هجرية وقيل بل امتنعوا من اجابة طلب السلطان وقاموا عنه فخلع هو الخليفة بقوته واعتقله بالقلعة ثم طلب عمر بن ابراهيم بن المستمسك بن الحاكم وباعه ولقبه الوائق بالله وذلك في رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة * فلما كان ذو القعدة من السنة المذكورة أخرج المتوكل من سجنه فأقام بداره مكرما لا خوف عليه * وقد كان الخليفة المتوكل المذكور خلع قبل هذا الحين بقليل وذلك انه لما مات الاشرف وأقيم ولده المنصور على كان الامير أيتبك البدرى مدبر دولته فوقع بينه وبين الخليفة المتوكل كلام ففقد أيتبك على المتوكل أمورا فطلب نجم الدين زكريا بن ابراهيم ابن ولي العهد المستمسك ابن الخليفة يوم الاثنين رابع ربيع الاول سنة تسع وسبعين وخلص عليه وأقامه خليفة

فاستقر بغير مبايعة ولا إجماع ولقب المعتصم بالله * فلما كان العشرون من الشهر المذكور كأم الأمراء أيتبك فيما فعله مع المتوكل ورغبوه في إعادته إلى الخلافة فأعاده وخلع زكريا فكانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوما ولم يتم الشهر على أيتبك حتى اتفق العسكر على خلافه وقاموا عليه فهرب فتبعوه وظفروا به في ناسح ربيع الآخر من السنة فقيده وسجنوه بالأسكندرية ثم كان آخر العهد به فقال فيه شهاب الدين ابن العطار

من بعد عز أذل أيتبكا * وانحط بعد السمو منفككا

وراح يبكي الدماء منفردا * والناس لا يعرفون أين يكي

واستقر الواثق في الخلافة إلى أن مات حتف أنفه يوم الأربعاء ناسع عشر شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة أو سنة سبع وثمانين وسبعمائة فكلّم الناس برقوقا في إعادة المتوكل إلى الخلافة فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذي كان أيتبك قد ولاه تلك الأيام السيرة فبايعه ولقب بالمستعصم بالله فاستقر إلى يوم الخميس ثاني جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة * قال بعض أهل التاريخ وندم برقوق على ما صنع بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل إلى الخلافة فركب من يومه في الدست وحلف القضاء كلا من الخليفة والسلطان على موالاته الآخر ومناصحته وأقام زكريا بداره إلى أن مات مخلوعا في سنة إحدى وثمانمائة هجرية وقرئ تقليد المتوكل في المشهد النفيسى في ثامن عشر الشهر بحضرة القضاء والأمراء وقرره السلطان دارا بقلعة الجبل يسكنها ويركب إلى داره بالمدينة متى شاء واستمر في خلافته مهيبا محترما محبوبا عند الأمراء والوجهاء وكثرت أولاده كثرة فائقة وأثرى وكثر ماله وهابه الملك الظاهر برقوق لما رأى من طاعة الأمراء له واجتماع رجال الدولة على كلفه والأخذ بعشورته فلم يلبث على مصافاة السلطان الملك الظاهر الأقبلا حتى عادت الوحشة بينهما واستحكم النفور واشتد الخلاف فاتحد الخليفة المتوكل مع جماعة من كبار الأمراء وبينهم الأمير بلبغا الناصري والأمير منطاش على خلع السلطان الملك الظاهر فقاموا عليه وخلعوه من السلطنة وسيروه منفيا إلى قلعة الكرك واستقدموا السلطان الملك الصالح حاجي آخر ملوك دولة المماليك البحرية الذي قد كان خلعه برقوق على ما تقدم بيانه فحضر وبايعوه في السادس من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور واتسعت كلمة منطاش وكبرت صولته وتاقت نفسه إلى الملك فركب في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة على بعض الأمراء وقتلهم وأمسك الناصري مع جماعة من الأمراء وسيرهم إلى الأسكندرية وألقاهم في السجن وأرسل إلى بزلار نائب دمشق من أمسه وقتله وأقام بدله في نيابة دمشق الأمير جنتمر أخا الأمير طاز وسير إلى قلعة الكرك من يقتل السلطان الملك الظاهر برقوق وكان المرسل محموتا عند أهل الكرك فلما علموا بخبر مجيئه قاموا عليه وقتلوه

وأطلقوا السلطان الملك الظاهر برقوق فسار برقوق الى دمشق في نفر من أصحابه فخرج اليه صاحب دمشق بالعساكر الشامية فانتصر عليهم برقوق نصرة عظيمة ونزل بقبة بلبغا وحاصر دمشق وضيق عليها وشدد وتوجه اليه نائب حلب المدعو كشبغا بعساكر حلب فاصدرا له واجتمع اليه أيضا كل من كان قد تفرق عنه فكبرت جموعه وجاءت الاخبار بذلك الى منطاش بالقاهرة فخرج اليه منطاش بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بناحية شقيب فانتصر البعض من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحدهما حال الآخر فولى كشبغا هاربا نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر السلطان الملك الظاهر برقوق بنفسه الا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجي فنزل في الحال عن فرسه وأمسك الملك المنصور قيده وجلس هو على كرسي السلطنة وصار كل من يحضر من الفريقين يجده جالسا في دست السلطنة فلا يسعه الا النزول وتقبيل الارض بين يديه فلما كان اليوم الثاني خرج منطاش فيمن بقي من عسكر مصر والتقى الجمعان وتناوشا قليلا ثم رجع كل الى مقره وسار السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلانه فاصدا مصر ومعه جماعة من عسكر حلب والعسكر الشامي والمصري ووصل اليها فوجد مماليكه قد خرجوا جميعا من الجبوس وأمسكوا أعوان منطاش والعاملين معه ومنطاش بدمشق فدخل السلطان الملك الظاهر برقوق مصر فرحا مظمنا وأطلق جميع الامراء الذين حبسهم منطاش

وأما منطاش فانه لما بلغه خبر وصول السلطان الملك الظاهر برقوق الى مصر وما جرى فيها أرسل أميرا اسمه تتمر الموصالي الى حلب نائبها وحاصروا كشبغا في قلعتها وجاء الخبر بذلك الى السلطان برقوق فجهز عسكرا عظيما من مصر ومقدمهم الامير بلبغا الناصري وسير معه الامير الجوباني نائبا بدمشق وقراد مرداش نائبا بطرابلس فلما أحس منطاش بقدمهم هرب من دمشق وبلغ ذلك تتمر وهو يقاتل من بحلب فهرب أيضا وخرج الناصري والجوباني ومن معهم من العساكر من دمشق في أثر منطاش وهو منظم الى نعين بن جبار وعنقا فحصلت بين الفريقين وقعة عظيمة للغاية على مدينة حص قتل فيها الجوباني وجماعة من الامراء وعاد الناصري الى دمشق فجاءه تقليد نسيانها وبلغ ذلك كشبغا نائب حلب فأخذ في عمارة سورها ولم تكن عمرت من عهد طاذان ووصل منطاش ونعين وعنقا في جيش جرار ونزلوا حلب وحاصروها في شهر رمضان فلم يتمكنوا منها ورجعوا عنها خاسئين وأرسل السلطان الملك الظاهر برقوق في طلب الامير كشبغا فحضر الى مصر فؤلاه بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قراد مرداش بولاية حلب ولم ينكف منطاش عن شن الغارة كل قليل من الزمن على البلاد الشامية وكثر عبثه وفساده فكبر أمره على السلطان برقوق وخرج في جيش عظيم يريد الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستصحب معه الناصري وسارا الى حلب وأقاما بها أياما ثم عاد الى دمشق وفي ليلة عوده قتل بلبغا الناصري وجماعة من الامراء بقلعة حلب وأخذ معه قراد مرداش وقرر

عوضه في حلب الأمير سيف الدين بطلان الدوادار وسار في عسكره يريد مصر فدخلها في سنة أربع وتسعين وسبعمائة وفي قلبه غصة لعدم ظفرو بمنطاش وراحة البلاد منه فلم يرض على وصوله إلا القليل حتى جاءه الخبر بعسير منطاش إلى نعيم بن جبار ونزوله عليه طنبيا فأرسل السلطان برقوق ووعده نعيما بإعادة الأميرية إليه ومناه حتى سلم منطاش فسيره السلطان مع جماعة إلى قلعة حلب فقتل بها وأحضر رأسه إلى القاهرة وعلق بباب زويلة وعاد السلطان فمكث وعده لنعيم وأرسل إليه يوبخه ويعيره بأنه خان ذمة العرب ولم يوله الأميرية فقدم نعيم على ما صنعه بمنطاش وتمكن السلطان الملك الظاهر من السلطنة وثبت قدماء في مناصبها فهابه الناس وكبرت شهرته وتقرب منه الأمراء والملوك وأهدى له الأمير يوسف بن قرا محمد أمير التركمان بالشرق مدينة تبريز وبعث إليه بمفاتيحها مع بعض كبار قومه فأرسل إليه برقوق خلعة سنية وفوق إليه الغزو وفتح ما تمكن من فتحه من المدن والامصار ففرح قرا يوسف بذلك وجيش جيشا عظيما وخرج للغزو وقتال التتار فركب عليه تيمورلنك في عسكر جرار وقاتله فانتصر عليه تيمورلنك نصرة عظيمة ومزق عساكره كل ممزق فسار قرا يوسف ومعه أحمد بن عويس وهو ممن كان حالفه على قتال التتار إلى قسطنطينية مستجيرين بالامبراطور منول فلم يجدهما ولم يسمح لهما بالبقاء في بلاده خوفا من تيمورلنك لا سيما وقد كانت الامبراطورية كلها في ضعف واختلال بأسباب الحوادث المتراكمة وهجمات السلطان بايزيد رابع سلاطين آل عثمان على معظم ايلات المملكة الرومانية الشرقية وضم الكثير منها إلى أملاكه وقربه من مقر الامبراطورية لولا قيام تيمورلنك من خلفه في عسكر كبير ومنعه من التقدم إلى القسطنطينية * ولما لم يتمكن قرا يوسف وأحمد بن عويس من البقاء في جوار منول الامبراطور جاء إلى مصر في نحو سنة خمس وتسعين مستجيرين بالسلطان الملك الظاهر برقوق فأحسن برقوق وفادتهما وأتزلهما منزلا رحبا ولبثا عنده أياما وكان تيمورلنك والسلطان بايزيد التركي يتنن كل منهما فتح ديار مصر ونزعها من يد دولة المماليك الثانية فعمد كل منهما إلى إرسال وفد إلى برقوق فتم وفد بايزيد إلى برقوق في معاهدتهم على السلم وإلى الخليفة المتوكل على أن يقرهم على ما يبدونهم من سلطنة الاناضول فأجابهم إلى ذلك أما سفراء تيمورلنك فاتهم أغلظوا في القول وسألوه تسليم قرا يوسف وأحمد بن عويس فطيب برقوق خاطرهم ولا طفتهم فلم يزدادوا الاعتوا فأمرهم فقتلوا جميعا فشق ذلك على تيمورلنك واستعظمه وسار في جيش عظيم إلى مصر أخذ بالثار فتر بالرها ففتحها وأعمل السيف في أهلها تشفيا وانتقاما فأهلك منها خلقا كثيرا ثم جاء إلى حلب فألقى فيها نخشى السلطان برقوق العاقبة وخرج من القاهرة في عسكر عظيم وهجمته السلطان أحمد بن عويس يريد دفع تيمورلنك عن البلاد فلما وصل إلى دمشق خلعت على السلطان أحمد المذكور وجهه بشعار الملك وسيره إلى بغداد فآخذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق وجعل السلطان برقوق يتأهب لصد

تيمورلنك ويكثر من جمع الاسلحة والكرارح الا أن المنية أدركته قبل أن يتم له الارب فمات
بداء الصرع في يوم الجمعة خامس عشر شوال سنة احدى وثمانمائة هجرية وعمره ستون سنة
فحزن عليه الناس حزنا عظيما لعدله ورفقه بالرعية وقد أبطل في أيامه المكوس عن
الفاكهة والاثمار التي كانت ترد من طريق بولاق وكان كثير الصدقات محبا للعلم والعلماء
بنى مدرسة عظيمة وسماها المدرسة الظاهرية وابتنى جامعاً لا يزال الى يومنا ظاهراً معروفاً
بجامع برقوق وكان له ولع باقتناء الاسلحة وجياد الخيل والاستيلاء من الممالك الجراكسة
وكان كثير العناية بامور الدولة وتنظيم المملكة

ولما مات السلطان الملك الظاهر برقوق المذكور بايعوا بالملك ابنه فرج زين الدين
الملقب بابي السعادات وله من العمر يومئذ ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر
فلما كانت سنة ثلاث وثمانمائة وردت الاخبار الى الملك الناصر بتأهب تيمورلنك
للزحف على ديار مصر والشام فانه لما عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك
الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على محبيه بجملة تحف وكان في نفسه منه لقتله رسالة
ومن أخذ السلطان بايزيد خان مدينة سيواس عقب موت صاحبها القاضي برهان الدين
سنة ثمان وتسعين وسبعمائة مع ملاطية وأخذ السلطان أحمد بن عويس بغداد فقصد بلاد
الشام ومعه من العساكر مالا يكاد يحصى * قال أبو الوليد محمد بن الشحنة الحنفي
أخبرني الحافظ الخوارزمي أن بديوان عساكر تيمورلنك المختصة به ثمانمائة ألف وانه اجتاز
على سيواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لاهلها أن لا يضع فيهم السيف فلما تمكن
منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ثم أحرق البلد وأخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها
قد أدخلوها فأحرقها وأخربها ثم توجه الى ملاطية فهرب من كان بها فأخذها وأخربها ثم اجتاز
بهنى فحصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحاً * ولما كان يوم الخميس
تاسع ربيع الاول وصل الى حلب ونازلها وكان العامل عليها يومئذ المقر السيفي دمر داش
الخاصكي فارسل يستنجد بخاءته عساكر دمشق مع نائبها سعيد بن سودون خال الملك الناصر
وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفي شيخ الخاصكي وعسكر حماة مع نائبها دقاق وعسكر
صفد وغزة فلما اجتمعوا اختلفت كلمتهم فمن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار ومن
قائل اخرجوا الى ظاهر البلد بالخيام وظلوا على هذا الحال أياماً فلما رأى الامير دمر داش نائب
حلب اختلافهم خاف شر العقوبة فأذن للناس في اخلاء المدينة والتوجه حيث شاؤوا فلم
يوافقوه على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد لتقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك وطلب
الاجتماع بنائب دمشق فأذن له فلما دخل عليه أمر بعض غلمانه فقتلوه قبل أن يسمع
كلامه فلما لم يرجع القاصد علم تيمورلنك أنه قتل فنادى في العسكر بالخروج فخرجوا
من خيامهم وزحف بهم على المسلمين في يوم السبت حادي عشر ربيع الاول وأمامهم الفيلة
فزعر المسلمون وخافوا وولوا نحو المدينة وازدحموا على الابواب فمات منهم خلق عظيم

والعدو وراهم بأسر وبقتل بحد السيف وأخذ تيمورلنك البلد عنوة فصعد فواب المملكة
وخواص الناس الى القلعة وكان أهل حلب قد أودعوا غالب أموالهم بها فحاصر القلعة
وشدد عليها وضيق فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول أخذها بالامان والايمن
بجدة عن الذمة والايمن فدخلها العسكر وابشوا بها يومين اثنين ثم غدروا بكل من فيها وأمر
فمنقلوا جميع ما كان بها من الاموال والاقشة والامنة مما لا يحصى وعاقب أغلب
المسلمين بأنواع العقوبات وجسهم بالقلعة ما بين مقيد ومنحجر ومسجون ومرسم عليه
ثم نزل تيمورلنك من القلعة الى دار النياحة وصنع وليعة على رى المغل فوقف سائر المسالك
والنواب في خدمته وأدار عليهم كؤس الخمر فشربوا وطربوا في ذلك اليوم والمسلمون
في عقاب وعذاب وقتل وسبي وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب
ونبش الى آخر شهر ربيع الاول فركب تيمورلنك في عسكره وسار نحو دمشق وقد أقام
على حلب نائبا اسمه الأمير موسى فلما جاءت الاخبار الى الملك الناصر بمسير تيمورلنك
الى دمشق خرج من القاهرة في عسكر كبير وسار نحو دمشق لقتال تيمورلنك فالتقى
الجمعان وانتشبت الحرب بينهما فكانت مجالا ثم وقعت الهزيمة على الملك
الناصر ومزقت عساكره كل ممزق فعاد الى القاهرة ليجمع ما تفرق منهم ويعود لقتال
تيمورلنك فبلغه أن تيمورلنك قد اشتغل عنه بقتال السلطان بايزيد ابن السلطان عثمان
التركي ففرح بذلك واستبشر * وكان تيمورلنك لما وصل الى قرا باغ بلغه أن بايزيد سار الى
ارزنكان وأخذها فعظم ذلك على تيمورلنك واستكبره وسار في عسكره الى بلاد السلطان
بايزيد يريد أخذها فخرج عليه السلطان بايزيد والتقى الجمعان بالذكورية وحصل بينهما
قتال شديد فدارت الدائرة على السلطان بايزيد وسقط أسيرا في يد تيمورلنك وبقي عنده
مأسورا الى أن مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاد وجهز قصاده الى السلطان
الملك الناصر صاحب مصر يطلب منه أميرا من أمراء اسمه الطنسي كان قد أمسكه من
عدة سنين قرا يوسف وجهزه الى الملك الظاهر برفوق وبقي في مصر الى ذلك الحين خاف
السلطان الملك الناصر من ذلك وخشى شر العاقبة وترددت الرسل بين تيمورلنك وبينه في
تقرير قاعدة للصلح وما زالوا حتى انعقدت بينهما مودة ومهادنة فارسل السلطان الملك الناصر
الى تيمورلنك زرافة حبشية فاهداه تيمورلنك فيلا وتنابت رسائل المودة بين الفريقين
فظن الناس خضوع السلطان الملك الناصر الى تيمورلنك واعترافه بالمبايعة الى دولة التتار
فخوفوا من ذلك وانقبضت نفوسهم وانحرفت خواطرهم على الناصر وأحس هو منهم
بذلك فانكش وتحرز وأبعد عنه كثيرا من الامراء ومقدمي الاجناد وكبرت الوحشة بينهم
وبينه * وانفق أن قصر النيل في سنة ست وثمانمائة هجرية ثم شرقت البلاد فدهى أهل
الصعيد من ذلك بما لا يوصف واشتد القحط وكثر الموت في الناس والدواب فماتت في مدينة
قوص وحدها جوعا زهاء سبعة عشر ألفا ومات في أسبوط أحد عشر ألفا ومات نحو ذلك

وأكثر في مدن أخرى واشتد الكرب وعم الخطب وطالت الشدة أياما فزاد بغض الناس
 للملك الناصر واعتقدوا أنه ما وقع لهم ذلك إلا لتقرب الناصر من تيمور لملك وخضوعه لدولة
 التتار ثم ارتفع الموت عن الناس وكثر الوارد من الحبوب والاقوات فقرحوا بذلك وجاءت الاخبار
 بموت تيمور لملك في السابع عشر من شعبان سنة سبع وثمانمائة فزاد فرحهم واطمان جاش
 السلطان الملك الناصر وهم باسترجاع مأخذ تيمور لملك من البلاد الشامية وطمع في ذلك
 لما تحقق من وقوع الفتنة بين أولاد تيمور لملك واختلال نظام مملكة أبيهم فآخذ بجيش
 الجيوش ويكثر من جمع الاسلحة والكرام بدون مشورة الامراء ومقدمي العساكر فأغضبهم
 ذلك منه وانضموا الى أعدائه من بقية الامراء المبعدين فلما حانت لهم الفرص ركبوا
 وضيقوا عليه في قصره وقام معهم العامة والغوغاء وكثر صياحهم حول القصر وبالغوا
 في سبه ورميه بالخيانة وعدم الصلاحية للملك وعقد جماعة من الامراء لواء وساروا به
 الى حيث الامير عز الدين عبد العزيز أخى الناصر وأركبوه وساروا في ركبه الى قصر الملك
 الناصر فحاصروه وضيقوا عليه وذلك في السادس عشر من ربيع الاول سنة ثمان وثمانمائة
 فلما رأى الناصر انه مأخوذ لا محالة تنازل عن السلطنة وخلع نفسه منها فرضوا بذلك
 وانصرفوا عنه فخرج من قصره واختفى عند بعض خواصه فظن الناس يومئذ أنه قتل بين
 الغوغاء وأتموا البيعة لأخيه عز الدين عبد العزيز المذكور ولقبوه بالملك المنصور فكانت
 سلطنة الملك الناصر ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما * ولما استقر المنصب
 بالسلطان الملك المنصور عبد العزيز جعل يتصرف في الامور ويدين قوما ويقصى آخرين ثم
 أساء السيرة فأبغضه الناس وندم الامراء على ما فعلوه بأخيه الناصر فاتصل ذلك بالناصر
 فخرج من مخبئه وشاع خبر ظهوره وتقدم اليه الامراء في أن يعود الى السلطنة فاجابهم الى
 ذلك قولوه المنصب في جمادى الآخرة من السنة فلما قبض على زمام الامور أمسك أخاه
 عز الدين ونفاه الى الاسكندرية فقتل بها في السابع من ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة
 وقبيل سنة ثمان وثمانمائة فكانت سلطنته شهرين غير كاملين

ولم يكن الخليفة المتوكل على الله ليتعرض الى شئ من أمور السلطنة في كل هذه المدة
 بعد الذي جرى له مع السلطان الملك الظاهر برقوق بل كان منعكفا على أشغاله الخصوصية مع
 هيبته ووفار وشهرة مطاع الامر مسرور الكلمة حتى مات ليلة الثلاثاء عشري رجب
 سنة ثمان وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وهو أول من أثنى من خلفاء مصر
 وأكثر ماله ورزق أولادا كثيرة يقال انه جاء له مائة ولدا بين مولود وسقط ومات عن عدة
 أولاد ذكور واثاث ولى الخلافة منهم خمسة ولا نظير لذلك وتولى الخلافة من اخوته أربعة واتفق
 للمتوكل هذا أن عاد الى الخلافة بعد خلعه مرتين ولم يقع ذلك لاحد فيما تقدم الا للمتوكل
 فقط * وذكر الحافظ بن حجر في انباء النعمان مولد المتوكل كان في سنة نيف وأربعين وسبعمائة

وانه لما تسلطن برقوق المرة الاولى حسن له جماعة من أهل الدولة وغيرهم طلب الملك
فكتاب الامراء والعربان مصر وشاما وعراقا وبث الدعاة في الآفاق فبلغ ذلك برقوق
نخلعه وسجنه نخرج بلبغا الناصري على برقوق بسبب ذلك فافرج عنه برقوق وأعاد
الى الخلافة وفرح الناس به فرحا عظيما * قال فلما انتصر الناصري وزالت دولة برقوق
قال الناصري للخليفة بمحضر من الامراء يا مولانا أمير المؤمنين ما ضربت بسيفي هذا الا
في نصرتك وبالغ في تعظيمه وتجيده فتم برقم المتوكل من الدخول في الملك وأشار بإعادة
حاجي بن شعبان * وكان المتوكل قد عهد بالخلافة لولده أحمد ولقبه المعتمد على الله ثم
خلعه وعهد الى ابنه أبي الفضل العباسي فاستقر في الخلافة بعده كما سيذكر في محله
ولقب المستعين بالله فكانت خلافة المتوكل المذکور نحو من خمس وأربعين سنة
ومات في أيامه كيرلس بطرك المناصلين بعد أن أقام سبع سنين وقد وقعت في أيامه
شدّة عظيمة قاسى فيها الناصري من البلايا والحن مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكبر الامر
على كيرلس البطرك وعظم الخطب فكان صعبورا وقورا عظيم العناية بالامة فلما مات خلا
الكرسى بعده ثمان سنوات * ثم أقيم بعده ابن القس أبو المكارم بن خليل الشماس المصري
وسمى اثناسيوس وهو سادس سبعينم فأقام احدى عشرة سنة ومات ولم يقع في أيامه من
الحوادث شيء فاختاروا بعده شماسا اسمه غبريال أصابه القرعة فنقم عليه جماعة واختاروا
آخر اسمه يوحنا فوقع لذلك بينهم الشحنة فاشتد اللدد وطال الخصام وعمل كل فريق على
نصرة صاحبه وتقوى أصحاب يوحنا وثبتت قدمهم فتمكنوا من اقامته بطركا فكان سابع
سبعينم وأقام ست سنين وتسعة أشهر كلها منافسة ومما كسبه وخصام ثم قاموا عليه وخلعوه
وسجنوه باحدى الديارات وولوا غبريال مكانه فأقام سنتين وشهرين كانت الفتنة في خلاهما
لاتخمد فارها ولا ينطفئ أوارها وكان المناصلون لذلك على طرفي نقيض وقد نادى بينهما
منادى الفلق الدائم والكبد الملازم ثم عاد أصحاب يوحنا فتغلبوا وظفروا وقاموا على غبريال
نخلعوه وسجنوه وأخرجوا يوحنا من معقله وأعادوه الى منصب البطريركية ثانية فعادنا من
سبعينم * قال بعض كتاب الاخبار وكان يوحنا هذا رجلا جليل القدر وقورا واسع العلم
والمعرفة فلما استقر به المنصب دبر الامور فأحسن التدبير وعمل على ازالة الوحشة من بين
الاحزاب وبالغ في التلطف مع الخزم ففاز ونجح ومالت اليه القلوب واتحدت على محبته
الخواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه وكان من الحوادث فيها ما سيذكر
في محله

(الفصل الثامن)

(في خلافة أبي الفضل المستعين بالله ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المتوكل على الله ابنه أبو الفضل العباسي يبيع له بها في ثاني يوم وفاة أبيه سنة ثمان وثمانمائة هجرية أي سنة خمس وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستعين بالله فلما استقرت به الخلافة أدنى منه جميع الأمراء وتجنب إلى رجال الدولة واستمال إليه العامة فمالوا إلى محبته ودانت له الأمور واجتمع الناس على طاعته وبقيت الأحوال ساكنة والخواطر مطمئنة إلى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة فوقعت فتنة عظيمة بين السلطان الملك الناصر فرج وبين شيخ المجدى أحد كبار الأمراء فخرج عليه شيخ وشق عصا طاعته وكان شيخ المذكور أحد عماليك الملك الظاهر برقوق المقرين إليه وكان جليل القدر عالماً داهية واسع المعرفة والتدبير شديد في معاداة الملك الناصر ورماه بالكفر والزندقة والانحلال وتقرب من كبار الأمراء واستمالهم إلى مذهبه فوافقوه على خلع الناصر وتوليتهم من يأهل لمنصب السلطنة فكشف الخليفة المستعين بالله بما في نفسه وجب إليه الملك وأعلمه أن الأمراء والناس كافة ميالون إلى مبايعته فقال الخليفة إلى السلطنة وتآقت نفسه إليها وجعل شيخ المجدى يراقب الفرص للإيقاع بالناصر فانفق خروج الناصر من مصر إلى الشام ترويحاً لنفس فلم يستقر به المقام بدمشق حتى سير إليه الأمير شيخ من يستقدمه إلى مصر وبسأله التنازل عن الملك طوعاً قبل أن يحل به العطب فأكبر الناصر هذا الأمر وأعظمه وقبض على رسول الأمير شيخ وسجنه ونادى في عسكر الشام بالخروج إلى مصر وجاءت الأخبار بذلك إلى الأمير شيخ فاستعد للقائه واشتد على الخليفة في خلعه وقد أثبتوا عليه الزندقة والكفر وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمه واتفق رأي الأمراء كافة على سلطنة الخليفة المستعين بالله واستقلاله بالأمر فوافقهم الخليفة بعد شدة وثوق منهم بالإيمان فبايعوه وحلفوا له على الوفاء فلم يغير لقبه وجلس على سرير الملك وقام الكل بين يديه ووردت بعد ذلك الأخبار بقرب السلطان الملك الناصر إلى حدود الديار المصرية فخرج الأمير شيخ في عسكر عظيم ومعه الخليفة المستعين وجماعة من أكابر الأمراء فدخلوا الشام بغير قتال وجعل الخليفة يتصرف في الأمور فقرر الأمير بكتمر حلق على نيابة الشام وقرقاس في نيابة حلب وسودون الجلب في نيابة طرابلس وجعل الأمير شيخ والأمير نوروز في ركبه يديران الأمر ونادى منادى الخليفة ألا إن فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضر إلى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن فتسلل

الناس من الناصر ففر الناصر الى مدينة حلب فلما علم به أهلها قام أناس منهم على أسواق البلد فنادوا نصر الله أمير المؤمنين فلما سمع الرماة ذلك تخوفوا على أنفسهم ولم يغيثوه وقبضوا على الناصر وقتلوه بحكم ابن العديم في الخامس والعشرين من المحرم افتتح سنة خمس عشرة وثمانمائة هجرية وكتب المستعين الى القاهرة باجتماع الكلمة اليه وعزل الجلال البلقيني فأغضبه وفعل معه بعد ذلك ما فعل ثم أرسل المستعين كتابا ثانيا الى من بالقاهرة من الاعيان فأرسل الى الجامع الطولوني فقرأ خطيبه ابن النقاش على المنبر ثم أرسل الى الجامع الأزهر فقرأ خطيبه الحافظ بن حجر على المنبر وصدرت الكتب منه أيضا الى أمراء التركمان والعربان والعنبر فكان مقتتها ❶ من عبد الله ووليه الامام المستعين بالله أمير المؤمنين * وخليفة رب العالمين * وابن عم سيد المرسلين * المفترضة طاعته على الخلق أجمعين * أعز الله ببقائه الدين * الى فلان ثم سار بالعسكر المصري ومن انضم اليه أيضا من العساكر الشامية الى القاهرة فدخلوا في يوم الثلاثاء ثاني ربيع الآخر من السنة بعد أن تلقاهم الناس الى قطيا والصالحية وبلبيس وحصل للناس من الفرح بذلك مالا مزيد عليه وشق الخليفة القاهرة والامراء بين يديه الى قلعة الجبل فنزل بها ونزل الأمير شيخ الاسطبل بباب السلسلة فلما كان الثامن عشر من ربيع الآخر صعد الأمير شيخ والامراء كافة الى القصر وجلس الخليفة على تخت الملك نخلع على الأمير شيخ خلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثلها وفوض اليه أمر المملكة بالديار المصرية في جميع الامور وكتب له أن يولي ويعزل من غير مراجعة وأشهد عليه بذلك ولقب نظام الملك فكان الامراء اذا فرغوا من الخدمة بالقصر نزلوا في خدمة الأمير شيخ الى الاسطبل فأعيدت الخدمة اليه ليكون عنده الابرام والنقض ثم يتوجه دواذره الى الخليفة المستعين فيعلم على المشورات والتواقيع وظل الحال على ذلك حينما وقد فودى في الناس برفع المظالم والمكوس وغير ذلك مما أثقل الرعية فأحب الناس الخليفة المستعين جدا ومالوا اليه بقلوبهم وعمل الحافظ أبو الفضل ابن حجر في المستعين فصيدته المشهورة التي مطلعها

الملك أصبح ثابت الاساس * بالمستعين العادل العباسي

فلما كان في شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أمر الأمير شيخ دواذره أن لا يمكن الخليفة المستعين من كتابة العلامة الا بعد عرضها عليه ففعل الدواذره ذلك فاستوحش الخليفة وضاق صدره وراجع الأمير شيخ في ذلك فلم يلتفت اليه وسأله أن يفوض اليه السلطنة على العادة فأجابه الخليفة بشرط أن ينزل من القلعة الى بيته فلم يوافق شيخ على النزول بل استنظره أياما فلم يفوض اليه السلطنة فقام عليه ونقله من القصر الى دار من دور القلعة ومعه أهله ووكل به من ينهه الاجتماع بالناس فكتب المستعين الى الأمير فيروز سرا يستجده وكان يومئذ واليا على دمشق من قبل المستعين فأسرع لتجده في جيش عظيم

للغاية فلما بلغ القاهرة جمع في سابع ذى القعدة العلماء والقضاة واستفتاهم عما صنع
الامير شيخ بالخليفة المستعين فأفتوه بعدم جواز ذلك فأجمع على قتال الامير شيخ فاستمر
الخليفة المستعين بالقلعة الى ذى الحجة سنة ست عشرة وهو باق على الخلافة وتقررت قاعدة
الصلح بينه وبين الامير شيخ فعاد فيروز بعسكر الشام الى دمشق وسكنت القننة بعد
ذلك أياما قلائل * وعزم الامير شيخ على الشخص الى الشام بعد رجوع الامير فيروز
نخاف من المستعين وخشى غائلته فراجع البلقيني في أمره وكشفه بما في نفسه وكان في
نفس البلقيني من الخليفة المستعين شيء لكونه عزله من منصبه كما سبقت الإشارة اليه فأقام له
دعوى شرعية وحكم بخلعه من الخلافة فخلع قهرا وسير الى الاسكندرية فأقام بها مخلوعا الى
أن مات بالطاعون في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية فكانت خلافته
نحو من أربع سنين وكانت مدة جلوسه على تخت السلطنة سبعة أشهر وخمسة أيام وأقاموا
بعده أخاه أبا الفتح داود

(الفصل التاسع)

(في خلافة ابن النخ داود المعتمد)

ثم قام بالامر بعد المستعين أخوه أبو الفتح داود بوبيع بالخلافة يوم خلع أخيه سنة ست
عشرة وثمانمائة هجرية أي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية فلم يكن له في أمور
المملكة كلمة ولا رأى والامر للامير شيخ الحمودى فإنه بعد أن عاد من الديار الشامية وقد قرر
أمورها على ما شاء قبض على زمام الملك واستبد بالمنصب فأحسن السياسة واستمال اليه
الرعية وحذا حذو الخليفة المستعين في إبطال المكوس والمغارم والرفق بالرعية فأحبه الناس
 واجتمعت اليه القلوب وأمنت الرعية وسعدت البلاد ودرت الارزاق ورخصت الاقوات
 وكثر الوارد منها وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد وأرباب السقاوة * قال المقرئى وأنشأ
جامعه المشهور بجوار باب زويلة من داخله حيث كانت خزنة شمائل وأول ما ابتدئ به في
أمر هذا الجامع أن رسم في رابع شهر ربيع الاول سنة ثمان عشرة وثمانمائة بانتقال
سكان قيسارية سنقر الاشتر التي كانت تجاه قيسارية الفاضل ثم نزل جماعة من أرباب الدولة
في خامسه من قلعة الجبل وابتدئ في الهدم في القيسارية المذكورة وما يجاورها فهدمت
الدور التي كانت هنالك في درب الصغيرة وهدمت خزنة شمائل فوجد بها من رمم القتلى
ورؤسهم شيء كثير الى أن قال وكان السبب في اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان
يريد المؤيد شيخ الحمودى حبس في خزنة شمائل هذه أيام تغلب الامير منطاش وقبضه على

المماليك الظاهرية فقامى في ليلة من البق والبراغيث شداثد فنذر الله تعالى ان يسره ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عز وجل ومدرسة لاهل العلم فاختار اذلك هذه البقعة وفاء بنذره الى أن قال وفي يوم الخميس سابع عشر شوال نقل باب مدرسة السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون والتمنور الخامس المذكفت الى هذه العمارة وقد اشتراها السلطان بمخمس مائة دينار وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع وهذا التنور هو التنور المعلق بجاء المحراب الى أن قال وبلغت النفقة على الجامع الى آخريات شهر رمضان هذا سوى عمارة الامير نحر الدين زيادة عن سبعين ألف دينار وتردد السلطان الى النظر في هذا الجامع غير مرة فلما كان في أثناء شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ظهر بالثذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج الى جهة دار التفاح فكذب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة للهدم وعرض على السلطان فرسم بهدمها فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشره واستمر فى كل يوم فسقط يوم الخميس سادس عشره منها حجر هدم ملكا نجاه باب زويلة هلك تحته رجل فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت الى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الاولى مدة ثلاثين يوما قال ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة اه

ومات السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المجرى المذكور فى يوم الاثنين ثامن المحرم اقتتاح سنة أربع وعشرين وثمان مائة هجرية فكانت سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام كلها راحة واطمئنان واسعاد على الرعية فقام بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد وعمره يومئذ سنة ونصف سنة فقام بأمره الامير ططر فلم يحسن السيرة وأساء التدبير واستبد بالملك وأكثر من السرف والتبذير حتى بذر ما جمعه الملك المؤيد من الاموال وخروج بالمظفر مع حداته يريد قتال الاهراء بالشام وذلك أنهم لما علموا بموت الملك المؤيد وولاية ابنه المظفر استخفوا به حداته وقصدوا الاستبداد بالملك والاستقلال بحكم الديار الشاميه فخشي ططر من ذلك وخروج لقتالهم وارجاعهم الى الطاعة فسار فى جيش عظيم ومعه السلطان الملك المظفر فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فظفروهم الامير ططر وشردهم وأخضع من بقى منهم وأخذ أموالهم وسبي نساءهم وما زال حتى دانت له الامور فسار الى دمشق وفى نفسه ما فيها من حب الاستبداد بالملك فلما استقر به المقام بدمشق قام على الملك المظفر فى شعبان سنة أربع وعشرين وثمان مائة نخلعه وارثى عرش السلطنة فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان المذكور فكانت سلطنة الملك المظفر شهاب الدين ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام * ولبت ططر بالشام أياما كان يدبر فيها الامر لنفسه وتلقب بالظاهر وكفى بأبى الفتح وهو من مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق وسير الاخبار بسلطنته الى مصر فتعجب الناس من ذلك حيث لم يكونوا ليتوقعوا ولايته على هذه الصورة ثم سار من دمشق وهو متوعلك البدن حتى دخل مصر وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وأمامه الاهراء وبكار العسكر والجنائب السلطانية

فلم يستقر بها حتى ثقل به المرض واشتد فمات يوم الاحد رابع عشر ذي الحجة من السنة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر ويومين * فأقيم بعده ولده السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد وعمره نحو عشرين سنين فقام بأمره الأمير برسبای الدقاق وجعل يتصرف في الامور فطمعت نفسه في الملك فقام على الملك ناصر الدين بعد أربعة أشهر وأربعة أيام من ولادته وخلعه وتساق عرش السلطنة ولقب نفسه بالاشرف سيف الدين وكفى بابي النصر وقد كان من مماليك الظاهر برقوق فكان جلوسه على تخت الملك في يوم الاربعاء ثاني ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وكان فاضلا عالما نحاسا نحو الملك المؤيد شيخ في التزام الحزامة والعدل وعدم التهاون في قضاء مصالح الخلق فأحببه الناس جميعا ومالوا الى طاعته واجتمعت له القلوب فسعدت أيامه وأمنت الرعية وزالت الفتن وانقطعت أسبابها واختفى أهل الفساد وزاد النيل في أيامه فعم الاراضي فأخصبت وكثرت غلاتها كثرة عظيمة فرخصت الاسعار وشبع الفقراء وكانت له حروب كثيرة مع الفرنجة ووقائع مشهورة في عدة أماكن وأخضع جزيرة قبرص وألزم الملك لوسينيان الثالث بالطاعة والخضوع وضرب عليه الجزية فكان أجدر جميع الملوك الشراكسة بالمدح والشكران فقد كان أرفعهم همة وأكبرهم عزية وأشدهم حزامة وأقدرهم على سياسة الجمهور وتبدير الأمور فطالت لذلك أيامه وعاهد ملوك الفرنجة والسلطان مراد سلطان آل عثمان فكبرت لذلك هيئته واتسعت شهرته وارتفعت كلمته وخافه الملوك والامراء وتزلفوا اليه وهادوه بالهدايا النفيسة * فلما كانت سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية خرج عليه بنق التجاشي عامله على دمشق وشق عصا طاعته فسار اليه في عسكر عظيم وقاتله حتى هزمه وقبض عليه وعلى دعاته فقتل بعضهم وشرد بعضهم وولى الأمير عبد الرحمن مكانه وكان عبد الرحمن هذا زنجيا أسود قال أصحاب التاريخ فلم يقع في أيام السلطان الملك الاشرف المذكور من الحروب والفتن غير هذه الفتنة ولم تلبث أن تلاشت وعادت اليه الامور بالديار الشامية كما كانت عليه من قبل واستقر يدبر الملك ويعدل في الرعية الى أن مات ثالث عشر ذي الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته عشرين سنين وتسعة أشهر

فقام بالامر بعده ولده يوسف ولقب بالملك العزيز وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة فقام بأمره الأمير جقمق وسمى نظام الدولة وتسلم مقاليد الأمور فاستبد بها وتصرف حسب هواه وضييق على الملك العزيز فلم يبق له من الملك سوى الاسم فاستعظم الملك العزيز هذا الامر جدا وجمع مماليكه وشاور كبارهم وأصحاب الرأي منهم في أمر خلع جقمق من منصبه فوافقوه على ذلك وتجردوا لخلعه فأحس جقمق بما عزموا عليه وتحرز منهم وجمع كبار الامراء وطوائف العسكر وخرج بهم على الملك العزيز فاقتتلوا أياما اختل فيها نظام الدولة وكثر عبت أهل الفساد وتناولت أيديهم الى أموال الناس وكادت الفتنة تم حتى ظفر جقمق بالملك العزيز فقبض عليه وخلعه وارتقى منصب السلطنة في التاسع عشر من ربيع

الاول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة فكانت سلطنة العزيز يوسف المذكور ثلاثة أشهر لاغير
ولقب بجمعق نفسه بالملك الظاهر وقبض على زمام الملك وصار يتصرف في الامور فعبث
وأكثر من تقرير المغارم وضرب المكوس ولم يهتم بمصالح الرعية فأبغضه الناس وتشاءموا
من ولايته ونفرت منه القلوب وظهر الطاعون بالقاهرة ومصر عقب ولايته واشتد الموت
في الناس شدة بالغة ثم عم البلاد ففتك بأهلها فتكا ذريعا فكان الناس يموتون بالازفة
والطرقات ولا يوجد من يدفنهم وطالت أيامه ثم ارتفع ولم ترتفع عن الناس المغارم ولا
انكفت عنهم جباة المكوس وأعوان السلطان فكان الخليفة المعتضد بالله في تكبد وكبد
بأسباب هذه المحن وما نال الرعية من فعال الملك الظاهر المذكور وكان يئن ويتوجع
ويراجع الظاهر في ذلك والظاهر لا يلتفت اليه ولا يزداد الا تشديدا في الطلب فرض الخليفة
وثقل به مرضه فكان اذا جاء أحد الامراء ليعوده شكى اليه من فعال الظاهر بالرعية
وبالغ في الشكوى وعظم البلوى فلما حضرته الوفاة عهد بالخلافة الى شقيقه أبي الربيع
سليمان ولقب المستكني بالله وكتب له عهدا بذلك يقول * بسم الله الرحمن الرحيم * هذا
ما أشهد على نفسه الشريفة حرسها الله وحماها * وصانها من الاكدار ورعاها * الشريفة
الطاهرة الزكية الامامية الاعظمية العباسية النبوية المتعضدية * أمير المؤمنين * وابن عم
سيد المرسلين * ووارث الخلفاء الراشدين * المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود أعز الله به
الدين * وأمتع ببقائه الاسلام والمسلمين * أنه عهد الى شقيقه المقر العالى المولى الاصيلي *
العريق الحسيني النسبي السليبي * سيدى أبي الربيع سليمان المستكني بالله عظم الله شأنه
بالخلافة المعظمة وجعله خليفته بعده ونصبه إماما على المسلمين عهدا شرعيا معتبرا مرضيا
نصيحة للمسلمين * ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحدين * واقضاء بسنة الخلفاء
الراشدين * والائمة المحمدين * وذلك لما علم من دينه وخيره وعدالته وكفالاته وأهليته *
واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله وعلم طويته * وأن الذي يدين الله به أنه اتقى الله ممن رآه
وأنه لا يعلم أنه صدر منه ما ينافي استحقاقه لذلك وأنه ان ترك الامر هملا من غير تفويض
المشار اليه أدخل اذ ذلك المشقة على أهل الحل والعقد في اختيار من ينصبونه للإمامة
ويرضونه لهذا الشأن فبادر الى هذا العدل شفقة عليهم وقصدا لبراءة ذمته ووصول الامر
الى من هو أهل لعله أن العهد كان غير محجوج الى رضا سائر أهله ووجب على من سمعه
وتحمل ذلك منه أن يعلم به ويأمر بطاعته عند الحاجة اليه ويدعو الناس الى الانقياد له
فسجل ذلك على من حضره حسب اذنه الشريف واطر عن أمره قبل ذلك سيدى المستكني
أبي الربيع سليمان المسمى فيه عظم الله شأنه قبولاً شرعياً * ومات الخليفة المعتضد بعد
ذلك في يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية واستقر المستكني
فكانت خلافة المعتضد نحو ثلاثين سنة هلالية

ومات في أيام الخليفة المعتضد المذكور يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام بطركاً تسعاً

وعشرين سنة خلا الكرسي بعده سنة ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقاموا بعده ثاوروسيوس وهو تاسع سبعين وأصله من منية ابن خصيب من معبد مصر واسمه عبيد المسيح وكان راهبا في دير أبوقانه ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر

(الفصل العاشر)

(في خلافة أبي الربيع سليمان المستكني بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتضد شقيقه أبو الربيع سليمان ولقب المستكني بالله بعهد منه واستقر بالخلافة في يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية أي سنة احدى وأربعين وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار وكان من صلحاء الخلفاء وعبادهم صالحا دينيا عابدا كثير التجدد والتلاوة كثير الصمت حسن السيرة فلما رآه السلطان الملك الظاهر جقمق على هذا الحال اعتقده وعرف له حقه وأجله وعظم قدره وأجبه ولبثا على الصفاء والمودة حينما من الدهر فلم تقع في أيامه فتن ولم تقم تلك الاذن التي كانت لا تتعد لها قائمة بأسباب بغض الامراء بعضهم لبعض وتداخلهم في أمور السلطنة وأحوال الدولة وميل كل منهم الى الاستبداد بالامر والاستقلال بأهبة السلطنة وانكف جقمق عن ضرب المكوس والمغارم على الرعية وأبطل بعضها خوفا من الخليفة فاطمأنت القلوب وسكنت خواطر الفقراء وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد ودرت الارزاق وكثرت غلات البلاد وشبع الفقراء بعد الجوع وأمنوا بعد الخوف ولم تطل مدة خلافة المستكني بالله اذ مات ليلة الجمعة سلخ ذي الحجة سنة أربع وخسين وثمانمائة فكانت مدة خلافته نحو ثمان سنين كلها خير وبركة ولم يعهد بالخلافة لاحد فشى السلطان في جنازته الى تربته وحمل نعشه بنفسه ونساق الامراء الى ذلك وخرج الالوف من الناس أمام جنازته وبكوه بكاء مرا وبابيع السلطان الملك الظاهر جقمق بعده أخاه أبا البقاء حجة ولقب بالقائم بأمر الله

ومات في أيام الخليفة المستكني ثاوروسيوس بطرك المتأصلين فكانت مدته ست سنوات أو نحوها منها وكان ورعا تقيا كثير الصدقات مجتهدا متعبدا ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقيم بعده يوحنا رئيس دير شهران وأصله من منية ابن خصيب فهو الثمانون عددا لبطاركة الاسكندرية ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الحادى عشر)

(فى ظلاله ابى البقاء حمزة القائم بامر الله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المستكنى أخوه أبو البقاء حمزة فى سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة خمسين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب القائم بأمر الله وكان شهما صارما أقام أبهة الخلافة وتعرض لأشور السلطنة واستمال اليه جماعة من كبار الامراء وطوائف القواد فعظمت صولته وكبرت هيئته وتطاوت يده الى فعل الدسائس وافساد الامور على السلطان الملك الظاهر بجمع فأحس السلطان بذلك فأبغضه ومقتته وخشى عاقبة فعله وآثر العزلة والتخلى عن الملك على مناواة الخليفة وكان قد ناهز الثمانين فتنازل عن السلطنة لابنه نحر الدين عثمان وصرفه فى سائر الامور وحذره من فعال الخليفة وكان كثير الحزن والاشفاق على واده فلم تطل بعد ذلك حياته ومات بعد قليل فكانت وفاته فى التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة فبايع الناس ولده نحر الدين المذكور البيعة العامة فى الحادى عشر من المحرم افتتاح سنة ثمان وخمسين ولقب بالملك المنصور وكانت سلطنة الملك الظاهر بجمع أربع عشرة سنة وفحو عشرة أشهر ٥ ولم يستقر بالملك المنصور المنصب حتى عاد الخليفة القائم بأمر الله الى دس الدسائس وايقاظ الفتنة طمعا فى الملك فالتم حوله الدعاة واستفعل أمره وظهرت كلمته واشتد الخصام بينه وبين الملك المنصور وعمل كل على تذليل الآخر فتحزبت الاحزاب وانقسم الناس واختلفت الكلمة وعظمت الفتنة وما زال الرؤساء فى نزاع وخصام والأمر فى شدة واحتدام حتى تمكن الخليفة من خلع السلطان الملك المنصور فى سابع ربيع الاول من السنة فلم تكن مدة سلطنته سوى أحد وأربعين يوما أو أحد وثلاثين ولم يتمكن الخليفة من الاستواء على عرش السلطنة بعد خلع الملك المنصور اذ غادره الدعاة وانصرف عنه الاجزاب واختاروا مملوكا اسمه أبو النصر اينال وهو شيخ مسن قولوه الملك وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الاشرف وذلك ثمانى يوم خلع الملك المنصور

ولما استقرت السلطنة بالملك الاشرف المذكور دبر فاحسن التدبير وساس فأحسن السياسة ونظر فى مصالح الخلق نظرة الصادق الأمين واتخذ الامير بلعيمونى وزيرا ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا حاط بها بخاف الخليفة منه وخشى أمره وانكف عن المشاغبة ولازم السكون ست سنوات وهو يتوقع فى كل سنة منها موت اينال نظرا لشيخوخته فلم يمت ولماطال عليه الحال وعمل صبره والنفس الامارة تدفع به الى ركوب ذلك المركب الحشن قام وأثار الفتنة فأحس بها بلعيمونى الوزير فاعلم السلطان حتى خرج الجند على الاشرف وخرج الخليفة معهم فقام عليهم الاشرف فى مماليكه وخواصه وقائلهم قتالا عنيفا وظفر بهم وشرد الكثير منهم ومزقهم كل ممزق وأرجع من بقى منهم الى الطاعة وأرسل فى طلب الخليفة الى قلعة الجبل

فصعد بعد اقدام واجام فلما دخل عليه عانبه وأغلظ معه القول وزاد في الغلظة فغضب الخليفة وقال للاشرف ما بالك قد خلعت نفسك وعزائمك وكان ذلك غلطا منه * فقال قاضي القضاة علم الدين البلقيني وكان حريصا على جرائد الخلافة الى أخى الخليفة يوسف لكونه زوج ابنته قد بدأ بخلع نفسه فائخلع وثني بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ ذلك وحكم بصلته بخلعه * وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وخسين وثمانمائة فرسم السلطان عند ذلك باخراج الخليفة الى الاسكندرية فأخرجوه مقهورا مبعدا فأقام بالاسكندرية الى أن مات سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية ودفن عند شقيقه المستعين بالله العباسي * قال بعض كتاب الاخبار ومن غريب الاتفاق أنهما شقيقان كل منهما رام السلطنة وكل منهما خلع وكل منهما سكن الاسكندرية ودفنا معا وحكم بخلعهما قاضيان أخوان ذلك خلعه الجلال البلقيني وهذا أخوه العلم البلقيني وهو عجيب اه وخلا الجور للاشرف اينال بعد ذلك فاستبد بالملك وعاقب زعماء دعاة الخليفة وخلع من كان يتوسم فيه الشر من الامراء و كبار العسكر ونظر في أمور السلطنة بعين ساهرة ووافق علم الدين البلقيني فباع أبا المحاسن يوسف أبا القائم بالخلافة ولقب المستجد بالله فكانت خلافة القائم بأمر الله نحو من أربع سنوات وستة أشهر كلها معاندة ومحاسنة فسبحان من أودع في كل قلب ما شغله

(الفصل الثاني عشر)

(في خلافة أبي المحاسن يوسف المستجد بالله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة القائم أخوه أبو المحاسن يوسف ولقب بالمستجد بالله ببيع له يوم خلع القائم بأمر الله في جمادى الآخرة سنة تسع وخسين وثمانمائة هجرية أى سنة أربع وخسين وأربعمائة وألف ميلادية فكان حسن السيرة عاقلا رزينا فاجبه الاشرف اينال وأجلاه ووفاه حقه وأسكنه بدار اخوته الخلفاء بالمدينة وواصله بالعطايا والتحف وكان السلطان الملك الاشرف قد أنهكت متاعب السلطنة وثقل عليه حمل أعباء الدولة فاشركه معه ولده شهاب الدين أبا الفتح أحمد وسلمه مقاليد الامور فسار في الرعية سيرة محمد وسلك مسالك الرفق وأحسن التدبير والسياسة وضرب بعض الدراهم باسمه ووفى السلطنة حق تدبيرها * فلما كان شهر جمادى الاولى سنة خمس وستين وثمانمائة وقد ثقل بالملك الاشرف اينال مرضه خلع نفسه وولى ابنه أبا الفتح المذكور ولقبه بالملك المؤيد فكانت مدة سلطنة اينال ثمان سنين وشهرين فاستقر ولده في السلطنة واستقل بتدبير الملك وتصرف في الامور على أحسن ما يرام فحسده الامراء واستولت عليهم الغيرة فقاموا عليه وخلعوه فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة وطالت أيامها وبقي الحال على ذلك حتى ولوا بعده

في الثامن عشر من رمضان سنة خمس وستين الأمير سيف الدين خوش قدم ولقبوه بالملك الظاهر فكانت مدة سلطنة المؤيد أربعة أشهر لا غير

وكان خوش قدم هذا يعرف بالروحي وبالناصري لانه كان من مماليك الملك الناصر وكان عاقلا عالما واسع الدراية عظيم التدبير محبا للرعية ساهرا على ما فيه راحتها ميالا الى الآداب اليونانية القديمة لانه يوناني الاصل ولم يستوزر الاكل على الهمة كبير الدراية خبيرا بالامور فم في عهده الأمن البلاد وسعد أهلها وجرى أمراؤه على شاكلته فاجتمعت قلوب الامراء والرعية على طاعته وانصرفوا عن الخليفة فلم يبق للخليفة من الامور الا الدين فقط فكان لا يتعرض لأحوال السلطنة ولا يزاحم الظاهر عليها وما زال الظاهر مسموع الكلمة ينتظر في مصالح الرعية نظر الأب الشفيق والفتنة راقدة والعدل قائم حتى اختتمت منه المنية عاشر ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته نحو ست سنين وستة أشهر فبكاه الناس بكاء مررا وحزنوا عليه حزنا شديدا

ولما كان اليوم الثاني من موته اجتمع الامراء وكيار الجند وتشاوروا فيما يصلح للسلطنة فوقع اختيارهم على الأمير أبي سعيد بالباي أحد الامراء المقدمين فبايعوه في الحال ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا فلم يستقر به المنصب حتى أظهر الغلظة فكان قضا مستبدا ظلما عنيدا وكاد يفسد ما أصلحه السلف فابغضته الرعية والمحرف عنه خواطر الامراء كافة فخاف من الفتنة وأوجس من الخليفة المستنجد فانزله من داره من قلعة الجبل ووكل به من يراقب أموره فزاد بغض الامراء له وكرهوا بقاءه في دست السلطنة وتجردوا لخلعه ثم قاموا عليه قومة رجل واحد وخلعوه في السابع عشر من جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعين وقيل في سابع جمادى الاولى فكانت مدة سلطنته نحو ست وخسين يوما وقيل ست وستين * ثم ولوا بعده الأمير تغرغا بايعوا له بالسلطنة في ثاني يوم خلع الظاهر بالباي ولقبوه بالملك الظاهر أيضا فلم يكده يستقر به المنصب حتى ظهر فساد وكثر عبثه وأطاع النفس الامارة فقاموا عليه وخلعوه أيضا ففرحت بخلعه الرعية وكان خلعه في العشر الاول من رجب من السنة فكانت سلطنته نحو تسعة وخسين يوما

ثم ولوا بعده الأمير قايتباي أحد مماليك حقهق وبايعوه في ثامن عشر رجب المذكور ولقبوه بالملك الاشرف قايتباي فلما استقر به المنصب أخذ في تدبير الامور على ما فيه المصلحة واصلاح ما أفسده السلف * وكان شهما جليل القدر مسموع الكلمة مهيبا واسع المعرفة بأحوال الرعية فأمنت البلاد على يديه واطمأنت خواطر أهلها * وكان بين ملك فارس ومصر معاهدة وعلاقة ودية قد مضى عليها حين وكان بين ملوك آل عثمان وملك فارس عداوة وخلاف كانت الحرب بسببهم ما لا تنطق لها نار ولا يسكن لها إوار وظل الفريقان على قدم الحرب والجلاد حينما حتى ظفر السلطان محمد الغازي العثماني بملك فارس وهزمه شر هزيمة وحرق شمل جنوده فلما جاءت الاخبار بذلك الى الاشرف قايتباي خاف من السلطان محمد وأوجس شرا

وخشى أن يهاجم الديار الشامية يوما فيسلبها عن ملك مصر ويضمها الى أملاكه التي كانت بلغت يومئذ مبلغا عظيما بجيش الأشرف جيشا ضخما وسيره الى الحدود ليدفع عنها غارات الجيوش العثمانية فعلم السلطان محمد بقصده ولم يلتفت اليه وخرج في جيش عظيم يريد قتال الروم وأخذ بعض مدتهم فزاد قلق الأشرف قايتباي وهم بمخلع نفسه من السلطنة وترك الأمور لمن يتولاها تخاف الأمراء وقواد الهند عاقبة تنازله ومنعوه من ذلك وجددوا له البيعة وبالغوا في استرضائه فتولاها كارها وأخذ يتأهب لقتال السلطان محمد * وبينما هو على قدم التأهب والاستعداد اذ جاءت الأنباء بنصرة السلطان محمد على الروم وعزمه على الزحف على مصر والشام وأخذهما وسمت الأشاعة بذلك وتحققت بتأهب السلطان محمد واكتاره من جمع الأسلحة وآلات الحرب فكبر نخوف الأشرف قايتباي وبالغ هو كذلك في التأهب والاستعداد وصار يراقب الحوادث مع التحذر فلما تم للسلطان محمد ما أراد من ترتيب الجيوش ولم يبق عليه الا تسييرهم الى الشام فاجأته المنية في مدينة طبرقور جابر وجاءت الاخبار بذلك الى الملك الأشرف قايتباي ففرح وظن بلوغ الغاية ومات السلطان محمد عن ولدين هما بايزيد وجم المعروف عند أهل التاريخ باسم زيزم وكان بايزيد حاكما بأماسيا وجم حاكما في بلاد القرمات فوقع بينهما الخلاف واشتد خصامهما على الملك واشتغلا عن الفتح بالمنازعة والمخاصمة فنار الانكشارية بسبب ذلك على فرماني محمد باشا الصدر الأعظم يومئذ وقتلوه وعاثوا في البلاد حتى كاد يحتل نظام العسكر السلطاني فازداد اطمئنان الأشرف قايتباي وعاد الى القاهرة بجيوشه ولبث يراقب الحوادث ويتنسم الاخبار واشتد الخصام بين ولدي السلطان محمد الى حد القتال فقامت الحرب بينهما وطالت أيامها ودخل الأمير جم مدينة بورصة عنوة وقتل فيها من الانكشارية خلقا كثيرا فركب عليه أخوه بايزيد وقهره عند مدينة يكي شهر ففر عن يقي من عسكره يريد الالتجاء الى حمى الأشرف قايتباي فتبعه بايزيد بجياله ورجله الى حدود الديار المصرية ثم رجع ظافرا منصورا ووصل جم الى القاهرة في نفر من خواصه فأكرمه الأشرف وأحسن لقاءه وأنزله مكانا رحبا فأقام عنده زهاء السنة ثم سار من مصر الى حلب وأخذ يرأس الأمير قاسم آخر سلالة أمراء القرمات ويعنيه بأنه اذا أنجده ومكنه من تولى الملك مكان أخيه السلطان بايزيد رد اليه بلاد أجداده وعاهده على المودة والصفاء فقال اليه الأمير قاسم وجمع أحزابه وسار في نفر كثير مع جم المذكور لمحاصرة قونية عاصمة القرمات فركب عليهم كذلك أحمد باشا أحد قواد العساكر العثمانية وهزمهم ومزق جمعهم ففر الأمير جم هاربا * وجاءت الاخبار بذلك الى الأشرف قايتباي فتطير وزاد خوفه من السلطان بايزيد وعزم على مفاجاته والزحف عليه بالعسكر المصري قبل أن يدهمه بايزيد بجياله ورجله وجعل من يومئذ ينأوى الترك ويقطع على قوافلهم السبل ويشرد ركبهم الراحل الى بيت الله الحرام وكان ملك الهند قد أرسل الى السلطان بايزيد سفيرا في أمر لا يحصل لذكره هنا فلما وصل السفير الى مدينة السويس أمر الأشرف قايتباي فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة وعوثوه عنده وزحف على

أذنة فلكها عنوة وكذلك فعل بطرسوس وقد كانتا في حوزة العثمانيين فاستعظم السلطان بايزيد ذلك وأكبره وسير سفراء الى قايتباي في طلب رد ما أخذته المصريون من البلاد العثمانية فأرجع قايتباي السفراء بغير جواب وسير عسكريا كثيرا لقتال عساكر بايزيد فكبر كيد السلطان بايزيد وسير هو كذلك جيشا عظيما لقتال عسكر قايتباي فالتقى الجمعان واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انقضت العساكر المصرية الى ملاطية فأخذها الاشرف قايتباي بخمسة آلاف مقاتل ثم كروا على جند بايزيد وهم في مضائق الجبال وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقا كثيرا ومر من بقي وتحصن في طرسوس وأذنة فأرسل قايتباي الامير أزيك في نجدة لخراج العثمانيين منهما فقاتلهم أزيك قتالا شديدا وأبلى فيهم بلاء حسنا فشق هذا الامر جدا على السلطان بايزيد وأكبره وآلى على نفسه أن يسترجع أذنة وطرسوس فأنفذ عسكريا عظيما مع صهره الامير أحمد * وأجد هذا ابن أمير البشناق ومولده في بلاد الارنؤد وتربى في مهد النصرانية ثم أسلم ودخل في خدمة آل عثمان حتى بلغ رتبة الامارة فلما التقى الفريقان اقتتلا قتالا شديدا فانهمزم الامير أحمد ونظفرت به الجنود المصرية وانتصروا عليه نصرة عظيمة ووقع أحمد المذكور في قبضة الامير أزيك فسار به الى القاهرة مدحورا ووصل الخبر الى السلطان بايزيد بما حل بأصحابه فكاد يتميز من الغيظ وجند جندا عظيما وعقد لواءه لاميير من كبار القواد اسمه على باشا فسار في سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة هجرية ونزل بجيوشه في بلاد القرمات فعلم الاشرف بخبره وكثرة عساكره فتخوف وعمد الى طلب الصلح وأنفذ الى السلطان بايزيد صهره الامير أحمد واسطة في ذلك فأبى بايزيد الا القتال وأحث جيوشه حتى التقت بجيوش الاشرف قايتباي في أذنة وطرسوس فانتشبت الحرب بينهم فانهزمت جيوش قايتباي شرهزيمة وأخذ منهم العثمانيون أذنة وطرسوس وعاد من بقي من المصريين الى مصر وفرح السلطان بايزيد بنصرة جيوشه فسار الى أرمينية في عسكر عظيم وحاصر تختها وافتتحها بعد قتال شديد وقبض على واليها وسيره الى القاهرة بدلا من الامير محمد استخفافا بالاشرف قايتباي فاستعظم الاشرف ذلك وسير الامير أزيك ثانية في جيش كبير للقتال فالتقى الفريقان عند طرسوس فواقعهم أزيك فكادوا يهزمونه فعاد اليهم وقارنهم ونال منهم فرجعوا الفهقري ولم يقدرُوا على القتال فعاد أزيك الى القاهرة ظافرا غائبا فأجله الاشرف وأدناه منه * وحسب الاشرف قايتباي عاقبة تلك الحروب وأوجس منها خيفة فأرسل الى السلطان بايزيد في طلب الصلح حقنا للدماء فلم يلتفت بايزيد الى ذلك وأغلظ في القول وطلب منه أن يتخلى عن أذنة وطرسوس فان لم يفعل جاء لقتاله مع جميع دعاة آل عثمان فيفتح مصر عنوة ويعمل السيف في أهلها فلا يرحم كبيرا ولا صغيرا فأذعن الاشرف الى ذلك وتخلي عنهما صاغرا وذلك سنة ست وتسعين وثمانمائة هجرية فانكف بايزيد عن قتاله وعاقده الصلح

وكان الاشرف قايتباي مع كل هذه الحروب والخطوب كثير التحرز من الخليفة أبي

الحاسن يوسف لا يركن اليه ولا يمكنه من شئ من أمور السلطنة ولا يبيح له النزول من قلعة الجبل الى دار أجساداه بالمدينة خوفا من تقرب الامراء منه وقيام العامة لنصرته فلبث محجورا عليه بقلعة الجبل مقهورا مغلوبا لا يعلم من أحوال المملكة شيئا حتى مات في يوم السبت رابع عشر المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية وكان قد عهد بالخلافة الى ابن أخيه عبد العزيز أبي المعز يعقوب بن المتوكل على الله فكانت خلافة المستنجد نحو ثلاث وعشرين سنة وبضع أشهر

ومات في خلافته يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشرين سنة وكان كامل الرأي صائب الفكر حسن التدبير محبوبا معظما قامت في أيامه فتنة عظيمة بسبب ضعف الحكم وسقوط هيبة أصحاب الامر والنهي فقام العامة على النصارى بالقاهرة وأغلقت جميع كنائسهم ومنعتهم من إقامة شعائر دينهم ثم عم هذا الامر جميع الاقاليم القبلية والبحرية واشتدت نار الفتنة فوقع القتل والسبي والنهب والتخريب وأريقت الدماء هدرًا في الازقة والخارات وعجز ولاة الامر عن ردع العامة وزاد الخطب اشتدادا باشتغال السلطان الملك الاشرف قايتباي بقتال السلطان بايزيد وخلوا القاهرة وغيرها من المرباطين من العساكر والاجناد وما زال الحال على ذلك أياما كثيرة حتى سكنت الفتنة من نفسها وانكف العامة والناس جميعا في تحرز فكان الخطب شديدا * ولما مات يوحنا البطرك المذكور أقام المتأصلون بعده يوحنا التاسع فكان حادى ثمانتهم ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الثالث عشر)

(في خلافة عبد العزيز أبي المعز يعقوب بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المستنجد ابن أخيه عبد العزيز أبو المعز يعقوب بن المتوكل على الله بوبيع بالخلافة بعهد من عمه يوم الاثنين سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية * فلما كان عصر يوم الاثنين المذكور صعد الى قلعة الجبل وحضر القضاة والاعيان فأمضوا عهد عمه ولبس تشریف الخلافة ونزل الى داره والقضاة بين يديه وكان قد أراد أن يلقب نفسه بالمستعز بالله ثم وقع التردد بينه وبين المستعين أو المتوكل واستقر الحال على أن يلقب بالمتوكل على الله * فلما استقرت به الخلافة أحسن السيرة والتدبير وأدنى منه العلماء وتعفف عن أخذ ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من التذوّر من شمع وزيت وغيرها وصرفه في مصالح المكان من عمارة وغيرها وكان الخلفاء قبله يأخذون لانفسهم أكثر ويفرقون ما يتبقى على من شأوا من أزامهم فرفع ذلك كله فلما خبر السلطان الملك الاشرف حاله مال اليه وأحبه ولم يضيّق عليه

كما كان يفعل بعمه المستعبد ولكنه مع ذلك كان في شغل عنه بالانباء المتراكمة عن السلطان بايزيد وخوفه من نقض الصلح واضطرام نار الحرب فكان قلق البال مضطرب البال وما زال على هذا الحال حتى مرض ومات في الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة احدى وتسعمائة هجرية فكانت سلطنته تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبكاه الناس وحزنوا عليه حزنا عظيما واجتمعت كلمة الامراء كافة على تولية ولده أبي السعادات محمد فولوه يوم وفاة أبيه ولقبوه بالملك الناصر

فلما استقر به المنصب أساء السيرة وعبث بالامور وجار وظلم الرعية فكان جبارا غشوما عتلا زنيما لا رجة عنده وكان شديد البغض للالة النصرانية على غير سبب وكان النصارى من أهل البلاد الى هذا الحين لم يتمكنوا من لم شعث ما أفسدته الفتنة السابقة ولا اصلاح ما تهمدم من كنائسهم ودورهم وغير ذلك فضيق عليهم وبانخ في تذليلهم وأباح للامة تتبعهم بالابذاء ورفع القصص ضدهم فكان الرجل منهم لا يشعر الا وقد طرخوا بابه أو أدخلوه عنوة وأنحدوا جميع ما وصلت اليه أيديهم من ملبوس وأثاث ثم يأخذون صاحب الدار حتى اذا نزلوا به عند باب داره ذبحوه أو أوقدوا حطبها وألقوه فيه على مرأى من أهله وولده واشتدت نار الفتنة وارتفع لهاها فقتل وحرقت خلق كثير وأغلقت الكنائس وسائر بيوت العبادة وتعطلت الشعائر الدينية * قال بعض أهل التاريخ فتوجه الناس بقلوبهم الى الله تعالى وضجوا وعجوا والناصر بظلمه كل يوم في شأنه فلما كان في بعض الايام اتفق أن يملوكا من عماليكه أذنب ذنبا صغيرا فأمر به الناصر فسلج جلده حيا بين يديه فقام عليه عند ذلك طوائف المماليك ونادوا بخلعه فخلعوه كرها وهجروا عليه وضيقوا وتشاوروا فيمن يصلح للولاية فانفقت كلمتهم على مبايعة الامير قانصوه الملقب بخمسمائة وهو من مقدمى الامراء ولقبوه بالملك الاشرف فكانت سلطنة الناصر ستة أشهر الا أياما قلائل كلها عسف وجور لا يطاق فلما استقرت بقانصوه السلطنة رأى من اختلال الاحوال وتفشى الفساد في جميع أمور المملكة ما أقعده عن التدبير وأعجزه عن القيام بهام السلطنة فعالج الامر فلم يفلح فأكثر من الاخذ والرد مع الامراء فلم يتم له أمر فخلع نفسه فكانت سلطنته خمسة أشهر لا غير وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر في محله ان شاء الله * وأما الخليفة المتوكل فإنه أقام يدبر أمور الامامة لا يتعرض لشيء من أحوال المملكة عا كفا على ما بيده من حقوق الخلافة حتى مات في يوم الجمعة الثاني من صفر سنة ثلاث وتسعمائة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده فكانت خلافته نحو من عشرين سنين فاجتمعت الكلمة على البيعة للخليفة أبي صابر ولقب بالمستمسك ومات في خلافة المتوكل المذكور يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ست سنين قضاه في أنكد عيش وأضيق حال بين أسر واسترقاق وقد ذاق في أيامه النصارى من الرزايا والحن أنواعا وأصنافا وبموته أقيم بعده بنيامين وهو راهب من جبل سينا فكان ثاني ثنائهم ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع عشر)

(في خلافة أبي صابر يعقوب المستنك بالله)

ثم قام بعد الخليفة المنوكل على الله أبو صابر يعقوب ببيع بالخلافة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وتسعمائة هجرية أي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستنك بالله وكان حسن السيرة سليم السريرة محبا للخير وأهله عاقلا فأقام في داره بالمدينة لا يتطرف شيء من أمور السلطنة ولا يتعلق بأمر من أمور الدولة إلا ما كان بيده من النظر على المشهد النفيسى فالت إلى محبته القلوب وهابه الامراء واجتمعوا على طاعته ومال جماعة منهم إلى تسليم مقاليد السلطنة إليه فحزب آخرون للناصر محمد وطلبوا إرجاعه إلى تحت الملك بعد تنازل الملك الأشرف وخلعه نفسه وانضم إلى هؤلاء جماعة من الكبراء والعلماء وما زالوا حتى فازوا بإرجاعه وتسليم مقاليد الأمور إليه وظنوا إصلاح ما فسد من أخلاقه فم يستقر به المنصب حتى عاد إلى ما كان عليه من الجور والعسف بالريعية وارتكاب المحرم والفحش مما لا خير فيه وتمادى في جوره وظلمه ففقه الريعية وأبغضه الامراء وندموا على توليته الملك وحقدوا عليه وكرهوا مماليكه والمقربين إليه وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به وطال الحال على ذلك أياما * فلما كان سادس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعين خرج الناصر يريد الجيزة على عادته فكن له كين في الطريق من المماليك وخرجوا عليه وضربوه بالسيوف وتركوه ملقى بالطريق وعادوا إلى القاهرة وأشاعوا خبر موته فاجتمع الامراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاجتمعت كلمتهم على مبايعة خاله قانصوه الغوري فبايعوه في يوم الجمعة سابع عشر من الشهر ولقبوه بالملك الظاهر وولوه السلطنة على كره منه اذ كان يعرف ما وراءها من المتاعب وما سيلاقيه من المصائب * فلما استقر به المنصب رأى من فساد الاحوال ما أفعبده وأضعف عزيمته وأبغضه في الملك فتقاعس وترك الأمور تجري في أعنتها وتجنب عن الناس ومنع الامراء من الحضور إلى خدمته وأغلق دون أهل الظلامات بابا بغضا منه في السلطنة وكرها فلما أبس الامراء منه وتحققوا من عزمه على اعتزال المنصب قاموا عليه وخلعوه في أوائل ذي الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت سلطنته سنة وبضع أشهر وولوا بدله خاله جانبلاط الأشرف قايتباي ولقبوه بالملك الأشرف فتولاها والأمور مختلفة والاحوال معتلة وسعد السلطنة في إدارها فعالجها علها تستقيم فلم يفلح فصمم على خلع نفسه وهم بذلك فأجابوه إليه وخلع في تاسع عشر جادى الآخرة سنة ست وتسعمائة فكانت مدته سنة وأثمرا وأياما

واختل نظام السلطنة وزالت هيبة الدولة وتطاوت إليها أعناق الطامعين لكثرة العزل والتولية فلما رأى أمراء الشام ذلك وتحققوا أن ذلك إنما هو ناجم عن تفرق الأحزاب وانقسام

الآراء وتباين الأهواء اختاروا من بينهم الأمير طومان باي وسيروا الرسل الى أمراء مصر في
أمر توليته السلطنة فوافقوا على توليته وبإيعوه جميعا وطبروا الاخبار بذلك الى الآفاق
ولقبوه بالملك العادل فقدم الى مصر في طائفة من الجند الشاي وصعد الى قلعة الجبل
وأمامه الأمراء المصريون ومقدمو الجند والجنائب السلطانية ودقت لقدمه البشائر وتوسم
الناس فيه سمعة الخير واستبشروا به فلما قبض على زمام الامور ورأى من تمرد الجند
واقدامهم على الكبار بغير خوف ولأحساب لتفشي الخلل في جميع الامور وفساد الاحوال
شدد عليهم وضيق وأخذهم على كل هفوة فأبغضوه وأضمر واه السوء وصاروا يراقبون الفرص
للابتغاع به فأحس بذلك وأخذ يتحرز منهم ويعمل على تفريق كلمتهم وتذليل كبارهم فلم يفلح وقد
أكثر المبغضون له وكبر خوفه منهم ففر واختفى أربعين يوما فجعلوا يفتشون عليه حتى
عثروا به في ذى القعدة من السنة فجأوا به وقتلوه ومثلوا بجثته فكان يوما عبوسا كثير فيه بعد
ذلك النهب والسلب والتخريب وازاقة الدماء وتمكن العدو من عدوه فخاف حينئذ جميع
الأمراء وانكشوا ولم يقدم أحد منهم بعد ذلك على طلب الملك لاستفحال أمر الجند وتصرفهم
في جميع أمور الدولة ثم اجتمع جميع الأمراء وكبار الجند والاعيان والعلماء وأصحاب الوظائف
العالية وتشاوروا في الامر طويلا ثم اتحدت كلمتهم على ارجاع الأمير قانصوه الغوري الى دست
السلطنة ثانيا لانهم رأوا أنه لين الجانب سهل الازالة أى وقت أرادوا خلعه خلعوه لانه كان
أقلهم مالا وأضعفهم حالا وأوهنهم قوة فلما كملوه في ذلك قال لأقبل الا بشرط أن لا تقتلونى
فان رأيتم منى اعوجاجا وأردتم خلعي فأعلمونى فأنزل لكم عن السلطنة وأخلى بيعتكم
فعاهدوه على ذلك فقبل منهم فبايعوه في ذى الحجة من السنة وفرح العساكر ببيعته واستبشروا
بولايته ونظنوا بلوغ الغاية * قال بعض أهل التاريخ وكان قانصوه هذا كثير الدهاء كبير المعرفة
ذا فطنة وتجربة بالامور الا أنه شديد الطمع كثير الظلم جبارا طاغية فجعل يعالج الامور حتى
سكنت الفتنة بما عاهد عليه الجند واشتغلوا عنه وأهملوا أمره فأخذ يعمل التدبير على اهلاكهم
وتزويق شملهم وصار يلقي الفتنة بينهم ويأخذ هذا بهذا ويحرض طائفة على الاخرى ويدس لكبارهم
السم في الطعام ويباعد بين بعضهم والبعض بالأسفار والبعثات الطويلة وغير ذلك من الخيل
حتى أفنى أكثرهم وأهلك جميع كبارهم وشرد أصحاب الكلمة فيهم وأضعف شوكتهم وأزال
صولتهم وفرق كلمتهم وأذهب هيبتهم ثم اتخذ لنفسه مماليك جلبا وأعدهم جندا وبالغ في ترتيب
نظامهم فكانوا بعد قليل ضربة على الرعية يظلمون ويجورون ويعبثون بالخلق ويسلبون المارة
وأبناء السبيل وظهر منهم غاية الفساد والجور وهو يتغافل عنهم والناس في خيمر وابتهاال الى الله
بقلوب مفعمة حزنا * فلما قويت بهم شوكته عمد الى مصادرة الناس في أموالهم بالقهر والبأس
وكثر أخذه للناس بالشبهات فكثير أصحاب السعاية على بابه فكانوا اذا علموا بأحد من مساتير الناس
وشوا به عند السلطان فيرسل اليه أعوانه من أولئك المماليك ويأخذ أمواله بغير رجة ويسلمه
الى من يعاقبه بأنواع العقوبات حتى يأخذ ما أخفاه من دنياه الى أن يصبح فقيرا بعد غناه وسمعت

المصادرة فأخفى الناس أموالهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة وعظم ملك قانصوه وكبرت هيئته وعلت كلمته حتى هابه ملوك الروم والمشرق والفرنجية وفك الأسرى منهم وكان له المواعظ الهائلة والكلمة المسموعة ومهد طريق الحاج وأمنه فكان يسافر إليه من مصر النفر القليل ونزلت في أيامه طائفة من الفرنجة على سواحل البحر الأحمر وصاروا يشنون الغارة على قوافل التجارة التي كانت تأتي إلى مصر من الأقطار الهندية وبلاد العرب وغيرها فاستعظم قانصوه ذلك وسير جيشا عظيما لقتالهم فلما التقى الجمعان اختلفوا قتالا عنيفا فظفر الفرنجة وانتصروا على عساكر قانصوه نصره عظيمة وأهلكوهم فلم ينج منهم أحد وكانت هذه الواقعة من أشد الوقائع وأشامها على السلطان قانصوه إذ بدا بعدها نجم بعده في الأقول وسلطنة في الانحلال * ولما كانت سنة ثمان عشرة وتسعمائة جاء إلى مصر الأمير كركور أخى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد فارا من أخيه بعد قتال على الملك لا محصل لإيراده هنا واستنجد قانصوه على قتال أخيه ففرح قانصوه بمقدمه وجهزه بعشرين سفينة حربية وأمدّه ببعض العساكر البرية وسيره لفتح القسطنطينية فسار بها كركور فخرجت عليه عمارة عظيمة من السواحل الشامية وقاتلته وشددت في قتاله حتى أغرقت جميع المراكب المصرية ودمرتها فلما جاء الخبر بذلك إلى قانصوه ندم على ما فعل وخاف شر السلطان سليم وتحرز وبعث إليه سفراء في طلب الصلح وعقد معاهدة على الولاء والمودة فلما غل السلفاء بين يدي السلطان سليم أغلظ عليهم في القول وهددهم وقال لهم قولوا لصاحبكم ليست السلامة في كل مرة وإن أنا إلا زاحف على القاهرة فسيلقى صاحبكم نارا حامية إن شاء الله تعالى فرجع السفراء وأخبروه بما كان فكبر خوف قانصوه وأزجمه الأمر وأخذ يراقب الفرص ويعمل النفس بالأمانى البعيدة * ومرض في هذه الاثناء الخليفة المستمسك بالله وثقل مرضه فزاد خوف الأشرف قانصوه من قيام الفتنة أيضا في داخل البلاد وخروج الأحزاب لاسيما وقد كان بعض كبار الجند والأمراء ناقلين عليه متمهزين للبطش به وما زال المرض يشتد بالخليفة حتى مات في سنة اثنين وعشرين وتسعمائة هجرية فكانت خلافته نحو من عشرين سنة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده ففجأ الأشرف قانصوه في مبايعة ولده محمد المتوكل على الله وبايعه كذلك الأمراء والقضاة والعلماء خوفا من قيام الفتنة ومات في خلافة المستمسك المذكور بنيامين بطرك المناصلين بعد أن أقام إحدى عشرة سنة واشتد في أيامه السلطان الملك الأشرف قانصوه على النصارى شدة بالغة فصادر الكثير منهم في أموالهم وضيق عليهم وزاد في نكابتهم حتى عاقب بعض النساء بالجلد ونحوه وكان بنيامين هذا ورعا تقيا ساكن اللب عمر في أيامه ديار بنابشوى في بركة شهباء وبهوتة خلا الكرسي سنة ثم أقيم بعده بطرس وهو ثالث ثمانتهم واسمه داود وكان راهبا بدير أبي مقار فأقام ثمان سنين ومات ووقع في أيامه من الشدائد والاحن ما وقع للنصارى في أيام بنيامين فكان صبوراً جلوداً متواضعاً فأقيم بعده مرقس وهو رابع ثمانتهم واسمه فرج الله وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الخامس عشر)

(في خلافة محمد المتوكل على الله ابن المستنك)

ثم قام بالامر بعد المستنك ابنه الخليفة محمد المتوكل على الله ببيع بالخلافة ثاني يوم موت الخليفة المستنك سنة اثنين وعشرين وتسعمائة هجرية أي سنة ست عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وفي اليوم المذكور صعد الخليفة المشار اليه الى قلعة الجبل وألبس تشريف الخلافة بحضرة السلطان الملك قانصوه والقضاة والعلماء ونزل الى داره بالمدينة في دست الخلافة والقضاة بين يديه والتزم النظر بالمشهد النفيسي على ما كان عليه الخلفاء من قبل واحتجب عن الناس الا القليل بأسباب الحوادث والفتنة القائمة وتشاغل عنه السلطان قانصوه بما هو فيه من تجنيد الجند وجمع الاسلحة والكراع لقتال السلطان سليم فقد كانت الاخبار تأتي اليه في كل يوم أشكالا لاسيما بعد أن سار السلطان سليم في عسكر جزار لقتال اسمعيل شاه ملك فارس لما بينهما من العداوة القديمة * قال أصحاب التاريخ وكان سبب هذه العداوة أنه لما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد استنجد الامير أحمد شاه اسمعيل على قتال والده ثم على أخيه من بعده فساعده وقبل من النجاء اليه من أولاده وسير سفراء الى سلطان مصر قانصوه في طلب عقد تحالف سرى على الإيقاع بالدولة العثمانية وإيقاف سلاطينها عند حدتهم فعظم هذا الامر على السلطان سليم وجيش جيشا عظيما أغزو بلاد فارس وأخذها جميعها من اسمعيل شاه ولما كان اسمعيل شاه لا يبدى حرا كما ولم يفتح للحرب بابا وكان السلطان سليم على قدم الاستعداد للقتال دس لعماله في الولايات المتاخمة لبلاد الهجوم أن يمحسوا الشيعيين من العجم النازلين في بلادهم فأحسوهم سرا فكانوا زهاء أربعين ألفا فأمر بقتلهم صبورا فقتلوا عن آخرهم ثم سار السلطان سليم بجيوشه الى أدرنه في الثاني والعشرين من المحرم افتتح سنة عشرين وتسعمائة فكان كلما مر ببلد أو مدينة فتحها حتى وصل تبريز فلاقاه ملك فارس في عسكر عظيم واحتدت نار القتال بين الفريقين فانهمز ملك فارس ومن معه وسافت عساكر السلطان سليم خرائن ملك فارس وآلات حرب وذخيرة جنوده وما زال السلطان سليم يسير خلفه بخيله ورجله حتى وطأ أرض تبريز فقتل وأسر وأراق الدماء وأراد أخذ جميع بلاد فارس ومحو آثار هذه الدولة فلم يفلح لاشتداد القحط والغلاء وانتشار الوباء بين عسكره وبيعت العلوفة بمائة درهم وبيع الرغيف بمائة درهم وكان ذلك لانقطاع القوافل التي كان أعدها السلطان سليم لتأتي له بالمؤن والعلوفة فتخلفت عنه ولم يوجد بتبريز شيء من الماء كحل أو الجيوب حيث أحرق ملك فارس جميع الاجران وخرب المباني وأفسد المزروعات لكي لا يتمكن السلطان سليم من شيء منها فاضطرب السلطان لذلك وخاف شر العاقبة وسأل عن سبب انقطاع القوافل

فقالوا له ان سبب ذلك قانصوه الغورى سلطان مصر فان بينه وبين ملك فارس عهدا على ذلك فقتل السلطان سليم راجعا عن بقى من عسكره الى مقر سلطنته وفي نفسه ما فيها وأخذ يتأهب لقتال قانصوه وسلخ مصر منه وأقسم أنه لا ينكف عن الحرب حتى يزبل عنها دولة الاماليك الشراكسة ويبيدهم

وكان من مقسدى الامراء المصريين أميران أحدهما اسمه خير بك متولى حلب وثانيهما اسمه سيباي الغزالي متولى الشام وكان بينهما وبين السلطان قانصوه الغورى عداوة في الباطن وقد علم السلطان سليم بذلك فراسلها في أمر قتاله بمصر فأوسعها له الامل وسهلا عليه سبل العمل وحرصاه على ذلك وكشف له عن فساد الاحوال وعجز السلطان قانصوه عن القتال فأحس السلطان قانصوه بذلك وأخذ يراقب الامور ويبحث بالعيون لتأني له بصادق الاخبار حتى علم بتأهب السلطان سليم للحركة والقيام من دار سلطنته فأخذ هو كذلك في التأهب وعرض العساكر والاجناد وجمع الاموال لتنفقة الحرب وفتح خزائن البيسارية وحواصل الامتعة فأخرجوا منها ما أرادوا من كراع وسلاح وأرسل الى الخليفة المتوكل على الله أن يتأهب للخروج معه الى حلب ونادى في جميع العسكر بالتأهب والاستعداد فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرى ربيع الاول سنة اثنيتين وعشرين وتسعمائة أنفق على العسكر نفقة السفر فكان ماخص كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر ثمانية آلاف فضة وعن جبل سبع أشرفيات ثم نادوا في العسكر بالخروج فخرجوا في يوم الجمعة سابع ربيع الآخر وساروا تباعا الى الريدانية وعسكروا بها أياما ثم خرجت أطلاب السلطان وأمير المؤمنين الخليفة وبقية الامراء والمباشرين وفي صبح يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر اجتمع سائر الامراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بلباس التشريف فخاح عليهم الخلع السنية فكانت عدتهم خمسة عشر أميرا ثم رسم السلطان بتعيين الامير طقطاي نائب القلعة أحد المقدمين والامير بلرزموك المعروف بالناشف والامير تاجي بك العجمي أحد المقدمين وغيرهم من الامراء نواب غيبة كل منهم في مسنده حتى يرجع السلطان من هذه الحلة ثم خرج السلطان من باب الاسطبل الذي عند السلم المدرج وأمامه النفير السلطاني المسمى بالبرغيشى وهو في موكب عظيم وأبهة زائدة وكان يتقدم هذا الموكب ثلاثة أفيال مغطاة بالصنماجق وخلفهم العساكر بلباس التشريف تباعا ثم الامراء رؤس النوب بالعصى ثم أرباب الوظائف من المباشرين ثم ولد السلطان وبجانبه الاتابكي سودون العجمي ثم القضاة الاربعة ثم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد بن المستمسك يعقوب العباسي وهو لابس العمامة البغدادية التي بالعذبتين وعليه قباء بعلبكي بطراز أسود حرير ثم سارت الجنايب السلطانية فكافوا طواليتين من الخيل من أحسن الجياد بعراقي وسروج بفواشى من الحرير الاصفر وطبول وزمور وطواليتين آخرين بكياس وسروج ذهب وميائثر زركش وخلفهم جماعة من رؤس النوب مشاة والجاويفية والطيردارية مشاة بالاطيار

ثم البقي والجوامع مغطاة بالحرير الاصفر ثم البخوري بالمبخرة * قال بعض كتاب الاخبار ثم
أقبل السلطان الملك الظاهر قانصوه وكان الخليفة أمامه بنحو العشرين خطوة والسلطان
راكب على فرس من جياذ الخيل وعلى رأسه كلونا وهو لابس قباء بعلبكيا أبيض بطراز
مزر كش والصنح السلطاني على رأسه وشبل العثماني مقدم الممالك خلفه ومعه
السلحدارية والجسم الغفير من الخاصكية والجلدانية ودخل من باب زويلة وشق القاهرة
بموصف كعبه هذا فضج الناس له بالدعاء وما زال حتى خرج من باب النصر وسار الى المعسكر
بالريدانية ونزلت في غروب ذلك اليوم من قلعة الجبل جميع الخزان السلطانية وكان فيها
من الذهب زهاء ألفي ألف دينار نقرة وكثير من الفضة والتحاس ثم نزلت الزردخانة وهي محلة
على مائة جبل ونادى المنادى سادس عشر الشهر المذكور بخروج من تعوق من العساكر
والاجناد بالقاهرة ومصر القديمة وأن السلطان على عزم السفر في يوم الجمعة عشري الشهر
تخرج من بقي ورسم السلطان لجماعة من نواب الشافعية ونواب الحنفية ونواب المالكية
ونواب الحنابلة أن يرافقوه في هذه الغزوة ورسم بذلك لجماعة من مشايخ الحقيقة والأئمة
ومشايخ القراء والمؤذنين والكتاب وجماعة من الاطباء والكهالين والخلافين والمغنين وجماعة
كثيرة من البنائين والتجارين والحدادين ثم قام الركب وسار الى الديار الشامية ولبث
السلطان بالريدانية في نفر من خواصه وكبار أمرائه أياما فجاءته الاخبار من عامله على حلب
بأن السلطان سليم لا يريد الا المصالحة وحقن الدماء وعدم الاندفاع الى حرب ربما كانت
عاقبتها عليه ونخبة فسر السلطان الظاهر بهذا الخبر واعتقد صدق مقال السلطان سليم
والامر على عكس ذلك فقد كان هذا القول خدعة من السلطان سليم ومداينة لغاية في
نفسه * فلما كان يوم السبت ثاني عشري ربيع الآخر سار السلطان الملك الظاهر قانصوه
من الريدانية وصحبته أمير المؤمنين الخليفة والقضاة الاربعة وولده المعز الناصري وأقباي
الطويل وذلك بعد صلاة الضحى يريد الخانقاه السرياقوسية فكانت مدة لبثه بالريدانية سبعة
أيام وأقام بالخانقاه يوما وليلة ورحل عنها في يوم الاحد ثالث عشريه * وكان بمصر من أولاد
أحمد بك أخي السلطان سليم غلام اسمه قاسم وكان سبب حضوره الى مصر أنه لما قام
السلطان سليم على أخيه أحمد أبي قاسم المذكور وقتله خافت أم أحمد عليه فسلمته الى
مربيه من الخصيان وأشارت عليه بالهرب الى الديار الشامية فهربا معا الى حلب وهما في
هيئة مبتدلة فدخلها فلبثا بها حينما فلما علم السلطان الملك الظاهر بأمر الصبي المذكور
كانت عامله على حلب في أمره ورسم بتسييره الى مصر فجاءها مع مربيه وأقاما بها
متنكرين فلما عزم السلطان الظاهر على الشخصوس الى الشام جهز الأمير قاسم المذكور في
عدة من الممالك والفرسان والخدم والحشم ودواب الحمل وقيد بخدمته الأمير ماماي
الصغير المحتسب ورسم بخروجه خلفه الى الشام في هذه الابهة والككبكة كي يشيع خبره
ويعلم الناس في دار السلطنة العثمانية أن بمصر غلاما من سلالة ملوكهم فيخرجون على

السلطان سليم بسبيته وينتازون اليه فتضعف شوكة السلطان سليم وتسقط هيئته فيظفر به ويعود منصورا وكان الصبي المذكور لم يبلغ من العمر سوى الثالثة عشرة فخرج في غزاة جمادى الاولى من السنة في موكب حافل وشق من صليبة ابن طولون وعلى رأسه عمامة تركمانية وفي وسطه خنجر وفي أذنه قرط مثنى للغاية وخلفه جماعة من العثمانيين والامير ماماي المحتسب والامير اينال باي دودار سكين ولحق بالركب السلطاني كما رسم الظاهر قانصوه ودخل السلطان الملك الظاهر قانصوه بجيوشه الى الصالحية في يوم الثلاثاء خامس عشر ربيع الآخر ثم سار منها الى قطيا فلاقاه نائبها ومد له الموائد وجهزه بمالاق وسار منها فدخل مدينة غزة في يوم الخميس رابع جمادى الاولى فلاقاه الامير دولت باي نائب غزة فأقام بها خمسة أيام ثم رحل عنها الى دمشق فدخلها في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الاولى فلاقاه الأمير سيدي الغزالي نائب الشام وأظهر الفرح بقدومه ومشى في ركابه فدخل وأمامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العساكر والناس فلاقاه بها جميع أمراء الشام وعسكرها وحملوا القبة والجلالة على رأسه كما جرت عادة الملوك من القدم وزينت له المدينة ودقت البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الفرنجة الذهب والفضة وفرش له سيدي الغزالي تحت أقدام فرسه الشقق الحرير خديعة وغشا فشق وسط المدينة ودخل من الباب المسمى باب النصر وخرج الى القضاء وسار نحو المصطبة السلطانية بناحية فانول فنزل بها ورسم بعمارتها فرمىها * قال أصحاب التاريخ ولم يتفق هذا الموكب لغيره من ملوك مصر الا للملك الاشرف برسباي لما سار الى دمشق سنة ست وثلثين وثمانمائة * وأقام السلطان بالمصطبة تسعة أيام ثم رحل عنها الى حصص ثم الى حماة فلاقاه عاملها قبلي بردي الغزالي وبالح في تعظيمه وعمل له موكبا حافلا جدا فأقام بها أياما حتى جاء الامير قاسم أخو السلطان سليم فأنزله بها وسار هو بعسكره ومتاعه قاصدا حلبا فدخلها في يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة في موكب حافل ومشى أمامه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربعة وسائر الامراء وحملت له القبة والجلالة وكان الحامل لها الامير خير بك عامله على حلب فلم يستقر بالسلطان المقام حتى وفدت عليه رسل السلطان سليم وهم ركن الدين قاضي عسكره وأمير اسمه قراچاه باشا وفي ركابهما سبعمائة راكب فأنزلهم قانصوه في أحسن مكان وأكرم وفادتهما ودعاهما الى مقامه وجعل يعاتبهما ويشكو من فعال السلطان سليم واقدامه على سفك الدماء التي حرم الله سفكها فلاطفاه وهونا عليه الامر وقالوا قد جئنا الى مقامك وكلانا مقبوض في اجراء كل مانحب وتمتار بشرط أن لا تتعرض لنجدة ملك فارس وقالوا ان السلطان يريد أن ترسل اليه سكرا وحلوى من محصول بلادك فسر الظاهر قانصوه بذلك وظن السلامة والاخلاص وأرسل اليه ما طلب ولم تكن نية السلطان سليم من ارسال هذا الوفد الا ليسبر غور الامور ويعرف أحوال جيوش الظاهر قانصوه وما عندهم من سلاح وكراع وكان السلطان سليم قد

وصل في هذه الاثناء الى قيسارية ثم خلع الظاهر على رسل السلطان سليم خلعا سنية ورسم
للامير مغلباي دودار سكين بأن يتوجه الى السلطان سليم رسولا ومعه بعض الخف وكثير
من الهدايا الثمينة وكتب يعرب عن المودة والولاء والاشارة الى تقرير قاعدة الصلح بين الفريقين
لحسم المشاكل وقطع أسباب الخصومة ولبت ينظر الجواب فلما أبطل رسوله جمع جميع
الامراء المقدمين والالوف والنواب وأمراء الطبليخاناه وأمراء العشراوات واستخلفهم على
القرآن بأن يكونوا له عوناً على العدو ولا يخونوه ولا يخالفوا له أمراً ولا يغدروا به فلفقوا
جميعاً وحلف معهم خير بك والغزالي ثم نادى في العسكر بالعرض في الميدان فعرضوا وهم
باللباس الكامل ثم مروا من تحت سيفين قد نصباً على شكل قنطرة كعادة الاتراك * وعندهم
أن هذا هو القسم الاعظم * وأرسل السلطان قانصوه الى الامير قاسم بن أحمد بحمالة بجاء الى
حلب فخلع عليه وأذاع خبره وطيره الى الآفاق وجعل يتأهب وبينما هو على هذا الحال اذ
جاءه الخبر بأن السلطان سليم قبض على الامير مغلباي الذي سار اليه بالهدية والكتاب وكبله
بالحديد وأبى الا القتال وقطع دابر الظاهر وأصحابه واستخلاص البلاد منهم * وساق السلطان
سليم بعد ذلك بعسكره الى عنتاب وفتح قلعة ملطية وهنسا وكر كر وغيرهما من القلاع
فاضطرب الملك الظاهر وتخير في أمره ونادى في طائفة من العسكر بالخروج الى لقائه فخرج
أمير اسمه عبد الرزاق بعسكره وخرج معه خير بك في نفر من جنده أيضاً فكانت عدتهم
خمسة آلاف ونزلوا على قيد يوم من مدينة حلب ثم خرج بعدهم سييى الغزالي نائب الشام
والأمير تمتاز نائب طرابلس والامير طراباي نائب صفد ونائب حص ونائب غزة وتتابع
خروجهم بالعسكر والاسلحة في اليوم السابع عشر من رجب وخرج بعد ذلك من بقي
وساروا قاصدين جبيلات ووردت الاخبار بذلك الى نائب الغيبة بمصر فأطلق بعض المحابيس
من النساء والزجال وفرق الصدقات ودعا الناس الى الدعاء للسلطان الملك الظاهر قانصوه
بالنصر والتأييد

وعاد في هذه الاثناء الى حلب الامير مغلباي دودار الذي سار الى مقام السلطان سليم
رسولا بالكتاب والهدية وهو في أسوء حال من العرى والنعب وأخبر الظاهر بما ناله من
السلطان سليم وتصميمه على القتال ومحو أثر دولة الغوري فهال الملك الظاهر هذا الامر
وأزعجه وخرج من حلب في يوم الثلاثاء العشرين من رجب ومعه أمير المؤمنين الخليفة
المتوكل على الله العباسي والقضاة الاربعة وسار الى جبلان فبات بها ليلة وأصبح فرحل
عنها الى مرج دابق فأقام بها الى يوم الاحد سابع عشر رجب فجاءته الرسل من قبل
السلطان سليم تدعوه الى القتال فنادى في العسكر بالخروج وركب هو وعليه تخفيفة
صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير وأخذ يرتب صفوف العسكر ويختار لها مواقع القتال ثم وقف
بخواصه الذين يعتمد عليهم في قلب الجيش وعلى يمينه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله
وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير مثل السلطان وعلى رأسه الصنحج الخليفة

وكان حول السلطان أربعون مصحفا في أكياس من الحرير الاصفر على رؤس جماعة من
الاشراف وبينهم مصحف بخط الامام عثمان بن عفان وحوله أيضا جماعة من الفقراء وهم
خليفة أجد البدوي ومعهم العلم الاجدى والقادرية ومعهم علم أخضر وخليفة السيد أجد
ابن الرفاعي ومعهم العلم الخليلي والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة ومعهم علم أسود
والامير قاسم ابن أخي السلطان سليم واقف باراء الخليفة وعلى رأسه صنجق من الحرير الاحمر
وكان خلف السلطان الظاهر الصنجق السلطاني وتحتة سنبل العثماني مقدم المماليك
والقضاة الاربعة والامير تراز الزردكاش أحد المقدمين واصطفت جيوش السلطان سليم
وارتفعت أعلامهم فبرز من جيوش السلطان الملك الظاهر الاتابكي سودون العجمي بعسكره
والامير سيابى الغزالي نائب الشام والمماليك القرائصة للقتال فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا
عنيفا للغاية فانهمزم عسكر السلطان سليم وتقهقروا الى الورا فساق خلفهم سودون العجمي
وأصحابه وغنموا منهم سبعة صناعق ومكاحل وأسروا منهم عددا كثيرا من رماة البنادق
وكادت تتم هزيمتهم وكان خيربك عامل حلب والغزالي والى الشام قد راسلا السلطان سليم
واستوثقا منه لانفسهما بأن يعطى خيربك مصر والغزالي الشام فلما التهم الجمعان واضطربت
النيران وكادت تتم هزيمة عسكر السلطان سليم فرخيربك بن معه وكانوا في المينة وانضموا
الى صفوف العدو وفر الغزالي بن معه من العسكر الشامي وكانوا في الميسرة وبقي السلطان
الملك الظاهر بن معه من خواصه في القلب فاندفع عليه من بقي من عساكر السلطان
سليم فأراد الهرب وحول وجهه جواده يريد حلبا فسقط ومات تحت سنابك الخيل وقيل
أصابه في الحلق فالح فلم يملك نفسه فسقط فمات لساعته فانقض عسكر السلطان سليم على
من كانوا حوله فقتلوا الامير بيبرس أحد المقدمين وكثيرا من الخصاصكية والغلمان وشردوا
من بقي ووطؤا المصاحف والاعلام بسنابك الخيل ونهبوا ما وجدوه في المعسكر المصري
وزال من تلك الساعة ملك السلطان الملك الظاهر قانصوه فكانت مدة تصرفه في ملك مصر
والشام وأعمالها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فقد كان ولي الملك في
مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ومات في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين
وعشرين وتسعمائة * وقتل في هذه الواقعة من الامراء المقدمين عدة كثيرة وقتل سيابى
نائب الشام عند فراره للانضمام الى عسكر السلطان سليم وعدة أخرى من الجمال والنواب
وقد ستر وجه الارض بالجثث من الانسان والحيوان فكان المشهد مريعا للغاية والخطب
شديدا ودخل السلطان سليم وطاق الملك الظاهر فأخذ جميع ما فيه من مال وسلاح وكان
شيا كثيرا وانحاز من بقي من عساكر الظاهر الى مدينة حلب لبتترسوا فيها فقام عليهم
أهلها جميعا ومنعهم من الدخول وقتلوا دونها فقتلوا من العسكر خلقا ونهبوا ما كان معهم
من سلاح ومتاع وخيل وغنموا ودائعهم التي كانت بالمدينة فارتد من بقي وساروا الى دمشق
فدخلوها وهم في أسوء حال ما بين ضعيف وجريح بلا لباس ولا سلاح ولحق بهم بعض

المشردين من المباشرين ومن بقي من الامراء الكبار ولبشوا بها أيا ما بلا ماء ولا زاد الا القليل جدا وأقام السلطان سليم خارجا عن حلب بالمكان المعروف بميدان حلب حتى تكامل ورود عسكره وجعوا الاسلاب والغنائم فسار اليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله يعقوب والقضاة الثلاثة وهم قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وقاضي القضاة محيي الدين الدميري المالكي وقاضي القضاة شهاب الدين الفتوح الحنبلي أما قاضي الخنفية محمد ابن الشحنة فكان قد هرب مع العسكر الى دمشق فناله ما نالهم فلما دخل الخليفة قام له السلطان سليم وأجله وأجلسه وجلس بين يديه ولم يلتفت الى القضاة ولم يجلسهم ثم رسم للخليفة بالمقام في مدينة حلب وخلع عليه خلعة سنية من مال وملبوس ووكل به من يحرسه ثم صرف القضاة على غير صورة * وخرج اليه بالميدان أمراء حلب فسلم المدينة وارتفعت راياته على حصونها بلا حرب ولا جلاد وغتم جميع ما كان بها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك وهرب قانصوه الاشرف نائب قلعها وسار الى الشام مع من هرب من العسكر * قال بعض كتاب الاخبار وكان بالقلعة من المال ما قيمته مائة ألف ألف دينار خلافاً أو انى الذهب والفضة والتحف النفيسة وصلى السلطان سليم صلاة الجمعة في جامع الاطروش بحلب فخطب الخطيب باسمه ودعاه ولاسلافه وبالغ في المدح والتعريف وعند ما سمع السلطان سليم الخطيب يقول في تعريفه * خادم الحرمين الشريفين * أظهر الفرح والسرور بلقب خادم الحرمين الشريفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة وهو على المنبر وأحسن اليه احسانا كثيرا فلما خرج من الصلاة زينت له المدينة وأوقدوا له الشموع على أبواب الدكاكين وارتفعت له الاصوات بالدعاء فأقام بالميدان أيا ما وهو يرنب الامور ويجري الاحكام ويهدد العقبات ثم ارتحل الى الشام فخرج من كان بها من العساكر المصرية هاربين وخرج اليه أهل دمشق وطلبوا الامان فاتهم ودخل المدينة في موكب حافل للغاية وأقام بها أيا ما وخطب له بها الخطباء ووصل من بقي من العسكر المصري والامراء الى القاهرة وهم في أسوء حال من العرى والجوع والضعف وبينهم كثير من المرضى والجرحى فقام العزاء بالقاهرة على السلطان ومن مات من الامراء والعسكر والمباشرين وأرباب الوظائف وكثر البكاء والنواح في جميع البيوت فكان الخطيب عظيمها والحزن عاما * وجاءت الاخبار الى الامير طومان باي الدوادار متولى الغيبة بعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة فهاله الامر وأزعجه وجمع من بقي من الامراء المقدمين وأمراء الطبليخانة وأمراء العشراوات وتكلموا في الامر طويلا فاتفقت كلمتهم على تولية الامير طومان باي المذكور منصب السلطنة فامتنع فالحوا عليه فلم يقبل وأظهر غاية الامتناع ثم ركب وركب معه من الامراء المقدمين الامير علان والامير أنسيباي حاجب الجباب والامير عمر والامير بقطاي نائب القلعة وآخرون غيرهم وساروا الى كوم الجارح عند الشيخ أبي السعود وكان للامير طومان باي معرفة ثابتة به وصحبة فذكروا للشيخ ما وقع للعساكر المصرية بمرج دابق وما حل بالسلطان قانصوه

الغورى وعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة ورغبتهم في مبايعة
الامير طومان باى بالسلطنة وامتناعه وطال بهم الكلام في ذلك فقام الشيخ وأحضر
المصنف واستألفهم جميعا على أنه اذا قبل الامير طومان باى المنصب لا يخوفونه ولا يغدرونه
ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله تخلفوا جميعا على ذلك ثم أعاد عليهم اليمين ثانيا أن
لا يظلموا الرعية ولا يجددوا الاحداث من المشاهرة والمجاعة التى أحدثها الغورى وأن
يبتلوا ما على الخوانيت من ذلك وأن يجروا الامور على ما كانت عليه أيام الملك الاشرف
قايتباى ويسيروا الحسبة على طريقة يشك الجالى عند ما كان متوليا عليها تخلفوا له على
ذلك وقاموا من عنده وقد قبل الامير طومان باى المنصب وأطاع * فلما كان يوم الجمعة
رابع عشر رمضان من السنة صلى الامير طومان باى صلاة الفجر وركب فرسك معه
الامراء المقدمون وأمامهم الفوانيس بالشموع والمشاعل وشق من صليبة ابن طولون وهو
بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الامراء الذين معه فارتفعت له أصوات الناس بالدعاء
وصعد الى باب السلسلة وجلس به وأرسل يستدعى أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين
الخليفة المتوكل على الله فحضر معه هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن
عم خليل وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمد بن الشحنة والقاضى شرف الدين
يحيى بن البردينى أحد نواب الشافعية وجاعة من نواب القضاة الذين بالقاهرة فلما تكامل
المجلس اجتمع سائر الامراء المقدمين وغيرهم من الاجناد والعسكر فبرز أمير المؤمنين يعقوب
ورقة بالوكالة المطلقه عن والده المتوكل على الله فتمليت بحضرة من حضر وبعد ذلك تقدم
الخليفة يعقوب فبايع الامير طومان باى بالسلطنة وبايعه هو أيضا وشهد عليهم بذلك الشرف
يحيى بن البردينى وجاعة من نواب القضاة فلما تمت له البيعة أحضروا له الخلعة السلطانية
وهى جبة سوداء وعمامة سوداء وسيف بدوى ولقبوه بالملك الاشرف ثم قدموا له فرس النوبة
فركب على سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة أمامه فطلع من باب سر القصر الكبير
وجلس على تحت المملكة وقبل الامراء الارض بين يديه ودقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه
في القاهرة ومصر فارتفعت له الاصوات بالدعاء وفرح الناس به فانه كان بارا شفيقا على
الرعية ميالا الى خير البلاد فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم خرج السلطان الملك
الاشرف طومان باى المذكور وصلى صلاة الجمعة وخطب به الشرف يحيى بن البردينى
وخطب جميع الخطباء باسمه على المنابر في ذلك اليوم بعد انقطاع الخطبة خمسين يوما من مصر
والقاهرة وغيرهما

وجاء في هذه الاثناء الى القاهرة بعض كبار الامراء الذين تخلفوا بدمشق ومعهم جماعة
كثيرة من كبار دمشق وأعيانها فرارا من ايذاء جنود السلطان سليم فانهم لما دخلوا دمشق
عاقوا وأفسدوا ونهبوا الدور وأخذوا كل ما وصلت اليه أيديهم فهاجر الكثير من أهل دمشق
وتفرقوا وجاء منهم جماعة الى القاهرة * قال بعض أصحاب التاريخ وكثر فساد عسكر السلطان

سليم فتطاوت أيديهم أيضا الى نهب ما في القرى المجاورة لدمشق فخرج لقتالهم الامير ناصر الدين بن الخشن أحد كبار قبائل العرب فلاقاهم عند قابون واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانصر عليهم ابن الخشن وانهزمهم وأعمل فيهم القتل بالسيف ثم تترس في دمشق وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان طومان باي ففرح وتفقوت عزائمه ونادى في العسكر المصرى الذى تخلف بالقاهرة لحراستها بعد خروجه فانصوه بأن يتأهبوا للخروج ثم عرضهم وعين من الامراء المقدمين الذين تخلفوا أيضا ستة أمراء ثم رتب أمور الجند وولى عليهم من شاء من الامراء وعين أرباب الوظائف العالية والمباشرين وأمراء الطبخانة والعشراوات وغيرهم من أصحاب الوظائف الاخرى وكتب الى ابن الخشن يستنهض همته الى قتال السلطان سليم ووعده بولاية حصص وأتابكية الشام ان هونال من العثمانيين وفرق شملهم وكثر الارجاف في هذا الحين واشتد خوف الناس ولم يخرج الحج في هذه السنة وتعطلت مراسمه وجاءت الاخبار بعزم السلطان سليم على الزحف على غزة بجموشه بعد أن ملك جميع الديار الشامية من الشام الى الفرات وأقام الولاة والعمال ورتب الامور على ما يشاء فلما علم السلطان الاشرف طومان باي بذلك نادى في العسكر بالخروج الى الريدانية وخلق على الامير جان بردى وجعله مقدم هذه الحملة فخرج من يومه الى الريدانية ونصب وطاقه وأكثر النداء في العسكر فصاروا يخرجون تباعا والنداء متواصل والاخبار متردفة بوصول طلائع جيوش السلطان سليم الى سواد غزة وخرج أصحاب البنادق من الجند وأصحاب المكاحل وغيرهم وتقدم الامير جان بردى بعسكره يريد غزة وتبعه بعض الامراء بما اليكهم فالتقت بهم طلائع السلطان سليم على مقربة من غزة فقاتلوهم قتالا عنيفا ولازم كل فريق منهم مواقعه * فلما كان يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة قبض جواسيس السلطان الملك الاشرف طومان باي على جماعة من أصحاب السلطان سليم بطريق بركة الحاج وكافوا نحو خمسة عشر ومعهم شيخ كبير هو مقدمهم وكان حضورهم من طريق الدرب السلطاني ولم يأتوا من طريق غزة لوقوف الامير جان بردى بعسكره عند سواد غزة فلما جاؤا بهم الى دار الامير علان الدوادار الكبير أشاروا الى الشيخ بأن يترجل عن فرسه ليدخل على الامير فلم يقبل فمطحوه على وجهه وأوسعوه ضربا ومن معه وأمر بهم الدوادار فقيدوهم جميعا بالحديد وألقوهم في السجن وقتشوهم فوجدوا مع ذلك الشيخ عدة رسائل لبعض الامراء والمباشرين وأرباب الوظائف العالية بمصر ورسالة الى السلطان الملك الاشرف طومان باي وهى غاية في التشديد والغلظة وكلها سباب ووعيد وتهديد الى أن قال له فيها ﷻ ولقد أوحى الله الى أن أملك جميع البلاد شرقا وغربا كما ملكها ذو القرنين وأن لا تكون كلمة فوق كلمتى ولا يد فوق يدي وأما أنت فملوك تباع وتشترى فلا تصح لك ولاية ولا يجوز لك التسلط على الاحرار وقد أنت الى السلطنة على ديار مصر بعهد من أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة فان سالتنا سلت وأزلنا عنك البأس واضرب السكة باسمنا

الشريف ثم اخطب لنا على المنابر قياما بواجب السلطنة وقد وليناك بعد الطاعة عمالة مصر وملحقاتها الى مدينة غزة فقط فان آيت الطاعة وأظنك فاعلا آيت الى مصر وقتلت جميع من بها من الشرا كسة حتى الاجنة الذين في بطون الامهات وأخو شافهم عن وجه الارض * الى أن قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا * الآية

فلما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الاشرف طومان باي بكى بكاء مرارا وجمع اليه الامراء وكلهم في الامر ثم شدد في خروج من بقي من العساكر وشاع خبر ما في هذا الكتاب بين الناس فانزعجوا ونزع بعضهم الى أطراف القاهرة وبعضهم الى الصعيد الاعلى بأموالهم وعيالهم وعم الخوف جميع الرعية وامتنع من بقي من العساكر والاجناد من ممالك الطبايق لاسيما الممالك القرائصة من الخروج الى القتال الا بعد النفقة وأن ينفذ لكل واحد منهم مائة وثلاثين دينارا فأخذ السلطان يلاطفهم ويسيرهم حتى قبلوا خمسين دينارا فجمع السلطان هذا المال من أولاد السلطان الملك الغوري وأولاد السلطان الملك المؤيد وأولاد السلطان الملك المنصور وجميع أولاد الامراء الذين بالقاهرة ومصر ولم يحدث بسببه احدا على أهل البلاد كما كان يفعل غيره من الملوك والسلاطين اذا قامت الحرب من عدو خارجي * وفي هذه الاثناء جاء الخبر بوقوع القتال في يوم الاحد سابع عشر ذي القعدة بين العساكر المصرية وعساكر السلطان سليم تحت أسوار مدينة غزة واشتد شدة بالغة ثم انكشف عن هزيمة المصريين وفي رواية ان هذه الواقعة كانت بناحية ييسان فساق عسكر السلطان سليم خلف العسكر المصري وأكثروا فيهم القتل والطمع فمات منهم خلق كثير وخرج الامير جان بردى مقدم الجيوش المصرية والامير أزمك الناشف أحد الامراء المقدمين وغيرهما من كبار الامراء والمباشرين وغنموا ما كان معهم من سلاح وكراع وخيول وجمال ومات الامير على باي السيفي الدوادار أحد أمراء الطبائنا وتشتت من بقي من المصريين وتمزق شملهم * فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم افتتح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل من بقي من العسكر الى القاهرة وهم في آنعس حال فكان أول من دخل الامير جان بردى مقدم الحملة والامير أزمك الناشف وبعض أمراء العشراوات والعساكر والغلمان والاتباع فأخبروا بما نالهم من عساكر السلطان سليم وبالغوا وهولوا وملؤا القلوب خوفا ورهبة من سطوة السلطان سليم وشدة بأس عساكره وأنهم دخلوا غزة وملكوها وأتى مع من حضر أيضا والى غزة المسيحي دوات باي فاشتد غم السلطان الملك الاشرف وحار في أمره ووصلت طلائع الجيوش العثمانية الى قطيا وقد أباح لهم السلطان سليم مدينة غزة أياما فقتلوا فيها وأراقوا الدماء وأخشوا في القتل حتى في الاطفال والصبيان تشفيا وانتقاما وكان فتح غزة على يدى سنان باشا أحد كبار عسكر السلطان سليم

واهتم السلطان الملك الاشرف باعداد المعدات وجمع الذخيرة فجمع منها شيئا كثيرا

وسيرها مع بعض طوائف الجند من الممالك وأخلط الناس من سود ومغاربة وغيرهم وأخرج عدة عجلات تجرها الابقار وعليها المكاحل النحاس وساروا الى الريدانية ونزلوا على مقربة من تربة العادل ورسم السلطان بتسليم قيادة هذا الجيش الى الامير سودون الدوادار فتقيد عندئذ بخروج الجند واخراج المعدات وبرز بهم الى الريدانية وبث العيون والارصاد لتأني اليه بالاخبار فأعلموه بأن السلطان سليم خرج من دمشق يريد الديار المصرية وقد قسم عساكره الى فرقتين فسير احدهما من طريق الدرب السلطاني وثانيتهما من طريق التيه وهو طريق السرية التي سلكها بنو اسرائيل مع موسى عليه السلام عند خروجهم من ارض مصر فسير سودون الخبر بذلك الى الاشرف بالقاهرة فجمع الاشرف الامراء وحثهم على الخروج الى الريدانية فخرجوا وعسكروا بها وتابع الامير سودون استطلاع الاخبار فعلم أن العدو وصل الى مدينة غزة وأن السلطان سليم عرج في نفر قليل الى زيارة بيت المقدس ومقام الخليل ابراهيم وأحسن الى من بالبيت وعاد ولما كان يوم الاثنين تاسع عشر ذي الحجة نزل السلطان الملك الاشرف ومعه الامير قاسم ابن أخي السلطان سليم من قلعة الجبل في عتة وافرة من الجند والغلمان وساروا الى الريدانية وأقام السلطان بالمصطبة التي بها المعروفة بالمطمع ورسم بترتيب العساكر ووضع المكاحل واستعد للقاء السلطان سليم بالصاحبة فنعه الامراء وقالوا لانقائله الا بالريدانية فراجعهم فلم يقبلوا فالح عليهم فامتنعوا فأجابهم كارها ورسم بعمل خندق من سبيل علان الى الجبل الاحمر والى منتهى مزارع المطرية فملأوه ووضعوا عليه الطوارق والمكاحل وأتى الى الريدانية الكثير من القصابين والخبازين والبياعين على اختلافهم ونحىوا هناك وأرسل الاشرف الامير قانصوه العادلي الذي كان كاشف الشرقية ليستكشف خبر مجيء السلطان سليم بجيوشه الى قطيا فعاد في يوم الاحد خامس عشر الشهر ومعه رأسا شخصين من عساكر السلطان سليم ورجل من أبناء حلب كان في خدمة الامير خير بك واليها الذي انضم الى عسكر السلطان سليم وكان هو سبب هزيمة المصريين وموت السلطان كما تقدم بيان ذلك في محله وكان قانصوه المذكور لما وصل الى الصاحبة وجد أن طائفة من عسكر السلطان سليم قد دخلتها وأخذت منها بعض المؤنة وعلائف الدواب الجمل فقبض على اثنين منهم واحتز رأسهما وقبض على ثالث وهو من اتباع خير بك وأتى بالرأسين والرجل الى الاشرف بالمصطبة فسأل السلطان ذلك الرجل عن أحوال عسكر السلطان سليم ووجدوا معه عدة رسائل من خير بك الى بعض الامراء المقدمين بمصر فألقوه في السجن مقيدا بالحديد وأخفوا عن الناس خبره وخبر تلك الرسائل وكان السلطان سليم كلما مر ببلد أو قرية أو قصبية في طريقه أحسن الى أهلها فيهرب منها بها من الشراكسة أو يخنق وينسكروا زال على هذا الحال حتى وصلوا بلبيس ومنها جاؤا الى العكرشة فلما علم الأشرف بوصولهم الى العكرشة هم بان يلقاهم بها ويقاثلهم على ما هم فيه من التعب والجوع فلم تمكنه الامراء من ذلك وقالوا لا نقاتلهم الآن وكانهم كانوا على

عهد مع السلطان سليم في ذلك فلما لم يقاتلوه وأفسحوا له في الاجل سار بعسكره من غير
ممانع حتى دخل الخانكاه فخرج أهلها على وجوههم الى القاهرة مولولين فرسم الى القاهرة
بغلق الابواب الكبرى فغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعريه وباب البحر وباب
القنطرة وغيرها من الابواب وأغلقت أسواق المدينة وتعطلت الطواحين فقل الدقيق والخبز
من الاسواق واشتد الجوع بالفقراء * ولما كان يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة قام
السلطان سليم بعسكره من بركة الحاج الى الجبل الاحمر فقام للقائه الأشرف وصمم على
القتال بغير مهل والتقى الفر يقان فافتتلا قتالا عنيفا فقتل من عسكر السلطان سليم عدة
وافرة وقتل سنان باشا أحد مدد جند السلطان سليم فحزن عليه السلطان حزنا عظيما
قال بعض الكتاب حتى انه قال وأي فائدة لي في مصر بعد يوسف يريد (سنان باشا
المذكور) واشتد السلطان سليم على عساكره وقسمهم الى قسمين وسير أحدهما من خلف
الجبل الاحمر وزحف بالثاني نحو الريدانية حيث معسكر السلطان طومان باي ثم انضم
القسمان وأعمال القتل برمي البنادق والمكاحل واشتد الرمي وتراسل على العساكر المصرية
فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى قتل أكثر الامراء المصريين وعدد عديد من العساكر
والاجناد فتمت هزيمة المصريين وفر من بقي منهم يريد النجاة ووقف الأشرف طومان باي
يقا تل الاعداء مقاتلة الاسود الضواري وحوله نفر من العبيد الرماة والمماليك السليمانية
ثم عمد بعد ذلك الى الفرار ففر الى طرا ودخلت العساكر العثمانية الى القاهرة فعاثوا وقتلوا
ونهبوا وحرقوا وخرّبوا جميع بيوت الامراء وأخذوا ما في الخواصل والاشوان ولبثوا على
هذا الحال اليوم كله فكان يوما عبوسا قطريا فقال في ذلك الشيخ بدر الدين الزيتوني

يبكى على مصر وسكانها * قد خربت أركانها العاصره

وأصبحت بالذل مقهورة * من بعد ما كانت هي القاهرة

وأصبح يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة اثنيتين وعشرين وتسعيه فدخل القاهرة
أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله ومعه بعض كبار الامراء من أصحاب السلطان سليم
وطائفة كثيرة من عسكره ودخل معه الامير خيربك والى حلب وقاضى القضاة الشافعية كمال
الدين الطويل والقاضى المسالكى محي الدين الدميري والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى
وكان دخول الخليفة المتوكل على الله من باب النصر فشق القاهرة وأمامه المناداة على الناس
بالامن والامان والبيع والشراء والتحذير من اخفاء أحد من المماليك الشراكسة
والدعاء للسلطان المنظر سليم خان فلما سمع الناس النداء ضجوا بالدعاء * قال بعض
كتاب الاخبار ومع ذلك لم تكن العساكر لتكف عن النهب وقتل النساء والاطفال
والقبض على كل من وجدوه من المماليك فكانوا اذا قبضوا على أحد منهم ساروا به الى
الريدانية حيث السلطان فيسبجونه بين يديه ويحتزون رأسه ويعلقونه حتى كثرت الرمم
وانتشرت من الريدانية الى سفح الجبل الاحمر الى مزارع المطرية ولبث الحال على ذلك ثلاثة

أيام كاملة والناس في هول ولا هول القيامة * وخطب في ذلك اليوم للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة وقد بالغ بعض الخطباء في خطبته فقال * وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين وكسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يمالك الدنيا والآخرة يارب العالمين قسر السلطان سليم بذلك سرورا عظيما

وأرسل السلطان جماعة من الانكشارية فقيدهم بحراسة الابواب ومنع العسكر من العبث ونهب البيوت فنعوهم وسكنت خواطر الناس قليلا وأرسل السلطان خلف المعز الناصري محمد ابن السلطان الغوري فلما حضر بين يديه خلع عليه وألبسه قفطانا مخملا مذهبا وألبسه عمامة عثمانية ورسم له بأن يسكن في مدرسة أبيه التي أنشأها في الشرايشيين وعين بعض الكشاف للاقاليم القبلية والبحرية وخلع على الزيني بركات بن موسى وجعله يتحدث على الحسبة ونزل السلطان سليم في يوم الاحد ثاني المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة من الريدانية الى بولاق ونصب خيامه بها من تحت الرصيف الى آخر الجزيرة الوسطى وقد أحضروا له مفاتيح قلعة الجبل فلم يلتفت اليها ولا أحلها محلا ثم دخل في ثاني يوم القاهرة من باب النصر وشق المدينة في موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والعساكر والاجناد وطوائف الغلمان وهو في هيبة وجلالة عظيمة ثم رجع الى بولاق وأقام بوطاقه يرتب الامور ويفرق المناصب بين قومه وقد ظن موت السلطان الملك الاشرف طومان باي مع من قتلوا في الواقعة وتزيت شمل من بقى من العساكر المصرية واطمان لذلك قلبه فلم يلتفت الا الى تنظيم الاحوال وترتيب الامور على ما تقتضيه مصلحة الرعية وكان من الامور بعد ذلك ما سيتلى عليك مفصلا في الجزء الثالث ان شاء الله تعالى

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث مبتدئا بمختصر تاريخ ملوك آل عثمان

قبل فتح مصر بالجيش العثمانية ثم ما جرى بعد دخول

السلطان سليم بجيوشه الى القاهرة الى ظهور

الحاج محمد علي باشا الكبير

ولا يتنه

(جدول)

فهرست خطأ وصواب الجزء الثاني من تاريخ الكافي

صواب	خطأ	سطر	صفحة
بيننا	نبناء	٣	١٠
واهل	وأهلها	٧	١٠
وورى	ووورى	١٨	٤٣
ولا تقتلوا طفلا	ولا تقتلوا ط فلا	٢٣	٤٤
وما فرغوا	وما فرغوا	٠١	٤٥
سكك	سمسك	٢٤	٥٠
رأيتها شئت	أيماشئت	١٩	٥١
باكيرون	باكيرون	٠٢	٥٢
خديج	خديج	٠٤	٥٣
بهما	بها	١٨	٨٣
جارت	جارت	٢٧	٨٥
الفرقد	الفرقد	٠٩	٨٧
نعلها	نعلها	٣٠	٩٢
ترجوني	ترجوني	٠١	٩٧
فقتل من أهل	فقتل أهل	٢٠	١٠٣
الابيات	الابيان	٢٥	١٠٧
هادم	هادم	٠٥	١١٤
فكتب	كتب	١٩	١١٤
الجوثة	الجوثة	١١	١٣٣
حجر الايرض	حجر الايرض	٢٣	١٣٦
الناس	الناس	٢٨	١٣٧
ولا ذمة	ولازمه	٠٦	١٥٣
خديج	خديج	٠٣	١٦٢
بالغم	بالغم	٥١	١٦٦
فصير	فسير	٢٦	١٦٨
ضمة من سيوفهم	ضمة سيوفهم	٢٢	١٧٣

(تابع الخطا والصواب)

صواب	خطا	سطر	صحيحة
مديحة	مديحة	١٣	١٨٠
فقليل	فقليل	٣٠	١٨٥
المعتصم	المعتصم	٣١	١٨٧
يعينه	يعينه	٢٥	١٩٧
فبينما	فبينما	٢٩	١٩٩
فاعلمه	فاعلمهم	١١	٢٠٣
وهو ما يؤخذ	وهو يؤخذ	٢٠	٢١٤
ليري	لدى	١١	٢٢٣
المتجانين	المتجانين	٢٥	٢٢٥
عليها	عليه	١٤	٢٣٠
أو أثر	أوثر	١٥	٢٣٢
كان	كانت	٢٢	٢٣٢
الدخان	الدخان	٠١	٢٣٥
ونازولك	ونوزك	٠٣	٢٥١
توزون	لوزون	١٢	٢٧١
بطفون	بطفون	١٦	٢٧٦
المتابر	المتابر	٠٢	٢٧٧
هرب	هوبت	٢٦	٢٨٣
دانت	وامت	١٣	٣٢٩
المستنصر	الستنصر	١٥	٣٣٥
هذه	هؤلاء	١٨	٣٣٥
حارسا	حاسراء	٠٩	٣٣٦
ومازالا	ومازالوا	٢٦	٣٥٠
أو أخرجه	أو أخرجهم	٢٧	٣٦٣
ممله	منله	٥	٣٦٧
الرمزد	الذمرة	١٥	٣٦٩

تابع الخطا والصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
وعز الدين	عز الدين	٩	٣٨٤
حفر	حفر	٣٠	٣٨٦
من	في	١٧	٣٩٤
بيعة القيامة	بيعة قامة	٢٥	٤٠٥
بهما	بها	١٠	٤٠٣
مربع	مربع	٠٣	٤١٣
الشروط	الشروط	٢٦	٤٤٦
وعزت	وانقطعت	٢٧	٤٤٨
محل	حينها	١٤	٤٥٥
والامير	الامير	٥٥	٤٦٤
وناوى	وناوى	١٣	٤٧٨
الامور	الاموز	٣١	٤٧٨
أتموا	أتموا	١٩	٤٨٣
السلطان	لسلطان	٣٤	٤٨٩
وتولية	وتوليته	١٢	٤٩٦
الاهراء	الاهراء	١٥	٥٠٥
والناصر	وللناصر	١٦	٥٠٩
كشر	أكشر	٠٩	٥١١
ادواب	الدواب	٢٤	٥٢٣

﴿ تم التصويب والخطأ ﴾

مركز الوثائق والبحوث



30018000012291

المكتبة

